خالد محمد خالد

خلفاء الرسول

دار المقطم للنشر والتوزيع
القاهرة

صدر هذا الكتاب فى مجلد واحد لأول مرة

فى القاهرة

سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م

الطبعة الأولى ملونة

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين

القاهرة

ت: ٧٩٥٨٢١٥ - فاكس: ٧٩٤٦١٠٩

e-mail: elmokatam@hotmail. com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ ﴾

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

صدق الله العظيم

ما عَرَضتُ الإسْلام عَلَى أحَد ، إلا كَانَت لَه كَبْوَة عَدَا أبي بَكْر ؛ فَإنه لَمْ يَتلَعْثَم .. !!

* * *

إنَ اللَّهَ جَعَل الحقّ على لِسَان عُمَر وَقلبِه لَمْ أرَ عَبْقَريًّا يَفْري فَرِيَّه .. !!

* * *

اللهُمّ ارْضَ عَن عُثْمَان ، فإني عَنْه راض

* * *

مَنْ كُنْتُ مَولاه ؛ فَعَليٌّ مَوْلاه ...

« رسُول الله »

عَلَيهِ أفضَل الصَلاة وَأزكى السَلام

* * *

.. ثمَّ بُويعَ عُمَر بْن عَبْد العَزيز فقعَدَ للِنّاسِ عَلَى الأرض .. !!

« المؤرّخون »

تقديم

هذا المجلد يُنظم خمسة كتب من مؤلفاتي هي :

١- "وجاء أبو بكر" وقد صدرت أولى طبعاته عام ١٩٦٢
٢- "بين يدَيْ عمر" وقد صدرت أولى طبعاته عام ١٩٦١
٣- "وداعاً .. عثمان" وقد صدرت أولى طبعاته عام ١٩٦٧
٤- "في رحاب علي" وقد صدرت أولى طبعاته عام ١٩٦٦
٥- معجزة الإسلام،،
"عمر بن عبد العزيز" وقد صدرت أولى طبعاته عام ١٩٦٩

وفى هذه الطبعة الخاصة تقدم الأسفار الخمسة في مجلد متكامل واحد ، باعتبارها تمثل موضوعاً تاريخياً واحداً يتناول بالسيرة والتحليل خلفاء الرسول الأربعة ـ أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلياً .. ثم ذلك الرجل الباهر "عمر بن عبد العزيز" الذي حمل بحقٍ وبجدارة لقب "خامس الخلفاء" و"خامس الراشدين" .

وحينما كنت أقوم بتصنيف هذه الكتب وتقديمها للقراء ، لم أكن أفعل ذلك وَفْقَ الترتيب التاريخي لظهور أبطالنا العظماء .. فمثلاً ـ كان كتاب "بين يَدَيْ عمر" أسبق في الظهور من كتاب : "وداعاً : عثمان" .

والآن ، وهذه المؤلفات تأخذ مكانها في هذا المجلد الواحد ، فقد صار من الأمثل وضعها وَفْقَ الترتيب التاريخي : أبو بكر ، فعمر ، فعثمان ، فعليّ ، فعمر بن عبد العزيز .. رضي الله عنهم وأرضاهم ..

وتقبل بفضل منه هذه الصفحات في بيوتهم وذكراهم ..

خالد محمد خالد

وجاء أبو بكر

الإهداء

يا أبا بكر ..

يا خليفة رسول الله ..

إذا أَذِنْتَ لي في هذه الكلمات ، أكتبها عنك ،

فتقبَّل - يا ثانِيَ اثْنَيْنِ - إهْداءها ..

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

* ما الدور الذي اختار الله أبا بكر لأدائه .. ؟

* أبو بكر وعمر ، أيّ طراز من الحكام كانا .. ؟

كان مفروضاً أن يكون عنوان هذا الكتاب ، وموضوعه أيضاً ، "بين يَدَيْ أبي بكر" بعد أن فتح الله بكلمات سالفة ، ظهرت في كتاب "بين يَدَيْ عمر" .

بيد أني لم أكد أتهيّأ للكتابة ، وأمضي فيها بضع صفحات حتى تغيرت المشاهد التي كنت أعيش في بهرها وسَناها ، وملأ الأفقَ أمامي مشهدٌ واحد فريد ومجيد ، فنحّيْتُ الأوراق جانباً ، ورُحت أتملّى المشهد وأتأمّلهُ .

لقد بدأ المشهد هكذا :

الله الرحمنُ الرحيم ، يريد أن يبعث للناس على فَتْرَة من الرسُل رسولاً يردُّ الدين إلى جوهره ، وحقيقته ، ويُخرج الحياة الإنسانية من الظلمات إلى النور ، ومن التّيه إلى الرُّشْد ..

ولقد اختار الله رسوله ، وهو محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، ونزَل الوحي .. وبدأتْ رحلةُ القرآن مَسيرتَها المباركة .

هذا هو الموكب الجليل الذي وُكِلَتْ إليه مهمة تغيير البشرية ، وتجديد ضميرها .. !! محمد .. والوحْي .. والقرآن ..

ولكن ، بدَا لي كأنما الموكب واقف يترقّب ..

إنه ينتظر رجلاً له في الموكب مكان شاغر ، لن يتحرك الموكب حتى يجيء ..

وهذا الرجل ليس نبيًّا .. ومع هذا فهو الذي سيُتِمُّ دَوْرَ النبي ..

وفجأة ..

غرَّدت العصافير ..

وأهلّت البُشْرَى ..

وأقبل الرجل ..

وجاء أبو بكر .. !!

جاء الإنسان الذي سيقول للنبي دائماً ، وفي غير تَلَعْثُم أو تردُّد :

ـ صدقْت .. صَدَقْتَ ..

جاء الرجل الذي سيُزامل النبي في هجرته ؛ وهو يعلم علم اليقين أن قريشاً ستُجنّد لمطاردةِ النبي المُهاجر كل بَأسها ، وحِقدها ، وكَيْدها ..

جاء الرجل الذي سيردُّ المسلمين ـ جميع المسلمين ـ إلى صوابهم يوم ينْعَى الناعي إليهم رسولهم .

جاء الرجل الذي سيُشكِّل موقفه "يوم السَقيفة" عُمْراً جديداً يُكتب للإسلام ، ولوحْدة المسلمين ..

جاء الرجل الذي لولاه أيام الرِدَّةِ لَواجَهَ الإسلام مِحْنَةَ فنائه واختفائه ..

وبعبارة واحدة :

جاء الرجل الذي كان لا بد أن يجيء ليكُون مع الرسول ﷺ ، الأداةَ التي اصطفاها الله ليُغَيِّرَ بها العالَم ، ويُطهِّرَ الدنيا ، ويُقوِّمَ الحياة ..

هذا هو الدوْر الحقيقي لأبي بكر كما تَراءى لي .

وهذه الصفحات ، محاولة متواضعة . لتصوير هذا الدور الفريد ، والمجيد .. إن "أستاذ" البشرية في "فَنّ" الإيمان سَيُرينا من خلال حياته وثَباته كل عجيب وعظيم في فن الإيمان .. !!

* * *

وبعد ..

فأيُّ طراز من الحكام كان أبو بكر ، وكان عمر .. ؟

إني أريد في هذه المقدمة أن أجيب عن سؤال واجهَني في إلحاح إثر صدور كتابي: "بين يَدَيْ عمر" ..

لقد أرسل إليَّ بعض القراء الكرام يسألونني قائلين :

ـ كيف تُوَفِّق بين إيمانك الأكيد بالديمقراطية ، وإيمانك الأكيد بحاكم مثل "عمر بن الخطاب" الذي لا نستطيع ، برغم عَدله المُطلَق ، أن نقتنع بأنه كان صاحب حكم ديمقراطي .. ؟

وإذا أثير هذا السؤال عن عمر ، فلابد من أنه سيثار عن أبي بكر ؛ فالخليفتان في حكمهما كانا من طراز واحد ..

والإجابة عن هذا السؤال ، وتفنيد تلك الشُبْهة ، مِن البداهَة بحيث لا يحتاجان إلى إفاضة أو إسْهاب .

وعندي أن الذين يَروْن في "أبي بكر وعمر" "مُستَبدَّيْن عادِلَيْن إنما يجانبون الصواب .

أولاً : لأن أبا بكر وعمر لم يكونا مستبدين لحظةً من نَهار .

ثانياً : لأنه ليس في طول الدنيا ولا عَرْضها شيء اسمه "مستبد عادل" .

ولو الْتقتْ كل أضداد الحياة ومتناقضاتها فسيظل الاستبداد والعدل ضِدَّيْن لا يجتمعان ، ونَقِيضَيْن لا يلتقيان .. وإن أحدهما ليَختفي فَوْرَ ظهور الآخر ، لأن أبسط مظاهر

العدل ومَطالبه أن يأخُذ كلُّ ذي حقٍ حقَّه ، وإذا كان من حقِّ الناس ـ وهذا مُقرَّرٌ بداهة ـ أن يشاركوا في اختيار حياتهم وتقرير مصائرهم ؛ فإن ذلك يقتضي في اللحظة نفسها ، وللسَّبَب نفسه ـ اختفاء الاستبداد .

ولقد كان أبو بكر وعمر على بصيرة من هذا .. وعلى الرغم من أنهما ـ والأمة معهما ـ كانوا جميعاً خاضعين خضوعاً مطلقاً لِما أنزل الله من شريعة .. على الرُّغم من هذا ، فقد هَيَّأا للمسلمين كل فُرص المناقشة والاختيار ، حتى رأينا "مُواطِناً عاديًا" يأخذ بتلابيب "عمر" وهو في أوج سلطانه ، ويقول له : اتَّقِ الله يا عمر .. !!

وحتى رأينا هذا الخليفة نفسه يجمع المسلمين ويقوم بينهم خطيباً فيقول :

"أيها الناس ، ماذا تقولون لو مِلْتُ برأسي هكذا .. ؟

فيجيبه واحد منهم : إذَن نقول بالسيف هكذا ..

فيسأله أمير المؤمنين : إياي تَعني بقولك .. ؟

فيجيبه الرجل في إصرار : إياك أعني بقولي ..

فيجيبه عمر : يرحمك الله .. والحمد لله الذي جعل فيكم مَن يُقوِّم عِوَجِي" .. !!

أهذا حاكم يُوصَف بأنه "مستبد عادل" .. ؟!

ومن أين جاءت هذه الشبهة وهذا اللَّبس للسادة القراء الذين سألوني : كيف أوفق بين إيماني بالديمقراطية وإيماني بعمر .. ؟

لست أنكر أن لهذه الشبهة منطقَها .. ولكِنَّهُ مَنطق شكَّلَ نفسه في غياب كثير من أجزاء الحقيقة ونُورِها ..

فلقد يبدو لنا أن "أبا بكر وعمر" ، لم يكونا حاكمين ديمقراطيين ، لأنه لم يكن إلى جوارهما تلك المؤسسات الديمقراطية الحديثة ـ البرلمان والدستور ، والمعارضة المنظمة ، والصحافة الحرة ..

ووَضْع المسألة على هذا النحو ، يُشكل خَطَأً كبيراً .

وإنما يستقيم الفهم في أيدينا إذا نحن أجبْنا عن هذا السؤال :

ـ هل كان غياب هذه المؤسسات الديمقراطية عن مجتمع المسلمين يومئذٍ راجعاً إلى كُفْران الخليفتين العظيمين بهذه المؤسسات .. ؟

والجواب الذي تمليه طبيعة حكمهما وسلوكهما في الحكم هو : لا ..

وإن غِياب هذه المؤسسات لا يعني أكثر من أنه تعبير عن العصر وعن البيئة ، وعن الحياة في جزيرة العرب منذ ألف وأربعمائة عام .

ولستُ أرى فارقاً بين من يسأل مثلاً :

ـ لماذا لم يكن في عهد أبي بكر وعمر صحافة حرة ..؟

ومَن يَسأل :

ـ لماذا لم يكن لأبي بكر وعمر سفارة في لندن .. ؟!

إن المرحلة التاريخية التي كانت يومئذٍ، هي التي تجيب بَداهةً عن هذين السؤالين . على أن أبا بكر وعمر، حين لم تسعفهما طبيعة الزمان والمكان في أيامهما بهذه الأشكال المنظمة للديمقراطية ، إنما حققا على أوسع مَدًى ، الجوهَر الحيَّ للديمقراطية من خلال الأشكال والتنظيمات التي تُلائم تطورَهم في ذلك العهد البعيد .

فإذا كان تطوُر مجتمعهم يوم ذاك ، لم يهيِّئ قيام معارضة لها كيان منظم مَهيب ، فإن المعارضة نفسها كانت تُمارَس بأسلوب فعَّال ، وعَميم ..

وإذا كان التطور يوم ذاك ، لم يهيِّئ لهم قيام "برلمان" يراقب الحكومة ويضع القوانين : فإن الشُورَى يومئذٍ كانت شَعيرة من شعائر الله ، وكانت حقاً مقدساً للجماعة كلها ..

وإذا كان التطور يوم ذاك ، لم يهيِّئ لهم قيام صحافة حرَّة ، فإن الكلمة المخلصة الشجاعة كانت على كل لِسَانٍ ، يصغي الخليفة إليها ، ويُثيبُ عليها .

ولو أن "أبا بكر وعمر" ، يحكمان في عصرنا هذا ، لأعطيَا التجربة الإنسانية في التنظيم الديمقراطي الرشيد كل احترامهما ، ولانتفعا بها إلى أبعد مدًى ، ولأَخذا من أشكالها الحديثة كل ما يُحقق جوهَرها ويُعبِّر عن خَصائصها ..

ولست أريد أن أتجنَّى على الحق ، فأقول : إن ذلك كان سَيَتِمُّ بصورة مطلقة .

لا .. وإنما كان سيتمُّ داخل إيمانهما المطلق بالدين الذي آمنوا به .. ووَفْق الطريقة التي تَشكَّلَ بها هذا الإيمان ..

ولكن ، حتى مع وجود هذا التحفظ ، فإن ذلك لا يَنْقُض شيئاً من حقيقة أنهما حاكمان ديمقراطيان .

ذلك أن أي حاكم ديمقراطي ، إنما يعمل داخل حدود الدستور القائم في دولته .. وأبو بكر وعمر كانا يعملان داخل حدود الدستور القائم في مجتمعهما .

لقد كان للقرآن في مجتمعهم ، مِثْلُ ما للدستور في أيِّ أمة ودولة ، بل إن ولاءهم للقرآن كان يفوق ولاء أيِّ أمة لدستورها .. !!

ولقد تضمَّن القرآن الكريم مزيَّتين من أعظم مزايا الديمقراطية :

أولاهما: أنه جعل الشورى واجباً حتى على النبي الذي يُوحَى إليه ، فقال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ .. وقرَنَها بالصلاة حين نعَتَ المؤمنين بأنهم الذين : ﴿ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثانيتهما: أنه لم يُلزم بطاعة أحكامه واعْتناق مبادئه إلا مَن يُقرُّه ، ويَختاره ، ويؤمن به ـ أي بلغة عصرنا الحديث : مَن يَقْترع عليه بالموافقة ـ أما الآخرون الذين لم يؤمنوا به ، فلهم أن يعيشوا وَفْق عقائدهم ، وتقاليدهم ، والأسلوب الذي يختارونه لحياتهم .. !!

صحيح أنه دستور لم يضعه الشعب .. ولكنه دستور رضيه الشعب وآمن به ، واستشهد في سبيله ..

فالمسلمون الذين آمنوا بالرسول ﷺ وساروا معه ، آمنوا بأن القرآن وحيٌ من عند الله ، وعليهم طاعته ..

ولقد حمل أبو بكر بعد الرسول ﷺ مسئولية القيادة في المجتمع وَفْق هذا الإيمان ..

ثم حمل عمر المسئولية بعد أبي بكر وَفْق هذا الإيمان أيضاً ..

وهكذا ، فإن المعيار الصحيح الذي يُوزن به حكمهما ، هو مَدَى احترامهما لهذا "الكِتاب" الذي آمن به الناس وارتضوه قانوناً لحياتهم .

* * *

وفي عصورنا الحديثة هذه ، لا تستقيم الحياة إلاَّ بأن يكون للأمم دساتير تَحكُم حياتها ..

دساتير تصوغها الأمة من عقائدها ، وتقاليدها ، واحتياجاتها ، وتُساير بها موكب التقدم الإنساني المتجدد دوماً .. والذي لا يقف ولا يتقهقر .

وتستطيع الأمة ـ أيُّ أمَّة ـ أن تُضَمِّن دستورها كل ما أراده الله للناس من خير وصلاح ، وكل ما دعا إليه الدين من تقوى وحقّ .

وفي رأيي ، لو أن "أبا بكر وعمر" ، يحكُمان الناس اليوم وَفْق دُستور رشيد وضعه الناس أنفسُهم لأنفسِهم ، ما نقص ولاؤهم لهذا الدستور مِثقال ذرَّة ، عن ولائهم للقرآن الكريم الذي كان يَحكمان وَفْق هُداه ..

ذلك ، أنهما من الطراز البشري الرفيع الذي يَشِيعُ في جوهره إلى جانبِ الإيمان بالله ، الإيمانُ بالإنسان ..

خالد محمد خالد

لَيَبْلُغَنَّ الكِتابُ أَجَلَه ..

مكة ..

البلد الحرام الذي تتوسطه الكعبة ، موطن القداسات منذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .. تمضي الحياة فيها لافحةً مثل مُناخها .. راسخة مثل جبالها .. حالمةً مثل سمائها.

وأهلُها عاكفون على عقائدَ وتقاليدَ تسمو أحياناً حتى تبلغ أوْجاً بعيداً .. وتُسِفُ أحياناً حتى تبعث على السخرية والرثاء .. !!

وحول الكعبة أصنام مَبْثوثة ، تطفَّلت في غفلة الزمن على هذا الحرم الأقدس الذي ظلَّ قُروناً ولَبِث أحقاباً يمثل راية الله المرفوعة في الأرض ، تنادي أهل الحنيفية والتوحيد..

هي كذلك ، ظلت دهراً طويلاً حتى جُلِبَتْ إليها الأصنام ذات يوم ، وازدحمت حولها مع الأيام . حيث صارت مَهْوَى أفئدة قريش وما حولها . يعبدها الناس ويتَّقونها، ويتملَّقونها ؛ لتقرِّبهم إلى الله زُلْفَى .. !!

فهنا اللات ، والعُزَّى ، ومَنَاة ..

وهناك ، أُساف ، ونائلة ، وهُبَل ..

وعشرات سِواهُن من الأوثان والأصنام ..

وإن مواكب العابدين لتسعَى ليل نهار إلى تلك الآلهة المجلوبة ، والمنحوتة .. الآلهة التي لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تغني عن أحد شيئاً .. !!

لكل قبيلة إلهُها وصَنَمُها .

وكل طفل يُولد ، لا يلبث حين يدرك الحَبْوَ ، حتى يُقادَ إلى ربه ليعرفه ، وليسعى إليه فيما بَعْدُ ويَبثه أمَله ونَجْواه .. !!

وتاهت العقول في زحمة الخُرافة .. !!

وكان أمراً عجباً .. !!

* فذَوُو الأحلام الرشيدة الذين أنْشئوا "حِلْف الفضول" حيث يقفون جبهة واحدة مع المظلوم ضد الظالم .. !!

* والذين استنُّوا للسلام منهجاً فَذا ، وابْتَكروا له سُنَّة باهرة ، فأسَّسوا نظام "الأشهر الحرُم" ، تَقَرُّ السيوف خلالها في أغمادها ، وتنام الأحقاد والثاراتُ نوماً عميقاً ، ويَلقى الرجل فيها قاتل أبيه أو أخيه وقد أمكنته الظروف منه ، فلا يَحصبه بحصاة ، ولا يقربُه بسوء ..!!

* والذين وضعوا للسؤدد الاجتماعي نظاماً رفيعاً ، فلا يُسمح لأحد أن يسود في قومه إلا إذا تفوَّق في هذه الخصال الست :

السخاء .. النجدة .. الشجاعة .. الحلم .. التواضع .. البيان ..

وكانوا يقولون : "موت ألف من العِلْية ، خير من ارتقاء واحد من السُّفْلة" .. !!

* والذين كان لهم سوق عُكاظ ، يُيَمِّمُونَ وجوههم شَطره من كل مكان ليلتقوا فيه بأشهى ثمار النبوغ الإنساني ممثلاً في شعر شعرائهم ، وبيان خطبائهم .. !!

ـ هؤلاء المُحلِّقون عالياً ، تَرِينُ على أفئدتهم هذه الغفلة العجيبة ، فَيَخِرُّونَ ساجدين أمام أصنام نَحتوها من حجارة أو عجنوها من صَلصال .. !!

مفارقات مُحيِّرة .. ولكن ليسوا في هذا وحدهم ..

"أثينا" .. وفي أزهى عصورها .. عصر الفلسفة والفلاسفة .. وعصر سقراط وباركليز ، كان أهل أثينا يعبدون "آلهة الأولمب" .. أصناماً كأصنام مكَّة ، بل إن أهل مكة كانوا ينظرون إلى أصنامهم نظرة إكبار وتنزيه .

أما أهل أثينا فكانوا يعبدون آلهة خلَعوا على بعضها أسوأ الصفات .. !!

* * *

ومع عبادة الأصنام التي سادت مكة ، كان هناك صنوف أخرى من العبادة تزخَر بها أنحاء الجزيرة العربية .

فكان هناك من يعبدون الشمس ، مما جعل الرسول عليه السلام حين بُعث وفُرضت عليه الصلاة ، ينهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغروب ، حتى لا يكون ذلك مُحاكاة ـ ولو غير مقصودة ـ للذين يعبدونها ، ويخرّون لها ساجدين لحظة الشروق ولحظة الغروب ..

وكان ثَمَّةَ من يعبدون الملائكة .. هؤلاء الذين ناقشهم القرآن فيما بعد فقال :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ .

وكان هناك مَنْ يعبدون الجن .. هؤلاء الذين سينعتهم القرآن بقوله : ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

وكان منهم عَبَدَة الكواكب .. الذين سيؤنبهم القرآن بقوله: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ .

وكان هناك الدُّهريون الذين روى القرآن فيما بعد قولهم :

﴿ مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ ﴾ .

ملائكة .. وجن .. وكواكب .. وأصنام .. ؟؟

أين مِلَّة إبراهيم وَسْط هذا الزحام .. ؟؟

إنه منذ القرون الأولى ، هاجَر إلى هذا البلد المنيع الآمن إنسان مُتبَتِّل ، غادرَ قومه الكِلْدانيين ، وترك وطنه وأهله في بابل ، وجاء مكة حاملا كلمة الله .

وهنا في مكة حَطَّ رحالَه ، ورفع رايته ، وهتف بالتوحيد وقال قولته الباقية : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ..

وتَرَكَهَا باقية في عَقِبه ، مُدوِّية في أفق الجزيرة الواسعة . فماذا دهَى الناس .. ؟

وهل ضاعت الحنيفية المؤمنة الموحِّدة ، وسط الوثنية الطارئة ، والشِّرك الزاحف ..؟!

وهل أقْحَل هذا البلد الأمين ممن يُجدد للناس دينهم الأوَّل .. مِمَّن يرفع صوته مُذكِّراً بالحقيقة الدارسة .. ؟؟

كلاَّ ..

ولقد كان هناك عَبْر السنين والأجيال هُداة يبزغون بين الحين والحين ، يُلَوِّحُون براية إبراهيم عليه السلام ، ويرفعون أصواتهم داحِضين الشرك والزيغ ..

كانوا كثيرين ـ منهم مَنْ نعرف ، ومنهم مَنْ لا نعرف ..

منهم مَنْ سبق الرسول ﷺ بمئات السنين ، ومنهم مَنْ كان إرهاصاً بين يَدَيْ فَجره الطالع القريب ..

مِن الأوَّلين ، سُويد بن عامر المصْطلقي ـ جَهَرَ بعقيدة البعث ويوم الجزاء ..

وعامر بن الظَّرب العدواني الذي كان يقول لقومه :

"إني ما رأيت شيئاً قط خلقَ نفسه .. ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً .. ولا جائياً إلا ذاهباً .. ولو كان الذي يميت الناسَ الداء ، لكان الذي يحييهم الدواء" ..؟!!

وكان هناك المتلمِّس بن أمية الكِناني.. كان يتوسط قومه عند الكعبة ويَصدع فيهم بقوله:

"أطيعوني تَرْشُدوا ، لقد اتخذتم آلهة شتَّى ، وإن الله ربكم وربُّ ما تعبدون" .

وكان هناك زهير بن أبي سلمى .. يُمسك أوراق الشجيرات التي اهتزت خضراء بعد أن كانت يابسة هامدة ويقول :

"لولا أن يَسبُني العرب لآمنتُ أن الذي أحياكِ بعد جفاف ، سَيُحيي العظام وهي رَمِيم" .. وهو القائل :

فلا تكتُمُنَّ الله ما في نفوسكم ليخفى ؛ فمهما يُكْتم الله يعلم

* * *

كان ثَمَّةَ هؤلاء ، ومِثْلهم معهم ..

ولكن لم يكن معهم سوى هذا الحنين إلى الحق ، وهذا الاستشراف الحدْسِيّ لغايات لم يَبلغوها ..

لم يُرزق أحدهم المنهج الكامل الذي يمكن أن يدعُوَ الناس إليه .

وكانوا يَبزغون ، الواحد تلو الآخر عَبْر السنين الطِّوال .

أما الآخرون الذين ظهروا قبيل بعثة الرسول ﷺ ، فعلى الرغم من أنهم كانوا مثل سَلفهم بغير منهج واضح مفصَّل ، فإن رُؤياهم عن الحقيقة الروحية التي شَغلتهم كانت أكثر بياناً وإسفاراً ..

من هؤلاء : أبو قيس بن أنس ـ اعتزل قريشاً وأصنامها ، واتخذ له في بيته مسجداً لا يدخله طامِثٌ ولا جُنب ، وقال أعبدُ ربَّ إبراهيم ..

وقد عاش حتى بُعث النبي فأَسلم معه ..
وكان هناك ثلاثة تركزت فيهم كل قوى الإرهاص بالدين المقبل ، هم :
قسّ بن ساعدة الإيادي ..
وزيد بن عمرو بن نُفَيل ..
وَوَرَقَة بن نَوفل ..
انعقدت أواصرُ قلوبهم على دين إبراهيم !!
وانسابتْ من أفئدتهم الضارعة : كلماتُ التوحيد كأنسام الربيع وَسْطَ الهجير الوثني المتسعِّر .. !!
كانوا يغنون للنبي القادم ..
كانوا يبشرون بالفجر الطالع ..
كانوا يؤذنون بالدين المقبل الذي سيعيد راية الله إلى مكانها ، ويُسوّي بالأصنام التراب .. !!
وإلى هؤلاء جلس أبو بكر طويلاً ..
ولِكلماتهم الرطبة المؤمنة ألْقى سَمْعَه ..
وبغنائهم العذْب ثَمِل ..
وعلى حُدَائِهم سار ..
وفي ضياء حكمتهم الوُثْقى ، وهُداهم المكين ، أبصرت روُحُه الطاهرة موكبَ النبوّة القادم ، فجلس ينتظر ، ويُعِدّ نفسه لأيَام الهُدى واليقين .. !!
ولْنَبدأ سيرنا في صحبة الرجل العظيم من ذلك الحين ..

* * *

هذا الرجل الذي يَشغل بين قومه مكانة مرموقة أهّلَتْه لها كِفايته وحسبه ، يحمل في ذات نفسه شكا مُضيئاً .. شكا يُربّي في قلبه يوماً فيوماً العزوفَ عن وثنية قومه وضلالهم .
وإنه ليَمُرُّ بالناس مُتحلقين حول أصنامهم ، وجَاثِينَ أمامها فتكْسُو وجهَه سحابةُ أسفٍ مرير ، ويسأل نفسه :
أيمكن أن يكون هذا صَواباً وهُدًى .. ؟؟
أناس ينظرون ، ويسمعون ، ويعقلون .. يخرّون سُجّداً أمام حجارة مرصوصة لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تبين . ؟ !!
ثم يردّد قول زيد بن عمرو بن نُفَيل :

أَرَبّـــا واحــداً أم ألــف رب ... أدِيـــنُ إذا تقسّــمت الأمــور ؟

ويطول التَساؤل ، وتزدحم النفس بالقلق ، ويبرُح طول الانتظار بالرجل المنيب الأوّاب ، الذي ينزع إلى معرفة الحق نزوعاً حثيث الخُطى مضطرماً بالرغبة في التغيير ، والشوق إلى كلمة الله التي سيَفصل مجيئها فيما اختلف الناس فيه .

ويَحمله حنينه ، وتقوده أشواقه إلى الذين عندهم عِلْمٌ من الكِتاب .. الذين يعيشون في ذِكريات العقيدة الدَّارِسَة التي صَدَح بها هنا ذات يوم بَعيدٍ خليل الله إبراهيم .. الذين شَغلهم المصير الإنساني ، فرفعوا أصواتهم بعقيدة البعث والجزاء .. والذين طهروا قلوبهم تطهيرا من كل ولاء لصَنَم وآمنوا بربِّ إبراهيم .

هؤلاء الذين يُقلِّبون وجوههم في السماء ، وتخرج الكلمات من أفواههم كالأحلام السعيدة .

أيُّ حديث يَبْهَرُ "أبا بكر" ويستهوي لُبَّه خير من حديث هؤلاء .. ؟!

إن كلماتهم حين يَلْقفُها سمعه ، لَتَرِنُّ في رَوعه رنين الصدق .

وإنه لَيَتَتَبَّعُهَا كما يتتبَّع الطير الظامئ مواقع القطر والنَّدَى .

وهكذا كان يَسْتَرْوِحُ دوماً كلما أسعفه وقته بالجلوس إلى هذا النَّفَر الصَّالح ..

قُسَّ بن ساعدة ـ زيد بن عمرو ـ ورَقة بن نوفل .. لم تكن قريش قد شَطَّت في عداوة هؤلاء واضطهادهم .

لأنهم ـ أولاً : كانوا عاكفين على أنفسهم ، لا يحملون دعوة منظمة ولا ديناً جديداً يُهدد دين قريش وتقاليدها .

ولأنهم ـ ثانياً : كانوا في مُرتفعات أعمارهم ، فقد أوشكت حياة كل منهم على الغروب ..

لكنَّ إعجاب رجل كأبي بكر ـ مجرَّد الإعجاب ـ بهؤلاء وبأفكارهم ، يُعرِّضُه لاستنكار قريش لا محالة .

فهو في ربيع العمر المرتَجَى ..

وهو سيِّدٌ في قومه الذين أولَوْه عملاً من أهمِّ أعمالهم وأجلِّها .. فهو يومئذٍ "حامل الدِّيات" ..

ويفكر أبو بكر في هذا ..

يفكر فيما يمكن أن يلحق به من ضُرٍّ ، إذا هو خرج عن الصفوف المزدحمة ، وعَلِمَ الناس منه حفَاوته بأفكار قُس ، وورقة ، وزيد ..

إن قُسًّا ، وورقة ، وزيداً ، قد وضعوا عن كواهلهم كل علاقاتهم بالجماعة ، فلا يَخشَوْن بأساً ، ومع هذا فإن قريشاً ، وإن لَمْ تُناصِبْهم العداء ، لتَعمل جاهدة على كَبْح جماحهم ، وكلما ارتفع صوت زيد بن عمرو ـ وكان أعلى الثلاثة صوتاً ـ أغْرَوْا به قريبه الخطَّاب بن نفيل ، فأغلق عليه داره وحال بينه وبين الناس .. !!

فكيف بأبي بكر ، وعلاقاته بالجماعة مشحوذة ونامية ، وهو في قومه مِلْءُ كل عين وكل أُذن .. ؟!

أَتأذَنُ له قريش ولو في مجرَّد انطوائه على أحلامه الجديدة ، ورُؤياه الصَّامتة .. ؟؟

وقبل أن يطول التردُّد بأبي بكر ، تلتمع خواطره ، فيرى القدوة والمثَل ... محمد بن عبد الله ﷺ .. !!

إنه في ربيع العمر والحياة ، وإنه حَسِيبٌ نَسِيب ، وإنه في قومه كألمع دُرّة في التاج ..

ومع هذا ، فهو ـ في هدوء ـ قد عَزَف عن الأصنام ، وإنه ليقضي أيامه بعيداً عن معابِث الناس وعاداتهم . لا يكاد يلقى أحداً ولا يَدعُ أحداً يختلس منه وقته ، وأحلامَه ، وسكينةَ نفسه .. يتعبَّد اليوم بالتأمُّل ، حتى تأتيه عن الحقّ بيّنة ...

ويطمئن أبو بكر ..

إنه يستطيع أن يسلك الطريق نفسه دون أن تكون لقريش عليه ثورة أو مَوجِدَة .. مثل "محمد" تماماً ..

إنه لا يذكر الأصنام بسوءٍ بعد .. ولكنه أيضاً لا يذكرها بخير ..

لا يعبدها مع العابدين ، ولا يسجد لها مع الساجدين، ولا يتقرب إليها ، ولا يحس بوجودها ..

لقد جرَّد من نفسه أمَّةً وحده، ومضى يبحث عن الحقّ، وهذا أعظم غرض تُناط به حياة إنسان .

وسرى في أوصال نفسه بَرْدُ اليقين .

فأبو بكر ، وإنْ يكن تجمعه ومحمداً سِنٌ واحدة ؛ فإنه يرى فيه مثلاً أعلى وقدوة تدعو إلى الثقة ..

ولقد كان هذا حريصاً على صحبته ، حَفِيًا بزمالته ، حتى لقد كان كما وصفته أم سلمة : "خِدْناً لمحمد ﷺ وصفِيًا له" ..

تذكَّر أبو بكر حال صديقه وصفيِّه ، فتبدَّدت مَحَاذِرُه من قريش ، وقرر أن يستجيب لحنينه ، ويمضي مع أشواقه إلى الحقّ والمعرفة .

لكنّ نهجه سيختلف عن نهج صفيِّه "محمد" ﷺ ..

تماماً ، كما ستختلف النتيجة بالنسبة لكليهما ؛ فبينما يبحث "أبو بكر" عن الحقيقة ، إذا "محمد" يَجِدُها .. !!

إن منهج "محمد" هو التأمل ، والإصغاء إلى الهمس الآتي من داخل الحقيقة ذاتها .

أما "أبو بكر" فمنهجه التفكُّر ، والإصغاء إلى حكمة الحُكماء ، ومنطق العابدين المبصرين ..

وهو طوال عمره مُولَع بحفظ روائع الثقافة العربية من شِعر ونَثْر ..

ومن محفوظاته الثَّرَة الغنيَّة يُمِدُّ عقله بأسباب التفكير .

وهكذا بينما يعكُف "محمد" ﷺ على تأملاته ، ويتلمَّس الحقَّ من طريق حَدْسه وتجربته ورؤاه ..

إذا أبو بكر يُسلِم قلبه وعقله للحكمة التي يَبرق سَناها في كلمات هذا النفر الصالح ذوي التجربة السديدة المديدة : قُسّ ، وورقة ، وزيد .

ولا يترك فرصة تمكِّنه من التلقي عنهم والإصغاء إليهم إلا اهتبلَها وفازَ بها ..

وإنه لَيحفظ أقوالهم حفظاً راسخاً ، ويعيش في رُؤاهم عيشة تُساعدُه عليها فِطرته العُظمى التي تريد أن تعرف الحقَّ وتبلغه مهما يكن الثمن .. والتي رأت في هؤلاء بحكم سنِّهم ، وبحكم تجربتهم وحياتهم الطاهرة ، دليلاً قوياً إلى الحقيقة المرجوَّة ..

* * *

ذات يوم ، بعد أن تلقَّى "محمد" ﷺ رسالة ربه ، وآمن معه "أبو بكر" كان الرسول جالساً بين أصحابه يَستعيد ذكرى أيام شبابه فقال: "لستُ أنسى قسَّ بن ساعدة ، ممتطياً جَملاً أَوْرَقَ ، في سوق عُكاظ ، وهو يتحدث حديثاً ما أحسبني أحفظه" .

فقال أبو بكر : إني أحفظه يا رسول الله ، كنت حاضراً ذلك اليوم في سوق عكاظ .. ومن فوق جمله الأورق وقف قس يقول :

يا أيها الناس : اسمعوا ، وَعُوا ، وإذا وَعَيْتُم فانتفعوا ..

إن مَنْ عاش مات ، ومَن مات فات .. وكل ما هو آتٍ آت ..

"إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لَعِبَراً .

"مِهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تَمُور ، وبحار لن تغور ..

ليلٌ داجٍ ، ونهارٌ ساجٍ ، وسماءٌ ذات أبراج ..

يُقسم قسّ ، إن لله لَديناً هو أحبُّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه ..

"ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون .. أَرَضُوا بالمقام فأقاموا ..؟ أم تُركوا فناموا" ..؟!

ثم أنشد أبو بكر شعر قس بن ساعدة :

فـــي الـــذاهبين الأوَلـــينِ ... مـــن القـــرون لنـــا بصـــائر
لمَّـــا رأيـــت مـــوارداً ... للمـــوت لـــيس لهـــا مَصـــادر
ورأيـــتُ قـــومي نحوَهـــا ... يَســـعى الأكـــابر والأصـــاغر
أيقنـــت أنـــي لا مَحَـــ ... ـــالَةَ حيث صـار القـومُ صـائر

* * *

هكذا كان أبو بكر يحفظ لهذا النفر الصالح ويتلقى عنهم ..

وهكذا كانت روحه عاكفة على ما يبثونه من حِكمة ..

ولَكم كانت غِبطة نفسه، وحُبور روحه يتألقان أعظم الألَق حين يُبصر زيد بن عمرو ابن نفيل في جَلالِ مشيبه، مُسنداً ظهره إلى الكعبة ، منادياً الناس:

– "يا معشر قريش ، والذى نفسي بيده ، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري .."

"إني اتبعت مِلَّة إبراهيم وإسماعيل من بعده .. وإني لأنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل ، ما أراني أدركه" .

ثم تقع عينه على عامر بن ربيعة فيناديه :

– يا عامر بن ربيعة ..

" .. إن طالت بك الحياة فأقرئه مني السلام " ..

كان "أبو بكر" يزداد طمأنينة وأَمْناً . كلما رأى "زيد بن عمرو" يشقُّ صفوف الناس المتحلقين حول الكعبة ويرفع عَقيرته في غير تهيُّب قائلاً :

"لَبَّيْكَ حقاً حقاً ..

تعبُّداً ورقاً ..

عُذْتُ بما عَاذَ به إبراهيم ..

وأسلَمتُ وجهي لمن أسلَمتْ	له الأرض تَحمل صَخراً ثِقالا
دَحاها، فلما رآها استوَتْ	على الماء أرسَى عليها الجبالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلَمتْ	له المُزْنُ تَحمِل عَذْباً زُلالا"

ويحدِّث أبو بكر نفسه :

هذا وربِّ إبراهيم هو الحقّ .. ولكن كيف ومتى نصبح منه على يقين .. ؟؟

ويوماً فيوماً ، كان وجدانه يمتلئ بِرُؤَى التبتُّل والنسك ويَشغَفه الحنين إلى دين إبراهيم .. ولكن أين الطريق . ؟ ..

إن الذين زكُّوا في روحه ووَعْيِهِ هذا الشوق هم أنفسهم لا يعرفون .

صحيح أنهم على يقين بأن قريشاً ليست في دينها على شيء من حقّ ، وأنها أخطأت دين إبراهيم .

ولكنْ ، ما المنهج الجديد الذي يعود إبراهيم من خلاله بدينه وحقيقته ..؟

إنهم لا يعرفون ..

وذَانِكَ صاحباه لا يعرفان .

أمّا ورقة ، فإنه عاكف على الأناجيل يتلوها ويَدرسُها ، عَساها تدلُّه على دين إبراهيم ..

وأما زيد ، فهائم مع أشواقه المؤمنة ، مُنطلق في بِطاح مكة تارة .. ولائِذٌ بالكعبة تارة أخرى .. ومُناجٍ ربه دوْما :

ـ "اللَهم لو أني أعلم أيَّ الوجوه أحبُّ إليكَ لعبدتُك به ، ولكني لا أعلمه".

إذن هو لا يعلم ، وإن كان قد أعلن الملأ من قريش أنه فارق دينهم ، واعتزل الأوثان والأنصاب ، ووأْدَ البنات ، وأجاب حين سُئِلَ عن ربه الذي يعبده :

"أعبد رَبَّ إبراهيم" ..

وتزداد الأشواق العارمة إلى الحقيقة ازدحاماً في رُوح "أبي بكر" ، فهو بفطرته لا تروي ظمأه أنصافُ الحلول ، لقد اتضحت له مَعالم الأزمة التي يعانيها الضمير الإنساني في قومه ..

وهو الآن يريد جميع الحَل ، وجميع الخلاص .. أجَلْ هذه هي الأزمة .. الانحراف عن دين إبراهيم إلى وثنية ضالة خاطئة ..

والمَخرج إذن ، هو دين إبراهيم ..

فمن يَدلنا عليه ..؟؟

إن أكداساً من الأساطير والرواسب قد طَمرتْ حقيقة هذا الدين فى زِحامها وتلالها..

وليس أدلّ على هذا ، من أن الذين يعبدون الأصنام هنا ـ في مكة ـ يزعمون أنهم أبناء إبراهيم ..

ويَهُود الشام ونَصاراه ، الذين كان يراهم في رحلاته التجارية يزعم كل منهم ـ على ما بينهم من تناقض ـ أنهم أبناء إبراهيم وورثته ..!!.

فمن يأتينا بالحق المُبين ..؟

مَن يُعيد إلينا إبراهيم، ويُعيدنا إليه ..؟؟

مَنْ يدلّنا على الشِّرعة والمنهاج اللذيْن نعبد بهما ربنا الحقّ ، وتقوم بهما حياتنا ..؟؟

وتتوالى الخاطراتُ الذكية على القلب الذكي ، ويردد أبو بكر قول أمية بن أبي الصَّلْت :

ألا نَبِيٌّ لنا منّا فَيخبرنا ... ما بعدَ غايتنا من رأس مجرانا

إني أعوذ بمن حَجَّ الحجيج له ... والرافعون لدين الله أركانا

إن اختلاف الناس فى دينهم يَقُضُّ تفكير أبي بكر .

وغياب الحقيقة ـ في حين أن الناس في أشد الحاجة إليها ، واللهفة عليها ـ أمر يَأْسَى له أبو بكر مُنتهى الأسى ..

وإنه لَيُجيل بصره بين قومه ويتساءل :

أليس فينا مَنْ يجمعنا على الحقّ بعد أن يدلّنا عليه .. ؟

وفجأة يومض في خاطره ذلك المشهد الباهر الذي رآه من قُرابة أعوام خمسة ...

حين أتمّت قريش تجديد الكعبة، هَمُّوا ليعيدوا الحجر الأسود إلى مكانه ، فاشتجرَ بينهم خلاف كاد يُغرق قريشاً كلها في الدم ، وكاد ينْشِب فيها حرباً أخرى كحرب الفِجار ..

وعاد المشهد كله يَزْحَم خواطر أبي بكر ..

فها هي ذي بطون قريش جميعاً، تتحول إلى شيَع مُتربّصة ، تُقسم كل شِيعة ليكونَ لها دون سواها شرف رفع الحجر المقدس إلى مكانه .

وإذْ يحتدم الخلاف ويبلغ ذُروته ، فإن أُمية بن المغيرة ـ أكبر قريش يومئذٍ سنًّا ـ يُشير على الناس أن يُحكّموا بينهم أول قادم .. ويرتضوا حكمه ، ويترقبون مَلِيًّا ، ويحتويهم صمت رهيب ، لا يُسمَعُ خلاله إلا صوت الدم في الأوردة والعروق .!!.

ويسترسل أبو بكر مع ذكرياته في حُبور ..

هاهم أولاء قابعون هناك ..

أشراف قريش ، والقبائل كلها ..

وقد سُمِّرتْ أبصارهم شَطر القادم الجديد .. أول مُقْبلٍ عليهم .. هذا الذي سيحسم مجيئه خلافهم ، ويَعصم دماءهم .

وفجأة يسمعون وقع خطوات ، كأنها نداء النجدة ..
وتضطرم الأنفاس ..
ويقترب القادم ..
يقترب المنقذ..
وإذا هو ـ "محمد الأمين" ..!!
ولا يكاد يبصرونه حتى يَصيحوا في غبطة :
هذا الأمين "محمد" ﷺ ، نِعم الحكَمُ هو ..
ويُتمتم أبو بكر ، والذكرياتُ تَبهر خاطره فيقول لنفسه :
أجل ، كان نِعْمَ الحكَم ، ونعم المَلاذُ .
فما كاد يسمع أسباب نزاعهم حتى قال لهم :
- هَلُمُّوا إليَّ ثوباً ..
فَجَاءُوهُ بثوب .. وضع الحجر في وسطه ثم نادى:
لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، فاستجابوا له حتى اقترب الحجَر من موضعه ، فأخذه محمد بيده فأرساه مكانه ..
وانتهت أسعدَ نهاية ، فتنةٌ كانت تنذر بشر وِبيل ..!!!
وعاد أبو بكر يسأل نفسه :
رجل يردُّ إلى قريش نُهاها ، فيحسم الخلاف مرة أخرى ، ويُبيِّن للناس ما اختلفوا فيه من الحقّ ..
رجل يردُّ إلى قريش نُهاها ، وتمضي معه إلى عافيتها وهُداها ..
رجل يعطيهم من السلام ، واليقين ، والعقل ، مثلما أعطاهم "محمد" ﷺ يوم كاد خلافهم حول الحجر الأسود يُفنيهم في معركة مجنونة ..!!
واستجاشَتِ الذكرى السعيدة كل الابتهالات ، والنبوءات التي طالما سمعها من قس ، وزيد ، وورقة بن نوفل .. والتي كان يحفظها للسابقين من أمثال أمية بن أبي الصلت ، وعامر بن الظرب ، والمتلمِّس بن أمية ..
واقترب مشهد فريد ، ظل يقترب ويَكبُر حتى ملأ الشاشة كلها ..
مشهد قُسِّ بن ساعدة ، وهو قائم بين الناس مُلوِّحاً بذراعه المبسوطة في الأفق كأنها راية ، ويقول : يُقسم قُسٌّ بربه لَيبلُغَنَّ الكتاب أجلَه ..
وودَّع أبو بكر موكب ذكرياته وهو يتمتم في يقين قائلاً :
- صدق ابن ساعدة ..
لَيبلُغَنَّ الكتاب أجلَه .. !!

■ ■ ■

إن كان قال ، فقد صدق ..

وتمضي الأيام طاوية أشواق الذين يؤمنون أو يُحسّون أنهم على موعد مع الغيب عظيم . ويصبر أبو بكر حتى يأتي الله بأمره .

ويُقبل على شأنه وتجارته ، وإذْ يَحين أوانُ رحلة جديدة إلى الشام ، يشدُّ رحاله مع صَحْب له من التجار ، وتيمِّم القافلة وجهها شطر البلاد البعيدة ساعية وراء الرزق والربح الحلال .

وفي الشام يجد أبو بكر "مُناخاً روحيًا" شبيهاً بمناخ قومه ..

أديان شتّى ، وناس تائهون ، وقِلّة مؤمنة تُقلِّب وجوهها في السماء راجية منها اليقين ، ومُرسلة أطرافها في آفاق الأرض ، وكأنها تريد أن ترى من أي أقطارها سَيُهِلُّ النذير المنتظر ..

وأبو بكر في الشام مِثله في مكة ، لا يكاد ينجز عمله مع أهل مهنته من التجار حتى يُبادر ويُسارع إلى نَفرٍ من الأحبار والرهبان ، تعرَّف إليهم خلال رحلاته ، وأَنِسَ منهم عُزوفهم عمًّا عليه الناس من باطل ووهم ، ورَضِي منهم بحثَهُم عن الحقّ ، وانتظارهم لِبُشْرى الله المقبلة .

فَمِن هؤلاء في الشام ، كان يسمع نفس اللّحن العذب المبشر بمقدم رسول الله ﷺ ، والذي سمعه بمكة من ورقة بن نوفل وإخوانه ..

لقد أخذ هذه المرة يتردد على هذا النفر الصالح من رهبان الشام أكثر من أيِّ مرة سالفة .

* * *

ولا بدّ من أن قلبه آنئذٍ كان يجيش أكثر من ذي قبل بمشاعر الحنين النامي إلى الفجر القريب .. إن أبا بكر لينتظرُ الرسول المقبل في لهفة غَلابة ، لا لأنه سيهتدي به وحده إلى الحقّ .. بل لأن الناس جميعاً سيهتدون به من ضَلالَة ، ويُفيقون به من غفلة .

أبو بكر الأوّاب ، المحبُّ الودود ، يود الحياة الصالحة لكل حَي .

وفؤاده الذكي ينطوي على رغبة غامرة في أن يُسدي إلى الناس الخير الذي يحتاجون إليه .. لا الخير الذي يملكه ..

وإنه إذ يملك المال والجاه ، فإنه ينفق منهما بغير حساب .

بَيْدَ أنَّ الناس لا يحتاجون إلى المال وحده ، ولا إلى الجاه معه .

إنّهم مع ذلك ، بل قبل ذلك ، يحتاجون إلى الهُدى والنور .

وهو لا يملك من الهُدى واليقين ما يقدِّمه للناس .. صحيح أنَّ معه مَكارمَ الأخلاق ، وأنه فيها وبها لَمَثَلٌ أعلى وقدوة سامقة .

لكنَّ الهدى الأعظم لا يزال ينقصه ، وينقُصُ الناس .

التعرُّف إلى الحقيقة .. إلى السرِّ الأكبر الذي يحيط بالحياة، ويُحرِّك الكون .. وبكلمة واحدة ـ الله ..!!

فأين إلى الله الطريق ..؟؟
وتزدهر خواطره وتتألق ..

إن في الأرض كثيرين يتملَّكُهم ذات الحنين إلى معرفة الله الحقّ .

في الشام ، وفي مكة ، وفي غيرهما من بلاد الله الواسعة .

كثيرون يؤرقهم الشوق إلى أن يعرفوا .

كثيرون تَهْوَى أفئدتهم مطالع الضوء ، منتظرين أن تُشرِق عليهم فجأة كلمة الله .

أوَ يتخلى الله عن عباده هؤلاء ..؟؟

أيتركهم حيارى تائهين وقد بسطوا إليه سبحانه رجاءهم ..!

أبداً ..

وإن الله لأَرحَمُ من أن يغيب عن الذين يبتهلون إليه ليعرفوه .

سيجيء الهُدَى إذن ، لا محَالة ..

وسَيطلعُ على الناس في فجر قريب، مَنْ يقول لهم ـ صادقاً ـ ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ﴾ ..

ولكن من أين يا تُرى يجيء..؟!

إن الذين عندهم عِلم من الكتاب، في الشام وفي مكة، لَيكادون يُجمعون على أنه سَيهلُ على الدنيا من هُناك .. من حيث رفع إبراهيم القواعد من البيت ..

من مكة .. وطن الكعبة العظيمة .!!

ولكنَّ مكة تموج بعبَدَةِ الأصنام .. بالعاكفين على الميْسر والأنصاب والأزْلام ، وكلْ رجس من عَمل الشيطان ..

أفلا يجد الله في أرْضِهِ الواسعة سوى هؤلاء ليختار من بينهم رسوله ..؟؟

ولكنْ أيَّ بأس في هذا .. ؟؟

وهل يدخل الأطباء إلا بيوتَ المرضَى .. ؟!!

وحيث تَقضي الوثنية الضَّارِيةُ على كل أمل في التوحيد ، ألا تكونُ الحكمة عظيمة في أن يَخرج من المكان نفسه مَنْ يرفع راية التوحيد .. ؟!

ثم إن في مكة قوماً على الرغم من وثنيتهم ، فإنهم يحملون تُراثاً أخْلاقِيًّا نادر المثال ..

* فمَنْ مثلهم يَحمي الذمار ، ويكرم الضيف ، وينصر المظلوم ، ويُعين على نوائب الدهر .. ؟؟

* مَن سِواهم من الأمم ، لهم أشهر حُرُم ، تتحول السيوف فيها إلى أغصان .. ؟؟

* مَن مثلهم يُوقدون النيران شاهقة عالية ، لتدلَّ الضيف وتُناديه ... ؟؟

* مَن مثلهم يقول السيد فيهم لعبده : « إن تجلبَنْ ضيفاً ، فأنت حُرٌّ » ... !

من أُوتِيَ من الحكمة ما أُوتوا .. ؟؟

هؤلاء الذين أنجبوا امرأ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني، وطَرفة بن العبد، وأمية بن أبي الصلت ، ولبيد بن ربيعة ، وكعب بن زهير ، وقس بن ساعدة ، وسَحبان وائل .. ؟؟

* * *

ويستطرد أبو بكر مع خواطره ..

وتتراءى له أبهى فضائل قومه ومزايا أمَّته ..

أهناك قوم وُهبوا من صدق الفِطرة ما وُهب العرب .. ؟؟
إنهم قومُ صِدق ، ولا مكان للزيف ولا للكذب في حياتهم وسلوكهم ..
صادقون في فضائلهم .. وصادقون في رذائلهم .. !!
إن حياتهم واضحة وُضوح الصحراء التي يقطنونها ، والسماء التي فوقهم ..
ومِن صدقهم هذا ، ووضوحهم ، جاءتهم الحكمة ، وقَدَروا على العِرافة ، وتعلّموا لُغة الأشياء الصامتة في الحياة .. !!
وتتوالى الخواطر الرشيدة في وعي نَسَّابة العرب وحافظ حكمتها ، ويمضي كأنه يحدث نفسه :
هذا هو قُسُّ بن ساعدة .. هذا ورقة بن نوفل .. هذا زيد بن عمرو بن نفيل . ومِن قبلهم عشرات وعشرات عَمَرتْ بهم الأجيال والسِنون - كلهم استنكفوا عن عبادة الأوثان ، وشَقُّوا عصا الطاعة عن دين قومهم وما يعبدون ، وهتفوا بدين إبراهيم ، وتطلّعوا إلى السماء ينتظرون كلمة الله ، وما منهم من أحدٍ إلا تمنّى أن يكون النّبيُّ المنتظر .. ومع هذا لم يَدَّعِ النبوّة منهم أحد .. !!
ولقد كان إيمانهم وطُهرهم وسلوكهم ..
وكانت ثقة الناس بهم مَدْعاة لتصديقهم لو ادَّعى أحدهم النبوّة وقال: إني رسول من عند الله .
كان الذين ينأوْنَ عن عبادة الأصنام سيسارعون إلى اتّبَاعِهِمْ ، فلماذا لم يدَّعِ النبوَة من هؤلاء أحد .. ؟!
لأنهم صادقون .. أجل .. إن أعظم مزايا قومنا ، الصدق والوضوح ..
وإن العربي ليستنكف أن يكذب على ناقته فيقول لها ، وقد هاجَها الظمأ الشديد :

أريـد أمنّيـكِ الشـراب لتهـدئي ولكـنَّ عـارَ الكـاذبين يَحُـولُ

أفيخجل العربي العادي أن يكذب على ناقته .. ثم يكذب على الله أولئك الحُنفاء المتطهرون .. ؟ !!
نحن إذن أهل صدق عظيم ..
وهل يكون النبي إلا صادقاً ..
فلماذا لا تكون هذه النبوءات حقا .. النبوءات التي تكاد تجمع على أن النبي القادم سَيُهِلُّ على الناس من جوار الكعبة ، بيت الله العظيم .. ؟؟

* * *

كانت الخواطر تغدو وتروح على هذا النحو في وُجدان أبي بكر وعقله . والآن ، وقد أنجز أعماله في الشام فإنه يتهيأ للعودة إلى وطنه وبلاده . وقبيل رحيله بأيام قليلة يرى رؤيا :
يرى القمر قد غادر مكانه في الأفق الأعلى ، ونزل على مكة ، حيث تجزأ إلى قطع وأجزاء تفرّقت على جميع منازل مكة ، وبيوتها . ثم تضامّت هذه الأجزاء مرة أخرى ، وعاد القمر إلى كِيانه الأول ، واستقر في حجر أبي بكر .. !!
صَحا من نومه ، وللرؤيا على وعيه سلطان مبين .

وسارَع إلى أحد الرهبان المتَّقين الذين ألِفَهم ، وعقد معهم من صلات الرُوح ما كانت تَقَرُّ بِهِ عينه .

وقصَّ عليه الرؤيا ، فتهلَّل وجه الراهب الصالح وقال لأبي بكر :

لقد أهلَّت أيامه .. !!

ويتساءل أبو بكر :

مَن تعني .. ؟ النبي الذي ننتظر .. ؟؟

ويجيبه الراهب :

نعم ، وستؤمن معه ، وستكون أسعد الناس به .. !!

لم تكنِ رؤيا أبي بكر مُجرَّد حديث للنفس في منامها ، ولا مجرَّد تعبير عن أشواق مُسْتكِنَّة في لا شُعُورِهِ ..

بلْ كانت إرهاصاً بحقائق وطيدة راسخة أمْلَتْ على صاحبها يقيناً لا يتزعزع بحاجة الناس إلى رسول ، وبِحَتْمِيَّةِ مجيء هذا الرسول ..

وكانت رُؤياه هذه ، بُشْرى بين يَدَيْ يَقينِه ، وتحيَّةَ الغيب لروحه المتطلعة وإيمانه المتلهف ..

وهو حين يختار الله محمداً ﷺ للرسالة ..

وحين يسارع أبو بكر إلى الإيمان به ومعه ، فلن يفعلٍ لأنه رأى رؤيا .. بل لأنه رأى رؤية .. رؤية عقلٍ ، ومنطق ، وبصيرة أتاحها له طول تَفكّره ، وطول إصغائه للحكمة ، وأفاءها عليه ـ قبْلاً ـ سَبْقُ اصطفاء الله له ، وهدايته إياه .. !!

ومع الصُباح شدَّ أبو بكر رحالَه مع القافلة العائدة إلى مكة ، كانت النُوق والجمال تهرْوِل ، فرِحةً مُنْتَشِيَةً كأنها في عيد ..

وهبَّت نسائم حُلوة تحمل إلى الرُكب عِطْر بساتين الشام ، وكأنها تحيَّة الوداع تَنْثالُ وراءهم من البلد الطيب الذي غادروه من ساعات ..

وعزَف الحنين المستيقظ على أوتار القلوب المشتاقة فَغرَّدتْ كل جارحةٍ في جسم ، وانطلق الركب يُسابق أشواقه ..

وارتفع صوتُ حَادٍ يُنْشِد :

سأقدح من قدري نصيباً لجارتي ... أدينٌ إذا تقسَّمت الأمور ؟؟
إذا أنت لم تُشْرك رفيقك في الذي ... يكون قليلاً ، لم تُشاركه في الفضل

ويُجيبه صادح آخر ، وكأنها مُباراة

أيا بْنَةَ عبد الله وابنة مالكٍ ... ويا بنة ذي البردين والفرسِ الورد
إذا ما صَنعْتِ الزاد فالتمسي لهُ ... أكيلاً لستُ آكلَه وحدي
أخاً طارقاً ، أو جارَ بيت فإنني ... أخاف مَذمَّات الأحاديث من بعدي
وإني لَعبدُ الضيف ما دام ثاوياً ... وما فِيَّ إلا تلكَ مِن شِيمَةِ العبد

* * *

ويُخرج هذا التغريد الحلو أبا بكر من صَمْت نفسه ، وتتألَّق أمامه من جديد فضائلُ

قومه .. هؤلاء الذين يَعُدُّون من مَذَمَّات الحياة ونقائصها أن يأكل الرجل وحده دون أن تَهبه الحظوظ الحسنة ضيفاً يأكل معه .. !!

وتتعالَى أناشيدُ الركب وتتبارى قصائده ..

وترتفع في السماء ذراع أبي بكر كأنها راية ، ويعلو صوته قائلاً :

ـ أيُّكم يُنشدنا قولَ أميَّة بن أبي الصَّلْت ؟

ويجيء صوت من طرف القافلة :

ـ أيَّ قوله تريد يا نسَّابَة العرب ، فإنَّ لأُمَيَّةَ قولاً كثيراً ؟؟

ويجيبه أبو بكر : ألا نَبيٌّ لَنا ..

ويرتفع صوت الرجل مُنشداً قصيدة أُمَيَّة :

ألا نَبيٌّ لنا منا فيخبرنا ... ما بعدَ غايتِنا من رأس مَجْرانَا
فقد علِمْنا لوَ انَّ العلمَ يَنفعنا ... أنْ [سوف] يلحق أُخرانا بأُولانا
وقد عجبتُ وما بالموتِ من عجب ... ما بالُ أحيائنا يبكون موتانا

وتزداد الإبلُ هُياماً ، وتضطرم بالحُداء نَشوة ، فتقطع الأرض وَثْباً .. وتهتز أفئدة المسافرين غِبطةً وأملاً ..

ومن يُلق عينيه ساعتئذٍ على وجه أبي بكر المتألِّق تحت ضوء الحكمة ، يبصر دُموع الشوق تتحدَّر متألقة على وجنتيه كحبِّ الجُمان .. !!

ويستمر المنشد في إنشاده قصيدة أمية :

يا رب لا تجعَلَنِّي مُشْركاً أبداً ... واجعل سَريرة قلبي الدهْرَ إيمانا
إنِّي أعوذ بمَنْ حَجَّ الحجيجُ له ... والرافعون لدين الله أركانا
مُسَلِّمين إليه عند حجهمو ... لم يبتغوا بثواب الله أثمانا

وتمضي القافلة إلى غايتها ، تَبيتُ إذا دَثَّرها الليل ، وتنطلق إذا ناداها الهجير ..

لقد مضى زمن طويل منذ غادروا مكة إلى الشام ..

تُرى ماذا جدَّ هناك من أمور .. ؟؟

ها هي ذي الأرض تُطوَى ..

الشام تَذهب بعيداً .. بعيداً ..

ومكة تُقبل حَثيثاً .. حثيثاً ..

وأخيراً .. تُطِلُّ مَشارف الوطن ، وعبير الأهْل ..

وهناك ، عند تلك المشارف كانت كوكبة من الناس تنتظر ...

لقد بَصُرُوا بالقافلة من فوق ذُرَا الجبل ، فتَنَادَوْا وتجمَّعُوا لاستقبالهَا ، وكلما اقتربت القافلة من المنتظرين أحسَّت منهم لَغطا كثيراً واضطراباً .

تُرى ، ماذا حدث .. ؟!

والْتَقى القادمون والمستقبلون في عِناق ومَودَّة ، تعالَت خلالَه الأصوات بالجديد

الغريب من الأنباء .

ألا تعلمون .. ؟ إن قريشاً منذ فارقتموها لا تنام الليل .. !!

ـ ويْحَ قريشٍ .. ولماذا .. !!

ـ إن محمداً وضع الجمْرَ على أنفها .. !!

ـ الجمر .. ؟ كيف .. ؟ ماذا جرى .. ؟!

ـ إنه يقول: إن الله أرسله لنعبده وحده ونذَرَ آلهتنا .. !!

وهَمس واحد ممن تَستهويهم الفكاهة قائلاً :

ـ دَعْهُ يُحطمها ، فطالما زاحمتنا في أكل الثَّريد ، وشرب اللبن .. !!

واختلطت الأصوات في ضوضاء مثيرة ..

واقترب من أبي بكر بعضُ ذوي الأناة ، وأخذ يقصّ عليه النبأ في هدوء ، وأبو بكر يُغالب دموعه وحُبوره .. !!

ولَدَى مَدخل مكة قابلتهم جماعة صغيرة يتقدمها أبو جهل ـ عمرو بن هشام ـ .

وتعانقوا جميعاً ..

وبدأ أبو جهل الحديث :

ـ أَوَحَدَّثوك عن صاحبك يا عتيق ..؟

"وكان أبو بكر قبل إسلامه يُسمَّى عتيقاً" .

أجابه أبو بكر .

ـ تعني محمداً الأمين ..؟

قال أبو جهل :

ـ نعم ، أعني يتيم بَنِي عبد المُطَّلب .. !!

ودار حوار سريع بين الاثنين :

ـ أسمعت أنت ما يقول يا عمرو بن هشام .. ؟

ـ نعم ، سمعته ، وسمعه الناس جميعاً ..

ـ وماذا قال .. ؟

يقول إن في السماء إلهاً ، أرسله إلينا لنعبده ونَذَر ما كان يعبد آباؤنا .. !!

ـ أوَ قال إن الله أوحَى إليه .. ؟؟

ـ أجَل ..

ـ ألم يقل كيف كَلَّمه ربه .. ؟؟

ـ قال : إن جبريل أتاه في غار حراء ..

وتألَّق وجه أبي بكر كأن الشمس قد اختصَّتْه آنئذٍ بكل ضيائها وسَنَاهَا ، وقال في هدوء مُجَلْجِل :

ـ إن كان قال ، فقد صَدَق .. !!!

ودارت الأرض بأبي جهل ، وتلَعثَمتْ خُطواته ، وكاد جسمه يتهاوى فوق ساقيه المهزولتَيْنْ ..

وتناقل الناس كلمة أبي بكر ، من واحد إلى آخر حتى صار لهم بها دَويٌّ كَدويِّ النحل .

وقصد أبو بكر داره ليرى أهله ، وينفض عنه وَعْثَاء السفر ، وبعدها يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

والآن ، لنترك "أبا بكر" قليلاً في داره وبين أهله ، حيث نعاود السير في موكبه بعد قليل لنلتقي به بين يَدَيْ رسول الله ﷺ .. ولنقض بعض الوقت مع كلمته الفذة الجامعة :

"إن كان قال فقد صدق" .. !!!

أجل .. فهذه العبارة الأمينة المضيئة ، هي التي سَتُشَكِّلُ وَفْقَهَا كل حياته المقبلة ، وستجعل من صاحبها أستاذاً للبشرية في فن الإيمان ..

انظروا ..

إن موضوع الرسالة لم يكن جديداً على أبي بكر ، فهو بكل ما معه من ذكاء ، وفطرة ، ومنطق ، قد قلّب كل وجوه النظر السديد في هذه القضية ، وانتهى إلى أنَّ الله لن يترك عباده حَيارَى ..

وهو بكل ما معه من ذكاء وفطرة ومنطق ، كان خبيراً بالرجال ..

ولقد عاش مع "محمد" ﷺ سنوات طوالاً ، ورأى فيه النموذج الحي للإنسان الكامل ..

وهكذا ، لم يكد يتلقى سمعُه النبأ العظيم ، حتى كان إيمانه الذكي مُهيَّأً ليأخذ دوره من فَوره ..

ولم تكن المشكلة بالنسبة إليه تتمثل في احتمال الصدق والكذب ، بل كانت تتمثل في هذا السؤال :

ـ هل صحيح أن محمداً قال هذا الذي يرويه الناس عنه .. ؟؟

ـ إن كان قال .. فقد صدق .. !!

من شاء فَلْيبحث ، ولْيفحص ، ولْيَتشكَّك ، ولْينتظر ..

أما أبو بكر فلا .

وحَسْبُ محمد أن تنفرج شفتاه عن كلمة ..

حَسْبُه أن يُحرِّك لسانه بِقَوْل .. فإذا الصدق الذي ليس كمثله صدق . وإذا اليقين الذي لا يعلوه يقين .. !!

وهذه الثقة بكل عُرامِها (١) وتَقواها لم تُعطَ كما قلنا اعتباطاً .. إنما نُسجت عُراها الْوُثْقَى من كل نُبوءة صادقة سمعها .. ومن كل منطق قويم اهتدى به ، ثم من خبرته التي لا تكذب ، بصدق محمد .. وعظمة محمد .. والحياة الطاهرة التي رأى محمداً ﷺ يحياها .

مُحمَّد ...

---

(١) العُرَامُ : الكثرة والشِّدَّة ، ويقال : جيش عُرَامٌ ، وَعَرَمْرَمٌ ، أي : كثير شديد .

ما أطهر الاسم ، وما أعظم صاحبه .. !!

أربعون عاماً عاشها بين الناس قبل أن يجيء هذا اليوم الذي اختير فيه ليبلغ كلمة الله .

أربعون عاماً كاملة .

لم يخن خلالها أمانة ..

ولم يُزيف كلمة ..

لم يكذب قطّ ، ولو مازحاً .. !!

لم تأخذه عن الطهر نزوة ، ولا عن العظمة دَنِيَّة !!

لم يُرَ قطّ إلا عظيماً ، وكُفُؤاً لكل عظيم .. !!

مُذْ كان طفلاً يدعوه أترابه إلى مشاركتهم اللعب ، ومطارحتهم اللهو البريء ، فَيلوي عِطفه عنهم ويقول لهم :

"أنا لم أُخْلَق لهذا" .. !!!

حتى صار شابًا ، فملأ شبابهُ فِجاجَ مَكة عَبيراً وطُهراً ، وصار اسمه تسبيحةً عَذْبَة على كل لسان .. !!

وما كانت قريش هازلة معه ، ولا مُجاملة له ، ولا مُتفضلةً عليه حين خلعَ عليه إجماعُها لقب "الأمين" .. !!

بل كانت بهذا ترفع من قدر نفسها ، وتُباهي مَن حولَها من قبائل العرب بهذا الذي ارتفع في سِنّه المبكرة إلى أعلى مستويات الأمانة .. لا أمانة المال وحده ، ولا أمانة الودائع وحدها .. بل الأمانة على كل ما في الحياة من قِيَمٍ ، ومُثُل ، وأشياء .

آلآنَ يَكْذِبُ محمد !! آلآنَ تتحول فجأة حياة قامت على الصدق المطلق إلى هذه الأكذوبة الضخمة .. ادّعاء الرسالة والكذب على الله .. ؟؟

محمد التوّاب ، الأوّاب .. الخاشع .. الضارع .. المُتَبتّل الأمين ، الطاهر ـ يكذب على الله .. ؟!

أبداً .. أبداً .. أبداً ..

ومنذ متى ، كان من الحُنفاء العابدين في قومه مَن يكذب على الله .. ؟

وهل كان في ادّعاء الرسالة مَغنم يُزيّن للناس إتْيانه ..؟! أوَلَمْ يَر "محمد" ﷺ بعينه ، كيف صرخَت قريش في وجه "زيد بن عمرو بن نُفيل" برغم شيخوخته المائلة للغروب ، برغم أنه لم يأتِها بدين جديد ، ولم يضع المعْوَل فوق آلهتها وأصنامها .. ؟

فكيف إذا جاءها رسول مثل "محمد" ﷺ ، يقول للناس :

ـ اتركوا الأصنام فإنها ضلال ، واعبدوا الله الحي القيّوم .. !

أهُناك مُخاطرة تُنذر بالهول كهذه المُخاطرة .. ؟!

وهل يختارها عاقل ليتسلّى بها ويتبذّخ . ؟!

أم أنها رسالة فرضَتْ نفسها فَرْضاً على صاحبها ، وإيمانٌ حقٌّ ألقى عِبْأَه الذي لا يُقاوم على مُصطفاه .. ؟!

إن "محمداً" ﷺ أنضر مثال لكل ما يُنعم به الله من عافية في العقل ، وفي الخُلق ، وفي الضمير ..

وما طوَّفَتْ به ظِنَّة ذات يوم ..

وإن الحنفاء الحكماء ليبشرون من عهد بعيد بالنبي القادم .

وإن الناس حيثما يَمّمَ أبو بكر وجهه ، لَتأخذُهم فاقَةٌ شديدة إلى هادٍ ومعلم .. إلى رسول من عند الله يُبلغهم كلمته ، ويرفع وسط صفوفهم رايته ..

أَفَإِنْ جاء الرسول يُكفَر به .. ؟

ومحمد بالذات .. ؟؟

لا ...

« إن كان قال ، فقد صدق » .. !!

هكذا كان منطق الإيمان في وَعي الرجل الرشيد "أبي بكر" .

إنه لَيفرُكُ كفَّيه في غبطة ، ويردِّد آخر مرة قول أمية بن أبي الصَّلْت :

ألا نبيٌّ لَنا مِنّا فيخبرنا ...

أجلْ ، آخر مرة ..

فمنذ اللحظة التي سيلقى فيها محمداً ، لن يقول متمنياً :

"ألا نَبيٌّ لنا" .. فقد جاء النبيﷺ ، وجاءت الْبُشْرَى .

وسيكون شعاره ، ونشيده وهُتافه دَوْماً :

"إن كان قال ، فقد صدق" .. !!

سيقولها كلما جاء محمد بآية ..

سيقولها عند كل فتنة مُرْجِفَة ..

سيقولها عند كل هزيمة حالِكَة ..

سيقولها حتى يثيبه الله عليها ، فينعته بـ "ثاني اثنين" و "الصِّدِّيق" .

أما الآن ، فَلْنَعُدْ إليه ، ولْنصحَب خَطْوَه المبارك ، إذْ يأخذ طريقه إلى رسول الله لِنَشهد أول لقاء بين "الرسول"ﷺ و "الصِّدِّيق" .. !!

غادر "أبو بكر" داره إلى دار الرسول تسبقه أشواقه ..

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام مقيماً في داره مع زوجه "خديجة" رضي الله عنها .

خديجة .. التي كانت أول العالَمين إسلاماً معه وإيماناً به ...

ولطالما سمعت هي الأخرى من قريبها "ورقة بن نوفل" تَراتيل الحنين إلى النبي المُقبل ..

ولقد عرفت "محمداً" زميلاً لها في تجارتها ، ثم عرفته بَعْلاً وزوجاً ، فما رأت سلوكاً أطهر ، ولا قلباً أكبر ، ولا عقلاً أرجح ، ولا صدقاً أعظم مما رأت من محمد ..

من أجل هذا ، لم يكد الرسول ﷺ يحدثها عن النعمة التي أفاءها الله عليه بالوحي حتى قالت من كل يقينها : صدقت .. !!

ولقد اختارها الله على علم لتكون شريكة رسوله في الحياة حين ينزل عليه الوحي بجلاله وأثقاله ، وهيبته ورهبته ..

وكان هنا مع الرسول وزوجته فتى ممشوق ، هو "عليّ بن أبي طالب" رضي الله عنه ..

كان الرسول ﷺ قد ضَمَّه من عهد بعيد حين نزلت بعمّه ضائقة ، وبقي معه ، فلمّا جاء الوحي سارع الفتى إلى الإيمان .

قَرَع أبو بكر الباب ، ونادى ..

وتألّق بِشْرُ الحياة جميعه على مُحيَّا الرسول ﷺ ، وقال منادياً خديجة :

إنه "عتيق" يا خديجة ..

وسارع الرسول إلى لقاء صاحبه .

وجرى الحديث بينهما في مثل سرعة الضوء وصَفائه ..

قال أبو بكر :

ـ أصحيح ما أنبأني به القوم يا أخا العرب .. ؟

أجاب الرسول سائلاً :

ـ وماذا أنبئوك ..

ـ قالوا : إن الله أرسلك إلينا لنعبده ، ولا نشرك به شيئاً ..

ـ وماذا كان جوابك لهم يا عتيق ..

ـ قلت لهم : إن كان قال ، فقد صدق .. !!

وفاضت عينا الرسول ﷺ من الدمع غِبطة وشكراً .

وعانق صاحبه وقبّل جبينه . ومضى يحدثه كيف جاءه الوحي في غار حراء قائلاً له:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ...

وخفض أبو بكر رأسه في خشوع وتقوى ، تحيّةً لراية الله التي رآها ترتفع أمامه إلى أعلى السَّارية ، متمثلة في هذه الآيات المنزلة .. !!

ثم رفع رأسه ، وشدَّ بكلتا يديه على يمين رسول الله ﷺ وقال : أشهد أنك صادق أمين .. أشهد أن لا إلٰه إلا الله .. وأشهد أنك رسول الله .. !!

* * *

وآنئذٍ كان الغيب يُجْرِي أعظم عملية تفجير تاريخي ..

كان كل ما للإسلام من مستقبل وحضارة واتساع ، يُغادر تلك اللحظة ويأخذ كل شيء مكانه على أرض الغد الطويل ..

أجل ، آنئذٍ ، وفي تلك اللحظة التي شهدت يَداً تُصافح ، وقلباً يُبايع ، كانت نفس هذه اللحظة ، تتفجَّر وتُخرج خَبْأَهَا المهُول .. !!

كانت تَلِد زماناً بأسْره .. بأجياله .. بمعجزاته وانتصاراته ..

ولم يسمع أحد يومئذٍ دَوِيَّ هذا التفجُّر .. حتى الرسول وصاحبه ؛ لأن صوت اليقين في قلبيهما كان أعلى من كل صوت عداه .. !!

* * *

هكذا أسلم أبو بكر في هدوء ، ويقين ، وقوة ..

وسيظل حاملاً رايته في هدوء ، ويقين ، وقوة ..

أسلَم الرجل الذي اصطفاه الله ليكون لرسوله الصدِّيق ، وثانِيَ اثنين ، وغداً يكون الخليفة .

أسلم الرجل الذي وإن لم يكن نبيًّا ، فإنه سَيُكمِّل دَوْرَ النبي ...

وفي زيارته التالية لرسول الله ﷺ لم يكن وحده .. بل كان معه وفي صحبته خمسة من أشراف قريش ، أقنعهم أبو بكر بالإسلام ، فجَاءوا يبايعون الرسول ﷺ .. أولئك هم : عثمان بن عفان ، والزُّبَيْر بن العوَّام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وطلحة بن عبيد الله ..

أجَل ـ هؤلاء الخمسة الأعلام ، مرة واحدة .

وكانت هذه أولى بركات أبي بكر ..

فعمَّا قليل تنمو صُفوف المقبلين على الإسلام .

وسيُقبل الناس بعضُهم على بعض قائلين :

ـ "محمد" و "أبو بكر" .. ؟!

والله لا يجتمع مثلهما على ضَلالَةٍ أبداً ..

آمن أبو بكر إذن .. فمن أيِّ طراز كان إيمانه .. ؟؟

إن عظمة هذا الرجل مَاثِلة في إيمانه .. مَاثِلَةٌ في أنه مَارَسَ فوق أرض البشر وفي دنيا الناس نوعاً من الإيمان جِدُّ عجيب .. !!

إيمان مُحيِّر !!

سَهلٌ إلى أصعب مَدًى ..

كالذَّرَّة لا تكاد تُرى ..

وكَالذَّرة ، تنطوي على أعظم طاقة مُذهلة .. !!

إن إيمان أبي بكر ، كالنسمات الوديعة الرَّقْراقة ، نَنْشقُها دون أن نُحِسَّها ، ودون أن تُثير فينا الانتباه ، ولكن حين تعرض لأحد أزْمة اختناق ندرك أن هذا الشيء الذي كان عاديًّا ، هو سِرُّ الحياة ! وكل الحياة .. !!

كذلك سيعيش أبو بكر بإيمانه بين الناس هادئاً وديعاً .

ولكن حين تُلِمُّ بالإسلام أزمة ، يتبين الناس فجأة ، وعلى صورة نادرة باهرة ، أيَّ طاقة جبَّارة شامخة ، تستقر تحت جوانح هذا الوديع الرَّقْراق .. !!

ساعتئذٍ يدرك المسلمون أن الأنفاس الهادئة التي كانت تتردّد بين صفوفهم ، هي رُوح الحياة ، وأنَّ الإيمان الْحَيَّ الذي يحمله هذا الرجل في هدوء ، إنما هو قَدَرٌ هائل لا تصمُد أمامه عقَبة ، ولا مستحيل ..

لقد تحدث الرسول ﷺ فيما بعد كثيراً عن أبي بكر ..

وكان مما قال عنه :

« ما لأحدٍ عندنا يد ، إلا وقد كافأناه بها ، ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة .. » .

« وما نفعني مالُ أحد قط ، مثلما نفعني مالُ أبي بكر .. » .

« وما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كَبْوَةٌ عدا أبي بكر ، فإنه لم يتلَعْثَم » .. !!

هذا أصدق وصف وأزكاه لإيمان أبي بكر ..

إنه الإيمان الذي لم يتلعثم قطُّ .

* لم يتلعثم عند السانحة الأولى ، بل كان كأنه على موعد مع الدِّين الجديد ، فسارع إليه مُسارعَة الظامئ المُشْتاق .. !!

* ولم يتلعثَم عندما انتفض أهل الرِّدَّة ضد الإسلام ، وهَمُّوا به إِثْرَ وفاة الرسول ﷺ ، بل ازداد هذا الإيمان في قَلْبِ المِحنة ثباتاً ورُسوخاً ، وتألقا وتفوُّقاً .

وعرف واجبه من فَوره ، ثم باشَر هذا الواجب على أكمل وجه وأتَمّه ..

* ولم يتلعثم فيما بين ذَيْنِك من مَواقف امْتُحِنَ فيها إيمان المؤمنين امتحاناً رهيباً ، فلم يكنْ ثَمَّةَ أرسخ ولا أقوى من إيمان أبي بكر ..

ولنشاهد الآن بعضاً من مواقف ذلك الإيمان الفريد بالله ، وبرسوله ، وبدينه .

* * *

في ضُحى يوم من الأيام اجتاح أهل مكة جميعاً حديث أثار كل ما في أنفسهم من دهشة وعجب .

فقد كان أبو جهل ذاهباً لبعض شأنه حين مَرَّ بالكعبة فأبصر رسولَ الله ﷺ جالساً وحده في المسجد الحرام ، صامتاً مفكراً ..

وأراد أبو جهل أن يُؤذِيَ الرسول ببعض سُخرياته . فاقترب منه وسأله :

ـ أوَلَمْ يأتِك الليلة شيء جديد .. ؟!

فرفع الرسول ﷺ رأسه نحوه وأجاب في جدّ :

ـ نعم ، أُسْرِيَ بي الليلة إلى بيت المقدس بالشام .

فقال أبو جهل مستنكراً :

ـ وأصبحتَ بين أظْهُرنا .. ؟؟

قال عليه الصلاة والسلام : نعم ..

وهنا صاحَ أبو جهل في جنون :

ـ يا بني كعب بن لؤَيّ ، هَلُمُّوا .. !!

وأقبلت قريش ، ينادي بعضها بعضاً ..

ولم يكن الرسول ﷺ قد حدَّث أحداً من أصحابه المؤمنين بنبأ الإسراء بعد ..

تجمَّع الناس عند الكعبة ، ومضى أبو جهل يحدِّثهم في حُبور بما سمع ، فقد ظنَّها الفرصة المُوَاتية التي عندها سينفضُّ عن الرسول كل مَن آمن به .

وتقدَّم واحد من المسلمين ، وسأل الرسول ﷺ :

ـ أحقاً أُسْرِيَ بك الليلة يا رسول الله . ؟

فأجاب الرسول :

ـ نعم ، وصلَّيت بإخواني الأنبياء هناك ..

وسرَى في الجمع المحتشد خليط متنافر من المشاعر المهتاجة .

ورحَّب المشركون بما سمعوا ، ظانِّين أن في هذا النبأ نهايةَ الرسول ﷺ ..

واحْتوَشَتِ الشكوك فريقاً من المسلمين .

وسعَى بعض رجالات قريش إلى بيت أبي بكر فَرِحين شامتين ، لا يُخالجهم ريب في أنهم سيعودون ومعهم رِدَّته عن هذا الدين .. !!

فأبو بكر يعرف أكثر من غيره ، ما يحتاجه قطع المسافة بين مكة والشام من سفر مُضْنٍ وزمان طويل ..

فكيف بالذي راح ، ورجع ، وصلَّى هناك .. كل ذلك في بضع ساعات !!

بَلَغوا دار أبي بكر ، وصاحوا به :

ـ يا عتيق .. كُلُّ أمر صاحبك قبل اليوم كان أَمَماً ـ يعني هيِّناً ومُحْتَمَلاً ـ أما الآن فاخرج لِتَسمع ..

وبرَزَ عليهم أبو بكر دَهِشاً تُجَمِّله سكينته ووقاره ، وسألهم : ماذا وراءكم .. ؟

قالوا : صاحبك !

وانتفض أبو بكر وقال :

ـ وَيْحَكم .. هل أصابه سوء .. ؟!

وتراجع القوم قليلاً ، وازْدَرَدَ كُلٌّ منهم ريقَه في مشقَّة ، وقال قائلهم :

ـ إنه هناك عند الكعبة ، يُحَدِّث الناس أن ربه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ..

وتقدَّم آخر يكمل الحديث ساخراً ، وقال :

ـ ذهب ليلاً ، وعاد ليلاً ، وأصبح بين أظهُرنا ..

فأجابهم أبو بكر ، وقد تهلَّل مُحيَّاه :

ـ« أيُّ بأس في هذا ؟ إني لأُصدقُه فيما هو أبعد من ذلك ..

أُصدِّقُه في خبر السماء يأتيه في غَدوة أو رَوْحَة .. » .
ثم أطلق عبارته الصامدة .
« إن كان قال ؛ فقد صدق » .. !!!
أهناك كلمات تستطيع النهوض إلى مستوى الإشادة بهذا الموقف أو التعليق عليه دون أن يَغلبها الحياء والعجز على أمرها .. ؟؟
عبارة واحدة تستطيع المناسبة أن تسعفنا بها ، هي :
يا وَاهِبَ هذا اليقين سبحانك .. !!!
هذا رجل لم يُؤمن إيمان المصادفة ، بل آمن إيمان الفِطنة ..
لم يؤمن بعواطفه ، بل آمن بذكائه ..
لم يدفعه إلى الإيمان منطق القلب وحده .. بل منطق العقل قبله ..
انظروا إلى قوله :
« إني لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك .. أصدقه في خبر السماء يأتيه في غدوة أو رَوْحَة » .
أجل .. أفلا يُصَدِّقه إذا قطع بضعة أميال في ليلة واحدة .. ؟!
إن الله الذي آمن به أبو بكر لا مُنتهى لقدرته ..
والرسول الذي آمن به أبو بكر لا شك في صدقه ..
وما أكثر الظواهر التي نراها ونُحِسُّها ويعجز العقل عن تفسيرها . !
فلتكن هذه واحدة منها .
الذي يعنيه أن يكون الرسول ﷺ قد أخبَر وقال ، وعندئذٍ يكون كل شيء ممكناً وصادقاً .. !!
إذا كان وَافِدُ السماء وسَفِيرها ، يغدو ويروح بين السماء والأرض في لحظة مُلقياً القرآن على قلب النبي ليكون من المُنذِرين ..
وإذا كان أبو بكر قد آمن بهذا ، ففيم يشكُّ بعد هذا .. ؟
في سفر الرسول ﷺ إلى بيت المقدس وأَوْبَتِه منه في ليلة واحدة ؟
وأيُّ بأس في هذا ؟
إن الزمان والمكان ..
وإن البُعد والقرب ..
كل أولئك أمور تتعلق بقدرة الناس .
أما الله الذي يقول للشيء : كن ـ فيكون ، فما الزمان والمكان أمام قدرته .. ؟؟
ما الأبْعاد والآماد أمام مشيئته .. ؟؟
ليست المشكلة إذن : كيف ذهب الرسول ﷺ إلى بيت المقدس وعاد منه في ليلة ..
ولكن المسألة هي : هل قال محمد ذلك .. ؟
« إن كان قال ، فقد صدق » .. !!!
وَهَرْوَلَ أبو بكر إلى الكعبة حيث رسول الله ﷺ .

وعند الكعبة رأى الجمع الشامِتَ المُرْتاب ، مُتحلِّقين لاغِطِين .

ورأى نور الله هناك في جلسته الخاشعة الضارعة مستقبلاً الكعبة ، لا يُحسُّ من اللَّغَط الدائر حوله شيئاً ، ولا يسمع للحمقى رِكْزاً .

وانطرح أبو بكر عليه يعانقه ويقول :

ـ بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله .. والله إنك لصادق ، والله إنك لصادق !!

* * *

ومشهد آخر من مشاهد هذا الإيمان الفريد يتجلَّى خلاله تهلُّل هذا الإيمان للتضحية والبذل .

فذات يوم ، وأبو بكر في داره سَعِد بزيارة رسول الله له ، وفوجئ بالرسول يقول له :

ـ يا أبا بكر ، إن الله أذِن لي بالهجرة ..

كان أصحاب النبي عليه السلام ، قد سبقوه إلى المدينة مهاجرين ، وبقي الرسول ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن الله له ، وبقي أبو بكر بجانبه ..

والآن وهو يسمع النبأ يكاد قلبه يطير من الفَرح ويقول : الصُّحْبَةَ يا رسول الله .

فيجيبه الرسول ﷺ : الصحبة يا أبا بكر ..

إن الهجرة في حد ذاتها رحلة عافية ؛ فهي اطِّراحُ لأذى قريش ولمؤامراتها التي لا تُؤذِنُ بانتهاء .

ولقد هاجر المسلمون إلى المدينة بإذن من الرسول ﷺ ، وإنهم بالهجرة لَسُعَداء ، فقد أراحتْهم من سَفَهِ قومهم ،وإن يَكُ لِفراق الأهل والوطن مرارة وغُصَّة ..

ولكن الهجرة بالنسبة للرسول بخاصَّة ، مخاطرة ، ما مثلها مخاطرة ..

فإن قريشاً إذا كانت قد تركت المسلمين يغادرون مكة في سلام ، فما هي أبداً بتاركة رسول الله .

ولقد تحدَّث زعماؤها في هذا كثيراً ، وانتهَوْا إلى أنهم إذا تركوا الرسول ﷺ يخرج إلى المدينة ، ويرفع في سمائها رايته ، فلسوف يجمع العرب حوله ثم يغزو بهم قريشاً ..

ومن ثَمَّ قرروا أن يظفروا برأس الرسول ..

ولعلَّهم إنما تركوا المسلمين ومعهم عمر بن الخطاب ـ وعمر "بصفة خاصة" ـ نقول : لعلَّهم تركوهم يهاجرون ليبقى الرسول بينهم بلا أنصار حتى يتأتَّى لهم الخلاص من أمره بسهولة .. !!

إذن فهجرة الرسول ﷺ ليست نزهة ، ولا مجرَّد هجرة ، إنما هي مخاطرة مَهُولة . ومطاردة فادحة ..

وأبو بكر يعرف هذا جيداً ، ويعلم أن قريشاً ستملأ السَّهْل والجبل بِفُرسانها ومُقتفي الخطى والآثار فيها حتى تظفر بالنبي المهاجر .

فما باله يتهلَّل لهذه الصحبة ، ويحرص عليها ، ويطير قلبه فرحاً بها .. ؟

إنه الإيمان .. !!

إيمانه ـ أولاً ـ بأن الله لم يُلْقِ بكلمته إلى الناس وفي مشيئته أن يتركها لقريش تَذْروها مع الريح من أوَّل صيحة ..

وإيمانه ـ ثانياً ـ بأن الإيمان مسئولية وتضحية ، ولقد أصبح مسئولاً عن هذا الدين منذ تَبِعَه ، وعن هذا الرسول منذ بايَعه ..

ومهما تكن العواقب إذن ، فلن يكون ثَمَّةَ سوى طريق واحد لا يعرف أبو بكر سواه .. ذلكم هو طريق الواجب الذي يحدده إيمانه ، وطريق التضحية التي يتطلبها هذا الإيمان .

لقد آمن بالله ، وبرسوله ، وبدينه .

ومهمته بعد ، تتلخَّص في أن يجعل من حياته كلها سياجاً يحمي به الدعوة والداعي . الدين والرسول ﷺ ..

وحين يُوَفَّق في مهمته هذه ، فتلك عنده هي الحظوظ الوافية التي يرجوها ، وينتشي حُبوراً بها ، ويُحسُّ كلما تزايدت أهوالها وأخطارها ،أنه أعظم أهل الأرض حظا ، وأوفاهم سعادة وغنماً .. !!

ومن هنا كانت غبطته الفائقة حين رأى نفسه زميلاً للرسول ﷺ في هجرته . ولقد أجزل الله له المَثُوبَةَ والمكافأة .

وكانت المثوبة مزيداً من الإيمان ، ملأ الله به قلبه في ضوء تجربة من أروع التجارب .

فحين أوَى مع الرسول إلى الغار ليختفيا فيه من قوى المطارَدَة التي كانت تلهث وراءهما طمعاً في نَيْلِ الجائزة المغرية التي أهْدَتْها قريش لمن يأتيها بالرسول عليه السلام .

حين أوَيَا إلى الغار معاً ـ الرسول ﷺ ، والصدِّيق ، واقترب المُطارِدُون من الغار ، وراحوا يُطَوِّفُون حوله ـ وفَزِع أبو بكر تحت هولْ السؤال الذي أخذ يُلِحُّ عليه :

ـ ماذا لو نظر أحدهم إلى جوف الغار .. ؟

ـ ماذا لو ظفر المجرمون برسول الله .. ؟ .

حينئذ كان الله يدَّخر للصدِّيق الدرس الأخير الذي سيكمِّل إيمانه ، ويبلغ به أعلى مُستويات الإيمان المتاحة لبشر ..

فلقد ألْقى على الرسول سؤاله :

ـ يا رسول الله ، لو نظر أحدهم إلينا لرآنا ..

قال هذا وعيناه تتجهان إلى رسول الله ﷺ في حياء وقَلَق .

ولم يكَدْ بصره يلتقي بمُحيًا الرسول حتى رأى عجباً .. رأى وجهاً مُتَهلِّلاً كأنما ألْقِيَتْ عليه آنئذ كل ما في الحياة من سَكِينة ، وطُمأنينة ، وأمَل ..

ورأى راحةَ الرسول تلامِسُ صدره ، فكأنما تَسْكُبُ فيه الطمأنينةَ سَكْباً .. !!

وقال له الرسول ﷺ :

ـ يا أبا بكر ـ لا تحزن ، إن الله معنا .

ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما .. ؟!!

وسكَن أبو بكر ، ورأى المطاردين يُطَوِّفون بالغار في خَبال ، ثم يرتدُّون عنده حيارَى وعُمياناً ، لم ينالوا شيئاً .. !!

تَمَّ له يومئذٍ إيمانُه ، واستوى على عَرش اليقين يقينُه .

وكأنما اختارته الأقدار لصحبة الرسول ﷺ في الهجرة لِتُرِيَه هذا المشهد .

بل لكأنما أراد القدر هذا المشهد وهيَّأه ، ليبلغ أبو بكر من عِظَته البالغة كل ما تبقَّى له من حُظوظ إيمانه ؛ جزاءً وِفاقاً ، وكأساً دِهاقاً ، لن يظمأ أبو بكر بعدها أبداً إلى إيمان ويقين .. لقد بلَغ إيمانه الذروة في لَحظَة الغار .. !

* * *

ولْنتابع سيرنا وراء هذا الإيمان الفذّ لِنرى جلاله المهيب في مَشْهدٍ تِلْوَ مَشْهد ..

في السنة الخامسة من الهجرة ، وفي شهر ذي القِعْدة ، غادر الرسول ﷺ المدينة ، ومعه عدد كبير من المسلمين ، قاصدين مكة لِيعْتمِروا .. وساق الهَدْيَ أمامه لتعلم قريش أن الرسول جاء زائراً للبيت الحرام ، ولم يأت مُقاتلاً .

بَيْدَ أنَّ نبأ هذه الزيارة ، كان قد سَبَق إلى قريش بطريقة مَّا فحشدت جُمُوعها ، وصمَّمت على منع الرسول ﷺ وصحبه من دخول مكة وزيارة الكعبة .

ونزل الرسول وأصحابه عند مهبَط الحُدَيْبِية .

وأوفد إلى قريش "عثمان بن عفان" ليشرح لها سَبَبَ مجيئه ..

وأوفدت قريش "سُهَيل بن عمرو" لِيُفاوض الرسول في الأمر .

وانتهت المفاوَضة إلى عقد ميثاق ، يعود المسلمون بمقتضاه إلى المدينة مُرجِئِين زيارة البيت إلى العام القادم ، كما يتضمَّن الميثاق التزام المسلمين بأن يردُّوا إلى قريش من يأتيهم مُسْلماً ، ولا تردُّ قريش إلى المسلمين من يعود إليها مُرتداً .

ولم يَكد الكاتب ينتهي من كتابة الميثاق، ولم يَمهَرْه الرسول ﷺ بخاتم النبوَّة بعد، حتى فوجئ المسلمون بفتى يأتيهم صارخاً مستغيثاً ، يرسفُ في قيوده ، ويجرجر أغلاله المُثبتَة في حجارة غليظة كي تُعوقَه عن المسير .. !!

كان هذا الفتى "أبا جندل" وهو ابن "سهيل بن عمرو" مندوب قريش .. هذا الذي يتفاوض مع رسول الله ﷺ.

وفاض قلب الرسول من الأسَى لمنظر أبي جندل الذي ارتفع جُؤارُه مستغيثاً برسول الله .

وقال الرسول ﷺ لسهيل :

ـ اترك لنا "جندلاً" فإنَّا لم نُنجز العهد بعد ..

وما كان لسهيل أن يترك ولده يذهب إلى الإسلام ، وهو واحد من زعماء قريش ، فأصرَّ على تسليمه ، أو ينقض العهد كله .. وتكون الحرب .

وصاح أبو جندل :

ـ يا معشر المسلمين ، أتتركونني أُرَدّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً .. ؟

ـ ألا تُبصرون ما على جسدي من عذابٍ في الله .. ؟

وناداه الرسولﷺ بكلمات آسية :

ـ اصبر .. وسيجعل الله لك مَخرجاً ..

كان هذا المشهد أدهى وأكبر من أن تحتمله أعصاب المسلمين ..

فكيف يرجعون دون أن يزوروا البيت الحرام .. ؟

وكيف يُسْلِمون للعذاب مُسلماً جاء يستصرخ بهم ويستغيث .. ؟

ويُصوِّر لنا احتدامَ القلق الرهيبِ في أنفسهم موقفُ واحدٍ من أعظمهم إيماناً ، وتفانياً ، وطاعة .. هو "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه ..

لقد ذهب إلى الرسولﷺ يسأله ، ويُناقشه ..

ـ يا نبي الله ، ألست نَبِيَّ الله حقا ..؟

وأجابه الرسولﷺ :

ـ بلى ، يا عمر ..

قال : فَلِمَ نُعْطَ الدَّنِيَّة في ديننا .. ؟

أجابه الرسولﷺ :

ـ يا عمر ، إني رسول الله ، ولستُ أعصيه ، وهو ناصري ..

قال عمر :

ـ أوَلَم تَعِدْنا ـ يا رسول الله ـ بأننا سنأتي البيت ونطوف به . ؟؟

قال الرسولﷺ : أوَقُلْتُ هذا العام ، يا عمر . ؟؟

قال عمر : لا ..

قال النبيﷺ : فإنك آتيه ومُطَوِّف به .

إن هذا الحوار يكشف عن حِدَّة الأزمة التي عاناها المسلمون يومئذٍ .. ولكنْ ما شأن أبي بكر بهذا كله .. ؟؟

إن "أبا بكر" ، هو أستاذ فَن الإيمان في ذلك اليوم العصيب ، كما سيظل أستاذه في كل حين .. ولنمضِ وراء "عمر" ، فبعد لحظات سنلتقي معه عند "مِنَصَّة الأستاذية" حيث يتربَّع فوقها هذا المعلِّم الكبير أبو بكر الصديق !!

ينصرف عمر .. من بين يَدَيْ رسول الله ، وهو لا يزال يُعاني مشاعره القَلِقَة ..

ولقد ردَّه الأدب مع الرسولﷺ عن الاسترسال في المُناقشة والإلحاح في السؤال .

بَيْدَ أنه يُحسُّ في نفسه حاجة إلى مزيدٍ من الوضوح .

فمع من يتحدث .. ؟؟

لا أحد سوى أبي بكر .

ومضى يجتاز صفوف المسلمين وحلقاتهم حتى لمحه هناك ، في أقصى الجمْع ، تغمره طمأنينة عجيبة .. !

ألْقى عليه الأسئلة ذاتها التي ألقاها على رسول اللهﷺ منذ لحظات .

وتَلقّى من أبي بكر الإجابات ذاتها التي سمعها من رسول الله .

وانتهى الحوار بينهما ..

يقول عمر :

ـ "فأخذ أبو بكر بيدي ، وجذبها في قوة ، وقال لي :

« أيها الرجل ، إنه رسول الله ، ولن يعصيه ، وإن الله ناصره ، فاستمسك بغَرْزه[1]، فوالله إنه على حق ...

« فأنزل الله السَّكينَة على قلبي وعلمتُ أنه الحقّ » .

هذا هو إيمان أبي بكر الذي لا يتلعثم ، ولا يبحث عن نفسه أبداً ..

الإيمان الذي لا تأخذه سِنَةٌ ، ولا تَتقحّمه خَلْجَةُ شك في سِرٍّ أو عَلَن .. !

وفي ساعات العُسْرة ، وخلال الأزمان العُظْمى ، كان إيمان هذا المؤمن يُخرج خَبْأه الباهر ، فيملأ الزمان والمكان والأنفسَ رَوْعة .. !!!

* * *

والآن لنشهدهُ يوم "بَدْر" وقد نزلت قريش بجيشها اللَّجِب عند العُدوَة القُصْوَى من الوادي ، مُسَلَّحة بكبريائها وبأسها .

وخرج المسلمون مع رسول الله ﷺ وعِدَّتُهم يومئذٍ ثلاثمائة لا يملكون من سلاح المقاومة إلا نَزْراً يسيراً .

ويلتقي الجمعان ، وتتلظّى أرض المعركة فجأة ..

ورسول الله جالس في عريشِه ، حيث توسَّل إليه أصحابه ألا يُغادر خيمته مهما تَدُرْ رحَى الحرب ، وأبو بكر معه ..

بصُرَ الرسول ﷺ بالمعركة المُحتدمة الحافلة ، ورأى أصحابه وهم قليلون ، يكادون يذوبون وسط الخِضَمْ الوثني المجنون . !

وكلما رأى شهيداً يسقط ، طار معه قلبه حناناً وأسًى ..

وبلغ القتال ذروته الفاصلة ، ولم يعد يُسمع إلا صليل سيوف متوهجة تَعزِف لحن الموت والدم . وأحسَّ الرسول ﷺ أن كل مُقدَّرات الدين قد صارت في الكِفّة المرجوحة، لا الكِفّة الراجحة .

وخرج من خيمته باسطاً إلى السماء ذراعَيْه ، مِثل شِراعيْ سفينة دهمهما موج عنيد عتيد .. !!

وراح يُناجي ربه في ابتهالات عالية :

« اللهم إنْ تَهْلِكْ هذه العصابة من أهل الإسلام ، فلَن تُعبد في الأرض .. »

« اللهم أنجزْ لي ما وَعدْتني ... » .

---

(١) أي : بِأَمْرِه ونَهْيِه .

وتوالت ابتهالاته .. وبُحَّت نبراتُه .. وتَهَدَّجَتْ دعواته ، وسقط رداؤه من فوق مَنكِبه ..

وهنا ... اقترب أبو بكر في هدوء فرفع رداء الرسول ﷺ وأعاده إلى مكانه فوق المنكبين اللتين كانتا آنئذٍ تحملان أعظم أعباء الحياة ..

وفي كلمات مُتوسِّلَة ، قال أبو بكر :

ـ « يا رسول الله ، كفاك مُناشدتَك ربَّك ، فإنه سيُنْجِزُ لك ما وَعدك » .

لم يكن الرسول في شك من نصر الله .. فقُبيل المعركة قال لأصحابه :

ـ « إن الله وعدني النصر .. » .

وقال لهم : « لَكأني أرى مَصارع القوم .. » !!!

لكنَّ مسئولياته المباشرة عن أصحابه وعن الدين الذي يُواجه أول معركة مع خصومه ، عكست على مشاعره حماسَ المعركة وقَلَقها .

* * *

ومَن شاء أن يرى إيمان أبي بكر في أحفل ساعاته ..

مَنْ شاء أن يرى الإيمان العُلْويَّ الموصولَ بِقيُّوم السموات والأرض ..

فلْيَر هذا الإيمان يوم دُعِيَ الرسول إلى الرفيق الأعلى ، فأجاب ورَحَلَ عن الحياة والأحياء ..

يوم تَلفَّت المسلمون فجأة ، فلم يَرَوْا بينهم "الأب" الذي كان يملأ حياتهم حناناً ، و"النور" الذي كان يملأ وجودهم ضياء ..

يومئذ تكشَّف جوهر هذا الإيمان .

إيمانُ رجل إلهي ، أعطى الله مَوْثِقَه مع محمد ، فإذا اختفى "محمد" ﷺ بالموت، فإن هذا الإيمان لا يَضعُف ، بل يتفوَّق .. ولا يَجزع ، بل يَحتشِد .. ولا يَنُوء تحت وقع الضَّرْبة ، بل ينهض أَيْداً رشيداً ثابتاً ، ليحمل مسئولياته وتبعاته .. !!

وهكذا وقف "أبو بكر" ـ أو بتعبير أَحْجَى ـ وقف "إيمان" أبي بكر يوم وفاة الرسول وقفة ما كان يقدر عليها سواه .. !!

يومئذ ، وبعد أن صلَّى بالمسلمين ، عاد الرسول في حجرته ، واستأذنه في أن يغيب عنه بعض الوقت ، وذهب إلى داره بالعالية في أقصى المدينة .

ومضى وقت ليس بالطويل قضى فيه بعض حاجات أهله .

وإذا هو يتهيأ للعودة إلى رسول الله ﷺ إذا النَّاعي يَقطع الأرض إليه وَثْباً ، ويُلقي عليه النبأ الذي يهدّ الجبال .

حَمِد واسْترجع ، واختلطت دموعه الهاطلة بكلماته وهو يقول : « إنَّا لله ، وإنا إليه راجعون » .

وأغذَّ السير(١) رابط الجأش ، قويَّ الجَلَد إلى بيت رسول الله ﷺ .

---

(١) أغَذَّ السيَر : أسرعَ فيه .

لم يكد يقترب من المسجد حتى رأى الفاجعة الكبرى .. لقد فقدَ المسلمون صوابهم .. !!!
حتى ابن الخطاب القوي الراسخ ، وقف بين الناس شاهراً سيفه . صائحاً :
ـ « إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات ، وإنه واللهِ ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران .. » .
« والله لَيرجعن رسولُ الله ، فليقطعن أيدي رجال زعموا أنه مات .. »
« ألا ، لا أسمع أحداً يقول إن رسول الله مات ، إلا فَلَقْتُ هامته بسيفي هذا » .. !!
تلك كانت حال عمر ؛ فكيف كانت حال سواه .. ؟؟
لقد كان موت الرسول ﷺ مفاجأة تامة للمسلمين على الرغم من سابق مَرضه .
كَأنهم ما تصوَّرُوا قطّ أن يقال لهم ذات يوم : مات الرسول .. !
فلمّا أنفذ الله أمره ، واختار لجواره رسوله ، وكُتب على الناس أن يسمعوا في لُجج من الهول والأسَى كلمة الموت مقترنة بكلمات الرسول ، طار منهم صَوَابُهم ..
ولقد كان أبو بكر أحقَّ الناس بأكبر قدر من الأسى ، والذهول ..
فهو "صديق" العمر لمحمد ﷺ منذ طفولة الحياة وشبابها .. وهو "صدِّيقُه" منذ أول أيام الوحي والدين .. وهو قد أحَبّهُ حبًّا ، وآخاه مُؤاخاة تجعل الصبر على فراقه فوق طاقة البَشر .
لكنَّ أبا بكر كان يبدو وكأنّه لا تحركه طاقات بشرية ، بل طاقة إلهية حَلَّتْ فيه .. !!
ولْندَع شاهد عيان يصف لنا ثبات أبي بكر عند الصَّدْمَة الأولى :
« أقبل أبو بكر ، يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء ، ودخل على رسول الله ﷺ ، وهو مُسَجًّى في ناحية البيت ، عليه بُرْدُ حِبرَة . فكشف عن وجهه ، ثم قَبَّله وقال :
«بأبِي أنتَ وأمي ، طِبْتَ حيًّا وميتاً ـ إن الموتَة التي كتبها الله عليك قَدْ مِتَّها ..
« ثم ردَّ الثوب على وجه الرسول ..
« ثم خرج ، وعمر يكلم الناس ، فدعاه للسكوت ، فأبى عمر إلا أن يسترسل في قوله ..
« فلمّا رآه أبو بكر لا يُنصت ، أقبل على الناس يكلمهم ..
فلمّا سمعوه أقبلوا عليه منصتين ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس :
« من كان يعبد "محمداً" ، فإن "محمداً" قد مات ..
« ومن كان يعبد الله ، فإن الله حَيٌّ لا يموت .
« ثم تلا هذه الآية :
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ الله شَيْئًا وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ﴾ .
« فوالله لكأن الناس يسمعون هذه الآية لأول مرة ..
« أما عمر ، فقد وقع على الأرض ، حين علم من كلمات أبي بكر أنه الموت حقا » .. !!

* * *

أفي هذه اللحظات الذاهلة ، والفاجعة المزلْزِلة يكون مثلُ هذا الثبات .. ؟

« مَن كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات»

« ومَن كان يعبد الله ، فإن الله حَيٌّ لا يموت» .. !!

إن أقصى ما كان يُنتظر أن يُفيئه الجَلَدُ والسُكينة ، كلمات توصي بالصبر وتمنح العَزَاء .

ولكن البديهة المؤمنة التي تشبه عين الصَقْر ، وقعت في أقلّ من لَمْح البصر على كلمة السرّ التي ستردُّ الهمم المنسحقة تحت وطأة الفاجعة إلى وَعي قدير ، يستقبل تبعاته الجِسام ، ويعبرُ أزْمة الموت بسلام .. !!

ولم تكن كلمة السر سوى هذه الصيحة الحاسمة الفاصلة :

« مَن كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات » ..

« ومن كان يعبد الله ، فإن الله حَيٌّ لا يموت" »

الله حيٌّ لا يموت .. ؟؟

إذن يا خيل الله اركبي ..

ويا راية الله ارتفعي ..

ويا حَمَلَة هذه الراية ، قوموا .. انهضوا .. وَاصلُوا رحلة الشمس المشرقةَ ، والدين الجديد .. !!

ولقد فعَلت صَيْحة أبي بكر في نفوسهم فعل القدَر ، فقاموا إلى الجسد الكريم المُسَجَّى ، وأدَوْا له تَحيَّة الوداع ممزوجة بالعزم الأيْد الذي سيستقبلون به تبعات الساعة التالية .. !!

* * *

عندما نستعرض هذه المشاهد التي تَجلَّى خلالها إيمان أبي بكر ، نجد أنفسنا أمام سؤال بالغ الأهمية ..

هو : ماذا ، لو لم يكن هناك أبو بكر .. ؟؟

وسيتألق هذا السؤال ، ويَفرض نفسه بصورة آكدَ وأوضح عندما نعيش عمًا قريب مع أبي بكر في اليومين العظيمين ـ يوم السَّقيفة ، ويوم الرِدَّة ..

إن الأمر ليبدُو كَمَا لَو كان الله سبحانه حينَ اصطفى "محمداً" عليه الصلاة والسلام ليكون رسوله إلى الناس ، اجْتَبى معه في اللحظة نفسها "أبا بكر" رضي الله عنه ليكمِّل دور الرسول ﷺ ..

وحين تتطلع حياتنا الإنسانية إلى أساتذة تتلقى عنهم ومن سيرتهم فنَّ الإيمان ، فإنها واجدة على رأس تلك القِلَّة النادر الباهرة ، رجُلَ الإسلام الكبير .. "أبا بكر الصديق" ..

ولقد عشنا لحظَات مع إيمانه ، فلْنَرَ مع الصفحات المقبلة ، كيف حَمِل هذا المؤمن مسئوليات ذلك الإيمان ، وكيف وَهب حياته لتبعاته في تواضُع مُطلَق ، وسُمُو بَعيد ..

■ ■ ■

ولو خطفتني الذئاب ..

كان موقف الصدّيق يوم وفاة الرسول بمثابة "البُوصلة" التي حدّدَت اتجاه التاريخ نحو الرجل الذي سيملأ الفراغ الكبير الذي تركه الرسول برحيله .

فالرجل الذي لم يفقد شيئاً من "ثباته" أمام المفاجأة التي روّعت المسلمين ، جميع المسلمين .. !!

الرجل الذي احتفظ برباطة جأشه ، وسكينة نَفْسه ، وَسَداد فكره على هذا النحو الفذّ في هذا الموقف الذي يَدَعُ الحليم حيران .. !!

هذا الرجل هو الجدير بأن يتقدم ويقود .

ولم يكن ذلك فحسب مناط التزكية والتقديم ..

فهناك الماضي الحافل بكل بُطولة وكل مَكْرُمَة ..

ففي مرض الرسول عليه السلام ، اختار أبا بكر ليصلّي بالناس مكانه ، وقال : "مُروا أبا بكر ، فَلْيُصَلّ بالناس" .

وحين راجعَتْهُ السيدة عائشة في هذا قائلة : "إن أبا بكر رجل رقيق القلب ، وإنه إذا قام مقامك غلبه البكاء . فَمُر "عمر" أن يُصلّي بالناس" .

حين روجع النبي في الأمر غضب ، وأعاد أمره مرتين : "مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلّ بالناس" .

وامتثل الصدّيق أمر الرسول ﷺ ، وهو لا يدري - أو لعلّه كان يدري - أنه في تلك اللحظات إنما يتسلّم الراية من رسول الله ليحملها من بعده .

ولقد فوجئ أبو بكر إثر وفاة الرسول ﷺ مباشرة بموقف لم يكن يخطر بباله .

ذلكم هو موقف السّقيفة الذي بدا مُنذِراً بِشَرٍّ مستطير ، ثم انتهى نهاية موفورة العافية والسعادة ، إذْ بُويعَ أبو بكر خليفة وإماماً ..

وحيث نطالع تاريخ "أبي بكر" لا نجدُ لديه أدنى رغبة في أن يحكُم الناس ، أو أن يكون خليفة عليهم .

إن شأنه في العُزوف عَن مناصب الدنيا ، شأن عمر .

بل إن "عمر" في زهده الجاه والمنصب ، كان يتأسّى بأبي بكر ، ويتتبّع خُطاه .

وجاء يومُ السّقيفة ليجتاز إيمانه امتحاناً رهيباً .

وكُتب على الرجل الذي كانت هوايته أن يعيش في الظّلّ مالم يكن ثَمّة خَطر يدعوه .

الرجل الذي كانت قُرّةُ عينه في ألاّ تقع عليه عين وهو في مكان صَدَارة يبعث في النفس زهواً وعُجْباً .

الرجل الْحَيِيُّ ، الوديع الأوَّاب ، كُتِب عليه أن يعلو صدر الأحداث فجأة ، لا طمعاً ولا رَغَباً ، ولكن تلبيةً لتبعات إيمانه ، ومسئوليات دينه .

فعلى إِثْرِ وفاة الرسول عليه السلام ، اجتمع نفر كبير من الأنصار في سَقيفة بني ساعدة ليبايعوا "سعد بن عُبادة" .

وعلم أبو بكر فذهب إلى السقيفة ومعه عمر وأبو عُبيدة بن الجراح .

لم يُسارع أبو بكر ليحتجز الخلافة لنفسه ، وإنما سارعَ ليكُفَّ الفتنة أولاً ، ثم لِيكبحَ جماح الطائفية ، حيث وقف مَنْ يقول: يا للأنصار ، ومَن يقول: يا للمهاجرين ..

ثم لِيسلُك مع المسلمين الطريق الأَمثل لاختيار الخليفة الذي يستطيع أن يملأ الفراغ الرهيب الذي كان يَمْلَؤُه رسول الله ﷺ .

واجَه أبو بكر الجمع المحتشد في أناة .

كان ثَمَّة كلمات تتطاير كالرصاص المقذوف ..

كان ناس من الأنصار يحرضون الأنصار على التشبث بالخلافة بأسلوب حادٍّ ولاَهِب ..!

وكان هناك مُهاجرون يرفعون أصواتهم الزَّاجرة ضِدَّ رغبة ذلك النفر من الأنصار ..

لقد فقد الناس أكثر صوابهم بموت رسول الله ﷺ ، فلمَّا أداروا خواطرهم حول موضوع الخلافة وهم في جوِّ الكارثة لايزالون ، اضطربت الأمور في أيديهم ، واتَّسعَ نِطاق البَلْبَلَة والاهْتياج ..

وليس أدلَّ على أن هذا الموقف كان دخيلاً عليهم وعلى إيمانهم من عودتهم السريعة إلى رُشْدهم واجتماع كلمتهم الغالبة حول هذا الحليم الأوَّاب .

صحيح أنَّ أبا بكر سَيُؤْثِرُ المهاجرين بالخلافة ، ولكن ، ليس لأنهم مهاجرون قُرَشِيُّون ، بل لأن الهجرة أعطتهم مكان السَّبْق في الإسلام .

فالهجرة كانت نهاية لمرحلة العُسرة التي سُلط عليهم فيها كل بأس قريش لِيُفْتَنُوا عن دينهم ، فما ازدادوا إلا إيماناً وثباتاً ..

وهذا هو الميزان الذي يزن أبو بكر به الناس .

ولقد استنبطه من كتاب الله سبحانه إذ يقول :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنصار ﴾ .

ثم هو سيُؤثر المهاجرين بالخلافة أيضاً ، لأن النفر الذين طلبوا الخلافة من الأنصار قد حرصوا على أمر جَرت عادة الرسول ألاَّ يُمكِّنَ منه من يطلبه أو يحرص عليه ، وهو الولاية ..

وإن أبا بكر ليذكُر ذلك اليوم الذي ذهب فيه العباس عمَّ النبي ﷺ يسأله أن يوليه ولاية ، فأجابه عليه السلام قائلاً :

- إنَّا والله لا نُولِّي هذا الأمر أحداً يسأله ، أو أحداً يحرص عليه..!!

ذلك لأن مسئولية الحكم غُرْم لا غُنْم.. وتضحية لا تزكية ، فإذا حرص عليها أحد ، فمعنى ذلك أنه لا يقدِّر المسئولية التي تنتظره عندها ..!!

وهناك عند السقيفة همَّ عمر ليتكلم في الحشد الثائر ، لكنَّ أبا بكر أومأ إليه بيمينه ، واستأذنه في أن يبدأ هو الحديث :

- "يا معشر الأنصار" .

"إنكم لا تَذْكُرون فضلاً إلاّ وأنتم له أهل" ..

هكذا بدأ الصِّدِّيق قوله .. ثم راح الحديثُ يَنْساب من قلبه .

وَمَضَى يُدلي برأيه فِيمَنْ يُرشح للخلافة .

إنه واحد من اثنين .

عمر بن الخطاب .. الرَّجُل الذي أعز الله الإسلامَ به ..

وأبو عبيدة بن الجراح .. الذي وصفه الرسول ﷺ بأنه "أمين هذه الأمة" ..

"لقد رضيتُ أحدَ هذين الرجلين ، عمر ، وأبي عبيدة .." وارتعدت يد "عمر" كأنما سقطت عليها جمرة ملتهبة..

وغض "أبو عبيدة" عينيه الباكيتين في حياء شديد..

وصاح عمر:

- والله لأن أُقَدَّم فيضرب عُنقي في غير إثم ، أحبُ إليَّ من أن أُؤَمَّر على قوم فيهم أبو بكر .. !!

وكان جلال هذا المشهد أبلغ من كل مقال..

فما كاد عمر يلقي بكلمته هذه ويتقدم باسطاً يمينه ، مُبَايِعاً أبا بكر .. حتى ازدحم الأنصار على البيعة وكأنما دعاهم من السماء داع .. !!

لقد كره المسلمون أن يعيشوا يوماً واحداً بغير إمام يجتمع عليه أمرهم .

فذهبوا يبحثون الأمر، ورسول الله ﷺ لم يُدفن بعد ، وأعصابهم رازحة تحت وطأة موته..

ولقد كان من المحتمل ألاّ ينتهي "يوم السقيفة" دون أن يترك في البناء شروخاً غائرة .

لكن الله أكرم الإسلام والمسلمين يومها بأبي بكر . واجتاز الناس في سلام عظيم أول تجربة من نوعها وأقساها .

وغربت مع شمس ذلك اليوم كل الخلافات .

إن العظائم كفْؤُها العظماء ..

ولقد اختار القدرُ هذا العظيم ليواجه جلائل الأمور وعظائم المستقبل .

ولسوف يُثبت هذا الخليفة العظيم جَدارَته بالمكانة التي بوّأه الله إياها في قلوب الناس ، وفي قلب التاريخ.. وسيتحرك تجاه الأحداث الداهمة بأسلوب يكشف عن مَدَى ما يستطيع الإيمان أن يقهر من صعاب ، ويأتي من معجزات ..

فما كاد نبأ موت الرسول عليه السلام يَذيع في البلاد حتى تصوَّر المرجفون والذين في قلوبهم مرض ممن كان إسلامهم مُداهنةً وتَقيَّةً .. تصوَّروا أن الرسولﷺ لم يمت وحده، وإنما مات الإسلام معه .. وعليهم أن يتحركوا بسرعة ليرثوا ذلك الدين الذي انتهى في ظنهم، وليستردُّوا جميع الامتيازات التي كانوا قد فقدوها تحت ضغط الدين الجديد ..

وهكذا بدأت انتفاضات ، لم تلبث حتى تحوَّلت إلى ردةٍ مستشرية ، وجيوش يُنادي بعضها بعضاً للزحف على المدينة ، والإجهاز على الإسلام .

في البلاد البعيدة من المدينة كان أكثر المسلمين حديثي العهد بالإسلام ، وكان الدين مرتبطاً في وجدانهم ارتباطاً كاملاً بصاحبه وبرسوله . فلمّا مات الرسولﷺ ، وقام فيهم من رؤسائهم مَن استغلَّ حداثة إسلامهم ، ساروا وراءه مرتدين .

والحقُّ أنها لم تكن أول الأمر ردَّة كاملة عن الدين .

إنما كانت "إضراباً" عن دفع الزكاة ..

لكنَّ أبا بكر رآها ردَّة ، ورآها عَجْماً لِعُود الإسلام بعد أن مات رسوله ، فإذا أبدى الإسلام عن أيِّ ضعف أمام هذا التمرُّد ، فستجاوزِ العواقب كل حُسبان ـ ويومئذ ظهر رأيان :

* رأيٌ يرى ألاَّ يُقاتَل هؤلاء ، ما داموا لم يقترفوا سوى امتناعهم عن دفع الزكاة ، وعلى رأس هذا الفريق ، عمر بن الخطاب .

* ورأيٌ آخر ، يرى أن الزكاة ـ أوَّلاً ـ ركن من الدين ، ليس من حقِّ الخليفة أن يدع الناس يهدمونه ، ويرى ـ ثانياً ـ أن الامتناع عن أدائها ، ليس سوى البداية .. وليس سوى حركة استطلاع ، يتوالى بعدها التمرد والقضاء على الإسلام .

وحمل لواء هذا الرأي أبو بكر .

وهنا يَبين الفارق الخفي بين طرازين من العظَمة ، وهو فارق تَناهَى في الخفاء والدِّقة ..

ولو سئِل الناس ـ جميع الناس ـ قبل أن يعلن كل من أبي بكر وعمر عن رأيه في هذه الأزمة ، لو سئِل الناس : مَن الذي سيكون أكثر صرامة وشدة ، ومن الذي سيكون أكثر ليناً ومُهادنة ؟ لما تردَّدوا في أن يشيروا إلى "عمر بن الخطاب" منادياً بالقمع الصارم ، وإلى "أبي بكر" داعياً إلى الأناة والملاينة .

ومع هذا ، فالذي حدث كان العكس والنقيض ..

فلقد باكَر "الصديق" الأزمة بإرادة مشحوذة ، مصمِّمة على أن تَضرب في غير تردُّد ، موضحاً اقتناعه في هذه الكلمات :

ـ"والله لو منعوني عِقَال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه بالسيف"!!

أما "عمر" ، فيقف من الأزمة موقفاً مغايراً .

ويوجِّه إلى الخليفة هذا السؤال:

ـ « كيف تقاتل قوماً يشهدون أن لا إله إلا الله ، وقد أخبر الرسول ﷺ أنَّ مَن قالها فقد عصم دمه وماله » ..؟؟

ويجيبه أبو بكر سائلاً :

ـ أَلَمْ يقل الرسول ﷺ "إلاَّ بحقها" ..؟ ألا إن الزكاة من حقها ..

ووراء موقف أبي بكر هذا علامتان مضيئتان :

أولاهما : تكشف عن يقين أبي بكر "المؤمن" ..

وثانيتهما : تكشف عن بصيرة أبي بكر "الخليفة والزعيم" .

* فيقينه بالله ويرسوله يرتفع إلى مستوى الإذعان المطلق لِما ألقياه من أمْر ومنهاج .

وهو بهذا يحمل كل مسئوليته عن الدين ، فلا يسمح بأن يتغير على عهده شيء من شرع الله وسنَّة رسوله . وكلُّ فريضة توفي الرسول ﷺ وهي قائمة ، لابد من أن تظل قائمة مهما تكن التضحية .

* وهو ببصيرة القائد والحاكم والزعيم . يرى أن أيَّ بادرة من الضعف تغشى الإسلام في هذه الأزمة الفاصلة ، ستُغري قُوى النكسة والظلام بالوثوب عليه من كل واد ..

بإيمانه ذاك ، وببصيرته هذه ، تشكَّلت في باطنه قوة هائلة هيأت عقله وإرادته لمواجهة الموقف على النحو الذي سبق ، والذي أظهر سَيْر الحوادث أنه لولاه لتعرض الإسلام لما يشبه الفَنَاء ..

لكن هذا الإيمان وهذه البصيرة لم يكونا يعملان بمعزل عن رأي الجماعة ، وحقّها في الشُورى والمناقشة ..!!

فعلى الرغم من أن أبا بكر في أزمة الردة كان يستطيع أن يمضي في الحرب دون أن يقتنع بها الآخرون ، بل حتى لو لم يقتنع هو بها ، لأنه في هذا ـ إنما يُنفِّذ حكماً شرعيًا لا يملك هو ، ولا المسلمون ، أن يبدِّلوه ما داموا قد آمنوا بالقرآن واتَّخذوه دستوراً وشِرْعة ، وما دام القرآن يقول لهم :

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ..

وعلى الرغم من هذا ، فإن أبا بكر لم يمتشق حُسامه حتى اقتنع المسلمون برأيه ، واقتنعوا بأنهم حقا ليسوا أمام مجرَّد محاولةٍ للنكوص عن دفع الزكاة.. بل هم أمام تجمهر مُسَلَّح ، وزحف أكيد على المدينة وعلى الإسلام..

وساعتئذٍ قال عمر قولته المأثورة:

"فما هو إلاَّ أنْ شرح الله صدري لرأي أبي بكر" ..

وقال ابن مسعود كلمات تصوِّر الموقف أصدق تصوير :

ـ "لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كِدنا نَهلِك فيه لولا أن مَنَّ الله علينا بأبي بكر"!!

لقد كان ثَمَّةَ قَدْر يسمح باختلاف الرأي في هذا الموضوع ويأذن بتباين النظر .. ومن ثمَّ عرض أبو بكر المسألة للمناقشة مُبدياً تصميمه على أن يحمل المسئولية التي يفرضها عليه القرآن .

وكان هذا القدر الذي سمح بتبادل الرأي متمثلاً في الصورة التي بدأت بها المحاولة المرتدَّة .. إذ كانت في الساعات الأولى لها مقصورة كما ذكرنا على الامتناع عن دفع الزكاة .

فهل يُوجب الامتناع عن دفع الزكاة القتال ..؟

وبأسلوب عصرنا الحديث نقول: إن الأزمة بدأت بحركة "عصيان مدَني" تمثل في الامتناع عن دفع الضرائب ، وتحوَّل إلى "عصيان مسلح" ليؤكد حقَّه في هذا الامتناع ..

فهل تقف الحكومة ساكتة ضارعة أمام هذا التَّحدِّي .. أو تحمل مسئولية زجره وقمعه ..؟

هذا ؛ مع ملاحظة أن الذين امتنعوا عن دفع الضريبة وحملوا السلاح ، لم يظلوا مكانهم في ديارهم مكتفين بموقف الدفاع إذا هوجموا ، بل نادى بعضهم بعضاً ليزحفوا على المدينة ..

هذا هو وَضع الأزْمَة تماماً .

ومع ذلك ، فقد بلغ التَّسامح تجاهها أن يختلف فيها المسلمون ، ويتبنَّى الرجل الثاني فيهم وهو عمر بن الخطاب ، الرأي الهاتف بالمُوادعة ، وتركهم حتى يَفيئوا تلقائيًا إلى أمر الله وهُداه ..!!

* * *

ونغادر موقف الردَّة هذا وقتاً وجيزاً ، لنرى موقفاً آخر سبق وقفة الردَة ، وتجلّى فيه إيمان أبي بكر بربه وبرسوله ، على نحو يجعل من هذا الرجل الشَّاهق الباهر نَسِيجَ وحدِهِ في الإيمان .. ذلكم هو موقفه من بَعث أسامة ..

فقبل وفاة الرسول ، كان عليه السلام قد أعدَّ جيشاً بإمْرَة "أسامة بن زيد" ، ووجْهته الشام ..

وكان الجيش يوم مات الرسول ﷺ مُعَسكراً على بعد ثلاثة أميال من المدينة ، يتهيأ للسَّيْر .

وأرجأتْ وفاة الرسول زَحْفه . واختلف الرأي بعد هذا في أمره ..

فرأى فريق من المسلمين ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، أنَّ بَعْث جيش أسامة إلى الشام مخاطرة رهيبة في الوقت الذي أصبحت المدينة نفسها ـ عاصمة الإسلام ـ مهددة بغزو المرتدين .

ورأوا ضرورة عودة الجيش إلى المدينة ليكون في مواجهة الأحداث الجديدة الزاحفة .

وكان "أسامة" نفسه ـ قائدُ الجيش ـ من أصحاب هذا الرأي .

والمسألة حين تُقاس بالمنطق الْمُجَرَّدِ لا يبدو الصواب إلا في هذا الرأي الذي تبنّاه عمر وأسامة ..

لكن أبا بكر يستمد منطقه من إيمانه.. وكل قضية عنده تتسع للاجتهاد إلا قضية أبرم الله فيها حكماً ، فلْيكن ما أمَر الرسول ﷺ به ، مهما تكن مستحدثات الظروف ، ومهما تكن الأخطار التي تهدد المدينة ..!!

وهكذا كان جواب أبي بكر للناس :

ـ "أنفذوا بَعْثَ أسامة ؛ فوالله لو خَطفتني الذئاب لأُنْفذَنْهُ كما أمرَ رسول الله ﷺ ، وما كنت لأَردَّ قضاءً قضاه" ..!!

لم يعد ثَمّة نزاع في الأمر ، ولم يكن أبو بكر بتصميمه هذا مُفتَئِتاً على آراء الآخرين ، لأن القضية أساساً ليست مما يُعرض للشورى بعد أن قال فيها رسول الله ﷺ كلمته وأَعْطَى أمره .

وأبو بكر يُؤْثر أن تتخطفه الذئاب على أن يردَّ للرسول قضاء ، أو يُعطِّل مشيئة ..!!

وعاد بعض المسلمين وعلى رأسهم "عمر بن الخطاب" أيضاً ، يطلبون من "أبي بكر" أن يجعل على رأس الجيش قائداً غير "أسامة" الذي كان فتًى صغير السن ، محدود الخبرة ، ولا سيّما في هذا الجيش شيوخ الصحابة وأجِلاّؤهم .

وهذه المسألة أيضاً إذا بُحثت في ضوء المنطق المجرَّد يبدو ذلك الرأي سديداً .

لكنَّ أبا بكر في هذا ، شأنه في كل أمر يستمد منطقه من إيمانه..

فالذي وَلَّى أسامة قيادة هذا الجيش ، هو رسول الله ..

ولقد رضيه الصحابة ورسول الله حيٌ، أفيخلع أبو بكر رجلاً ولاّه الرسول ﷺ ..؟؟

لم يكد عمر يعرض الرأي المقترح على أبي بكر حتى ثار الرجل الحليم ثورة ما ثار مثلَها قبلُ ولا بعد ..!!

ولْنَدَعْ شاهد عيان يصف لنا المشهد فيقول:

ـ "وَثَبَ أبو بكر من مكانه وأخذ بلحية عمر ، وقال: وَيْحك يابْنَ الخطاب .. أيُوَلِّيه رسول الله ، وتأمرني أن أعزلَهُ" ؟؟!!

ثم قام يتبعه عمر إلى حيث كان الجيش معسكراً ، فدعاهم للتحرك على بركة الله وسار معهم مُودِّعاً ..

ومشى الخليفة على قدميه إلى جوار أسامة الذي كان ممتطياً ظهر فرسه ..

واستحْيا أسامة ، فهمَّ بالنزول داعياً خليفة رسول الله إلى الركوب ..

"فَثَبَّتَهُ أبو بكر بيده في مكانه وهو يقول : والله لا نَزلْتَ ولا أَرْكب .. وماذا عليَّ أن أُغَبِّرَ قَدَمَيَّ في سبيل الله ساعة" ..؟!!

كل أمر عنده سهل ، وكل جَلَل يهون ، إلا أمراً يدعوه إلى الخروج قيد أنملة عن طاعة الله ورسوله ..

إن بينه وبين الله عقداً ومِوْثقاً يتمثلان في إيمانه الراسخ الصامد ..

وإنه لَمصمِّمٌ على أن يحمل ـ حتى الموت ـ الالتزامات كافة ، التي يفرضها هذا الإيمان . ولو تخطَّفته الذئاب !!

وهو على يقين أن الإيمان يحمل معه بصيرته التي تهدي إلى الحقِّ وإلى الصواب .

وفي قصة أسامة بالذات تجلّى صدق هذا اليقين .

فإصرار أبي بكر على إنفاذ بعْث أسامة لم يُفِئ عليه مثوبة الطاعة فحسب ، بل أفاء عليه الرُّشد والمنهج الصواب ..

فهناك صوْب الشمال كانت الفتنة قد شرعت تَذرُ قَرْنيها ..

ولكن لم تكد القبائل التي مرَّ بها جيش أسامة وهو في طريقه إلى الشام .. لم تكد تبصر هذا الجيش اللّجِب حتى عاد إليها صوابها ، وقال بعضهم لبعض :

ـ والله لو كانت المدينة تَئِن تحت وطأة الضعف والخلاف كما سمعنا ، ما كان بِوُسعها أن تبعث هذا الجيش ، في هذه الأيام لتقاتل الروم..!!

وهكذا كان مجرَّد تحرُّك الجيش إلى غايته مُثبطاً أيَّ مثبط لكثير من القبائل التي كانت فتنة الرِّدَّة تتسلل إليها ..!!

* * *

ونعود إلى الصِّديق وهو يواجه الرِّدَّة بإيمانه الصّلب .

وعندما نعيش مع المصادر التاريخية التي سجَّلت أحداث تلك الأيام الفاصلة يأتلق حتى يملأ الأفق سؤال أكيد هو :

– أيُّ مصير كان ينتظر الإسلام لو لم يكن أبو بكر يومئذٍ هناك ..؟؟

لقد كان ابن مسعود يُبَسِّط الحقيقة الكبرى في قولته السالفة .

"لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه ، لولا أن مَنَّ الله علينا بأبي بكر" ..

أجل ، لقد كان "أبو بكر" يومئذٍ نعمة الله ومَثوبته للدين ، وللناس ...

قد تضرَّمت الأرض ناراً في الجهات النائية من المدينة ، والتي كان معظم أهلها حديثي عهد بالإسلام ، ولم يكونوا يتصوَّرون بفطرتهم الساذجة أن رسول الله يموت كما يموت الناس ، وهكذا بهذه السُّرعة ..!!

لقد سقط هؤلاء تحت صياح الكاذبين المَهَرَة الذين كانوا يتربَّصون بالإسلام كل سوء.

لقد انشقّت الأرض فجأة عن كل الموتورين به والمتربِّصين. وعن أنبياء كَذَبة ، قادوا ببراعة الإفْك ، جميعَ الذين كانت الغفلة تُرشِّحهم لأن يكونوا ضَحايا أكاذيبهم ، ولا سيما أولئك البعيدين من المدينة والداخلين في الإسلام من قريب..

وقف طُليحة الأسدي يعلن نُبُوَّة كاذبة ، وتبعه الكثيرون من قبائل أسد ، وغطفان ، وطيِّئ ، وعبس ، وذبيان ..

ثم اشتعلت نيران الردَّة في بني عامر ، وهوازن ، وسليم ..

ثم شبَّت في بني تميم ، وجاءتهم المرأة "سَجاح" تزعَق فيهم بنبوَّتها الضالة المُهرِّجة..!!

ثم تمرَّد أهل اليمامة رافعين لواء أخطر مُدَّعي النبوَّة جميعاً – مُسَيْلِمَة الكذاب ..

وهكذا بعد أن كان أبو بكر يُواجه فُلولاً صغيرة ، أصبح أمام جيوش جرّارة ، قوامُها عشرات الألوف من المقاتلين .

وسرَت العدوى إلى أهل البحرين ، وعُمان ، والمهرة ، وصار هؤلاء وأولئك يتغنَّوْن ببيت من الشعر أطلقه أحد شعرائهم..

أطَعنا رسول الله ما دام بيننا   فيَا لَعِبَاد الله ، مَا لأبي بكر؟؟

ولكنْ ، لله من خَلْقِه رجال تتحوّل المحن بين أيديهم إلى مِنَحٍ، والكوارث إلى ربيع، تملؤه روح الحياة ..!!

وأبو بكر من هؤلاء الرجال ...!!

فخلال هذه المِحنة الصاهرة التي ألمّت بالإسلام ، تكشَّفَتْ كل جوانب الضعف في البناء البَشَري للإسلام ، وهبَّ الرجل الحكيم القوي من فوره ، فرأبَ الصَّدْع ، وحوّل الصفَّ إلى تماسكٍ واقتدار ..!!

وكانت حظوظ الإسلام وافية ، ومقاديره سعيدة ، إذ جاءته هذه المحنة وأبو بكر حامل الراية ، وقائد الأمة ..

وبفضل من الله ورحمة ، تفوّق الرجل الكبير والخليفة المؤمن على أخطار كانت حريَّةً بأن تُداعِي بناء إمبراطورية شامخة راسخة ، فما البالُ بدين ناشئ غضٍ جديد ..؟!

وكانت تلك الأيام المزلزلة أعظم أيام الإسلام بعد رسول الله ﷺ وأخصبهَا ، وأكثرها بركة عليه ، وخيراً لمصيره .

لقد سقطت الأقنعة عن الوجوه المتنكّرة ، وتقايأت الصدور الموتورة كل أحقادها الدفينة ، وأقبلت النار المباركة تصهر الأمة الجديدة وتَنفي خَبَثَها بصورة شاملة ، وأكّد إيمان أبي بكر مقدرته ، لا على اقتحام العقبات فحسب ، بل على أن يعلّم الدنيا كلها أهمية الإيمان .

لقد آمن بأن الله حقَ ، وبأن الإسلام حقَ ، وبأن محمداً رسول الله حقَ .. فلم يَعُدْ له مع هذا الإيمان أن ينكُث أو يتردّد ..

ولقد تركهم رسول الله ﷺ على المحجّة البيضاء ، ليلُها كنهارها .. وأبو بكر اليوم خليفة الرسول على هذا التراث ، وواجبه أن يفعل كل ما يعتقد أن الرسول ﷺ كان يفعله لو أنه اليوم حيَ ..

أفكانَ الرسول ﷺ يقف صامتاً أمام أولئك الكَذَبة الذين يحاولون أن يُنكِّسوا راية الحقَ ، ويطفئوا نور الله ..؟

إنهم برغم فساد منطقهم ، لم يتوسَّلوا بالمنطق ، بل حملوا السلاح وتنادَوْا لغزو المدينة . فليصنع ما كان النبي ﷺ صانِعَه ..

وهكذا أرسل بأسه العادل على المتمردين في كل مكان ، وانتصرت جيوشه على تلك المعاقل .. ثم تعقَّبت المصادر الخفية المحركة للفتنة.. هناك في الشام والعراق ، حيث كانت الروم والفرس تتخذان منهما مراكز وُثوبٍ ، وأوكار مُؤامرة ..

وهناك في الشام ، وفي العراق ، وفي دومة الجندل ، وجدت جيوش الإسلام قوماً عِطاشاً إلى الهُدى والعدل والأمن ..

أين المرتدُّون الذين حملوا السلاح ليقضوا على الدين الجديد..؟؟

أين مُسَيْلمة ، وطُليحة ، وسَجاح ، بجيوشهم الجرارة .. ؟

أين أولئك الذين كانوا يتغنَّوْن وهم يرقصون بأسلحتهم قائلين: فَيَا لَعِبادِ الله ، ما لأبي بكر ..؟!

لقد تمزقوا بَدَداً كبقايا زوبعة ضالَّة ، وولَّوا أمام الحقّ ، نائحين بشِعْرٍ آخر:

ألا فاسْقِيَاني قَبل خَيْلِ أبي بكر لعلَّ منايانا قريبٌ ، ولا نَدري!!

"خيل أبي بكر" ..؟!!

لقد صارت هذه العبارة كقعقعة الهول في أسماع الذين أرادوا أن يُخضعوا الحقَّ للباطل ..!!

* * *

ترى أيُّ انقلاب هائل مَخر عُباب شخصية أبي بكر..؟!

الحقُّ أنه لم يكن ثمة انقلاب ما ، وليست مواقف الصديق ـ مهما تعاظم كلُّ مألوف ـ بِغَريبةٍ عليه ..

فطبيعة هذا الرجل العظيم من الطبائع التي يتم نُضجها واكتمالها في بواكير العمر دون أن يكون لها فيّ مقبل الأيام نَشاز أو غرابَة أطوار ، إنما يكون لها امتداد طبيعي في الآفاق الواسعة لخصائصها ، وفضائلها ، وقُواها..

فأبو بكر الوديع ، هو أبو بكر القوي ، منذ لبس ثوب الحياة.

وقوَّته هذه الصامدة العارمة التي تبدَّت عنه وهو خليفة ، هي نفس قوَّته التي كان يملك زمامها ورسول الله حيٌ ..

لكنه في أيام الرسولﷺ ، كان يجتهد أن يبقى في الظلال ، فلا يقع عليه ضوء ، ولا يُعزَى إليه فضل .

أما بعد وفاة الرسول عليه السلام ، فقد صار ـ شاء أم أبى ـ صاحب الدور الأول والرئيسي على مسرح الأحداث .. ومن ثَمَّ لن يستطيع أن يُخفي مَزاياه وسْط الزحام ، لأن مسئولياته وَضَعَتْه أمام جميع الصفوف ..

وهكذا أُتيح للإسلام أن يرى بصورة أوضح خصائص ابنه المبارك العظيم ..

إن قوته وصلابته اللتين يُواجه بهما مسئولياته كخليفة ، هما اللتان واجه بهما من قبل مسئولياته كمؤمن ..

* ففي الأيام الأولى للدعوة ، لم يكن يسمع أن الرسول ﷺ في أذى ، إلا ويهرول مسرعاً ، فيخلِّص الرسول من الأذى ويُسلم نفسه إليه ..!!

* ويوم الهجرة ، تمتلئ نفسه غبطةً بصحبة رسول الله ﷺ ، وهو على يقين بأن قريشاً ستُجَنِّد لمطاردتهما كل بأسها وقواها ..

* ويوم بَدر ، يلازم الرسول في خيمته ، وهو يعلم أن الخطر كله إنما يُحْدِق بهذه الخيمة .

* ويوم أُحُد ، حين خالف الرُّماة نبيَّهم ، ظانِّينَ أن المعركة قد انتهت بهزيمة قريش ، فتركوا موقعهم أعلى الجبل ، حيث عاد جيش قريش فدمْدَم على المسلمين وأصلاهم هزيمة أليمة .. وخلا الميدان إلا من جُثث الشهداء يمثل بها المشركون في وحشية داكِنة .

يومئذ بَصُرَ الرسول بأبي بكر ، يجري وحده إلى المشركين شاهراً سيفه ، فيناديه في ضَرَاعة عالية .

"اغمد سيفك يا أبا بكر ، لا تَفْجَعْنا بنفسك" ..

ويُواصِل الرسول نداءه لأبي بكر آمراً إياه أن يعود ، فيعود .

فما كان له أن يعصي لرسول الله أمراً ، حتى لو حالَ الأمر بينه وبين جلال الاستشهاد الذي كان مندفعا نحوه في شوق عظيم ..!!

* * *

هذه هي القوة الأمينة التي كان أبو بكر يستمدها من أعماق كِيانه ، ومن أعماق إيمانه .

كيانٌ عربي حُر ، تَلَقَّى من تربيته ومن بيئته أروع المزايا ..

وإيمانٌ صِدِّيق عظيم ، يؤثر أن تتخطفه الذئاب ، ولا يعصي لإيمانِهِ أمراً ..

وإن مواقفه الباهرة ، قبل الخلافة وبعدها ، لَتشكِّلُ نَموذجاً واحداً من القوة ، والأمانة ، وسلامة التقدير .

ذلك أن الله أنعم عليه بطبيعة قويمة ، وإيمان مكين .

إيمان رجل أسلم وجْهه لله ، وهو مُحْسِن ..

وأعطى حياته لإيمانه وهو مُغتبط ..

وحملَ مسئوليات دَوْره في تُقًى ، وأمانة ، وبصيرة .. !!

وَلَسْتُ بخيْركم ..

هذا الرجل العظيم المتفوِّق .

كيف عاش حياته كحاكم ، ومَارَسَ دوره كخليفة .. ؟ .

هذا الذي وُلد سيداً ، وعاش سَيِّداً ..

هذا الذي لم تُفْلِت منه مَزِيّة ، ولم تغِبْ عنه فضيلة ...

هذا الذي أنقذ الإسلام من خطر محقق ، وردَّ إليه حياته وثَباته ..

هذا الذي بدأت أبراج كسرى وقيصر تتساقط تحت قدميه ، والعالم القديم كله يتداعى بين يديه ..

هل غيَّرت الخلافة من جوهر نفسه أو من أسلوب حياته .. ؟

هل نسِيَ تَواضُعَه ، وفضائله في زَحمة انتصاراته .. ؟!

هل عاش خليفة ـ فوق ـ الناس ؟

أم ظَلَّ واحداً ـ بين ـ الناس ... ؟

لنقف في رحابه لنرى ..

ولنبدأ باللحظات الأولى من خلافته .

ها هو ذا ينقل خُطاه في حياء ووَجل ، مُيَمِّماً وجهه شطر منبر رسول الله ﷺ.

هذا المنبر الذي طالما نادى النَّبيُّ المسلمين من فوقه ، ودعاهم إلى الهدى ودين الحق ..!!.

ها هو ذا أبو بكر ، يصعده مرة ، بعد أن غاب عنه فَيْصَلُهُ وربَّانه ..

وإنه ليصعد درجتين ثم يجلس، فهو لا يبيح لنفسه أن يصعد كل الدَّرج، وكل المُرْتَقَى..!!.

لا يُبيح لنفسه أن يجلس حيث كان الرسول ﷺ يجلس ..

وها هو ذا يستقبل الجمع الحاشد يتلو على الناس مَوْثِقَهُ وعهده :

« أيها الناس ..

إني وُلِّيتُ عليكم ، ولَستُ بخيركم ..

إن أحسنتُ فأعينوني ..

وإن أسأت فَقَوِّموني ..

ألا إن الضعيف فيكم قويّ عندي ، حتى آخذَ الحقَّ له ..

ألا وإن القويَّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذَ الحقَّ منه ..

أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله ..

فإذا عصيتُ فلا طاعة لي عليكم » .. !! .

إننا على كثرة ما وَعَى التاريخ من مواثيق وخُطب استهلَّ بها الحكام عهود حكمهم ، لم نَجِدْ قط ـ ولن نجد أبداً ـ مثل هذه الحكمة ، وهذا القِسْطاس !! .

ولقد زاد الموقف روعة وعظمة أن سُلوك صاحبه لم يَنِدَّ عنه لحظة، ولم يَعْزُب عنه قيد شَعْرة..!!.

لقد كان أبو بكر بهذه الكلمات المعجزات ، يضع في إطار من الذمة والصدق مسئوليات الحاكم الأمين ، ويكشف عن جوهر كل حكومة صالحة ..

« إني وُلِّيتُ عليكم ولَسْتُ بخيركم» .

بالله ما أروعها من بداية .. !!

فهو يريد أن ينزع من صدور الناس أيَّ وَهْمٍ يجعلهم يضعون الحاكم فوق قَدْره ومكانه ..

يريد أن يُقِرَّ في أفئدتهم أن الحكم ليس مزيَّة ولا امتيازاً .

إنما هو خدمة عامة في أكثر مستويات هذه الخدمة مشقَّة ومسئولية وشظفاً .

إنه بهذه الكلمات الوِضَاء يُقَرِّرُ :

أن الحُكم وظيفة لا استعلاء ..

وزمالة لا كبرياء ..

ويقرر أن الحاكم "فرد" في الأمَّة .

وليسَ "الأمَّة" في فرد ..

« إني وُلِّيتُ عليكم ، ولَسْتُ بخيركم» .

أجَل ..

إنه ليس بخيرهم لأنه حاكم ..

ولكنه خيْرُهم لأنه حكيم .. لأنه الصِّدِّيق الذي توافَر له من الصدق ومن الإيمان ، ومن الأمانة ، ومن الرُّشد ما جعله ثانِيَ اثْنَين ..

ومَن أجْدَرُ منه بهذه الكلمات .. ؟

مَنْ أحقُّ مِنْ أبي بكر وأوْلَى بهذا الموقف .. موقف الحاكم الذي يدرك تماماً أنه لَن يكون عظيماً إلا بقدر ما تكون أمَّته عظيمة ..

ولن يكون حُرًّا إلا بقدر ما تكون أمَّته حُرَّة ..

ولن يكون عزيزاً ، إلا بقدر ما تكون أمَّته عزيزة ..

ولن يكون آمناً إلا بقدر ما يكون شعبُه آمناً ..

وسبيل ذلك عنده أن يملأ الشعبُ مكانَه ؛ ويدرك أنه الضَّمان الأوحد لكل ما يرجى للوطن وللحاكم من خير وعدْل وسَدَاد .. !!

« لَسْت بخيركم .. » .

« فإن أحسنت فأعينوني» .

« وإن أسأت فَقَوِّموني » !! .

وهذه هي وظيفة الشعب عند أبي بكر .

وهذا هو جوهر علاقته بحاكمه .

أن يكون عوناً له على نفسه وعلى مسئولياته .

وذلك لا يتم إلا بأن يقف منه موقف الشريك البصير لا موقف التابع الضرير ...

يُعينه إذا أحسن .

ويُقَوِّمه إذا أساء ...

ثم ينتقل أبو بكر في خطابه وميثاقه إلى سيادة القانون فيعلنُها، ويؤكد إصراره عليها ...

« الضعيف فيكم قوي ، حتى آخذ الحق له .. »

« والقوي فيكم ضعيف ، حتى آخذ الحق منه .. »

« أطيعوني ما أطعت الله ورسوله .. »

« فإذا عصيتُ ؛ فلا طاعة لي عليكم .. ! » .

* * *

أيُّ صدق ... وأيُّ رَوعة .. ؟!

رجل له كل هذه المزايا وسْط هذه الجماعة المؤمنة ، ثم يبدأ خلافته داعياً الناس في إصرار عظيم كي يأخذوا مَكانَهم إلى جواره .. لهم الحقوق نفسها ، وعليهم الواجبات نفسها .. ! .

أجل .. لقد كان عظيماً ـ أيَّ عظيم ـ وهو يُعَلِّم الناس بقوله وبسلوكه أنه لا يَفْضُلُهم في شيء ، وأنه في حاجة دائمة ومُلِحَّة إلى ما معَهم من فضل ، ومن رأي ، ومن اعتداد بالنفس ، وصلابة في الحقّ ...

* * *

ولقد تقبَّل الخليفةُ منصبَ الخلافة غيرَ راغبٍ فيه ، ولا حريص عليه ، ولولا أنها التَّبِعَاتُ الفاصلة في الأيام الحاسمة لأوَى إلى رُكن بعيد ، ولَهَرَبَ مِنْ ذلك الذي يُسارع الناسُ إليه ، ويتهالكونَ عليه ..

لقد كان صادقاً حين قال :

ـ « والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة .. ولا سألْتها الله في سِرٍّ ولا علانية » ..

أجل .. لم يكن عليها حريصاً .

ولولا أن يكون بتخلِّيه عنها قد هرب من مسئوليات دينه وإيمانه لاتَّخَذَ سبيله إلى الفرار سَرَباً ..!!

ولقد حاول ذلك فعلاً بعد أن فرغ من قمْع فتنة المرتدين .

فذات يوم دخل عليه عمر ـ رضي الله عنه ـ داره ، فَألْفَاهُ يبكي .

وما كاد يبصر عمر أمامه حتى تشبّث به كأنه زورق نجاة ، وقال له :

ـ « يا عمر ، لا حاجة لي في إمارتكم .. » .

ولم يتركه "عمر" يُتم حديثه ، فقد بادَرَه قائلاً :

ـ « إلى أين المفر .. ؟ والله لا نُقيلك ، ولا نستقيلك » .. !!

* * *

والآن ، لنقترب من بعض تلك المشاهد .. حيث يضع الخليفة موضع التنفيذ ، خِطابَه الذي أعلنه يوم بيعته .

لِنَقْترب ولْنرَ هذا الابن المبارَك العظيم .. لا للإسلام وحده .. بل للحياة كلها .

لِنُبصر هذا الحاكم الهاطل يملأ حياة الناس عافية ورحمة ، وَرَوْعةً وأمْناً .

لقد كتُب عليه أن يبدأ عهد خلافته بواقعة امْتُحِن فيها ولاؤه للقانون وللحقّ امتحاناً عظيماً .

ذلك أن السيدة فاطمة بنت رسول الله ، والعباس عمّ رسول الله ، ذهبا إليه يسألانه حقهما في قطعة أرض صغيرة كان الرسول ﷺ قد أصابها في بعض الفيء ، وكان عليه السلام يعطي السيدة فاطمة وبعض أهله جزءاً من نتاجها ، ثم يقسم الباقي بين فقراء أصحابه .

والآن ، بعد وفاته ـ عليه السلام ـ ذهبت فاطمة رضي الله عنها إلى خليفة الرسول ﷺ تسأله هذه القطعة من الأرض باعتبارها ميراث أبيها عليه السلام .

قال أبو بكر لها وللعباس :

ـ « سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « نحن مَعاشِرَ الأنبياء لا نُورَث ، ما تركناهُ صَدَقة » ، وإني والله لا أدَعُ أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صَنَعْتُه ؛ فإني أخشى إن تَركْتُ شيئاً من أمره أن أزيغ » .

إن أبا بكر يعلم أن أوْلى الناس بالرعاية ـ في الحقّ ـ هي بنت رسول الله ﷺ.

ويعلم كم كان الرسول ﷺ يُحبُّها ويُؤْثِرُها .

ويعلم مَدَى حاجَتِها وزوجها وأولادها إلى هذا القطعة الصغيرة من الأرض .

وأبو بكر يؤثر أن يركب الصَّعْبَ في غبطة ، على أن يقول لابنة الرسول : لا ...

ومع هذا ؟ فقد قالها .. !!

إنه حين آمن بالرسول وبدينه وشِرْعته صارت هذه الشّرْعةُ قانوناً ..

وإيمانُه بالقانون لا ينفصل عن إيمانه بالله ورَسُوله ..

ولقد قال الرسول ﷺ: نحن معاشِرَ الأنبياء لا نُورَث .

إذن ، فقد صار حكماً من أحكام الشريعة التي يؤمن بها ألا يُورَّث نبي .

وهكذا وجد نفسه بين ولَاءيْن :

ولائه لرسول الله ﷺ في أحب الناس إليه ، وهي ابْنته ..

وولائه للقانون الذي جاء به رسول الله نفسه ..

ولم يكن له أن يتردَّد ..

فهو رجل لا يحمل إيمان العوام .. بل إيمان العباقرة .

الإيمان الذي لا تُثْنِي عزيمتَه قربى أو مُجاملة ...

ولم تكد السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ تسمع جواب أبي بكر عن مسألتها حتى اكْتَسى وجهها بالأسى والألَم .

والصِّدِّيق يعلم أنها أسرع الناس إلى طاعة رسول الله، وأنها لا تخالف أبداً عن أمره .. ولكن قد يُخامرها الشك في أن الرسول ﷺ قد قال هذا الحديث ، وشرع هذا الحُكْم ...

ومِنْ ثَمَّ أرسل إلى عمر ، وطَلْحة ، والزُّبير ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وعبد الرحمن بْن عوْف ، وسألهم أمامها :

« نشَدْتُكم بالذي تقوم السماء والأرض بأمره ، ألَم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال : نحن لا نُورَث ، ما تركْناه صَدَقة » ؟؟

وأدْلَتْ فاطمة بحجة جديدة ، فقالت للخليفة : إنك تعلم أن الرسول ﷺ كان قد وهبَها لي في حياته ، فهي لي إذن بحقِّ الْهِبَة ، لا بحقِّ الإرْث ...

قال أبو بكر: أجَلْ، أعلم.. ولكني رأيته يقسمها بين الفقراء والمساكين وابن السبيل بعد أن يعطيكم منها ما يكفيكم... وإذن فقد أراد أن يكون فيها حقٌّ دائم للفقراء .

قالت فاطمة : دَعْها تكن في أيدينا ، ونَجري فيها على ما كانت تَجري عليه وهي في يد رسول الله .

قال أبو بكر : لستُ أرى ذلك ، فأنا وَلِيُّ المؤمنين من بعد رسولهم ، وأنا أحقُّ بذلك منكما ـ أضعُها في الموضع الذي كان النبي ﷺ يضعها فيه ... !!

في هذه الواقعة التي واجَهَت الصِّدِّيق في بداية حُكْمه اجتاز إيمانه بالحقِّ وبالقانون امتحاناً لا يُدرِك رهبته ومشقته أحد سوى أبي بكر .

ولقد أصاب في هذا الامتحان ظفراً عظيماً .. !!

* * *

واحترام أبي بكر للقانون لا ينفصل عن احترامه للذين يحملون معه مسئولية رعايته .

فيوم خرج يُوَدِّع أسامة ـ وقد سَبق الحديثُ عنه ـ كان بين جنود هذا الجيش ، عمر بن الخطاب .

وكان أبو بكر حريصاً على أن يبقى عمر بجواره في المدينة . ولقد كان يستطيع كخليفة للمسلمين أن يستبقيه بقرار ينفرد بإصداره ، لكنه يعلم أن في هذا التصرُّف افتياتاً على موظف مسئول ، يجب أن تتوافَر له الضَّمانات التي تُمكنه من أداء واجبه وممارسة وظيفته .

وأُولى هذه الضمانات ألاّ تَنْتَقِصَ سُلْطة مًّا شيئاً من حقوقه ، حتى لو تكون سلطة الخليفة نفسه .

وهكذا ، اقترب الخليفة من قائد الجيش "أُسامة" ، وقال له في همس ورجاء :

ـ « إذا رأيت أن تترك لي عمر بن الخطاب ، فإني أجدُ في بقائه معي خيراً ونفعاً » ..؟؟

وبادر أسامة بالرضا والمُوافقة .

إن أبا بكر لم يفعل ذلك مُجاملة ، أو تواضعاً .

إنما فعله واجباً ...

ولو قال أسامة ساعَتَئِذٍ : لا ، ما وَسِع الخليفة أن يخالفَ أو يَفْتات .

ومَن شاء أن يرى جَلاَلَ الحُكم، وعَظَمة الحاكم، فلينظر أبا بكر غَدَاة اسْتِخْلافه.

إذ خرج من داره حاملاً على كتفيه لُفافة كبيرة من الثياب .

وفي الطريق يلقاه عمر بن الخطاب وأبو عُبيدة بن الجرّاح فيسألانه :

ـ إلى أين يا خليفة رسول الله .. ؟؟

فيجيبهما : إلى السُّوق ..

قال عمر : وماذا تصنع بالسوق ، وقد وُلِّيت أمْرَ المسلمين .. ؟؟

قال أبو بكر : فَمِنْ أين أُطْعِمُ عِيالي .. ؟

لم يُدخل مَنصب الخلافة على النفس الكبيرة أيَّ زَهْو ، ولم يُحرِّك لها رغبة ـ أيَّ رغبة ـ في تغيير أسلوب الحياة .

قال له عمر : انطلق معنا نفرض لك شيئاً من بيت المال .

وصحبهما الخليفة إلى المسجد حيث نُودِي أصحاب الرسول ﷺ ، وعرض عليهم عمر رأيه في أن يفرض للخليفة "بدَل تفرُّغ" .

وفعلا ـ فرضوا له كفافاً... بعض شاة كل يوم ومائتي دينار وخمسين في العام... ثم زيدت بعد ذلك إلى شاة في اليوم وثلاثمائة دينار في العام .

وعاش أبو بكر بهذا هو وأسْرته الكبيرة ، حتى بعد أن فُتح للمسلمين أبواب الرزق والرَّغد ، وبدأت خيرات الشام والعراق تَفِدُ إلى المدينة .

ولم يكن الصِّدِّيق يلتزم القناعة لمجرَّد الزهد ، بل كانت قناعتهُ جزءاً من فلسفته .

فهو يقدس اللقمة الحلال ، ويحاذِرُ أن يدخل جوفه كِسْرة فيها شبهة ..

وهو يرى أن الحلال ليس من الكثرة بحيث يتسعُ للإسراف .

فإذا وُجد سَرَف ، أو تَرَف ، فاعلم أنَّ ثمَّة سُبُلاً للعيش غير مَشروعة .

وإن خليفة "محمد" ﷺ لَيُؤْثِرُ أن يَشدَّ على بطنه حَجرين من المَسْغَبَة كما فعل مُعَلِّمه ورسوله ﷺ ، على أن يُدخِل أمعاءه لقمة فيها شُبهة ..

يحدثنا الإمام البخاري في صحيحه أنه كان لخليفة رسول الله غلام جاءه يوماً بشيء فأكل منه ، ولمّا فرغ من أكله قال له الغلام : أتدري ما هذا يا خليفة رسول الله ..؟

قال أبو بكر : ما هو .. ؟

قال الغلام : إني كنتُ قد تكهَّنْتُ لرجل في الجاهلية ، وما أُحْسِنُ الكهانة إلا أني خدَعْته .. وقد لَقِيني اليوم فأعطاني ، فهذا الذي أكَلْتَ منه ...

« فأدخل أبو بكر يده في فمه حتى قاء كُلَّ شيء في جوفه » .

ـ ويُضيف صاحب الصَّفوة إلى ذلك أنه قيل لأبي بكر :

« يرحمك الله .. كُلُّ هذا من أجل لقمة واحدة » .. ؟!!

فأجاب قائلاً :

ـ « والله لو لم تخرج إلا مع نَفْسي لأخرجتُها .. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: كل جَسد نَبت من سُحْت فَالنَّار أَوْلَى به ، فخشيت أن يَنْبُت شيء من جَسدي من هذه اللُّقمة » ..!!.

* * *

كان إصراره عظيماً على ألاَّ ينال من بيت المال إلا ما يكفيه وأهله بالمعروف .

وما نال من المال وهو خليفة ، ولا نال من مَتاعم الحياة إلا ما كان يأكل وأهله من جَريش الطعام .. وإلا ما كانوا يلبسون من خَشِن الثياب .. !!

ويرغم هذا كله ، فحين أدركه الموت دَعا إليه ابنته عائشة رضي الله عنها ، وقال لها:

ـ انظري ما زاد في مال أبي بكر مُنذ وَليَ هذا الأمر فَرُدِّيه على المسلمين .

وكانت روحه الطاهرة تتحرك صاعدة إلى بارئها وهو يردِّد هذه الكلمات ...

تُرى ماذا كان هناك حتى يشغَل بال أبي بكر إلى هذا المدى ..؟

ماذا ادَّخر في أيام خلافته من ثَراء يخاف أن يلقى به ربَّه ..؟؟

انظروا ..

إن عائشة حملت تركة أبيها فَور وفاته ، وفَوْر مبايعة عمر . حَمَلَتْها إلى أمير المؤمنين تنفيذاً لِوَصية أبيها ، فما كاد عمر يرى ويسمع حتى انفجر باكياً ، وقال :

ـ "يرحم الله أبا بكر .. لقد أتعبَ كل الذين يجيئون بعدهُ" ..!!

يعني بهذا أن الصِّديق بسلوكه ووَرَعه قد سنَّ نَهْجاً تناهىَ فيَ العظمة ، بحيث يُضْني بلوغُه ومُضَاهاته كلَّ خليفة يأتي على أثَرِه .

لماذا انفجر عمر باكياً حين نثِرُت أمامه ثروة أبي بكر ..؟

لقد كان أمراً غير معقول .. هذه التركة التي خلَّفها الرجل الذي افْتدى الإسلام بماله .. والخليفة الذي بدأت تنثال في أيامه خيْرات الشام والعراق ..

ها هو ذا ، الميراث الذي خلَّفه أبو بكر ، والذي أصرَّ على أن يُردَّ إلى بيت المال .

* بعير ، كان يستقي عليه الماء ..!!

* ومِحْلَب ، كان يحلب فيه اللَّبن ..!!

* وعَباءة ، كان يستقبل فيها الوفود ..!!.

* * *

هذا هو الإنسان الكبير البارُّ الذي جعل شعار حياته ، وشعارَ حُكمه "لَستُ بخيركم"..!!.
وإنه لا يردِّد هذا الشعار تواضُعاً ، بل يُعبِّر به عن جوهره ويُضمِّنُهُ أسمى مبادئ سُلوكه ..
فهو ـ حَقاً ـ لا يرى نفسه خيراً من أحد .

* لقد أنزل الله فيه قرآناً :
﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ ..

* ولقد كان قبل الإسلام واحداً من أعلام قريش وسادتها..

* ولقد أخذ مكانه، في الإسلام من أول لحظة إلى جوار رسول الله ﷺ فلم يتقدم عليه أحد ..

* ولقد أسلم وهو في أوج ثرائه ، فلم يدَّخر لنفسه ولا لأهله درهماً ، وبذل في سبيل الله كل ثروته ـ يحرِّر الأرقَّاء ، ويُطعم الطعام على حُبِّه مسكيناً ، ويتيماً ، وأسيراً ..

* ولقد بلغ من إعزاز الرسول ﷺ له أن أمر بإيصاد جميع الأبواب التي كانت تُفْتَحُ على المسجد ، إلا باباً واحداً أمر أن يبقى .. هو باب أبي بكر ...

* ولم يكن الرسول ﷺ يغضب لنفسه قط .. لكنه لم يكن يصبر على أيِّ إساءة طَفِيفَة تُوَجَّهُ إلى أبي بكر .

* ولقد استخلفه الرسول عليه الصلاة والسلام على الصلاة ، وأصَرَّ على استخلافه ..

* ولقد بايَعه المسلمون بعد النبي ﷺ خليفة لهم وإماماً ..

* ولقد تحدَّتْه فتنةُ الرِّدَّة تحدِّياً رهيباً ، فنصره الله عليها نصراً مؤزَّراً ..

* ولقد رأى أبراج الروم والفرس تتداعى تحت سنابك خيله ، وأقدامِ جُنده ، ورأى العالم القديم كله يبدأ رحلة فنائه تحت خَفْق راياته الظَّافرة ...

كل هذا ولم تتسلَّل إلى نفسه همسة بأنه خير من أحد ..
بل كان دوماً ، يُمسك قلبه بيمينه ، ويجأر بدعاء رسول الله ﷺ :
ـ « يا مُقلِّب القلوب ، ثَبِّت قلبي على دينك » ...
إنه وهو صاحب هذا الإيمان الذي يكفي أهل الأرض جميعاً ، يخاف على قلبه أن يَزيغ ...
ويقول وهو يبكي: "يا لَيتني كُنت شجرة تُعْضَد" ..
فإذا ذُكِّر بمقامه عند الله أجاب :
ـ « والله لا آمنُ لمكر الله ، ولو كانت إحدى قَدَمَيَّ في الجنة » ..
من هنا كان قوله: "لست بخيركم" تعبيراً أميناً عن طبيعته ، وفِقْهِهِ .
ومن هنا كان نَأْيُه الشديد عن كل مظاهر الزَّهْو والاستعلاء .

* * *

ولقد حقَّق "الصِّدِّيق" هذا المبدأ تحقيقاً جعل حياته العظيمة نسيج وحدِها .

* فهو يوم كان يملك ثراء عريضاً ، سأل نفسه: لماذا ينعم بهذا الثراء والمسلمون في فاقة ..؟؟

هل هو خير منهم ..؟

وأجاب نفسه قائلاً: لستُ خيراً منهم.. وإذن فلْنكن في هذه النَّعماء سواء...

وهكذا أقْرض الله كل ماله ، حتى لقد سأله الرسول ﷺ يوماً: « ماذا أبقيت لأهلِك يا أبا بكر » ..؟؟

فأجاب: « أبقيتُ لهم الله ورسوله » !!

وهو حين صار خليفة للمسلمين ، وحين فتح الله عليهم من الرزق والخير ما يسمح له بأن يعيش في رغد وسَعَة ، رفَض أن يتقاضى من بيت المال أكثر مما تتطلبه ضرورات العيش ، وأكثر مما ينالُ أيُ بيت من بيوت المسلمين يضم من الأنفُس ما تضمُّه أسرة أبي بكر .

* ولقد سأل نفسه: لماذا يأخذ أكثر مما يستحق ..؟

هل هو خير من الآخرين حتى يختص نفسه بمزيد ..؟

وأجاب نفسه بأنه ليس خيراً من أحد.. وإذن فَليَعِش في مُستوى المواطن العادي في أمَّته وجماعته، مع أنه يوم كان يعيش من ماله ومن تجارته كان مُستوى معيشته عند مُستَوى دَخله .. رغَدٌ كثير ونفقة واسِعة ...

فلمَا وَلِيَ أمر الناس دَحَض كل ما من شأنه أن يخصَّه بامتياز ـ أيَ امتياز ... وردَّ جميل الذين اختاروه خليفة عليهم بأن فرض على نفسه مساواة كاملة بهم ، وجُهْداً مضنياً في سبيلهم ..

وإن عظمة أبي بكر ـ ومِن بعده في هذا الفاروق عمر ـ لَتتمثَّل أكثر ما تتمثَّل في أنهما سلكا ذلك المسلَك النادر المثال ، وهما متربعان فوق كرسي الخلافة .

وأين ..؟؟

في أمَّة جديدة .. جديدة بكل معاني الكلمة ، تقرع أبواب العالَم ، ويُعانق النَّصر راياتها في كل مكان .. !!

ولقد كان لابد لحكام أمة هذا شأنها ، أن يستحوذ عليهم قدْر من الزَّهو ، ومن الاستمتاع بالحياة مهما يكن زهدُهم ووَرَعُهم ! ..

لكنَّ شيئا من هذا لم يحدث قطُ ، بل حدث النقيض .

فعاش "أبو بكر" مع دموعه الخاشعة ، يردِّد عبارته المأثورة :

"يا ليتني كنت شجرة تُعضَد "..!!

وعاش "عمر" مع دموعه الخاشعة ، يردِّد عبارته المأثورة :

"ياليت أُمَّ عمر لم تَلِد عمر "..!!

وكانا ينثُران على الناس أسلابَ كسرى وقيصر ، وهما يسيران في ثوبين ازدحمت فيهما الرِّقاع ..!!!

وإذا مات "أبو بكر" الخليفة عن بعير ، ومحلب ، وعباءة ، أصَرَّ على أن ترَدَّ إلى بيت المال .

يا سكّان هذا الكوكب الذي نعيش فوقه ...
هل عندكم لهذه النماذج الطاهرة نظير ..؟؟
ألا إنها مدرسة القرآن ...
ألا إنها مدرسة محمد .. عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ..!!.

* * *

إن هذه العبارة الحافلة: "لستُ بخيركم" .. تُصَوِّر لنا جوهر الشخصية الفريدة التي كَانَها أبو بكر الصِّدِّيق.

فهو مُنذ أسلم، وقبل أن يكون خليفة، يضع نفسه من الناس في موضعٍ سَواء...

ولْنصغ الآن إلى "ربيعة الأسلمي" صاحب رسول الله ﷺ:

- "كان بيني وبين أبي بكر كلام، فقال لي كلمة كرهتها، ثم نَدم عليها، وقال لي: يا ربيعة، رُدَّ عَلَيَّ مثلها حتى تكون قصاصاً ..

قلت: لا أفعل ..

فقال لي: لتأخذنَّ بحقِّك مني، أو لأشكُونَّك إلى رسولِ الله ...

قلت: ما أنا بفاعلٍ.

فذهب عني منطلقاً إلى النبي عليه السلام، وانطلقتُ وراءه ...

فجاء ناس من "أسْلم" فقالوا: يرحم الله أبا بكر .. في أيِ شيء يستعدي عليك الرسول ﷺ، وهو الذي قال لك ما قال ..!

فقلتُ لهم: اسكتوا، هذا أبو بكر .. وهذا الذي قال الله عنه - ثانيَ اثْنَيْنِ إذْ هُما في الغار - إيّاكم لا يلتفت فيرا كم تنصرونني عليه فيغضب، فيغضب رسول الله لغضبه، فيغضب الله لغضبهما، فتَهلِك ربيعة ..

وانطلقتُ وراء أبي بكر حتى أتى الرسولَ ﷺ فحدَّثه بما كان ..

فرفع إليَّ رسول الله ﷺ رأسه وقال: يا ربيعة، ما لكَ والصِّدِّيق ..؟

قلتُ: يا رسول الله، إنه قال لي كلمة كَرِهْتُها ثم طلب إليَّ أن أردَّها عليه لتكون قَصاصاً فأَبَيْت ..

فقال الرسول: أحسنتَ يا ربيعة، لا تردَّها عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر ..

فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر..

فولَّى أبو بكر وهو يبكي" ..!!

والآن، فلننظر ..

إنها كلمة واحدة ندَّتْ عن لسانه فَلْتَة ..

وهي كلمة لا يمكن أن تكون من فُحْش القول أبداً؛ لأن أخلاقه لم تكن تسمح له بهذا، ولم يُؤثَرْ عنه - حتى في الجاهلية - شيء من هذا.

هي كلمة هيِّنة ، ولكنها أصابت من ربيعة مَوْجعاً .. فإذا أبو بكر يُزَلْزَلُ من أجلها ، ويأبى إلا القِصاص عليها ، مع أنه يومئذٍ كان الرجل الثاني في الإسلام بعد رسول الله .

ولكنْ لِمَ لا يصنع ما صنع ، وهو يرى الرجل الأول نفسه .. رسول الله الكريم ، يقف الموقف نفسه وينهج النَّهْج نفسه . وكَزَ رجُلاً في صدره وهو يُسوّي صفوف المقاتلين في إحدى الغزوات ، حتى إذا رأى الوكزة قد آلمته ، يكشف عن صدره ، من فَوره ، ويُصر على أن يَكِزَهُ وكْزَةً مِثْلها ..؟!!

ويروي لنا "أبو الدَّرْداء" نَبَأً شبيهاً بهذا ، فيقول :

ـ "كنتُ جالساً عند رسول الله ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبْدَى عن رُكبتيه ، وقال: يا رسول الله ، إنه كان بيني وبين عمر بن الخطاب شيء ، فأسرعت إليه نادماً وسألْتُه أن يغفر لي فأبى عَلَيَّ ..

فقال له الرسول ﷺ : « يغفر الله لك يا أبا بكر » ..

ثم إن عمر ندم ؛ فأتى منزل أبي بكر فلم يجده .. ثم أتى النبيّ ﷺ وقال: يا رسول الله أنا كنتُ أظلَم .. يا رسول الله : أنا كنت أظلَم ...

فقال الرسول ﷺ " إن الله بعثني إليكم ، فقلتُم كَذَب .. وقال أبو بكر : صدَقْت .. وواساني بنفسه ، وماله ؛ فهل أنتم تاركون لي صاحبي ..؟ فهل أنتم تاركون لي صاحبي ..؟"

إنه حين تندُّ منه كلمة عابرة لعمر ، أو لربيعة الأسلمي لا يقول لنفسه: لا بأس ، وسيغفرها الله لأبي بكر ، صاحب كل جليل من المواقف .. وباذِل كل عظيم من التضحيات .. لأن ما أنعم الله به عليه من التوفيق ورفيع الخصال لا يبتَعثُ في نفسه الزَّهْو ، بل يُطالبه بالشكر ويَحثُهُ إلى التواضع والعِرفان ...

* * *

هكذا كان جَوْهر علاقته بالناس جميعاً قبل الخلافة وبعدها ..

ليس خيراً منهم ..

ولكنَّه واحد لا تميِّزه عنهم سوى فضائله الباهرة ، وعظمته السَّامقة ..!!

■ ■ ■

حالبُ الشَّاة .. يا أمّاه !!

كانت بساطتُه ، أهم عناصر عظمته .. وكان قبل أن يصير خليفة يُقَدِّم لأهل الحيِّ الذي يسكنه خدمة تناهَت في الطرافة والروعة .

فقد كان في جيرته بعض الأرامل العجائز اللائي مات أزواجهن أو استشهدوا في سبيل الله .

كما كان هناك بعض اليتامى الذين فقدوا آباءَهم ..

وكان رضي الله عنه يَؤُم بيوت الأُولَيات فيحلُب لهن الشِّياه .

ويؤم بيوت الآخرين فيطهو لهم الطعام .

ولما صار خليفة ، تناهى إلى سمعه حَسْرة العجائز ، لأنهن سَيُحْرَمْنَ منذ اليوم من الخدمة الجليلة التي يؤديها لهن الرجل الصالح ..

ـ لكنَّه أخلف ظنونهن.!!

* * *

وذات يوم ، يقرع باب إحدى تلك الدُّور ، وتسارع إلى الباب فتاة صغيرة لا تكاد تفتحه حتى تصيح :

ـ "إنه حالِب الشاة يا أمّاه "...

وتُقبل الأم فإذا بها وجهاً لوجه أمام الخليفة العظيم، فتقول لابنتها في حياء:

ـ "وَيحك ، ألا تقولين خليفة رسول الله" .. !؟

ويُطرق أبو بكر ويُهمْهِمُ مع نفسه كلمات خافتة ..

لعلَّه كان يقول: دعيها ، فقد وصَفَتْنِي بأحب أعمالي إلى الله ..!!

وتقدَّمَ حَالِبُ الشاة ليؤدي الواجب الذي فرضَه على نفسه .

أجَل ..

حالِب الشياه للعجائز ..!!

والعاجن بيديه خبز الأيتام ..!!

بَساطة ، ورحمةٌ ، تفانياً في أداء حقِّ الحياة ..!!!

تُرى لو قُدِّر لأبي بكر بشمائله هذه أن يكون رئيس دولة في عصرنا الحديث ، أكان منهجه هذا يتغيَّر ..؟؟

كلا ..

صحيح أنه لن يحلب الشياه ، ولن يطهوَ بيده الطعام ..

بيد أنَّ شمائله تلك ، كانت ستُعبِّر عن نفسها في مشاهِدَ كهذه تُناسِبُ روحَ العصر دُون أن تَبخَس نفسها في شيء ..

إن بساطة هذا الإنسان البارّ ، وإن رَحمته لَمِن الأمور المعجزة ..

ولقد أعطاه الرسول ﷺ حقَّه حين قال عنه: "أَرْحَمُ أُمَّتِي بأمتي أبو بكر" .

لقد كان يحمل قلباً مشحوذ الإحساس بكل ألم إنساني .

وكان يملك إرادة مباركة تسارع إلى إنجاز تَوْصِيات قلبه الرشيد الودود ..

* * *

كان في بَدء إسلامه لا يطيق أن يرى مؤمناً يتعذب ، وكانت نفسه تَنُوء بالألم حين يكون أولئك المعذَّبون رقيقاً ، ومن ثَمَّ وضع ثروته في سبيل تحريرهم ، وحَرَّرَهُم جميعاً بماله .

بلال .. عامر بن فهيرة .. زُبَيْرَةَ .. أم عبس .. النَّهدية ، وابنتها .. جارية ابن عمرو بن مؤمّل .. وغير هؤلاء ..

وكان عظيماً ، وهو يُشعر هؤلاء الأرقاء أنه لا يحررهم ، بل يُحرِّرُ نفسه قبلهم .. لأنه وقد آتاه الله المال ونعمة الإسلام بات واجباً عليه أن يُحطِّم من الأغلال الظالمة كل ما يستطيع تحطيمه ..؟؟

حين افْتدى بلالاً ، قال له سيده ـ تحقيراً منه لشأن بلال ـ :

"خذه فلو أبيتَ إلا أوقية واحدة لبعتُكَهُ بها" .

فأجابه أبو بكر قائلاً: "والله لو أبيتم إلا مائة لدفعتها" ..!!

ومن الطريف أن يتناقل الناس في مكة أن أبا بكر يبذل في سبيل تحرير العبيد من ماله بَذْلَ السَّماح ، فيعمد بعضهم حين تنتابه أزمة مالية إلى إنزال العذاب بعبده ، كي يُسارع أبو بكر لنجدته ويتقاضاه السيد ثمناً يدفع به ضائقته وأزْمته ..!!

إنه رحيم أوَّاب ...

إنه إنسان انتهى إليه كل ما في الإنسانية من حنان ونَجدة !!

ولقد خُلِق هكذا .. وخُلِق لهذا ..

في أيام الجاهلية كان ذلك خلقه ..

لم يُعرف عنه مرة واحدة أنه قاتلَ ، أو شاتَم ، أو أساء ، أو تخلّى عن مُروءة ، أو بَخِلَ بماله أو جاهه .

فلمَّا أسلم أُضيف إلى صِدْقِ فطرته، صدقُ دينه..

* * *

وكان "رَبَّانيًا" في كل مشاعره وسُلُوكه .

يعبد الله كأنَّه يراه .. ويُعامل الناس جميعاً كأنهم أبناء الله .

ذهب عمر بعد وفاته يسأل زوجته "أسماء بنت عُمَيْس" : كيف كان أبو بكر يعبد ربه حين يخلو بنفسه ، فأجابته قائلة :

- " كان إذا جاء وقتُ السَّحَر قام فتوضأ وصلَى .. ثم يظلُّ يُصلِّي .. يتلو القرآن ويبكي .. ويسجد ويبكي .. ويدعو ويبكي .. وكنتُ آنئذٍ أشَمُّ في البيت رائحة كبد تشوَى " ..!!

فبكى عمر رضي الله عنه وقال :

- "أنَّى لابن الخطاب مثل هذا" ..؟؟

رائحة كبد تشوى من بيت أبي بكر..؟؟

الرجل الطهُور الذي لا يكادُ يعرف له خطأ، يحمل كل هذه النفس الْمُوَلْوِلَةِ من خَشية الله ، وكل هذه الجوانح المُتلَظِّيَة من رَهبته ..!!

أجَل .. إن إجلاله ربَّه وتوقيره كانا يملآن نفسه روعة ، يملآنها حياء ، وإخباتاً ..

ولقد كان يعلم علم اليقين أن من تمام توقيره ربه ، توقير عِباد هذا الرب العظيم ..

وهكذا ، لم يكن في علاقاته بالناس يسير وَفْق ما ينبغي فَحسْب ... بل وَفْقَ "الرَّبانيَّةِ" التي أسْكنها الله في قلبه وضميره ...

فهذا الرجل "الإلهي" لا يعطي الناس من ذات نفسه ما ينتظرون .. بل يُعطي ما يقدِر هو على إعطائه ، وإنه ليقدر على كثير وكثير .

ومن ثمَّ رأيناه دَوْماً المبادِرَ المقدام نحو كل واجب ، نحو كل أزمة .. ونحو كل تضحية ..

والمُسْتوَى الذي تعمل عنده فضائله المتفوقة مُستَوى واحد ومتكافئ ..

فالروح المستبسلة التي واجهَتْ أزمات الدعوة في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته - هي نفس الروح التي دفعت صاحبها إلى أن يحلُب الشياه للأيامى .. ويعجن الدقيق لليتامَى ..!!

* * *

وبَساطةُ خُلُقه تتواءم مع بساطة خَلْقه ، وكما أن بساطة شمائله تتضمَّن عظمة خارقة . فكذلك كانت بساطة تكوينه تتضمَّن شخصية خارقة ..!!

وإذا أردنا أن نرى صُورَة التكوين الجَسَدي لهذا السيد الجليل، فها هي ذي الصورة كما تُقدمها ابنته السيدة عائشة - هو :

- " أبيض ... نحيف ... خفيف العارضَيْن ... أحْنَى الظهر .. معروق الوجه .. غائر العينين .. ناتئ الجبهة .. عاري الأشاجع .."[1] .

هذا هو الرجل الذي اختارته الأقدار ليكون على رأس أساتذة البشرية جَميعاً في فن الإيمان والعَظَمة ..!!

---

(١) الأشاجع : عُروق ظاهر الكف .

هذا هو الرجل الذي اختير لتكون أيامُه السطورَ الأولى في نَعْي أعظم إمبراطوريات عصره وعالَمه ـ الروم وفارس ..!!

وليكون أول خليفة لرسولٍ ، سيسير دينه كالضوء مُشرِقاً ومُغرِباً ، صانعاً حضارة تملأ الدنيا ، وتُسعد الناس ...

أجَل .. وفي هذا الجسَد الناحِل وَجَدَتِ العظمة منزلاً لها ومُقاماً ..!

إنه لا يملك جِسْماً "مَلَكيًّا" ، وليس في تكوينه شيء من سِمات الأباطرة ...

لَكأنّ الله علم من عبده الصالح هذا ، أنه لن يضيق في حياته بشيء مثلَ ضيقِه بأن يميِّزَه عن الناس شيء يجعله مَهْوَى أعينهم المبهورة، فاختار له هذا المظهر البسيط والتكوين العادي ..!!

انظروا وصْف ابنته له : "غائر العينين ... معروق الوجه.. نَاتِئ الجبهة" . !!

أجل .. لا شيء غير عادي في سيِّد قريش ، وخليفة الرسول ﷺ ، وقاهر جيوش الردّة ، وحالب شياه الأيامى .. !!

لا شيء غير عـادي ، اللهم إلا ذلك اللألاء المُشعُ من عينيه اللتين تُرسـلان سَناً عجيباً ، وألقاً باهراً ، كأنهما كوكبان دريّان ..!!!

وإنهما لَهَاجِعَتان تحت جبهته العالية ، وجبينه المُتْئِد ، تنعكس عليهما كل ما في قلبه من ضياء ، وقوة، وحُب ...

فإذا وقَعَتا على أسَى ، الْتمعتَا بفيض من الحنان والرحمة والنجدة ..

وإذا وقعتا على ظلم ، توهَّجَتا باللّهب المقدَّس ..

وإذا وقَعَتا على وجه إنسان ، قرأتاه في لحظة ...

وإذا استقبلَتا آية من آيات الله ، فاضَتَا بالدمع خشيةً وإجلالاً ..!

إنهما عينان غائرتان حقًّا ، لكنهما خُلِقَتا لِترَيَا الحقَّ وتهتديا إليه في غير عَناء ..

وجَسدُه نحيل ضامر ، لكنه يتفجّر حيوية وطاقة ..

وفي داخل هذا الجسد المتواضع، تقيم روح من أعظم أرواح بني الإنسان ..!!!

* * *

وبعد ..

فهذا هو الصِّدِّيق ..!! لا يرفع الكاتبون مِن قَدره بما يَسطرون عنه وعن فضائله ، إنما يرفعون من أقْدار أنفسهم حين يُؤهِّلونها للحديث عن هذا الطَّوْد الشامخ العظيم ..

ولقد كان رضي الله عنه أكثَر الناس حياءً إذا أُلْقِيَتْ عليه كلمة ثناء ..

حين ذاك ، كان الدمع يُبلِّل عينيه ، ويُردِّدُ ابْتهاله المأثور :

ـ " اللهم اجعلني خيراً مما يظنون .

واغفر لي ما لا يعلمون ..

ولا تُؤاخذني بما يقولون .. " !

* * *

يرحَمُك الله ، أبا بكر..

إنك دوماً ، وأبداً ، لخَيْرٌ مما يظنون .. !! وخيْرٌ مِمَّا يَسْطُرون ..!! .

■ ■ ■

بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ

أيأْذنُ أمِير المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمَة

لست أكتب تاريخاً لعمر ، ولا أزيد الناس معرفة بعظمته وشأْوِه ..

ولا أُزكِّي على الله نفسي بالكتابة عن رجل أحَبَّه الله واصطفاه ..

إن المحاولة التي أنا بصددها ، أكثر تواضعاً من هذا كله ..

إني أُصغِي إلى أمير المؤمنين ، لا أكثر .. وأتطلَّع إليه ، لا أقلّ ..

وفي دروب التاريخ سنحاول - أنا والقراء - أن نلتقي بالرجل الذي لم تُسعدنا المقادير باللقاء معه في دروب المدينة ، حيث كانت سجاياه وعَظمتهُ تملأ الزمان والمكان بما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمِعت من عدالة الحاكمين ، وزهد القادرين ، وإخبات الناسكين ، وقوة الوُدَعاء الراحمين ، ووداعة الأقوياء المتقين . !!

أجل ؛ هذا ما نحاول في هذه الصفحات بلوغَه .. أنْ نعيش لحظات في رحاب عمر ، ونأخذ من المشهد المكتوب عِوَضَ ما فاتنا من المشهد الحيّ ، ونُلقيَ السَّمْعَ والبصر والفؤاد بين يَدَيْ هذا القويّ الأمين . والمعلم الذي ليس له بين المعلمين نظير ، ونقضي في مَعِيَّته لحظات ترفع من قدر حياتنا .

* * *

و "مَعِيَّةُ" أمير المؤمنين ، ليست مثل "مَعِيَات" غيره من الأمراء ، والحاكمين .

إنها شيء مختلف جداً . فلا مكان فيها لأطايب الطعام ، ومَناعم الشراب ، ومَباهج الحياة . لا مكان للفُرُش المرفوعة ، ولا للأكواب الموضوعة ، ولا للنمارقِ المصفوفة ، ولا للزَّرَابِيِّ المبثوثة .

لا مكان للراحة .. لا مكان للزَّهو .. لا مكان للزُّلفَى ..

من أجل هذا ، كان الاقتراب من هذه "المعيَّة" رهيباً ، بقدر ما هو حبيب إلى النفس ، وبقدر ما يُفضي إليه من شرف عظيم .

و "عمر" من الطراز الذي تغمرك - وأنت تقرأ تاريخه المكتوب - كلُّ الهيبة التي تغمرك ، وأنت تجالس ذاته وشخصه .

والمشهد المسطور من تاريخه ، لا يكاد يختلف عن المشهد الحيّ إلا في غياب البطل عن حاسة البصر ..

أجَلْ .. عن حاسة البصر وحدها .. أما الأفئدة .. أما البصيرة ، فتحسّ وهي تطالع سيرة عمر أنها تُعايشه ، وتجالسه ، وترى رَأْي العين جلال الأعمال ، ومَناسِكَ البطولات التي يتناولها بيد أستاذ عظيم ، جدّ عظيم ..

ولكن على الرغم مما تفرضه صحبة "عمر" من حرمان وشظَف .. فليس على ظهر الأرض بهجة ، ولا متعة ، ولا نعمة تفوق مباهج ومناعم هذه الصُحبة بحال .. !

فالرجل الكبير في بساطة ، البسيط في قوة ، القوي في عدل ورحمة ، لا يستريح ولا يترك الذين معه يستريحون ، ولكنه يمنحهم بدلاً من الراحة المفقودة ، أعظم ما في الحياة من سؤدد ، وغبطة ، وتفوق .

هذا هو أمير المؤمنين ، الرجل الذي أنجبته البشرية ، ورباه الإسلام .

هذا هو الحاكم المؤمن ، الذي إذا ذُكر رؤساء الدول والحكومات منذ فجر التاريخ الإنساني إلى يوم الناس هذا ، كان أعظمهم ، وأبَرَّهم ، وأزكاهم ـ من غير مبالغة ـ أيِّ مبالغة .. !!

هذا هو الناسك الذي تفجَّر نُسكه حركة ، وذكاء ... وعملاً ، وبناء ..

هذا هو المعلم الذي صحح مفاهيم الحياة ، وأفرغ عليها نوراً من روحه ، وكساها عظمة من سلوكه ، وكان للمتقين إماماً .. !!

* * *

ترى ماذا يذكر التاريخ اليوم من نبئه العظيم ، وبِمَ يَلهج الناس من سيرته الفاضلة ؟؟

هل يذكرون فتوحاتِه على كثرتها ... ؟؟ هل يذكرون انتصاراته على روعتها .. ؟؟

إن سلوك أمير المؤمنين ، يشغل التاريخ ويشغل الناس عن كل شيء سواه .

* ودائماً وأبداً تُطل على الحياة صورة ذلك الإنسان الإلٰهي الذي يجري في وقت الحر القاتل وراء بعير من أموال الأمَة مخافة أن يَنِدَّ ويضيع ، فيحاسبه الله حساباً عسيرًا .. !!

* أو الذي يصطحب زوجته في الهزيع الأخير من الليل ، حاملاً على كتفيه وفي يديه جرابَ دقيق ، وقربة الماء ، ووعاء السمن ، حيث تتولى زوجته أمر سيدة غريبة أدركها المخاض ، وحيث يجلس هو خارج الكوخ يُنضج لها طعام الوالدات .. !!

* أو الذي يتأخر عن خطبة الجمعة ، ثم يجيء مهرولاً في بُردة بها إحدى وعشرون رقعة ، تحتها قميص لم يجفَّ بعد من البلل ، ثم لا يكاد يصعد المنبر حتى يعتذر للناس عن تأخره فيقول : « حبَسني عنكم قميصي هذا .. كنت أنتظره حتى يجفَّ ، إنه ليس لي قميص غيره .. !! » .

* أو الذي يستقبل هدية من الحلوى ، أرسلها إليه عامله على أذربيجان ، فيسأل الرسول الذي جاء بها : أوَكُلُّ الناسِ هناك يأكلون هذا ؟. فيجيبه الرجل قائلاً : كلا يا أمير المؤمنين ، إنها طعام الصَّفْوة .. !! فيختلج عمر ويقول للرجل : « أين بعيرك ؟. احمل هديتك وارجع بها إلى صاحبها وقل له : عمر يأمرك ألا تشبع من طعام حتى يشبع منه قبلك جميع المسلمين .. !! » .

* * *

هذا هو عمر في ذاكرة التاريخ ، وفي ضمير البشرية .

هذا هو منارة الله في الدنيا ، وهديته إلى الحياة .

وعلى مائدته الخالية من أطايب الطعام ، الحافلة بأطايب العظمة ، سنقضي أسعد وأرغد لحظات حياتنا .. !!

خالد محمد خالد

ليوسِعَنَّهم خيراً

كانت مكة تُودع ضيوفها الذين وفَدوا عليها من مختلف بقاع الجزيرة ليشهدوا مهرجان "عكاظ" ، حيث تزهو القبائل بشعرائها المتفوقين ، وحيث تزدان حَلْبة المصارعة بفتيان قريش الأشداء يعرضون ألعابهم في فن عظيم .

كانت مكة تودع أولئك الأضياف الذين شدُّوا الرحال راجعين إلى بلادهم ، ونُجوعهم - عدا نفر قليل منهم استهواهم البلد الحرام ، فتهيبوا الظَّعْن ، وآثروا المكث .

من هؤلاء النفر ، ذلك الشيخ الذي يقطع الطريق وهْناً ، مُيمماً وجهه شَطْر دار الندوة ليقضي بها ساعة الأصيل ، مع رفاقه في الشيخوخة والذكريات .. !

وإنه لَماضٍ في سبيله ، إذ لقِيَهُ في الطريق أعرابي قريب العهد بمكة ، يعمل راعياً لدى واحد من سادات قريش ..

ولا يكاد الفتى يبصر الشيخ أمامه حتى تتحدر الكلمات من بين شفَتَيْه في حَمِيَّةٍ وعجَلَة .

- هل علمت النبأ العظيم يا أخا العرب ..؟

- أيَ نبأ يا بني ... ؟

- ذلك الرجل الأعْسَرِ اليَسَر ..

ويتساءل الشيخ قائلا :

- الذي كان يصارع في سوق عكاظ .. ؟

- أجل ... هو ..

- ما باله يا فتى .. ؟

- لقد أسلم ، واتَّبع محمداً ..

ويفيق الشيخ من الدهشة ، ويقول وقد كست وجهَهُ حكمةُ السنين :

- « أمَا والحقّ ، لَيُوسِعَنَّهم خيراً .. أو لَيوسِعَنَّهم شرًّا » .. !!

* * *

أما الأعْسَر الَّذي كان يُصارع في سوق عكاظ ، فهو عمر ..

وأما نبوءة العربي ، فقد جاءت كفَلَق الصبح ، وضوء النهار .

ومع ذلك اليوم ، لم يعد الأعسر اليَسَر..« عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّى » ، من بني عَدِيّ .. لم يعد ذلك الذي يُصارع الأشداء في سوق عكاظ ، بل صار "الفاروق عمر" ، الذي سيصارع الباطل في جزيرة العرب ، أوَّلَ النهار .. وفي كل الدنيا ، آخِرَه .. سيكون الرجل الذي يملأ أرض الناس عدلاً ، وأمْناً ، ورحمة ، وهُدى ..

سيكون "المعلّم" الذي يَبلُغ الرشد الإنساني على يديه رُشدَه .. و "الأستاذ" الذي تجلس الدنيا عند قدميه .. !

أجل .. سيكون الإنسان الذي يرفع الله به من قَدْر البشَر ، وقَدْر الحياة .

* * *

« لَيوسعنَّهم خيراً ، أو لَيُوسعنَّهم شراً » .. !!

كيف أدرك الشيخ العربي مصائر الأمور على هذا النحو السريع الفَطِن .. ؟؟

الحقَ أن الذي قدَّرَ له أن يرى "عمر" في شبابه ولو رؤية عابرة ، قادر على أن يردِّد نفس النبوءة ، ويستشرف الغد الذي استشرفه الشيخ في غير عَناء .

"فَعُمَر" ، ذلك الرجل القوي ، المجدول اللحم ، المشرب بالحمرة ، الغليظ القدمَيْن والكفَّيْن ، العريض المنكبَيْن ، الفارهِ الشامخ العملاق ، الذي لم يسِر قطّ مع قوم إلا كان أعلاهم رأساً من فَرط طوله .

الرجل الذي كان كما نَعتُوه : "إذا تكلم أسمع ، وإذا مَشَى أسرع ، وإذا ضرب أوجع" .

"عمر" الذي لم يَخف قطّ في حياته أحداً ، ولم يختلج جنانه الصامد أمام رهبة ، أو فزع .

"عمر" الذي ورث من طباع أبيه ، صرامة لا تعرف الوهْن ، وحَسْماً لا يُؤَرْجحه التردد ، وتصميماً لا يقبل أنصاف الحلول .

"عمر" هذا .. من اليسير جداً استكشاف حقيقته ، وقراءة دخيلته ، والتنبؤ بمصائر الأمور بين يديه ، فإما أقصى اليمين ، وإما أقصى اليسار .

إنه أبعد الناس عن ازدواج الشخصية ، وتعدُّدها .

ومركز الثقل فيه ، لا تَتَناوبُه أشتاتُ نفس مُوزَّعة ، ولا تميل به أهواء متنافرة ، إنما تحتشد به شخصية متَّسقة حافلة .

فحيث يوجد "عمر" توجد كل شخصيته ، وكل إرادته ، وكل منهجه .

لا ينقسم على ذاته أبداً .. ولا يضع إحدى قدمَيْه هنا ، وثانية القدمين هناك ..

إنه رجل "جَمِيعٌ" تتحرَّك كل قدراته في دقة واتِّساق .. يفوقان دقة الجيش المدرَّب واتِّساقه . وليس لذرَّة واحدة في كيانه فرصة للتخلف .. أو للتلكؤ أو للنُّشاز .. !

إنها طبيعة فذَّة قلَّما تتكرر ، وقلّما يكون لها في الأعداد الهائلة من البشر نظير .

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدرك عظمة الطبيعة البشرية التي رُزِقَها "عمر" .. وكان يعرف ما تنطوي عليه من أصالة واقتدار .. كما كان يعرف ما يتمتع به "عمرو ابن هشام" من جاه ونفوذ .

من أجل هذا دعا ربه الكبير أن ينصر الإسلام بأحب الرجلين إليه ـ "عمر بن الخطاب" ، أو "عمرو بن هشام" .

ولقد ربح الإسلام أحبَّ الرجلين إلى الله ، وكان "عمر بن الخطاب" صاحب الفطرة القوية السويَّة الجيَّاشة .. ألقى ثقله كله في كفَّة التوحيد ، على حين ألقى الآخر ثقله في كفَّة الشرك . ولكن مصير الميزان تقرر في نفس اللحظة التي أصبح فيها "عمر" .. قوة في إحدى

كِفَّتَيْهِ .. واستبانَ غَدُ الإسلام كضوء الفجر ، منذ قال "ابن الخطاب" : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .. !

يقول عبد الله بن مسعود : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر ، كان إسلامه فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة ، ولقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلّي بالبيت حتى أسلم عمر » .. !! .

* * *

هذا العنفوان الوثيق في شخصية "عمر" كان يبدو كما لو كان تطرفاً ، وتزمُّتاً ، وغِلْظة ..

في الجاهلية ، كانت مُحادَّته للإسلام ، تكاد وحدها تعدل أذى قريش .. وكان تشبُّثه بموقفه يَدحض أيَّ أمل في عُدوله عنه ، حتى لقد صوَّر أحد المسلمين يومئذٍ يأسه من إسلام "عمر" بقوله : « إنه لن يسلم حتى يُسلم حِمار الخطاب » .. !!

وفي الإسلام ، صارت مُحادَّتُه للوثنية تكاد تعدل وحدها مقاومة الإسلام بأسره ، وصارت صرامته العادلة العاقلة مضرب الأمثال ، حتى لقد كان الوحيد بين الصحابة الذي يُكثر من مناقشة رسول الله ﷺ ، والذي يقترح أحياناً على الرسول ، فيمضي رسول الله ﷺ ما اقترح ، ويَسنّ ما ارتأى . وكان شديدَ الوطأة على خصوم الإسلام بصورة تفرَّد بها عمَّن سواه .

بيدَ أن ذلك لم يكن من "عمر" تطرُّفاً ، ولا تزمُّتاً ، ولا قسوة . إنما كان تفوُّقاً .

ذلك أن الطبيعة التي كانت تحتشد مَواهبها وقُدْراتها على هذا النَّسق الفذّ الذي تَوَفَّر "لعمر" ، لا يكون لصاحبها الخيار إلا في مستوى هذا التفوق المهيمن العميم .

وهكذا كان "عمر" .

رجل مُزوَّد بطبيعة مشحوذة قوية ممتلئة .. طبيعة مستقيمة القصد ، شديدة الأسْر ، سَواء في ضلالها وهُداها ..

وهي إذا اتخذت موقفاً ، تبلغ فيه المدَى ، لا استجابة لنزعة الغُلوّ ، بل تحقيقاً لإمكاناتها الحافلة ، وتعبيراً تلقائيًا عن تفوُّقها وامتلائها .

إن ثمَّة فارقاً كبيراً بين التفوق والتطرف ..

الأول : يشبه النمو الطبيعي .

والثاني : يشبه مرض نموّ العظام .

الأول تثمره خلايا حيّة عاملة ، وطبيعة سوية نامية ؛ والثاني عَرض من أعراض العلة والسقم .

والتفوق ، قوة عادلة تتضمن الحكمة ، ولا تستعلي على الخير ، أو تتوارى من الحقّ ... وهكذا كان الذي مع "عمر" التفوق ، لا التطرف .. والقوة ، لا القسوة ...

وإن الظروف التي أزْجَتْ إسلامه ، وأحاطت به لَتكشف جوهر طبيعته ، وتوضح هذا أوضح بيان ...

* * *

ذات يوم لاهِب ، خرج من داره حاملاً إصراره الحَرُور ، وسيفه الجسُور ، مُولّياً وجهه شطر "دار الأرقم" ، حيث كان الرسول ﷺ ونفر من أصحابه المؤمنين يذكرون الله هناك ، ويعبدونه .

وفي الطريق يلقاه "نعيم بن عبد الله" فيرى ملامحه تتفجر بأساً ونقمة ، فيقترب منه في وَجَل ويسأله :

ـ إلى أين يا "عمر" .. ؟

فيجيبه : « إلى هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله » ..

ويَذهل "نعيم" عن إحساسه بالموقف ، وبالخطر الذي ينجم عن معارضته لعمر ، فيقول له :

ـ « لبئس السّعي سعيك ، وبئس الممشى ممشاك » .. !

ويخشى "عمر" أن يكون "نعيم" قد أسلم ، فيقول له :

ـ « لعلك صبأت .. إن تكن فعلت فواللاتِ والعُزّى لأبْد أنَّ بك » .

و "نعيم" يعرف تماماً أن "ابن الخطاب" يعني ما يقول ، فينهي الحِوَار بعبارة تلوي زمام "عمر" ، إذ لا يكاد يحتمل وَقْعها الشديد :

ـ « ألا فاعلم يا عمر أن أختك وزوجها ـ سعيد بن زيد ـ قد أسلما ، وتركا دينك الذي أنت عليه » .

أخته ... ؟؟ فاطمة بنت الخطّاب ؟؟

ما له ولدار الأرقم إذن ، وقد اقتحم الخطر داره هو وعَرِينه .. ؟

وهكذا ، أغذّ السير إلى دار خَتَنِه "سعيد" .

* * *

في جوف الدار كان "سعيد بن زيد" وزوجته "فاطمة بنت الخطاب" و "خَبّاب بن الأرَتّ" ، وملء أيديهم صحيفة فيها من وحي الله آيات يتلونها ويتدارسونها .

وقَرع الباب قرعاً رهيباً ..

وقيل : مَن ؟ قال : عمر ...

أمّا خبأب ، فسارع إلى مخبأ قَصِي في الدار ، سائلاً الله حِفْظَه وغَوْثه .. !!

وأما أخت "عمر" وزوجها ، فقد استقبلاه لَدَى الباب يغشاهما ذهول المفاجأة ، ولم تنسَ بنت الخطاب في هذه الغمرة الداهمة ، الصحيفة الكريمة التي بها آي الله فخبأتها تحت ثيابها .

قال "عمر" والهول يتقذف من عينيه : ما هذه الهينمة [١] التي سمعتُ عندكم .. ؟

أجابا : لا شيء إنها نَجْوَى وأحاديث ...

قال لهما : سمعت أنكما صَبَأْتُما ...

قال سعيد : « أرأيت يا عمر إن كان الحقُّ في غير دينك » ؟؟

---

(١) الهَيْنَمَةُ : الكلام الخفيُّ .

ولم يمهله "عمر" حتى يتمَّ حديثه ، فوثب عليه في عنفوان لَجِب ، وأخذ برأسه يجرّه ويلويه ، ثم ألقاه أرضاً ، وجلس فوق صدره ... وحين تقدّمت أخته لتدافع عن بَعْلها أصابتها منه لطمة أدْمت وجهها فصاحت به ، وكأنها بُوقُ سماوي يُدوّي ويصلصل :

ـ « يا عدوَّ الله ، أتضربني على إيماني بالله الأحد ؟ ألا ما كنت فاعلا فافعلْ ؛ فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » .. !

والآن ، انتبهوا جيداً ، فإنَّ اللحظة الحاسمة تدق ، مُؤْذنة بالتحول ، وكاشِفةً عن الجوهر النقي القوي ، الذي صُنعت منه فِطرة هذا الرجل الكبير . فبينما هو في بأسه الشديد ذاك ، يجابهه الحقّ عالي الصيحة ، فيلين له "عمر" ويتخشّع ...

ذلك أن الكلمات المندلعة من إصرار أخته كانت تحمل كل رنين الصدق .

هذا الرنين الذي يعرفه ويميّزه من له فطرة كفطرة "عمر" ، تماماً مثلما يدرك الفارس الأصيل المجرب ، أصالة الخيل من صهيلها .. !!

ولو كانت قوة "عمر" قوة عناد وقساوة ، لمادت في ضَراوتها ، ولبلغت من الموقف ما تريد .

أما وهي قوة تَفَوُّق وبطولة ، فقد استجابت من فورها لهذا المتبدّي أمامها ، لهذا الرأس العزيز المرتفع ، رأس "فاطمة بنت الخطاب" المؤمنة بالله وبرسوله ﷺ ... ولهذه الكلمات المتوهجة بنور الحق ، الصادحة برنين الصدق .

وفجأة ينهض من فوق صدر "سعيد" ويبسط يده الضارعة إلى أخته ، سائلاً إياها أن تعطيه الصحيفة التي رآها تبرز من تحت ثيابها :

ـ هاتِ هذه الصحيفة ، لأنظر ما فيها .

وتجيبه أخته : « كلا ، إنه ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ، اذهب فاغتسل وتطهَّر » .

ويمضي "عمر" كالأنفاس الوديعة الهادئة ، هذا الذي كان منذ لحظات إعصاراً يُدمدم ... ويعود ولحيته تقطر ماء ، وتعطيه أخته الصحيفة ، ويقرأ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ۝ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۝ تَنزِيلا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلا ۝ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۝ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ اللهُ لا إِلَـهَ إِلا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ .

ثم يتابع التلاوة في خشوع وتَبَتُّل :

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَـهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ۝ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۝ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ .

ويعانق عمر الصحيفة ثم يقبلها . وينهض واقفاً ويقول :

« لا ينبغي لمن هذه آياته ، أن يكون له شريك يُعبد معه ، دلُّوني على محمد » !

وهنا يبزغ "خبَّاب بن الأرت" من مخبئه ، ويهرول صوب عمر صائحاً :

« أبشر يا عمر ، فوالله لقد استجيب دعاء الرسول ﷺ لك » .

ويتخذ عمر سبيله إلى الصفا حيث دار الأرقم ، وهناك بين يَدَيْ رسول الله عليه الصلاة والسلام يدخل في الدين الحقّ ، ويكبرّ المسلمون تكبيرة تهتز لها مكة جميعاً .. ! .

* * *

في مثل لمح البصر ، تمَّ هذا التحول الهائل العظيم ، وانتقل إلى أقصى رحاب الهدى ، رجل كان يقف في أقصى مجاهل الوثنية .

والطبيعة القوية التي كانت تحتشد لتحرس آلهة قريش من زحف الدين الجديد ، وثَبَت الآن وثبة في الضياء إلى الجانب الآخر من أرض المعركة بكل بأسها وبكل قوّتها ، إبَّان لحظة حاسمة أجاد توقيتها وأحسن إعدادها قدرٌ حكيم عليم .. !

لقد كان "عمر" يذود عن مقدسات الجاهلية ، يوم كان يؤمن أنها حقّ ..

وهو الآن وقد أسلم وجهه لله ، سيضع كل حياته وقوّته في خدمة دين ، آمن أنه الحقّ .

ذلك أنه رجل يسير وَفْق إيمانه واقتناعه ، لا وَفْق هواه ..

بيد أن إيمانه الأول وإيمانه الأخير لا يستويان .

فإيمانه القديم ، إيمان لا برهان له ـ برهانه التقليد الذي يحجب عن العقل ضوء الحقيقة ، ويحرم القلب بهجة الصدق .

إما إيمانه الجديد فمعه برهان .. أيّ برهان .. !!

* إن الله الذي يعبده اليوم ليس من حجر ولا من مَدَر . إنما هو نور السماوات والأرض ، على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم .

* والداعي إلى الدين الجديد ، ليس واحداً من طراز أولئك الكهنة الذين يرتزقون بالأصنام ، ويستمدُّون سلطانهم من جهالة الناس وترويج الأساطير ... إنما هو "محمد" ﷺ الذي لم يكن صِدْقه ولم تكن أمانته موضع ريبة أو شبهة طوال الأربعين عاماً التي قضاها بين قومه عابدا ، قانتاً ، طاهراً ، باهراً .

* وزملاؤه الجدد ، إخوانه في هذا الدين ، ليسوا على شاكلة الآخرين الذين لا همَّ لهم سوى اللهو واللعب ، والميسر والضياع .

إنما هُمْ رعيل عظيم وَضع وِزره ، ونَضَا عن نفسه غرور الحياة الدنيا ، وتهيأ لرسالة كبرى وجهادٍ عظيم .

أجل .. إن الناس هنا ، مع محمد رسول الله ﷺ ، قد وجدوا غَرضاً عظيماً يَحْيَوْن من أجله ... أما الآخرون الذين خَلفهم "عمر" وراء ظهره فينكفئون على موائد الميسر يزدادون بها سفاهة ، أو يتحلقون حول الأزلام يستفتونها في حظوظهم العاثرة .. أو يطوفون حول أصنام من حجارة ، نحتوها بأيديهم ، ثم خَرُّوا لها سُجَّداً .

هنا إيمان حقّ ، معه من الله برهان .

هنا إيمان يرفع الرُّءوسَ عالية ، ويصل الإنسان بالله دونما حاجة إلى وسيط أو شفيع .

وطبيعة كطبيعة "عمر" ، ترفض التبعية ، وتستعلي على الإذعان والرضوخ ، ليس لها مجال حيوي ولا مُناخ طبيعي إلا في دين كهذا الدين ، حيث يقف الناس سواسية كأسنان المشط ، وحيث أكرمُهم عند الله أتقاهم ، وحيث يَعبقُ الطهرَ ويتضوَّع الحقَ ، وحيث يتلو "محمد" آيات ربه فتتبدَّى من خلالها مَعالم الحياة الوافدة ، والمصائر الواعدة ، وتسمع الألباب فيها صلصلة الحقيقة ، وتجد الأفئدة معها بَرْد اليقين .. !!

* * *

إن القوة نفسها والأصالة نفسها ، تعملان في الطبيعة الفريدة "لعمر" بعد أن صار الإسلام له ديناً . ولكن هذه الطبيعة بعد الإسلام تتفوق تفوقاً بعيداً عنها قبل الإسلام ، ذلك أنها وَجدت نُهاها ، وهُداها ، ولم يعد مجالها تلك الأصنام الهامدة حول الكعبة ، أو تلك الشئون الضحلة لحياة مكة ، بل تعلقت هذه الطبيعة بالسماء وبالأرض جميعاً ، وصار موضوع نضالها ديناً يدرك بفطنته المشرقة أنه لن يقتصر على أرض الرمال ، والإبل ، والشِّعر ، بل سيَزْحف مُشرقاً ومُغرباً حتى يغمر العالمين .. !!

من أجل هذا يبدأ القلق الذكي في الطبيعة العمرية من أُولَى لحظات إسلامه ، فيقول لرسول الله عليه السلام :

ـ « ألسْنَا على الحقِّ في مماتنا ومَحيانا .. ؟؟ » .

ويجيبه الرسول: « بلى يا عمر . والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحقِّ إن متم وإن حييتم » .

يقول "عمر" : ففيم الاختفاء إذن .. ؟ والذي بعثك بالحقَ لتخرجَنَّ ، ولنخرجَنَّ معك" .

ويخرج الرسول ﷺ والمسلمون معه في صفَّين : "عمر" في صف ، و "حمزة" في الصف الآخر .

وبهذه الخطوات التي استحثَّها "ابن الخطاب" ، بدأ الزحف الطويل المبارك الذي استمر ألفاً وأربعمائة عام . ولا يزال .. !!

إنَّ الرجل الذي جاء مُنْتَضِيًا سيفه ليقتل رسولَ الله ﷺ ، قد تحوَّل في لحظات سعيدة إلى مؤمن بالله وبرسوله ، فماذا عساه يفعل الآن ؟ .

ما الامتداد الذي ستواصل طبيعته المسير فيه .

وما ردُّ الفعل الذي سيكيِّف وجهتها الجديدة ؟

إن خواطره السريعة لتَهِلُّ .. وكأنها تتحرك وَفق "خارطة" مفصَّلة قد وُضعت سَلفاً ..

ولسوف يُتابع عمر "المسلم" أداء المهمة التي بدأها عمر "الوثني" ، ولكن في مستوى أعلى ، وغاية أرفع ..

أجل ، لقد خرج من داره مُنتضياً سيفه ، قاصداً دار الأرقم ، ليصرع الباطل .

حسن . فليمضِ لغايته ، وليُواصل مهمته .. غير أنه الآن لنْ يصرع الحقَّ الذي كان يتوهمه باطلاً .. بل سيصرع الباطل الذي طالما توهمه حقا .. !

سيصرع الباطل الذي هو باطل ، والذي انخدع "عمر" ، عن زَيْفِهِ وحقيقته فترة من الزمان .

وإنه الآن ، وقد كُشِف عنه غطاؤه ، لَيُدوِّي بصوته الجسور :

- « والله ، لن أترك مكاناً جلست فيه بالكفر إلا جلستُ فيه بالإيمان » .. !

وإن مع طبيعته من الذكاء والمقدرة ما يجعلها مُهيأة للعمل دوماً ، واضعة عينيها على الهدف أبداً .

وهو لهذا وبهذا ، رجل لا يعرف أنصاف الحلول ، ولا ينام على الضيم لحظة من نهار أو مساء .. والضيم عنده أشمل وأعمّ من أن يكون رَهَقاً ينزل به ، أو خسفاً يُسامه .. والضيم أيضاً أن يعجز عن تحقيق ذاته ، وإنجاز مشيئته ، وبلوغ الأمر الذي يريد .

وهكذا ، رأى من الضيم أن يترك معالم جاهليته تعيش ، ولو خابية كابية ، ومن ثمّ فإن آثار قدميه في طرقات مكة حيث كان يَذرعُها منددّاً بالإسلام ، ومتعقّباً ذويه ، لابدَّ من أن تذوب وتتلاشى في خطواته الجديدة الثابتة التي سيذرع بها الطرقات نفسها مُسبّحاً بحمد الله ، ومقدساً له ..

وكل مكان رفع فيه عقيرته لاهجاً بأصنام قريش ، لابدّ من أن يجلجل فيه بـ « لا إلهٰ إلا الله ، محمد رسول الله » .. !!

أجل ، سيتعقبُ "عمر" كل حركاته ، وكل كلماته ، وكل خلجاته التي ظلت تحمل سخريته بدين الله مدى ستة أعوام ، منذ بدء الرسالة حتى يوم إسلامه ..

سيتعقّبها في كل مظانها ومَواطنها ، وسيضع مكان كل سيئة حسَنة .

سيقتلع جميع الأشواك التي ملأ بها طريق "محمد" ﷺ وصحبه ، وسيغرس مكانها أزاهير .. سيزرعها حبًّا ، وتفانياً ، وسيشتري أمْنَ هذا الدين بحياته ، جميع حياته .. !!

إن طبيعته تنادي الزمان والمكان ، بل تلغيهما إلغاء ، لتظلَّ لها سيادتها وتفوقُها . فإذا أخطأ عمر في زمان ما ، في مكان ما .. ثم أراد أن يصحح خطأه ، فليس يكفي فطرتَه الفذة النادرة أن تتجنب الخطأ .. بل هي تريد اقتلاعه تماماً ، واقتلاع الزمان والمكان اللذين كانا للخطأ وعاء ..

ومن ثمَّ فهي تأبى إلا أن تعود للمكان نفسه ، ولو استطاعت لاستردَّت الزمان نفسه لتقول إن ذلك الخطأ لم يكن ، ولا كان المكان الذي شهده ، ولا الزمان الذي احتواه .. !!!

من أجل هذا مضى إلى كل مكان جلس فيه بالكفر ، فجلس فيه بالإيمان - أكان ذلك كافياً .. ؟ لا ، فهناك عمل كثير وقدير ، سيواصله عمر حتى يحسّ أنه قد طهَّر نفسه من كل آثام جاهليته .

فهو يذكر أن تمسُّكه السالف بدين قريش ، كان من أهم أسباب الاضطهاد الذي لَقِيَهُ الرسول ﷺ وصَحْبُه .. واليوم وقد آمن ، فلابدّ من أن يكون إسلامه عاملاً حاسماً في شدّ زناد المقاومة الإسلامية .

أجل بالأمس كانت وثنيتُه من الأسباب التي حملت المسلمين - وهم قلّة - على الفرار بدِينهم إلى "دار الأرقم" حيث يعبدون الله خُفْية ..

واليوم ، لابدّ من أن يكون إسلامه عاملاً حاسماً في الجهر بالدعوة ، ونَبْذِ التخفّي والمداراة .

وإنه ليذهب إلى رسول الله ﷺ فيقول :

ـ « بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما يحبسك ؟.. فوالله ما تركت مجلساً كنت أجلس فيه بالكفر ، ألا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف ـ ألا إننا لن نعبد الله سِراً بعد اليوم» ..

ويستجيب الرسول ﷺ لرأيه ، وتخرج الدعوة من مَكْمنها إلى أرض الله الواسعة .

أفهل يكتفي عمر بذلك .. ؟

كلا ، فلا يزال ثَمّة خطوة تبهر الألباب حقاً .

لقد تذكر "عمر" أنه بالأمس كان كفار قريش يأخذهم الزهو ، لأن "عمر" يَضرب بيده أصحاب "محمد" .. فليمنح المسلمين اليوم زَهواً مثله .. وهو إذا كان لن يستطيع الآن أن يجلو بقبضته رُءُوس صناديد قريش وظهورهم ، فليرفع من شأن العذاب الذي يلقاه ضعاف المسلمين بأن يشاركهم فيه ، وليأخذهم الزهو ، بأن "عمر" الجسور العملاق المهيب يُضرب مثلما يضربون ، ويُضطهد كما يضطهدون .. !!

نعم .. لن يظلّ اضطهاد قريش وَقْفا على "بلال" . و "خبّاب" ، و "عمّار" و "صهيب" ، وإخوانهم من الفقراء والمستضعفين ، بل لابدَ من أن يَصْلاه معهم فتى الفتيان هذا ، الذي تسبقه هيبته ، والذي تتخلع أمام سطوته الأفئدة والقلوب .

لابدَ من أن يُضرب "عمر" كما يُضربون ، وبهذا لا يصير ضربهم وتعذيبهم ذِلّة تكسر نفوسهم ، وتدغدغ كرامتهم ، وبهذا أيضاً يتم "لعمر" إسلامه ، إذ تتم له المساواة مع المسلمين في دفع الثمن الذي يشترون به راية الله ... !!

هكذا فكّر "ابن خطاب" .. هكذا فكر صاحب الطبيعة القوية والفطرة السوية .

ولكنْ أنّى له هذا ، وهو المرهوب الجناب إلى الحد الذي جعل مجرّد التفكير في مُشَانأته مغامرة خاسرة .. ؟

إذا أراد "عمر" أن يكون الظافر المنتصر ، فلن يُعييه السبيل ، أما أن يكون المضروب المنهزم ، فهذه هي المشكلة الكبرى التي يحتاج الظفر بحلّها إلى جهد كبير .

فمن الذي يجرؤ أن يضرب "عمر" في قريش كلها .. ؟؟

ولكنْ "عمر" قرر أن يرفع من قيمة العذاب الذي يلقاه إخوانه ، بأن يتعرض له ، ويأخذ نصيباً منه .

أجل ، لقد قرر وأراد ، وما دام قد أراد ، فلابدَ من أن يوجد الطريق .

ويرسم خُطته ، ويبدأ جولته بأبي جهل ، فيذهب إليه في داره ويقرع الباب ، ويخرج أبو جهل ليجد أمامه "عمر" ، فيغلق الباب دونه .

ويمرُ بأشراف قريش في دُورهم متحدياً ، رجاء أن يخوض أحدهم معه معركة يخرج منها بلطمة في صدره ، أو جرح في وجهه "! ولكنهم جميعاً يتحاشَوْنَه ويتحامونه ..

وأخيراً يقرر أن يلقاهم عند الكعبة وهم مجتمعون هناك ، ولا يكاد يبلغهم حتى يستثيرهم بالحديث .

ولنُصغ إليه يروي بقية ما حدث ، يقول رضي الله عنه :

ـ « وثار إليَّ الناس يضربونني وأضربهُم ، فجاء خالي وقال : ما هذا ؟ .. قالوا : ابن الخطاب ، فقام على الحِجْر وقال : ألا إني قد أجرتُ ابن أختي ، فانكشف الناس عني ، فكنت لا أزال أرى الذين يُضربون من المسلمين ، وأنا لا يضربني أحد ، فقلت : ألا يصيبني ما يصيبهم ؟ فجئت خالي ، وقلت له : جوارك مردود عليك .. قال : لا تفعل يا بن أختي . قلت : بل هُوَ رَدٌّ عليك . قال : ما شئت فافعل ، فما زلتُ أَضرب وأُضْرَبُ حتى أعزَّ الله بنا الإسلام » ..

* * *

هذا السلوك الباهر الذي يتبدّى من "عمر" ، إنما ينبثق من طبيعة استوفَتْ كل عناصر الكمال ، والسُّؤدد . طبيعة لا يَزحَم إخلاصها للمسئولية شيء مًا ، ولا يشغلها عن صقل جوهرها شاغل .

والرجل الذي وقف موقفه هذا أوَّل إسلامه ، هو الذي سنلتقيَ به فيما بعد ، أميراً للمؤمنين ، وجيوشه تثلُّ سلطان كسرى وقيصر ، فيصعد المنبر بعد أن دعا المسلمين للاجتماع ، ثم يقول :

ـ « أيها الناس : لقد رأيتُني وأنا أرعى غنم خالاتٍ لي من بني مخزوم نظير قبضة من تمر أو من زبيب » ..

ثم ينزل من على المنبر بين دَهَش المجتمعين وتساؤلهم ..

ويتقدم منه رجل لم يُطق على ما رأى صبراً ـ وهو "عبد الرحمن بن عوف" ـ وقال له : ما أردتَ إلى هذا يا أمير المؤمنين ؟

فيجيبه "عمر" :

ـ « ويحك يَابْنَ عوف ، خلوتُ بنفسي فقالت لي : أنت أمير المؤمنين ، وليس بينك وبين الله أحد ، فمن ذا أفضل منك .. ؟ فأردت أن أعرِّفها قدرها !! » .

هذه طبيعة مستقيمة ، ليس بداخلها عِوَج ، ولا تصبر لحظة على ما يحول بينها وبين رؤية الحقّ واتّباعه .

ولقد جعلت هذه الفطرة القويمة صاحبها رجل صدق عظيماً ، لا يبغي على ما يعمل جزاء أو شكُوراً .. وإنما يعبِّر عن طبيعته الممتلئة التي وضعها في خدمة الله ، ونذَرها لدِينه ..

وكلما ملأت الرّحب بنشاطها الفذ ، وقدرتها الهاطلة ..

وكلما أخرجت من خَبْئِها وثَرائها النفسي الذي لا ينفَذ ..

وَكلما نسجتْ لله راية . وهدَمت للشـرْك قلعة ، وأدَّتْ لإنسان حقا ..

كلما فعلتْ هذا ، كان عمر سعيداً ، جِدَّ سعيد .. !!!

■ ■ ■

ما تقول لربك غداً ؟

لا شيء يميِّز الطبائع المتفوقة السويَّة ، مثل نأيها عن الغرور .

ولو كان ثمَّة رجل ، لابدّ للغرور أن يتسوَّر حصونه المنيعة ، لفرط مزاياه وروعة أمجاده وانتصاراته ، لكان "عمر" .

فهو يدخل الإسلام في حفاوة بالغة من الرسول ﷺ وصحبه .

وهو يرى كيف صار الإسلام ديناً جَهْوَرِيَّ الصوت ، صادح الكلمة ، في اليوم نفسه الذي اعتنقه فيه .

ويبصر المسلمين الذين كانوا من قبل يَستخفُون من طغاة مكة ، يواجهون اليوم الأذى في شُموخ ، ويرجُون مكة بتكبيرهم بعد أن صار "لعمر" بينهم مكان .

ويرى رسول الله ﷺ ينعته بالفاروق ، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحقّ والباطل ، وبين الملاينة والمُواجهة .

ويرى نفسه يقترح على رسول الله بعض آرائه ، فلا يوافقه الرسول فحسب ، بل يتنزَّل به الوحي ، ويصير قرآناً يُتلى .

وفيما بعد ، يضحى خليفة لرسول الله ﷺ بعد أبي بكر ، وأميراً للمؤمنين ، تنفتح في أيامه "بوابات" العالم لدين الله ، وتزحم راياته جوَّ السماء في كل أفق .

كل هذا ، ألا يجد الغرور من خلاله ثغرة ينفذ منها ، إن لم يجد أكثر من الثغرات ؟؟ .. !

ومع ذلك ، فلا نكاد نعرف نفساً امتنعت على الغرور وتكسرت أمام حصونها المنيعة كلُّ محاولاته ، مثل نفس هذا الرجل الفرد . "عمر" . !

فمن أين له هذا .. ؟

لا ريب أن لطبيعته واستعداده الفطري الأثر الكبير الناجع .

ولا ريب أيضاً في أن الطريقة التي اتصلت بها هذه الطبيعة بالله قد أفاءت عليها مَدداً لا يفنى ، ومقدرة لا تتلجلج ، وعزوفاً كاملاً عن كل ما في الحياة الدنيا من غرور وزهو .

إن "عمر" نفسه يردُّ إلى الله ، وإلى الدين الذي انتهج نهجه كل ما معه من فضائل ، وهُدًى ، واقتدار .

ولطالما كان يقول لإخوانه : « لقد كنا ، ولسنا شيئاً مذكوراً حتى أعزنا الله بالإسلام ، فإذا ذهبنا نلتمس العز في غيره ذللنا » .

فلننظر كيف كانت علاقة "عمر" بربه ..

لننظر كيف التقت طبيعة قوية بنسُك قوى ، لِيُنجبا الرجل القوي الأمين .

ولسوف نجد كل تصرفات "عمر" تسير وَفق إجلال لله فريد .

أجل ، إن "عمر" لَيخشى ربه خشية ، ويوقره توقيراً ، حتى إنه ليكاد يذوب ويتحلَّل كلما هَوَّمَتْ حوله من بعيد ومضة من ومضات ربه ذي الجلال والإكرام .

وكان لا يَفْتأ يُرَدِّدُ لنفسه هذا اللحن المهيب : "ما تقول لربك غداً" . ؟!

نعم .. "ما تقول لربك غداً" .. ؟

عبارة قد نتلوها نحن في دعةٍ ويُسر ، أما هو فكانت تزلزله زلزالاً شديداً .. !!

يقول الأحنف بن قيس :

ـ كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعِدْني على فلان (١) فقد ظلمني .. فرفع عمر درَّته وخفق بها رأس الرجل وقال له : تَدعُون أمير المؤمنين وهو معرِّض لكم ، مقبل عليكم ، حتى إذا شغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه: أعدِني .. أعدِني ..

فانصرف الرجل غضبان أسِفاً ، فقال عمر : علَيَّ بالرجل .

فلمّا عاد ، ناوله مِخْفقته وقال له : خذ واقتصَّ لنفسك مني .

قال الرجل : لا والله ، ولكني أدَعُها لله .. وانصرف .

وعدت مع عمر إلى بيته فصلّى ركعتين ثم جلس يحاسب نفسه ويقول :

ـ ابنَ الخطاب .. كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله . ثم حملك على رقاب الناس ، فجاءك رجل يَستعديك فضربته ، فماذا تقول لربك غداً إذا أتيته ؟!!

* * *

ماذا تقول لربك غداً .. ؟

في هذه العبارة ، يتمثل دين عمر ومنهاجه ، وتستمدُّ حياتُه معاييرها وموازينها .

وفيها يتمثَّل جواز مروره إلى الدنيا ، وجواز مرور الدنيا ، بكل طيباتها إليه .

فأمامَ كل لقمة شهية ، وأمام كل شربة باردة .. وأمام كل ثوب جديد تَسَّاقط دموعه .. تلك الدموع التي تركت تحت مقلتيه خطَّين أسودَيْن من فرط بكائه ، ويصلصل داخل نفسه هذا النذير : "ماذا تقول لربِّك غداً" .. ؟

هذا هو جبَّار الجاهلية ، وعملاق الإسلام .

هذا هو أمير المؤمنين الذي تفتَّحت لأعلامه الخافقات أقطار الدنيا ، واستقبل الناس جيوشه كأنها البُشْرَيات .

ها هو ذا يؤمُّ الناس في الصلاة فيسمع بكاءه ونشيجه أصحابُ الصف الأخير .. !

وها هو ذا يعدو ، ويهرول وراء بعير أفلت من معطنه ، ويلقاه "علي بن أبي طالب" فيسأله : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟

فيجيبه : بعيرٌ ندَّ من إبل الصدقة أطلبه .

يقول له "علي" : لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك .. !

فيجيبه "عمر" بكلمات متهدِّجة :

---

(١) يقال : استعديْتُ الأميرَ على فلانٍ ، أي: استعنتُ واستنصرتُ به عليه .

ـ "والذي بعث محمداً بالحقّ ، لو أن عَنْزاً ذهبت بشاطئ الفرات ، لأُخِذَ بها عمر يوم القيامة" .. !

أكان "عمر" يخاف الله خوف العبد الذي يُرهبه قرع العصا ولَذْعُ السياط .. ؟

لا . وإنما كان يخشاه خشية الحرّ الذي يرجو لربه وقاراً ، ويضرع إليه إجلالاً وإكباراً ، ويخجل أن يلقاه بتقصير ـ أي تقصير .. !!

وهذا هو نشيده دوماً :

ـ " كنتَ وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، فماذا تقول لربك غداً إذا أتيته" .. ؟!

* * *

ولكن ، لِمَ كل هذه الخشية الضاغطة ، والحياء الداهم ؟

إن "عمر" قد تأدَّب على يَدَيْ رسول الله أحسن تأدُّب ، وإنه ليُتابع الرسول ﷺ في غير جَنَف أو مَيْل ، وإنه لَذُو نُسك عظيم ، وإنه لَنسيجُ وحدِه في ورعه ، وإخباته ، وزهده ، وتقواه .

أفلا يُفيء هذا على نفسه القلقة كثيراً من الطمأنينة والراحة ؟

بلى يُفيء ، لو كان إنساناً آخر غير "عمر" ، أما هو فلا يرى في هذا النُسك كله سوى جُهد المُقِلّ العاجز ، ولا يرى في توفيق الله له سوى نعمة تستوجب شكراً يليق بها .

ذات يوم ، يقول لجليسه "أبي موسى الأشعري" :

ـ "يا أبا موسى ، هل يَسرُّك أن إسلامنا مع رسول الله ﷺ وهجرتنا معه ، وشهادتنا ، وعملنا كله يُردّ علينا ، لِقاء أن ننجو كَفافاً ، لا لنا ولا علينا" . ؟

فيجيبه أبو موسى : "لا والله يا عمر ، فلقد جاهدنا ، وصلّينا ، وصُمْنا ، وعملنا خيراً كثيراً ، وأسلم على أيدينا خلْق كثير ، وإنا لنرجو ثواب ذلك" .

فيجيبه "عمر" ودموعه تَتحدَّر على وجنتيه كَحَبَّاتِ لؤلؤ منثور :

ـ "أمَّا أنا ، فوالذى نفس عمر بيده لَوَدِدْتُ أنَّ ذلك يُردّ لي ، ثم أنجو كفافاً ، رأساً برأس" .. !!

انظروا إلى أيّ مَدًى يهاب الله ويستحي من جلاله !!

إن رسول الله ﷺ بشّره بالجنة .

وإنه لأقوى من كل شهوة وزلّة ، حتى لكأنه معصوم من الخطأ عصمة كاملة .. !!

ومع هذا يقف دائماً من الله موقف الخشية والحذر والحياء ..

ولِمَ لا يكون ذلك ، وهو يرى رسول الله نفسه ، يقضي ليلَهُ كله متهجِّداً متعبِّداً ، ونهاره كله صائماً ومجاهداً ، فإذا قيل له : يا رسول الله ، لِمَ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ؟ يجيب عليه السلام قائلاً : "أفلا أكون عبداً شكورا" .؟

إنه توقير الله أكثر ما يكون التوقير ، وشكرانه أكثر ما يكون الشكران .

وهذه هي المدرسة التي تربَّى فيها "عمر" وتخرَّج .

مدرسة لو لم يَخَفْ أهلها الله ، ما فكروا في عصيانه ، ولو لم يكن للإثم عقوبة ، ما فكروا في أن يأثموا ، ولو قال لهم الله : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ما خطر ببالهم قطّ أن يعملوا إلا ما يَرْضَى ربُّهم ويُحب ..

ذلك أن علاقتهم بالله لم تكن بواعثها الفزع ، بل كانت حب الله وتوقيره ، والحياء منه .

وإن إنساننا الباهر العظيم "عمر" ، ليمثل قمة هذا الفهم السديد .

إنه على يقين بأن أحداً لا يستطيع أن يشكر الله حقَّ شكره مهما تكن حياته فاضلة عادلة مستقيمة .

وإنه ليعلم أن كل شكر الله إنما هو نعمة جديدة ، تستأهل شكراً جديداً ..

وهو يعلم أن ما أفاء الله عليه من نعمة الإيمان والهدى والإمارة إنما هي من محض فضله سبحانه وتعالى ، وأن الله كان قادراً على أن يختصَّ بهذا سواه ، أمَا وقد آثره هو وقال له : إليكَ مني هذه العطايا يا "عمر" .. فإن هذا ليجعله يذوب ، ويذوب .. وينكمش ثم ينكمش ... ويقول وقد فجَّر حياءه هذا الشعور : "يا ليت أم عمر ، لم تلد عمر" .. !!

أوْ يردِّد : "ما تقول لربك غداً" .. ؟

إنه مصمم على أن يتفوّق على ذاته ، ويجاوز كل حدود قُدْراته حتى يحقق أكبر حظ ممكن من العرفان والشكر لبارئه وخالقه وربه .

"فعمر" الذي يقف خلف رسول الله ﷺ ـ واحداً ـ من أصحابه .

و "عمر" الذي يصير فيما بعد خليفة لرسول الله ﷺ وأمينه على أصحابه .

"عمر" هنا وهناك ، هو هو ، ذلك الإنسان الخاشع الضارع الأوَّاب الذي لا يرجو في دنياه وأخراه سوى أن ينجو كفافاً لا وزر ولا أجر .. !

إنه لا يطمع في أكثر من ألا يقف بين يَدَيْ ربه خَزيان بسبب خطأ ارتكبه ، أو مظلمة قصر في دَرْئِهَا ، أو نعمة لم يبذل الجهد في شكرها !!

لا شيء يُؤرقه في نومه ، ويقلقه في صحوه ، مثل الخشية من أن يسأله ربه غداً في عتاب: "لماذا فعلت هذه يا عمر" .. ؟؟

و "هذه" التي هي رمز لأيِّ فَعلة مجهولة ، تحمله على أن يقضي عمره كله جَوَّاباً داخل نفسه وخارجها باحثاً عن "هذه" ... ومحاذراً أن يقترف هفوة وهو لا يدري ... !!

من أجل هذا يترك الطيبات والمباهج التي أحلها الله خشية أن تتنكَّر فيها "هذه" التي يخشى السؤال عنها من الله . !!

لنقرأ بعض فقرات كتابه إلى عامله على البصرة "عتبة بن غزوان" :

" ... وقد صحبتَ رسول الله ﷺ ، فعززتَ به بعد الذلة ، وقويت به بعد الضعف ، حتى صرت أميراً مُسَلَّطًا ، وملكاً مطاعاً ؛ تقول فيُسْمع منك ، وتأمر فيُطاع أمرك . فيا لها نعمة ، إن لم ترفعك فوق قدرك ، وتُبْطِرْكَ على من دونك ... ! "

« تحوُّط من النعمة تحوُّطك من المعصية ، فَلَهِيَ أخوفهما عندي عليك ، أن تستدرجك وتخدعك ، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم ، أعيذك بالله وأعيذ نفسي من ذلك» .. !!

ويحدثنا جابر بن عبد الله فيقول :

ـ "رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يَدي ، فسألني: ما هذا يا جابر ؟ قلت : هو لحم اشتهيتُه فاشتريتهُ ، فقال : أوَ كلَّما اشتهيتَ اشتريت ، أما تخاف أن يُقال لك يوم القيامة "أذهبتم طيِّباتِكم في حَياتكم الدّنيا" .. ؟!

* * *

ترى ماذا يكون موقفه من السيئات ، هذا الذي يخاف على دينه من الطيبات . ؟!

ولكن ما شأن السيئات بعمر ، وهي التي تفرّ منه مذعورة إذا أبصرت نوره على بعد فراسخ ؟!!

لقد حرم "عمر" نفسه من طيبات كثيرة ، ومن مَنَاعِم لم يحرمها الله عليه ؛ لأنه كان يرى نفسه عاجزاً عن شكر القليل ، فلم يرد أن يتورط في عجز أكثر أمام النعم الكثيرة .. ولأنه كان يحمل في أمانة كاملة مسئولية القدوة .. !!

ولو شاء أن يظفر بالمناعم المباحة على كثرتها لظفر بها جميعاً ، لكنَّ بُطولة روحه وعظمة نفسه ، واستقامة نهجه حملته دائماً على أن يلتزم الكفاف ويختار الشَّظَف .

زاره يوماً "حفص بن أبي العاص" ، وكان "عمر" جالساً إلى طعامه ، فدعا إليه حفصاً ، لكنَّ حفصاً رأى القديد اليابس الذي يأكل منه "عمر" ، فلم يشأ أن يكبد نفسه عناء ازْدِرَاده ، ولا أن يُجشِّم معدته مشقة هضمه ؛ فاعتذر شاكراً .

وأدرك أمير المؤمنين سرَّ عزوفه عن طعامه ، فرفع بصره نحوه وسأله :

ـ ما يمنعك عن طعامنا .. ؟

ولم تنقص الصراحة حفصاً فقال : إنه طعام جَشِب غليظ وإني راجع إلى بيتي فأصيب طعاماً ليناً قد صُنِعَ لي ..

فقال "عمر" :

ـ « أتراني عاجزاً عن أن آمر بصغار المِعْزَى ، فيلقي عنها شعرها ، وآمر برقاق البر ، فيخبز خبزاً رقاقاً ، وآمر بصاع من زبيب فيلقى في سمن . حتى إذا صار مثل عين الحجَل صُبَّ عليه الماء ، فيصبح كأنه دم غزال فآكل هذا وأشرب هذا .. ؟؟ » .

فقال له حفص وهو يضحك : إنك بِطَيِّبِ الطعام لخبير .. !!

واستأنف "عمر" حديثه فقال :

ـ « والذي نفسي بيده ، لولا أن تَنقُص حسناتي لشاركتكُم في لين عيشكم ـ ولو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعاماً ، وأرفهكم عيشاً ، ولنحن أعلم بطيب الطعام من كثير من آكِليه ، ولكننا نَدَعُهُ ليوم تَذهل فيه كل مرضعة عمَّا أرضعت وتضع كل ذات حَمْل حَمْلها .. وإني لأستبقي طيباتي ؛ لأني سمعت الله تعالىٰ يقول عن أقوام :

﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ ... !!!

هكذا عزله حياؤه من الله عن كل ترف ، بل عن كل راحة في الدنيا ، وأبى أن يصيب وأهله من الطعام إلا تقوُّتاً ، ومن العيش إلا كَفافاً .. !!!

* * *

فإذا جئنا موقفه من السلطان ، حيث يتنازل الناس عن أكثر أعمارهم لقاءَ أيام يقضونها سادة حاكمين ، فماذا نجد .. ؟!

لقد كانت أغلى أمانيه أن يظل "عمر بن الخطاب" ، لا غير .. فلا هو خليفة ، ولا هو أمير .

ولقد اقتربَتْ منه الخلافة إثر وفاة رسول الله ﷺ ، إذ بسط إليه "أبو بكر" يمينه في اجتماع السقيفة قائلاً : هاتِ يدك يا "عمر" نبايعْ لك .. لكنْ "عمر" خلص منها ناجياً ، إذا قال :

ـ « بل إياك نبايع فأنت أفضل مني » .

قال أبو بكر : « أنت أقوى مني يا عمر » .

قال "عمر" : « إن قوَّتي لك مع فضلك » . وسارع فمدَّ يمينه وبايع أبا بكر ، وبايعه الناس على أثره ..

وحين كان أبو بكر يودِّع الدنيا ، ويعهد بالخلافة "لعمر" . وكان "عمر" يتقبل مكرهاً وكارهاً إمارة المؤمنين . ولولا أن يكون باعتذاره عنها في هذا الظرف الحرج الدقيق هارباً من واجب سيسأله الله عنه غداً ، لرفض السلطان وهرب من الإمارة ..

" أيها الناس ... إني قد وليِّت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم اضطلاعاً بأموركم ما توليت ذلك منكم ، ولكفى عمر انتظار الحساب " .. !

انظروا ... ولكفى "عمر" انتظار الحساب .. !!

هذا رجل مشغول لا غير بالكلمة التي سيقولها له الله غداً ، وبالكلمة التي سيقولها هو لله .

والحظوظ الوافية عنده ليست في منصب أو جاه ، إنما هي في الظفر برضاء الله سبحانه .

وفد عليه يوماً جماعة من المسلمين النازحين . فسألهم عمَّا صادفهم من أخبار الناس في البلاد التي مرُّوا بها ..

فقالوا : أما بلد "كذا" فإنهم يرهبون أمير المؤمنين ويخافون بأسه .. وأما بلد "كذا" فإنهم جمعوا أموالاً كثيرة تنوء بها السفن وهم في الطريق بها إليك .. وأما بلد "كذا" فإن بها قوماً صالحين يدعون الله لك ويقولون : "اللهم اغفر لعمر وارفع درجته" ..

فقال "عمر" ، مُعَقِّباً على حديثهم هذا :

ـ « أما مَن خافني ، فلو أريد بعمر الخير ما خِيفَ منه .. وأما الأموال التي تنوء بها السفن فلبيت مال المسلمين .. ليس لعمر ولا لآل عمر فيها شيء .. وأما الدعاء الذي سمعتم بِظَهْرِ الغيب ، فذلك ما أرجوه " .. !!

أجل ، هذا خير ما يرجو "عمر" .. مغفرة ربه ورضوانه . أما السلطان ، وما حول السلطان من زينة وزخرف ونفوذ ؛ فتلك محنة "عمر" ، وإنه ليسأل الله أن يجتازها في خير وعافية .. !

حين دُعي للقاء ربه ، واقتربت اللحظات التي سيودع فيها دنيا الناس ، وكانت مشغلته الكبرى آنئذٍ اختيـار الرجل الذي يسلِّمه الأمانـة والزمام ، اقترب منه "المغيرة بن شعبة" قائلاً : أنا أدلُّك عليه يا أمير المؤمنين ، إنه "عبد الله بن عمر" ..

هنالك انتفض "عمر" وقال : " لا إرْبَ لنا في أموركم ؛ إني ما حَمَدْتُها ـ يعني الخلافة ـ فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي . إن كانت خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كانت شراً ، فبِحَسْبُ آل عمر أن يُحاسَب منهم رجل واحد ويُسأل عن أمر أمة محمد .. ألا إني قد جهدت نفسي وحرمت أهلي .. وإن نجوت كفافاً لا وِزْر ولا أجر إني لسعيد " ..!

بالله ما أتقاه ، وما أنقاه ، وما أبره ، وأطهره .. !!

إنه مهموم بما سيقوله لربه غداً .

إنه يرفض كل نعيم يخشى أن يلجلج لسانه غداً بين يَدَيِ الله .

ويُجفل عن السلطان على فرط عدله وورعه وأمانته ، مخافة أن تتعثر الكلمات على لسانه غداً حين يلقى الله .. !!

إن الكلمة التي سيجيب بها غداً حين يسأله الكبير المتعال ، هي "البوصلة" التي تتحرك معها وعلى هداها كل ذرات كيانه وروحه .

وهو في شدته حين يشتد ، وفي لينه حين يلين ، إنما يحركه حرصه الشديد على أن يلقى الله صادق الحجة .

يقول "لعبد الرحمنٰ بن عوف" :

ـ « يا عبد الرحمنٰ ، لقد لِنتُ للناس حتى خشيت الله في اللين ، ثم اشتددت حتى خشيت الله في الشدة ، وَايْمُ الله لأنَا أشد منهم فَرَقا وخوفاً ، فأين المخرج .. ؟؟ » .

يقول هذا ، وينتحب باكياً .

فيقول عبد الرحمنٰ بن عوف ، وهو يتملَّى هذا المشهد الفريد :

ـ « أُفٍ لهم مِن بَعدك » ... !

* * *

ترى كيف قضى الرجل العظيم تلك السنوات العشر ، والأشهر الستة ، والأيام الأربعة التي قضاها خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين ؟؟

ترى كيف قضاها ، وأمضاها ، وعاناها تحت ضغط هذا الإحساس الراجف ، والقلب الواجف من خشية الله العلي الأعلى .. ؟

وهل سمع الناس في طول دنياهم وَعرضها ، بِعَاهِل استحالت كل أبّهة السلطان وبَذخه أمام ناظريه إلى جمر ملتهب يتوقاه أكثر ما يكون التوقي ، ويحاول الفرار منه لو يجد للفرار سبيلاً ؟

عاهل ذَلَّل كل سلطانه لخشية الله ، ووفر للناس من الطمأنينة والأمن قدرَ ما خاف هو الله .. ؟

حاكم لم تنلْ من سكينة نفسه مهامُّ الأمور وأخطارها ، ولا عَقد ألوية الجيوش الفاتحة وأخبارها ، ومع هذا فقد كان يزلزله زلزالاً شديداً آهة مظلوم ، أو نفثة مكروب ، أو همهمة

حقٌ ضائع يقول له صاحبه : "أتقِ الله يا عمر" .. !!

هل سمع الناس بمثله .. ؟! ومتى .. ؟

ذات يوم وهو جالس مع أصحابه اقتحم المجلس رجل مكروب تَغشاه وَعثاء السفر ، وإذ يقترب من الناس ويراهم يقولون لأحدهم : يا أمير المؤمنين ، يتجه صوب هذا الأمير ، ويقول له في مرارة :

ـ أأنت عمر ؟؟ ويل لك من الله يا عمر! " ثم يمضي لسبيله غير وَانٍ ولا مكترث ..

ويلحق بعض الحاضرين بالرجل في غيظ منه وحنق عليه ، لكنَّ "عمر" يناديهم ويأمرهم أن يعودوا لمجلسهم ، ويهرول هو وراء الرجل وفؤاده يرتجف .

ألم يقلْ له الرجل : ويل لك من الله يا "عمر" ؟؟ إنها الطَّامَّة إذن ، وإنه الهول الذي لا يطيق "عمر" عليه صبراً .. !

ويدرك الرجلَ ثم يعود به ويسأله : "ويلي من الله ! لماذا يا أخا العرب" ؟؟

فيجيبه الرجل : لأنَّ عمالك وولاتك لا يعدلون ، بل يظلمون .

ويسأل "عمر" أيَّ عمالي تعني .. ؟

يقول الرجل : عامل لك في مصر اسمه "عياض بن غُنم" .

ولا يكاد "عمر" يسمع تفاصيل الشكوى حتى يختار من أصحابه رجلين ويقول لهما : اركبا إلى مصر ، وآتياني بعياض بن غنم .. !!

* * *

هذا الرجل "عمر" ..

هذا الشامخ العارم الذي يتفجر قوة وجُرأة وبأساً ..

إذا أردت أن تبصره يرتجف كعصفور احتواه إعصار ، فليس عليك إلا أن تقول له : ألا تتقي الله يا "عمر" ؟؟

هناك تشهد إنساناً قامت قيامته ، ويبدو كما لو كان واقفاً أمام الله .. الميزان عن يمينه ، والصراط إلى يساره ، وكتابه منشور أمام عينيه ، والأفق كله يدوي في سمعه :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .. !!

وعلى الرغم من معاناته المضنية لهذه المواقف ، فإنه كان يقرُّ بها عيناً ويطيب نفساً ، لأنها تذكِّره بجلال الله ويمقامه ، ولأنها تمنحه اليقين بأنه لم يجاوز قدره قَطُّ كعبدٍ لله ، وخادم للناس .. !!

لطالما كان يدعو "أبا موسى الأشعري" ليتلو عليه بصوته العذب المؤثر آيات من القرآن العظيم ويقول له : "ذكِّرنا ربَّنا ، يا أبا موسى" .. فيقرأ أبو موسى ، ويبكي عمر ..

وكثيراً ما كان يلقى صبيًّا من الصبيان في طرقات المدينة ، فيأخذ بيده ويقول له وعيناه تفيضان من الدمع : "ادعُ لي يا بني ، فإنك لم تُذنب بعد" .. !!

وساعة كان يستقبل الموت ، يقول لابنه عبد الله :

ـ «يا عبد الله ، خذ رأسي عن الوسادة وضَعْهُ فوق التراب ، لعلَّ الله ينظر إليَّ فيرحمني» .. !!

إن الميزان قد استقام في يد "عمر" تماما حين أسلم وجهه لله وهو محسن .

وإن طبيعته الهادرة الجياشة ، وقدراته الفائقة الغلابة ، قد نهضت ثابتة الخطى فوق صراط العدل ، والفضيلة ، والواجب ، حين وثقت بالله عُراها ، وأسلستْ وراء "محمد" خطاها ..

وليس يُحاذر "عمر" على نفسه وعلى مصيره خطراً مثلما يحاذر أيَّ انعزال عن الله ، وأيّ انحراف عن طريق رسوله ﷺ .

كان قبل إسلامه يتحرى الصواب ليسير وَفْقَه سيرة جديرة باستعداده ، وعظمة شمائله ، وقوة روحه . أما اليوم ، فقد عرف مَحض الحقّ ومحض الصواب حين جاءهم به من عند الله رسول كريم ، لا ينطق عن الهوى .

وإن "عمر" ليؤرخ ميلاده بهذا اليوم الذي صافح فيه الرسول ﷺ وقال: "أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله" ..

فيومئذٍ ، بل ساعتئذٍ ، وجد نفسه ، والتقى بمصيره العظيم ..

وهو حين آمن بالله وبرسوله ، وبدينه ، لم يؤمن إيمان العوام ، ولا إيمان المنتفعين ، ولا إيمان الهُواة .. بل آمن إيمان العارفين الأبرار .

وحين سمع لأول مرة آية الله يتلوها رسوله .. تلك الآية التي تقول: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ ؟ سمعها ، وكأنما يسمعها وحده ، وكأنما أنزلت إليه وحده .. وأدرك يومئذ ـ كما أدرك قبلئذ ـ أن حياته القصيرة مهما تطل سنواتها لن تغني عنه شيئاً ، وأنه بحاجة إلى ألف حياة مثلها لكي يستطيع أن يصنع صنيعاً يرضيه .. ولكي يستطيع أن يعبد ربه ويشكره .

من أجل هذا ، كان شديد الخوف على اللحظة العابرة أن تَضيع ، وعلى الكلمة العابرة أن تنحرف ، وعلى الخلجة العابرة أن تزلّ ..

كان شديد الخوف على حياته السامقة أن تغيّرها خطيئة ، أو تعيبها شبهة ؛ لأنها لو كانت ملكاً له لوجب عليه أن يربأ بها عن كل سوء ، فكيف وهي في تقديره ليست حياته ، وليست ملكه إنما هي وديعة الله عنده . والله صاحبها ومالِكها ، ولسوف يسأله عنها :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ .. !!

منْ أجل هذا ، عاش قلقا مؤرقا .. ولكنه القلقَ الذكيُّ المبتعث ، والأرقُ المفكرُ الممتلئ ...

لا ينام إلا غبًّا .. ولا يأكلُ إلا تقوّتاً .. ولا يلبسُ إلا خشناً .. يقظانُ دائماً ..

يقول : « إذا نمتُ الليل أضعتُ نفسي ، وإذا نمت النهار ضيعت الرَّعية » . !!

ويسأل كل من يلقاه في لهفة وَجِد : "قل لي بربك ولا تكذبني: كيف تجد عمر .. ؟ أتحسب الله عني راضياً .. ؟ أتراني لم أخُن الله ورسوله فيكم" ؟؟!!

وإذا غَشِيَتْهُ من مظنّة التقصير غاشية ، صاحَ صيحة مكظومة :

ـ "ياليت أمُّ عمر لم تَلدْ عمر" .. !!

كل هذه الرجفة .. كل هذا الحياء .. كل هذا الهم الجليل ، لأنه لا يدري :
ماذا يقول لربه غداً .. !!!

■ ■ ■

ألأنك ابن أمير المؤمنين ؟!

رأيناه كيف وُهب طبيعة سوية متفوقة باهرة .

ورأيناه كيف وصل طبيعته هذه بالله ، ووضعَها في خدمته وعند أمره .

وإنسان يتوافر له هذا ، لابد من أن يكون إحساسه بالمسئولية مشحوذاً وعارماً .

وإن عمر لذلك الإنسان .

ينفعل بالمسئولية ، ويتبتَّل لها ، ويقبل عليها ، في مثل عزم المرسلين .

والمسئولية لديه لا تتجزأ ، ولا تتنوع ، ولا تتفاوَت ..

ليس هناك مسئوليات صغيرة وأخرى كبيرة .. مسئوليات عادية وأخرى فوق مستوى العادة .

هناك مسئوليات وحسب ..

و"عمر" أمام هذه المسئوليات . هو"عمر" الذي يحتشد لكل تبعة ولكل عمل ، احتشاداً لا تتفاوت درجاته .. لأنه يتصرف وَفق طبيعته القوية الأمينة المؤمنة .

وطبيعته هي الأخرى لا تتجزأ ، ولا تتقسَّم .. كل عمل من أعمال "عمر" نجد فيه "عمر" كله ..

ضع عينيك على أيِّ واقعة من وقائع حياته ، تجد فيها شمائله كلها ـ عدله ، ورعه ، زهده ، إيمانه ، شدته ، لينه ، عظمته ، بساطته ..!!

وهو لا يتحمل من المسئولية القدر الذي يخصُّه ، ويبرِّئ ذمته ، بل يحمل منها القدر الذي يتطلبه الموقف جميعه ، وتُحقق به المسئولية كل ذاتها ، ولا يسأل نفسه ساعتئذٍ إن كان وحده ، أم كان معه نُصَراء ..

إن بين جوانحه ، وملء نفسه تفانياً رهبانيًا ، لا يسأل عن العواقب ولا يُجري بين يديها أيَّ تقدير أو حساب ..!!

* * *

لقد كان يوم أسلم ، العضو الأربعين بين رجال هذه الجماعة المؤمنة ، ولا يكاد يمضي على إسلامه لحظات ، أجل لحظات ، حتى ينتفض في قلبه الشجاع إحساسه بمسئوليته عن الدين كله ، وعن هذه الجماعة المسلمة كلها ، بل بمسئوليته عن مستقبل الدين وأهله عَبْر القرون الآتية والدهور المقبلة..

ومن ثَمَّ يخرج من فوره معلناً إسلامه على الصورة التي أشرنا إليها من قبل.. وهو آنئذٍ يدرك تماماً أنه لا يعلن إسلامه هو.. إسلام "عمر بن الخطاب" .. بل يعلن إسلام التسعة والثلاثين الذين سبقوه إلى الإسلام ، والذين يعبدون الله خُفية.. بل يعلن أيضاً إسلام مئات الملايين القادمة عَبر المستقبل..!!

ولا تقف مسئوليته عن هذا الدين الذي اعتنقه بإعلان إسلامه ، بل تُجاوز ذلك إلى إخراج الإسلام والمسلمين من الخفاء الذي اضطرهم إليه اضطهاد قريش ..

وهكذا يذهب إلى رسول الله ﷺ قائلاً:

"والله يا رسول الله ، لن نعبدَ الله سراً بعد اليوم"..

وتخرج الدعوة لتواجه خصومها ، وتنادي الموعودين بها ، وتتلقى قريش من تكبيراتها المدوية أولى الكلمات في منشور نَعْيِها ، ونَعْي أصنامها..!!

* * *

كانت هذه أولى بركات "عمر"..

وكان هذا نَموذجاً للأسلوب الذي سيتحمّل به "عمر" مسئولياته عن دين الله ، ودنيا الناس.

إنه أسلوب رجل يرى نفسه تِجاه الأحداث والمواقف ، وكأنه المسئول الأوحد عنها .

كل أزمة ستواجه الإسلام والمسلمين ، سيجابهها "عمر" ، بوصفه المسئول وحده عن مقارعتها وحلّها .

وإيمانه بمسئوليته هذه سيدفعه إلى أن يرفض على طول الخط كل دَنِيَّة في الدين ، وكل ملاينة لأعداء هذا الدين.

وعلى الرغم من إيمانه المطلق برسول الله ﷺ ، فإن مسئوليته ستتحرك في كل الاتجاهات ، حتى لو تجعله يبدو - معارضاً - الرسول الذي يقدسه ويفتديه ..!!

ففي صلح الحديبية يرى "عمر" أن المزايا التي أعطاها الرسول عليه السلام لكفار قريش سخية وكثيرة ، وهو يؤمن بضرورة مناجزتهم ودخول مكة عليهم طوعاً منهم أو كَرهاً لهم ، ما داموا لا يريدون أن يَجنحوا للسِّلْم ، ويحتكموا إلى الحقّ..

وما دام الحقُّ والباطل في معركة ، فلا بدّ للحق مِنْ أن يَستعلي بدل أن يُهادن.. ولابدّ له مِنْ أن يُناجز بدل أن يُساير ..

هكذا فهم "عمر" المسألة ، وكَوَّن الرأي ، ولم يكن للجهر به من مَفر ..

وهكذا أقبل على رسول الله ﷺ قبل أن يبدأ الكاتب في تحرير صحيفة المعاهدة وقال:

- يا رسول الله ، ألَسْنَا عل الحقّ ، وهم على الباطل ؟

قال الرسول ﷺ : بَلى ..

قال عمر: أليس قَتلانا في الجنة ، وقتلاهم في النار ..؟

قال الرسول ﷺ : بلى ..

قال عمر: فَعلامَ نعطَى الدَّنِيَّة في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم..؟!

قال الرسول ﷺ : ابنَ الخطاب..؟ إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً.

وترنّ عبارة "إني رسول الله" في رَوْع "عمر" رنين الصدق ، ويستنتج من نُطْقِ الرسول بها في هذا المقام ، أن الخُطة أكبر وأبعد من أن تكون مجرَّد رأي عابر لرسول الله ، فيسكت..

ويذهب غير بعيد ، يدير خواطره على الموقف كله ، ويعود إحساسه العارم بالمسئولية فَيغالِبُه ، ويُغريه بالمعاودة ، فينطلق حثيثاً إلى أبي بكر رضي الله عنه ، ويُسِرُّ في أذنه الحديث:

- يا أبا بكر ، ألسنا على الحقّ ، وهم على الباطل..؟

- بلى يا عمر..!

- فلماذا إذن نُعطي الدنيَّة في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم..؟!

ويُطمئنه أبو بكر إلى أن الله لن يتخلى عن رسوله ، وأن فتح الله قريب .

ويهدأ "عمر" .. وإن كان هدوؤه هذا لم يمنعه أن يُشيِّعَ "سهيل بن عمرو" مندوب قريش ، بنظرات مضطرمة فاتكة..!!

وعندما مات عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وكان كبير المنافقين في المدينة ، عارض "عمر" في إصرار ، صلاة رسول الله عليه .

ولنصغ إلى "عمر" نفسه يقص علينا النبأ :

- لمّا توفي عبد الله بن أبيّ ، دُعِيَ رسول الله ﷺ للصلاة عليه ، فقام إليه ، فلمّا وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمتُ في صدره ، فقلت: يا رسول الله ، أعَلَى عدوِّ الله تصلّي ..؟ وأخذت أعدد أيامه الخبيثة ورسول الله ﷺ يبتسم ، حتى إذا أكثرتُ عليه ، قال : أخِّرْ عني يا عمر ، إني خُيِّرتُ فاخترْتُ ، قد قيل لي استغفرْ لهم ، أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له ، لزدت .. ثم صلّى عليه ومشى مع جنازته وقام على قبره حتى فرغ منه..

فعجبتِ لي ، ولجرأتي على رسول الله ﷺ ، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت الآية : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ ، فما صلّى بعدها رسول الله على منافق ، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل..!!

هذا المشهد يكشف عن الطريقة التي كان "عمر" يحمل بها مسئولياته في شجاعة وصدق .

فركوب مَخاطر الدنيا كلها أهْوَن عليه من أن يقول للرسول ﷺ : لا .. لكنه إنسان لا يملك أمام مسئولياته خياراً ، وما دام يرى من واجبه أن يقول: لا .. فليقلْها وأمره إلى الله ؛ فإذا استمسك الرسول بموقفه ، يكون "عمر" قد قال كلمته ، وأبرأ ذمته ، وليس أمامه بعد هذا سوى سبيل الطاعة والإيمان .

وهو في هذه الواقعة ، قدّر أن صلاة الرسول ﷺ على منافق ضخم كعبد الله بن سلول عمل يغري المنافقين بمزيد من اللؤم والصلَف ، ويُضائل من حرمة الصدق والإخلاص عند كثير أو قليل من الناس .

وإجلاله المسئولية يدعوه لإعلان هذا الرأي ، حتى في مثل هذا الموطن ، حيث وقف الرسول ﷺ بالفعل ليصلّي على جثمان الرجل ، فيعترضه "عمر" . ويقول: أعلَى عدوّ الله تصلّي يا رسول الله ..؟!

على أنّ تناول "عمر" مسئولياته ، يبدو أروع وأبهى ما يكون عندما صار أميراً للمؤمنين..!!

هنا نلتقي بأعظم آيات التفوق الإنساني ..

هنا ، نبصر نبوغ النفس ، وبطولة الروح ، وإعجاز السلوك .!!

هنا ، نرى ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا يكاد يخطر بقلب بشَر ..!

أجل ، هنا العظائم تتفوق على نفسها ، ويَزْحَمُ بعضها بعضاً .. هنا "عمر" .. رضي الله عن "عمر" !!!

حاكم يحمل مسئولياته على نَمط فذّ ، ويعطي البشر جميعاً إلى آخر لحظة في الأبد ، درساً في الأمانة ـ أيَّ درس .. وقدوة في الذمة ـ أيَّ قدوة .. !!

موقفه من نفسه .. موقفه من أهله .. موقفه من الضعيف ومن القوي في قومه وأمته .. موقفه من وُلاته ـ موقفه من أموال الأمة ..

مواقفه هذه ، المترَعة بإجلال منقطع النظير لمسئوليته تجاه عمله ، وتجاه أمانة الحكم في كل مجالي الحكم ومظاهره ...

أما هو كحاكم ، فقد حرم نفسه ـ لا من الطيبات المشروعة للحاكمين فحسب ، بل من الطيبات المشروعة للمواطن العادي في كل زمان ومكان .

فعَل ذلك بروح المسئولية التي حبَّبتْ إليه أن يكون أول من يجوع إذا جاع قومه .. وآخر من يشبع إذا شبعوا .. والتي فرضت عليه أن يُعاني كل ما يعانيه الناس من عمل وشظف .

وإنه ـ رضي الله عنه ـ ليصوِّر هذا الضمير القوي في فلسفة حكيمة فيقول :

« كيف يعنيني شأن الناس ، إذا لم يُصبني ما يُصيبهم » !! .

وهكذا رأينا أمير المؤمنين ، يلتزم أكْلَ الزيت ، حين أصاب المسلمين أزمة شديدة في اللحم والسمن ، ويُدمن ابن الخطاب أكل الزيت حتى تئِنَّ أمعاؤه وتُقرقِر ، فيضع كفَّه على بطنه ، ويقول :

« أيها البطن لَتمرَنَّنَّ على الزيت ، ما دام السمن يباع بالأواقي » .. !!

وفي عام الرمادة ، وكان عام مجاعة قاتلة في المدينة ، أمرَ يوماً بنَحْر جَزور ، وتوزيع لحمه على أهل المدينة ..

وقام المختصون بإنجاز المهمة ، بيد أنهم استبقوا لأمير المؤمنين ، أطيب أجزاء الذبيحة ..

وعند الغداء ، وجد "عمر" أمامه على المائدة سَنام الجزور وكبده ، وهما أطيب ما فيه .. ! فقال :

ـ من أين هذا .. ؟

قيل : من الجزور الذي ذبح اليوم ..

فقال : وهو يزيح المائدة بيده الأمينة :

« بَخٍ بَخٍ ، بئس الوالي أنا ، إن طعمتُ طيبها ، وتركت للناس كَراديسها ـ يعني عظامها ـ » ..

ثم نادى خادمه أسلم ، وقال له :

ـ يا أسلم ، ارفع هذه الجَفْنة . وائتني بخبز وزيت !!

إن قوله : "بئس الوالي أنا ، إن طعمت طيبها" يرسم الصورة الكاملة المضيئة لروح المسئولية التي كانت تسيطر على تصرفات ذلك العاهل المنقطع النظير .

إنه رجل يرى نفسه واحداً من الناس آثره الله عليهم بمزيد من التبعة والواجب حين ولاه أمرهم ، واستخلفه عليهم . ولم يُؤْثِره بامتياز يجعل الحكم كَلأً مباحاً ، وقَنَصاً بَواحاً .. !!

على أن "عمر" وهو أمير للمؤمنين ، يبذل من الجهد ، ما يشفع له إن هو امْتازَ لنفسه طعمة طيبة تُعينه وتقوّيه ..

هذا منطقنا ، وهو منطق عادل في رأينا ..

أما "عمر" فصاحب منطق آخر .. وهو يعرف العدل في ذُراه العالية التي تتقطع الأنفاس دون بلوغها .. !!

هو يدرك أن مسئوليته تقتضيه أن يوفر عيشهم ، فإذا قعدت به دون هذا ظروف لا يملك لها دفعاً ، تكون مسئوليته أن يُسَوِّيَ بينهم بالحقّ ، وأن يكون هو أوَلَ مَنْ يحمل حظه من الخصَاصة والضنك ..

ذات يوم يتلقى من أحد ولاته هدية من الحلوى ، ولا تكاد توضع بين يديه حتى يسأل الرسول الذي جاء يحملها :

ـ ما هذا .. ؟

قال : حلوى يصنعها أهل أذربيجان ، وقد أرسلني بها إليك "عتبة بن فرقد" ـ وكان والياً على أذربيجان ـ فذاقها "عمر" ، فوجد لها مذاقاً شهياً .

فعاد يسأل الرسول :

ـ أكلّ المسلمين هناك يُطعمون هذا ... ؟

قال الرجل : لا .. وإنما هو طعام الخاصة ..

فأعاد "عمر" إغلاق الوعاء جيداً ، وقال للرجل :

ـ أين بعيرك .. ؟ خذ حِملك هذا ، وارجع به لعتبة ، وقلْ له : "عمر" يقول لك: «اتّقِ الله ، وأشبع المسلمين مما تشبع منه» .. !!

هذا حاكم لا نلقاه في مكان الصدارة ، ولا في مقدمة الموكب إلا حين تكون المَخاطر داهمة .. أما دون هذا ، فقد اختار مكانه دوماً هناك .. آخر مقعد .. في آخر صف .. ليحرس القافلة ، وليتأكد إذا كان ثمّة نعمة مقبلة ، أنها لم تبلغه إلا بعد أن تكون قد مرّت بالناس جميعاً .. !!!

* * *

فإذا جئنا موقفه من أهله وأسرته ، وجدنا تقديساً للمسئولية لا يُضاهيه تقديس ، وإكباراً لأمانة الحكم لا يضاهيه إكبار ..

إنه لا يحرمهم مما ليس لهم بحقّ فحسب ، بل مما هو لهم حقّ مشروع . وإنه لَيحمِّلهم من المسئوليات أضعاف ما يَحمله نظراؤهم من الناس ؛ حتى صارت قرابة "عمر" عبئاً يودّ الأقرباء لو استطاعوا منه الفرار .. !

إن أمير المؤمنين يعلم أن أمانة الحكم لا تُمتحن امتحانها الوثيق إلا هنا .. في علاقات الحاكم بأهله ، هل لهم قانون ، وللناس قانون ؟ أم أنهم والناس سَواسِيَةٌ أمام قانون واحد ، وعدالة واحدة ؟؟

من أجل هذا بالَغ في إلزامهم جميعاً مسئولية القدوة .

ولطالما حملهم على شظف العيش ، ولأواء الحياة .. لطالما انتزع من أيديهم ـ بل من أفواههم ـ اللقمة الطرية .. !!

ولقد كانت الأرضُ تَميدُ ، والسماءُ تَمُورُ ، حين يعلم أنَّ أحداً من أُسرته ذهبَ بامتياز ـ أيِّ امتياز .. !

وكان إذا سَنَّ قانوناً ، أو حظَر أمراً ، جمع أهله أوّلاً ، وقال لهم :

ـ « إني قد نهيت الناس عن كذا ، وكذا . وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ، فإن وقَعتم وقعوا . وإن هِبتم هابوا . وإني والله لا أُوتَي برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني .. فمن شاء منكم فليتقدم ، ومن شاء فليتأخر » !!

أرأيتم .. ؟؟

« ضاعفتُ له العذاب لمكانه مني » ..

إن القربَى من عمر ، لا تعني أن العَدْلَ في إجازة .. ولا تعني أن القانون لَغو .. بل تعني أضعافاً مضاعفة من التبعة والمسئولية والحرمان .. تعني البعد من كل شبهة . والتخلي عن كل متعة . تعني أن يتقدم هؤلاءِ الأقرباء عند الخطر ، ويتأخروا عند المَغْنَم . بل هي كذلك تعني عند "عمر" حرمانهم من حقٍّ مكتسب ، تفادياً لشبهة محتملة .. !!

ولو رأيناه وهو يعاتب ولده "عبد الله بن عمر" لرأينا عجباً ..

مع أن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ كان إماماً في الورع والزهد والتُّقى ...

كان يتبع خطى أبيه ، ولم تكن نفسه لتزين له شبهة من سوء ؛

ومع هذا ، فما كان "عمر" يراه يستروح نعمة متواضعة من نعم الحياة الدنيا ، إلا قال له :

ـ « ألأنك ابن أمير المؤمنين » ... !؟

وكانت هذه العبارة : « ألأنك ابن أمير المؤمنين » تمثّل الشعار الحيَّ الذي رفعه "عمر" لأهله بخاصة ، وللناس كافة تجاه الحقّ والمعدلة .

يدخل يوماً دار ابنه عبد الله ، فيجده يأكل شرائح لحم ، فيغضب ويقول له :

ـ « ألأنك ابنُ أمير المؤمنين تأكل لحماً ، والناس في خَصاصة .. ؟ ألا خبزاً وملحاً . ؟ ألا خبزاً وزيتاً » .. ؟!!

ويخرج إلى السوق يوماً في جولة تفتيشية ، فَيرى إبلاً سِماناً ، تمتاز عن بقية الإبل بنموِّها وامتلائها ، فيسأل :

ـ إبلُ مَن هذه .. ؟؟

قالوا : إبل عبد الله بن عمر ..

وانتفض أمير المؤمنين ، كأنما القيامة قامت ، وقال :

ـ عبد الله بن عمر .. ؟؟ بَخٍ بَخٍ يَا ابن أمير المؤمنين !!

وأرسل في طلبه من فوره ، وأقبل عبد الله يسعى .. وحين وقف بين يَدَيْ والده ، أخذ "عمر" يفتل سَبلة شاربه ـ وتلك كانت عادته إذا أهمَّه أمر خطير ـ وقال لابنه :

- ما هذه الإبل يا عبد الله .. ؟؟

فأجاب: إنها إبل أنضاء - أي هزيلة - اشتريتها بمالي ، وبعثت بها إلى الحِمَى - أي المرعى - أتاجر فيها ، وأبتغي ما يبتغي المسلمون ..

فعقب "عمر" في تَهكم لاذع :

" ويقول الناس حين يَرَوْنها .. ارعوا إبلَ ابن أمير المؤمنين .. اسقُوا إبلَ ابن أمير المؤمنين . وهكذا تَسْمَنُ إبلك ، ويَربُو ربحُك يا ابن أمير المؤمنين " .. !!

ثم صاح به :

- يا عبد الله بن عمر ، خذ رأس مالك الذي دفعته في هذه الإبل ، واجعل الربح في بيت مال المسلمين ..

يا خالق هذا الإنسان ، سبحانك ... !!!

إن "عبد الله بن عمر" لم يأتِ أمراً نُكراً ، إنما يستثمر ماله الحلال في تجارة حلال ، وهو بدينه القوي وأخلاقه الأمينة فوق كل شبهة .

ولكنْ لأنه ابن أمير المؤمنين ، يحرمه أمير المؤمنين ، مما هو له حقّ - مظنّة أن تكون بُنُوَّته لعمر ، قد هيأت له من الفرص ما لا يتوافر لغيره من الناس .. !!

هذا حاكم يمسك الميزان في رهبة لا تماثلها رهبة ، وهو لا يدرأ أهله عن أن يكونوا أهل حظوظ ومزايا فحسب .. بل إنه ليضطرهم إلى أن يعيشوا معه فوق صراطٍ أَحَدَّ من الشفرة .. وأرق من الشعرة ، حتى لكأنما رُزِئوا بقرابة "عمر" بدل أن يَهْنَئوا بها ويتبذَّخوا فيها .. !

يصل إلى المدينة يوماً بعض أموال الأقاليم ، فتذهب إليه ابنته "حفصة" رضي الله عنها ، لتأخذ نصيبها . وتقول له مداعبة :

- « يا أمير المؤمنين ، حقُّ أقاربك في هذا المال ، فقد أوصى الله بالأقربين » ..

فيجيبها جاداً :

- « يا بُنية ، حقُّ أقربائي في مالي .. أما هذا ، فمال المسلمين .. قومي إلى بيتِكِ » .. !!

هذا رجل تأدب على يد "محمد" رسول الله ﷺ ..

ولطالما رآه يقول لأحب الناس إليه ، ابنته "فاطمة البتول" : لا يا فاطمة .. إن في المسلمين من هم أحوج منكِ لهذا المال » ..

ثم يحرمها ويعطي سواها !!

مِن هذا المنهل ارتوى "عمر" ، وعلى هذا الهدى سار ..

وهو يطالب أهله وذويه أن يرتفعوا دوماً إلى مستوى المسئولية لا الحظوة . فليس لدى "عمر" حُظوة لإنسان ..

هو يريد منهم أن يكونوا عوناً له على واجبه ، وذلك يقتضيهم أن يبذلوا جهداً أكثر ، ويحرزوا تفوُّقاً أكبر ..

يقتضيهم أن يعطوا كثيراً ، ويأخذوا قليلاً ، وينتظروا من الله حُسن الثواب ..

أجل .. يقتضيهم أن يكونوا قدوة لأهل العفاف والكفاف .

حين أفاء الله على المسلمين في عهده خيراً كثيراً ، وامتلأ بيت المال بالمال ، أشار عليه نفر من صحبه ، أن يقوم بإحصاء الناس ، ورَصْدِ أسمائهم في ديوان ، حتى ينالوا جميعاً رواتبهم السنوية في نظام محكم ..

واختير لهذه المهمة ـ عقيل بن أبي طالب ، وجبير بن مطعم ، ومخرمة بن نوفل ـ وكانوا أعلم الناس بأنساب قريش ، وأكثرهم معرفة بالمسلمين .

جلسوا يدونون الأسماء ، بادئين ببني هاشم ، ثم بآل أبي بكر ، ثم بني عَدِي آل عمر ...

فلمّا طالعَ أمير المؤمنين الكتاب ردّه إليهم ، وأمرهم أن يقدموا على آل عمر كثيرين غيرهم ، اقترح أسماءهم ، وذكر عائلاتهم .. وقال : « ضعوا عمر وقومه موضعهم » .. !!

وعلم "بنو عدي" بهذا ، فذهبوا إليه راجين أن تظل أسماؤهم في مقدمة الديوان كي ينالوا أنصباءهم والمال وَفْر ، وقالوا له : ألسْنا أهل أمير المؤمنين . ؟؟

فأجابهم عمر :

ـ « بخ بخ بني عدي ، أردتم الأكل على ظهري ، وأن أهَبَ حسناتي لكم ، لا والله ، لتأخذُنَّ مكانكم ولو جئتم آخر الناس » ..

إن القرابة من أمير المؤمنين ، لا تعني ـ كما أسلفنا ـ الأثرة والحظوة ، إنما تعني العرق والشظف ..

ولقد رفض أمير المؤمنين إلحاح أصحابه وإخوانه لكي يُولّيَ ابنه عبد الله منصباً من مناصب الدولة ..

ولقد كانوا في إلحاحهم مدفوعين بحرصهم الشديد على الانتفاع بمواهبه النادرة ..

لكنّ "عمر" رفض ، كما رفض عند موته أن يرشحه للخلافة .. بل رفض أن يجعله ضمن الستة الذين رشحهم هو ليختاروا من بينهم خليفة قائلاً :

« حَسْبُ آل عمر أن يحاسب منهم واحد ، هو عمر » .. !!

لكنْ يا أمير المؤمنين ، إن ولدك عبد الله هو التقي العادل ، فهل ذَنْبه ، وذَنْبُ الناس الذين ستسعدهم ولايته أنه ابن أمير المؤمنين .. ؟!

طالما قيل هذا القول لعمر .. فيذكّر قائليه بأن عبد الله ليس هو التقي العادل وحده .. وهناك في المسلمين نُظَراء له في العدل والتقوى ، فإذا آثره : "عمر" عليهم يكون قد حَابَى وجامَل .. !

ثم إن "عمر" رجل "قدوة" ، قبل أن يكون رجل "حكم" ؛ فإذا استعمل اليوم صالحي أهله ، فأيَّانَ يذهب إذا جاء من بعده حكام يُسرفون في تولية أهليهم . ويقولون: لقد فعل هذا "عمر" .. ؟!!

من أجل ذلك وضع مبدأ جليلاً فقال :

ـ « من استعمل رجلاً لمودّة أو قرابة ، لا يحمله على استعماله إلا ذلك ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

إنه إذا ولّى عبد الله ابنه عملاً ، لن يفعل ، لمكان عبد الله منه ؛ بل لمحض استحقاقه وكفايته ، ومع هذا يصرُّ على موقفه ..

جلس يوماً بين أصحابه وقال :

ـ « أعياني أهل الكوفة .. إن استعملتُ عليهم ليّناً استضعفوه ، وإن ولّيتهم القوي شكَوْه ، ولَوَدِدْتُ أني وجدت قويًّا أميناً مسلماً ، استعمله عليهم » .

فقال أحد جلسائه : أنا والله أدلّك على القوي الأمين المسلم ..

قال عمر متحفزاً : من هو .. ؟

قال الرجل : عبد الله بن عمر .

فأجاب أمير المؤمنين قائلاً : قاتلك الله .. والله ما أردتَ الله بهذا ... ثم اختار والياً آخر .. !!

* * *

لقد اعتدنا أن نضع هذا السلوك المعجز لعمر ، تحت عنوان الزهد أو التقشف .

فعمر يجوع ، ويتقشّف في مطعمه ، وملبسه ، ويحمل أهله معه على ذلك بدافع نُسميه زهداً .

ولكنْ الحقَ ، أن وراء الزهد حافزاً أبعد غوراً وأعمق جذوراً .

ذلك هو الاحترام الفريد لمسئوليته ، والتفاني الفذّ في الإخلاص لتبعاته وواجبه .

إن للمسئولية في ضميره الطاهر الحيِّ قَداسة مطلقة ، وجميع الاعتبارات والمواقف ، تتكيف وَفق مقتضيات هذه المسئولية ، ولا تخضع هي لأيِّ موقف أو اعتبار .

ولعلَّ من حظوظنا الوافية أن نطالعَ هذه الخطبةَ التي استهلَّ بها عهدَ خلافته :

ـ « .. بلغني أن الناس هابوا شدتي ، وخافوا غِلظتي ، وقالوا : قد كان عمر يشتدُّ ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، ثم اشتدَّ علينا وأبو بكر وَالِينَا دُونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه .. ؟

ألا من قال هذا فقد صَدَق ، فإني كنت مع رسول الله ﷺ عونَه وخادمَه .. وكان عليه السلام مَنْ لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله تعالَى : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ، فكنتُ بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يُغمدني ، أو يدعني فأمضي .. فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنَي راضٍ . والحمد لله على ذلك كثيراً . وأنا به أسعد ..

ثم وَلِيَ أمرَ المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دَعَتَه ، وكرمه ، ولِينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتي بلِينه ، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني فأمضي . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنّي راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً . وأنا به أسعد ..

ثم إني قد ولّيت أموركم أيها الناس ، فاعلموا أن تلك الشدة قد أُضعِفَتْ ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي ، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألْيَنُ لهم من بعضهم لبعض . ولستُ أدَعُ أحداً يظلم أحداً ، أو يعتدي عليه ، حتى أضع خده على الأرض ، حتى يُذعن للحقَ ، وإني بعد شدتي تلك ، أضع خدي على الأرض لأهل العفاف ، وأهل الكفاف ..

ولكم عليَّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها :

لكُم عليَّ ألا أجتبي شيئاً من خراجكم وما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم عليَّ إذا وقع في يدى ألاَّ يخرج مني إلا في حقه ، ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسدَّ ثغوركم ، ولكم عليَّ ألاَّ ألقيكم في المهالك ، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم ...

« فاتقوا الله وأعينوني على أنفسكم بكفّها عني ، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإحضاري النصيحة فيما ولاّني الله من أمركم .. » !!

* * *

هذه الخطبة ، ليست أجمع خطب "عمر" . ولا أكثرها ألقاً ونوراً ، ولكنها في هذا المقام تلقي ضياء غامراً على الحافز العميق الذي كان يحرك الرجل الكبير ويَهدي خطاه ..

فلقد كان ورسولُ الله حيّ ـ سيفاً مسلولاً على كل ما هو زيف وباطل ، يضرب به الرسول ﷺ ما يشاء ..

وكان ـ وأبو بكر حيّ ـ السيف المسلول نفسَه في يد خليفة رسول الله ﷺ .. أي إنه كان جنديًّا ، قد يناقش قائده ، ولكنه آخر الأمر السميع المطيع .. أما اليوم ، فقد صار السيفَ والضاربَ معاً .. الجندي والقائد جميعاً .. ومسئوليته عن كل شيء مسئولية مباشرة ..

وهو لا يعدُّ نفسه مسئولاً أمام الناس ، ولا أمام التاريخ ، ولا أمام شيء من هذه المصطلحات . بل هو مسئول أمام الحقّ المبين ـ الله الذي لا تخفى عليه خافية .. !!

* * *

أجل ـ أمام الله العلي الكبير يحمل "عمر" المسئولية التي كان يحملها صاحباه ـ رسول الله ﷺ ، وخليفته أبو بكر ..

* * *

وإذا كنا رأينا كيف تفوّق بمسئولياته على كل خوالج النفس ، ورغبات الأهل ..

فلنتظر الآن كيف باشَر مسئوليته تجاه الناس الذين استخلفه الله عليهم .

وهنا نلتقي مثلما التقينا من قبل ـ وكما سنلتقي من بعد ـ بالرجل الذي هو نسيجُ وحدِه ..

إنه يرى مسئوليته مباشرة عن كل رجل في سِرْبه .. عن كل امرأة في بيتها .. عن كل رضيع في مهده .. !!

وهو يبدأ مسئوليته تجاه الناس ، بأن يعيش في أدنى مستويات عيشهم . فإذا دُسَّت عليه لقمة متميزة قال كما قرأنا من قبل : « بئس الوالي إن أنا طعمت طيبها ، وتركت للناس عظامها » . !

وأعجبُ من كل عجب ، أنه لم يسلك سلوكه هذا تجاه الأحياء وحدهم ، بل تجاه الأموات أيضاً .. !!

فكان يرفض أن يظفر بنعيم لم يظفر به إخوانه الذين سبقوه إلى الله ، واستشهدوا

في سبيله قبل أن يمكّن للإسلام والمسلمين .

حين زار الشام ، جيء له بطعام طيب ، مختلف ألوانه ، وبدلاً من أن يُقبل عليه ، وينعم بمذاقه ، رمَقه بعينين باكيتين وقال :

ـ « كلُّ هذا لنا ، وقد مات إخواننا فقراء لا يشبعون من خبز الشعير » ؟؟!!

وهو يأخذ بِمَكاظِم الجبارين العتاة حتى يخضعوا للحقّ ، ويُوطِئُوا الأكناف لإخوانهم الذين يتميزون عليهم .

وفي الوقت نفسه يضع خدَّه هو على الأرض ـ كما سمعناه يخطب من قبل ـ لأهل العفاف وأهل الكفاف .

وهو يحمل مسئولياته فوق كاهله .. ، ولا يوزعها على الآخرين الذين هم بمسئولياتهم مشغولون ..

فإذا تقدَّم منه أحد أصحابه ليريحه من عمل ، أو يشاركه فيه ، نَهرَه قائلاً :

«أتحمل وزري يوم القيامة » .. ؟!

وحين نبصر الجَوَّ النفسي المشحون بالاهتمام والحركة عندما تُنادي "عمر" إحدى مسئولياته ، نرى عالماً يموج ويتحرك ، وليس فرداً مجرَّد فرد ..

والحدَث العابر الذي لا يكاد يحسُّه أكثر الناس يقظة وتحفزاً وإنسانية .. كان "عمر" يرتجف منه ، ويحتشد له ، ويقيس عليه الأشباه والنظائر ثم يضع تشريعاً ، ويسنُّ قانوناً .

قَدِم المدينة بعض التجار في إحدى الأمسيات ، وخيَّموا عند مشارفها ، فاصطحب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن عوف ليتفقد أمر القافلة ، وكان الليل قد تصرَّم ، واقترب الهزيع الأخير منه .. وعند القافلة النائمة اتخذ "عمر" وصاحبه مجلساً على مقربة منها ، وقال "عمر" لعبد الرحمن : « فلنمض بقية الليل هنا ، نحرس ضيوفنا .. » .

وإذْ هما جالسان ، سمع صوت بكاء صبي ، فانتبه "عمر" وصمت .. وانتظر أن يكفَّ الصبي عن بكائه ، ولكنه تمادى فيه ، فمضى يسرع صوبه ، وحين اقترب منه وسمع أمَّه تُنَهْنِهُه ، قال لها : اتقي الله ، وأحسني إلى صبيِّك .. !!

ثم عاد إلى مكانه .. وبعد حين عاود الصبي البكاء ، فهرول نحوه "عمر" ، ونادى أمه : قلت لك : اتقي الله وأحسني إلى صَبيِّك ..

وعاد إلى مجلسه . بيد أنه لم يكد يستقر حتى زلزلَه مرة أخرى بكاء الصبي ، فذهب إلى أمه وقال لها : ويحك .. إني لأراك أُمَّ سوء . ما لِصَبيِّك لا يقرُّ له قرار .. ؟!

قالت ، وهي لا تعرف من تخاطب : يا عبد الله قد أضجرتني ..

إنِّي أحمله على الفطام فيأبى ..

سألها عمر : ولِمَ تحملينه على الفطام .. ؟

قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم ..

قال وأنفاسه تتَواثب : وكم له من العمر .. ؟

قالت : بضعة أشهر ..

قال : ويحك .. لا تُعجِليه ..

يقول صاحبه عبد الرحمنِ بن عوف : فصلّى بنا الفجر يومئذ ، وما يَستبين الناس قراءته من غَلبة البكاء . فلمّا سلّم قال : « يا بؤساً لعمر !! كم قتل من أولاد المسلمين » ؟!!

ثم أمر منادياً ينادي في المدينة : « لا تعجلوا صبيانكم على الفطام ، فإنّا نفرض من بيت المال لكل مولود في الإسلام » .

ثم كتب بهذا إلى جميع ولاته في الأمصار .

* * *

أمير للمؤمنين ، تدك جيوشه معاقل كسرى وقيصر ، وهو هنا في الساعات الأخيرة من الليل يحرس قافلة وفدت على المدينة .. ثم يؤرقه بكاء طفل ويزلزله ، حتى يَشرَقَ بالدموع وهو يصلّي بالناس ، ثم لا يعالج واقعة الحال هذه وحدها ، بل يضع في التوّ واللحظة قانوناً يستوعب كل حالاتها المشابهة ..

اهتمام عجيب بمشاكل الناس ، وممارسة فذة خارقة لمسئولية الحكم .. !

وفي عام الرمادة يسمع عن جماعة في أقصى المدينة ، قد نزل بهم من الضر أكثر مما نزل بأهل المدينة كلها .. فيحمل فوق ظهره جرابين من دقيق ، ويحمل خادمه "أسلم" قربة مملوءة زيتاً ، ثم يهرولان إلى هناك يحملان النجدة والغوث .

وعندما يبلغان القوم ، يطرح أمير المؤمنين برداءه ويطهو بنفسه طعامهم حتى يشبعوا .. ثم يرسل خادمه ليعود إليه بإبل يحملهم على ظهورها إلى داخل المدينة حتى يكونوا بقرب منه ، وحتى ينزلوا مكاناً أطيب ، وينالوا رعاية أكثر ..

الناس .. الناس .. الناس .. !!!

هذه الكلمة كانت الهتاف العلوي الذي يجلجل في روع عمر آناء الليل وأطراف النهار .

حتى لَنراه وهو يجود بأنفاسه الطاهرة ، وجِراحُه النبيلة الشهيدة تَنْشَخِبُ دماً ، لا يشغله إلا أمر الناس ..

فيدعو بالستة الذين اختارهم ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد ؛ وإذ يحضر منهم عليٌ ، وعثمان ، وسعد ، يوصيهم وهو لا يقوَى على الكلام فيقول :

* « يا عليُ .. إذ وليت من أمور الناس شيئاً ، فأعيذك بالله أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس .. ! »

* « يا عثمان .. إذا وليت من أمور الناس شيئاً ، فأعيذك بالله أن تحمل بني أبي مُعَيط على رقاب الناس .. ! » .

* « يا سعد .. إذا وليت من أمور الناس شيئاً ، فأعيذك بالله أن تحمل أقاربك على رقاب الناس .. ! » .

وفي العام الذي لقي الله فيه ، كان على موعد مع نفسه أن يطوف بجميع الأمصار ليتفقد أحوال الناس ، ويبلوَ أخبارهم ، ولقد قال يوماً لأصحابه :

« لئن عشت إن شاء الله ، لأسيرنّ في الرعية حولاً ، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع

دوني .. أمّا وُلاتهم فلا يرفعونها إليَّ . وأمّا هم فلا يصلون إليَّ . أسير إلى الشام فأقيم شهرين ، وبالجزيرة شهرين ، وبمصر شهرين ، وبالبحرين شهرين ، وبالكوفة شهرين ، وبالبصرة شهرين ، والله لَنعم الحول هذا » .. !!

* * *

وتنقلنا مسئولية "عمر" عن الناس إلى مسئوليته عن الولاة والعمال الذين كان يَكِل إليهم مصائر الناس في البلاد البعيدة والقريبة ..

فكيف كان "عمر" يباشر مسئوليته تجاه وُلاته ومعاونيه في الحكم ؟؟

كان يباشرها على طريقته ، طريقته التي لا تتغير ، والتي لا نرى في نماذجها مهما تتكاثر أدنى تفاوت ..

وكان يختارهم في حرص مَنْ يختار مصيره .. !!

إنه يَعدُّ نفسه مسئولاً عن كل غلطة يرتكبها أحد ولاته ، علم بها عمر أم لم يعلم ..

ومن ثم ، فهو يقلب وجهه ، ويُعمل فكره ، ويَستخير ربه ، ويَستشير صحبه ، ويَستأني قبل أن يختار عامله ومعاونه .. !!

كان يقول لأصحابه :

ـ « أرأيتم إذا استعملت عليكم خير مَنْ أعلم ، ثم أمرته بالعدل ، أيبرئ ذلك ذمتي » ... ؟؟

يقول أصحابه : نعم ..

فيقول : « كلا .. حتى أنظر في عمله ، أعَمِل بما أمرته أم لا » ..

ويقول : « أيما عامل لي ظلم أحداً ، وبلغتني مظلمته فلم أغيِّرها ، فأنا ظلمته » .. !!

ويقول لخالد بن عرفطة :

ـ « إن نصيحتي لك وأنت عندي جالس ، كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثُغور المسلمين ، وذلك لِمَا طوَّقني الله من أمرهم ، فإن رسول الله ﷺ قال :

« من مات غاشًا لرعيته لم يُرَحْ رائحة الجنة » .. !!

إنَّ "عمر" يريد من وُلاته أن يباشروا مسئولياتهم على المستوى نفسِهِ الذي يباشر فيه مسئولياته .

وإذا كان ذلك عسيراً .. بل مستحيلاً ، لأن "عمر" لا يتكرر ، فقد كان يبحث عن أقرب الناس مسافة من هذا المستوى .

وهو لهذا ، يختارهم مُمعناً في التحوُّط والدقة واليقظة ..

فهو ـ أولاً ـ يرفض كل مَنْ يسعى إلى المنصب أو يطلبه لنفسه .

وإنه في هذا لمُقتدٍ برسول الله عليه الصلاة والسلام ، إذ كان يقول : « إنّا والله لا نُوَلِّي هذا الأمر أحدًا يسأله أو يحرص عليه » .

هذه أولى خطوات "عمر" في اختيار معاونيه .. استبعاد كل راغب في المنصب ، طامح

إليه ، لأن الذي يحمل شهوة الحكم يحمل شهوة التحكُّم .. والذين يطلبون أن يكونوا حكاماً وولاة ، لا يقدِّرون مسئولية الحكم تماماً ، وإلا لهربوا منه ، وزهدوا فيه ..

ذات يوم أسرَّ في نفسه اختيار أحد أصحابه ليجعله والياً على أحد الأقاليم ..

ولو صبر هذا الصحابي بضع ساعات ، لاستدعاه "عمر" ليقلده المنصب الذي رشحه له .

ولكنَّ أخانا بادَرَ الأمور التي لم يكن يعرف عنها شيئاً ، وذهب إلى أمير المؤمنين يسأله أن يوليه إمارة ..

يبتسم "عمر" لحكمة المقادير ، ويفكر قليلاً ثم يقول لصاحبه :

ـ « قد كنا أردناك لذلك ، ولكن مَنْ يطلب هذا الأمر لا يُعان عليه ولا يُجاب إليه » .. ثم صرفه وولَّى غيره .. !!

سنقول لأنفسنا : وأيُّ بأس في أن يطلب رجل لنفسه الحقَّ في عمل يثق في قدرته على مسئوليته ، وحفظ أمانته ؟؟

ألم يقل يوسف الصديق للملك : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .. ؟؟

أجل ، قال يوسف الصديق هذا ، بيد أنه حين تقدَّم طالباً ذاك المنصب ، كان تماماً كفدائي يخاطر بحياته .. كان كجندي الإطفاء يُلقي بنفسه في أفواه اللهب ، وهو لا يدري : أيعود مُعافًى ، أم يتحوَّل هناك إلى رماد .. ؟!

صحيح أنه طَالَبَ بمنصب رفيع ، بيد أن هذا المنصب ساعتئذٍ كان غُرماً لا غنماً ، وكانت مخاطره المحققة ، تفوق كثيراً مَباهجه المحتملة ..

كان هناك إفلاس ، ومجاعة ، وخراب ، وكل المسئولين يهربون مما جنَتْ أيديهم ، ثم يتقدم رجل لينقذ أزمة تستعصي على الإنقاذ .

هذا ليس طالب منصب ، بل عاشق الخطر ، وراكب الصعب .. !!

على أن "عمر" ، لم يكن بحاجة إلى أن يفلسف المسألة على هذا النسق .. فالأمر لديه غاية في الوضوح .. إنه يريد والياً يرتفع إلى مستوى المسئولية كما يفهمها عمر . وأيُّ واحد من هذا الطراز سيهرب من الولاية بدل أن يحرص عليها أو يطلبها .

لقد هرب "عمر" مما هو أكثر من الولاية .. هرب من الخلافة إثر وفاة رسول الله ﷺ .. ولولا أن طوَّقه بها "أبو بكر" في لحظة لا تسمح بالتردُّد ، بل ولا بالتفكير ، لهرب منها أيضاً ، ولآثر كما قال : « أن يُضرب عنقه ولا يرى نفسه أميرا للمؤمنين » .. !!

إن كل مَنْ يطلب الإمارة إذن يكون سيِّئ التقدير لتبعاتها ، وعُقْباها ، ومن ثم لا يراه "عمر" جديراً بها ..

هذا أول ما يتطلبه من ولاته : الزهد في المنصب ، والفرار منه ، حتى إذا جاءهم كَرهاً ، أخذوه مشفقين .. !!

بعد هذا ، يختار لها "القويَّ الأمين" ..

ولا يكاد يختار الوالي حتى يأخذ بيده ويقول له :

- « إني لم أستعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم . لكني استعملتك لتقيم فيهم الصلاة ، وتَقسِم بينهم ، وتحكم فيهم بالعدل » .

ثم يَعدُ له عداً ، النواهي التي عليه أن يتجنُبها :

* لا تركب دابة مُطَهّمة ..
* لا تلبس ثوباً رقيقاً ..
* لا تأكل طعاماً رافهاً ..
* لا تغلق بابك دون حوائج الناس ..

ولكنْ ، لماذا يحول "عمر" بين عماله ، وهذه الطيبات المباحة - الدابة المطهمة .. والثوب الرقيق .. واللقمة الطرية .. ؟!

إنه يفعل ليعيشوا دائماً في مستوى الشعب الكادح الفقير .. وليظلُّوا في مكانهم الحقَّ ، خداماً للناس ، لا سادة لهم ..

إنه لا يريد لِوُلاتِه أن يُفتَنوا ، أو يترفوا ، أو ينالوا باسم الحكم أيَّ بُلَهْنِيَةٍ [1] ، أو امتياز .

من أجل هذا ، يتعقبهم في كل مظاهر الزينة ، والعلو ، فيذودهم عنها ، حتى لو يكون هذا المظهر دابة الركوب ..

يجب أن تكون هذه الدابة للعمل ، لا للخُيَلاء .. للخدمة لا للزَّهْو .. للضرورة ، لا للصلَف ولا للترف .. !!

إنه لا يريد لولاته أن يفقدوا وَجاهتهم .. ولكنه يريدُ لهم الوجاهة المشروعة التي لا بَغْيَ فيها ولا غرور ..

يريد أن يتفوَّقوا على الناس بأناقة النفس ، لا بأناقة اللباس ، وبمحامد الأفعال ، لا بالمظاهر الكاذبة ، والغبار الباطل .. !!!

انظروا كيف يرسم في حِذق باهر ، صورة الأمير الذي يُحِب ، والحاكم الذي يُؤْثر ..

ذات يوم قال لإخوانه : .. « دُلوني على رجل أَكِلُ إليه أمراً يهمني .. قالوا : فلان . قال : لا حاجة لنا فيه .. قالوا : فمن تريد ؟

قال : « أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميراً لهم بدا وكأنَّهُ أميرهم .. وإذا كان فيهم وهو أميرهم بدا وكأنه واحد منهم » ... !!!

يا لَبَهَاء عقلك ، وذكاء روحك .. !!

انظروا ..

هذا ما يريده "عمر" تماماً : أُمراء في أخلاقهم وتواضعهم ، وليس في تبذخهم وعلوِّهم .. أمراء ، لا يفسح الناس لهم الطريق ، ولا يتَخطوْن الرقاب ، بل يمشون على الأرض هَوْناً ، ويعيشون قانعين ..

أمراء ، يشاركون الناس ولا يتميزون عليهم بغير العمل الصالح ، والجهد المبذول .

---

(١) البُلَهْنِيَةُ : الرَّخاءُ وَسَعَةُ العيش .

ولقد تعلَّم هذا من خير المعلمين ، من رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام .

فما كان الرسول ﷺ يرى أصحابه في عمل إلا شاركهم ، آخذاً أكثر جوانب العمل مشقة ..

يجمع يوماً الحطب لأصحابه وَهُمْ سَفْرٌ [١] فإذا قالوا : نحن نكفيك ذلك يا رسول الله ، قال لهم : "إنيّ أكره أنْ أتَمَيَّزَ عليكم" ..

ويسمع بعض أصحابه يقولون له : « أنت سيدنا ، وابن سيدنا » فينهاهم قائلاً : « لا يَستغوينكم الشيطان » ..

ويَقدُمُ على أصحابه ، فيقفون له ، فينهاهم قائلاً : « لا تقوموا كما يقوم الأعاجم ، يعظِّم بعضهم بعضاً » ... !!

* * *

ولا تقف مسئولية "عمر" عن ولاته عند حسن اختيارهم ، وحسن توجيههم . بل تنهض إلى إقامة كل الضمانات التي تجعل ولايتهم على الناس رحمة ، ورخاء ، وأمناً ...

وسبيله لهذا ، أن يجعل الحاكم تحت رقابة المحكوم .. وأن يحقق بنفسه ـ وعلى الفور ـ كل شكوى يشكوها مواطن من حاكم ، وأن يتتبع في يقظة عارمة سلوك ولاته في كل الأمصار .. !

في موسم الحج ، وعلى ملأ من الأعداد الهائلة من حجاج المسلمين القادمين من كل بلد ، جَمَعَ عماله وولاته جميعاً ، ووقف خطيباً :

ـ « أيها الناس ، إني والله لا أبعث عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أبعثهم إليكم ليعلِّموكم دينكم وسنّة نبيكم ﷺ ، فمن فعل به سوى ذلك ، فليرفعه إليَّ فوالذي نفسي بيده لأمكننَّه من القصاص» .. !!

ويقف "عمرو بن العاص" ، الذي رأي في هذا الحَضِّ خطراً على هيبة الولاة والحاكمين . فيقول : "أرأيتَ إن كان رجل من المسلمين والياً على رعية فأدَّب بعضهم ، أتقتصُ منه » .. ؟؟

ويجيب عمر : إي ، والذي نفسي بيده لأفعلنَ ، فقد رأيت رسول الله ﷺ يُقصُّ من نفسه ، ويقول :

« من كنتُ جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليقتدْ منه» .. !!

و "عمر" يعني دائماً ما يقول ، فما كانت تبلغه شبهة عن والٍ حتى يتوفَّر عليها [٢] في يقظة وحزم .

يسأل وفداً زاره من أهل حمص عن واليهم "عبد الله بن قُرط" فيقولون : خير أمير يا أمير المؤمنين ، لولا أنه قد بنى لنفسه داراً فارهة ..

ويُهمهِم عمر : داراً فارهة .. ؟ يتشامَخُ بها على الناس ؟ بَخٍ بَخٍ لابن قرط ..

---

(١) السَّفْرُ : المُسَافِرُ (للواحد والجمع) .

(٢) يتوفَّر عليها : يصرف إليها هِمّتَه حتى يستوفيها .

ثم يوفد إليه رسولاً ، ويقول له : ابدأ بالدار فأحرِق بابها ... ثم ائتِ به إليّ .

ويسافر الرسول إلى حمص ، ويعود بواليها ، فيمتنع عمر عن لقائه ثلاثة أيام ، ثم في اليوم الرابع يستقبله ، ويختار للقائه مكان "الحرّة" حيث تعيش إبل الصدقة وأغنامها ..

ولا يكاد الرجل يُقبل ، حتى يأمره "عمر" أن يخلع حلّته ، ويلبس مكانها لباس الرعاة ويقول له : « هذا خير مما كان يلبس أبوك .. » .. ثم يناوله عصاً ، ويقول له : « وهذه خير من العصا التي كان أبوك يَهُشُّ بها على غنمه » .. ثم يشير بيده إلى الإبل ويقول له : « اتبعها وارْعَها يا عبد الله » .. !! ثم بعد حين ، يستدعيه ، ويقول له معاتباً :

- هل أرسلتك لتشيد وتبني .. ؟! ارجع إلى عملك ولا تعد لِما فعلت أبداً .. !!

هذا موقفه من رجل شهد له قومه بأنه خير أمير ، لولا أن ميّز نفسه بدار فارهة .. !!

ألا تَرَوْن أننا أمام أسطورة .. بل لو كانت أسطورة لصعب تصديقها .. ولكن لحسن حظ البشرية كلها أن "عمر" لم يكن أسطورة ؛ بل كان حقيقة ملأت الزمان والمكان .. وكان هدى من الله للناس ، يقول لهم : هكذا حاولوا أن تكونوا .

* * *

وفي الوقت الذي تجمّع فيه الفُرس وحلفاؤهم ، في نهاوند .. وسعد بن أبي وقاص يتهيأ لمنازلة جيوشهم اللجبة ، تصل المدينة شكوى ضد سعد ، فيستدعيه "عمر" فوراً ، غير منتظر قليلاً ريثما تنتهي المعركة الموشكة على البدء والاندلاع .. ذلك لأن "عمر" يرى أنه إذا كانت الشكوى صحيحة وصادقة ، فلن يُبقي على سعد ، حتى لو خسر المسلمون المعركة كلها .. لأن النصر ـ كما يقول "عمر" ـ إنما يبطئ عن كل قائد أو جيش يجترح السيئات .. !!

وهكذا ، وفي هذا الظرف الدقيق الحرج ، يرسل "عمر" "محمد بن مسلمة" إلى هناك ليفحص الشكوى ، فإن وجدها حقا ، عادَ بسعد إلى المدينة ..

ويذهب "محمد بن مسلمة" ويأخذ بيد سعد الفاتح الأعظم ، والوالي المهيب ، ويطوف به على الناس يسألهم الرأي فيه .. فقوم يقولون عنه خيراً ... وآخرون يُحصون عليه بعض مآخذهم .. وأخيراً ، يصطحبه ابن مَسلمة إلى المدينة .

وإنّا لنعرف نبأه مع حاكم مصر وفاتحها ، "عمرو بن العاص" حين وفد عليه من مصر فتًى مكروب يقول : يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك ..

ويستوضحه النبأ ، فيعلم منه أن "محمد بن عمرو بن العاص" قد أوجعه ضرباً ، لأنه سابَقَه فسبَقه ، فَعَلا ظهره بالسوط وهو يقول : خذها ، وأنا ابن الأكرمين .. !!

ويُرسِل أمير المؤمنين يدعو عمرو بن العاص وابنه محمداً .. ولندَعْ "أنس بن مالك" يروي لنا النبأ كما شهده ورآه :

يقول : ... فوالله إنّا لَجلوسٌ عند عمر ، وإذا عمرو بن العاص يُقبل في إزار ورداء ، فجعل عمر يتلفت باحثاً عن ابنه محمد ، فإذا هو خلف أبيه ..

فقال : أين المصري .. ؟

قال : هأنذا يا أمير المؤمنين ..

قال عمر : خذ الدرّة ، واضرب بها ابن الأكرمين ..

فضربه حتى أثْخنَه ونحن نشتهي أن يضربه ، فلم يَنْزِع حتى أحببنَا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين !!

ثم قال عمر للمصري : «أَجِلْهَا على صَلْعة عمرو ؛ فوالله ما ضربَك إلا بفضل سلطانه .. !! » .

قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، قد استوفيت ، واشتفيت ، وضربت من ضربني ..

قال عمر : أمَا والله لو ضربتَه ما حُلْنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه ..

ثم التفت إلى عَمْرٍو ، وقال : "يا عمرو ، مَتَى استَعبدْتُمْ الناسَ وقد ولَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهم أحراراً .. ؟! "

والتفت إلى المصرى وقال له : "انصرفْ راشداً ، فإنْ رَابَكَ ريب فاكتب إليَّ .. !!" .

هذا هو عمرو بن العاص ، صحابي من شيوخ الصحابة ، وحاكم إقليم من أكبر أقاليم الفتح الإسلامي ، ولا ينجو ولده من العقوبة ، بل تكاد العقوبة تدرك عمرو بن العاص نفسه لولا عفو صاحب الحق ... !

* * *

على أن هذه المواقف الصارمة الحازمة التي يقفها "عمر" من ولاته الذين قد يسيئون استعمال سلطانهم .. هذه المواقف تتحول إلى مشاهدَ أخرى يذوب فيها "عمر" حَناناً وغبطة حين يحقق مع أحد الولاة ، فينتهي بريئاً ..

ذات يوم تلقَى شكَاةً ضد والٍ له ، هو "سعيد بن عامر الجُمَحِيّ" تتضمن ثلاثة مآخذ :

أولها : أنه لا يخرج إلى الناس حتى يتعالى النهار ..

ثانيها : أنه لا يجيب أحداً بليل ..

ثالثها : يغيب عن الناس كل شهر يوماً ، فلا يرى أحداً ولا يراه أحد ..

واستدعاه "عمر" ، وواجهه بالشاكِين ، وقال لهم : تكلموا .

قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ..

ونظر أمير المؤمنين صَوْب سعيد وسأله أن يجيب ..

فقال : والله يا أمير المؤمنين ، إنْ كنتُ لأكرهُ ذِكر السبب : ليس لأهلي خادم ، فأنا أعجن معهم عجيني ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم ..

وأشرقت أسارير "عمر" ، فقد بدا أنه لن يُساء في رجل وثق في دينه ، واختاره بنفسه ..

ثم قال للشاكين : وماذا أيضاً .. ؟

قالوا : لا يجيب أحداً بليل .

قال سعيد : والله ، إن كنت لأكره ذِكره ، إني جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عز وجل ..

قال عمر : وماذا أيضاً تشكون منه ... ؟

قالوا : إن له في الشهر يوماً لا يقابل فيه أحداً ..

وقال سعيد : ليس لي خادم يغسل ثيابي ، ففي هذا اليوم أغسلها ، وأنتظرها حتى تجف ، ثم أخرج إليهم آخر النهار ..

قال عمر وقد غمره الحبور والبِشر : الحمد لله الذي لم يُخيِّب فراستي .. !

إن سعادته تكون غامرة ، حين تَخيب شكوى ، وتَظهر براءة ، لأنه يريد أن يرى ولاته كلهم ، بل الناس جميعاً متفوقين على الضعف ، مُبرّئين من العيب ..

أرسل "عمير بن سعد" والياً على حمص ، فمكث هناك عاماً لا يرسل خَراجها ، ولا تصل منه أيُ أنباء ، فقال "عمر" لكاتبه :

- "اكتب إلى عمير ، فإني أخاف أن يكون خاننا" ... وأرسلَ إليه يستدعيه ..

وذات يوم شهدت شوارع المدينة رجلاً أشعث أغبر ، تَغْشاه وَعثاء السفر ، يكاد يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً من طول ما لاقى من عَناء ، وبذل من جهد .. على كتفه اليمنى جراب وقصعة .. وعلى كتفه اليسرى قربة صغيرة فيها ماء .. وإنه ليتوكأ على عصًا لا يَئُودُهَا حمله الضامر الْوَهْنَان ..

ودَلَف إلى مجلس "عمر" في خطوات مُتَّئِدة ..

- "السلام عليك يا أمير المؤمنين" ..

ويردُ "عمر" السلام ، ثم يسأله ، وقد آلمه ما رآه عليه من جهد وإعياء .

- ما شأنك يا عمير ؟؟

-شأني ما ترى .. ألست تراني صحيح البدن ، طاهر الدم ، معي الدنيا أجرُها بقرنها .. ؟!

قال عمر : وما معك .. ؟

قال عمير : معي جرابي أحمل فيه زادي ، وقصعتي آكل فيها ، وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي ، وعصاي أتوكأ عليها ، وأجاهد بها عَدُواً إن عَرض ، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي ..

قال عمر : أجئت ماشياً .. ؟؟

- نعم ..

- أوَ لم تجد من يتبرع لك بدابة تركبها .. ؟

- إنهم لم يفعلوا ، وإني لم أسألهم .. !

- فماذا عملت فيما عهدنا إليك به ؟؟

- أتيتُ البلد الذي بعثتني إليه ، فجمعتُ صُلحاء أهله ، ووليّتهم جِباية فَيْئِهم وأموالهم ، حتى إذا جمعوها وضعتُها في مَواضعها ، ولو بقي لك منها شيء لأتيتك به ..

- فما جئتنا بشيء .. ؟

- لا ...

قال "عمر" وهو منبهر سعيد : « جَدِّدُوا لعمير عهداً » .

قال عمير : « تلك أيام قد خلت ، لا عملتُ لك ولا لأحد بعدك » !!

والويل الشديد للوالي الذي يفكر في أن يهدي لعمر هدية مّا ..
والحقَ أنهم جميعاً كانوا من الفطنة بحيث لم يتورطوا قطّ في أمر كهذا .. !!
ولم يفعله منهم مرة واحدة سوى الرجل الصالح الطيب "أبي موسى الأشعري" ..
فذات يوم عاد أمير المؤمنين إلى داره ، فوجد رقعة من سجاد لا تزيد على متر ، وبعض متر ، فسأل زوجه "عاتكة" :
ـ « أنّى لكِ هذه .. ؟؟ » .
قالت :
ـ أهداها إلينا أبو موسى الأشعري .
ـ « أبو موسى .. ؟؟ إيتوني به » .. !!
ويجيء أبو موسى ، تَسبقه مَخاوفه ، ولا يكاد يقترب من "عمر" ويلمح "السجادة" في يمينه ، "والتحفز" في وجهه ، حتى يبادره القول: "لا تَعجَلْ عليَّ يا أمير المؤمنين" ..
ولكنَّ أمير المؤمنين يُعاجله ، ويلفح بالسجادة رأسه ويقول له :
ـ ما يحملك على أن تهدي إلينا ؟ خذها فلا حاجة لنا فيها .. !!
والويل كذلك . لمن يطمع في أن يتسوَّر مسئوليات هذا الرجل الكبير بشفاعة يشفعها في غير حقّ ..
حدَث يومـاً أن أنزل بأحد ولاته جزاء ، فانتهزت زوجه "عاتكة" ساعة من ساعات فراغه وهدوئه ، وشفعت للرجل ، ولم تزد على أن قالت : يا أمير المؤمنين ، فيمَ وَجَدْتَ عليه .. ؟
هنالك انتفض "عمر" ؛ كأنما انهدَّ من دين الله ركن ، وصاح فيها :
ـ « يا عدوّة الله ، وفيمَ أنت وهذا » ... ؟!
لو كان هذا الموقف من زوجته مشورة ورأياً ، لتقبّل المشورة ، وبحَث الرأي ، فسنراه بعد حين ينحني في إعجاب وخشوع لسيدة عارضت رأيه في تحديد المهور ..
أما هنا ، فقد تصوّر "عمر" الموقف على أنه تدخل في المسئولية من غير مسئول ، ولون من الشفاعة أو الوساطة لا يسكت "عمر" عليه ، ولا يتسامح معه ..
هذه مسئوليته تجاه ولاته ..
فلننظر مسئوليته تجاه أموال الأمّة .. وإنها لمسئولية تحيّرُ العقول ، وتبهر الأفئدة .
ولنبدأ بهذا النبأ .
يقول عبد الله بن عامر بن ربيعة :
ـ « .. صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة فى الحج ، ثم رجعنا ، فما ضُرب له فسطاط ، ولا خِباء ؛ ولا كان له بناء يستظل به ، إنما يلقي كساء على شجرة فيستظل تحته » .. !!
ويقول بشار بن نمير :
« ... وسألني عمر : كم أنفقنا في حجتنا هذه ؟ قلت : خمسة عشر ديناراً .. فقال :

لقد أسرفنا في هذا المال » .. !!

أرأيتم إلى الرجل الذي وُضِعَتْ تحت عتبة خزائنه أموال كسرى وقيصر ، ثم يخرج إلى الحج وسط صحراء ملتهبة ، فلا يهيئ لنفسه من ضرورات الرحلة شيئاً .. ؟! يذوق وَقدة الحر ، وقيظ الجبال المستَعِرَة ، مثلما تذوقه الناس كافةً ، وينفق خلال رحلته كلها خمسة عشر ديناراً . ثم يقول : لقد أسرفنا .. ؟!

قبل أن يلي أمور المؤمنين ويصير أميرهم ، كان تاجراً يكسب عيشه ورزق أهله وعياله من التجارة ، فلمّا تفرغ لمهمته الجديدة ، فرض لنفسه من بيت المال ما يعيش به هو وعائلته في مستوى الكفاف ...

وكان مع الأيام تزداد تبعاته ، وتزداد احتياجاته ونفقاته ، ويرفع كلما هب الرخاء رواتب جميع المسلمين في المدينة وخارجها ، لكنه لا يفكر في أن يزيد نفسه درهماً ..

حتى سمع أصحابه يوماً أن أمير المؤمنين يقترض ليعيش ، فاجتمع نفر من الصحابة معهم عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، واتفقوا على أن يتحدثوا معه ، ويطلبوا إليه أن يزيد في راتبه ، ومخصَّصاته ، لكنهم عادوا وتهيَّبوا محادثته ، لأنهم يعرفون أنه في هذه المسألة بالذات شديد الوطأة ، لافحُ الغضب ..

قال عثمان : فلنَستَبرئ ما عنده من وراء وراء .. واتجهوا إلى حفصة بنت عمر ، واستكتموها أمرهم ، وطلبوا إليها أن تستطلع أمر أبيها ..

وذهبت حفصة إلى عمر متهيبة ، وأخذت تسوق الحديث بحذر ورفق .

فقال عمر : من بعثك إليَّ بهذا .. ؟

قالت : لا أحد ..

قال : بل بعثك بهذا قوم ، لو عرفتهم لحاسبتهم .

ثم قال لابنته : لقد كنتِ زوجة لرسول الله ﷺ ، فماذا كان يقتني في بيتك من الملبس ؟

قالت : ثوبين اثنين .. !!

قال : فما أطيب طعمة رأيته يأكلها .. ؟

قالت : خبز شعير طري مَثْرود بالسمن ..

قال : فما أوطأ فراش كان له في بيتك .. ؟

قالت : كساء ثخين . كنا نبسطه في الصيف ، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه .. وتدثرنا بنصفه .. !!

قال : « يا حفصة ، فأبلغي الذين أرسلوك إليَّ أن مَثلي ومثلَ صاحِبَيَّ ـ الرسول ﷺ وأبي بكر ـ كثلاثة سلكوا طريقاً ، فمضى الأول وقد تزوَّد فبلَغ المنزل .. ثم اتبعه الآخر ، فسلك طريقه فأفضى إليه .. ثم الثالث ، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما أُلحق بهما ، وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما " .. !!!

أهناك كلام يصلح أن يكون تعليقاً على هذا المشهد الفذ العجيب .. ؟! كلا ..

فلندَعْه بدون تعليق .. !!

* * *

وكانت القيامة تقوم إذا سمع "عمر" أن درهماً واحداً من الأموال العامة قد اختُلِس ، أو انتُهِب ، أو أُنفق في ترف أو إسراف ..

كان يرتَجف ، ويَرْجِفُ ، كأنَّ خزائن المال كلها قد ضاعت ، وليس درهماً أو بعض درهم .. !!

وكان يُقسم لو أن بعيراً من إبل الصدقة ضاع على ضفاف دجلة أو الفرات ، وعمر بالمدينة ، لخاف أن يسأله الله عنه .. !!

وفي يومٍ صائف قائظ يكاد حرُّه يذيب الجبال ، أطلَّ "عثمان بن عفان" من بناية له بالعالية ، فرأى رجلاً يسوق أمامه بعيرين صغيرين ، والهواء الساخن يغشاه كَلَفح السَّمُوم ..

فقال محدثاً نفسه : ما على هذا الرجل لو أقام بالمدينة حتى يَبرد . ؟ وأمر خادمه أن ينظر مَن هذا الرجل العابر من بعيد ، والذي تخفي الزوبعة والرمال السافيات معالمه ..

ونظر الخادم من فُرجة الباب ، فقال : أرى رجلاً معمماً بردائه يسوق بَكْرَيْن أمامه .

وانتظر حتى اقترب الرجل ، فعرفه الخادم وصاح : إنه عمر .. إنه أمير المؤمنين .. !

فأخرج عثمان رأسه من كوّة صغيرة متوقياً سخونة الريح ، ونادى :

ـ ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟

أجاب عمر : بَكران من إبل الصدقة تخلّفا عن الحمى ـ المرعى ـ وخشيت أن يضيعا ، فيسألني الله عنهما .. !!

قال عثمان : هلم إلى الظل والماء ، ونحن نكفيك هذا الأمر .

فقال له عمر : عُدْ إلى ظلك يا عثمان ..

قال : عندنا مَنْ يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين ..

قال مرة أخرى : عد إلى ظلك يا عثمان .. ومضى لسبيله والحر يصهر الصخر ..

فقال عثمان مأخوذاً ومبهوراً : « مَنْ أراد أن ينظر إلى القويّ الأمين ، فلينظر إلى عمر .. » !!!

والقوي الأمين يباشر مسئولياته المالية مباشرة ذكيةً عميقة ، فهو لا يُعنَى بالسهر على حفظ أموال الأمة فحسب ، بل يُعنَى بالعمل على تنميتها ، وإرباء الدخل القومى بكل سبيل ممكنة .

* فهو ـ مثلاً ـ يقاوم توزيع أرض السواد على الفاتحين ، لأن ذلك يخلق طبقة محتَكرة ، وفي الوقت نفسه ، عاجزة عن خدمة الأرض ، غير خبيرة بزراعتها ، ويترك الأرض تحت أيدي زارعيها ، مكتفياً بالضرائب التي تدفع لبيت المال ، ثم ينال كل مسلم حظه منها ..

* وهو يشجع على إحياء الأرض الموات التي لا صاحب لها ، والتي قال فيها الرسول عليه السلام : « من أحيا أرضاً ميتة فهي له » ..

وحين يرى أمير المؤمنين أناساً يضعون أيديهم على هذه الأرض ، ويُسوّرونها ، ثم يهملون

استصلاحها وزراعتها ، يسنُّ قانوناً يمنح "واضع اليد" فرصة مداها ثلاث سنوات ، فإذا عجز خلالها عن إحياء الأرض وتحويلها إلى حقل ، أو بستان ، أو مرعى ، نُحّي عنها ، وأعطيت لغيره من القادرين ..

* وهو كذلك يحضُّ المسلمين على الكسب المشروع ، فيغريهم بالتجارة الشريفة النظيفة ، قائلاً لهم : غداً سيكون لكم أبناء وحفدة ، فماذا يغني عنكم هذا الذي بأيديكم .. ؟!

* وهو يُعْنَى عناية خاصة بالثروة الحيوانية ، فيخصص للماشية مرعى خصيباً رحيباً ، يرعى المسلمون فيه ماشيتهم بغير مقابل ، وإنه ليتعهد هذا المرعى دائماً ، وقلّما كان يوم يمر دون أن يرى الناسُ "عمر" ، قد خرج منتصف النهار ، واضعاً ثوبه فوق رأسه ليقيه من الشمس ، قاصداً أرضَ الحمى والمرعى ، يتعاهدها ويتفقدها ، ويحذِّر حارسها من أن يسمح لأحد أن يَعضِد شيئاً من شجرها ، أو أن يضرب فيها بفأس .. !!

* * *

ولا يخطر بالبال ـ ونحن نتحدث عن المال وعن الدخل القومي أيام عمر ـ أننا نتحدث عن أموال شحيحة وموارد ضَحْلة ، فإن "عمر" لم يمت إلا بعد أن كان يحرك يده القوية الأمينة في دخل من أضخم الدخول يومئذٍ ، بعد أن آلت إلى الإسلام معظم ممتلكات الروم والفرس .. !!

ويقول له خالد بن عرفطة :

ـ « يا أمير المؤمنين تركتُ الناس يسألون الله أن يزيد في عمرك من أعمارهم .. ما وَطِئَ أحد القادسية إلا وعطاؤه ألفان ، أو خمس عشرة مائة . وما من مولود يولد إلا أُلحق في مائة وجريبين كل شهر ذكراً كان أو أنثى ، وما يبلغ لنا ولد إلا أُلحق على خمسمائة أو ستمائة » .. !!

وحِرص عمر على تنمية الثروة ، لم يحمله قطّ على سلوك سبيل فيها جشع أو إرهاق ..

فالثروة عند عمر ، في خدمة الإنسان ، وليس الإنسان في خدمة الثروة .. !!

لهذا ، كان يُنزل غضبه الشديد على كل والٍ يحرم أهل ولايته لكي يرفع إلى المدينة خَراجاً كبيراً يظن أنه يُكسبه رضاء أمير المؤمنين ..

وكان يأمر أن تقسم خيرات البلد ـ أيّ بلد ـ على أهلها أولاً ـ فإذا بلغوا كفايتهم . رفع إلى عاصمة الدولة نصيبها ..

وكان يأمر عماله أن يتقاضَوْا الضرائب في رفق وعدل ورحمة .

حُمل إليه يوماً مال وفير من أحد الأقاليم ، فسأل عن مصدره وعن سرّ وفرته وكثرته ، فلمّا علم أنه من ضريبة الزكاة التي يدفعها المسلمون ، وضريبة الجزية التي يدفعها أهل الكتاب ، قال وهو ينظر إليها كثيرة عارمة :

ـ إني لأظنكم قد أهلكتم الناس ..

ـ قالوا : لا والله ، ما أخذنا إلا صَفْواً عَفْواً ..

قال : بلا سَوْطٍ ، ولا نَوْطٍ .. ؟؟ (١) قالوا : نعم .

قال ووجهه يتهلل ويُشرق : «الحمد لله الذي لم يجعل ذلك عليَّ ولا في سلطاني» .. !!

وكان يُعفي من ضريبة أهل الكتاب ، كُلَّ مَنْ عليه دَيْن يستغرق ماله ، ذلك لأنها لم تكن ضريبة إذلال ، بل ضريبة دخل ، فإذا عجز عنها دافعها ، وُضِعَتْ عنه فوراً .. !

***

وبعد .. فهذا هو "عمر" الحاكم المسئول .. وهذه هي طريقته في تحمل مسئولياته جميعها .

هذا هو الرجل الذي كانت جيوشه تُدِيل مظالم الروم والفرس وتدكُها دكا ، بينما هو يسير في طرقات المدينة لابساً ثوباً به إحدى وعشرون رقعة .. ويبطئ عن المسلمين يوماً في صلاة الجمعة ثم يعتذر إليهم حين يصعد المنبر قائلاً :

- «حبَسني قميصي هذا ، لم يكن لي قميص غيره» .. !!

إن مسئولياته المباركة دفعته إلى نهايات الطرق ، وقمم المثل ، فجاءت تصرفاته كلها تمثِّل أقصى ما يستطيع الكمال الإنساني أن يبلغه ..

* فتُجاهَ مسئولياته عن نفسه وأهله ، يُحمِّلهم كل مغارم الحكم ، ويحرمهم من كل مغانمه .. !!

* وتجاه وُلاته ومعاونيه ، يختارهم بنفسه ، ويلزمهم صراطاً مستقيماً أحدَّ من الشفرة ، وأرقَّ من الشعرة .. !!

* وتجاه أموال الأمّة ، يبلغ أقصى درجات الحِفاظ عليها ، والزهد فيها .. !!

* وتجاه الجبارين العتاة ، يبلغ أقصى أسباب الشدة والحزم .. !!

* وتجاه الضعفاء والبسطاء يبلغ غاية المدى في الحدَب واللين .. !!

إن مسئولياته تقوده ، وإنه ليباشرها بروح المُخْبِت العابد الأوّاب ..

وإن عظمة سلوكه ، كرجل مسئول ، لا تتمثل في العجالة التي سردناها إلا كما يتمثل ضوء الشمس في الشعاعة المتسلّلة من حَنايا النافذة .. !!

ألا وإن عمر الحاكم ، ليتعب كل حكام التاريخ ، ويجعل مسئوليتهم فادحة وكبيرة ..

ذلك أنه لم يكن إلهاً ولا ملكاً ، ولا رسولاً يوحَى إليه ، إنما كان فرداً من الناس يجتهد رأيه ، وينهض بعزمه . ولقد استطاع أن يبلغ ذلك الشأوَ البعيد في عدله ، وفي رحمته ، وفي أمانته ، فما عُذر الآخرين إذا قعدت بهم عزائمهم ؟! ...

إنَّ "عمر" الحاكم ، حجة الله على كل حاكم ..

فإذا قال حاكم مَّا ، ساعة حسابه : يا رب عجزت ..

قال الله له : ولماذا لم يعجز عمر .. ؟؟!!

---

(١) أي : بلا ضَرْبٍ ولا تعليق .

ولا خيرَ فينا إذا لم نَسْمَعْهَا

لم يكن أمير المؤمنين يحمل مسئولياته حُملان رجل مفتون بنبوغه ، صَلِفٍ بمكانه ، مُسْتَعلٍ بسُلْطانه .

بل كان يحملها بضمير الأمين على العهد ، الباحث عن الحقَ ، المستنهض وجود الآخرين وتفكيرهم ليأخذوا مكانهم معه ، ويُنضجوا بآرائهم رأيه ، ويُعاونوا برُشدهم رُشده .

ولقد اقتضاه هذا ، أن يُقدّس الشورى ، ويحني رأسه العالي في خشوع وتهلل لكل معارضة شجاعة صادقة ..

فإذا بهرنا جلال المسئولية عند "عمر" ، وسُموقها الصاعد في السماء ، فلنضعْ أعيننا على القاعدة التي استقرّ فوقها هذا البناء العملاق ـ ألا وهي الشورى والمعارضة.

وإنه لأمر عجب حقاً أن يرفع لواء الرأي والمعارضة إلى المدى البعيد الذي سنراه ، رجل يؤمن بالنصوص إيماناً مطلقاً .. رجل يخاف أن يفسر الآية من القرآن، خشية أن يُحمّلها من رأيه ما لا تحتمل..! رجل لا يبيح لنفسه أن ينحرف قِيدَ أُنملة عن المنهج الموضوع ، والخطة المرسومة ، وبعبارة واحدة : رجلُ طاعة ، وإيمان ، ومُتابَعَة .!!!

ولكن العجب ، أن نرى في هذه الظاهرة أيَّ عجب ..

فالذين يعرفون "محمداً" ودين محمد ﷺ معرفة سوية عاقلة ، يعرفون أن احترام النَص ، لا يعني إهدار الرأي . وأن الطاعة المؤمنة لا تنفصل عن المعارضة الأمينة ..

ثم إن "عمر" لم يكن بطبيعته رجل مُسايرة . صحيح أنه رجل إيمان وطاعة كما ذكرنا .. ولكنها الطاعة والإيمان والمتابعة التي يفرضها الاقتناع الوثيق .

وهو قد اقتنع بالرسول وآمن به .. ومن ثم فهو يَقفو أَثَرَه في غير تردُّد أو التفات .. وإنه ليناقش الأمور التي تحتاج إلى مناقشة ... ويُسلِّم تسليماً لقضايا لا يفهم ـ أحياناً ـ حكمتها ، ولكنه مقتنع سلفاً بالرسول الأمين الذي جاء بها ..

يُقَبِّل الحجر الأسود فى الكعبة ، ثم يقول كأنه يخاطبه :

- "إنك حجر لا تضر ولا تنفع ، والله لولا أني رأيت رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتك "..!!

ويُهرول كاشفاً عن منكبيه ، ويقول :

ـ "فيمَ هذا الرَّمَلان ـ الهرولة ـ والكشف عن المناكب ، وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر؟ ومع هذا لا ندعُ شيئاً كنا نفعله في عهد رسول الله ﷺ ".

بل إنه ليعمد إلى ميزاب في دار العباس فيقتلعه من مكانه إذْ كان ماء المطر يسيل منه إلى فِناء المسجد . ولكن لا يكاد العباس يخبره أن الرسول ﷺ هو الذي وضع هذا الميزاب مكانه ، حتى يسارع "عمر" فيجيء بالميزاب ، ويقسم على العباس ليقفنَ فوق منكبيه ـ منكبَيْ عمر ـ ويعيد الميزاب إلى حيث وضعته يد الرسول من قبل ..!!

وإنه لَيُسْأَلُ عن تفسير الآية الكريمة: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ فيقول: الذاريات ذرواً ، هي الريح .. ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته ، والحاملات وقراً ، هي السحب .. ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته ..!!

إلى هذا الحد كان "عمر" وقّافاً عند النصوص والتعاليم، ملتزماً التأسّي والقدوة.

ومع هذا ، فقد آمن بالشورى إيماناً مماثلاً لإيمانه بالنص والقدوة ـ والشورى رأي ومعارضة ..

ولست أعرف شيئاً يرفع من قدر الشورى في كل عصور التاريخ كما يرفع من قدرها إيمان "عمر" بها ، وأسلوبه في تطبيقها.

إن تطوُّر الحياة السياسية في المدينة لم يكن يومئذٍ قد أذِن للمؤسسات الديمقراطية أن تظهر، من "برلمان" وغيره ..

ومع هذا فقد ظفرت الديمقراطية من ذلك الرجل، وفي تلك البيئة وذلك العهد، بخير فرص التألق والازدهار..

لم يحاول عمر قط أن يفرض رأيه، أو أن يُملي مشيئته، ولم ينفرد ساعة من نهار بحكم الناس دون أن يشركهم معه في مسئولية هذا الحكم مشاركة فَعّالة صادقة..

والرائع الباهر فيه ، أنه لم يكن يفعل ذلك تواضعاً أو تفضُّلاً .. بل سجية، وفطرة، وواجباً ..

إذا كانت القضية التي يريد عمر أن يفصل فيها لها في كتاب الله بيان ، أنجز "عمر" كلمة الله ..

وإذا كانت من المشاكل الطارئة والقضايا الجديدة التي ليس لها في الكتاب تفصيل، لم يعتسف "عمر" ولم يتكلف ، ولم يضع الآية الكريمة: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ في غير موضعها .

بل يعمد من فوره إلى الرأي والشورى ، وتقليب وجوه النظر..

والرأي عنده ، ليس التماساً للموافقة ، بل التماسٌ للحقيقة ، ولطالما كان يقول للناس:

- " لا تقولوا الرأي الذي تظنونه يوافق هواي . وقولوا الرأي الذي تحسبونه يوافق الحقّ " .. ولنطالع هذا المشهد من مشاهد شُوراه :

ـ حين حرر المسلمون بلاد العراق من حكم الفرس ، ودخل أكثر أهلها في دين الله ، رأى "عمر" ألا يقسم أرضها الزراعية بين المجاهدين ، وأن تظل كما هي بأيدي أصحابها ، ثم ترد الضرائب المأخوذة عليها إلى بيت المال ، فتقسم بين الناس جميعاً ، كل منهم ونصيبه المفروض .

وكان يرى أن تقسيم الأرض بين المجاهدين ، سيقعد بهم عن الجهاد أولاً ، وينقص غلّة الأرض ، لضعف خبرة المجاهدين بالزراعة ثانياً ، ويخلق في الإسلام طبقة من الإقطاعيين والمحتكرين ثالثاً ، كما أن سيدَعُ الآخرين الذين لم يتملكوا ، ضائعين ، ويحرم الأجيال الوافدة من حقها ورزقها .

وعارض رأيه هذا نفر من الصحابة .

وكانوا كلما علا صوتهم، واحتدت معارضتهم، قال "عمر" في هدوء: "إنما أقول رأيي الذي رأيته" ..

وانفضَّ الجمع من غير اتفاق على كلمة ..

وفي اجتماعٍ آخر ، وكان "عمر" قد دعا فريقاً من الأنصار المشهود لهم بالحُنكة ونضج التجربة .. فتح باب المناقشة، وخشي "عمر" أن يجامله أحد في رأيه بوصفه أمير المؤمنين . فبدأ الحديث قائلاً :

"إني دعوتكم لتُشاركوني أمانةَ ما حملتُ من أموركم ، فإني واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحقّ . خالفني مَنْ خالفني ، ووافقني مَن وافقني . ولستُ أريد أن تتبعوا هواي ، فمعكم من الله كتاب ينطق بالحقّ .. فوالله لئن كنتُ نطقت بأمْر أريده ، فما أريد به إلا الحقّ" ..

* * *

والشورى والمعارضة عند أمير المؤمنين ، هما جناحا الحكم الصالح القويم ، وهما رئتا كل حكم سديد .

من أجل هذا ، لايكاد يلي الأمر ، ويتسمَّع همس الناس حول شدته وصرامته حتى يخلو بنفسه مفكراً ، ويدخل عليه "حُذَيفة" فيجده مهموم النفس ، باكي العين ، فيسأله: ماذا يا أمير المؤمنين ؟؟

فيجيب عمر : إني أخاف أن أخطئ فلا يردُّني أحد منكم تعظيماً لي .. ويقول حذيفة ، فقلت له :

"والله لو رأيناك خرجت عن الحقّ لرددناك إليه" .

فيفرح "عمر" ويستبشر ويقول:

" الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يُقوِّمونني إذا اعوججت" ..

وإن أعظم مظاهر التكريم للمعارضة ، نراها في مواقف هذا العاهل الفذ منها .. في ولائه الوثيق لها ، وتوفير كل فرص الطمأنينة والأمن ، بل الإكبار لذويها ..

يصعد المنبر يوماً فيقول :

"يا معشر المسلمين ، ماذا تقولون لو مِلْتُ برأسي إلى الدنيا هكذا" ..؟؟

فيشق الصفوف رجل ويقول وهو يلوح بذراعه كأنها حُسام ممشوق: "إذن نقول بالسيف هكذا" ..

فيسأله عمر: إيَّاي تعني بقولك..؟؟

فيجيب الرجل : نعم إياك أعْني بقولي ..!

فتَضِيءُ الفرحة وَجْهَ "عمر" ويقول:

"رحمك الله ... والحمد لله الذي جعل فيكم من يُقَوِّمْ عِوَجي" ..!!

لم يكن هذا الموقف من أمير المؤمنين موقفاً استعراضيا ؛ فعمر أكثر قوة وأمانة من أن يلجأ لمثل هذه المواقف ، إنما كان سلوكاً صادقاً ، ونهجاً تلقائيًا مخلصاً ، ينشد "عمر" من ورائه الوصول إلى الحقّ ، والطمأنينة إلى أنه يحكم أمَة من الأُسْود، لا قَطِيعاً من النعاج ..!!

إن "عمر" حريص على أن يمكّن الناس ـ جميع الناس ـ من حقهم في ممارسة الأمر معه ، وأخذ مكانهم إلى جانبه .

ولو أنه بطش بالمعارضة ، ولو مرة ، إذن لبَاءَت الشورى في عهده بخذلان كبير ، لكنه فعل نقيض هذا تماماً .. أقْصَى عنه أهل المُجاملة والمُداهنة ، ورفع مكاناً عالياً أولئك الذين يُناقشون ، ويعارضون . يقولون: إلى أين ..؟ ولماذا ؟ .

وكان فرحه بكلمة جريئة مُحِقَّة يُجابَه بها أو يُجابَه بها أحد من وُلاته ـ تفوق كل فرح آخر على وجه الأرض ..

ذات يوم يصعد المنبر ، ليحدِّث المسلمين في أمر جليل ، فيبدأ خطبته بعد حمد الله بقوله: "اسمعوا يرحمكم الله" .

لكنَّ أحد المسلمين ينهض قائماً فيقول :

والله لا نسمع .. والله لا نسمع ..!!

فيسأله "عمر" في لَهْفَة : وَلِمَ يا "سَلْمَانُ" ؟!

فيجيب "سلمان" : ميَّزت نفسك علينا في الدنيا .. أعطيت كُلاًّ منا بردةً واحدةً ، وأخذت أنتَ بُردتين ..!!

فيُجيل الخليفة بصره في صفوف الناس ثم يقول:

ـ أين عبد الله بن عمر ..؟

فينهض ابنه عبد الله: هأنذا يا أمير المؤمنين ..

فيسأله عمر على الملأ : مَن صاحب البردة الثانية ..؟

فيجيب عبد الله: أنا يا أمير المؤمنين ...

ويخاطب "عمر" سلمان والناس معه فيقول :

ـ إنني كما تعلمون رجلٌ طُوال ، ولقد جاءت بردتي قصيرة ، فأعطاني عبد الله بردته ، فأطَلْتُ بها بردتي ..

فيقول "سلمان" وفي عينيه دموع الغبطة والثقة :

ـ الحمد لله .. والآن قلْ نسمع ونُطع يا أمير المؤمنين !!..

أيبلغ الناس من حرية المعارضة أن يُحددوا للحاكم عدد أثوابه وملابسه ، وبهذه اللهجة الصارمة ..؟!

ألاَ مَن كان يعرف لهذا نظيراً في التاريخ كله ، فليأتنا به..!!

* * *

في يوم آخر ، وهو جالس مع إخوانه ، يخترق الصفوفَ رجل ثائر ، ملء قبضته شعر محلوق ، ولا يكاد يبلغ "عمر" حتى يقذف بالشعر في صدره في مرارة واحتجاج ..

ويموج النـاس بالغضب ، ويهـم به بعضهم ، فيومئ إليهم "عمر" ، ثم يجمع الشعر بيده ، ويشير للرجل ، فيجلس ، وينتظر عليه "عمر" حتى يهدأ روعه ، ثم يقول له :

- والآن ، ما أمرك ..؟؟

فيجيب الرجل وقد عادت إليه ثورته:

- أما والله ، لولا النارُ يا عمر ...!!

فيقول عمر: صدقتَ والله .. لولا النار..!! ما أمْرُكَ يا أخا العرب؟.

ويقصُّ الرجل شكَاته ، وفحواها أن "أبا موسى الأشعري" أنزل به عُقوبة لا يستحقها .. فَجَلَدهُ وحلق شعر رأسه بالموسى ، فجمع الرجل شعر رأسه وجاء به إلى "عمر" ..

فينظر عمر إلى وجوه أصحابه ويقول:

- لأن يكون الناس كلهم في قوة هذا ، أحبُّ إليَّ من جميع ما أفاء الله علينا ..!!

ثم يكتب لأبي موسى يأمره أن يُمكّن الرجل من القصاص منه - جَلْداً بجلْد ، وحَلْقاً بِحَلْق..!!!

هذا حاكم يهتز فرحاً لكل احتجاج قوي ، أو معارضة شجاعة - وإن رجلاً واحداً يطالب بحقه في غير حذر ، ويقول كلمته في غير جبن ، لأحبُّ إليه - كما قال - من كل ما فتح له من الأرض ، ومن كل ما ورث عن كسرى وقيصر .!!

كان "عمر" واثقاً بنفسه ، وباستقامة نهجه ، ومن ثم لم يكن يُحاذر النقد ، أو يخاف المعارضة ، بل كان يبحث عنهما ، ويثيبُ عليهما ، ويثيرهما في قلوب أمّته وعقول شعبه ، ويتخذ منهما مَشعلاً يستضيء به ، وحُجَّة يستكمل بها صواب أمره ..

يخطب الناس يوماً فيقول:

- "لا تزيدوا مُهور النساء على أربعين أوقية ، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال" ..

فتنهض من صفوف النساء سيدة تقول: ما ذاك لك ..

فيسألها : ولِمَ..؟

فتجيبه: لأن الله تعالى يقول: ﴿ ... وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ .

فيتهلل وجه "عمر" ، ويبتسم ويقول عبارته المأثورة: "أصابت امرأةٌ ، وأخطأ عمر" ..

وحتى حين كانت تأتيه المعارضة غَضْبَى لافحَة، لم يكن يضجر منها ، أو يضيق بها .

بعد أن عزل "خالد بن الوليد" جمع الناس في المدينة وقال لهم :

- « إني أعتذر إليكم من عزل خالد، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضَعَفَةِ المهاجرين ، فأعطى ذوي البأس ، وذوي الشرف ، وذوي اللسان » ...

فنهض أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وقال :

- "والله ما أعذرتَ يا عمر ، ولقد نزعتَ فتًى ولاّه رسول الله ﷺ ، وأغمدت سيفاً سلّه رسول الله ، ووضعتَ أمراً رفعه رسول الله ، وقطعت رَحِماً ، وحسَدتَ بني العم" ..!!

قطيعة رحم.. وحَسد.. يُتهم بهما أمير المؤمنين هكذا في غضب وعلى الملأ ..؟!

أجل ، وما زاد "عمر" على أن ابتسم ابتسامة صافية ، وقال مخاطباً أبا عمرو: "إنك قريبُ قَرابةٍ ، حديث السنّ ، تغضب في ابن عمك" ..!

* * *

هذا ليس حاكماً عادلاً فحسب .. بل هو معلم كبير، وصاحب مهارة بالغة في صقل الجوهر الإنساني وبعث قواه .

فأي أثر باهر يتركه موقف كهذا في أفئدة الناس..؟؟

وأيُّ طمأنينة غامرة يملأ بها القلوب حاكم هذا سلوكه ..؟!

ولكن ، لِمَ لا يفعل "عمر" هذا ، وأكثر منه ، وهو تلميذ رسول الله ﷺ ، وصاحب أبي بكر خليفته ..؟!

ولقد رأى بعينيه وسمع بأذنيه أعرابيًا من أهل البادية يتهجم على رسول الله ﷺ ويقول له وهو بين أصحابه:

ـ « أعطني ، فليس المال مالَك ولا مالَ أبيك » .

ويرى الرسول ﷺ يبتسم ، ويقول للرجل :

ـ "صدقت" إنه مال الله .!!

ويستفزّ المشهد رجلاً ، هو "عمر" نفسه ، فَيهمّ بالأعرابي لِيَبْطِشَ به ، فيردّه رسول الله ﷺ في رفق ، وابتسامته تعلو شفتيه كتهلل الربيع ، ويقول له :

ـ "دعه يا عمر .. إن لصاحب الحقّ مقالا" ..!!

أجل ، على هذا النهج المستقيم يمضي عمر مُقدِّراً كل نقد نافع ، موقِّراً كل معارضة أمينة ..

وإن لجميع الناس الحقّ في أن يشيروا على أمير المؤمنين ، وفي أن يعارضوا ما لا يقنعهم من تصرفاته .

ولقد تركهم يفهمون تماماً أن الشورى ليست تَرفاً ، ولاَ مِلْء فَراغ .. إنما هي نهوض الشعب بمسئولياته مع الحاكم يداً بيد ، ورأياً برأي ، ومشيئة بمشيئة ..

وكان إيمان الناس بأن أميرهم جاد في معرفة آرائهم ، وتمحيص رأيه ..

وكانت التجارب الكثيرة التي أثبتت حفاوته بالمعارضة، واحترامه للشورى ..

كان هذا وذاك على رأس الحوافز التي ألهمت الناس ـ جميع الناس ـ الشجاعة في إبداء الرأي ، والمشاركة في حمل تبعة المصير .

لقد كان عمر خبيراً بأولئك الذين يَرصُدون الريح ، ويستنبطون هَوى الحاكم ، فيسبقونه بالرأي الذي يساير هواه..!!

كان خبيراً بهؤلاء ، فلا يقيم لهم وزناً ..

وكان يقول لأحدهم إذا تقدَّم لتمثيل دوره: "يا عدوَّ الله ، والله ما أردتَ الله بهذا ..!!" .

وكان هؤلاء قلة باهتة .

أما الأكثرون ، فقد كانوا من الطراز الرفيع الباهر الذي يقول كلمته واضحة ، صادحة ، صادقة ، نافعة ، يمليها عليهم إيمانهم بواجبهم ويحقهم معاً .. ويشجعهم عليها سلوك أمير المؤمنين تِلْقاء نُصحائه ومعارضيه ..

* * *

وعظيمٌ من عمر ، أنه كان يلتمس المشورة والرأي ، كفردٍ عادي لا كحاكم وأمير للمؤمنين ..

فهو إذ يطلب الرأي في أمر، لا يبدي عن أيِّ مظهر من مظاهر السلطة.. بل يُشعر الآخرين بأنهم يُسْدون إليه خيراً جزيلاً ، وينقذونه من وطأة الحساب ، إذ يساعدونه بآرائهم على تبيُّن الصواب والحقّ..!!

وبهذه الروح نفسها يَتَلَقّى ـ كما رأينا ـ كل معارضة له ، بل كل تنديد به ..

كان يجتاز الطريق يوماً ، ومعه "الجارود العبدي" ، فإذا امرأة تناديه وتقول:

ـ رُويدك يا "عمر" ، حتى أكلمك كلمات قليلة ..

ويلتفت "عمر" وراءه . ثم يقف حتى تبلغه السيدة . فتقول له وهو مُصْغٍ مبتسم:

ـ يا عمر: عهدي بك ، وأنت تسمّى "عُميراً" تصارع الفتيان في سوق عكاظ ، فلمْ تذهب الأيام حتى سُمّيت "عمر" .. ثم لم تذهب الأيام حتى سُمّيت "أمير المؤمنين" ..

فاتّقِ الله في الرعية ، واعلم أن من خاف الموتَ ، خَشِيَ الفَوْتَ ..!!

فقال لها "الجارود العبدي" : اجترأتِ على أمير المؤمنين .

فجذبه "عمر" من يده وهو يقول: دعها فإنك لا تعرفها ، هذه "خَوْلة بنت حكيم" التي سمع الله قولها من فوق سبع سماواته وهي تجادل الرسول ﷺ في زوجها وتشتكي إلى الله ، فعمر ـ والله ـ حَرِيٌّ أن يسمع كلامها ..!!

* * *

إن فطرة العربي ، وروح الإسلام ، أمدَّا المسلمين الأوائل لا شك بهذا الحظ العارم من الشجاعة في مواجهة الحاكم .

ولكن لا ريب في أن هذه الشجاعة الخارقة ما كانت ستبلغ مداها الشامخ هذا ، لو لم يكن سلوك الحاكم تجاهها سلوكاً نبيلاً جليلاً يساعد على إربائها لا إطفائها ـ الأمر الذي كان يصنعه "عمر" ..

لقد نجت الشورى في عهد هذا الرجل الكبير من كل ضائقة وأزمة .

ذلك أن أزمة الشورى توجد عندما يوجد الحاكم الذي يحب السُلطة ، أكثر مما يحب الحرية ..

و "عمر" لم يفعل نقيض ذلك فحسب، بل إنه نظر إلى السلطان كما ينظر المضطر إلى لحم الميتة ..!!

وعلى الرغم من أنه جرَّد السلطة حين مارسها من كل زَهوها ، ومن كل إغرائها ، ومن كل ضراوتها ، فإنه ظل ينظر إليها نظرته تلك ، وظلت علاقته بها علاقة مَن حُمِل عليها ، لا مَن سَعى إليها ..

ولقد كان دائماً يعدُّ الشعب ويهيِّئه ليكون هو الحاكم الحقيقي ، وليكون الخليفة الحقَّ له يوم يذهب عن هذه الدنيا .

كان كل همه أن يتركه شعباً قويًّا صلْباً، ولقد فعل ...

وضع في خدمته كل دخل الدولة ، وأقام من أجله الثغور والحصون ، وشاد له المدن والأمصار ..

ثم مع هذا ، بل قبل هذا ، وضع كلتا عينيه على القوة النفسية للشعب ، تلك التي تتمثل في شعوره الحقيقي بأنه سيّد .. وبأنه آمِنٌ كل الأمن .. وبأنه يصنع مصيره ، ولا يُفاجَأ به ..!!

وهكذا أخضع "عمر" للشورى كل خُطة وكل قرار .. وأعطى الحقَ كل توقير وكل إكبار .. ولم يجعل الشورى وقفاً على بطانة أو فريق من الناس . بل احترمها كحقٍّ مبرور للأمّة كلها .!!

ذلك أن أمير المؤمنين لم يكن رجلَ بِطانة .. بل كان رجلَ أمّة ، ورجلَ عالَم ، ورجل تاريخ ..!!

* * *

نحن أمام إنسان فيه كل أصالة نشأته ، وبيئته ، ودينه ..

رجل يعرف مكانه من الناس ، ويعرف مكان الناس منه ، ويعرف مكانه والناس معاً من تيّار الحياة الإنسانية الهادر .

ثم هو بصير بحقائق عَالَمِهِ من غير أن يدرس هذه الحقائق في جامعة أو في كتاب..

وأولى هذه الحقائق كما يعلم، وكما عبَّر هو في أعذب وأمتع وأجمع قول: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً" ..؟

هذه أولى حقائق عالمنا الإنساني، كما يدرك "عمر" : "الحرية حقٌ تعلنه لحظة الميلاد" ..

وهو كحاكم ، لا يخافها ، ولا يُجفل منها ، بل يحبها حب عاشق ، ويقدسها تقديس مؤمن ..

ومفهوم الحرية عنده في منتهى اليسر ، وأيضاً في منتهى الشمول .. فالحرية هي حرية الحقّ ..

الحقّ فوق جميع القيود ..

وما دام الناس هم الذين يكتشفون الحقّ، فيجب أن يكونوا أحراراً في ممارسة كشفه..

وما دام لا يوجد إنسان واحد يملك الحقّ وحده، أو يعرفه وحده ؛ فلكل فرد إذن الحقّ في أن يسلك طريقه إلى معرفة الحقّ.

أي إن الناس أحرار في أن يعلنوا آراءهم ، ويحدثوا بما في أنفسهم ، فإن يك صواباً ربح المجموع هذا الصواب ، وإن يك خطأ تَبَيَّنَ صاحب الخطأ خطأه ..

ولكنْ من حقّ "عمر" علينا أن نقول: إن هذا الحقّ الذي يحترم اختلاف وجهات النظر فيه هو الحقّ الذي لم يأتِ فيه من الله ولا من رسوله ﷺ بيان واضح وفاصل..

وما أكثر نماذج الحقّ الذي ترك الله للناس أمر كشفها، وما أكثر الحقائق التي تتطلب آراء الناس لِتَظهر وتَبين..!!

وعند "عمر" أن إبداء الرأي من حقّ كل فرد ، ذكر وأنثى ، كبير وصغير ، وليس من حقّ الصفوة ، أيّ صَفْوَة ...

ذلك لأنه ينظر حواليه ، فيرى إمبراطوريات تتهدم ، وعروشاً تنهار ، وشعوباً ذليلة ، تصحو وتتحرر ..

ثم ينظر .. بيد مَن يتم هذا العمل الجليل ..؟

إنه يتم بأيدي الرجال العاديين . الأميين والفقراء والبسطاء الذين آمنوا "بمحمد" ﷺ واتبعوا النور الذي أنزل معه.. هؤلاء إذن، هم قوام الحياة الجديدة..!!

فإذا كنا نحترم سواعدهم التي تضرب وتبني؛ فلا بدّ من أن نحترم كلمتهم التي تُقال.. وإذا كنا نتطلب تأيدهم وتعضيدهم، فلا بدّ من أن نتقبل مشورتهم ونقدهم..!!

وما داموا هم الذين يحملون العبء أولاً وآخراً ، فليس من حقّ حاكمهم أن ينفرد دونهم باتخاذ قراراته ورسم خُططه، وبالتالي ليس من حقّه أن يتجاهل حقّهم في أن يقولوا : لا .. ما دام يحتاج إليهم في يوم يقولون فيه: لبيك ..!!!

يدور ذات يوم حوار بينه وبين واحد من الناس .

ويتمسك الآخر برأيه ، ويقول لأمير المؤمنين: اتّقِ الله يا عمر.! ويكررها مرات كثيرة..

ويزجره أحد الأصحاب الجالسين قائلاً : صه ، فقد أكثرت على أمير المؤمنين .

لكنّ أمير المؤمنين يقول له: "دَعْه ؛ فلا خير فيكم إذا لم تقولوها .. ولا خير فينا إذا لم نَسمعها .."!

أجل ، لا خير في الناس إذا لم يقولوا ما يَرَوْنَه حَقًّا ، ولا خير في الحاكم إذا لم يسمع منهم ويُصْغِ إليهم ..

* * *

لكنّ المشكلة ليست مشكلة قول وسمع ..

وإنما هي أولاً مشكلة الثقة والطمأنينة اللتين ترفعان من مستوى الشجاعة في إبداء الرأي .. ومستوى العدالة في تَقبُّله ...

وهذه عظمة "عمر" في هذا المقام ، وهي كعظمته في كل مقام ...

عظمته في إدراكه أن الشجاعة هي سر الحرية وجوهرها .. وأن الناس إذا فقدوا شجاعتهم ، فقدوا بالتالي كل ما يؤهلهم للاستقامة والتقدم ، والتطور الصاعد السديد ..

وعندئذٍ فالويل لهم، والويل للحاكم معهم ..

إن الاثنين معا ـ الحاكم والشعب ـ بتخليهما عن الشجاعة في إبداء الرأي وتقبُّله ، يكونان قد أزْمَعا الانسحاب من الحياة ..!!

* * *

ألا هنيئاً لأمة يقودها هذا القوي الأمين "عمر" ...

هذا الرجل الذي بَرِئَ من آفة الحكم وآفة الحكام في كل زمان ـ ألا وهي الحرص على أن تكون كلمتهم هي العليا ..

بَرِئَ "عمر" من هذا ، وتَفَوَّقَ عليه ..

وكانت الكلمة العليا عنده للحقّ أنّى يكون .

ولقد يَقضي قضاءً ، ويُبرم أمراً ، فيعارضه صاحبه ، ويقول للإمام العادل، والخليفة الأمين : ليحكم بيني وبينك آخرون ..

فلا وربك لا يألمُ "عمر" ولا يَتأبّى ، بل يرحب في غبطة ، لأنه سيجد عوْناً على الحقّ إن كان مُحقًا وهُدًى إلى الصواب إن كان مخطئاً..!

لقي العباس يوماً وقال له :

ـ لقد سمعتُ رسول الله ﷺ قبل موته يريد أن يزيد في المسجد، وإن دارك قريبة من المسجد ، فأعطنا إياها نزدها فيه، وأقطع لك أوسع منها..

قال العباس: لا أفعل..

قال عمر: إذن أغلبك عليها..

فأجابه العباس: ليس ذلك لك ، فاجعل بيني وبينك من يقضي بالحقّ .

قال أمير المؤمنين: من تختار ..؟؟

قال العباس: حذيفة بن الْيمان ..

وبدلاً من أن يستدعي أمير المؤمنين إلى مجلسه "حذيفة" انتقل هو والعباس إليه ..

أجل ، فحذيفة الآن يمثل سلطة أعلى من سلطة الخليفة نفسه . إنه سيقضي ويفصل بين الخليفة وواحد من المسلمين .. بين الدولة وفرد من المواطنين . شيء تشبهه ـ لو استقامت على الطريقة ـ مجالس الدولة في عصرنا هذا...

وأمامَ حذيفة بن اليمان جلس "عمر"، والعباس . وقَصّا عليه الخلاف الذي بينهما .

فقال حذيفة: سمعتُ أن نبي الله "داود" عليه السلام أراد أن يزيد في بيت المقدس فوجد بيتاً قريباً من المسجد ، وكان هذا البيت ليتيم ، فطلبه منه ، فَأَبَىَ . فأراد "داود" أن يأخذه قهراً ، فأوحى الله إليه: "إنّ أنْزَهَ البُيوت عن الظُّلم لَهو بيتي" ، فعدل داود وتركه لصاحبه ..

فنظر العباس إلى "عمر" وقال: ألا تزال تريد أن تغلبني على داري .؟ قال عمر. لا..

قال العباس: ومع هذا، فقد أعطيتك الدار تزيدها في مسجد رسول الله..!!

* * *

أغلب الظن ، أن "عمر" لو رأى انبهارنا اليوم بديمقراطيته وإنسانيته وعظمته ، لَرمقنا بنظرة ملؤها الدهَش والعَجب ..

فهو لم يكن ـ في كل روائعه هذه ـ يحسب أنه يأتي أموراً غير عادية .

وهذا هو "جوهر" العظمة .. عظمة رجل يدعو بالرحمة لمن يُهدِي إليه أخطاءه ..

لمن يقول له: لا .. يا عمر .!!

ألا حيًا الله أمير المؤمنين .

وتحية طيبة للبشرية التي أنجبته ، وللدين الذي ربّاه ..!!!

■ ■ ■

لَسْتُ بالخِبِّ ، ولا الخبُّ يخدعني

في مستوى فطرته ، وإيمانه ومسئوليته ، كان ذكاؤه وكانت فطنته .

ولقد لخصت أم المؤمنين "عائشة" رضي الله عنها حِذقه الفائق فقالت :

"كان والله أَحْوَذِيًّا (١) ، نسيج وحدِه ، قد أعدَّ للأمور أقْرانها" ..

ولقد أفاء الله عليه الكثير الغدَق من الفهم والحكمة .. ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

و "عمر" أهلٌ لفضل الله وعطائه وخيره ، فليس في حياته كلها شيء له . إنها كلها مُكَرَّسَة لله ، منذورة لطاعته وخدمة خلقه .

وذكاؤه سناد للحقّ لا للباطل .

وهو ينبع من مسئوليته ، ويعمل وَفقها .

وهو ذكاء الفطرة السويّة ، والتجربة اليقظى ، ومن ثم فهو لا يعرف المراوغة ، ولا المُماراة .. إنما يتحرّى الحقّ ، وينفذ إلى اللُّباب المستترِ في مثل لمح البصر أو هو أقرب ..!!

وحظه من فقه الإسلام خاصَّةً ، حظ عظيم ، جدّ عظيم .

يقول عبد الله بن مسعود :

« كان عمر أعلمنا بكتاب الله .. وأفقهنا في دين الله » .

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهبَ وحده بتسعة أعشار العلم .

والحقّ أن توقّد ذكائه ، وخصوبة قريحته ، لا يَخفيان في أيِّ تصرُف من تصرفاته ، أو كلمة من كلماته ..

وكما لا يزهو "عمر" بسلطانه ، فهو لا يزهو بعبقريته .. تلك العبقرية التي لو شاء أن يخوض بها معارك الذكاء لَرَبِحَهَا جميعاً ، غير أنه لم يُعْطَ نعمة الذكاء كما يرى ، إلا ليبصر الحقَّ في ضياء هذا الذكاء ، وليتجنب به أحابيل المكر السيّئ التي ينشرها دائماً أعداء الوضوح وخصوم الحقّ .

كثيراً ما كان يقول رضي الله عنه :

« لستُ بالخبِّ (٢) ، ولا الخبُّ يخدعني » ..!

وهي عبارة تصوِّر طبيعة نبوغه وذكائه .

فهو ليس ذكاءً عُدوانياً .. ولا ذكاء مُراوَغَة وخَتْل ..

ليس ذكاء هجوم ، بل ... ولا ذكاء مقاومة ..

إنما هو ذكاء تفوّق ، يتفجّر من شخصية متفوّقة ، ويعمل في خدمة مبادئ متفوقة ..

---

(١) أحوذيًا : عالماً بالأمور ، لايندُّ عليه منها شيء .

(٢) الخِبُّ : الرَّجُلُ الخَدَّاع .

هو إذن ليس ذكاء مَعارك ، بل ذكاء بُطولات ...
وليس ذكاءً مدرسيًا ، بل ذكاءً خلاّقٌ مُبدعٌ ..
وهذا أيضاً من آيات هذا العقل الذي يؤمن بالنَّص ويُذعن للأثر . ثم هو مع هذا صوًال جوًال ، يستشرف الغيُوب ، ويكاد أحياناً يسبق الوحي ، مِمًا جعل رسولَ الله ﷺ يقول مُشيداً بهذه الفطنة الخارقة :
"إن الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه" ..

* * *

يقول للرسول يوماً :
يا رسول الله ، أليس هذا مقام إبراهيم أبينا ..؟
يقول الرسول ﷺ : بَلَى .
فيقول عمر : فلو اتخذتَ منه مُصَلًى .
فما هي إلا أيام حتى يتنزل الوحي بالآية الكريمة: ﴿ واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .
ومثل هذه الواقعة كثير ، حيث كانت تنبثق من عقله المضيء ، وبصيرته الذكية فكرة ، أو أمنية ، فيتنزل بها الوحي بعد قليل .
من أجل هذا قال الرسول ﷺ فيه :
« **لو كان بعدي مُحَدَّثون ، لكان عمر** » ..
ومن أجل هذا جعله الرسول ﷺ مصدراً من مصادر التشريع حين قال لأصحابه:
« إني لا أدري ما مقامي فيكم؛ فاقتدوا باللَّذَيْن من بعدي، أبي بكر وعمر » ..
وذكاء "عمر" عميم واسع ، ونظرته الحصيفة تُجلِّي كل غامض ، وتنفذ إلى كل غَوْر بعيد ..
ورأيُه في شيء يسير ، كرأيه في أمر خطير ـ كلماتٌ وجيزة ، وأحكام مستوعِبة ..
وله فِقْهٌ عظيم بطبائع الناس .. كفِقْهِه العظيم بأحداث الدنيا وأسرار الحياة ..!!

* * *

كان يقول: « الناس بزمانهم ؛ أشبهُ منهم بآبائهم » .
ويقول: « **ما من أحد عنده نعمة ، إلا وجدت لها حاسداً .. ولو كان المرء أقومَ من القدَح ، لوجدتَ له غامزاً** » ..!!
أحكام وجيزة ، لكنها عميمة ، تتركز فيها حكمة "عمر" وعبقريته ، وخبرته العميقة بنفس الإنسان .
وإنه لَيضع الناس في ميزان ذكي قويم فيقول :
« أحبكم إلينا ـ قبل أن نراكم ـ أحسنكم سيرة ، فإذا تكلمتم فأبينكم منطقاً ، فإذا اختبرناكم فأحسنكم فعلاً » ..
والمظاهر العابرة ، لا تكفي عنده لتكوين أحكام عن الآخرين .
يسمع واحداً يُطري آخر ويمتدحه قائلاً : إنه رجلُ صِدق .

فيسأله عمر : هل سافرت معه يوماً ..؟

يقول الرجل : لا .

ـ هل كانت بينكما خصومة يوماً ..؟

ـ لا ..

ـ هل ائتمنته يوماً على شيء ..؟

ـ لا ..

فيقول عمر: "إذن لا علم لك به. لعلك رأيته يرفع رأسه في المسجد ويخفضه"..!!!

هذا إمام من أئمة التقى والورع والهدى ، ثم لا يرى رفع الرأس وخفضه في المسجد كافياً للثقة بمن يفعل هذا ، لا تهويناً لشأن العبادة ، ولكن إحاطةً بأسرار النفس الإنسانية وحسنَ فهم لتياراتها الخافية ..

إن ذكاء "عمر" لا يأتي الأمور من بعض زواياها ، إنما يكشفها جميعاً ، ويستوعبها حتى آخر نماذجها واحتمالاتها ..

فهو في معرفته بالناس لا يكتفي بتمحيص جانب العبادة فيهم ، على الرغم من علو مكانة العبادة والعابدين عند "عمر" ، إنما يُطل على الشخصية كلها ، لأن العبادة أيضاً في مفهومها السديد عند "عمر" ، تعني استواء الشخصية الإنسانية واكتمالها ..

من أجل هذا ، كان يشكو كثيراً من سذاجة التَّقِيِّ ، ومقدرة غير التقي ..

وما كان يرى السذاجة والغفلة من خصائص العبادة والتقوى ، بل التقوى عنده قوة وطهر ، وسَعَة حيلة ، وتفوُّق ..

والحياة لديهُ ليست غفلة صالحة ، بل هي تجربة ناجحة ، ومِراس أمين . تحدَّث الناس عنده يوماً عن رجل وذكروه بخير فقالوا : إنه لا يعرف الشر أبداً ..

فقال "عمر" : ذاك أجدر أن يقع فيه ..

ليس معنى هذا طبعاً أن ارتكاب الشر ضروري لمعرفته ، إنما معناه أن يكون الإنسان بصيراً بالشرور ، حتى لا تغزوه متنكرة في ثياب الخير .

ويدرك "عمر" كذلك بفطنته المتألقة أن الفضيلة ليست انسحاباً من الحياة حَذَرَ الفتنة ، بل هي مجابهة الحياة ومُغالبة الفتنة .

وفي هذا يُسأل : أيهما أزكى وأفضل ـ رجل لا يأثم لأن نفسه لا تشتهي الإثم ، أم رجل تشتهي نفسه الإثم ولا يأثم ...

فيجيب "عمر" الحصيف الألمعي : " الذين يشتهون المعصية ، ولا يعملون بها ، أولئك الذين امتحَن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجرٌ عظيم " ... !!

* * *

وتتراحب أبْعاد هذا الذكاء وهذا الفقه ، حين يواجهان مشاكل الحياة والناس .

تُعرض عليه قضية يُفتِي فيها ، وبعد حين تعرض عليه قضية مماثلة لتلك ، فيفتي فيها فتوى مغايرة .. فإذا سئل عن سرِّ هذا التفاوت قال : ذاك على ما قضينا ، وهذا على ما نقضي ..

إن ظروف القضيتين مختلفة ، وإن تماثلت الوقائع .

وعمر الفقيه العبقري ، لا يحمل داخل عقله فتاوى كالقوالب الجامدة ، إنما يحمل فهماً يتحرك في كل الجهات ، ويدرك ما لتباين الظروف وتغاير الأسباب من تأثير في الحادثة ، وتأثير في الحكم ..

ولا شيء يفوق ذكاء "عمر" ، سوى جرأة هذا الذكاء .. !

فنراه وهو الذي كان يتحرّى التزام النص ، ومتابعة الرسول عليه السلام ، يعلن إنهاء حكم شرعي ، مات الرسول ﷺ وهو نافذ قائم ، ومات أبو بكر وهو نافذ قائم ، ولا يزال منطوق هذا الحكم آية تُتلى في كتاب الله .. !!

هذا الحكم ، هو تخصيص جزء من ضريبة الزكاة للمؤلَّفة قلوبهم .

والمؤلَّفة قلوبهم جماعة دخلوا الإسلام باقتناعٍ ضعيف ، أو بغير اقتناع ، ففرض القرآن لهم في بيت المال حظًا يأخذونه من الزكاة تألُّفاً لهم ، حتى لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان ؛ فيقبلوا عليه راغبين موقنين ..

قلّب "عمر" وجوه الرأي في هذا الشأن ثم قال :

« لقد كان رسول الله يعطيهم والإسلام يومئذٍ ضعيف .. أمّا اليوم فقد أعزَّ الله دينه وأعلى كلمته ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولن يتسع هذا الدين إلا لمن يدخله راغباً مؤمناً » .

إن هذا الموقف وحده يرتفع إلى أعلى مستويات الذكاء الإنساني ليس لِما يتضمّن من حسن التعليل ، بل لِما يتضمّن من شجاعة التفكير . فكثيرون يستطيعون أن يدركوا ما أدرك "عمر" من حكمة التشريع في مثل هذه الواقعة ، لكنّ "عمر" وحده هو الذي يستطيع ذكاؤه الحاسم أن يُطوِّرَ هذا التشريع ، ولا سيما إذا كان مقرراً بآية قرآنية لم تُنسخ ، وعمل للرسول لم يُنقض ..

الحقّ أن أعمق رؤى البصيرة ، وأعمق أسرار الشريعة ، قد التقتْ لقاءً سعيداً في وَعْي هذا الرجل الراشد الأمين .. !

ولقد أشاد الرسول بهذه النعمة التي أفاءها الله على "عمر" ، فيروي البخاري ومسلم رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال :

- « بينما أنا نائم ، إذ رأيت قدحاً أُوتيتُ به فيه لبن ، فشربتُ منه حتى إني لأرى الرِّيَّ يجري في أظفاري ، ثم أعطيتُ فضلي عمر بن الخطاب .. قال أصحاب الرسول ، فماذا أوَّلْتَه يا رسول الله ؟ قال : العلم » .

* * *

يُجاء إليه بمسلم ارتكب ما يوجب الحدّ ، ويشهد ثلاثةُ شهادة تدينه ، ولم يبق إلا شهادة الرابع ، ثم يصير الحد عقاباً محتوماً ..

ويُرسل "عمر" يستدعي الشاهد .. ولا يكاد يراه مقبلاً حتى تأخذه رهبة .. وحين تقترب خطاه ، ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول: "أرى رجلاً أرجو ألا يفضح الله به واحداً من المسلمين" ..

ويقدم الشاهد ، ويقول : لم أرَ شيئاً يوجب الحد ..

ويتنفس "عمر" الصُعَدَاء .. !!

ويأتيه رجل يسعى ذات يوم ظانا أنه يحمل إليه بشرى ، فيقول: يا أمير المؤمنين ، رأيت فلاناً وفلانة يتعانقان وراء النخيل ، فيمسك "عمر" بتلابيبه ، ويعلوه بمخفقته ، ويقول له بعد أن يُوسعه ضرباً : « هلا سترت عليه ، ورجوتَ له التوبة ؛ فإن رسول الله ﷺ قال : من ستر على أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة » !! .

هذا رجل معه من الورع ما يستهجن به الخطأ الأخلاقي ، ولكن معه من الفطنة ما يُقَدِّرُ به ظروف هذا الخطأ ، ومعه من الفقه ما يؤدي به حقَ الورع وحقَ الفطنة معاً .. !!

وإنه ليوصي الناس بهذا الفقه العظيم فيقول :

ـ « هكذا فاصنعوا .. إذا رأيتم أخاً لكم زلَّ زلّة فسدِّدوه ووفِّقوه ، وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا عوناً عليه للشيطان » ..

إن أمير المؤمنين شديد الوطأة ، شديد البأس ، لكنَ الفهم السديد يضيء كل مواقفه ، وهو يقضي بذكائه لا بعواطفه .. فصحيح أنه ينفر من الإثم ، لكنه يُمحِّص ظروف اجتراحه تمحيص خبير ، ويضع القاعدة الذهبية التي تقول :

" لأنْ أعطِّلَ الحدود في الشُبُهات ، خيرٌ من أن أقيمَها في الشبهات " .. !

يأتيه يوماً رجل يستفتيه قائلا :

ـ إن ابنتي كانت قد أصابت حداً من حدود الله ، وأخذتِ الشفرة لتذبح نفسها ، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها ، فداويناها حتى برئت ، ثم تابت بعدُ توبة حسنة . وهي اليوم تُخطب إلى قوم ، أفأخبرهم بالذي كان .. ؟

فيجيبه عمر ذو الورع الذكي ، والذكاء الورع :

ـ « أتَعْمَدُ إلى ما ستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرتَ بها أحداً من الناس لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار ، اذهب وانكحْها نكاح العفيفة المسلمة » ... !!

* * *

وأمير المؤمنين لا يكوِّن أحكاماً جزئية مُبتسَرة ، بل تجيء أحكامه دائماً شاملة مستوعبة . ولا يصرف بصيرته عن الواقع ، بل يركزها عليه ، ويحيط به ، ويجعله من مصادر تفكيره الرشيد ..

* في إحدي الليالي ، وقد خرج عاسًا في المدينة ، ينفض الليل عن الكروب المخبوءة ، سمع سيدة تشكو بثَّها وحُزنها وتقول :

تطاولَ هذا الليل ، وازورَّ جانبه ... وليس إلى جَنْبي خليلٌ أُلاعبه
فوالله لولا الله لا ربٌ غيره ... لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي ، والحياء يصدني ... وأكرم بَعلي أن تُنال ركائبه

ثم قالت : أهكذا يهون على "عمر" وحشتنا ، وغيبة رجلنا عنا .. ؟

ويتبين "عمر" أن زوجها مجند في أحد جيوشه ..

وعند الصباح يذهب إلى ابنته حفصة ويسألها :

ـ يا حفصة .. كم تصبر المرأة عن زوجها .. ؟!

فتجيبه : تصبر شهراً ، وشهرين ، وثلاثة ، وينفد مع الشهر الرابع صبرها .

فيسنّ من فوره قانوناً ، بألا يغيب في الجهاد جندي متزوج أكثر من أربعة أشهر .. ويرسل إلى زوج السيدة يستدعيه من فوره .. !!

* ويسمع شيخاً كبيراً يبكي في شعر جَزْل ولَده الوحيد ، الذي طال غيابه عنه .. ويسأل "عمر" فيعلم أنه هو الآخر في أحد جيوش المسلمين ، فيستدعيه فوراً ، ثم يسنّ قانوناً ألا يخرج إلى الجهاد من له أبوان كبيران إلا بعد إذنهما .. !!

ذكاء يعمل على الطبيعة ، ويستمد من واقع الناس والحياة مادة تفكيره ..

* ولقد درج العرف والقانون على اعتبار الاعتراف سيد الأدلة ..

وهذا حقّ ، لكن أمير المؤمنين يقرر بفطنته أنه ليس كذلك دائماً ، ولابدّ لكي يؤخذ الاعتراف كدليل من ألا يُعْزَلَ عن الظروف التي تكتنفه وتحيط به ، فلربما يجيء نتيجة خوف أو إكراه ، وعندئذٍ يفقد قيمته .

يقول عمر :

ـ «ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أَجَعْتَه ، أو أَخَفْتَهُ أو حَبَستهُ أن يُقِر على نفسه» ..!!

* وهو يأمر قواد جيوشه ألا يُنزلوا بجندي عقاباً حتى "يَطلعُوا من الدَّرْب قافلين" .. !!

إذا ارتكب جندي خطأً ما ، فلتحقق الواقعة ، ولتحدد المسئولية ، ولكنّ توقيع الجزاء والعقوبة يظل مُرْجَأً حتى يُغادر الجندي بلاد الأعداء ، ويعود إلى وطنه ..

ويعلّل أمير المؤمنين قراره هذا بالخوف من أن يلحق الجندي بالأعداء ، ويأوي إلى صفوفهم إذا أنزل به العقاب هناك .. !!

إن ذكاءه التشريعي يتجلّى في هذه الوقائع اليسيرة التي ذكرناها تجلياً يكشف عن روح الفهم النافذ ، والاستعداد العظيم عند ذلك الرجل الملهم الرشيد .

* وإنه ليجاء إليه يوماً بغلمان صغار السن ، سرقوا ناقة رجل من مُزَينة .. ؟ فلا يكاد يراهم صفر الوجوه ، ضامري الأجسام حتى يسأل : مَن سَيِّد هؤلاء .. ؟

قالوا : حاطب بن أبي بلتعة ..

قال : إليَّ به ..

فلمّا جاء حاطب ، سأله : أنت سيد هؤلاء ؟.

قال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال عمر : لقد كدت أنزل بهم العقاب ، لولا ما أعلمه من أنكم تدئبونهم ، وتجيعونهم ـ لقد جاعوا فسرقوا ، ولن ينزل العقاب إلا بك .. !!

ثم سأل صاحب الناقة :

ـ يا مُزَني ، كم تساوي ناقتك .. ؟؟

قال : أربعمائة ..

قال عمر لحاطب : اذهب فأعطِه ثمانمائة ..

ثم قال للغلمان : اذهبوا ، ولا تعودوا لمثلها .. !!

* * *

وحين نتبع أفكار "عمر" في كلماته التي يصوغها في أحسن تقويم ، نرى الجزالة ، والوضوح ، والمعاني الكبيرة ، والأهداف النبيلة ، تلتقي لقاءً سعيداً في كل كلمة تنفرج عنها شفتاه ..

حين وَلِيَ الخلافة وقف يقول لقومه :

ـ « لن يغيِّر الذي وُلِّيت مِن خلافتكم شيئاً من خُلقي ، إنما العظمة لله وحده ، وليس للعباد منها شيء » .. !!

ويحدثهم عن المال فيقول :

ـ « ألا إني ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث : أن يؤخذَ من حقّ ، ويُعطى في حقّ ، ويُمنع من باطل ... ألا وإنما أنا في مالكم هذا كوالي اليتيم : إن استغنيتُ استعففت .. وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف » .

ويقول في كلمات وضاء عِذاب :

« من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأتِ أُبيَّ بن كعب .. ومن أراد أن يسأل عن الفرائض ، فليأتِ زيد بن ثابت .. ومن أراد أن يسأل عن الفِقْه ، فليأتِ معاذ بن جبل .. ومن أراد أن يسأل عن المال ، فليأتِني .. فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً ..

إنِّي بادئ بأزواج رسول الله ﷺ فمعطيهن ، ثم المهاجرين الأولين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ثم الأنصار الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان من قبلهم ، ثم مَنْ أسرع إلى الهجرة ، أسرع إليه العطاء ، ومَنْ أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء ، فلا يَلومَنَّ رجل إلا مُناخ راحلته » . !!

ويقول في توزيع الثروة :

ـ « إني حريص على ألا أَدَع حاجة إلا سدَدتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجزنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف » ... !!

* * *

وحين نستعرض كتبه لقواده وولاتِه نرى كيف كان ذكاؤه يبلغ غاية الرُّشد في كل شأن من الشئون ..

يكتب لأبي موسى الأشعري موضحاً له منهج القضاء الذي ينبغي أن ينتهجه فيقول :

« من عبد الله أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس .. سلام عليك ..

أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنّة متّبعَة ، فافهم إذا أُدْلِي إليك ، وأنفذ إذا تبيَّن لك ؛ فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له .

آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك ؛ حتى لا يطمع شريف في حَيْفِك ، ولا ييأس ضعيف من عَدلك ..

البيِّنة على مَن ادَّعى ، واليمين على من أنكر ..

الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً ، أو حرّم حلالاً ..

ولا يمنعكَ قضاء قضيته بالأمس ، فراجعتَ فيه نفسك وهُديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحقّ : فإن الحقّ قديم ، لا يبطله شيء ، ومراجعة الحقّ خير لك من التمادي في الباطل ..

الفهمَ ، الفهمَ ، فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا في سنة ، واعرف الأشباه والأمثال ، ثم قِس الأمور عند ذلك ، واعمَد إلى أحبها إلى الله ، وأشبهها بالحقّ فيما ترى .. واجعل لمن ادّعى حقاً غائباً أو بيّنة ، أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضاء ؛ فإن ذلك أنفى للشك ، وأجْلَى للعمى ، وأبلغ في العذر ..

والمسلمون عدول في الشهادة بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حدّ ، أو مجرّباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة ؛ فإن الله قد تولّى منكم السرائر ، ودَرأ عنكم الشبهات ..

وإياك والقلق ، والضجر ، والتأذّي بالناس ، والتنكر للخصوم في مواطن الحقّ التي يوجب الله بها الأجر ، ويُحسن الذُّخر ، فإنه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، يكفِه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيّن للناس فيما يعلم الله خلافه منه ، شانَه الله ، وهَتك ستره ، وأبدى فعله ، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ؟ والسلام » .. !!!

ويدخل عليه وفد من المجاهدين كانوا يفتحون تكريت وجلولاء ، فيرى جسومهم ضامرة ، ووجوهم شاحبة ، فيسألهم عن سبب ضعفهم ، فيجيبونه بأنها وخُومة البلاد ورطوبتها ..

فيكتب لسعد يأمره أن يحسن اختيار مكان يلائم الناس ، ويرسم له الطريق فيقول :

« ابعث سلمان رائداً ، وحذيفة ، فليرتادا منزلاً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جِسر ، وادْعُ أبا الهياج بن مالك ، وأمُره أن يجعلها مَناهجَ ـ يعني شوارع ـ عرض كل منها أربعون ذراعاً .. وأخرى عرض كل منها ثلاثون ذراعاً .. وأخرى عرض كل منها عشرون ذراعاً ، لا تضيق عن ذلك شيئاً . وأمره أن يجعل فيها أزِقّة ، الزقاق سبعة أذرع ، لا يضيق عنها شيئاً » .. !

ويكتب لسعد أيضاً ببعض توجيهاته العسكرية فيقول :

" ترفّق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل رفق ، حتى يبلغوا عدوَّهم ، والسفر لم ينقص قوتهم .. وأقم بمَنْ معك في كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يُجِمّون فيها أنفسهم ، ويرمُّون أسلحتهم وأمتعتهم ..

ثم يقول :

وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذْكِ العيون بينك وبينهم ، حتى لا يخفى عليك أمرهم ، وَاخْتَرْ لهذا مَنْ تطمئن إلى نصحه وصدقه ؛ فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صَدق في بعضه ، والغاشّ عين عليك وليس عيناً لك ..

وإذا دَنوت من أرض العدو ، فأكثر الطلائع ، وبثّ السرايا . أما السرايا فتقطع إمدادهم ومرافقهم . وأما الطلائع ، فتبلو أخبارهم ، وانتقِ للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ؛ فإن لَقُوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر

السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخصَّ أحداً بهوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما تحابي به أهل خاصتك ، ولا تبعث طليعة ولا سَرِيَّة في وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية ، فإذا عاينت العدو ، فاضمُم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك » .. !!

ويكتب إليه أيضاً :

- « بلغني أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرَّت بوادٍ خصيب فلم يكن لها هَمٌّ إلا السِّمَن ، وإنما حَتْفُها في السِّمَن .. ! واعلم أن للعامل مرداً إلى الله ، فإذا زاغ زاغت رعيته ، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته » ... !!

في هذه الرسائل أدلى "عمر" برأيه في مشاكل شتى ، في القضاء ، وفي العمارة ؛ وفي الجهاد ، وفي أمانة الحكم ..

وفيها - وبين سطورها - تتألق بديهته ، ونبوغه ..

* * *

وحتى حين كان يعبِّر عن أفكاره في تَبَسُّطٍ ودعابة ، كانت الحكمة الذكية تملأ الكلمات والحروف ..

ويمر يوماً بدارٍ جديدة في أطراف المدينة ، فيسأل : دارُ مَن هذه ؟

فيقولون : دار فلان . وفلان هذا واحد من ولاة عمر ..

فيقول : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها .. !!

ويبصر يوماً نائحة تستجيش أحزان الناس ، وتمسح دموعها الكواذب ، فيعلوها بمخفقته . ويطردها ويقول : "إنها لا تبكي بشجونكم ، إنما تبكي بدراهمكم .. !! » .

ويسأل أحد أولاد "هرم بن سنان" ، الذي خلَّده بشعره ، "زهير بن أبي سلمى" فيقول له : أنشدني بعض مَدح زُهيرٍ أباك . فينشده ..

فيقول عمر : إنْ كان لَيحسن فيكم القول ..

فيجيبه الرجل : ونحن والله ، إن كُنَّا لَنحسن له العطاء ...

فيقول عمر : قد ذهب ما أعطيتموه .. وبقي ما أعطاكم .. !!

ذكاء ثاقب ، يعبِّر عن نفسه بكلمات ثاقبة .. !!

* * *

وبعد ، فالذكاء البشري يقترن غالباً بالطموح الشديد ، والسعي الدائب وراء المزيد من أمجاد الدنيا والعُلُوِّ فيها .. وهنا نلتقي بأبهى خصائص ذكاء ابن الخطاب ..

لقد كان ذكاء رَهبانيًا ، لا يعمل في خدمة صاحبه ، وإنما يعمل لله ، ومع الله ، في سبيل الحقّ ، والخير ، والرحمة .. !!

أجل ، كان ذكاء رجل أوَّاب .. مِن الله مأتاه .. وإلى الله مردّه .. وفي سبيل الله نشاطه ، وتَوقُّده ، ورُوَاه ... !

■ ■ ■

بَشِّر صَاحبكَ بغلام

إذا اجتمعت هذه الفطرة السوية القوية ، وهذا الإيمان الوثيق بالله ، وهذه الأمانة الكاملة في تحمُّل مسؤوليات الوجود والحياة ، مع ذكاء ثاقب رَحْب ، فماذا يبقى من المكرُمَات والعظائم ، حتى يكون الكمال الإنساني قد تجسَّد بشراً ، ونهض على ساقَيْن .؟

هذا العدل ، وهذا الورع ، وهذا التفاني في الواجب ، وهذه الاستقامة على صراط الحق ، والفِطنة التي لا يخدعها خِبٌ ..

تلك الخصائص المثلى لم يأخذ "عمر" منها حظًّا مجرَّد حظ ، بل بلغ نهاياتها ، وتفوَّق على مستوياتها القياسية جميعاً ..

أجل ، إن الكمال الإنساني حين أراد أن يحقق وجوده المادي المحسوس ، تجسد في نماذج نادرة وباهرة من البَشَر . وإن أحد هذه النماذج العليا ، لهو "عمر بن الخطاب" ...

رجل كما رأينا ، عظيم . تتمنى العظَمة نفسُها أن تكون إحدى صفاته وسِماته..!!

على أن الصورة التي نتملاَّها له عَبْر هذه الصفحات لم تَستكمل بعد ملامحها ، فلا يزال هناك مَلْمح باهر مشرق أخَّاذ ..

صحيح أنه ماثل في كل الملامح السالفة ، ولكنه بالنسبة إلينا - نحن الذين نقسم الموضوع ، لنحسن فهمه ولنطيق استشراف هذه العظمة السامقة رويداً - لا يزال أمامنا هذا الملمح المطِلُّ ، يجذبنا ويدعونا ..

فالرجل الذي ورَّثه الله ملك كسرى وقيصر ، والرجل الذي كان أصحابه يرقبون ابتساماته ترقُّب الأهِلَّة من طول كَظمه شَفتيه خوفاً من الله ، ووقاراً له ، وفَرقاً من مسئولياته أن يَزِلَّ فيها ، أو يَنوء بها..

الرجل الذي خُلق ليقود عالماً ، والذي رُزق طبيعة تقتلها الراحة ، ويُغريها العمل بالعمل ..

هذا الرجل الشاهق ، الهادر ، الجياش ، كيف كان نهج حياته تحت وطأة مسئولياته ، وإخباته ، وجيشان فطرته وطاقاته ...؟

هل عقَّدته خصائصه هذه، أم زادته وضوحاً..؟

هل اضطرته إلى الانطواء والتزمُّت، أم مكنته من المجاوزة ومنَحته التفتّح ..؟

هناك قدر من التحفظ والصَلَف ، تحمي به الزعامة المنتصرة نفسها ، وتصون به هيبتها ، فهل أخذ "عمر" حظه المألوف من هذا ، أم كان عنده بديل آخر دعَم زعامته ، وإمامته ، وهيبته ..؟؟

أجل ، كان هناك بديل يليق "بعمر" ، ولا يقدر عليه إلا واحد من طراز "عمر" ..

كان هناك البساطة..!!

ولكننا نظلم البساطة عند "عمر" إذا قلنا إنها كانت بديلاً لشيء آخر.

فليس في أخلاق "عمر" ولا في خصائصه ما هو بديل .. إنما هي جميعاً ذواتُ أصالةٍ مطلقة ، و "عمر" نفسه ، هو وطنها وجوهرها...

أجل ، إن الشجاعة ، وإن العدل ، وإن الورع ، والاستقامة ، كلها أخلاق إنسانية يحمل أمانتها بنو الإنسان ، وتوجد بنسب متفاوتة مع الناس جميعاً ـ لكنَّ شجاعة "عمر" ، وعدله ، وورعه ، واستقامته ، شيء نابع من "عمر" ، ومختص به .. وما كان سيوجد قط ، لو لم يوجد "عمر" ..

لقد أدت خصائص "عمر" بمعونته دورها الفريد الفذَّ ، الذي جعلها متميزة كأنها من جوهر آخر فريد .. هو "عمر" نفسه ..

وهذه عظمة الرجل .. إنه لم يأخذ من الفضيلة سِيماها وطابعها ، بل هو الذي منح الفضيلة طابعه وسِيماه .. !!

من أجل هذا ازدهرت الفضائلُ في نفسه وسلوكه ازدهار شخصيته ..

واكتملت لديه الفضائل جميعاً ، واتحدت في كلٍ واحدٍ ، هو "عمر" ..

وإذا كنا نجزِّئها ونقول ، عدل "عمر" ، ورع "عمر" ، أمانة "عمر" ، فطنة "عمر" ، قوة "عمر" .. فإنما نفعل هذا لنعلِّم أنفسنا ..

أجل : إننا نُقَسِّم طريقنا لنقدر على استيعابه ، ونقسم المادة التي بين أيدينا لنتمكن من تحصيلها ..

أما فضائل أمير المؤمنين ، فلا تتجزأ في مجال العمل ، كما لا تتجزأ في ميزان التقييم .. ذلك لأنها ليست أوسمة منوطة بصاحبها .. بل هي صاحبها نفسه ، وهي الرجل الذي تنبع منه وتنتمي إليه .. هي ، "عمر" .. !!

* * *

ورجل هذا شأنه ، رجل مترع بالعظمة وبالتفوق إلى هذا الحد ، لا يمكن أن يستهويه التمايز ، ولا يمكن أن يجد راحة نفسه وغبطتها إلا في البساطة المتناهية ، وفي الحياة "بين" الناس لا "فوق" الناس ..

فهو يجلس حيث انتهي به المجلس .. ليس له مكان صدارة يختص به نفسه . وهو ينام حيث يدركه النوم ، فوق الحصير في داره ، أو فوق الرمال تحت ظل النخيل .. !! وهو يأكل ما يجد ، وما يُقيم الأوَد لا غير .. شريحة من اللحم المقدد ، أو شريحة من الخبز مبللة بالزيت ، مُتبَلَة بالملح .. !!

وهو سعيد ، حين يسمع امرأة ، أو غلاماً يناديه : يا عمر ..

وهو في سعادة لو علمها ملوك الأرض لَحسدوه عليها ، حين يرى عجوزاً تحمل مِكْتلاً يَؤُودها حمله ، فيتقدم منها ويحمله عنها بعض الطريق ، ويضحك مِلء نفسه ، وهوَ يسمعها تقول له شاكرة :

أثابك الله الخير يا بني .. إنك لأحَقُّ بالخلافة من عمر .. !!

* * *

ذات ليلة خرج في جولة من جولاته التي كان يخرج فيها وحيداً ، والناس نيام ليطمئن على قومه ، ويَبْلُوَ أحوالهم ، وينفضَ الليل عن حاجاتهم .. !

وعند مَشارف المدينة رأى كوخاً ، ينبعث منه أنين امرأة ، فاقترب يسعى ، ورأى رجلاً يجلس بباب الكوخ ، وعلم منه أنه زوج السيدة التي تئن ، وعلم أنها تعاني كَرْب المخاض ، وليس معها أحد يعينها ؛ لأن الرجل وزوجته من البادية وقد حطَّا رِحالهما هنا وحيدين ، غريبين ..

ورجع "عمر" إلى بيته مسرعاً ، وقال لزوجته "أم كلثوم" بنت الإمام عليٍّ ..

ـ هل لك في مَثُوبة ساقها الله إليكِ .. ؟؟

ـ قالت : خيراً .. ؟

قال : امرأة غريبة تَمَخَّض ، وليس معها أحد .

قالت: نَعم ، إن شئت ..

وقام فأعد من الزاد والماعون ما تحتاج إليه الوالدة من دقيق وسمن ، ومِزَق ثياب يُلَفُّ فيها الوليد .

وحمل أمير المؤمنين القدْرَ على كتف ، والدقيق على كتف ، وقال لزوجته : اتبعيني ..

ويأتيان الكوخَ ، وتدخله "أم كلثوم" زوج أمير المؤمنين ، لتساعد المرأة في مخاضها ..

أما أمير المؤمنين ، فيجلس خارجَ الكوخ وينصب الأثافِيَّ ويضع فوقها القدر ، ويوقد تحتها النار ، ويُنضج للوالدة طعاماً ، والزوجُ يرمُقه شاكراً .. ولعلَّه كان يحدث نفسه هو الآخر بأن هذا العربي الطيب أولى بالخلافة من "عمر" .. !!

وفجأة صَدَح في الكوخ صراخ الوليد .. لقد وضعته أمه بسلام ، وإذا صوت "أم كلثوم" ينطلق من داخل الكوخ عالياً :

ـ يا أمير المؤمنين ، بَشِّر صاحبك بغلام .. !!

وَيَشْهَقُ الأعرابي من الدهش ، ويستأخر بعيداً على استحياء ، ويحاول أن ينطق الكلمتين ـ أمير المؤمنين ـ لكنَّ شفتيه لا تقويان على الحركة من فرط ما أفاءته المفاجأة من سعادة ، وطرافة ، وذهول .. !!

ويلحظ "عمر" كل هذا ، فيشير للرجل : أنِ ابقَ مكانك ، لا تَرَعْ .. ويحمل أمير المؤمنين القِدر ، ويقترب من باب الكوخ منادياً زوجته :

ـ خذي القدر يا أم كلثوم ، وأطعمي الأم وأشبعيها ..

وتُطعمها "أم كلثوم" حتى تشبع ، وتردَّ القدر إلى "عمر" بما بقي من طعام ، فيضعها "عمر" بين يَدَي الأعرابي ، ويقول له :

ـ كل واشبع ، فإنك قد سهرت طويلاً ، وعانيت كثيراً ... ثم ينصرف هو وزوجته ، بعد أن يقول للرجل :

ـ « إذا كان صباح الغد فَأْتِني بالمدينة ، لآمر لك من بيت المال بما يصلحك ، ولنفرضَ للوليد حقَّه » .. !!

رضي الله عن "عمر" ، وإنَّه لحقٌ ، ما قاله الرسول ﷺ عنه : « لم أرَ عبقرياً يَفري فَرِيَّهُ » ، فهو بألمعيته وبصيرته ، قد عرف حقيقة السعادة ، وحقيقة العظمة في دنيانا هذه ، فأخذ منهما بالمكيال الأوفى .

ألا ورَبِّ "عمر" ، إن مشهداً واحداً كهذا الذي رأيناه لخير مما طلَعت عليه الشمس وغَربت ـ من عُروش وتيجان ، وزُخرف وصَلف ... !!

أيُّ تواضع ، وأيُّ بساطة ، وأيُّ حنان ومودة تنساب من نفس هذا الإنسان الذي رفع الله به من قَدْر الحياة .. ؟!

أين مظاهر السلطان ، حتى المشروع والضروري منها .. ؟!

لكنَّ "عمر" لم يكن رجلَ سلطان ، لأنه فوق السلطان . وهو لا يستعير عظمته من شيء خارج نفسه . إنما يَهبُ العظمة لكل ما يقترب منه ويتصل به .

وهو لا يتكلف البساطة ، بل يتنفسها .. ويُوَطِّئُ أكنافه في غبطة للكبير والصغير .. !!

يمر يوماً في المدينة بغلمان يلتقطون البلح من أفنية النخل ، فلا يكاد الغلمان يبصرونه حتى يتفرقوا ، ويذهبوا بعيداً ، غير غلام واحد ظل في مكانه لا يريم ..

ويقترب منه "عمر" فَيُباكِرُه الغلام القول :

ـ « يا أمير المؤمنين ، إن هذا البلح مما ألقته الريح » .. !!

فيقول له عمر : « أرني أنظرْ إليه ، فإن ما تلقيه الريح لا يخفَى عليَّ » وينظر البلح ويفحصه ثم يقول للغلام : صدقت ..

وتتهلل أسارير الطفل ، ويقول لأمير المؤمنين في براءة ،

ـ « أترى هؤلاء الغلمان الذين هناك ؟؟ إنهم ينتظرون أن أذهب وحدي فيغيروا عليَّ ويأخذوا ما معي » ..

ويضحك عمر .. ويُربِّتُ كَتِفَهُ ، ويقول للغلام : امضِ معي ، وَسَأُبَلِّغكَ مأمنَـك .. ويأخذ بيده ، ويسير إلى جانبه حتى يُشارف داره ... !!!

* * *

أكانت بساطته تنبع من مسئولياته ، أم نبعت كل خصائصه المتفوقة من عظمة نفسه .. ؟؟

ألا من شاء أن يرى ما يَسُرُّ الأعين ، ويجعل الأفئدة في عيد ..

ألا من شاء أن يرى العظمة الإنسانية في أوج صدقها ونُهاها ..

فليبصر ذلك الإنسان الفارع الطول ، الأصلع الرأس ، المنفرج القدمين ، اللابس بردة بها إحدى وعشرون رقعَة ، الحامل في يُسراه دواة ، وفي يمناه قِرطاساً وقلماً .. يقرع أبواب الدور ، ويطلب إلى نساء المؤمنين اللواتي غاب أزواجهن في الثغور وفي ميادين الجهاد أن يجلسن وراء الأبواب ، ويُملين عليه رسائلهن إلى الأزواج ، فإن البريد على وَشْكِ أن يرحل ويسافر .. !!

أو فليبصر ذلك الإنسانَ نفسه ، أميرَ المؤمنين "عمر" ، والظافر بالدنيا العريضة ـ دنيا الروم وفارس ، يقرع الأبواب نفسها ، وينادي الزوجات اللائى غاب أزواجهن :

-اذكرن لي حاجاتكن ، ومَنْ كانت لها في السوق حاجة ، فلتذكُرها لي ، أو لترسل معي خادمها إن كان لها خادم ، فإني أخاف أن تُخدعن في البيع والشراء .. !!

ثم يمضي إلى السوق ووراءه سِرْب طويل من الخدم ، وهناك يشتري بنفسه ، ويضع الحاجات في السِّلال بيده .. !!

أصحيح أن هذا الرجل عاش على ظهر الأرض يوماً ، وكان أميراً للمؤمنين ، وكان يحيا بهذه البساطة ، ويعدل هذا العدل ، ويُخْبِتُ ذلك الإخبات .. ؟؟!!

أصحيح أن رجلاً ، اسمه "عمر" ، كان للمسلمين خليفة وإماماً ، وفتح الله له فتحاً مبيناً ، هابته مُلوك الأرض ، وتدحرج عند قدميه طُغاتها ، وجَرت بين يديه كالأنهار الأموال والكنوز ـ يزوره وفد العراق يوماً ومعه الأحنف بن قيس ، فيفاجئونَ به والحر شديد ، والصيف قائظ ، منهمكاً في تطبيب بعير من إبل الصَّدقة ، يطليه بالقَطِران ـ ثم لا يكاد يرى ضيوفه ، وفيهم الأحنف حتى يناديه :

- « ضع ثيابك يا أحنف وهَلُمَّ فأعِنْ أمير المؤمنين على هذا البعير ، فإنه من إبل الصدقة ، وفيه حقٌ للأمَة ، والمسكين ، واليتيم » ..

فيقول له رجل من الوفد ، وقد أذهلته المفاجأة :

ـ « يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، إن عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا » ..

فيجيبه عمر : « وأيُ عبدٍ أعبدُ مني ومن الأحنف .. ؟ » ثم يستأنف تطبيبه للبعير .. !!!

أصحيح هذا ... ؟؟

من حسن حظ البشرية أنه صحيح ، وأن لها من "عمر" مَعِيناً لا يَنضُبُ من الغبطة والعظمة والأمل ..

من حسن حظ البشرية ، أن "عمر" واحد منها ، لتعلم أنها تنطوي على إمكانات الكمال الذي تصبو إليه وتريده ، وأنه ليس عليها إلا أن تجلُوَ مواهبها ، وتصقُل مَزاياها ومَراياها ، فإذا هي تخرج الخبء ، وتعطي الثمر ، وتنجب العظمة والكمال .. !!

* * *

إن بساطة عمر تكشف الحماقة الكبرى التي يخوض فيها كل مَنْ يأخذه الزهو والصَّلف بمنصب يناله ، أو نصر يبلغه ، أو ثروة يجمعها . فما الصلف والتكلف إلا عبء ثقيل يحمله المخدوعون به ، ويصطلون بعذابه وهم لا يشعرون ..

أمَّا البساطة الصادقة التي عاشها "عمر" ، فتلك هي السعادة حقاً ، السعادة التي يتمثل فيها رجوع النفس إلى جوهرها ، وتفوُّقها على كل خلابة وغرور ...

سبحانه ، ربُّ عمر .. !!!

لقد ألهمه رشده ، ووقاه شرَّ نفسه ، ومَنَحه من استقامة الشخصية وجلالها ما جعله نسيج وحدِه ، لا في بلده وحدَه ، ولا في عصره وحدَه ، بل ملء كل مكان ، وعَبر الزمان ، جميع الزمان .. !!

حيثما نلقاه ، نلقى بطولة روحه ، نلقى بساطته وإخلاصه وصدقه ، حتى ليتركنا في حيرة ، كيف توافر لهذا الرجل ، كل هذا القدر من الدَّعة ، والأمانة ، والبساطة ، وهو الذي زادت أعداد الجند في جيوشه على مئات الأُلوف ، وأصبحت الأموال تتكدَّس بين يديه في أفناء المدينة أكواماً وتلالاً ، وأخذت الوفود من أرجاء الأرض القريبة والبعيدة ، تسعى إليه طالبةً الأَمْن ، وأحاطت به قلوب الشعوب التي حررها من ظلم الروم ، وغطرسة الفرس .. وأحاطت به في هُيام وحب وفتون يسلُب الحليمَ لُبَّه .. !!

كل قوى الإغراء بالزهو ، والحضَ على الاستعلاء . ثم لا نجد أثارة ـ أدنى أثارة ـ من زهو أو استعلاء ، بل على العكس نجد قِمماً تَزْحَم الأفق ... قمة الزهد ، وقمة العدل ، وقمة الورع ، وقمة البساطة والتواضع ... شَوامخ يعلي الرجل بناءها بفضائل نفسه ، وبطولة روحه ، واستقامة نهجه .. ؟؟

انظروا ...

ها هو ذا يقترب من مشارف الشام ، وقد خرج أهلها لاستقباله ، فيلقاهم رجل قد امتطى جملاً ، يجلس فوق وطاء من صوف خشن ، وقد دَلَّى رجليه من شعبتي رَحله ، فلا وجافَ ، ولا رِكاب ، يلبس قميصاً من قطن ، كثير الثقوب ، كثير الرقاع .. !!!

ويقبل الناس على الرجل يسألونه : أين أمير المؤمنين .. ؟؟

ـ ألم تلقَ موكبه في الطريق ؟؟

فيجيبهم الرجل بأسماً "أمير المؤمنين أمامكم" فَيُغِذُّون السير إلى أمام .. حتى يأتيهم الخبر من ورائهم بعد حين : أن أمير المؤمنين قد وصل "أيلة" ونزل بها ، فيعودون مهرولين ..

ويدخلون على أمير المؤمنين حيث كان يجلس مع الناس ، وتكاد تصعقهم المفاجأة ، فما أمير المؤمنين إلا الرجل الذي لقيهم يمتطي جملاً ، والذي سألوه عن أمير المؤمنين ، فقال إنه أمامكم .. !!

وَيُؤْتَى له ببرْذَون مُطَهَّم عليه سرج جميل ، ورَحْل أنيق ، فيرفض ركوبه ويقول : نَحُّوا عني هذا الشيطان .. !!

فإذا قيل له : إن هذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، يركب البرذَوْن ، ولكن بعد أن يجرْده من كل حِلْيَة وزُخرف ، وبعد أن يُلقي عن ظهره بالسرج الأنيق ، والرحل المزركش ، ويضع مكانهما ، الكساء من الصوف الذي كان يتخذه وطاء له إذا ركب ، ووسادةً ينام عليها إذا نزل .. !!

وفي رحلته الأولى إلى بلاد الشام يلقاه على أبواب مدينة القدس قواد جيشه وأمراؤه ، ممتطين صهوات الخيل ، وقد تمنطقوا بحلل من الديباج ..

فلا يكاد "عمر" يرى المشهد ، حتى ينزل من فوق دابته سريعاً ، يده على الأرض تأخذ من طوبها وحَصاها ، ويرى الأمراء والقواد ثم يقبل عليهم قائلاً :

« سرعان ما فُتنتم ؟ أفي هذا الزي تستقبلون عمر ... ؟ سرعان ما ندَت بكم البطنة والترف ، وأنتم الذين لم تشبعوا إلا من عَامَين » ... !!

هذا الرجل لم تكن البساطة ، والتواضع ، هواية له ، بل كانت ديناً ، وفطرة ، وأمانة ..

إنه يلتقي ليلة بسيدة تسير وحدها في المدينة ، حاملة قربة كبيرة ، فيقترب منها ويسألها عن أمرها ، فيعلم أنها ذات عيال ، وليس لها خادم ، وأنها تنتظر حين يرخي الليل أستاره ، فتخرج لتملأ قربتها ماء . فيأخذ منها القربة ويحملها عنها ، وهي لا تعرف من هو ..؟ حتى إذا بلغ دارها ، قال وهو يناولها قربة الماء :

ـ إذا أصبح صباح غد فاقصدي عمر ، يرتب لك خادماً ، قالت : إن عمر كثير شغله ، وأين أجده .. ؟

قال : اغْدِي عليه ، وستجدينه إن شاء الله تعالى ..

وتعمل المرأة بمشورة الرجل الطيب ، لكنها لا تكاد تذهب إلى عمر ، وتقف بين يديه حتى تصيح مبهورة : أنت هو إذن ... ؟!

ويضحك أمير المؤمنين ، ثم يأمر لها بخادم ونفقة .

* * *

لا ريب أن أمير المؤمنين لو خُيِّر بين هذه البساطة الصادقة ، وكل ما في الدنيا من زينة وزخرف ، لَمَا آثر على نعمة التواضع والبساطة شيئاً ..

وإن الرجل الذي عاش حياته متفوقاً ، وكانت أيامه فوق الأرض موكباً مستمراً من الانتصارات والسعادة ـ منذ كان فتى يصارع الفتيان في سوق عُكاظ ، فيظفر بهم وينتصر عليهم ..

إلى أن أسلم . فكان إسلامه فتحاً .. ثم هاجر ، فكانت هجرته نصراً ..

إلى أن صار أميراً للمؤمنين تتهاوى تحت ضرباته أركان العالم القديم كله .. !!

هذا الرجل ، صاحب هذه الحياة الحافلة دوماً ، الظافرة أبداً ... كان أروع انتصاراته وأبهاها وأبقاها ، هذا الورع الذكي الجليل ، الذي أعطى دنيا الناس كافة ، ودنيا الحكام خاصةً ، قدوة لا تَبلَى ، ولا هي يوماً بناصلة ... !!

قدوة تتمثل في عاهلٍ بركت الدنيا على عتبة داره ، مُثقلة بالمغانم والطيبات ، فَسَرَّحَهَا سراحاً جميلاً ، وساقها إلى الناس ، ينثر فيهم طيباتها ، ويَدْرأ عنهم مُضِلاتِها .. حتى إذا نفض يديه من علائق هذا المتاع ، استأنف سيره ومَسراه ، مُهرولاً في فترة الظهيرة وراء بعير من أموال الأمة يخشى عليه الضياع .. أو مُنحنياً فوق قِدر ينضج فيه طعمة طيبة لامرأة غريبة أدركها كَرب المخاض .. أو مستقبلاً فوق الرمال وتحت ظِلِّ النخيل ، وفداً من وفود الدنيا التي تقصد المدينة تباعاً ، باحثة لأممها ودولها عن مكان في العالم الجديد الذي ينسقه "عمر" ويبنيه .. أو صاعداً المنبر يخطب المسلمين ويذكرهم بأيام الله في بردة تزدان بإحدى وعشرين رقعة أو تزيد .. !!!

* * *

وبعد :

أبقي شيء يقال .. ؟

أستغفر الله .. بل هل قلنا شيئاً من الكثير ، الكثير ، الذي يمكن أن يقال . ؟؟

ألا حَسْبنا تلك اللحظات اليانعة الممتلئة التي عشناها معه ...

ولْنقنع قبل أن تنقطع منا الأنفاس ، بتلك الخطى المحبورة التي تابَعْنا بها ـ قليلاً من الوقت ـ رجُلاً يسابق الزمان .. !!

وإذا أردنا أن نُعبِّر عن انبهارنا البالغ أشُدَّه ، فلنوفر على أنفسنا عناء ما لا يُطمع فيه ، ولا يُقدَر عليه ، ولتَسعْنا في هذا الموطن كلمة عبد الله بن مسعود :

ـ لله دَرُّ ابن الخطاب .. أيُّ امرئ كان ... ؟!

■ ■ ■

وَدَاعاً.. عثمان!

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

هذا كتاب عن "عثمان بن عفان" ثالث الخلفاء الراشدين.

كتاب عن "النَّبأ العظيم" ، الذي طال اختلاف الناس فيه ، ولا يزالون مُختلفين .

والنهج الذي نقدِّم به اليوم حديثنا عن "عثمان" رضي الله عنه، هو ذاتُ النهج الذي بدأنا به من قبل حديثنا عن (أبي بكر ، وعمر ، وعليٍّ، ورجال حول الرسول) .

وهو نهجٌ لا يَدَعُنا نَتَلَبَّثُ مع وقائع التاريخ ، إلا بالقدر الذي نُبصر به رُوح التاريخ ..

ولا تشْغَلُنا الأحداث بزحامها عن تَتَبُّع "نَبْض" العظَمة والتفوق في أولئك الرجال..!!

فَروحُ التاريخ ، وجوهر الشخصية ، يُشكّلان في مُحاولتنا المادّة والموضوع ..

وفي صدق تاريخي ، لا تخدعه الأسطورة .

وفي يقين فكري ، لا تُضلِّله الشبْهة ..

وفي طُمأنينة نفسيَّة ، لا يَسْتخِفُّها الانفعال .. نمضي اليوم كما مضينا من قبل في رسم صورة الشخصية من داخل عظمتها الباطِنَة ، ومواقفها الحاسمة . غير مُتكلِّفين موقفاً ، ولا مُتَخَفِّفِينَ من تَبِعَة .

* * *

والحقَّ أقول لكم: إنني حين صَحِبْتُ التاريخ في مراجعه وأمهاتِه ، لكي أدرس من جديد حياة "عثمان" دراسة تمكنني من رسم صورته وحقيقته، لم أكن أحسب أن الله سبحانه سييسِّر مَسعاي وسبيلي على هذا النحو الذي صادفْتُه وصادفني..

فالصورة التي في أذهان الكثيرين منا عن عصر "عثمان" وخلافته تُوحي بأن الطريق إلى ذلك العصر وَعْرٌ وشاقّ .. كما توحي بأن ذلك العصر بتناقضاته ، ومشكلاته ، وفِتَنِه ، إنما يُسْعِف المؤرخ الذي يُسَجِّل الأحداث ولا يزيد ..

لكنه لا يسعف "الرَّسام" الذي يريد أن يرسم لوحة تعكس دلالَتَها الخَيِّرة على عالم القيم والقُدوة ..

ألا ما أكذَبها مِن صُورة.. وما أظْلَمها لرجل، ولعصر، طالما أنِسَت بهما العظمة، وتفجَّر منهما العَطاء..!!

* * *

إن الذين تَتَخَبَّطُهم الشكوك والتساؤلات حول "عثمان وعصره" .

فيسارعون أو يُسارع بعضهم إلى "الخليفة العظيم" بأوزار لم يَحملها ..

إنما ضَنَّتْ عليهم الحقيقة بنفسها، لأنهم ذهبوا يقيسون ذلك العصر بغير مقاييسه، بل بِضدِّ مقاييسه..!!

لقد عَمدوا إلى مجتمع قام منذ ألف وأربعمائة عام، له ظروفه وقِيمه.. ثم زَجُّوا به في مختَبرَات حديثة من المنطق، والعلم، وتفسير التاريخ.. مُختبرات قد تقدر على تفسير بعض أحداث ذلك العصر، لكنها مهما يكن حِذقُها ومهارتُها لا تَملك حقَّ الحكم النهائي عليه، بل لا تستطيع استخلاص حقائقه البعيدة..

لقد كتب على "الخليفة عثمان" أن يحمل مسئولية الحكم في ظروف ليس لها في جميع التاريخ نظير..

وقبل أن أُتَّهم بالمبالغة في هذا التعبير، أُسارع فأقول: إنه حمل تلك المسئولية الجسيمة في فترة من الزمان، كان خِتاماً لـ "عصرٍ نبويّ" بكل ما فيه من وَرَع، وصمود، وإخبات.. وبداية لـ "عَصر إمبراطوريّ"، بكل ما يحمل من مباهج، ومخاطر، ومُغريات..!

صحيح أن الفتوحات الهائلة، كانت قد أرستْ قواعدها في عهد أمير المؤمنين "عمر ابن الخطاب".. وأخذت دولة الإسلام، ذلك الشَّكل السياسي الذي يُسَمَّى بالإمبراطورية، وإن لم يَرَهَا المسلمون كذلك.

بَيْدَ أنَّ "أمير المؤمنين عمر" ألقَى بكل عَزمه وثقله في الكِفَّة اليُمْنَى من الميزان، حتى يظل "عصر النُّبوَّة" قائماً وسائداً، بكل آدابه، وتقاليده، وتَبتُّله، ووَرعه، متوسِّلاً بذلك القَمْع الرُّهباني الذي فَطَم به الأنفس، ومَنعها هواها..!!

ولم يكن من طبائع الأشياء أن يَدوم هذا النُّسُك.

فالفتوحات تزخر بتناقضات يُنادي بعضها بعضاً. ورياح التغيير المحتوم تسوق دولة الإسلام ومجتمعه إلى مطامع جديدة، لا مَفَرَّ من لُقْيَاها بكل ما فيها من صفاء، وكل ما فيه من غُيوم..

وكان اغتيال "الخليفة عمر" إشارة البَدْء بمقدم عصر جديد..

وهو عصر لن يتخلَّى المسلمون فيه عن رايتهم، ولا عن مبادئهم، لكن ستَزْحَمُهم فيه عَلاقاتٌ جديدة، وتقاليد طارئة، ومشكلات وافِدة، ستفرض الكثير من إرادتها على رتابة الحياة، ومنهج الدولة، وتطلُّعات المجتمع.

* * *

وفي هذه الفترة الحرجة، والسنوات الصَّعْبة، دعَت المقادير "عثمان" ليحمل المسئولية الرهيبة.. مسئولية الإبقاء على رُوح "عصر النبوَّة" والتفاعل مع "عصر الإمبراطورية"..

فهل وجد سبيله إلى ذلك..؟؟

نَعم .. ويملء اليقين ، نَعم .. وستحدثنا عن ذلك إن شاء الله حديثاً مُفِيضاً ، صفحات هذا الكتاب ..

سنرى من أيِّ طراز جليل ، كانت شخصية "عثمان" ..

ومن أيْ طراز كانت خلافته ، وكان حكمه .. وما الذي أغرى الأزمات الضارية بأيّامه وعهده . وهل ذهب شهيد فضائله ؟ أو ضحية أخطائه ..؟

سنرى رجلاً آخر من أصحاب "محمد" العظام ، حمل مسئوليته في عزم مجيد ورشيد .. وحين لم يجد ما يحمي به مسئولياته سوى حياته ، جاد بها في سماح منقطع النظير ..!!

* * *

وذات يوم ، وقد ضاقت الدنيا لصمُوده، امْتطَتْ روحه زوْرَق الأبدية ، مُبْحرة إلى ربها الوَدود المجيد ، فوق ثَبَجٍ من دمائه الغالية الزُكية .

* * *

ألا بُورك الجسَد المثْخَن ..
وبُورِكَتْ روحه النَّاجية ..

* * *

ويا شهيدَ فضائلك ، واقْتِناعِك .. سلاماً ، ووداعاً !!

■ ■ ■

أوّلُ المُهاجِرين

في الساعات الأولى التالية لشروق فجر الرسالة كان هناك نَفَرٌ كرام من صَفوة البشر، وضَع القدر عينه عليهم ليصطنع منهم الرَّعيلَ الأول في الموكب الباهر الهادر الطويل الذي سيحمل عَبْر القرون كلمة الدين إلى الدنيا.. والذي سيحمل نور الله وهُداه إلى الخلائق المزدحمة في تِيهٍ ما له أول، ولا آخر، وما له من قَرار..!!

وحين تتقدم المقادير بنفسها لتختار وتصطفي ، فإنها تَدعُ العقول في حَيْرة من طريقتها ونهجها في الاختيار ..!

ففي هذا المقام الذي نحن بصَدَدِه وسبيله ، نجدها تختار السيد المتألق في جبين قومه، المتربع فوق ذُرَى المجد من عشائره، إلى جوار العبد الرقيق الذي يُباع ويُشترَى، ولا يَملك من دنياه وفي دنياه سوى السلاسل والأغلال ..!!

ونجدها تختار الثريَ العريض الثراء.. إلى جوار الفقير المعدم السَّغْبان..!!

وتختار الأَيْدَ، الشديد، القوي، الذي يَصْرَعُ أشداء العرب في مهرجانات "عُكاظ" لتضعه إلى جوار الضعيف المعروق الضَّامر الذي ترجِفُ ساقيه النسماتُ الوادِعات ..!

وتختار الداهية الذي يتفجَّر ذكاء، وحيلة، واقتداراً - إلى جوار الغِرّ الكريم الذي لا تجربة له ولا حِيلَة مَعه ..!

* * *

من الشَّتاتِ المتباين ، ودُونَمَا اعتبار لخصائص معيَّنة ، أو روابط خاصة ، تَقدم القدر نحو الجموع العريضة واختار منها أبطال المسيرة الأولى للدين الجديد الذي أذِنَ الله لرسوله المصطفى "محمد" عليه الصلاة والسلام أن يُعلن نداءه، ويرفع لواءه .

ومن هذا الرَّعيل المتباينة صِفاتُه ، المختلفة طباعه ودرجاته ، سيصوغ الإسلام معجزته الكبرى .

سيجعل من بعض أشراف قريش وسادتها أمثال أبي بكر ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، أنداداً وإخوة لبعض عبيدها ومستضعفيها ، أمثال صُهَيْب ، وبلال ، وعمّار ..!!

سيخلق من التفاوت وحدة.. ومن التباين آصِرةً ورَحِماً .

تُرى، ألم يكن للقدر وهو يختار أبطاله هؤلاء معيار مشترك، يلتقي حوله ويتوحَّد فيه هذا الشتات المتباين من الخصائص، والمنازل والقُدُرات؟

بَلى ، كان ثَمَّة نبراس مشترك لاريب ، وما إدراكه بعزيز !!

فإذا القرآن العظيم يخبرنا أن الله ﴿ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ ، فإنه سبحانه يعلم كذلك كيف يَختار لرسوله ﷺ حَواريِّيه وبطانَتَه .

وإذا كان الرسول ـ أيُّ رسول ـ إنما يختاره الله ليؤكِّد وجودَه وسيرتَه بين الناس تَفَوُّقَ الحقّ، والخير، والفضيلة، وليَهبَ حياته كلها في سماحٍ مطلق لنصرة الحقّ، والخير، والفضيلة ـ فلا بدّ لهذا الرسول من أن يكون بنعمة ربه، وبفضائل نفسه، وبعزائم روحه في مستوى دَوْره ورسالته وقدوته.

وإذا كان الرسول ـ أيُّ رسول ـ لن يعمل وحده، بل لا بدّ له من أنصار يؤمنونَ به ويؤمنونَ معه، فلا بدّ من أن يكون هؤلاء الأنصار في مستوى المهمة الجليلة التي سينهضون بأعبائها.

وسواءٌ عليهم أن يجيئوا من صفوف الأشراف والسادة الأثرياء، أو يجيئوا من صفوف البُسَطاء والعبيد وذوي الخَصاصةِ والإملاق.

إن القدر وهو يختار أبطاله من الجموع المزدحمة، إنما يضع كلتا عينيه على "الشخصية الباطنة" لكل فرد، حيث تكمن حقيقته، وتبدو في غير زخرف، ولا زيف ولا تنكُّر.

وعلى الشخصيات السَّوِيَّة التي يؤهلها طهرها ونبلها واستقامتها للاصطفاء، كان القدر يضع وِسامَه، معلناً بذلك اختيار البطل لدوره.

على هذا المستوى، وبهذا النهج، تقدمت مقادير الإسلام لتختار له الجديرين بحمل دعوته في فَجره الغَضّ، وأيامه الباكِرَة.

ومن هؤلاء المصْطَفَيْن، كان "عثمان".

و"عثمان" رضي الله عنه وأرضاه، رجل نادته الأقدار ودعَتْه من بين صفوف العِلْية والصَفوة، عِلْيَةِ قريشٍ، وصفوة العرب.

ليأخذ مكانه مبكِّراً، بين الأوائل المُبكّرين في موكب الهدى ودين الحقّ.

وحين تَلقّى إشارة القدَر ليتسلم دَوْرَهُ، لم يتردد لحظة.

ومن تحت سُقُفِه المرفوعة، ومن فوق فُرُشِهِ الموضوعة، ومن بين مناعمه ومطاعمه ودنياه الحافلة العريضة، خرج حاملاً أعباء دَورِهِ الجديد، مستقبلاً حياة المتاعب والتضحية والعطاء.

ألاَ إنّ أولَى الألقاب به، وأصدقها في تصوير حقيقته لهو لقب "المهاجر"...

فَمِن عَلْيائه وثرائه، ومن جاهه العريض، ونعمائه الوارفة، خرج إلى دعوة الله ودعوة رسوله.. ومتى..؟ ليس في أيام عافيتها وانتصارها..! بل في ساعاتها الأولى، وهي مقبلة بأتباعها وأنصارها على العسرة والضيق، وعلى كلِ ألوان العسف والاضطهاد.

وإذا كان الاضطهاد والتعذيب، يؤذيان "الرجل العادي" في جَسده، فإنهما يلحقان برجل "الصفوة" فوق أذى الجسد، أذى آخر أشدّ وأوجع. ذلكم هو الأذى الذي يصيب كرامته ومكانته.

و"عثمان" كان واحداً من رجال الصفوة.. لا تسمح مكانته في قومه بأن تنال كرامته بقول أو عمل يؤذيانها أو يَخدشانها.

فما بالُه يأخذ مكانه مع السبعة الأوائل الذين أحاطوا برسول الله ﷺوأخذوا مكانهم إلى جواره ، وهو يعلم ما سيحيق به وبإخوانه من كيد ، وضُرّ، وبلاء ..؟؟

إن "طبيعة" المهاجر ، بل إن "ضمير" المهاجر ، كان يدفع خُطاه ويقود حياته بعيداً عن أمجاد قريش ، ومناعم العيش ، إلى شظف التضحية وشَرفِ البذل ، تحت لواء الهدى والرحمة والنور الذي رفعه بيمينه الباسلة القادرة "محمد رسول الله" صَلّى الله عليه وعلى آله وصحابته .

ونحن نقول: "ضمير المهاجر" ، لأن الهجرة لم تكن بالنسبة لعثمان مُجرّد سفرٍ ، وانتقالٍ من بلد إلى بلد.. بل كانت أبعد من ذلك غوْراً وعُمقاً ..

لقد كانت سفر روحٍ ونفس وحياة ، قبل أن تكون مُجرّد خُطىً فوق الرمال ..

لقد كانت "عُبوراً" لتخُوم الذات وحدود المصير ، قبل أن تكون "عبوراً" لتخُوم جغرافية ، وحدود إقليمية .

لقد كانت "تنازُلاً" كاملاً عن حياة حافلة عريضة ، وادعة ، مريحة .. و"استقبالاً" لحياة أخرى ، لا يبدو من عاجل أمرها على الأقل إلا أنها حياةُ كَدٍّ ، وبذل ، وتضحية وعَناء ..

وإقدامُ رجل في مثل مكانة "عثمان" على هذا النوع من "المقايَضة" لا يمكن أن يكون إلا ثمرة حلوة مجيدة ، لضميرٍ حرّ شريف ، يدفع صاحبه لهذا الطراز من الهجرة العميقة الفاصلة .

ولعلنا نستشرف هذا المعنى كله من الوصف الذي خلعَه الرسول الكريم ﷺعلى صاحبه "عثمان" رضي الله عنه حين نعته بـ [**أول المهاجرين إلى الله بعد نبي الله لوط عليه السلام**] .

أجَل .. لقد خلع الرسول عليه هذا الوصف حين أمره بالهجرة إلى الحبشة ومعه زوجُه "رقيَّة" .

على أننا لن نقف طويلاً أمام هجرته إلى الحبشة في المرة الأولى ، وهجرته إليها في المرة الثانية ، لأن الذي سيشغلنا في "هجرة عثمان" هو "جوهر" الهجرة و"ضميرها" .. وليس "شكلها" ولا "جغرافيتها" .

إنني كما قلت من قبل في كتاب "رجال حول الرسول" لا تشغلنا الوقائع والأحداث إلا بقدر ما نَستَشِفُّ روحَها الحيَّ ، وجوهرها الكامن .. وإلا بقدر ما نُبصر "العظمة الإنسانية" من خلال الوقائع والأحداث .

و"عثمان" المهاجر .. المهاجر بقلبه ، وبروحه ، وبضميره ، هو موضوع حديثنا في هذا الفصل الأول من الكتاب .. مُهتدين إلى تَلمُّس عظمة الهجرة فيه بِمَسْلكِه من اللحظة التي استقبل فيها الإسلام جذلانَ صادقاً ، إلى اللحظة التي لقي ربَّهُ صابراً مُحْتَسِباً .

أجَل .. إلى آخر لحظات عمره ، سنظل نرى "عظمة المهاجر" في حياة "عثمان" .

وقد يبدو في هذه العبارة شيء من المبالغة عند الذين يقرءون حياة "عثمان" من آخرها .. ويظنون ـ مخطئين ـ أن ذلك القِسْم الأخير من حياته ، قد أصاب سابقته بالأذى والتشويه ..!!

أولئك قوم يبخسون الفضيلة قدرها حين يظنون أن الخطأ أقوى منها ..!!

لا .. إن الفضيلة أقوى من الخطأ ، والإيمان أقوى من الزَّلَل . وإن الخطأ ـ مهما يكن شأنه ـ لا يستطيع أن يقهر عظمة الفضيلة ، ولا أن يطفئ نورها ، ويردَّ روحها تُراباً في تُراب .

ولسوف نلتقي في السنوات الأخيرة لخلافة عثمان رضي الله عنه ببعض التصرفات التي كشفت نتائجها عن حاجاتها إلى مزيد من الصواب ، ولكن هل كانت هذه الأخطاء وليدة تنكُّر "عثمان" لمبادئه التي قام عليها إيمانه واقتناعه وفضائله ..؟ أعني هل كانت تحدّياً لله ، ولرسوله ، ولدينه ..؟

إن ألَدَّ خصوم "عثمان" لم يستطع أن يُقنع نفسه بهذا الاتهام .

إذن ، ماذا كانت ..؟

كانت ثمرة اجتهاد من الخليفة لم تُواتِه الحظوظ الوافية من رؤية الصواب .

وكانت ثمرة ظروف عارمة غَطت الدولة الجديدة المتَّسعة ، وفرضت عليها طُرُزاً جديدة من العلاقات والمشاكل ، ومن العِلَل والنتائج ..!!

وإلى أن يجيء أوان مواجهة هذه الساعات الحرجة في تاريخ الخليفة والإسلام ، دعونا نَعُدْ إلى موضوعنا الماثل حول "عثمان" المهاجر .. بل "عثمان" أول المهاجرين ..

* * *

إن هجرته إلى الله طوال سِني حياته ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإسلامه .

والهجرة والإسلام ، يرتبطان كلاهما بشخصيته الباطنة وتركيبه النفسي .

وفي شخصيته الباطنة هذه نلتقي بِخُلُقَيْن يفوقان بقية فضائله وأخلاقه في السيطرة على نفسه والأخذ بزمامه .. هذان الخُلقان هما : السماحة ، والحياء .

ووراء كل المآثر التي تُحسبُ له .. وجميع الأخطاء التي تحسب عليه .. نجد هذين الخُلقين يحملان مسئولية المآثر والأخطاء ..

ولنبدأ بإسلامه ..

لقد جاء إسلامه سماحة وحياءً .. لا حياء من أصدقاء مقربين ، بل حياء من الله الذي كان يرى آيات وجوده في وجدانه وتهز مشاعره .. وحياء من رسوله ﷺ الذي كانت آيات صدقه تملأ الأنفس الصافية تقبُّلاً ويقيناً .

ورجل مثل "عثمان" يقود "الحياء" كل تفكيره وكل تصرفاته ، لا يستطيع أبداً أن يهرب من اقتناعه .

إنه ليخجل أمام نفسه خجلاً مُزلزلاً ، إنْ هو زَيَّفَ اقتناعه أو تنازل عنه .

هكذا نراه ساعة إسلامه .. وهكذا سنراه عندما يحاصره الثوار يطلبون رأسه وحياته وهو قادر على صَرْفهم وفَلّ بأسِهم بوسيلة من وسائل شتّى كان يملكها جميعاً . ولكنه وهو ابن الثمانين يرفض النجاة بوسيلة لم يكن لها في دائرة اقتناعه مكان .. !!

* * *

ساعة إسلامه ، كانت السماحة ، وكان الحياء يقودان خُطاه الوديعة الواثقة إلى رسول الله في صحبة "أبي بكر" رضي الله عنه ، حيث وضع يمينه في يمين الرسول ﷺ ، وضمَّخها ببيعة صادقة ومؤمنة ..

وكان إسلامه وديعاً غَضًّا ، كأنفاس الزهر في فَجر الربيع !!

فلم يكد "الصدِّيق أبو بكر" يهمس في أذنه بنبأ الدعوة الجديدة التي يبلغها "الرسول" عن ربه حتى انفتح قلب الرجل السمح الحَيِيّ عن آخره .

لم يطلب مهلة للتفكير والرَّوية ، فقد كان وجدانه المستقيم يدرك عبث الحياة الدينية التي يحياها قومه .. كما كان يعرف المستوى الرفيع الجليل الذي بلغه "محمد" في صدق نفسه ، وصدق حديثه ، وصدق رُؤاه .

كان "محمد" ﷺ حتى قبل أن يكون رسولاً يملأ الأفئدة الذكية الصافية روعة وتأثيراً .. وكان لعثمان فؤاد من هذا الطراز ، يحمل لـ "محمد" أروع الصور وأبهاها . حتى لقد انعكس هذا الإعجاب ، بل هذا الإيمان بـ "محمد" في رؤيا رآها "عثمان" ذات يوم وهو قادم من الشام .. حين جلس يَقِيل في مكان ظليل من "مُعان والزرقاء" ، وغلبه النوم هو ورفاقه ، فإذا به يسمع في حلمه منادياً ينادي النائمين أن هُبُّوا أيْقاظاً ، فإن "أحمد" قد خرج بمكة .. !!

كان وجدانه إذن مُهَيَّأً لانتظار المنقِذ ، ولم يكن بمكة كلها من تمنحه فضائله هذه المكانة بحقّ مثل "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب" ..

أفينكُص عثمان على عقبيه ، وقد جاءته البشرى بظهور المنقذ والنبيّ .

وأين يذهب إذن من حيائه .. ؟؟

أفيستسلم عثمان للتردد ويطلب من نفسه لنفسه مهلة للتفكير والتشاوُر ؟ وأين يذهب إذن من سماحته .. ؟!

إن الحياء ليذوده عن التردد ..

وإن السماحة لتزوده عن الإرجاء ..

والحياء والسماحة عنده وفيه ، لم يكونا مجرَّد خُلُقَيْن ، وفضيلتين ، بل كانا "طاقة هائلة" تسيطر على شخصيته كلها ، وتأخذ ببقية فضائله إلى طريقها ..

لقد بلغ بسماحته مستوى قياسيًا ، لم ينهض إليه سواه . حتى هتف الرسول ﷺ يوماً أمام مشهد من مشاهد هذه السماحة الباهرة قائلا :

«ما ضَرَّ عثمان ما صنع بعد اليوم . اللهم ارْضَ عن عثمان ، فإني عنه راضٍ » !!

وإلى مثل هذا المستوى بلغ حياؤه ، حتى زكاه الرسول قائلاً :

« أصْدَقُ أمَّتي حياءً ، عثمان » !!

بل إن ثمَّة واقِعة تُرينا أكثر من سواها ، كيف كان حياء "عثمان" عظيماً ، والواقعة ترويها لنا أم المؤمنين "عائشة" رضي الله عنها ، فتخبرنا أن "أبا بكر" استأذن يوماً على رسول الله ﷺ ، وكان الرسول مضطجعاً وقد انحسر جلبابه عن إحدى ساقيه ، فأذن لأبي بكر فدخل ، وأجرى مع الرسول حديثاً ثم انصرف .

وبعد قليل جاء عمر فاستأذن له ، ومكث مع الرسول ﷺ بعض الوقت ثم مضى .

وصادف أن جاء بعدهما عثمان ، فاستأذن .. وَإِذا الرسول يتهيأ لمقدمه ، فيجلس بعد أن كان مضطجعاً ، ويُسْبل جلبابه فوق ساقه المكشوفة ، ويقضي عثمان معه بعض الوقت ثم ينصرف .

وبُعَيْد انصرافه ـ تسأل عائشة الرسول عليه الصلاة والسلام قائلة : « يا رسول الله ، لم أرَكَ تهيأت لأبي بكر ولا لعمر كما تهيأت لعثمان » .. ؟

فيجيبها الرسول ﷺ :

« إن عثمان رجل حَيِيٌّ ، ولو أذِنْتُ له وأنا مضطجع لاستحيا أن يدخل ، ولرجَع دونَ أن أقضي له الحاجة التي جاء من أجلها .

يا عائشة : ألا أَستَحِي من رجل تستحي منه الملائكة » .. ؟!

إن هذه العبارة وحدها "رجل تستحي منه الملائكة" تصوِّر لنا كل أبعاد هذا الحياء الذي كان أصيلاً ممعناً في الأصالة ، والذي كان دائماً ، مُمْعِنًا في الديمُومة .

لم يَغِبْ عن حياة صاحبه لحظة من ليل أو مِن نهار . فلا يُرى "عثمان" إلا وحياؤه معه . ودائماً كان الرسول عليه السلام يشيد بهذا الحياء ، كأنما يرفعه قدوة ونبراساً .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« أرحَمُ أمتي أبو بكر .. » .

« وأشدُّها في دين الله عمر .. » .

« وأشدُّها حياءً عثمان .. » .

سماحته إذن وحياؤه ، حملاه كما قلنا في سهولة ويُسر ، وفي غبطة ويقين ، إلى مجلس رسول الله ﷺ حيث بايعه على الدين الحقّ ، وعلى كل ما يفرضه الدين من تَبعات وواجبات .

ولقد كانت "الهجرة" أول واجب يفرضه هذا الدين .. ولا نعني الهجرة بمعناها الجغرافي إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة .. بل نعني الهجرة بمعناها الروحي .. معناها العميم والعميق .. الهجرة من حياة ، إلى حياة .. ومن وُجود ، إلى وجود ، .. الهجرة التي تعني التنازلَ عن القديم بكل مقدساته وأمجاده .. ، والسفر إلى الله بزادٍ جديد .. !!

فَلْيحمل المهاجر إذن إيمانه ، وليمضِ على بركة الله .

* * *

قلنا إن إسلام "عثمان" كان مبكراً ، فهو أحد الخمسة ، أو السبعة الأوائل الذين سبَقُوا إلى الإسلام . وكان الرسول ﷺ يومئذٍ يدعو إلى الله في إسرار وخُفيَة . وحتى "دار الأرقم" التي كان يلتقي فيها بأصحابه مُستَخفِينَ من قريش لم تكن قد وُجِدتْ بعد ، وهكذا نزل "عثمان" إلى ميدان الدعوة بكل مخاطرها في وقت تَندُر فيه النصرة ، ويعزُّ النصير .

وهذا أول منازل هجرته .

لقد ترك حياته المستقرة الممتلئة الآمنة ، إلى فراغ مجهول تتهدَّده المحاذر والأخطار .. !!

ولقد وضع خُطاه على دَرب غير مطروق ، تاركاً النَديَّ الذي كان يموج بالصُحبة المؤنسة والحياة المرحة الحافلة .. !!

ولا يطول به الوقت ، حتى تكون قريش قد شحذت أنيابها ، وراحت أحقادها تتلمَّظ بهذه العشيرة المؤمنة التي يقودها رسولها ﷺ في طريق الهدى والنور .

ويتلقى "عثمان بن عفان" رضي الله عنه من تلك الأحقاد الضارية ما يُضاهي مكانته السالفة في قومه ، ويتولى أمر تعذيبه عمه ـ الحكَمُ بن أبي العاص ـ فيوثقه بالحبال والسلاسل ، ويصرخ في وجهه :

« أترغب من مِلّة آبائك إلى دين مُحْدَث .. ؟؟ والله لا أحلُّ وثاقك أبداً حتى تدعَ ما أنت عليه من هذا الدين » .

ويجيبه "عثمان" في إصرار "المهاجر" الذي عرف طريق الله ، وثبَّت فوق مشارفه خُطاه :

« والله ، لا أدع دين الله أبداً ، ولا أفارقه» .. !!

ويُوالي عمُّه تعذيبه ..

ويُوالي "عثمان" إصراره ..

وتحاصره قريش كلها بازدراء مصطنع ، آمِلَةً أن تُذل كبرياءه ، وتهز كرامته .. لكن المهاجر إلى الله كان قد نبذَ وراءه عالَمهم كله بما فيه من غرور وباطل .. والكرامة التي تستمد زهْوَها من الضلال لم تعد هي الكرامة التي يحملها الآن بعد أن آمن واهْتدَى .

إن الكرامة التي منحه الإيمان إياها كرامةٌ أخرى لا تستطيع قريش ، بل لا يستطيع العالم كله أن ينال منها منالاً .

إنها كرامةٌ لا ينال منها سوى النكوص عن الدين الحقّ ، أو التفريط فيه ، أو الهروب من مسئولياته الثقال .

وهكذا صمد "عثمان" للأذى .

ونَمَتْ أعداد المسلمين الذين دخلوا في دين الله ، وتضرمت نيران قريش ، وأوغَلَت في تعذيبها واضطهادها .

ورأى الرسول الرحيم ألاَّ قِبَلَ لأكثر أصحابه بهذا الأذى ، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، إذ كان على رأسها يومئذ ملك عادل ، يُنشَد الأمْن في رحابه ، والعافية في جواره ..

وكان "عثمان" أول مهاجر إليها ، ومعه زوجته "رقَيَّة" بنت رسول الله ﷺ ، وكان

الرسول قد زوَّجها له بعد إسلامه .

ووقف الرسول ﷺ يودعهما بنظراته الحانية وقلبه الودود ، ويقول :

« إنهما لأَوَّلُ من هاجر إلى الله ، بعد نبي الله لوط » .

* * *

كانت الهجرة تصهر شمائل عثمان وتزيدها فاعلِيَّة وألقاً .

وكان إدراكه لمغزاها الحقّ ، باعتبارها هجرة روح ، قبل أن تكون هجرة مكان .. كان هذا الإدراك يجعل إيمانه في حالة صَحْو دائم وتَلْبية سريعة .

وإنه ليعود إلي مكة .. ثم يهاجر إلى المدينة .. وفي كل زمان ومكان يحتويه ، تزداد روحه المؤمنة تعلقاً بالهجرة في أعمق مضامينها وأسمى مفاهيمها .

كانت كلمات الرسول ﷺ التي وصفَتْه بأنه "أول مهاجر إلى الله" تهزُّ أشواقه إلى الله ، وتشحذ تصميمه على أن يحيا دائماً في مستوى هذا الوصف وهذا التكريم .

ولقد نجح ، وظفر تصميمه بانتصار عظيم .

عندما حاصره الثوار وهو خليفة ، يريدون عزله أو اغتياله ، تقدم إليه المغيرة بن شعبة بهذا الرأي وهذه المشورة :

يا أمير المؤمنين ، لقد نزل بك ما ترى ، وإني أُشيرُ عليك بثلاث ، اخترْ إحداهُن :

"إما أن تخرج فتقاتلهم ، فإن معك قوة وعَدداً ، وأنت على الحقّ وهم على الباطل ..

"وإما أن تفتح لك من خلف الدار باباً تخرج منه في غفلة منهم حيث تحملك رواحلك إلى مكة ، فإنهم لن يستحلوا دمك وأنت بها ..

« وإما أن تلحق بالشام : فإن بها معاوية .. » .

ويجيب الخليفة العظيم بكلمات لا نلمح فيها دهاءً ولا مُناورة ، ولا حرصاً على الحياة ..

إنما نلمح فيها "ضمير المهاجر" وخُلقه وتصميمه .

قال رضي الله عنه مجيباً صاحبه :

« أمَّا أن أخرج فأقاتلهم، فوالله لَن أكون أول من يخلُفُ رسول الله في أُمّتِهِ بسَفْك الدماء .. »

« وإما خروجي إلى مكة ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول يوماً : يُلْحَدُ رجل من قريش بمكة ، يكون عليه نصف عذاب العالم .. ولن أكون هذا الرجل .. »

« وإما خروجي إلى الشام لأن فيها معاوية ، فلا والله .. ولن أُفارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله ما حييت .. » .

أيُّ روعة ؟؟ وأيُّ جلال .. ؟؟

رجل يحيط به ثوار مسلحون يريدون رأسه ، وأمامَهُ فُرص النجاة والخلاص ، ثم يرفضها جميعاً لأنها ستنال من كرامة هجرته وثوابها .. ؟؟!!

وفي أيِّ سنٍّ كان ، وهو يحمل هذا الولاء الفتِيَّ الشاب للهجرة ولحقّها عليه .. ؟؟ في سِنِّ الثمانين .. !!

إنه يرفض أيَّ نقضٍ شكلي أو موضوعي للهجرة .

ومغادرته المدينة التي عاش ومات بها رسوله الحبيب ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر، نَقْضٌ للهجرة يرفضه ويأباه ، حتى ولو كان ثمن الرفض حياته .. كما أن خَوْضَ معركة مسلحة ضد الثوار الذين هم برغم تمردهم الرجيم مسلمون ومُنتمون إلى دينه وعقيدته ، نقضٌ آخر للهجرة . يرفضه كذلك ويأباه ، ولو كان ثمن الرفض حياته ..

ولمن شاء أن يختلف معه في الرأي .. ولكن علينا أولاً أن يكون لدينا تصوُّر كافٍ لِما كانت تعنيه كلمة "مهاجر" بالنسبة لعثمان .. !!

إنها تعني ما صنَعه تماماً .. شيء أثمن من الأمن ، وأغلى من الحياة !!

لقد نفذ بصدق ضميره وبإخلاص قلبه إلى جوهر الإسلام فعرفه معرفة اليقين .

عرف أن الإسلام في جوهره هجرة كاملة إلى الله .

ولا ينبغي أن يكون للجاه ، ولا للمال ، ولا للحياة نفسها سلطان - أيُّ سلطان - على ضمير المهاجر وروحه الغلاب .

ولقد تنازل "عثمان" لإسلامه ولهجرته عن جاهه ، وعن ماله ، وأخيراً عن حياته ، في سماح منقطع النظير ..

ولو رأيناه وهو يعطي أمواله بغير حساب للدعوة التي آمن بها وحمل مع المؤمنين لواءها ، لرأينا رجلاً من طراز فريد .

لقد كان يبدو بعطائه وبسخائه ، وكأنه المُمَوِّل الوحيد للأمة الناشئة الجديدة .

ولو أردنا أن نتعرف إلى مسلم هاجر من دنياه ومن أمواله وثرائه إلى البذل العريض ، والعطاء المفيض ، لعزَّ علينا أن نجد لعثمان في هذا المجال نظيراً .

* * *

* عندما هاجر الرسول عليه السلام وأصحابه إلى المدينة لم يكادوا يستقرون بها حتى فاجأتهم مشكلة المياه ، وكان بها عَيْن تفيض بماء عذْب طيب المذاق .. وتُدْعَى "بئر رومة" ويملكها يهودي يبيع ملء القربة بمُدّ ..

وتمنَّى رسول الله ﷺ لو يجد من بين أصحابه من يشتريها حتى تفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن ..

وسارع "عثمان" رضي الله عنه إلى تحقيق رغبة الرسول ﷺ ، فعرض على اليهودي صاحب البئر أن يبيعها له ، فأبى .. فساومه "عثمان" على نصفها . واشترى النِّصف باثني عشر ألف درهم .. على أن تكون لليهودي يوماً ولعثمان يوماً .. فكان المسلمون يستسقون في يوم عثمان ما يكفيهم يومين .. !! وهكذا وجد اليهودي نفسه ، وقد خسر سُوقه التي كانت رائجة ، فعاد يعرض على "عثمان" أن يشتري منه النصف الثاني ، فاشتراه .. وفاضت البئر بمائها العذب تروي أهل المدينة بغير ثمن وبغير حساب .. !!

* وعندما كثر الداخلون في دين الله بالمدينة ، وصار المسجد يضيق بهم ، تمنَّى رسول الله ﷺ لو يجد من بين أصحابه من يشتري الرقعة المجاورة له كي تُضَمَّ إلى المسجد ، ويزداد بها رحابةً واتساعاً . ومرة أخرى ، لو يكن هناك غير "عثمان" ، تلقَّف رغبة الرسول في حبور

وغبطة ، وذهب إلى أصحاب ذلك المكان ، واشتراه منهم بثمن باهظ ، قدَّره الرواة بخمسة وعشرين ألفاً ..

* وعندما فتح الله مكة لنبيِّه وعاد إليها ظافراً كريماً .. رأى أن يُوسِّع المسجد الحرام ، فعرض على أصحاب بيت ملاصق للمسجد أن يتبرعوا لغرض تَوْسِعَتِهِ ، فاعتذروا بأنهم لا يملكون غيره ، وليس لهم مال يشترون به سواه .

ومرة ثالثة ـ كان هناك "عثمان" ، لم يكد يبلغ النبأ مسامعه حتى سارع إلى أصحاب الدار الواسعة العريضة واشتراها منهم بعشرة آلاف دينار ..

* وفي العام التاسع الهجري ولَّى "هرقل" الإمبراطور الروماني وجهه المتآمر صوب الجزيرة العربية ، مُتلمِّظاً برغبة شديدة في العدوان عليها والْتِهامها .

لقد كان الدين الجديد برسوله العظيم ، ورجاله الشجعان البواسل قد مَلَئُوا حياته وحياة "بيزنطة" كلها قَلقاً وخَوْفاً .

وكان الإمبراطور يومئذٍ مُنْتَشِياً بنصره على فارس ، ومن ثمَّ قرَّر أن يسير بجيشه إلى هذه الأمة الجديدة في بلادها وديارها .

وفعلاً أمر قواته بالاستعداد وانتظار أمره بالزحف .

وترامت الأنباء إلى رسول الله ﷺ ، فنادى في أصحابه بالتهيؤ للجهاد .

كان الصيف حَاراً يصهر الجبال ، وكانت البلاد تعانى الجَدْب والعُسرة . فإذا قاوم المسلمون بإيمانهم وطأة الحرّ القاتل وخرجوا إلى الجهاد فوق الصحراء الملتهبة المتأججة ، فمن أين لهم العتاد والنفقات المُبْهِظَة التي يتطلبها القتال .. ؟!

لقد حَضَّ الرسول أصحابه على التَبرُّع ، فأعطى كُلُّ قَدْرَ وُسْعِهِ ، وسارعت النساء بالحلي يقدِّمنه إلى رسول الله ﷺ ليستعين به في إعداد الحملة .. بيد أن التبرعات جميعها لم تكن لتُغني كثيراً أمام المتطلبات الهائلة للجيش الكبير . هذا الجيش الذي نُعِت يومئذٍ بـ "جيش العسرة" .

ونظر الرسول ﷺ إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين تَهَيَّئُوا للقتال وقال :

«من يُجَهِّز هؤلاء ، وَيَغْفِرُ الله له » .. ؟؟

وما كاد "عثمان" يسمع نداء الرسول هذا ، حتى سارَعَ إلى مغفرةٍ من الله ورضوانٍ .

وهكذا وجدت العُسْرة الضاغطة "عُثمانَها" المِعطاء !!

وقَام رضي الله عنه بتجهيز الجيش كله ، حتى لم يتركه بحاجة إلى خِطام أو عقال .. !!

يقول ابن شهاب الزهري :

« قدم عثمان لجيش العُسْرة في غزوة تَبوك تسعمائة وأربعين بعيراً ، وستين فرساً ، أتمَّ بها الألف » !!

ويقول حذيفة :

« جاء عثمان إلى رسول الله في جيش العُسرة بعشرة آلاف دينار صبَّها بين يديه ، فجعل الرسول ﷺ يُقلبها بيده ويقول : غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أَعْلَنْتَ ، وما هو كائن إلى يوم القيامة » .

ويقول عبد الرحمن بن عوف :

« شهدتُ رسول الله ﷺ وقد جاءه عثمان بن عفان في جيش العُسرة بسبعمائة أوقية من الذهب » .

ألم أقلْ لكم : إنه كان يبدو وكأنه المموِّل الوحيد للأمة الجديدة ، والدين الجديد .. ؟

تُرى هل كان "عثمان" قادراً على كل هذا البذل الطَّوْعِيِّ لو لم يكن قد هاجر إلى الله سبحانه هجرة صادقة ، أنْسَتْه كل شيء إلا الله ورسوله والدار الآخرة .. ؟!

* * *

ومضى الرسول ﷺ على رأس جيشه المسلم حتى وصلوا موطناً يُدْعَى "تَبُوك" في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق .

وهناك جاءته الأخبار مُبشرة بأن الإمبراطور الذي كان يعد العُدَّة للزحف من دمشق، قد ثَلَم الله عزْمَه، وغادر دمشق نافضاً يديه من محاولته اليائسة بعد أن علم بخروج النبي ﷺ وأصحابه إليه .

وحَمِدَ الرسول ربه أن كفى المؤمنين القتال ، ورجع الجيش بكل عتاده الذي أمدَّه به "عثمان" .

فهل استرجع من ذلك شيئاً ..؟؟ هل استردَّ منها قرشاً ، أو بعيراً ، أو خِطاماً ..؟؟

كلّا .. وحاشاه أن يفعل .. ولقد ظلَّ كما كان دوماً سريع التلبية لكل إيماءة من الرسول تعني جديداً من البَذل ، ومزيداً من العطاء .

* * *

هذه لمحة من ضياء تكشف لنا حقيقة الهجرة التي هاجرها "عثمان" .

الهجرة التي جعلته يخرج من ماله ، ومن جاهه ، ومن دنياه العريضة كلها ، ويسافر إلى الله في حياء رجلٍ يهرب من الأضواء .. ويقطع أيامه بين أصحابه ، وفي مجتمعه مُتلفعاً بهدوء عجيب ، معطياً ظهره لصخب الشهرة ، وإغراء الظهور .

كانت العبادة أُنْسَ رُوحه .. وكان القرآن مذ أسلم مَهْوَى فؤاده ، وصديق عمره .

أفما آن لنا أن نرى من عبادته ونُسكه مشهداً يزيدنا معرفة ببهاء روحه ، وعظمة يقينه ... ؟

بلى ـ آن ... !

■ ■ ■

الأوّابُ الرّحيمُ

زوَّجه الرسول ﷺ ابنته "رُقيَّة" .. ولمّا توفّاها الله إليه ، زَوَّجَهُ ابنته "أم كلثوم" .. ولما انتقلت إلى الرفيق الأعلى ، أسِفَ الرسول إذْ لم يكن له كريمة أخرى يزوِّجها صهره الحبيب ، وقال قولته المأثورة :

« لو أنَّ لنا ثالثة لزوَّجناك إياها » .

بل إن الحديث لَيُرْوَى بصيغة أخرى تقول :

« لو أن لي أربعين بنتاً لَزَوَّجْتُهُنَّ عثمان واحدة بعد واحدة » !!

فما المزايا وما الشَّمائل التي أهّلت "عثمان" لكل هذا الحدَب وهذا الإيثار من رسول الله العظيم ﷺ ؟؟ .

إنها شمائل كُثُر ، تعبِق بالخير ، وبالمروءة .. ويفوح منها عبير الرحمة حيث نلقاها أو حيث نَلقاه ..

والرسول الذي مَنَّ الله به على عباده قائلاً :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

هذا الرسول الرءوف الرحيم ، لم يكن يَستهويه من بين شمائل البشر شيء مثلما تستهويه الرحمة ، ومثلما يستهويه التَبَتُّل الصادق إلى الله والإخبات الوثيق إليه ..

ولقد كان حظ "عثمان" من الإخبات والرحمة عظيماً وجزيلاً :

إنه أوّابٌ رحيم .

صوّام النهار ، قوّام الليل .. يتفجّر قلبة رحمة وحناناً .

أوَمِن أجل هذا قال الرسولُ ﷺ يوماً :

« لكل نبي في الجنة رفيق »

« ورفيقي في الجنة عثمان » .. ؟؟

لقد كان في العبادة واحداً من أفذاذها المعدودين ، وبطلاً من أبطالها المبرّزين .

وصف معاصروه هُيامه بالعبادة فقالوا :

« كان عثمان يصوم الدهر ، ويقوم الليل إلا هَجْعَة من أوّله » .

وإنّا لنعلم ما كان وراء "عثمان" وما كان بين يديه من نعماء جَمَّة الغَدَق ، وارفة الظلال .

فعندما يقضي الدهرَ صوّاماً ، رجلٌ مثل "عثمان" تعجُّ داره بأطايب الطعام ..

وعندما يقضي الليلَ قوّاماً رجل تُغْرِيه الفُرشُ الناعمة الوثيرة بالدَّعَة والراحة فلابدَّ لهذا الرجل من أن يكون من طراز آخر ، بلَغت كلمات الله من روحه أعماقها . ورنا قلبه إلى الله رُنُوًّا أنساه كل شيء عَداه .

ثم حين نراه يُثابر على عبادته طوال عمر مديد بلغ الثمانين من الأعوام ، فإن صورة العابد الأوَّاب تستكمل أمامنا قَسَماتها الباهرة الجليلة ، وتفتح أعيننا وبصائرنا على حقائق هذا العابد الأوَّاب بكل ما لها وكل ما عليها .

لقد كان في عبادته وفي طُهره موصول القلب بالله ، كما كان عظيم الوفاء .. ذلك أن حياته ـ حتى قبل الإسلام ـ كانت حياة نَقيَّة ، وكان دائم التحدث بنعمة الله هذه عليه فيقول :

« ما زنيت ولا سرقت في جاهلية ولا في إسلام » .

وكانت صِلَةُ قلبه بالله بعد إسلامه ، تنهض على وَعْي رشيد بجوهر هذه الصلة وهذه العلاقة .

وإذا كان القرآن كلمةَ الله التي رسم بها لعباده كيف يَحْيَوْنَ وكيف يعبدون ، فقد تعلَّق قلبه بالقرآن تعلُّق الوَالِه الهيْمان ، فكان ربما استغرق الليل كله على طوله في ركعتين اثنتين ، يظلُّ يقرأ فيهما من القرآن حتى تروى روح الظامئة المشتاقة ، وحتى يوشك أن يبلغ آخره وخِتامَه !!

ولسوف نراه بعد حين ، وقد اقتحم الثوار داره تدفعهم الفتنة الجامحة الجاحدة العمياء لقتله واغتياله ، فلا يعنيه من الأمر كله إلا أن تُستَلَّ الحياة من جَسده الوهْنان ، وبين يديه مصحف .. وعلى لسانه وشفتيه كلمات الله .. !!

ولم يقف هُيامه بالقرآن عند حد التِّلاوة ، وترطيب لسانه وفؤاده بآياته المباركات ، بل كان التعبُّد به والتعبُّدُ له جوهر هذا الهُيام .

في بَدْءِ الفتنة التي نَشِبَت ضده ، جلس قوم يحاورونه ويطيلون الحِوار ، فكان جوابه لهم :

« إن وجدتم في كتاب الله أن تَضعوا رِجلَيَّ في قيودٍ فضعوهما » !!

فكتاب الله عنده هو الحجة البالغةُ ، وهو فصل الخِطاب ..

أجَلْ ..

كان القرآن قِبلَتَه وقُدوَتَه ، ومن ثَمَّ أدركتْ عبادته صفاءها وجلالَها .. ولطالما كانت تهزُّه هذه الآية فيكثر ترادها :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ .

إن الرجل الثريَّ العريض الثَّراء ، قد وَجد تِرْياقه من إغراء المال ، ووجد تعويذته الوُثْقى من فتنته الضَّارية في هذه الآية الكريمة . التي تفضح زيف الدنيا ، وتكشفها للمفتونين بها ، حتى يبصروها على حقيقتها "هشيماً تذروه الرياح » ! .

وهكذا وجدنا جوده العظيم ، جُودَ رجل لم يعد المال في نظره سوى هَشيم ، إلا أن ينفقه في سبيل الله فيتحول بهذه النفقة إلى خُلود حَقّ ، وثواب باقٍ عظيم .

* من أجل هذا رأيناه ، كما أسلَفْنا ، يشتري "بئر رومة" وَحده .. ويُجهِّز جيش العُسْرة بنفقات بالغة ، تنوءُ بها الخزائن الممتلئة .

* ثم نراه يُمضي مع نفسه مَوْثقاً لا يُخْلِفُه طوال حياته : هو أن يعتق كل جمعة عبداً ويُحرِّر رقَبة ... يشتري العبد من سيده بأيِّ ثمن ، ثم يهبه حريته مبتغياً وجه ربه الأعلى .

* ولا يكاد يبصر التجارَ يهمون باحتكار الأرزاق ، أو بيعها بثمن باهظ ، حتى يرسل قوافله لتعود محمَلة بما يفسد عليهم احتكارهم الأرزاق ، أو بيعها بثمن باهظ ، حتى يرسل قوافله لتعود محمَلة بما يفسد عليهم احتكارهم ويصيب استغلالهم بخيبة أمل قاتلة ..

* وإذا جاءت رواحلُه من اليمن أو من الشام محمَلة بالخيرات ، وتواكَبَ حولهُ تجار المدينة وما حولها ، دخل معهم في مُساومات شيِّقة .. ما أجمل أن نطالع الآن إحداها ، يرويها لنا ويحدثنا بها "ابن عباس" رضي الله عنه فيقول :

« قَحِط الناس في زمان أبي بكر ، فقال الخليفة لهم : إن شاء الله لا تُمسون غداً ، حتى يأتيكم فرج الله .

فلمَّا كان صباح الغد قدمت قافلة لعثمان ،

فغدا عليه التجار ، فخرج إليهم وعليه مُلاءة قد خالَف بين طرفيها على عاتِقه .

وسألوه أن يبيعهم قافلته .

فسألهم : كم تُربحونني .. ؟

قالوا : العشرة اثني عشر .

قال : قد زادني ..

قالوا : فالعشرة خمسة عشرة ..

قال : قد زادني .

قالوا : من الذي زادك ، ونحن تجار المدينة .. ؟؟

قال : إنه الله . زادني بكل درهم عشراً ، فهل لديكم أنتم مَزيد .. ؟ فانصرف التُّجار عنه ، وهو ينادي : اللهم إني وهبتُها فقراء المدينة بلا ثمن ، وبلا حساب » .

* * *

هكذا كان ولاؤه للقرآن ، ومنهجه في العبادة ..

إنها عبادة تعني مع قيام الليل وصيام النهار ، البذلَ السَّخِيَّ والعَطاء المدْرار .

وتتألق روح العابد الأوَّاب في قدرته على الزهد والبساطة ، فكثيراً ما كان يطبقهما على حياته ، هو الذي تتدفَّق عليه الأموال ، وينفقها باليمين وبالشمال !!

فيحدثنا "شَرَحْبِيل بن مسلم" قائلاً :

« كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة .. ويأكل هو الخل والزيت » !!

كما يحدثنا "عبد الله بن شدَّاد" فيقول :

« رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة وعليه ثوب قيمته أربعة دراهم ، أو خمسة دراهم ..

وإنه يومئذٍ لأمير المؤمنين » !!

هذا سلوك عابد أوّاب ، أضْوَى شهوة الطعام لديه حتى "بشِمَتْ" بالصيام !!

وأذلّ نخوة الجاهلية في عروقه ، حتى عَزّتْ نفسه بروعة الإسلام !!

ومن أيّ النواحي جئته ، ألْفَيْتَ جلال العابد يبهر مُحَيّاك .

* يغضب على خادم له يوماً فيعرك أذنه حتى يوجعه .. ثم سرعان ما يَقُضُّ ضمير العابد مَضجعه ، فيدعو خادمه ويأمره أن يقتصّ منه فيعرك أذنه .. ويأبى الخادم ويُولي مُدْبراً . لكن "عثمان" يأمره في حزم ، فيطيع ..

« اُشْدُدْ يا غلام ، فإن قِصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة » !!

إنه العابد الأوّاب ، نَلقاه هنا كما نلقاه في كلٍ مقام .

* وندخل مسجد المدينة ، فنرى رجلاً مهيباً جليلاً قد نام فوق حصاه ، ورداؤه تحت رأسه ، ثم ينهض من نومه فنرى أثر الحصا في جنبه .. إنه هو أيضاً .. العابد الزاهد الأوّاب عثمان بن عفان .. أكثر قومه مالاً وثراء ونعمة ، في الجاهلية وفي الإسلام .. !!

إن هذا لَيذكّرنا برأي "عبد الله بن عمر" فيه .. فلقد كان رضي الله عنه يقرأ الآية الكريمة :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ .

ثم يقول : هو "عثمان بن عفان" .

* * *

أما "عثمان" الرحيم ، فقد كان أمره عجباً .. إن الرحمة تشيع في حياته كما يشيع الرِّيُّ في العود الأخضر الرَّيّان .

ومن التصرفات العادية اليسيرة ، إلى التصرفات التي ترتبط بالمصير ، ويتوقّف عليها أمر الحياة والموت ، نجد الرحمة نبراس هاتيك التصرفات جميعها .

فـ "عثمان" الذي ينهض من الليل ـ وهو خليفة المسلمين ـ فيرفض أن يوقظ أحداً من خَدَمه كي يُعد له وضوءه ، ويتحامل على شيخوخته المجهدة في إحضار الماء وإسباغ الوضوء .. هو "عثمان" الخليفة الذي يرفض النجاة من سيوف قاتليه ، إذا كان ثمن هذه النجاة قطرات دم تُسْفَحُ من مسلم بريء .. !!

* يدخل عليه "زيد بن ثابت" وقد رأى الثوار يتنادون لحصار داره فيقول له :

« يا أمير المؤمنين .. هؤلاء الأنصار بالباب يقولون : إن شئت كنا أنصاراً لله مرتين .. » .

فيجيبه الخليفة الرحيم :

« أمّا القتال ، فلا .. » !!

* ويصيح في الصحابة الذين تجمعوا حول داره ليواجهوا الثوار بالسلاح :

« إن أعظمكم عني غَناءً ، رجل كفّ يده وسلاحه » .. !!

* ويرى أبا هريرة شاهراً سلاحه في اهتياج شديد ، فيدعوه إليه ويقول له :
« أيَسُرُّك أن تقتل الناس جميعاً وأنا معهم ؟
« أمَا إنك والله لو قتلت رجلاً واحداً ، لكأنَّما قتلتَ الناس جميعاً » .. !!

* وحين يعلم أن عُصْبة كبيرة من شباب المسلمين ـ وعلى رأسهم الحسن ، والحسين ، وابن عمر ، وعبد الله بن الزبير ـ قد أخذوا مكانهم لحراسته ، وشهروا سلاحهم ، يتفطر قلبه أسًى ، ويدعوهم إليه ، ويتوسَّل إليهم قائلاً :
« أُناشِدُكُم الله وأسألكم به ، ألا تُراق بسببي مِحْجَمَةُ دم » .. !!
ألم أقلْ لكم : إنه أوَّابٌ رحيم ..

وإنها لرحمة جامعة ، تُغطِّي بعطائها المقسِط جلائل الأحداث وصغارَها .. فللخادم منها حظّه وحقّه في أن ينعم براحة النوم وإن أضْنَى الخليفة نفسه وشيخوخته في ظلمة الليل البهيم .. ولقطرات الدم حظّها وحقّها في أن تنعم بالسلامة والعافية .. وإن كان بديل ذلك أن تزهق روح الخليفة الشيخ ، بيدِ معتدٍ أثيم ، وغادر زَنيم ... !!

لقد كان "عثمان" رضي الله عنه أحد القلائل الذين يدفعون حياتهم ثمناً لفضائلهم العالية .

ولقد توغلت الرحمة في حياته وفي سلوكه حتى اقتضته آخر الأمر حياته نفسها فجاد بها ، مؤثراً أن يموت وولاؤه للرحمة مشدود الأواصر ، علَى أن يحيا وقد فقد مكانه في طليعة الرحماء الأبرار .

ولقد كان من الطبيعي لرجل وسعت رحمته الناس جميعاً أن تُغطِّي رحمته ذوي قُرْباه .

ولقد كان رضي الله عنه نسيج وحدِه في حبِّه أهله ، وفي صِلَتِهِ رحِمَه .

وحسبنا في ذلك قول الإمام علي عنه :
« أوْصَلُنا للرحِمِ عثمان» .

وغداً .. عندما تُلقى على كاهله مسئولية الخِلافة ، سنرى رحمته الشديدة بأهله ، وحبَّه المفيض لذوي قرباه ، يلعبان دوراً حامِيَ الوطيس في الأحداث الضارية التي رزأت الإسلام بأفجع مآسيه .

* * *

قلنا : إن "عبد الله بن عمر" رضي الله عنهما ، كان يتلو قول الله تعالى :
﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ .
ثم يقول : إنه "عثمان بن عفان" ..

وهي شهادة حقّ تتألق في ضوئها ، بل تتألق هي في ضوء العبادة الصافية المثابرة التي أُتْرِعَتْ وازدانت بها حياة "عثمان" منذ عرف الله ، إلى أن لقيه شهيداً مجيداً .

فلقد كان رضي الله عنه ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه .

وحذرُه الآخرة ورجاؤه رحمة الله ، يتبدّيان في حياته كلها ، وفي تصرفاته جميعها .. حتى تلك الطائفة من تصرفاته التي أُخِذَتْ عليه ، كان وراءها اطمئنان رجل يرجو رحمة ربه ..

ولقد كان يحمل إشفاقاً من الآخرة عظيماً . نراه في خُطبه التي كان يخاطب المسلمين بها :

« أيها الناس ..

اتقوا الله ، فإن تقوى الله غُنْمٌ . وإن أكْيَس الناس مَن دَان نفسه وعمِل لِما بعد الموت واكتَسَب من نور الله نوراً لقبره .

وليخشَ عبدٌ أن يحشُره الله أعمى وقد كان بصيراً » ..

وفي خطبة أخرى يقول :

« إن الله أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة . ولم يُعطِكُموها لتركنوا إليها ..

إن الدنيا تفنى ، وإن الآخرة تبقى ، فآثِرُوا على ما يبقَى عَلَى ما يفنى ..

إن الدنيا منقطعة .. والمصير إلى الله وحده » .

وكانت روحه ترتجف ، وعبراته تفيض عندما يذكر الآخرة ، وعندما يتخيل نفسه وقد انشقَّ عنه قبره ، ونَسِلَ من جَدَثِهِ مسرعاً إلى العَرْضِ والحساب ..

ولقد رُوِي عنه قوله :

« لو أني بين الجنة والنار ، لا أدري إلى أيتهما يُؤمَرُ بي ، لتمنَّيْتُ أن أصير رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير » !!

* * *

ورجل يحذر الآخرة كل هذا الحذر ، لا يخطئ السبل المفضية إليها ، ثم هو لا يخطئ أفضل هذه السُّبل وأسماها .. ذلكم هو الجهاد في سبيل الله .

وهنا ـ كما في بقية شمائله وفضائله ـ لا نجد في عثمان "عابدَ صَوْمَعَة" .. بل "عابداً" يملأ الحياة سعياً وَجِداً وبذلاً واستبسالاً .

لقد كان بحيائه وبتركيبه النفسي يكره رؤية الدم المسفوح .

ولكن حين هبَّت قوى الوثنية والشرك لتطفئ نور الله ، وأمر الله رسوله ومَن معه أن يأخذوا سلاحهم بأيمانهم ، وأن يبيعوا لله أنفسهم وأرواحهم ألْقى "عثمان" بنفسه في المعمعان الرهيب ، وأخذ مكانه في الصفوف المرصوصة على أرض الغزوات والمعارك .

* لم يشهد "غزوة بدر" ، لأن زوجته "السيدة رُقيَّة" بنت الرسول ﷺ كانت مريضة مرض الموت ، وأمره النبي ﷺ أن يبقى بجوارها ويسهر عليها .. ولقد امتثل وأطاع . وفي اليوم الذي جاءت البُشرى إلى المدينة بانتصار المسلمين في "بَدْر" فاضت روح "رُقيَّة" إلى بارئها .

* وعندما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يوزع غنائم النصر على المقاتلين ،

اعتبر "عثمان" حاضراً ومقاتلاً ، وفرض له قَسْمه ونصيبه !!

* وفي غزوة أُحُد صاول وقاتَل .. ولكن عندما باغَتَ جيش الشرك المسلمين من جديد وأخذهم على غِرَّة شَتَّتَتْ صفوفهم ، وبَعْثَرتْ تماسُكهم ، وتعالت الأصوات الناعية : [أن محمد قد مات] تغشى "عثمان" من الذهول والفجيعة ما جعله يُوَلِّي عن أرض المعركة مُدْبراً مع الذين تَوَلَّوْا يومئذٍ مُدْبرين ، يدفعهم الذهول لا الجُبْن .. فقدَّر الله عُذْرهم وقبل اعتذارهم ، ونزل الوحي بشأنهم يقول :

﴿ ... وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ .

* ولم يتخلف عن المعارك التي خاضها الإسلام مِن بعد ، فشهد خيبر ، والفتح ، والطائف ، وهَوازِن ، وتبوك .

وفي يوم "الحُدَيْبِيَةِ" تصدَّى لمخاطرة نبيلة اختاره لها الرسول ، فسارع إليها في بسالة واستبشار .

* * *

كان ذلك في العام السادس للهجرة ، حينِ عزم رسول الله ﷺ أمره وخرج بأصحابه إلى مكة ليزور البيت الحرام . حتى إذا بلغ مَنهلةً من مَناهِل الطريق عند "عُسفان" جاءته الأنباء أنّ قريشاً قد علمت بمسيره ، فخرجت في ثياب الحرب للقائه .

واستأنف الرسول مسيرته المباركة حتى بلغ مهبط الحُدَيْبِيَةِ على مشارف مكة ، واستقر بأصحابه هناك .

وأخذت "قريش" تبعث برُسلها ومندوبيها إلى النبي ليُثبطوا عزمه ، وليحملوه على الرجوع .. لكن مندوبيها جميعاً كانوا يعودون بغير الوجوه التي جاءوا بها .

أجل .. كانوا يقدِمون على الرسول بوجوه كالحة غِضاب تحكي إصرار قريش على التَّحدِّي .. ثم لا يكادون يجلسون بين يَدَيِ الرسول ويسمعون كلماته حتى تَلين قلوبهم وتخشع .

بل إنهم وقد جاءوا يُحذِّرون الرسول بأسَ قريش ، عادوا جميعاً ليُحذِّروا قريشاً بأس الرسول ﷺ .. !!

كان آخر هؤلاء المبعوثين "عروة بن مسعود" .. جلس يقول للنبي عليه السلام : « يا محمد ، إنها قريش قد خرجت معها العُوذُ المطافيل ، قد لبِسُوا جلود النُّمور ، مُتعاهدين ألا تدخلَها عليهم عَنوة أبداً » ..

لكنَّه وقد أَذْهَلَه جلال ما سمع وما رأى ، عاد إلى قومه ليقول لهم : [يا معشر قريش . إني قد جئت "كِسْرَى" في مُلكه .. "وقيصر" في ملكه .. و "النَّجاشِيَّ" في ملكه . وإني والله ما رأيت ملكاً يعظِّمه قومه ، مثلما يعظِّم أصحاب محمَّدٍ محمداً .. ولا رأيت ملكاً يحبه قومه ، كما يحبُّ أصحاب محمَّدٍ محمداً .. وإنهم والله لن يُسْلِموه أبداً .. فَرَوْا رأيكم] .. !!

لكن قريشاً كعادتها ، أخذتها العِزَّة بالإثم .

هنالك رأى الرسول أن يبعث إليهم من عنده رسولاً يؤكد لهم أنه ـ عليه السلام ـ لم يأتِ غازياً ، بل زائراً للبيت ومُعظِّماً له ، فدعا "خُراش بن أمية الخزاعي" وانتدبه لهذه المهمة .. بَيْدَ أنَّ قريشاً لم تكد تراه وتسمع كلماته حتى عقرتْ بعيره الذي كان يركبه ، وهمُّوا به ليقتلوه لولا أن مَنَعَتْهُ الأحابيش وأنقذته من الموت .

وعاد "خُراش الخزاعي" إلى الرسول وقصَّ عليه ما حدث .

وفي اليوم التالي ، بعثت قريش خمسين رجلاً من أشدائها ، ليتحرَّشوا بالمسلمين ، وليضربوا معسكرهم بالحجارة وبالنبال ، وليختطفوا منهم مَنْ يستطيعون اختطافه .

لقد جُنَّ جنونُها إذن ، حتى همَّت بقتل مبعوث الرسول إليها ، وهو أمر كانت تقاليدهم تأنفه وترفضه وتأباه .. فما عُرف عنهم قطُّ قتل السُفراء .

ورأى الرسول عليه السلام ما يعتري الموقف من توتُّر ينذر بالخطر ، فقرر أن يبعث رسولاً آخر يردُّ قريشاً إلى صوابها إن كان قد بقي لها صواب !!

واختار "عثمان بن عفان" ..

كانت الأخطار تَتَهَدَّدُ هذه الوفادة ..

فالمبعوث الذي أرسله النبي من قبل ، حاولت قريش قتله .

ولم تكتفِ بهذا ، فأرسلت خمسين من رجالها يشاغبون أصحاب الرسول ويحاولون اختطاف بعضهم .

وَسْط هذه المخاطر المُنذرة المرعِدة ، حمل "عثمان" أمر الرسول ومضى إلى قريش ، لا يعنيه أن يرجع حيًّا أو يقضي هناك شهيداً ، وعلى أبواب مكة واجه الجموع المتحفزة من قريش فَبَلَّغهم رسالة الرسول ﷺ ، فكان جوابهم له : « إن شِئت أنت أن تطوف بالبيت فطفْ ، أما محمد وأصحابه فلا » ..

ويجيبهم "عثمان" :

« ما كُنتُ لأفعل ، حتى يَطُوفَ رسول الله ﷺ » .

وحال جاهُه وَسُؤْدُدُه في قريش دون الاعتداء على حياته ، لكنهما لم يَحولا دون اعتقاله واحْتِجازه . ويبدو أن قريشاً أرادت أن تَعجُمَ عود المسلمين ، وتبلوَ نواياهم ، فأوْعَزَت إلى بعض رجالها ، كي يذهب إلى معسكر المسلمين ويشيع أن قريشاً قتلت "عثمان" ..

هُنالك قرر الرسول عليه السلام أن يُرِيَ المشركين من تصميمه ومقدرته ما يزجرهم عن طغيانهم وما يَعْمَهُون ، فدعا أصحابه إلى البَيْعَة . وهناك تحت الشجرة ، تمَّت أروع مواثيق التاريخ وأكثرها جلالاً وسُمُوًّا .

تلك كانت "بيعة الرضوان" التي خلدها القرآن في تنزيله الكريم وآياته المباركات :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ .

وكأنما كان الرسول ﷺ يعلم بما معه من نور الله وصفاء البصيرة أن "عثمان" لم يُقتل ولم يُصِبْهُ سوء ، فبايع نفسه باسم "عثمان" ، إذ لم يكد عليه السلام يفرغ من مبايعة أصحابه ، حتى شدَّ بإحدى يديه على الأخرى قائلاً :

« وهذه بَيْعَةُ عثمان » !

فلم يبقَ من المسلمين أحد إلا تمنَّى لو أنه كان صاحب هذه الحظوة وهذا التكريم .

وعاد "عثمان" سليماً مُعافى ، وأرسلت قريش سفيراً جديداً هو "سُهيل بن عمرو" الذي أبرم مع الرسول معاهدة عُرفت في التاريخ بـ "صُلح الحديبية" .

* * *

هكذا كانت العبادة عند عثمان .

يقوم ليله ضارعاً ويصوم نهاره خاشعاً .

وينفق ماله بغير حساب .

ويحمل سيفه إذا نودِيَ للجهاد والضِّراب .

وهو يؤدي كل فرائض دينه وشعائر عبادته داخل دائرة وُثْقَى من الأمانة على مسئولياته وتبعاته ، كمؤمن صادق وصحابي جليل .

كانت عيناه تفيضان من الدَّمْع كلما تلا هذه الآية الكريمة :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ ﴾ .

أتُرى بصيرته الباطنة كانت تستشفُّ من وراء الغيب أياماً سيحمل فيها من الأمانة والمسؤولية ما يُطيق وما لا يُطيق .. ؟؟

لقد حمل قَدْرَ طاقته وجُهده أمانة دينه ، وأمانة حياته .

وكانت الأمانة في مفهومه تعني الإخلاص الكامل لهذا الدين .

ومِن ثمَّ أخلَص وصدَق حتى بشَّره الرسول بالجنة ، واصطفاه ليكتب له الوحي ، كما بشَّره عليه الصلاة والسلام بالشهادة يوم كان يقف على مُرتَفع من جبل أُحُد ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فارتجف المكان الذي يقفون فوقه ، فضربه الرسول ﷺ بعقبه وهو يقول :

« اثْبُت أُحُد ، فإنما عليك نَبِيٌّ ، وصِدِّيق ، وشهيدان » !!

■ ■ ■

ثالثُ الخلفَاء

أبَى أمير المؤمنين "عمر" وهو يجود بأنفاسه الطاهرة أن يستخلف أحداً .

وحين ألحّ عليه بعض أصحابه كي يختار بنفسه مَن يخلُفه ، استمسك بإبائه ورَفْضه ، وقال لهم :

« أأحملُ أمركم حيًّا وميتاً .. ؟ وَدِدْتُ أن يكون حظِّي منكم الكفاف ، لا عَليَّ ولا لِي .. » .

« ألا إني إنْ أَسْتَخْلِفْ ، فقد استخلف من هو خير مني ـ يعني أبا بكر ـ وإن أتْرُك ، فقد تَرك من هو خير مني ـ يعني رسول الله ﷺ ـ والله حافظ دينه » .

ووَلَّى رُوحه الضارعة شَطْر الله الرحيم العليم ، يسأله أن يُلهمه الرُّشد ، وأسبل جفنيه وأعمل فكره .. وعلى الفور لاح له من الله نور .. وكأنما تذكَّرَ ذلك اليوم البعيد القريب ، وقد أرهفوا السمع لرسولهم الكريم يعظهم ويناديهم قبل وفاته بأيام ..

« أيها الناس ..

إن أبا بكر لم يَسُؤْني قطّ ، فاعرفوا له ذلك ..

أيها الناس ..

إني رَاض عن عمر ، وعليّ ، وعثمان ، وطلحة بن عُبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقّاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والمهاجرين الأولين ، فاعرفوا لهم ذلك» .

عليّ ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن ، ما أجلَّها من ذكرى تعود الآن في أوانها ! .

فليكن لهؤلاء الستة الذين منحهم الرسول كل هذا التكريم . عاقبة الأمر الذي يشغل الأمير المحتضَر . ولْيَضَعْ في أعناقهم مجتمعين ، الأمانة التي حملها طوال سِنِي خلافته في مثل عَزم المرسلين ، وهكذا جمعهم حوله ، ووجَّه إليهم الحديث :

« إني نظرت فوجدتكم القادَة ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قُبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راضٍ ، وإني لا أخاف الناس عليكم ، ما استقمتم ..

فإذا أنت مِتّ فتشاوروا ثلاثة أيام ، ولا يأتي اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ..

ولْيحضر معكم عبد الله بن عمر مشيراً . ولا يكون له من الأمر شيء ... » .

* * *

كان "طلحة" غائباً عن المدينة ، فاجتمع بقية الصّحاب الذين وضع "عمر" الأمانة في أعناقهم قبل رحيله .

واقترح عليهم "عبد الرحمٰن بن عوف" أن يخلع أحدهم نفسه ويتنازل عن حقّه في الترشيح ليكون صوته مُرجحاً إذا قام خلاف .

وبادر فخلع نفسه . ثم تنازل "الزبير" عن حقه لـ "علي" ، وتنازل "سعد بن أبي وقاص" عن الترشيح أيضاً . وهكذا انحصر الاختيار بين "عثمان وعلي" ، وفوّض "عبد الرحمن بن عوف" في اختيار أحدهما .

كان على "ابن عوف" أن يُنجز المهمة في الأيام الثلاثة التي أوصاهم الخليفة الرّاحل ألاّ يُجاوزوها .

وكان عليه خلال هذه المهلة القصيرة أن يُجري شورى واسعة واستفتاءً عميماً بين أصحاب الرسول جميعاً .

وهكذا راح يذرع المدينة ويقرع أبواب دورها .. يقول "ابن كثير" :

"نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس ، ويجمع رأي المسلمين عامّتهم وقادتهم ـ جميعاً وأشتاتاً .. مَثْنى وفُرادَى ومجتمعين .. سراً وجهراً ، حتى خلص إلى النساءِ المحجَّبات في بيوتهن ، وحتى سأل الولدان في المكاتب ، وحتى سأل الركبان الوافدين على المدينة ..

ونُواصِلُ سيرنا مع "ابن كثير" لنرى معه كيف تمَّ الأمر ، وكيف حمل "عثمان" أمانة الحكم . وما أفْدحَها من أمانة ..!!

"... ثم أرسل عبد الرحمن في طلب عثمان وعليّ ، فَقَدِمَا عليه ، فأقبل عليهما وقال لهما : إني سألت الناس عنكما ، فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً .."

"ثم أخذ العهد على كل منهما لَئِنْ ولاه لَيَعْدِلن، ولَئن وُلّيَ عليه لَيَسْمعن، ولَيُطيعَن.."

ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عمَّمه بها رسول الله ﷺ ، وتقلّد سيفاً ، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ونودي في الناس كافة ، الصلاة جامِعة .. وتراصَّ الناس حتى غَصَّ بهم المسجد ، وحتى لم يبقَ لعثمان موضع يجلس فيه إلا في أخريات الناس ـ وكان رجلاً حَيِيًّا ـ ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ ، فدعا دعاء طويلاً ثم تكلم فقال: أيها الناس ، إني قد سألتكم سراً وجهراً ، فلم أجدكم تعدلون بعليّ وعثمان أحداً .. قُم إليّ يا عليّ .. فقام إليه وأخذ عبد الرحمن بيده وسأله: هل أنت مُبايعي على كتاب الله وسنّة نبيّه ، وفعل أبي بكر وعمر ..؟

قال عليٌّ: على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيي.

ثم قال: قم إليّ يا عثمان ، فقام إليه ، فأخذ بيده وقال له : هل أنت مُبايعي على كتاب الله وسنّة رسوله ، وفِعل أبي بكر وعمر ..؟

قال عثمان : اللهم نَعم .

فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال: اللهم اسْمَعْ واشهد .. اللهم إني قد جَعلتُ ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان ..

"وازدحم الناس على عثمان يبايعونه ...

* * *

كانت أول يمين شَدَّت بالبيعة على يَمِينه ، يَمين "علي بن أبي طالب" .. وتتابع المسلمون جميعاً يُبايعون ..

وهكذا حمل "عثمان" أثقال الخلافة .. حملها وهو على وَشْك أن يستقبل السبعين من عمره ، تُرى هل كان بها حَفِيًّا وعليها حريصاً ..؟؟

فيما نعلم من طبائع البَشر ، فإن سن السبعين ليست السِّنّ المناسبة للطموح ، ولا السِّنّ التي تتفتّح فيها الشّهيات لمتاعب السلطان ، فكيف وصاحب هذه السِّنّ رجل يسيطر الحياء على حياته . والحياء يدفع أصحابه دائماً إلى الظِّلال ..؟؟

ثم كيف ، وصاحب هذه السِّنّ رجل يتلقَّى المسئولية على وَقع نذير رهيب يتمثل في اغتيال خليفة تحدَّت الجريمة عدله وَوَرَعَهُ وبأسه ونفوذه العظيم الرحيب ..؟؟

أغلب الظن أن "عثمان" رضي الله عنه تلقى البيعة وهو يرتجف .

ولعلها تُشير إلى هذا المعنى ، تلك الرواية التي تُحدّثنا أن الخليفة بعد تَلقّيه البيعة من أهل الشورى توجَّه إلى المنبر وعلى محيَّاه اكْتِئاب ..

ولعلّ هذه الخشية لجلال المسئولية ، هي التي أمسكت لسانه عن الإفاضة في أول خطبة ألقاها ، فاكتفى بأن حذر الناس من الدنيا وغرورها . وَرَغَّبَهُمْ في الآخرة وحبُورها .

ولولا ضغط الموقف وثقل المسئولية لأفاض .. فما كان رضي الله عنه عاجزاً عن الحديث ولا عَيِيًّا .

يروى عبد الرحمنٰ بن حاطب عن أبيه قوله :

«ما رأيتُ أحداً كان إذا حَدَّثَ أَتَمّ حديثاً من عثمان ، إلا أنه كان رجلاً يهابُ الحديث» .

ومن الطبيعي أن يكون هياباً للحديث ، ما دام يتحكَّم فيه هذا القَدر المفيض الهائل من الحياء .

فإذا انضاف إلى حيائه الشديد وطأة المسئولية الفادحة ، فإن خطبته السريعة العاجلة يوم ذاك تعطينا أول صورة من صُوَر المجابَهة المضنية التي ستقوم بين الخليفة الشيخ ، ومسئولياته الثّقال الجسام .

* * *

على أنه مهما تكن وطأة المسئولية ، فإن "عثمان" بما معه من إيمان وأمانة سيعطي المسئولية حقّها ، وسيُباشر على الفور تبعات البيعة التي أعطاها والبيعة التي تلقاها ..

لقد أعطى عهده ومَوْثِقَهُ أن يسير على سنّة الرسول ﷺ ونهج صاحبيه أبي بكر وعمر. وهو حين أعطى ذلك العهد لم تكن نواياه منفصلة عن كلماته ، ولم يكن عزمه متخلفاً عن نواياه ، لكنّه مع ذلك كان يدرك أن قدرته محدودة ، وأن صاحبيه الراحلين لا يُدْرَك شَأْوُهُما ، ولا يُنالُ مَداهما ..

وإنه الآن ليذكُر ذلك اليوم الذي أطَلّ فيه من نافذة داره ، فأبصر على البعد رجلاً يجري في قيظ النهار وهجير الصحراء ، فظنَّه غريباً نزل به كَرْب عظيم ، ولبث مُطلاً من نافذته حتى يعود ذلك الرجل الملهوف فيدعوه إلى ظِلّ داره ويُغيثه من لهفته .

وكم كانت دهشته وعجبه حين اقترب الرجل ، فإذا هو أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" ممسكاً بخطام بعير يتهادى وراءه .

وسأله عثمان: من أين يا أمير المؤمنين ..؟

وأجابه عمر: من حيثُ ترى .. بعير من إبل الصدقة نَدَّ هارباً فأسرعت وراءه ، ورجعتُ به !!

وعاد "عثمان" يسأل: ألم يكن هناك من يقوم بهذا العمل سواك؟ .

وأجابه عمر: وَمَنْ يقوم مقامي في الحساب يوم القيامة ..؟!

ودعاه "عثمان" إلى الراحة حتى تنكسر حِدَّة الهجير ، فما زاد "عمر" على أنه قال ودموعه الوَرِعَة تسيل من مآقيه : "عُدْ إلى ظِلِّك يا عثمان" ..

ومضى لسبيله ، وعينا "عثمان" متعلقتان به حتى غاب عنهما .. وراح "عثمان" يُتَمْتِم قائلاً :

« لقد أتْعَبْتَ الذين سيجيئون بعدك » !!

* * *

إنه الآن وقد صار خليفة ، وشاء له القدر أن يكون أول رجل يجيء بعد "عمر" لَيَذْكُرُ هذه الواقعة وعشرات الوقائع مثلها ، فيأخذه الإشفاق على نفسه وعلى أمّته .

إنه يجيء على أثر خليفتين ليس لهما نظير .

ويجيء بصفة خاصة بعد عشر سنوات "عُمَرِيَّة" فرض فيها "الفاروق" على المسلمين منهجه الصارم ، وعَدله المكين ، وحمل وُلاته وعُماله على مثل ما حمل عليه نفسه من زهد وتقشف وعَناء .

كما يجيء والدولة تتسع رقعتها بغير حساب ، وتتلاطم تحت رايتها أجناس شتَّى ، متباينة الطبائع والغايات .

كذلك يجيء والدنيا قد فُتحت على المسلمين فتحاً عريضاً ، بحيث أصْبَحَت دخولهم من التجارة ، وأنْصِباؤهم المشروعة من الفيء ومن العطاء تزيد على احتياجاتهم زيادة تنقل الكثيرين منهم إلى عداد الأثرياء ، وكبار الأثرياء .

كان "عمر" رضي الله عنه يرى إقبال الدنيا وهي في بدايتها فيرتجف إشفاقاً على المصير.. ويقول :

« إن للمال ضراوة كضراوة الخمر » !

ويذكر قول الرسول عليه السلام لأصحابه يوماً :

« والله ، ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى أن تفتَح عليكم الدنيا فتنافَسوها » .

وها هي ذي قد فُتِحَتْ ، وها هو ذا "عثمان" يُدْعَى ليحمل المسئولية ويمسك الزِّمام ..

تُرى هل سيُحسن استخدام الشكائم التي استخدمها سَلَفه العظيم "عمر" في مهارة تبهر الألباب ؟؟!!

إن الرجل اللَّين الجانب ، الهادئ السَّمْت ، الوديع الطيب ليدرك أن العِبء ثقيل ، وأن أثقل ما فيه هذه الدنيا التي أقبلت بكل إغرائها الخَطِر على المسلمين ، والتي زاد انفلاتها نحوهم وتطويقُها لهم عندما انكسر السدُّ المنيع الشاهق الذي كان يصدها وَيَنْفيها .

بل لا نكاد نشك في أن "عثمان" كان يدرك أيضاً أن أكثر الذين رحَّبُوا باختياره للخلافة دون "عَليّ" كرم الله وجهه.. إنما فعلوا رغبة منهم في الانعتاق من تزمُّت الحياة وتقشف المعيشة اللذين طالت معاناة الناس لهما، واللذين كانا سيفرضان عناءهما من جديد لو تسلَّم الأمر "علي بن أبي طالب" الذي كان بمنهجه الصارم وعدله المكين، وبورعه وبتقشُّفه، يمثل امتداداً واضحاً وأكيداً لصرامة "عمر" وعدله، وتقشفه، وورعه.

كل ذلك ـ فيما نحسب ـ لم يَغِب عن بال الخليفة الثالث "عثمان" ..

ومن أجل ذلك لا نخاله إلا قد رأى في الدنيا المقبلة على المسلمين أعْصَى مشكلات عهده .

ومن أجل ذلك أيضاً، كانت أُولى كلماته إلى الناس في أول خطبة له ، التنبيه لهذا الخطر قبل أن يستفحل فلا يستطيع ولا يستطيع المسلمون له دفعاً.. وهكذا وقف بعد تمام البيعة يقول :

« .. إن الدنيا طُوِيَتْ على الغرور، فلا تَغُرَّنكم الحياة الدنيا، ولا يَغُرَّنَّكُمْ بالله الغَرور » .

« .. ارموا بالدنيا حيث رَمى الله بها ، واطلبوا الآخرة ، فإن الله قد ضرب للدنيا مثلاً فقال: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا ﴾ .

* * *

على أن موقف الخليفة الثالث من مشاكل الثراء ظلَّ مختلفاً في التقدير وفي النتائج عن موقف سلفه أمير المؤمنين .

فبينما الاثنان متفقان على أن الثراء المتفاقم يُشكل خطراً على المسلمين الذين نذروا حياتهم للدعوة والجهاد ، والذين زَيَّن لهم دينهم أن يكون زادُ أحدهم من الدنيا كزادِ الرَّاكب ، نجد نهجَيْهما في مقاومة هذا الخطر يختلفان .. فأما أمير المؤمنين "عمر" فيركز على قمع الاستمتاع المشروع بهذا الثراء ، ويقاوم الاستسلام لطيبات الحياة الدنيا .. وهو يبدأ هذا القمع وهذه المقاومة مع نفسه وأهل بيته وعشيرته ، ثم مع وُلاته وعماله ، فلا يكاد يسمع عن والٍ ترفَّه في ملبسه أو في مطعمه حتى يستدعيه إليه في المدينة ويزجره ويُعنِّفه ، فإن عاد إلى استسلامه للنعيم أقصاه وعزله .

ولقد كان يريد بهذا أن يجد عامة الناس في ولاتهم قدوة تُعينهم على عدم الاستسلام لمغريات الثراء وأطايب الحياة وترف المعيشة .

هذا كان نهج "عمر" .

أما الخليفة الثالث "عثمان" فكأنما كان يرى أن المال إنما خُلق لجعل الحياة مُوطَّأة الأكناف ... وما دام الثراء حلالاً ، والاستمتاع مشروعاً ، فليكن للناس حظوظهم من طيبات الحياة ونعميها ، لا فرق بين الأمراء والوُلاة والعامة .. وهي وجهة نظر تَتّسِقُ مع نشأته وسجاياه ..

أجَل . لم يجد "عثمان" من حقّه - مثلاً - أن يعزل والياً رَغدَ عيشه ، وترفّهت حياته ، واغترف من طيبات الدنيا بكلتا يديه ، ما دام في استمتاعه هذا لا يَجْترح منكراً ولا يُقارف إثماً .

ولم يضع الخليفة في حسابه ما وضعه "عمر" من قبل في حسابه من أن للمال ضراوة كضراوة الخمر ، وأن للحلال أحياناً فتنة وخطراً كفتنة الحرام وخطره ، وأن النفس البشرية طامعة دائماً في المزيد . وإذا لم يُفرض عليها الفِطام عن كثير من الطيبات المباحة ، سَهُل إباقُها وانفلاتُها نحو المتاع المحظور .!!

* * *

على أيّ حال ، فقد اختير "عثمان" للخلافة ، وهو واثق من أمانته على دين الله ، وعلى مُقدَّرات الدولة والأمّة اللتين حمل مسئولية الحفاظ عليهما .. وهو كخليفة ، له الحقّ في اختيار الأسلوب الذي يمارس به سلطته ، ما دام واضعاً عينيه دائماً على الأسس الرئيسَة التي شرعها الله ، وسار عليها رسوله ﷺ وصاحباه .

وهكذا بدأ في ظل تلك المبادئ الوُثْقى يُباشر مَهامَّه ومسئولياته في عزم وسداد .

وسنصحبه الآن في بعض إنجازاته المتألقة . فنراه يبدأ كما يحدثنا ابن كثير : بالكتابة إلى ولاة الأقاليم ، وأمراء الحرب ، والأئمة على الصلوات ، والأمناء على بيوت المال ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويَحثُّهم على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ، ويَحضُّهم على اتّباع السنّة وتَرْك الإحداث والابتداع .

ورأى بيت المال عامراً ممتلئاً ، فزاد في عطاء الناس ، واتخذ في المسجد سماطاً يقدم عليه بصورة دائمة الطعام الطيب للمعتكفين والمتعبدين وأبناء السبيل .

بيد أنه لم يكد يستقر في منصبه ويتهيأ لإنجاز ما كان يودُّ إنجازه من إصلاح، حتى فوجئ بالانتفاضات المسلحة تنقضُّ على الدولة من كل مكان.

لقد نقضت دولة الروم عهودها السابقة، وكذلك فعلت بعض المقاطعات الفارسية.

لكأنما كان مقتل "عمر" رضي الله عنه إشارة البَدْء بين قوى التمرُّد ، فقامت قومة واحدة في "أذربيجان" ، و"أرمينية" ، وأغار الروم بأسطولهم على "الإسكندرية" و"فلسطين" ، وسرَتِ النار مُطوِّقة الدولة العريضة المتراحبة .

لم يكن التمرد من شعوب تلك البقاع ، فلقد كان فرحها بالإسلام عظيماً يوم ذهب إليها وحررها من طغيان فارس والروم .

إنما جاء التمرد من فلول القوى التي كانت تملك قبل الإسلام وتسُود .. لكنها لم تكن فلولاً قليلة ولا ضعيفة، ولقد زاد في قوّتها ما أشاعوه بين الجماهير في بلادهم من أن

الإسلام قد انتهى ، وأن خليفته القوي "عمر" قد اغتيل بيد مَجوسي منهم ، وأن الفوضى شبَّت في البلاد .

ولقد أغرى زعماء تلك الفتنة ما علموه من أن الخليفة الجديد رجل في سن السبعين .

ولم يكن لـ "عثمان" رضي الله عنه بطولات مسموعة مثل "خالد بن الوليد" مثلاً، أو "سعد بن أبي وقّاص" ، أو "علي بن أبي طالب" ، بل إن اسمه لم يكن يتردد بين الأسماء الجهيرة خارج المدينة، لا لشيء إلا لأن حياءه وهدوءه كانا يَجْنحان به دوماً إلى الظِّلال .

كل ذلك أغرى المتمردين بالانقضاض .

ورأى ابن السبعين عاماً نفسه مطالباً بأن يُري هؤلاء الحمقى الخارجين ، أن أصحاب "محمد" ﷺ لا يُقاس اقتدارهم بضخامة الأجسام ، ولا بما يحملون فوق كواهلهم من سنين وأعوام .. بل بما وقَر في قلوبهم من إيمان بالله وبوعده ، وبرسوله وبدينه .

هنالك لم يُضيِّع لحظة في تفكير ..!!

لم يَتَلَفَّتْ ذاتَ اليمين ولا ذات الشمال .. !!

لم يسأل أحداً ـ حتى مجرَّد سؤال ـ ماذا يجب أن يَصنع ..؟

لقد حدد له ضميره المؤمن الطريق .

وعلى الفور أصدر أوامره بإطفاء النار وقهر المرتدين .

ليس ذلك فحسب ، بل أصدر أوامره أن يجاوز الفتح تلك البقاع المتمردة إلى حدود أبعد ، حتى لا تبقى أطراف للدولة يسهل عليها التمرد كلما تشاء .

ولقد اختار بنفسه قواد الجيوش التي ستقوم بهذه المهام .

ومِن عَجب أن أحداً منهم لم يخسر معركة قطّ إذا استثنينا معركة واحدة .

لقد كان "عثمان" يومئذٍ يفكر ويُقدِّر ، ويَعزم ويَحزِم ، وكأنما قد حلَّ داخل إهابه شبابُ التاريخ ..!!!

إنَّ هذا الخليفة العظيم الكَهْل لَيبهرنا بمضاء عزمه وروحه خلال تلك الأحداث .. فحين رأى أن ضرورات القتال واحتياجات النصر تتطلب تجهيزات بحرية ، وإنزال أعداد ضخمة من الجنود إلى البحر لم يتردد، مع أنه يعلم أن "عمر بن الخطاب" ظلَّ طوال خلافته يرفض هذه المُخاطرة .

ولقد رأى القواد والجنود يومئذٍ هذا الروح المتألِّق من خليفتهم الشيخ ، فازدادوا بدورهم مضاء ومقدرة واستبسالاً .

* * *

بدأ الخليفة مجابهة القوى المتمردة التي حملت السلاح ضد الإسلام ودولته ، في "أذربيجان" و "أرمينية" اللتين نقضتا العهد الذي كانتا قد أبرمتاه من قبل .. فسيَّر إليهما جيشاً بقيادة "الوليد بن عقبة" فردَّهم إلى صوابهم ، ووقَّعوا معاهدة بالشروط نفسها التي كان قد أنزلهم عليها من قبل "حذيفة بن اليمَان" رضي الله عنه .

وبينما كان الوليد وجيشه راجعين إلى الكوفة، جاءتهم الأنباء بأنّ الروم تتحرش بالشام ، وجاءت هذه الأنباء مشفوعة بأمر الخليفة للوليد أن يجهز عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة رجل [أمين كريم شجاع] .

ولننظر كيف تبزغ طباع الخليفة في هذه اللفتة ، فهو يأمر الوليد أن يختار لقيادة هذا الجيش رجلاً "كريماً" .

إن أبا السخاء الذي لا يعرف سخاؤه حدوداً ، يتفاءل بالسخاء ، ومن ثَمَّ يتفاءل بالقائد إذا كان سخيًا جواداً ..!!

وأنجز "الوليد" أمر الخليفة، فاختار الجيش ووضع على رأسه قائداً شجاعاً سمحاً ، هو "حبيب بن مسلمة الفهري" .

سار "حبيب" بجيشه الذي لا يجاوز عشرة آلاف جندي ، بل لعلَّه كان دون هذا العدد ، وأقبل الروم والترك في جيش قوامه ثمانون ألفاً .

وكانت زوجة القائد "حبيب بن مسلمة" مجندة في جيش المسلمين.

وقبل أن يبدأ القتال سألته:

ـ أين ألقاك إذا حَمِيَ الوطيس وماجَت الصّفوف..؟

فأجابها الزوج والقائد:

ـ في خَيْمة قائد الروم .. أو في الجنَة..!

الله أكبر..!!

والْتقى الجيشان ، لتدور الدوائر آخر الأمر على جيش الروم والترك . ولم يقف "حبيب" عند هذه الجولة الظافرة ، بل سار متوغلاً في بلاد الروم ، يفتح الحصون الشاهقة حِصناً وراء حِصْن ، ويفتح أبواب الإسلام والحرية أمام جماهير عريضة طالما انتظرت أيام الخلاص .؟!

* * *

وكانت مقاطعة "الري" قد نقضت هي الأخرى عهدها وتمرّدت ، فزحفت عليها قوة بقيادة "أبي موسى الأشعري" ردت المتمردين إلى الجادّة ، وأنزلتهم مرة أخرى على العهد القديم الذي كان قد واثقَهُم عليه "حذيفة بن اليمان" .

* * *

والْتفت الخليفة الرابض في "المدينة" عاصمة الإسلام صَوْبَ الإسكندرية التي جاءته أنباؤها بأن الأسطول البحري للروم قد أغار عليها، كما أن أعداداً هائلة من المشاة والركبان يزحفون نحوها، فأرسل الخليفة بأوامره إلى "عمرو بن العاص" واليه على مصر، كي يسير بجيشه إلى الإسكندرية.. وهناك أصْلَى المغيرين سعيرا، وأنزل بالمتمردين هزيمة استأصلت شأفتهم إلى الأبد، وفي الوقت نفسه كان "معاوية" يفتح "قنسرين" ، وكان "عثمان بن أبي العاص" يقهر التمرد الناشب في "أصطخر" ويعيد فتحها من جديد..!!

وإلى الشمال الإفريقي بعث الخليفة جيشاً كبيراً بقيادة "عبد الله بن سعد بن أبي سرح" وأرسل معه "عبد الله بن عمر" و "عبد الله بن الزُبَيْر" .

وأقبلت جيوش البربر بقيادة ملكهم في أعداد ضخمة قدَّرها بعض المؤرخين بمائتي ألف مقاتل .

وكان لقاء رهيباً ، أبْلى فيه المسلمون بلاء باهراً ورائعاً ، ولا سيما "عبد الله بن الزبير" الذي شهدت منه هذه المعركة بسالة منقطعة النظير .

وكُتب النصر المبين للمسلمين ، وعاد جيشهم الظافر بما لا حصر له من الأسرى ، ومن الغنائم ، والأموال ..!!

* * *

ورأى الخليفة "عثمان" رضي الله عنه وأرضاه أن الأسطول البحري للروم يتخذ من جزيرة "قبرص" مُنطلَقاً لعدوانه ، فقرر غزوها .

ولكن كيف ..؟ والمسلمون لم يمتطوا ثَبجَ البحر من قبل في قِتال .

وأميرهم العظيم الراحل "عمر" كان ، كما أسلفنا من قبل ، ضد كل مخاطرة من هذا القَبِيل .

لقد تدارس "عثمان" الأمر مع بعض أصحابه ومشيريه ، واقتنع بحتمية هذه المخاطرة .. ولأول مرة شهد التاريخ ميلاد "البحرية الإسلامية" .

أذِن الخليفة لمعاوية بغزو "قبرص" ، فأبحر إليها من الشام ، وأمدَّه الخليفة بجيش آخر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

وأطبقت القوتان العارمتان على الجزيرة فاستسلمت ووقَّعت الصلح الذي فرضه المسلمون .

وفي هذه الغزوة تحققت نبوءة قديمة للرسول ﷺ ..

ذلك أنه كان عليه السلام يَقيل يوماً في دار "عُبادة بن الصامت" رضي الله عنه ، ونهض من نومه وهو يضحك ، فسألته "أم حرام بنت ملحان" عمَّا أضحكه .. فقال الرسول ﷺ :

« ناسٌ من أمتي عُرِضُوا عَليَّ يركبون ثَبج هذا البحر مثل الملوك على الأسِرَّة » .

فقالت : يا رسول الله ، ادعُ الله أن يجعلني منهم .

فقال لها الرسول ﷺ : أنتِ منهم .

ونام الرسول ثانية ، ثم استيقظ وهو يضحك .. ويقول :

« ناس ـ آخرون ـ من أمتي عُرِضوا عليَّ يركبون ثَبجَ هذا البحر ، مثل الملوك على الأسِرَّة » .

فقالت : « أم حرام » : يا رسول الله ، ادعُ الله أن يجعلني منهم :

فأجابها الرسول ﷺ : أنتِ من الأوَّلين .

كانت هذه الواقعة ذائعة بين الصحابة أيَّام كان الرسول ﷺ معهم لم يفارقهم بعد إلى الرفيق الأعلى ، وكانوا ينتظرون تأويلها ، ويعجبون كيف يركبون البحر مثل الملوك على الأسِرَّة !! حتى جاءت غزوة "قبرص" هذه ، فركبوا ثَبَج البحر لأول مرة ، وكانوا فوق سُفنهم الكبيرة الظافرة كالملوك فوق أسِرَّتهم وعروشهم ..

وفي هذه الغزوة خرج مع الجيش "عبادة بن الصامت" ومعه زوجه "أم حرام بنت ملحان" رضي الله عنهما . وتحققت نبوءة الرسول الصادق الأمين لها حين قال لها : « أنت منهم » .

ولعلكم تذكرون أن الرسول عندما استيقظ ضاحكاً للمرة الثانية وهو يقول :

« ناس آخرون من أمتي يركبون ثبج هذا البحر » .

وسألته "أم حرام" أن يسأل الله لها كي يجعلها منهم ، أجاب الرسول ﷺ قائلاً :

« أنتِ من الأولين » .

وهنا تستكمل النبوءة صدقها الرائع وبهاءها الجليل ، فإن "أم حرام" لم تَعِشْ حتى تركب البحر مع الآخرين .. لقد ماتت بعد انتهاء معركة "قبرص" ودفنت هناك ، وعُرف قبرها الطاهر فيما بعد باسم "قبر المرأة الصالحة" .. !!

* * *

وجاءت غزوة "الصواري" لتؤكد صلابة الدولة المسلمة تحت خلافة "عثمان بن عفان" ، فقد جمع "قسطنطين" إمبراطور الروم جيوشاً لَجِبَة لم يلتقِ المسلمون من قبل بمثل كثرتها عدداً وعَتاداً .

خرج قسطنطين بجيشه الجرار هذا على ظهور خمسمائة سفينة ، زاحفاً على بلاد المغرب ليلاقي بها "عبد الله بن سعد بن أبي سرح" .

وجمع عبد الله جيشه ونزلوا بسفنهم إلى البحر . والتقى الجمعان في معركة تتحدى ضراوتها كل وصف ، ودعاهم قائد المسلمين ليخرجوا إلى البر ، ويتقابل الجيشان فوق الأرض الصلبة ، فأبوا ذلك ، عندئذ أسرعت فرقة من جيش المسلمين فربطت سفنهم بسفن الروم بعد أن أدْنَوْها منها ، ثم راحوا يجتلدون بالسيوف والخناجر . كان ضحايا المسلمين وشهداؤهم من الكثرة إلى حد فادح ، بيد أن قتلى الروم كانوا أضعاف أضعافِهم ، وانتصر المسلمون انتصاراً حاسماً ، وهرب قسطنطين بجسده الذي أدمته السيوف وأثخنته الجراح .

* * *

وهكذا سارت جيوش الخليفة تحت راياتها المنتصرة إلى كل مكان .

فمعاوية يوغل في بلاد الروم حتى يقرع أبواب "القسطنطينية" ذاتها .

وإلى فارس ، وكرمان ، وسجستان ، ومَرْو .. يزحف ابن عامر ، والأحنف بن قيس ، والأقرع بن حابس ، فيفتَحون ويظفرون ..

ومهّدت الأرض لزحف المسلمين الجَسور حتى بلغوا السودان والحبشة في الجنوب ، والهند والصين في الشرق .

والخليفة الكهْل الذي كانت سِنّه قد بلغت السابعة والسبعين رابض في المدينة ينعم بفتح الله عليه وعلى جيوشه .

ومع الجيوش العائدة من معاركها بالنصر ، كانت الغنائم والأموال تتدفق على العاصمة ، وكأنها أبواب السماء فُتِحتْ بماء مُنْهَمِر .. !!

لقد أخلَفَتْ كُلَّ الظنون ، تلك السنوات العظيمة المتألقة ، للخليفة الذي أساء أعداءُ الإسلام به الظُّنون !!

ولم يشغله ذلك الجهاد الموصول ، والغزوات المتلاحقة عن اهتمامه بالعِمارة .

فراح يُجمِّل المدينة ، ويزيد في بناياتها وعمارتها ، مبتدئاً بمسجد الرسول ﷺ ، فوسَّع فيه وبناه بالحجارة المنقوشة ، واتخذ عُمُدَه من الحجارة المرصَّعة .

ولئن بَهَرَنا الحزم والتوفيق اللذان صاحبا "الخليفة عثمان" في مجابهته الحاسمة لقوى الشر الزاحفة على الإسلام تريد أن تطفئ نوره ، فلسوف يبهرنا بصورة مماثلة أو تزيد ، إنجازه الرائع العظيم في جمع المسلمين على مصحف واحد ، حُفظ القرآن بين دفَّتيه إلى يوم الدين .

* * *

نحن نعلم أن القرآن كانت تتنزَّل آياته على الرسول الأمين مُفَرَّقَةً وَفْق ظروفِ وأسباب نزولها ، وكان من بعض أصحاب الرسول ﷺ نفر اختارهم ليكتبوا الآيات المنزلة أوَّلَ فأوَّلَ .

وكان الصحابة يتناقلون الآيات المنزلة ، يعتمد بعضهم على قوة ذاكرته فيحفظها ، ويسطرها بعضٌ آخر حيث يحتفظ بها مكتوبة .

وفي عهد الخليفة الأول "أبي بكر الصديق" رضي الله عنه قرر بمشورة من "عمر ابن الخطاب" رضي الله عنه أن يجمع القرآن ـ فعهد إلى الصحابي الجليل "زيد بن ثابت" بالإشراف على هذه المهمة المقدسة . وكان "زيد" أقدر المسلمين على ما نُدب إليه ، إذ كان يحفظ القرآن كله .. كما كان أكثر كُتَّاب الوحي ملازمة للرسول ﷺ .

وجمع "زيد" القرآن باذلاً من وعيه ويقظته وأمانته جهداً خارقاً ، مستعيناً بعدد كبير من الصحابة الذين كان بعضهم يحفظ القرآن ، وبعضهم يحتفظ به مسطوراً .

وهكذا صارت الآيات التي كانت متفرقة في صدور الرجال أو على ألواح الكتابة مصحفاً واحداً مُرتَّب السُّور والآيات ، معروف البَدء والمنتَهَى .

وحفظ المصحف عند "أبي بكر" ، ومن بعده انتقل إلى "عمر" .

* * *

خلال عهد "عمر" شرعت الفتوح الإسلامية تطوي البلاد طيًّا ، وآل إلى الإسلام كثير من الأرض التي كان يجثم فوقها طغيان فارس والروم .

وخلال عهد "عثمان" بلغت الفتوحات آماداً أبعد ، وآفاقاً أرحب .

ومع هذا الفتح العظيم في عهد "عمر وعثمان" كان الإسلام يستقبل شعوباً مختلفة اللسان . ونما المجتمع الإسلامي نمواً هائلاً ، انتظم بين موجاته تبايُن كبير .

وكانت أسرع مظاهر هذا التبايُن في الكشف عن نفسها وعن عواقبها ـ اللَّهجات .

ففي بعض الغزوات التي اشترك فيها الصحابي الجليل "حُذَيْفة بن اليمان" راعَتْه الطرائق الكُثر التي يُقرأ بها القرآن .

صحيح أن عرب الجزيرة العربية أنفسهم كانت لهم لَهجات مختلفة ، بيد أن لغة قريش التي نزل القرآن بها كانت قد استقطبت معظم تلك اللهجات وبوتقتها في لغة واحدة صارت "اللغة الأمّ" ، وحتى حين كان يندر حدوث خلاف حول قراءة بعض آي القرآن الكريم في أيام الوحي ، كان الرسول ﷺ يفصل في الأمر بإيثار قراءة واحدة حيناً ، أو بإقرار القراءات المختلَف حولها حيناً آخر . أما بعد الفتح الكبير ، وبعد أن أصبح القرآن كتاب شعوب كثيرة ، لكل منها لهجتُه ولسانه ، فقد أمسى الاختلاف في قراءته مصدر خطر عظيم ، وهو خطر يهدد وحدة الأمة الجديدة المنتشرة في الأرض أكثر مما يهدد القرآن ذاته .. فالقرآن تكفَّل الله بحفظه حين قال سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

ولقد ظهر هذا الخطر في الواقعة التي شهدها "حذيفة" ، إذ نشب خلاف مُفزع بين أهل الشام وأهل العراق .

كان أهل الشام يقرءون على قراءة المقداد بن الأسود وأبي الدرداء .

وكان أهل العراق يقرءون على قراءة عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري .

وتعصَّب كل من الطائفتين لقراءته ، وكاد الخلاف يُمسي نزاعاً ، فصداماً .

ولم يكد "حذيفة بن اليَمان" يفرغ من تلك الغزوة التي كان يشارك فيها بجهاده حتى امتطى راحلته ، يُسابق الريح إلى المدينة ، وهناك وضع القضية بين يَدَيِ الخليفة الراشد ، مختتماً حديثه بقوله :

« يا أمير المؤمنين ..

« أدْرِكْ هذه الأمّة قبل أن تختلف في كِتابها كما اختلف الذين من قبلهم في كُتُبهم» .

ولم يتوانَ الخليفة لحظة ، فقد أرسل من فوره إلى مَن كان بالمدينة من أصحاب الرسول ، وشاوَرهم في الأمر ، ثم قرر أن يكتب المصحف على حَرْف واحد ، وأن يجمع المسلمين في عصره وإلى الأبد على قراءة واحدة تكون هي القراءة "الأمّ" ، حتى يدفع هذا الاختلاف المنذِرَ بالسوء .

واستدعى إليه "زيد بن ثابت" الذي قام بجَمْع القرآن في عهد "أبي بكر" و"سعيد بن العاص" و "عبد الله بن الزبير .." و "عبد الرحمن بن الحارث بن هشام" وشرح لهم مهمتهم ، وأوصاهم إذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش ..

وجاءهم الخليفة بالمصحف الأول ليكون دليلهم وأساس عملهم ، وكان "عمر" قد أودعه قبل استشهاده عند ابنته "حفصة" رضي الله عنهما .

وعندما أنجز الأصحاب عملهم الجليل ، أمر الخليفة أن يُنسخ عدد من المصاحف ، وأرسل لكل إقليم من أقاليم الدولة مصحفاً .

ومضى الكاتبون في كل إقليم ينسخون لأنفسهم ولغيرهم مصاحف أخرى من هذا المصحف الجامع الذي سُمّي يومئذٍ ـ ولا يزال يسمّى إلى يومنا هذا ـ "مصحف عثمان" .

على أن المشكلة لم تُحلّ تماماً بظهور "مصحف عثمان" إلى الوجود .. فقد بقي منها طرَف ، كان أشدّ أطرافها حساسيةً وأكثرها إحراجاً ..

فقبل أن يتم بُزوغ هذا المصحف الجامع ، كانت هناك مصاحف أخرى لنفر من الصحابة ، وكان من بينها اختلاف في بعض الآيات نطقاً ورَسماً ، وكان الرسول عليه السلام قد أقرّ أكثر هذه القراءات حين قال :

« أُنْزِلَ القرآنُ على سبعة أحرُف » .

الأمر الذي نَتج عنه فيما بعد ظهور القراءات السبع المعروفة ، وكان "عثمان" في إرادته حسم الخلاف والاختلاف ، وفي إيمانه المطلق بضرورة هذا الحَسْم ، لا يجد أمامه سوى اتجاه واحد ، هو جمع المسلمين جميعاً على مصحف واحد ، هو هذا الذي أنجزَه وأقرَّه .

فماذا عساه يصنع بالمصاحف الأخرى ، وبالألواح التي كانت لا تزال موجودة عند بعض الصحابة حاملة عدداً من الآيات ؟

لقد جمعها جميعاً وأنْهَى مُهمتها ، مفسحاً مكانها للمصحف الواحد الجامع ، يلتقي المسلمون حول آياته المباركات عَبر القرون تِلْوَ القرون .

* * *

هكذا أعطى "عثمان" عزمه الرشيد لمسئولياته الجسام .

وملأ بصدقه وباقتداره وبإقدامه فراغاً كان يمكن أن يتحول إلى هُوّة فاغرة تشدُّ إلى قيعانها الغائرة البعيدة كثيراً من مُقدَّرات الدين ومصائر المسلمين .

ولكن ، هل كانت ريح الخلافة تجري رخاء خلال تلك السنوات التي ملأ الخليفة فيها دُنيا الإسلام فتحاً وخيراً ..

لعلها كانت كذلك لوقت قصير ، قد لا يجاوز العامين أو الثلاثة . أمّا ما بقي بعد ذلك من سنوات الخلافة الطوال ، فقد تحولّت الريح الباردة الهادئة إلى عاصفة ، أخذت تتجمّع شيئاً فشيئاً وينادي بعضها بعضاً حتى تحولت إلى إعصار كُتب على الخليفة الشيخ أن يواجهه وحده في محنة هبطت بها شراسة المتآمرين إلى السفح .. وارتفع بها تسامح الخليفة إلى القِمّة .. !!

وقد آن لنا الآن أن نصحب التاريخ إلى تلك السنوات التي شهدت نشأة وتطوُّرَ ونهاية الأحداث التي لا تزال ذكراها تفجع الأنفس وتُروّع الأفئدة ، برغم احتجابها وراء أربعة عشر قرناً من الزمان !!

■ ■ ■

السّنوات الصّعبة

إن التغيير الهائل الذي أحدثه الإسلام في خريطة العالم المحيط به ، وفي عقائده ونظمه ونفسيته لم يكن ليمرّ دون أن يعكس آثاره بصورة أو بأخرى على الإسلام نفسه ، مُمَثّلاً في دولته وفي مجتمعه . ومُمَثّلاً بصفة خاصة في القادة والروّاد الذين حملوا أكثر من سواهم أعباء هذا التغيير العظيم .

ولقد كان اغتيال الخليفة الراشد العظيم أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" أُولَى ظواهر هذا الانعكاس الخطير .

كان نذيراً واضحاً بأن ردود الفعل لتلك الفتوحات الإسلامية الطامية ، قد بدأت تنفذ قانونها وتفرض سلطانها .

لقد مزّقت الفتوحات العريضة يومئذٍ مُلك فارس والروم . وبقيت نقمة الفلول المتبقية من السلطات المنهارة ناراً تشحذ ضرامها تحت الرماد .

وجاء الفتح بمشاكل الثراء الطارئ والدنيا الحافلة بالإغراء ، والاختلاط الهائل بين أجناس وأمم وتقاليد .

كان لابدّ لهذا كله من أن يعكس على الفاتحين ظلاله .

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستشِفّ من وراء الحجُب تلك الانعكاسات المنذِرة .

يقول أسامة بن زيد رضي الله عنهما :

« أشرف النبي ﷺ على أُطُم ـ أي مُرتَفع ـ من آطام المدينة وقال : هل تَرَوْن ما أرى .. ؟

قال أصحابه الذين كانوا معه : لا ..

قال : فإني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر » ..

ويقول عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال رسول الله ﷺ :

« إذا مشت أمتي المطَيْطَاء ـ أي الخيلاء ـ وخدمتها أبناء الملوك ، فارس والروم ، سُلّطَ شرارها على خيارها » ..

وهو بهذا ، يشير إلى ردود الفعل المحتومة لفتحهم الواسع العظيم ، ويهيّئ نفوسهم لتأخذ حِذْرَها ، ولتكون مستعدة لمواجهة الأحداث المقبلة بما سلّحها الإسلام من فضائل وثبات .

* * *

والحقّ أن الفتن التي تعرّض لها الإسلام والمسلمون في عهد الخليفة "عثمان" ، والتي فرضتها حركة التاريخ عليه فرضاً ، دون أن تكون له يد في إرجائها ، ما كان في وُسع أحد أن يدفعها .

صحيح أنه ربما كان من الممكن تخفيف ضراوتها ، أو تأجيل هُبوبها . أما دَحْضُها بصورة شاملة فما نحسب ذلك كان في مستطاع أحد .

لقد كانت تلك الأحداث على جسامتها جزءاً من حركة الزمن الإنساني والتطور التاريخي . وكانت مظهراً لِسنَّة تاريخية فرضت نفسها على كل الحركات الكبرى عَبْر تاريخ الإنسان .

ولقد أرادت مقادير "عثمان" له ، أن يَصطلي بمسئوليتها مرتين :

الأولى : عندما اختارته المقادير ليكون الخليفة الذي يشهد عهدُه وأيامه مقدم الفتن وإنجاز المؤامرات .

والثانية : عندما حُمِّل أوزار تلك الأحداث التاريخية واعتُبر مسئولاً عنها !!

ومن الظلم للخليفة ، وللحقيقة أيضاً ، أن نرى في الخلاف الذي قام بينه وبين نفر من أصحابه ومن المسلمين الوافدين من بعض الأقطار جوهر الفتنة ، وشكلها الوحيد .

فما كان هذا الخلاف ، وما كانت الأخطاء التي أُخِذَتْ على الخليفة يوم ذاك سبب الفتنة الضاريـة ، بل كانا ـ الخلاف والأخطاء ـ واحدة من نتائج كثيرة لمؤامرات بعيدة الغوْر ، أحكمتْ تدبيرها قوًى أجنبية ، مستعينة بعناصر عميلة دخلت الإسلام خِلْسَة ، لتكيد له وتُخَرِّب فيه .

ولو أن الأخطاء التي عُزيت إلى الخليفة "عثمان" كانت سبب الفتن الهُوج التي تعرَّض لها الإسـلام ، فمـا الأخطـاء إذن ـ التي كانت سبباً في اغتيال أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" .. ؟؟

لقد كان مقتل "عمر" كما قلنا الرصاصة الأولى التي أطلقتها في المعركة الخفِيَّة ، قُوَى الشر المتحالفة ضد الإسلام .

وما عرف الناس لأمير المؤمنين "عمر" خطأً واحداً ، فضلاً عن أخطاء تبرر اغتياله الأثيم !!

ولسنا قادرين ـ مهما نتسامح ـ على أن نعتبر جريمة اغتياله جريمة فردية .

وحتى لو كانت كذلك ، فإن امتدادها لم يكن عملاً فرديًا ، بل صار عملاً جَماعيًا ، شاركَتْ فيه جميع القُوى التي خضَد الإسلام شوكتها .

فاليهود الذين أُجْلوا عن المدينة ، وشتَّتهم غدرهم في البلاد .

والإمبراطورية الرومانية التي فرط الإسلام عقدها ، وكنس نفوذها بعيداً عن البلاد التي كانت تحتلّها وتستعمرها ، ودفعها داخل حدودها الضيقة .

والإمبراطورية الفارسية التي صنع بها مثلما صنع بالروم ، والتي خسرت كل مصالحها وكُنوزها وأساطين قادتها العسكريين .

كل هؤلاء لم تجف دمـاء أحقـادهم على الإسلام وعلى دولته الناهضة في شموخ عظيم . ولم يهدأ نعيب الثأر في أنفسهم إلا ريثما تواتيه الفرصة ، في يوم ، راحوا يُعِدُّون له ، وَيَتَهَيَّئُون .

ولقد جاءتهم الفرصة في مقتل "عمر" أمير المؤمنين .

من أجل ذلك رأينا التمرد المسلح يجتاح كثيراً من البلاد التي كانت الإمبراطوريتان قد خسرتاها في حروبها السابقة مع الإسلام .

ولم يكن تمرداً داخليًّا من أهل تلك البلاد الذين كانوا ـ كما أسلَفْنا من قبل ـ قد فرحوا بمقدم الإسلام إليهم فرحاً عظيماً ، حتى الذين لم يعتنقوه منهم .. إنما كان تحريضاً من الروم والفرس لبعض العناصر التي أفقدها الإسلام نفوذها وسلطانها ، كما كان في حالات أخرى هجوماً مباشراً من جيوش الروم والفرس على تلك البلاد .

وكما تحرَّك هؤلاء من الخارج ، فقد تحرَّك اليهود من الداخل .. ولم يكن عبثاً ولا مُصَادَفَة أن يَفد من اليمن إلى المدينة في عهد "عثمان" يهودي يقول : إنه درس الإسلام وأحبه ويريد أن يعلن إسلامه ويأخذ مكانه في صفوف المؤمنين ، ثم يلعب هذا اليهودي تحت قناع إسلامه ، أخطر وأفدح دور في تمزيق وحدة المسلمين وتجهيز الفتنة المسلحة التي أودت بحياة الخليفة الشهيد ـ ذلكم الرجل هو : عبد الله بن سبأ ، الذي سنشهد طرفاً من نشاطه المخرِّب عمَّا قريب .

لم تكن ـ إذن ـ المآخذ التي جُوبه بها الخليفة ، والتي سنناقشها فيما بعد ، سبب الفتنة ولا قِوامها ـ إنما هي المؤامرة العابثة ضد الإسلام كانت تنسج خيوطها من بعيد ، حتى إذا واتَتْها الفرصة وساعدها الزمن ، قفزت فوق مسرح الأحداث لتلعب دورها جهرة وعلانية .

ولكي تكتمل جوانب الصورة الصحيحة للقضية ، علينا أن نعود بالحديث إلى عهد قديم .

هناك صورة غامضة وغير واعية تغْشى إدراك كثيرين منا حينما نفكر ، أو حينما نتصور الجزيرة العربية في ماضيها السحيق ، فنحسبها مجرَّد مَتاهَة عريضة في الصحراء ، يسكنها ناس معزولون عن عالَمهم لا يهتمون بأحد ، ولا يهتمُّ بهم أحد .

ونتصورها ـ عندما جاءها الإسلام ـ مجرَّد قبائل متنائية ، وقُرًى متباعدة ، جاثية فوق الرمال ، تتوسطها أُم القُرى "مكة" التي تغدو قوافل تجارتها وتروح ، بينها وبين الشام ، ثم هي بعد هذا لا تهتمُّ بأحد ، ولا يهتمُّ بها أحد .. !!

وهذه الصورة فضلاً عن مجافاتها للصواب ، فإنها تعزل إدراكنا وفهمنا عن المقدمات الهامة التي لا نستطيع بدونها تفسير الأحداث الهائلة التي شهدتها جزيرة العرب قبل الإسلام ومع الإسلام .

ولكي ندرك الصورة الصحيحة ، لن نحتاج إلى الإيغال في الزمن البعيد ، حيث قامت في جنوب الجزيرة العربية حضارات المَعِينيِّين والحضرمَوْتيين ، والسَّبَئيين ، الذين جعلوا بلادهم جِناناً عن يمين وشِمال .

وحيث قامت في شمال الجزيرة مدينة "البتْراء" تسيطر على طريق القوافل بين الشمال والجنوب ، وتتشامخ حصونها المنيعة ، حتى تدحر على أبوابها عام ٣١٢ قبل الميلاد جيش "أنتيجونوس" أحد خلفاء الإسكندر الأكبر ، وتزدهر فيها حضارة عربية رائعة وباهرة .

وحيث قامت "تَدْمُر" التي أنشأتها في بلاد الشام بضع قبائل عربية ، خرجت من جزيرة العرب فنهضت بحضارة سامقة ، وشادت قوة عسكرية جبارة مكنتها من أن تنزل بالفرس هزيمة منكرة ، وتستولي منهم على سورية ، وبلاد ما بين النهرين عام مائتين وستين بعد الميلاد . مما جعل إمبراطور الروم آنئذٍ يتخذ من "أُذَيْنَة" حاكم "تدمُر" نائباً له في سوريا ومصر وأرمينية .. !!

وحيث خرج من اليمن في جنوب الجزيرة العربية نفر من القحطانيين ، فأسسوا مملكة "اللَّخميين" في العراق .

كما خرج منهم نفرٌ آخرون أسَّسُوا مملكة "الغَساسنة" في سوريا .

أقول : لن نحتاج إلى الإيغال وراء ذلك التاريخ الذي يكشف عما كان لشبه الجزيرة العربية من حياة وأهمية وخطر ، وما كان لها وللقبائل النازحة منها صوب العراق وسوريا من علاقات متكافئة في أحايين كثيرة مع الإمبراطوريتين الكبيرتين ـ فارس ، والروم .

وسيكون حسْبنا إلقاء نظرة سريعة على شبه الجزيرة العربية وعلى مكانتها وعلاقاتها منذ بزوغ الإسلام ، أو قبل ذلك بقليل .

فقبيل الإسلام كانت الجزيرة العربية موضع اهتمام القريبين إليها والبعيدين منها ، على الرغم من عدم وجود أيٍّ سلطان سياسي لها يوم ذاك .

وعلى الرغم من أن مطامع الغزاة كانت تولِّي وجهها دائماً شطر الجنوب حيث بلاد اليمن باستراتيجيتها وخيراتها ، فإن الشمال كان لا يغيب عن اهتمامهم كذلك ، فهناك مكة بثرواتها وازدهارها . وفي مكة "الكعبة" التي تهوي إليها أفئدة العرب من كل مكان ، وتهيِّئ لـ "مكة" نفوذاً رُوحيًا لا يُقاوم ..

من أجل ذلك نرى "أبرهة" نائب إمبراطور الحبشة يومئذٍ يقود جيشاً لجِباً لغزو مكة وهدم الكعبة ، وذلك بعد أن عجزت كنيسته التي بناها في صنعاء عن اجتذاب العرب إليها كما كان أبرهة يظن ويتوهَّم .

وكانت "مكة" كطريق للقوافل ، وبتجارتها الواسعة مع الشام ، يعيش أهلها في اهتمام مُتَبَادَل مع العالم الخارجي .

ونَمَت هذه الاهتمامات المتبادَلة مع ظهور الإسلام ، فنرى النبي عليه السلام يختار الحبشة دار هجرة لأصحابه الذين اضطهدتهم قريش .

كما نراه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكتب كتبه ، ويُرسل مبعوثيه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

فبعث إلى قيصر الروم ، وإمبراطور الفرس ، ونجاشي الحبشة ، وعزيز مصر ، وإلى رؤساء عُمان ، والبحرين ، واليمامَة ، والشام .

وحين أوقع الفرس بالرومان هزيمة منكرة ، واستولوا على مستعمراتهم في آسيا ، كما دخلوا مصر ، وقرعوا أبواب القسطنطينية ، تغشى المسلمين في المدينة همٌ عظيم ، فقد كانوا حسبما علّمهم دينهم يتعاطفون مع أهل الكتاب ، وكان الرومان نصارى ، فأحزن المسلمين أن ينتصر عليهم عُبَّاد النار من الفرس ، ونزل الوحي يطمئنهم ويحمل لهم عزاء وبُشرى في سورة سمّيت باسم "سورة الروم" .

﴿ آلم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

إلى هذا المدى كان اهتمام المسلمين بالعالم الخارجي وتلاحُمُهم مع مشاكله وتطوُّراته .

ولقد صدقت آيات الله وتحقق وعده ، فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى أنزلت جيوش الروم بجيوش الفرس هزيمة منكرة ، واستردّت الإمبراطورية الرومانية من "فارس" ما كانت قد استولت عليه في حربها السابقة .

بيد أن قيصر الروم لم يلبث وقد أسكره انتصاره على الفرس أن تنمّر للمسلمين ، وخشِيَ على مُلكه من قوّتهم المتعاظمة ، فجمع صفوف جيشه في الشام ، وقرر الهجوم على الجزيرة العربية .

وهنا نلحظ المزيد من اهتمام الرسول ﷺ والمسلمين بالعالم الخارجي ، ونشهد سلامة تقديره عليه السلام لكل موقف يُزجيه ذلك الاهتمام .

وهكذا رأيناه يرفض التسامح تُجاه هذا التهديد الموجَّه لأمّتِهِ وبلاده ، فيخرج في أيام بالغة القيظ والعسرة ليلاقي الروم بكتائب الإسلام ـ هناك عند حدود الشام ـ في غزوة "تبوك" التي لم ينشب فيها القتال ، إذ آثر قيصر الروم السلامة ، ورجع من حيث جاء .

كما نراه عليه السلام يوصي في مرض موته قائلاً :

« انْفِذُوا بَعْثَ أُسامة » ..

وكان "أسامة" قد وضعه الرسول ﷺ على رأس جيش وُكلت إليه مهمة زجر أولئك المتربصين بحدود البلاد .

* * *

لم تكن الجزيرة العربية إذن تعيش في تِيهٍ ولا في خَواء .. لا قبلَ الإسلام ولا بعد بزوغه ، بل كانت دائماً في بؤرة اهتمام العالم الخارجي ، كما كان العالم الخارجي في مركز اهتمامها .

حتى إذا جاء عهد "عمر" وزحفت جيوش الإسلام حاملة رايات الحقّ والبذل والهدى والخير ، وتهاوت تحت سنابك خيلها إمبراطوريتا الروم والفرس ، كانت الجزيرة العربية التي أصبحت "الوطن الأم" للإسلام قد فرضت اسمها والاهتمام بها على كل فم ، وعلى كل سَمْع ، وعلى كل فؤاد .. !!

صار المسلمون يومئذ ـ الزاحفون من مدينة الرسول إلى عالم الشرك والضلال في كل مكان ـ حديثَ العالم الخارجي بأسره ، وموضوع اهتمامه الوحيد .

وعلى الرغم من أن القوة العسكرية والسياسية للروم كانت قد تحطمت أمام جيوش الإسلام ، فإن سعير الثأر لم يخمد ولم يَنَمْ في صدور الذين ظلُّوا أحياء ، ممن كان لهم في ديارهم وبلادهم نفوذ وسلطان .

ففي "فارس" كما في "الروم" كان الكهنة ، والقناصلة ، وأشراف البلاط ، والإقطاعيون مالكو الأرض ، ومحتكرو التجارة والثروات .. كان هؤلاء جميعاً يحملون للعرب والمسلمين حقداً يضاهي ما فقدوه من كنوز ، ونفوذ ، وسلطان ..

وكان هناك في الجانب الآخر ، يهود بني قَيْنُقاع وبني النضير الذين نُفُوا إلى الشام ، فاتخذوا منها حتى بعد الفتح الإسلامي مركزاً لصنع الفتنة وتصديرها إلى كل مكان تناله أيديهم ومكائدهم .

كانت مؤامرات هؤلاء وأولئك ضد الإسلام تتجمع كالسيل الطامي .

وكان "عمر" بكل يقظته ، والدولة المسلمة بكل عنفوانها ، يقفان سَدّاً منيعاً ، وارادعاً .

فلمّا مالَتْ شمسُ "عمر" للمغيب ، وجدت المؤامرات الضارية المسعورة لنفسها منفذاً عريضاً ، فكانت الحروب المسلحة التي واجهت المسلمين في بقاع كثيرة أوَّلَ خلافة "عثمان" ، والتي تحدثنا عنها من قريب .

حتى إذا أحسنَتْ جيوش الإسلام تأديب المتآمرين وحطمت جيوشهم على غزارتها ، وخيَّبت إلى الأبد آمالهم في تَسَوُّر حدود الدولة المسلمة الشامخة ، ألقَوْا سلاحهم صاغرين مدحورين . بيد أنهم لم يُلْقُوا ما في صدورهم من ضغن مسموم ، بل ازدادت أضغانهم سُعاراً ولَهَباً . وقرروا أمام إخفاق حملاتهم العسكرية ، أن يَلْجَئوا إلى أسلوب آخر ، وهو الائتمار بالدولة من الداخل ، والتسلل بالفتنة إلى الصفوف الأولى بين قادة المسلمين من كبار أصحاب الرسول ﷺ ، ثم بين صفوف الجماهير في أقاليم الدولة البعيدة والقريبة .

ولقد كان ذلك العبء المُبْهِظ الثقيل مُدَّخراً للرجل الذي سيتلو "عمر" في الخلافة .

وكان هذا الرجل "عثمان" رضي الله عنه وأرضاه . دفعته مقاديره ليحمل فوق كاهله مسئولية هذه "السنوات الصعبة" في تاريخ الإسلام كله .

وإنا لنعترف بأن في وصف تلك السنوات بالصعوبة وحَسْب ، تبسيطاً كبيراً لخطرها .. فالحقّ أنها كانت أكثر من "صَعْبَة" ، بل أكثر من "رهيبة" .

* * *

تنطوي البلاد المفتوحة دائماً على مشاكل تُؤرِّق الفاتحين .

وعلى الرغم من أن الإسلام كان ينشر رحمته وعدله على تلك البلاد فَوْرَ فَتْحها .

وعلى الرغم من أن فتحه لها كان تحريراً لشعوبها من طغيان مستعمرين عُتاة ، فرساً كانوا

أو روماناً .. فإن ذلك لم يقضِ على مشاكل الفتح كلها ، وإن كان قد قضى على الكثير منها .

بيد أن البقية الباقية من المشكلات أخذت تنمو وتتضخم مع مرور الأيام وتقادم العهد .

* فمثلاً ، بعد أن كانت شعوب البلاد المفتوحة تَشرُف وتسعد بأن يكون وُلاتُها من أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين يختارهم أمير المؤمنين في المدينة ، ويوفدهم لحمل مسئولية الولاية ، أخذ بعض هذه الأقاليم يتساءل أهله أو بعض أهله : لماذا لا يكون وُلاتُنا منا أنفسِنا .. ؟ ولماذا مِن قريش أو من المدينة .. ؟!

وكان لبعض هؤلاء مناورات كاد يضجَ منها "عمر" نفسه برغم حزمه وصرامته .. وحسبنا واحدة منها تبعث الأسَى بقدر ما تُفجِّر الضحك .. يوم سأل أهل الكوفة أمير المؤمنين "عمر" أن يعزل عنهم واليهم الذي كان من خيار الصحابة وأجِلائهم ، مُبرِّرين طلبهم هذا بقولهم : « إنه لا يُحسِنُ يُصلِّي » !!!

* وبعد أن كان أهل تلك الأقاليم في بَهَر عظيم بما أفاءه الإسلام عليهم من عدالة وفضل ، حتى رأوا دولته المنتصرة تترك لكلِ زارع أرضه ، ولكل تاجر متجره ، بل لقد حرَّمت على رجالها أن يأخذوا من ذمِّي شِبراً من أرضه ، ولو كان ذلك شِرَاء . وبعد أن بهرتهم الحماية والأمْن اللذان أفاءهما عليهم الإسلام ، نظير خراج عن أملاكهم التي لم يمسَسْها سوء ، عادوا أو عاد بعضهم يتساءل : ولماذا الخرَاج .. ؟!

* وبعد أن كانت روح الإسلام تُدثِّرهم جميعاً ، كأمَّة واحدة ، حتى الذين لم يسلموا وآثروا البقاء على دينهم ، وعاشوا في الدولة مُواطنين تربطهم بها عهودٌ وذِمَم .. حتى هؤلاء صهرتهم روح الإسلام ، فلم يُشكِّلوا بين وحدتها الجامعة الصاهرة نُتوءاً ولا نشازاً . نقول بعد أن كان ذلك كذلك ، عادت العصبية تَذرُّ قَرْنها ، والقَبَلية ترفع رأسها ، والشعوبية تقول : ها أنذا .. !!

* وبعد أنْ كانت سياسة "أبي بكر وعمر" تقوم على استبقاء زعماء الصحابة وكبارهم بالمدينة ، لا يغادرونها أبداً ، تغيَّر المنهج في عهد "عثمان" .. فانتشر بعضهم في الأرض . وهكذا توزَّع مركز الثِّقَل الذي كان مُوحَّداً بالمدينة ، وفُتِن كل إقليم بزعيم .

* وبعد أن كانت نِعم الحياة وطيباتها خاضِعةً لإرادة الترفُّع والزُّهد ، راحت أسباب كثيرة تعمل عملها في تطويع الأنفس لسلطان الدنيا وإغراء الترف .. وعلى الرغم من أن صَفْوةً كبيرة من أصحاب الرسول ﷺ ظلوا مستمسكين بعزوفهم وزهدهم ، فإن المجتمع الإسلامي وقد غمره الرخاء وغطّاه الثراء ، راح يتخطى كوابح الضمير المتصوِّف ، آخذاً من طيبات الحياة فوق حاجته ، وناهلاً من مناعمها بغير حساب .. !!

هذه العوامل التي ذكرناها ـ تُشكِّل ، أو قولوا : تُصوِّر "المناخ" الذي ستعيش فيه السنوات الصعبة بكل مشكلاتها وأزماتها .

وهذه العوامل كلها كانت ـ برغم خطورة عواقبها ـ صورة لطبائع الأشياء ، فليس من شِيم الحياة البشرية مهما سَمَت نوازعها وسَيْطر تقاها أن تظل على وتيرة واحدة ، ولا أن تتجمَّد في أنماط واحدة .

ونستطيع أن نلخص كل هاتيك العوامل في وصف واحد ، هو "التوتُّر" .

ولقد كانت هناك ظروف تاريخية ، واجتماعية ، ونفسية ، تجعل هذا التوتر محتوماً .

كما أنه كان من الممكن أن يتحول هذا التوتر إلى طاقة صاعدة ، ومَخاض سديد ، تتحول خلالهما الأزمات المزعجة إلى حُلول سعيدة ، وتلتقي مشيئة العصر بمشيئة التطور في غير فتنة ومن غير سوء .

أجَلْ .. كان ذلك ممكناً لو لم تتقدم القوى الشريرة بكل ما يملأ أفئدتها من حقد ، وبكل ما يفعم عزمها من تربص وإصرار ...

هذه القوى المتمثلة ـ كما ذكرنا من قبل ـ في الطوائف التي حطم الإسلام نفوذها الطاغي ، وسلبها امتيازاتها الظالمة .. ولم يكن يخلو من هؤلاء بلد ولا مكان .. والمتمثلة كذلك في القبائل اليهودية التي لم تكفَّ لحظة عن الكيد للإسلام منذ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة .

لقد شحذت كل هذه القُوى أنيابها في عهد "عثمان" وركّزت جميعها على تغذية الشكوك ، وتوهين الولاء للدولة ، وتصعيد الأزمَات ، وتحويل "التوتُّر" من طاقة تتلمَّس الطريق نحو الأفضل والأمثل ، إلى قوَّة هدَّامة ، وفوضى مخرِّبة .. !

* * *

في ذلك الحين ، وفي ظروف مُريبة ، وفَد على المدينة من اليمن يهودي اسمه ـ عبد الله بن سبأ ـ وكُنيتُه ـ ابن السوداء ـ حيث انتحل الإسلام .. ثم انتحل الغيرة الشديدة على قِيَمِهِ وحُرُماته .

وفي المدينة ألْقى سمعه المرهف لكل كلمة وكل نبأ .

سمع نقداً بريئاً يوجهه الصحابة لبعض الأخطاء فراح يتتبعه ، ليجمع من شتاته صحيفة اتهام !!

ومضى يدرس في صمت ودهاء كل جوانب الحياة في المدينة ، ويفحص مواطن الضعف والقوة ، ويتسمَّع أخبار الأقاليم والأمصار ، ويتبين أقدار الصحابة وحظ كل منهم من النفوذ والمكانة .

حتى إذا جمع مادَّته ، وعرف طريقه ، وأتمَّ رسم خُطَّته ، شرع على الفور في العمل والإنجاز .

وأدرك ـ ابن سبأ ـ أنه لكي ينشر الاضطراب في الدولة والأمة ، عليه أن يوجه مبُادرته الأولى إلى الخليفة ذاته ، وإلى شرعية منصبه كخليفة للمسلمين ، ولكي يتيسر له ذلك ، لابدَّ من أن يرفع في وجه الخليفة شخصية من الصحابة تضاهي الخليفة في جلاله وأسبقيته .

هنالك بدأ نفثاته المسمومة بهذه العبارة :

« إن لكل نبي وصيًا ، وإن "عليًا" وَصِيُّ "الرسول" ﷺ ، ولقد وثب "عثمان" على أمر هذه الأمّة ، وأخذ الحقَ من صاحبه » .. !!

وراح يُزكّي دعوته هذه ، بطائفة من الأحاديث التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أطْرَى بها "عليًا" وزكّاه . مثل قوله عليه السلام :

« مَن كنتُ مولاه ، فَعَليٌّ مولاه » .

ومثل دعائه عليه السلام بشأن عليّ :

« اللهم وَالِ مَن وَالاه ، وعَادِ مَن عاداه » .

وعلى الرغم من أن الإمام "عليًا" كرم الله وجهه لم يكد يسمع دعوة ابن سبأ ، حتى عنّفه وسفّهَهُ ، وحذّر المسلمين من خبث طويته ، وسوء تدبيره .

نقول على الرغم من ذلك ـ فإن ـ ابن سبأ ـ ظلَّ سادراً في خُطته . وانطلق كالريح السَّموم يشعل نيران الفتنة في أقطار الإسلام ، فرحل إلى البصرة .. ثم إلى الكوفة .. ثم إلى الشام .. ثم إلى مصر التي استقر بها طويلاً .

وخلال رحلاته تلك ، اصطفى من المفتونين به أنصاراً وحواريِّين ، أطلقهم هم الآخرين ليطوّحوا بفتنته في الآفاق ، ورسم لهم منهجهم في هذه الكلمات :

« تظاهروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس إليكم .. وَابْدَءُوا بالطعن في أمرائكم .. وقولوا للناس إن "عثمان" قد أخذ الخلافة بغير حقّ .. وإن "عليًا" وَصِيُّ رسول الله ﷺ ، فانهضوا وردُّوا الحقَ إلى صاحبه » .. !!

ومِن عَجب أن الفتنة الضارية التي تمادت حتى مقتل عثمان رضي الله عنه ، سارت وَفق هذه الوصايا الثلاث .

فأولاً: لَبِس المحرضون عليها والمسهمون فيها مُسوح الرهبان ، ورفعوا في أيمانهم شعار الأمر بالمعروف وتغيير المنكر .. !!

وثانياً: راحوا يطعنون في الأمراء والولاة ، ويُجسِّمون أخطاءهم ويَدْحضون وُجودهم .. !!

وثالثاً: رفعت الفتنة رأسها ، لتواجه الخليفة مباشرة ، وتطالبه بضرورة التنحّي والاعتزال .. !!

ولقد كانت هناك عوامل كثيرة أحسن ابن سبأ ودعاتُه استغلالها ، ومكّنت لدعوته بين أعداد كبيرة من الناس في الكوفة ، والبصرة ، ومصر . وكان من بين تلك العوامل ، بل على رأسها ، سلوك بعض المسئولين والولاة من الأمويين .

وفي تقديرنا أن دور هؤلاء في مضاعفات الفتنة ، لا يتمثل في أخطائهم التي كان يمكن إصلاحها وتلافيها ، بقدر ما يتمثل في تجاهلهم صيحات النذير ، وفي استجابتهم لنداء الغرور المستَعْلِي ، والكبرياء المتحدية ، ثم في مقامرتهم بمصير الخليفة ذاته في سبيل أهواء كان في استطاعتهم كبحُها ، دون أن يعود عليهم هذا الكبْح بخسران أيِّ

خُسران .

فموقف "معاوية" عامل الخليفة على الشام يومئذٍ من وفد المعارضة لم يكن في مستوى مسئولياته ، ولا في مستوى ما عرف عنه من قدرة على الحلم والدهاء .

لقد نهرَهُم بكلمات شدَّت فيهم زناد الموْجِدة والغيظ ، حين قال لهم :

« بلغني أنكم تَنقِمُون قريشاً ، وإن قريشاً لولاها لَعُدْتُم كما كنتم أذِلّة . إن الله بنى هذا المُلك على قريش ، وجعل هذه الخلافة فيها ، ولا يصلح ذلك إلا لها » ..

ثم تمادى ـ عفا الله عنه ـ في عصبيته هذه فقال :

« وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابنَ أكرمها ، إلا ما جعل الله لنبيِّه » ..!!

و "سعيد بن العاص" ، عامل الخليفة على الكوفة ، يجلس وسط الناس وقد أسْكَرَتْه السُلْطة ، ويلَوِّح بيمناه صوب أرض العراق التي تهتز خضرة ، وزرعاً ، وغراساً ، ثم يقول :

ـ « إنما هذا السَّواد بستانٌ لقريش » .. !!

قريش .. قريش .. ؟؟!!

ماذا جرى ، حتى أخذت كلمة "قريش" مكان كلمة "الإسلام" .. ؟!

إن استخدام هذه "النغمة" كان سابقة خطيرة .. فمزيَّة الإسلام العظمى أنه هدَمَ ـ وفي سنوات معدودة ـ قواعدَ عصبيةٍ ، كانت من أشدِّ عصبيات التاريخ ضراوة وعُتُوّاً ..

الآن تعود العصبية فتطلق أهازيجها .. ؟ وعلى لسان حاكمين من حكام الدولة ومسئوليها .. ؟! على أن الإنصاف يقتضينا أن نذكر دور المتمردين يومئذٍ في بَعْثِ تلك النغمة الكريهة .

فلقد كانت أساليبهم في المعارضة تُثير غيظ الحليم ، لكأنما كانوا يضعون نصْبَ أعينهم إثارة الدولة بكل رجالها ، واستفزازها بمختلف الوسائل والمُثيرات ، حتى يتصرف المسئولون فيها بأعصاب متوترة مشدودة !!

ومثل واحد يغنينا بفظاظته وغلظته عن عشرات الأمثال يقدمه لنا ـ جبلة بن عمرو ـ أحد زعماء المتمردين يومئذٍ ، حين تصدَّى للخليفة نفسه أمام جمع كبير من المسلمين ليقول له :

« ـ والله لأقتلنك يا نَعْثَل .. ولأحْمِلَنَّك على قَلُوصٍ جَرْباء » .. !!

نَعْثَل .. ؟؟

أهذا وصف يُنْعَتُ به ، وفي وجهه ، وأمام جموع المسلمين ، ثالث خلفاء الإسلام ، ومَنْ لقَّبه الرسول ﷺ بـ "ذي النورين" وقال عنه : « .. ورفيقي في الجنة عثمان » .. ؟

وهل على قَلوص جرباء ، يريد جَبلة بن عمرو وعصابته ، أن يحملوا الخليفة الطاهر الذي جهَّز جيش العسرة بألف بعير وفرس ، لم يكن فيها جرباء ولا عرجاء .. ؟!

إننا الآن ، وبعد ألف وأربعمائة عام ، ولا تصلنا بتلك الوقائع سوى الكلمات المسطورة في كتب التاريخ ، ليأخذنا غيظ مرير من أمثال تلك المجابهة المتهورة .. فكيف إذن كانت مشاعر الذين يشهدون بأعينهم ، ويسمعون بآذانهم ، ويبصرون الخليفة في جلال مَشيبه يتعرض لمثل تلك المِحَن والجهالات والشرور ..؟ وكيف كانت مشاعر الخليفة ذاته .. ؟!

على أنه إذا كان في الواقعة التي ذكرناها ما يثير الغيظ والأسَى ، فلنعلم أنها كانت أخفُ ما تعرَّض له الخليفة يومئذٍ ، إذا هي قِيسَت بوقائع أخرى كثيرة تحدَّى بها المغامِرُون سُلطان الخلافة وكرامَتها .

أجل ، سلطان الخلافة وكرامتها .. فالخلافة لا الخليفة ، والدولة لا رئيسها ـ كانت هي الهدف الذي عمل له المتآمرون طويلاً ..

هذه "السنوات الصعبة" لم يكن "عثمان" رضي الله عنه هو الذي خلع عليها هذا الوصف .. بل هي التي فرضت عليه وعلى الدولة كلها صعوبتها ، ومَشاقَّها ، وأخطارها ، وذلك بما كان يُدَّخر لها من فتن طال من قبلُ أمَدُ تَبيينها .

بيد أن ذلك كله لن يُعْفِينا من هذا السؤال المحتوم .

ـ أين كان "الخليفة عثمان" من تلك الأخطاء التي أجاد المتآمرون استغلالها ؟؟

* * *

في استطاعتنا أن نردَّ تلك المآخذ كلها إلى أربعة أصول :

أولها : عن الولاة .. فلقد أخذوا على الخليفة أنه عزل نفراً من الصحابة ووضع مكانهم نفراً من أقربائه الذين لم تكن لهم أو لبعضهم على الأقل سابقة ترفعهم إلى مستوى الولاية على المسلمين .

ثانيها : عن الأموال العامة .. فقد قيل : إن الأمويين استغلوا صلتهم وقرابتهم ، فاستحوذوا على ما ليس لهم بحقّ .

ثالثها : عن موقفه من بعض فضلاء الصحابة .. وعن بعض الإجراءات العنيفة التي اتُخِذت ضد بعضهم .

رابعها : عن موقفه من بعض مسائل الدين .. إذ كان له فيها اجتهاد خاص .

* * *

فأما عن الوُلاة ، فمن حقّ الخليفة أن يختار الرجال الذين يعاونونه على حمل مسئوليات الحكم ، ما دام هذا الاختيار لا يَنجمُ عن هوًى يُناقض أو يناهض القِيمَ الرئيسة للدولة وللمجتمع ، وهي هنا ـ كتاب الله ، وسنّة رسوله ﷺ .

على أن "عثمان" رضي الله عنه ، وإن يكن التغيير من حقّه ، لم يستعمل هذا الحق مبادئاً ، إنما دفعته إليه ظروف الأقاليم التي غيَّر وُلاتها ، وإلْحاح أهل تلك الأقاليم بضرورة التغيير .

وأول إقليم ناله التغيير ، كان إقليم الكوفة ، وكان واليه "المغيرة بن شعبة" ، ولقد رغب أهل الكوفة في تغييره .. فعزله "عثمان" وولّى مكانه "سعد بن أبي وقّاص" .

وظل "ابن أبي وقّاص" حاكماً للكوفة حتى نشب خلاف كبير بينه وبين "ابن مسعود" الذي كان خازناً لبيت المال فيها ، فعزل الخليفة "سعداً" ووضع مكانه "الوليد بن عقبة" .

وبقي الوليد بن عقبة والياً عليها .. وأبلى بلاء مبيناً في غزو أذربيجان وأرمينية ، ولكن حين نمى إلى الخليفة أنه يشرب الخمر .. استدعاه إلى المدينة على الفور ، فأقام عليه الحدّ وعزله ، وولّى مكانه "سعيد بن العاص" .

وأما البصرة ، فقد أرسل أهلها وفداً إلى المدينة يطلبون منه عزل واليهم "أبي موسى الأشعري" ، فاستجاب لهم .. وولّى مكانه "عبد الله بن عامر" .

وأما مصر ، فقد تكرر إلحاح الوفود القادمة منها إلى المدينة طالبة تنحية "عمرو بن العاص" وتولية آخر مكانه .. فعزله الخليفة عن الحرب والخراج ، وأبقاه على الصلاة ، وولّى "عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح" على الخراج والحرب . بيد أن الخلاف لم يلبث حتى نشب بينهما ، فاستدعى الخليفة "عمرو بن العاص" إلى المدينة ، وتفرّد ابن أبي سرح بولاية مصر كلها .

هكذا كان موقف الخليفة من الولاة المعزولين .. استجابة سريعة لرغبات المواطنين في تلك الأقاليم .

فإذا بقي من مآخذ يُناقَش فيها حول هذا الموضوع ..؟ قيل : إنه تخطّى الصالحين من أصحاب الرسول ﷺ فلم يولِّهم تلك المناصب الشاغرة ، وادّخرها لأقاربه .. فعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ولاّه مصر ، هو أخوه من الرضاعة .. وعبد الله بن عامر الذي ولاّه البصرة ، ابن خاله .. ومعاوية الذي استبقاه على الشام ، ابن عمه . ومروان بن الحكم ، الذي أعطاه رئاسة الديوان ، ابن عمه ..

* فأما تخطية الصالحين الورعين إلى غيرهم ، فقد أجاب الخليفة نفسه عن ذلك ، بأن أمير المؤمنين "عمر" كان يفعل ذلك أحياناً ، لا إهمالاً لشأن الصلاح والورع ، ولكن تشداناً للصلاحية والكفاية . وضربَ الأمثال ببعض الذين اختارهم "عمر" للإمارة ، على حين كان معه في المدينة من أصحاب الرسول ﷺ مَن يفوقهم ورعاً وتقوى ..

* وأما إيثاره أهلَه الأقربين ، فتلك مسألة لا نتردد في القول بأنه كان من الخير للخليفة أن ينتهج فيها منهجاً آخر ، مهما تكن كفاية الأقربين وصلاحيتهم .

إن الخليفة ـ رضي الله عنه ـ ليذكُر يوم ذهب العباس عمُّ النبي عليه السلام يسأل النبي أن يُوليه إمارة ، فقال له وهو يذوده عنها :

« إنّا والله يا عَم ، لا نُولي هذا الأمر أحداً يسأله ، أو أحداً يحرص عليه » .

ثم أَتبَع قوله هذا بنصيحة غالية :

« يا عباس ، يا عمّ النبي محمد ، إيّاك والإمارة ، فإنها نِعْمَتِ المرْضِعة . وبِئسَت

الفاطمة » .. !!

وفي تلك السنوات الصعبة بالذات ، حيث اشرأبّت أعناق الفتنة ، وأخذت العصبية تُرسل فحيحها ، كان من حقّ الناس على الخليفة أن يجنبهم كل تساؤل يدور حول الأمويين وحول ما يأخذونه لأنفسهم من امتيازات .. لكن هذه القضية لا تقترب من الإنصاف إلا بقدر ما تقترب نحن من الظروف التي كانت تشكل يومئذٍ وعاء للأحداث كلها .

والظروف كما قلنا من قبل ، كانت تُشكّل فتنة عارمة وجامحة تهدف في التحليل النهائي لأهدافها إلى تقويض الدولة المسلمة التي قَوّضت في بضع سنوات أركان العالم القديم المحيط بها .

والآن وقد أُعِدّتِ المؤامرة تماماً ، فإنها تتلّمس كل سبب لتوجيه ضربتها الأخيرة إلى معقل الدولة .. الخليفة ذاته . وليكن على رأس تلك الأسباب قضية الوُلاة .

ولقد كانت نزوة التشهير بالأمراء دَيْدَناً قديماً لبعض الأقاليم ، وكان أمير المؤمنين "عمر" وهو يدعم تجربة الحكم الإسلامي في سنواتها الأولى يؤثر دائماً أو غالباً أن يضع رغبات المحكومين موضع الاعتبار والتقدير ـ خصوصاً فيما يتعلق بتغيير أمرائهم الذين يرغبون في تغييرهم ، ولقد رأينا كيف سار الخليفة "عثمان" على نهجه ، فغيَّر أمراء البصرة ، والكوفة ، ومصر ، نزولاً على رغبات أهل تلك البلاد .

لكنّ المسألة سرعان ما تحوّلت إلى جزء من المخطط المرسوم لتخريب الدولة وتجريدها من سلطانها . ولم يعد الاستسلام لرغبات التشهير والتغيير سوى مظهر لعجز ، سيزيد المتآمرين إغراء وقوة . هنالك لم يكن بُدّ من زجر تلك المحاولات المغرضة ، ولم يكن للدولة بدّ من أن تُضفي على موقفها قدراً كبيراً من الحزم والحَسْم .

ولقد وقف الخليفة وقفته الرشيدة التي صوّرتها كلماته هذه للمتمردين .

« وأيُّ شيء لي من الأمر ، إذا كُنتُ كلما كرهتم أميراً عَزَلته .. وكلما رضيتُم عن أمير ولَّيْته » .. ؟؟!!

إن هذا الموقف ، بصرف النظر عن أيّ اعتبار آخر ، يشكل في أيام الفتن والمؤامرات ، الضمان الأهم لحماية الدولة من التفسُّخ والضياع .

فإذا استطاع حفنات من المتمردين ، أن يصدروا أوامرهم للدولة ، ويسلبوها أخصّ حقوقها ، فما من سبيل آنئذٍ لاستبقاء كيانها وكرامتها سوى دَحْضِ المشيئة المتمردة والمتطفّلة عليها .

* * *

وصحيح أن "عثمان" رضي الله عنه كان من أكثر الناس حبًّا لأهله ، وصِلَةً لِرحمِه .

ولابدّ أن هذا الحب المفرط للرّحم ولذوي القُرْبى ، كان واحداً من أسباب اختيار هؤلاء الأمراء .. بيد أنه لم يكن كلَّ الأسباب .

فالفتنة التي نجحت يومئذٍ في زلزلة الثقة المتبادلة بين المسلمين وخليفتهم ، وضعت

الخليفة في "مُناخ نفسي" حمله على الْتماس الثقة المفقودة ، عند أقرب الناس إليه وأحناهُم عليه .. فلنضعْ هذه مِن أسباب إيثارِه أهله وذوي قُرباه .

كذلك كان هناك التحدي الذي يستهدف شخصه ، ويتنكّر في دعوى المناداة بعزل الأمراء الأقربين .. كان هذا التحدّي ـ بكل ما توسل به من تهجُّم على الخليفة وتمرُّد على مقامه ـ سبباً آخر من أسباب تشبُّه باختياره .

ثم كانت هناك كفاية أولئك الأمراء .. فعلى أيديهم ، وبإمرتهم وقيادتهم ، سارت جيوش المسلمين لتقهر ذلك التمرُّدَ المنتشر كالنار في أنحاء الدولة كلها .. وباستبسال خيار الصحابة الذين اشتركوا في تلك المعارك ، عادت البلاد الهاربة إلى حظيرة الإسلام ، وتحطمت جيوش "بيزنطة" وجيوش "فارس" ، وخفقت إلى الأبد رايات الإسلام في تلك الديار ..

من حقّ الخليفة إذن أن يعتز ببلائهم هذا ، ومن حقّه ألا يجعلهم مضغة في أفواه المتمردين والمخربين من أعوان "ابن سَبأ" حامل لواء الفتنة وناشر الظلام ..

* * *

وهنا سؤال لابدّ من طَرْحه حتى نكون أمنَاء على الحقيقة التي نقتفي آثارها .

ذلكم هو : هل كان أولئك الأمراء الذين اختارهم الخليفة من ذوي قُرباه ، هدفاً لسخط المتآمرين المخربين وحدهم ؟ أم أنهم كانوا كذلك موضع سخط نفر من خيار الصحابة وفُضلائهم .. ؟

وماذا كانت أسباب هذا السخط ودواعيه ..؟ وماذا فعل الخليفة لتفاديه .. ؟

* * *

من المعروف أن عدداً من خيار أصحاب رسول الله ﷺ ، كانوا ـ ومعهم الإمام عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ـ يَرَوْن صالح الأمّة والدولة في تنحية الأمراء الأمويين ، وتنحية مروان بن الحكم الذي كان يشرف على ديوان الخلافة .

وكانت وجهة نظرهم تتمثل في أن إيثار هؤلاء الأمراء الأمويين بالإدارة يضفي على شكل الحكومة طابع الأثَرة .. كما أنهم ـ أي الأمراء ـ لم يكونوا في مستوى القدوة التي تفرضها وتتطلبها مناصبهم ، لا سيما في تلك الآونة التي لا يشدُّ أزر الإسلام فيها شيء مثلما تشدُّه التقوى والإخبات والورع ، وضربُ الأمثال العالية من أولي الأمر في التفوق على مغريات الترف ، وزخرف الحياة .

أي أننا نستطيع القول إنه كان هناك يومئذٍ مؤامرة .. ومعَارضة ..

* مؤامرة : يتولاها ، ويُعِدُّ لها الناقمون على الإسلام كله : الدين ، والدولة ، والأمّة .. يهدفون بتآمرهم المتفَشّي والمسعور ، إلى إنزال ضربات قاصمة بالدين ، وبالدولة ، وبالأمّة .

* ومعارضة : يقوم بها نَفرٌ من خيار الصحابة رضوان الله عليهم يهدفون بها إلى

تصحيح الخطأ ، وإقرار الصواب في حدود الكلمة الصادقة ، والنصح الأمين .

ولئن كانت نفس الخليفة قد امتلأت يقيناً بسوء طويَّة المتآمرين السَّبَئيين في تشهيرهم بوُلاته ، فلا نحسبه قد خالجه الشك لحظة في سلامة الباعث الذي حدا خيار الصحابة من أمثال "عليّ ، وعمَّار" إلى اتخاذ موقفهم العدائي من أولئك الوُلاة .

بيد أنه كان يدير خواطره على القضية بطريقة أخرى ، فهو غير مقتنع بوجوب عزلهم لمجرّد أنهم من ذوي قُرْباه .. ولا لأنهم تفسَّحوا في مناعم الحياة .. وهو يريد أن يُدانوا بأخطاء تستوجب عزلهم ، وآنئذٍ يكون حقا عليه عزلهم بغير إبطاء .

من أجل ذلك نراه يبادر بإجراء سديد .

فلقد اختار نفراً من الصحابة الذين لا يختلف في نزاهتم ، ولا يختلف في أمانتهم وورَعهم .. اثنان .

اختار "محمد بن مَسْلمة" الذي كان أميرُ المؤمنين "عمر" يأتمنه على محاسبة وُلاته ، والتفتيش على الأقاليم ، وتقصّي أحوال الناس في كل بلد .

واختار "عبد الله بن عمر" البقية الصالحة من آل الخطاب ، والإمام الوَرِع الذي عرضت الإمارةُ عليه نفسها أكثر من مرة ، ورفضها في كل مرة ..

واختار "عمّار بن ياسر" المجاهد العظيم المبرور ، بطل الأيام العصيبة في فجر الإسلام ..

واختار "أسامة بن زيد" الحِبَّ ابن الحبّ ، الذي كان الرسول ﷺ يتهيأ للقاء ربه وهو يقول : « أنفِذوا بَعْث أسامة » .

اختار هؤلاء على رأس جماعة عهد إليهم السفر إلى الأقاليم والتحقق من مسلك كل والٍ وأمير .

أليس عملاً سديداً ومنهجاً عادلاً وحكيماً .. ؟ بلى .. فماذا كان جواب أولئك السفراء المبعوثين .. ؟ لقد عادوا جميعاً ـ عدا عمار بن ياسر ـ الذي كان قد أُرسل لتقصّي الحقيقة في مصر فطال بها مُكْثُه .

عاد "ابن مَسْلَمة" من الكوفة .

وعاد "عبد الله بن عمر" من الشام .

ورجع "أسامة بن زيد" من البصرة ..

وقدّموا للخليفة تقاريرهم وما شهدوه وما سمعوه ، فما كان هناك خطأ واحد يستوجب عزل أمير .. !!

تُرى هل تُعتبر شهادتهم هذه دحضاً لموقف "الإمام عليّ" وإخوانه من أولئك الأمراء .. ؟؟

كلا . كما أن موقف الإمام وأصحابه لا يعتبر دحضاً لموقف الخليفة عثمان .. ذلك أن الفريقين متفقان على رعاية حرمات الإسلام .

ولكنهما في هذه القضية ينظران إليها من زاويتين مختلفتين .

فالإمام وأصحابه يَرَوْن ألا حقَّ للطلَقاء في ولاية أمور المسلمين .. خصوصاً أولئك

الذين كان لهم قبل إسلامهم وبعد إسلامهم انتكاسات لا تجعلهم للولاية أهلاً .

و "الطلَقاء" هم أولئك الذين أسلموا يوم فتح مكة تحت بريق السيوف ، وأشرف الرسول على جموعهم الضارعة المرتجفة وناداهم :

« اذهبوا ، فأنتم الطُّلَقاء » .

ومن هؤلاء ، كان أولئك الأمراء الأمويون الذين يدور حولهم الخِلاف .. أما "الخليفة عثمان" فقد كان له في القضية رأي آخر .. هو أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله .. وأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها ..

فأخطاء هؤلاء قبل الإسلام ، قد وضع الإسلام عنهم وزرها .

وأخطاؤهم ، أو أخطاء بعضهم بعد الإسلام ، قد وضعت التوبة عنهم وزرَها .

وفي رأي الخليفة أنه ما لم يُدَنْ أحدهم باقتراف منكر أو ظلم لِرَعيَّة ، فإن عزله عن الإمارة ، ولا سيما تحت ضغط الفتن المسلَّحة التي يقودها جماعة من الموتورين والمخربين ، يصبح أمراً فوق طاقة اقتناعه ، وضميره .

لقد كان الوليد بن عقبة أميراً للكوفة ، وحقق للدولة انتصارات كبيرة ، ثم هو في الوقت نفسه من ذوي قـربُـى الخليفة .. ومع ذلك كله ، فإنه حين ترامت إليه أنباء احتسائه الخمر لم يمهله يوماً .. بل استدعاه إلى المدينة ، وعزله عن الإمارة .. وأقام عليه الحدَّ جهاراً عَلَناً ، وهذا هو ما لن يتأخر عن صُنْعه تِجاه الأمراء الآخرين من ذوي قُرْباه ، إذا أدِين أحدهم بخطأ يستوجب عزلاً أو عقاباً .

ذلك في إيجاز ، كان رأيه في أزمة الوُلاة ، وهو رأي ازداد به اقتناعاً بعد عودة مبعوثيه إلى الأقاليم ، معلنين في أمانة وصدق أنهم لم يَرَوا مُنكراً ، ولم يشهدوا ظُلماً .

ومع ذلك ، فقد بعث كُتُبه إلى الأقاليم جميعاً يقول فيها :

« بلغني أن أقواماً منكم يُشتَمون ، وآخرين يُضْربون ، فمن كانت له مظلمة فليأتِنا في الموسم ، وليأخذ بحقّه مني أو مِن عُمَّالي عليكم » .

* * *

وهناك حوار ينقله لنا "ابن كثير" في كتابه ، قام بين "الإمام عليّ ، والخليفة عثمان" يضع وجهتَيْ نظرهما وجْهاً لوجه ، وبالتالي يغمر القضية بضوء جديد .

ولقد جرى هذا الحوار يوم اختار الناس "عليًّا" كي ينقل إلى الخليفة ما في أنفسهم من شكاة ومضَض ، وجلس الإمام إلى الخليفة وحدهما ، وبثّه كل ما في نفسه ، ونقل إليه ما في أنفس الآخرين ، وكانت كلمات الإمام مُترَعة بحرصه الشديد والنبيل على خير الخليفة وخير الأمَّة .

وعقب "عثمان" على كلمات "عليّ" قائلاً :

« أما والله لو كنتَ مكاني ما عنَّفتُك ، ولا أسْلمتُك ، ولا عِبْتُ عليك ..

أتُراني جئت منكراً إذ وصلْتُ رَحِماً ، وسدَدْتُ خلَّة ، وآويتُ ضائعاً ، ووَلَّيْتُ شبيهاً

بمن كان ـ عمر ـ يُولّي .. ؟؟
أناشدك الله يا عليّ .
هل تعلم أن المغيرة بن شعبة كان والياً لعمر . ؟
قال عليّ : نعم ..
قال عثمان : فلِمَ أُلامُ إذ ولّيْتُ ابن عامر في رحمه وقرابته ، وليس للمغيرة عليه كبير فضل .. ؟
قال عليّ : سأخبرك .. إن عمر كان إذا ولّى أحداً فإنما يطأ على صِمَاخَيْه ، فإن بلَغه عنه شيء جاء به وبلغ في زجره أقصَى الغاية .. أمّا أنت فلا تفعل ، فقد ضعفت ورفقت بأقربائك ..
قال عثمان : هم أقرباؤك أيضاً يا عليّ ..
قال عليّ : نعم .. إن رَحِمَهُم مني لقريبة ، ولكن الفضلَ في غيرهم ..
قال عثمان : ألم تعلم أن ـ عمر ـ ولّى معاوية طوال عهده وخلافته ، فهل أُلامُ إن أنا ولّيتُه .. ؟
قال عليّ : فهل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من "يَرْفَأ" غلام عمر .. ؟
قال عثمان : نعم ، كان كذلك ..
قال عليّ : فها هو ذا يقطع الأمور دونك ، وأنت لا تَنهاه ... » .
هذه الفقرة من الحِوار ، ترينا كيف كان هناك اقتناعان يحركان الدولة ، والمعارَضة ـ كلاً في اتجاه .. وحين نقول "المعارضة" فإنما نعني بها المجموعة الخيِّرة من الصحابة وعلى رأسهم عليّ بن أبي طالب ، دون أن نعني بحال تلك العصابات الأخرى التي كانت تُعِدُّ للفتنة الجامحة ، في أقطار الدولة وأمصارها ، والتي لم تَخْبُ نارها حتى اغتالت الخليفة في وحشية بالغة ..
وفي هذا الحوار نرى في وضوح تام تصوُّر الخليفة للموقف ..
فهو يرى في موقف المعارضة ـ حتى برغم سلامته وسداده ـ معاضدة للآخرين الذين يُبيتون له الشر ويتربصون به الدوائر ، فهو لهذا يقول للإمام عليّ : « لو كنت مكاني ما أسلَمْتُك ، ولا عنّفْتُك » ..
ثم هو يرى في إسناد الولاية إلى نفر من أقاربه ، نوعاً من تألُّفهم والإحسان إليهم ، واستبقاء ولائهم للإسلام ، فضلاً عمّا أظهروه من كفاءة واقتدار في الإدارة وفي القتال ..
كذلك يرى أنه في إيثاره ذوي الكفاءة والمقدرة على بعض ذوي الفضل والورَع ، إنما يتأسّى بما كان يصنعه ـ أحياناً ـ أمير المؤمنين عمر ..
وهكذا تشكّل اقتناع الخليفة تجاه أزمة الولاة واتخذ فيها موقفاً ثابتاً صامداً ..
وكان للمعارضة اقتناعها الذي عبَّرت عن كلمات الإمام عليّ في حواره مع الخليفة ..
فالإمام يرى أن المطالبة بتنحية هؤلاء الأمراء قضية عادلة .

وأنه إذا وُجد أناس يتخذون من التشيُّع للحقِّ ستاراً يخفون وراءه أغراضاً باطلة ـ كما تفعل عصابات التمرد الفتنة ـ فليس معنى ذلك أن يسكت المخلصون للحقِّ عن الجهر به والدعوة إليه .

كذلك يرى "الإمام" أن تقوى الأمير أهم من كفاءته .. وإخلاصه أرجح من ذكائه .. وأنه إذا كان "عمر" قد آثر أحياناً ذوي الذكاء والدهاء والمقدرة ، فلأنه كان يُحكم قبضته على ولاته وأمرائه جميعاً بصورة لا تمكِّن أحدهم من أن يُغمض عينه عن الحق لحظة من ليل أو نَهار .. أما الآن والخليفة يُدْلِفُ نحو الثمانين ، ثم هو بطبيعة الحال طَيِّب ، متسامح ، هادئ الفَوْرة ، مأمون الغضب ، فإن أولئك الأمراء يتصرفون تصرُّف مَنْ ليس وراءه معقب ، ولا عليه رقيب ..

لم يكن "الخليفة" يبرئ ولاته من الخطأ ، لكنَّه كان يريد أخطاء كبيرة تبرر عزلهم وإبعادهم ..

وكان "الإمام" يرى أن نشأتهم وطباعهم وتكوينهم النفسي والعائلي ، لا يجعلهم أنسب الناس للمناصب التي يتولَّوْنها ، وأنهم بهذا ولهذا ، سيتمادَوْن في الأخطاء وَيَسْتَمْرِئُونَها حتى تبلغ بهم المنزلَق الوعْر ، والهُوَّة الفاغرة .

والحقّ أن الحوادث مضَت نحو غايات مريرة كشفت عن صدق فِراسة "الإمام عليّ" وعن سداد نَظرته ، وسلامة وِجْهَتِه .(١)

* * *

وننتقل الآن إلى ثاني المآخذ ، أو ثانية الأزمات التي ثارت ثائرتها حول الخليفة ، وهي خاصة بالأموال العامة .

وبادئ ذي بدء ، نؤكد أن أحداً مًا من خصومه لم يكن إذا خلا بنفسه لِيُدين ذمَّته بسوء ، حتى أولئك الذين أثاروا الفتنة لوجه الفتنة وائتمروا بدمه وحياته .

لقد كانت طهارة ذمته ، وعظمة نفسه ، وطُهر أخلاقه موضع يقين لا يتطرق إليه شك ، ولا يقترب منه مغمز .

كل الذي قيل يومئذٍ وتولّى المتآمرون تضخيمه ، هو أن الخليفة كان يختَصُّ ذوي قُرباه بمزيد من الأعطيات من بيت المال .. ولقد سرح بهم الخيال السقيم إلى القول : إن الخليفة أَقْطَع مروان بن الحكم خُمس إفريقية مرة واحدة .. !!

وراح المتآمرون ضد الإسلام وضد الخليفة يُروِّجون الإشاعات الكاذبة الخبيثة حول التصرفات المالية للخليفة .

---

(١) راجع كتاب "في رحاب علي" للمؤلف .

* فإذا زوَّج ابنه من ابنة الحارث بن الحكم ، وزوَّج ابنته من ابن مروان بن الحكم ، وجهَّزهما ـ من خالص ماله الذي كان واسعاً ووفيراً من الجاهلية إلى الإسلام ـ قالوا : إنه جهزهما من بيت مال المسلمين .. !!

* وإذا اقترض عبد الله بن خالد بن أسد بضعة آلاف من بيت المال ـ وكان من حقّ المسلمين يومئذٍ أن يقترضوا من بيت مالهم ـ قالوا : إن الخليفة منحه إياها بغير حقّ .. !!

* وإذا توسّع في المراعي التي كانت الدولة منذ عهد "عمر" تحميها لإبل الصدقة ولتنمية الثروة الحيوانية ، أرسل ـ ابن سبأ ـ وفداً من ثُوّار مصر ليتَّهم الخليفة بأنه إنما فعل ذلك كي يُسَمِّن إبلَه وماشيته .. !!

* ولقد حدثَ أن ولّى "الخليفة" الحارث بن الحكم أمانة سوق المدينة ، واستغلّ الحارث وظيفته ، فراح يشتري النوَى ويحتكره .. ولم يكد الخليفة يعلم بهذا حتى استدعاه إليه وسفَّهه ثم عزله من فوره . فهذه أيضاً نسجوا منها اتهاماً .. !!

* وكانت الأرض البوار التي لا تجد مَنْ يزرعها ويستثمرها ، تملأ فجاج الأمصار ، لاسيما في سواد العراق ، فراح الخليفة يُقطعها نفراً من أثرياء الصحابة الذين يمكِّنهم ثراؤهم من الإنفاق عليها واستثمارها ، وكان هناك مبدأ إسلامي يشجع على هذا التعمير .

« مَن أحْيَا أرضاً ميتة فهي له » .

فهذه أيضاً نسجوا منها اتهاماً .. !!

* وكان أمين بيت المال "عبد الله بن أرقم" قد تقدمت به السن ، كما وقع خلاف هادئ بينه وبين الخليفة ، فرأى الخليفة أن يُولي مكانه "زيد بن ثابت" .

هنالك أطلق المرجفون المتمردون قولتهم بأن الخليفة عزل ابن أرقم ، لأنه عارض إسرافه وتصرُّفاته ..

تُرى لو كان ذلك كذلك ، أفما كان الأجدر بالخليفة أن يختار رجلاً غير "زيد بن ثابت" .. ؟

إن "زيداً" هذا هو الذي ائتمنه "أبو بكر ، وعمر ، وعثمان" على جمع القرآن ..

وهو الصحابي الجليل الذي كان له في قلوب المسلمين كافة أعمق مشاعر الاحترام والثقة والتقدير .. وهو بدينه وبخلقه وبأمانته لا يمكن أن يتحمل أمام ربه مسئولية أي جَنَفٍ أو تقصير .

هذا هو الرجل الذي ولاه الخليفة بيت المال ..

ومع ذلك ، فقد نسجوا من هذه الواقعة اتهاماً ..

* بل لم يخجلوا من أن يزعموا أن الخليفة كان يأخذ من بيت مال المسلمين ليبني لنفسه ولأهله قصوراً وينشئ ضياعاً .. !!

* * *

لقد اتخذ المرجِفون في المدينة وفي الأمصار من المسائل المالية موضوعاً خِصْباً لأخْيِلَتهم التي راحت تنسج الأكاذيب ، وتصنع البُهتان .

ولرُبَّما يقال هنا : لا دخان بغير نار .. وإذا كان أعداء الخليفة قد اتخذوا من تصرفاته المالية مادة ثَرّة للتجريح والإساءة ، أفلا يَشِي ذلك بوجود أخطاء في تلك التصرفات ، أجاد المرجفون والمتآمرون استغلالها .

والحقّ الذي نستخلصه من استكناه الوقائع التاريخية عن ذلك العهد ، أن خصوم الخليفة من أتباع ابن سَبأ والمتآمرين معهم ، كانوا في حملة التشهير بالخليفة لا ينتظرون وجود أخطاء ينسجون منها بهتانهم .. فلقد كانوا مصممين على هذا التشهير وقادرين عليه ولو برئت تصرفات الخليفة المالية من الهَفَوات ، لما رَضُوا أن يعدوا صفحتها بيضاء من غير سوء .

ولَسْنا ننفي أو نستبعد وقوع أخطاء .. إنما ننفي بيقين كامل أن تكون هذه الأخطاء ناجمة عن أدنى قصور في ذمة الخليفة العظيم وأمانته ـ الأمر الذي أراد المتآمرون أن يَصلوا إليه .. !

كل الذي حدث يومئذ ، وشكّل بدوره مُناخاً صالحاً لتفريخ الأراجيف ، أن الأموال قد درَّت لِقاحُها ، وكثرت في أيدي الناس جميعاً ، وكثرت معها المناعم ، واستشْرَى التَّرف ، ولم يكن مع الأمراء الأمويين من الزهد ولا من الوَرَع ما يصرفهم عن مشاركة الناس في تَرفِهم وتبذخِهم ، بل رُاحوا بحكم نشأتهم يُبالغون في الترفه والاستمتاع .

وكان الخليفة عن اقتناع ـ لا عن استهانة ـ لا يرَى بأساً في أن يستمتع الناس ما شاءوا بمناعم الحياة ، ما داموا لا يأخذون المال من حرام ، ولا ينفقونه في إثم .

ونحن نسلِّم بداهة أن الخليفة "عثمان" لو سار في هذه المسألة على نهج سلفه "عمر" وكبحَ جماحَ الأنفس عن الإغراق في الطيبات المشروعة ، لكان ذلك أسلم ، ولا سيّما بالنسبة للولاة والأمراء الذين يجب أن يظلوا دائماً قدوة للآخرين في بساطة العيش والترفّع عن إغراء النعيم .

لكنّ سؤالاً يفرض نفسه علينا فَرْضاً .. هو : هل كان ذلك ممكناً مع رياح التغيير والتطوُّر التي هبَّت على الدولة الواسعة العريضة من الجهات الأربع ، حاملة أُمَمًا شتّى .. وحاملة مع تلك الأمم والجماعات ، تقاليد وعادات تضطرم في موج كالجبال .. ؟؟!!

تلك هي القضية .. وفي ضوء هذه الحقيقة قبل سواها يجب أن نبحث عن تفسير مآخذ الإسراف والترف التي أرادوا أن يحمِّلوا الخليفة وحده مسئولياتها ..

الخليفة الذي تبقى ذمته برغم كل شيء ، كاملة الطُّهر ، ناصعة النقاء .

* * *

والآن ، إلى ثالثة الأزمات .. تلك التي تتمثّل في الخلاف الذي شَبَّ أُوارُه بين المعارضة النزيهة البريئة التي قام بها نَفرٌ من خيار الصحابة ، وبين الخليفة "عثمان" رضي الله عنه وعنهم أجمعين .

لقد أُخِذ على الخليفة أنه كان له موقف اتَّسم بالعنف تِجاه الصحابي الجليل ـ أبي ذَرّ الغِفاريّ .. والصحابيّ الجليل ـ عمّار بن ياسِر .. والصحابي الجليل ـ عبد الله بن مسعود ..

وإنّا لنُجانب الصواب إذا نحن درسنا هذا الخلاف بعيداً عن الإطار العام للأحداث والفتن التي كانت تحتاج الدولة والمجتمع يوم ذاك ..

لقد كان قمينا بكُلِ خلاف في الرأي يقع بين الخليفة وإخوانه من الصحابة الفضلاء السابقين ، أن يجد حَلّه الموفق السعيد ، لولا ذلك الجو القاتم الذي كان المتآمرون المغرضون قد أفلحوا في صُنْعِه ..

لقد غطّوا ضوء النهار بفتنة مظلمة سوداء ، تَدَعُ الحليم حيرانَ .. !!

ولقد استغلوا ذلك الخلاف الصادق البريء ، في تأجيج نارهم التي يُوقِدون ..

وصارت النصيحة الأمينة الهادئة التي يقولها صحابي جليل ، تتحول على أفواه المشّائين بِنَميم ، إلى قذف وسباب ..

وكلمات العتاب التي يرسلها الخليفة في أناة ، تتحوّل على نفس تلك الشّفاه المسمومة إلى وعيد وتهديد .

وليس أشدَّ إيلاماً لنفس الرجل الحَييَ المُفْرط الحياء ولا أدْعى لغضبه ، من أن يتخذ الناس حياءه سبباً لاستضعافه وللتجرُؤ عليه .

تلك قضية من قضايا النفس البشرية لا تحتاج إلى برهان .

ولقد كان "عثمان" رضي الله عنه مفرط الحياء .. وبدلاً من أن يَصُدّ هذا الحياء تَهوُّرَ المتآمرين على وقار الخليفة ومكانته ، إذا هم تُجْدِب نفوسهم من كل توقير لهذا الحياء .. !!

هنالك مُلِئَتْ نفس الخليفة ألماً ، وتأجّجَت غضباً ، وقال للمتمردين قَوْلَته المأثورة .

« .. أما والله ، لقد عِبْتُم عَلَيَّ بما أقْرَرْتُم لابن الخطاب .. ولكنه وَطِئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكُم بلسانه ، فدِنْتُـم له على ما أحبَبْتم أو كَرِهْتم ..

أمّا أنا .. فَلِنْتُ لكم ، وأوطَأتُ لكم كَنفي ، وكَفَفتُ يَدَيَّ ولساني عنكم ، فاجْتَرأتُمْ عليّ » ..

إن هذه الكلمات المتفجّعة ، تكشف عن الجرح الذي أدمى مشاعر الخليفة الحَييِّ ، المتسامح ، والوديع !

ورجل مثل "عثمان" في أناته وهدوءِ سَمْتِه ، لا يتفجّر غضبه في كلمات كهذه ، إلا إذا كان الجُرح قد بلغ من نفسه أعماقها ، وإلا إذا كان شعوره باستخفاف المتآمرين قد جاوز القدرة على الصبر والاحتمال .

وفي جو نفسي كهذا ، فإن مَسَّ الصديق يُدمي البنَان .

ومن هنا لم تكن نفس الخليفة الممتلئة بالجراح ، مهيأة للتجاوُب مع المعارضة التي أثارها رفاقُه في الدعوة وفي التضحية وفي صحبة رسول الله ﷺ منذ الأيام البعيدة الباكرة في فجر الإسلام .

ولم يكن ذلك منه استنكافاً لكلمة الحقّ ولا استعلاء عليها . إنما كان ذلك ، لأنه رأى المتآمرين يتخذون من معارضة هؤلاء الأصحاب الكرام وقُوداً لفتنتهم المدمِّرة ..

ولسنا نريد بهذا التوضيح أن نشجُب حق الصحابة الأجلاء في نقد ما رأوه من خطأ ، فما كان لمثلهم أن يسكت على خطأ .. وإنما أردنا أن نبصر بعينين مفتوحتين طبيعة "المُناخ النفسي" الذي كان يعكس نفسه لا محالة على مشاعر الخليفة وعلى تفكيره .

* * *

والآن نتجه إلى وقائع الخلاف الذي قام بين الخليفة وأولئك الأصحاب . هذا الخلاف الذي استغله زعماء الفتنة المسلّحة ، وشكّلوا منه اتهاماً برّروا به مع غيره انتهاكهم حرمة الخلافة ، وحياة الخليفة ..

ونبدأ بالخلاف بين الخليفة وأبي ذر ، رضي الله عنهما ..

وأبو ذر الغِفاريّ واحد من أعظم الرُّواد الذين أنجبهم الإسلام (١) .

استخلص من روح الإسلام منهاجاً في الزهد وفي توزيع الثروات ، ثم راح يبشر به في تفانٍ رُهباني عظيم .

وهو بمنهجه هذا لم يختلف مع الخليفة وحده ، بل اختلف كذلك مع بعض الصحابة الآخرين الذين كان لهم من المال وفرة ومدَّخَر ..

ذلك أنه كان يرى في الأموال ودائع الله عند عباده ، استخلفهم فيها ، ولكلٍّ أن يأخذ منها حاجته وضرورته ثم لا يزيد ..

كذلك كان يرى أن "محمداً وأصحابه" إنما جاءوا الحياة ، ليعطوا .. لا ليأخذوا ..

ولقد أعطى الرسول الحياة أثمن العطايا وأروعها بما نفحها من هُدًى ، وحقيقة ، ونور ، ثم رفض طوال عمره أن يَعْلَق بيديه شيء من زخرُفها ونعيمها ، بل مات ودرعه مرهونة في حفناتِ شعير صنع منها خبزاً يابساً له ولأهل بيته .. ! فأصحابه يجب أن يمضوا على ذات النهج حتى يلْقَوْه ..

ولقد مضى على النهج أبو بكر .. ومن بعده عمر ..

والآن يريد أبو ذر أن تكون خلافة "عثمان" امتداداً لأيام الوحي ، وأيام الصدّيق ، وأيام الفاروق في زهدها ، وتقشفها ، ونبذِها كل المغريات حتى المشروع منها والحلال .

ولقد عاش ـ كما تنبأ له الرسول ﷺ ـ وحده .. ومات وحده .. وسيُبْعَث وحده ..

أما في الجانب الآخر ، فقد كان أكثر الصحابة لا يَرَوْن بأساً ـ أيَّ بأس ـ في الاستمتاع بطيبات الحياة .. فالقرآن يحدِّثهم :

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ..

---

(١) راجع كتاب "رجال حول الرسول" للمؤلف .

ويحدثهم :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

على أن "أبا ذر" وإن جاز أن يتسامح تجاه الاستمتاع المعتدل بالطيبات ، فإنه لم يكن ليتسامح لحظة تجاه السَّرَف ، والتَّرف واحتكار الضياع ، واكتناز الأموال .

ومن ثم ، لم يتردد في أن يقطع الطريق وَثْباً إلى الشام حينما سمع أنباء ما تموج به من تَرف ، وما يشق فضاءها من بروج وقصور ، ويغطي أرضها من ضياع وبساتين امتلكها وأخْلَد إلى نعيمها الأمراء ، وعلى رأسهم معاوية ونفر آخر من الصحابة الذين لم يُخلقوا في رأي "أبي ذر" للدَّعَة ولا لِنعم الدنيا الفانية ..

وفي الشام رفع لواء معارَضة كادت تعصف بمقعد معاوية .

راح يتلو على الجماهير هذه الآية ، فكأنما يسمعها الناس لأول مرة :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ .

وحاول "معاوية" أن يُهدِّئ من ثورته دون جدوى . والحقَّ أنه برغم إحساسه بخطر دعوته عليه ، فإن مسلكه تجاهه ظلَّ مُتَّسماً بإجلاله وتوقيره .

ولقد اكتفى بأن يكتب إلى الخليفة كتاباً يقول فيه :

- « إن أبا ذر أفسد الناس بالشام » ، فجاءه ردّ الخليفة سريعاً :

- « أرْسِلْه إليّ » .

وعاد "أبو ذر" إلى المدينة - وجرى بينه وبين الخليفة حِوار لم يقتنع أحدهما فيه بوجهة نظر الآخر .

وهنا نلتقي بروايتين تاريخيتين ، إحداهما تقول : إن الخليفة قرر إبعاده إلى "الرَّبَذَة" - مكان بعيد عن المدينة .. وأخرى تقول : إن أبا ذر هو الذي طلب من الخليفة أن يأذن له بالخروج إلى "الرَّبَذَة" حيث يقضي بها بقية أيامه . وسواء صحَّتْ هذه الرواية أو تلك ، فليس ثمة شك في أن الخليفة كان حريصاً على أن يظل "أبو ذر" إلى جواره بالمدينة ، قائلاً له : « ابْقَ معنا ، تغدو عليك اللِّقاح وتروح » .

لكنّ أبا ذر ، كان يعرف نفسه جيداً ، ويعرف أنه سيظل مرتفع الصيحة ضد الأشياء التي لا يبدو أن الخليفة مستريح لطريقته في معارضتها ..

وهكذا خرج الصحابي الجليل في هدوء إلى الربذة حيث عاش بها يعبد الله العلي الكبير ، حتى نادته ساعة الرحيل إلى الرفيق الأعلى .

على أننا واجدون في واقعة هذا الخلاف بين الخليفة وأبي ذر مشهداً يعطينا وحده الدليل الحقّ على أن الخلاف بين الدولة والمعارضة لم يكن - مَهْما يستفحل ويتفاقم - لِيَصِل بالأحداث

إلى ذلك المدى البغيض الأثيم الذي بلغه على أيدي المتآمرين المخرّبين ..

فها هو ذا "أبو ذر" رضي الله عنه ، يزوره بـ "الرَبذة" بعض متآمري "الكوفة" ويعرضون عليه أن يتزعم ثورة مسلحة ضد الخليفة ، فإذا هو يجيبهم بهذه الكلمات الزاجرة :

« والله ، لو أن "عثمان" صلَبني على أطول خشبة ، أو أطول جَبل ، لسمعت وأطعت وصبرت واحتَسَبْت ، ورأيت ذلك خيراً لي ..

ولو سَيّرني ما بين الأفق إلى الأفق ، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ، ورأيت ذلك خيراً لي ..

ولو ردّني إلى منزلي ، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ، ورأيت ذلك خيراً لي ..» !!

هكذا كان نوع الخلاف بين الخليفة وبعض أصحابه ، وهكذا كان مَذَاقه .

وإن استبعاد وجود خلاف على الإطلاق ، لأمْرٌ ضِدٌ طبائع الأشياء .

* * *

والآن نُغادر واقعة الخلاف مع "أبي ذر" إلى مَثيلتها مع "عمار بن ياسر" ..

و "عمار" (١) صحابي جليل ، استشهد أبواه على خشبة التعذيب الذي أرادت قريش أن تطفئ به نور الله ، وحمل "عمار" مع أبويه حظه الرهيب من العذاب ، كما تلقّى معهما حظه من البُشرى الرائعة التي زفّها إليهم الرسول ﷺ حين ناداهم وهم يُعذّبون :

« صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة » !

لقد اختلف "عمار" مع "الخليفة" حول بعض القضايا ، ولعلّه عالج الخلاف بطريقة أزعجت الخليفة .. ولا سيما في أواخر عهد "عثمان" ، حيث كان بعض الولاة الأمويين قد أسرفوا في قسوتهم على معارضيهم ، غير مفرّقين بين صحابي جليل يجهر بالحقّ لوجه الحقّ ، وبين مُغْرِض دخيل ، يريدها فتنة عمياء .

ولقد كان من الممكن أن يظل الخلاف بين الخليفة وعمار محكوماً بحقوق الصحبة الغالية التي جمعت بينهما في أيام العسرة وأيام الانتصار .. بل لقد بقي كذلك فعلاً برغم المضاعفات التي انتابته بفعل الغليان الذي كانت الأنفس تمور به مَوْراً ، والذي كانت الأحداث والمؤامرات تزيده كل يوم اشتعالا .

ولقد رأينا الخليفة وهو يختار من بين خيار الصحابة مَن سيُشكّلون لجنة تَقَصّي الحقائق .. ورأيناه لا يَنسى "عمّاراً" .. بل يختاره برغم معارضته له ، ويُرسله إلى مصر .

ولمّا عاد مبعوثو الخليفة إلا عماراً الذي طال مكثه بمصر ، وتصادف أن كان بها في ذلك الوقت "عبد الله بن سبأ" ، وجد الواشون فرصتهم ليوغروا صدر الخليفة على عمار ، زاعمين أنه كان يجتمع بابن سبأ ، ويُصغي إليه ..

---

(١) راجع كتاب "رجال حول الرسول" للمؤلف .

ولَقِيَتْ هذه الوشاية مع غيرها دوراً في تصعيد الخلاف بين الخليفة وعمار .. على أنَّ واقعة الاعتداء على "عمار" كانت أقسى مظاهر هذا الخلاف ، فهل اشترك الخليفة في هذا الاعتداء كما تزعم بعض الروايات .. ؟

إن "الإمام الطَّبَريّ" ينفي ذلك ويدحَضُه ، ويسوق لنا النَّبأ على لسان الخليفة نفسه عندما عُوتِبَ في هذا الاعتداء الذي اقترفه بعض موظفي ديوان الخلافة .

قال الخليفة :

« جاء عمار ، وسعد بن أبي وقاص إلى المسجد ، وأرسلا إليَّ : أن ائتنا ، فإنّا نريد أن نُذاكرك في أشياء فعلتَها .

فأرسلتُ إليهما : إني عنكما اليوم مشغول ، فعودا إليَّ في يوم آخر ..

فانصرف سعد ، وأبَى عمار أن ينصرف ، فأعَدْتُ إليه الرسول فأبَى .. ثم أعدتُه فأبَى .. فتناوله رسولي بالأذى بغير أمري .

وَوَاللهِ ما أمرتُه ، ولا رضيتُ بضربه ، وهذه يدي لعمار ، فَلْيَقْتص مني ما شاء » .. !!

وكما رأينا "أبا ذر" من قبل ، يرفض دعوة متمردي الكوفة ليقود ثورة ضد الخليفة .. نرى الآن لعمار موقفاً مماثلاً .. فعندما حاصر المتمردون المسلحون دار الخليفة ومنعوا عنه الماء ، غضب "عمار" وصاح فيهم :

« يا سبحان الله .. أتمنعون الماء عمَّن اشترى بئر رُومة ، ووهبها المسلمين » ؟ !!

ثم سارع إلى "الإمام عليّ" وأنبأه النبأ ، واقترح عليه أن يحمل بنفسه قربة الماء إلى دار الخليفة ، فلعل الثوار لا يَجْرُءُونَ على اعتراض سبيله .

إن هذا الموقف بدوره ، يعطينا الدليل على أن الخلاف بين الخليفة وذلك النفر الكريم من الصحابة ، ما كان ليطغَى على جلال الصُّحْبَة التي جمعتهم في الله إخواناً .

* * *

على أن الخلاف الذي شابَهُ كثير من الجفوة ، ورأينا الخليفة يلجأ فيه ـ على غير عادته ـ إلى إجراء عنيف ـ كان الخلافَ الذي شَجر بينه وبين "عبد الله بن مسعود" و "عبد الله" (١) صحابي رائع في تضحياته ، واستبساله ، وفي صحبته لرسول الله ﷺ .

ولقد تفاقمَ الخِلاف بين الخليفة وبينه ، حتى قطع الخليفة عنه راتبه من بيت المال .. وعلى الرغم من أن إجراء كهذا لا يَتَّسِقُ بحال مع طيبة قلب الخليفة ، وسماحة نفسه ، فإنه فيما أفْضَى إليه من مواقف ، لم يعدم هذه الطيبة ، وهذه السماحة .

ذلك أن الخليفة لا يكاد يعلم بمرض "ابن مسعود" ـ ذلك المرض الذي لقي فيه ربه ، حتى يَغشى ضميره ندمٌ عظيم . ويخرج إلى دار "عبد الله" متوكئاً على شيخوخته المجْهَدَة الوهنانة .. ثم يمعن في الاعتذار لابن مسعود ، ويرجوه في إلحاح أن يغفر له ما كان منه ..

---

(١) راجع كتاب "رجال حول الرسول" للمؤلف .

ثم يذهب إلى دار "أم حبيبة" رضي الله عنها ويرجوها أن تشفع له عند "ابن مسعود" كي يصفح عنه ويغفر له .

وبعد أن مات "ابن مسعود" ودُفِن دون أن يخبروا الخليفة بذلك خرج حزيناً إلى قبره ، ووقف عليه ، ورثاه قائلاً ، ودموعه تنحدر من مآقيه :

« دَفنْتم والله خيرَ مَن بَقِي من أصحاب رسول الله ﷺ » .. !

وكما حدث من "أبي ذر وعمار بن يَاسر" حين رفضا أن يستغل المتمردون خلافهما مع الخليفة ، حدث موقف شبيه من "عبد الله بن مسعود" . ففي مرَض موته عادَهُ بعض أولئك ، وتهدَّدوا الخليفة في حديثهم معه بالموت . فزجرهم "ابن مسعود" وقال :

« أمَا إنكم إن قتلتموه ، لن تُصيبوا مِثله » .

* * *

هكذا كان الخلاف بينهم مهما تضطرم مَوْجاتُه ، لا يلبث أن يقهر حِدَّته ولاؤهم للصحبة الجليلة التي أنشأها بينهم دين الله وصحبة رسوله ..

فالخليفة حين يخطئ في حقِّ أحدهم يعتذر .

وهم يرفضون أن تُستغل خلافاتهم وقوداً لأطماع المتآمرين .

ولو أن الولاة الأمويين تفوَّقوا يومئذٍ على دواعي الغِلْظَة في أنفسهم وفي مسلكهم ، لوفروا على الخليفة الكثير من المتاعب .. لكنَّ كثيراً منهم كانوا يزيدون النار بقسوتهم ضِراماً ، ولا سيما في أواخر عهد عثمان ، عندما رأوا نطاق الفتنة يتسع من حولهم وتوشك أن تلتهمهم نارها .

وحينما كان ضغط الأحداث يضطر الخليفة لأن يتجهَّم لبعض الأصحاب ، فلأنه كان قد دخل مرحلة حَرِجة ، صار شغله الشاغل فيها المحافظة على هيبة الدولة في أفئدة الناس .

ولعلَّه كان يرى في تجهُّمِهِ لنفر من زُعماء الصحابة وخيارهم زاجراً للآخرين الذين ليس لهم في ضمير الخليفة ولا في نفسه معشار ما للصحابة من مودة واحترام .

ولعله كذلك حين طلب من "الإمام علي" كرم الله وجهه أن يغادر المدينة إلى مكان قريب منها ، إنما كان يهدف إلى إقرار هذا الأمر دون سواه ، وإلا فما كان الخليفة يستغني قطّ عن مشورة الإمام ونجدته . ولقد كان كلما حَزبته الأمور يستنجْد به ، ويُقاسمه أعباءها وأخطارها .

كذلك ، لابدَّ من أن نذكر في هذا المقام حرص الخليفة الشديد على ألا ينشب بين المسلمين قتال يكون هو سبباً له ، أو طرفاً فيه .

ولقد مرَّت بنا كلمته للمغيرة بن شُعْبة حين أشار عليه بقتل المتمردين :

« .. لا والله ، لا أكون أول من يخلُفُ الرسول في أمَّته بسفك الدماء » .

فخليفة تتأجَّج من حوله الفتن والمؤامرات التي تحولت إلى عصيان مسلح خبيثِ الأهداف ، وهو لا يريد ، مهما تكن العواقب ، أن يُواجه هذا التمرد بقوة السيف مكتفياً

بالزجر والتهديد .. ومع مَنْ ؟؟ مع أناس يَسْلُقُونه بألْسِنةٍ حداد ، ويُحرّضون على خَلْع طاعته وقتله ، ويُضمرون للإسلام كل شر وسوء .

أيعقل أن يقف مسلكه مع هؤلاء عند حدود الزجر والتأنيب ، ثم يسمح له ضميره وخلُقه بالإساءة لصحابة أجلاء ، وناصحين أمناء ، من طراز "عليّ ، وعمّار ، وأبي ذر ، وابن مسعود » .. ؟؟

* * *

لم يكتف المتمردون الخوارج بتلك الاتهامات الباطلة التي راحوا يشغبون بها على الخليفة ، والتي سردناها على الصفحات السالفة وفنّدناها ، فراحوا يُرجفون بأن "الخليفة" يبتدع في الدين بدَعاً لم تكن على عهد رسول الله ﷺ ، ولا في عهد صَاحِبَيْه .

وهذا هو المأخذ الرابع والأخير في تلك المآخذ التي تناقشها ..

لقد راحوا يتصيَّدون للخليفة الراشد ، ما حَسِبوه بسوء تدبيرهم وخيبة فألهم طعناً سينال من ورع الخليفة وحُسْن طاعته لله ولرسوله .

* قالوا : إن الخليفة وحَّد المصاحف كلها في مصحف واحد ، وجمع المصاحف الأخرى وأحرق أوراقها .. ولقد فصَّلْنا هذا الأمر من قبل ، وشرحْنا أسبابه ودواعيه ، ثم إنها خطوة باركها جميع الصحابة ، حتى الذين كانوا على خلاف مع الخليفة في مسائل أخرى .

* وقالوا : إن الخليفة أتمَّ الصلاة بمكة في أثناء حجه ، وكان الرسول ﷺ وصاحباه يَقْصُرون الصلاة .

* وهذه وحدها كافية في الكشف عن حقيقة البواعث الشريرة الفاسدة التي كانت تُحرك أولئك الخارجين ، وكيف كانوا يتصيدون الوهم لينسجوا منه اتهاماً يحملون العامَّة به على مهاجمة الخليفة والسُّلْطة .. فَقَصْرُ الصلاة في السفر رُخْصَة لا واجب ، وإذا تخطى المسلم الرخصة إلى العزيمة ، فلا تثريب عليه ولا حرج . وحتى حين نأخذ برأي الذين يُوجِبون القصر في السفر . فإن الإمام علياً كرم الله وجهه ـ فيما يُروَى عنه ـ قد أجاب عن هذا المأخذ المغرض ، وهو يحاور المتمردين ، فقال : « إن الخليفة كان قد تأهَّل بمكة ونوى الإقامة بها ، فأتمَّ صلاته » .

* وقالوا : إن الخليفة لم يُقِم حدّ القتل على "عُبيدِ الله بن عمر" ..

وكان "عبيد الله" قد انطلق في ثورة غضبه لمقتل والده أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" فقتل طفلةً لأبي لؤلؤة .. المجوسي المجرم الذي اغتال أمير المؤمنين ، كما قتل الهرمزان بعد أن شاع نبأ تآمره مع أبي لؤلؤة ..

وصحيح أن الشريعة الإسلامية كانت توجب القصاص ، لكنّ الخليفة اجتهد في القضية اجتهاداً كان مبعثه تقديره للظروف التي دفعت ابن أمير المؤمنين عمر للثأر لأبيه ، وللإسلام ..كما أنه لم يشأ أن يجمع على آل الخطاب حُزْنين وكارثتين ـ الأولى :

مقتل "عمر" غدراً .. والثانية : قتل ولده قصاصاً .. ثم إنه لم يطلق سراح "عبيد الله" مُهدِراً بذلك الدم الذي أراقه .. بل استبدل الدية بالقصاص ، ودفع لأولياء الدم دِيَةً سَخِيَّة ، وكبيرة .

* وقالوا : إن الخليفة ردَّ إلى المدينة الحكم بن أبي العاص ، وكان الرسول ﷺ قد نفاه منها ..

ولقد أجاب الخليفة عن هذا ، بأنه كان قد شفع له عند رسول الله ووعده الرسول ﷺ بالعفو عنه بعد حين .. ثم إن الخليفة لم يردَّه إلى المدينة إلا بعد أن زالت أسباب نَفْيِه ، إذْ كان قد أقلع وتاب عمَّا كان استحق من أجله عقوبة النفي ..

وقالوا .. ثم قالوا .. ولم يشبعوا قولاً ، ولم يَعدِموا كذباً ولا بُهتاناً ، ينسجون منه خيوط مؤامراتهم الوبيلة . منتهزين فرصة أيِّ معارضة نزيهة يقوم بها صحابيٌّ ناصحُ أمين ، لِيُضخِّموها بوسائلهم ، وليتوسَّلوا بها إلى باطلهم ..

* * *

على أن الخليفة رضي الله عنه أمام المعارضة الشريفة التي واجه بها أصحابُه بعض قراراته ، لم يقف موقف المستعلي على الرأي ، ولا المُستَنْكف عن الحقّ ، بل وقف على ملأ من المسلمين في يوم الجمعة ، يعترف بالأخطاء التي وقعت ، ويرفع ضراعتَه إلى الله مستغفراً وتائباً .. باكياً ومُبكياً جميع الذين كانوا هناك يستمعون إليه وينصتون ..

* * *

وأمام موقفه هذا تبددت الموجة الأولى من الهجوم على المدينة . ذلك الهجوم الذي كان المتمردون قد انطلقوا به من مصر ، حيث كان "ابن سَبأ" قابعاً ومُقيماً ، يُفرِّخ ويَبِيض .. !! .

■ ■ ■

ضيف الجَنَّة الشهيد

سارت "المعارضة" في طريقها ، تُلحُّ على التغيير والتَحول نحو ما تراه أفضل وأمثل .. متوسلة بالحِوار الدائب مع الخليفة ـ هذا الحوار الذي كان يروح بين الرِّفق والحِدَّة ، ولكنه لا يُفسد للإيمان ولا للصحبة قضية .

وسارت "المؤامرة" في طريقها ، تريد تقويض الدين والدولة ، وتتسع لكل الأهواء ، وتستغلّ الظروف كافة ، وتدفع في طريقها بكل القُوى المناوئة للخليفة ، متوسلة بالفِرْيَة والتآمر .

* * *

والخليفة "عثمان" رضي الله عنه ، وقد بلغ الثمانين من عمره ، لا تزال خِصاله وفضائله غَضَّةً فَتِيَّة ، تقوده على طريق اقتناعه ومبادئه .

فهو يكره سفك الدماء ، وينأى عن القسوة ، ومن ثمَّ ، راح يحاول ثم يحاول أن يحسر المدَّ المتآمر بالرفق تارة وبالزجر تارة أخرى .. فلا الرفق أغنى ، ولا الزجر أفاد ..!!

هنالك ، سيطر على رُوع الخليفة واجب ، بدا له يومئذٍ أنه أهم الواجبات وأقدسها .. ذلكم هو: المحافظة الكاملة على هيبة الدولة وسلطانها .. وعندما نطالع أنباء تلك الأيام الأخيرة في حياة الخليفة نكاد نسمع صوت تفكيره وخواطره وهو يدرس القضية والأزمة في ضوء هذا السؤال: لمن يجب أن تكون السيادة: للدولة أم للفوضى ..؟؟

وعندما تُواجَه دولة مُا بفتنة مخرِّبة ، وتمرُّد آبق ، يهدفان إلى هدم كيانها ، ودَحْر قِيَمِها ، فإن اعتصام هذه الدولة بكبريائها ، وسلطانها ، يصبح واجبها الأول ومسئوليتها المقدسة .

ولقد أدرك الخليفة ذلك ببصر ثاقب ، وحمل مسئوليته بعزم مجيد!!

لقد كانت تترامَى إليه أنباء "عبد الله بن سَبَأ" وتحركاته .. كذلك أنباء الذي يُعِدُّونَ لثورة مسلحة ضد الخليفة ، في مصر .. وفي البصرة .. وفي الكوفة .. هؤلاء الذين كانت طريقتهم في التحرش بالدولة تفضح نواياهم ، وتَشِي بأغراضهم المريبة والبعيدة .. أبعد كثيراً مما كانوا يتظاهرون به ويدورون حوله . ومع ذلك فقد بقي الخليفة مستمسكاً بعُرَى مبادئه ، وفضائله ، ومزاياه .

ولم يكن ثَمَّة مظهر لهذا الاستمساك أجلّ ولا أروع ولا أبهَى من تصميمه المطلق على ألا يستخدم القوة في دَحْر الفتنة ، وإذا كان لا بدّ لِدَمٍ من أن يُسفك في ذلك النزاع ، فليكن دَمَه هو .. دون غيره من المسلمين ..

هذه صورة باهرة ، ما أكبرَ ما تغيب عن بال الذين يتدارسون تاريخ الخليفة العظيم ..!!!

لكأنُّها صورة "مَسِيح" آخر .. مُمَجَّد وجليل . يرى الثوار يُحاصرون داره ، شاهرين سيوفهم العاوية . وتُواتِيه فرص قتالهم وقتلهم ، فيرفضها ، قائلاً كلمته الخالدة :

"ما أُحِبُّ أن ألقى الله وفي عُنُقي قطرة دمٍ لا مْرئ مُسلم"!!!

ثم تواتيه فرص الخروج من الدار المحاصَرة ، والنجاة من القتلة المتربصين ، فيرفضها معلناً : أنه على موعد في الجنّة ، مع الرسول وصاحِبَيْه .. وأنه يتهيأ الآن للسفر إلى موعده !!

ألاَ من شاء أن يبصر الشخصية الباطنة لـ "عثمان بن عفان" بكل ما تزخر به من حقيقة وعظمة ، فحسْبه هذا الموقف وحده ، دُونَما حاجة إلى سواه ..

ولكن ، ما لَنا نتعجل الحديث . ونطوي الأحداث ..؟

فَلْنَعُدْ ، إلى وَرَاءٍ قليلاً ..

* * *

قلنا إن جماعة من المتمردين ، كانوا قد غادروا مصر إلى المدينة ، كما خفَّ إليها وفد من الكوفة ووفد من البصرة .

وهناك تقدموا للخليفة بمطالبهم ، وجرَى بينه وبينهم حوار عنيف ، انتهى بوساطة "الإمام عليّ" ، وبوعد من "الخليفة" أن يستجيب لما هو صواب من مطالبهم ، ثم بِعَهْد منهم أن يعودوا إلى بلادهم وأمصارهم في طاعة وهدوء ..

بعد ذلك ، أرسل الخليفة إلى ولاته على الأمصار حيث شاورهم في الأمر .. ولو أنهم أخلصوا يومئذٍ في معاونته على أمره ، لوضعوا استقالاتهم جميعاً بين يديه ، ولكن موقفهم كان مغايراً ، مما جعل الخليفة يتردد في عزلهم ، وبخاصةً وهو يرى نار الفتنة يزداد من حوالَيْه ضِرَامُها .

* * *

كان هذا الزحف الأول على عاصمة الخلافة نذيراً رهيباً ، وزئيراً عالياً ، لأعاصير زاحفة .

ولكنّ الخليفة وطّن نفسه ، ووطّد عزمه على الصمود أمام الأخطار .

لقد اقتنع بأن الأزمة تفاقمت إلى حد ، لم يعد من حقّه أن يتنازل عن ذرَّة من هيبة الدولة وسلطانها . ومهما يكن هناك من مآخذ وأخطار ، فإن إقرار هذا السلطان هو الواجب الأول والأهم أمام الفوضى الجارفة التي تتمثل في التهجم على شخص الخليفة ، ومُجَابهته بهُجْر القول وفاحِش السِّباب فحسب ، بل تمثلت في تهديد الدولة بقوة السلاح .

وتزدحم أمامنا صور الثبات الباهر للخليفة .. نختار منها هذه الصورة :

فعندما انتهت اجتماعاته بأمراء الأمصار ، وتأهبوا للعودة إلى أمصارهم ، عرض معاوية على "الخليفة" أن يصحبه إلى الشام حتى تستقر الأمور . فرفض الخليفة قائلاً :

"لا أختار بجوار رسول الله ﷺ جواراً سواه" .

وعاد معاوية ، يعرض عليه أن يرسل جيشاً من الشام يرابط بالمدينة ، ويحافظ على حياة الخليفة .

فرفض الخليفة قائلاً :

"أخشى أن يَزْحَمُوا المدينة ، وتَضيق بهم على أصحاب الرسول من المهاجرين والأنصار" .

وعاد معاوية يقول للخليفة : إذاً سيغتالونَك ..

وكان جواب الخليفة العظيم :

"حَسْبِيَ الله ، ونعم الوكيل" .

ثبات عجيب على مبادئه ، وولاء فذ لاقتناعه !!

وتمضي الأحداث سريعة ، لا ترحم الناس ولو بقليل من البطء ..

فإن زعماء الأحزاب في مصر ، وفي البصرة ، وفي الكوفة تكاتبوا واتفقوا على أن تخرج فيالقهم المسلحة إلى المدينة ، حيث يلتقون هناك ليعزلوا الخليفة بقوة السلاح ..

واستيقظت المدينة يوماً على مثل هزيم الرعد ، وعلى منظرٍ رهيب من آلاف الثوار المسلحين .. احتشدوا هناك عند مشارف المدينة ، وأرسلوا وفداً منهم للقاء "الإمام عليّ" الذي لم يكد يعرف نبأهم ، ويرى حشودهم حتى صاح فيهم بكل عزمه وبكل إخلاصه :

* "ارجعوا إلى بلادكم ، لا صبَّحكُمُ الله" !!

لكنّ الثوار المتمردين ظلوا في مواقعهم ، وعلى رأسهم زعماؤهم من الأمصار الثلاثة .. والخليفة في داره يتساءل : ماذا يريدون ..؟!

* أن أعزل أمراء الأمصار ..؟ وماذا ستكون العاقبة ، إذا كانوا كلما كرهوا أميراً عُزِل ..؟!

* أن أسلِّمهم مروان بن الحكم .؟! وكيف أسلِّمهم إياه ليقتلوه؟ أجَلْ .. ليقتلوه ..

* ثم ماذا سيكون مصير الدولة بكل سُلطانها ، وهيبتها ، وكرامتها ، إذا هي عَنَتِ اليوم وركَعَتْ أمام هؤلاء الثائرين المتمردين ..؟؟

بيد أن الموقف كان يتطور في سرعة رهيبة ، حملت الخليفة على أن يستنجد بالإمام عليّ كرم الله وجهه ، ليُفاوِض الثوار ، وليحملهم على إلقاء السلاح والرحيل عن مدينة رسول الله وعاصمة الإسلام .. لقد كانت "كرامة الدولة" تشغل باله إلى أبعد مدى .

ولكي يحافظ على هذه الكرامة ، اشترط لتسوية الأزمة أن يرحل الثوار أوّلاً ..

وبعدما يعودون إلى بلادهم ، يقوم بعزل "مروان" رئيس ديوان الخلافة ، وعزل أمراء الأمصار الذين تلاحقهم شكوى الثائرين .

وأعطى "علياً" وعداً صادقاً ، وعهداً وثيقاً بذلك .

ومن فَوْره ، خرج "الإمام عليّ" إلى خيام المتمردين ومعه "محمد بن مَسْلَمة" و"سعد بن أبي وقاص" ، واستطاع "الإمام" أن يقنعهم بالعودة والرحيل باذلاً في هذا السبيل جُهداً خارقاً ونبيلاً .

* * *

ومضت أيام قليلة ، وإذا بالمدينة تُرَوَّعُ ذات صباح بالثوار الذين عادوا أدراجهم ، زاحفين على المدينة ليحتلوا شوارعها ، وليفرضوا حول دار الخليفة حصاراً رجيماً ..!!

ماذا حدث ..؟ وماذا دَهَى الثوار ..؟!

لقد خرج إليهم "رسول السلام ، عليّ بن أبي طالب" يسألهم: لماذا نكثوا العهد وعادوا ..؟؟

فنشر زعماء ثوار مصر أمامه كتاباً وقالوا: اعتَقَلْنا في الطريق رجلاً أرسله مروان بهذا الكتاب الممهور بخاتم الخليفة، وفيه أمْرٌ لوالي مصر بقتلنا وصَلْبِنا ..

وعاد الإمام يسأل ثوار الكوفة والبصرة: وأنتم، ما الذي جاء بكم ..؟

قالوا: جئنا لِنُصْرَة إخواننا المصريين.

وسألهم الإمام: لكنكم ذهبتم من طريق، وهم من طريق .. فأنّى لكم عِلْمٌ بهذا الكتاب ..؟؟

لكنَّ الوقت لم يكن وقت مناقشة وحِوار:

إنها الفتنة، قد شُدَّ زنادُها إلى أقصاه، تنتظر لَمْسة بَنَان، فتقع الكارثة، وتحلّ الفاجعة ..!! تُرى، ماذا كانت حقيقة ذلك الكِتاب الذي قالوا إنهم ضبطوه ..؟؟

أمَّا أن يكون "الخليفة" هو الذي كتبه، أو أمْلاه، أو عَلِمَ به، فأمْرٌ أبعد من المستحيل ..

لقد أقسم بالله وهو صادق، أنه ما كتبه ولا أشار بكتابته، ولا عَلِمَ مِنْ، أمره شيئاً ..

ومن غير أن يُقسم ـ رضوان الله عليه ـ فما ذلك بخلُق رجل تحمَّل ألوان الأذى والوقاحات في سبيل ألا تُراق قطرة دم من مُسلم، حتى لو يكون هذا المسلم أحد أولئك الذين ثَلَمُوا إسلامهم بالتآمر والعصيان !!!

إذن، من الذي يحمل وِزْرَ هذا الكتاب ؟

إنه أحد اثنين:

إمَّا "نَفَرٌ" من زعماء الثوار .. وإمَّا "مروان".

أمَّا الأولون، فلأن لهم سابقة في مثل هذا التزوير، فحين عزموا أمرهم على الخروج من مصر ومن الكوفة، ومن البصرة إلى المدينة، دبَّر بعض زعمائهم حيلة يحملون بها أكبر من عدد من المسلمين على الخروج معهم – فزوَّروا كتباً على لسان "أم المؤمنين عائشة"، وعلى لسان "طلحة" و "الزبير"، يدْعُون المسلمين فيها إلى الزحف على المدينة لقتال "عثمان".

ولم تُعرف حقيقة هذه الخدعة الكاذبة الخاطئة، إلا بعد وقوع الواقعة واغتيال الخليفة.

وهكذا، لا يبدو غريباً على الظن أن يكون مُزَوِّرُو تلك الكُتب، هم الذين افتعلوا هذه الأكذوبة الجديدة، وأتقنوا إخراجها.

فإن لم يكونوا .. فهو إذن "مَرْوان".

ومروان ـ كما يُعرفنا به التاريخ ـ لم يكن له من دينه ولا من خُلُقه، ما يردعُه عن اقتراف مثل ذلك العمل الْمَوْزُور.

ولقد طالب الثوار بتسليمه على الفور. ولكن "الخليفة الرحيم" كان يرى مصيره المحتوم إن هو وَقَعَ في أيديهم .. فرفض تسليمه.

لم يَفعل الخليفة ذلك رضاً بما فعل مروان .. وإنما هي طبيعة رجل لا يُطيق أبداً أن يُسلِّم بيديه إنساناً إلى ساحة القتل والإعدام ..!!

أليس هو الذي رفض من قبل إعدام "عُبيد الله بن عمر" وكان قصاصاً مشروعاً ، وتحمَّل أمام الله مسئولية استبدال الدِّية بالقصاص ..؟!

إن رحمته بالآخرين ، وجزَعَه من رؤية الدم المسفوك ، لا يدَعانه حتى في هذه الساعات الرَّهيبة ينجو بحياته ، ويخلص بمصيره ..!!

* * *

وأخرج الثوار ورقتهم الأخيرة ، ورفعوا عقائرهم في جرأة ضارية : "إمَّا اعتزال عثمان ، وإمَّا قتله" .

وفي ثبات مذهل ، رفض الخليفة أن يعتزل .. لماذا ..؟ أحرِصاً على مجد المنصب وجاهه ..؟ .

ألا فَلْنسأل طبائع البشر ، مُذ وجد أبو البشر "آدم" حتى يومنا هذا .. أيمكن لرجل جاوز الثمانين ، أن يستبدَّ به طموح تحيط به الأخطار والمهالك على هذا النحو المزلْزِل الرهيب ..؟؟!!

لقد رفض "عثمان" إذن أن يعتزل ، لأنه "رجل مسئوليات" من طِراز فريد ..

وهذا خُلُق كان مخبوءاً تحت ستار تواضعه وحيائه ، وما كنا سنراه متألقاً كرائعة النهار ، إلا في أزمة كهذه .. ومِحنة كهذه .. وموقف كهذا الموقف الزاخر العظيم .!

لقد ذكَر وَصيَّةً كان الرسول قد أوصاه بها:

«يا عثمان ..

إذا الله كساك يوماً سربالاً ، وأرادك المنافقون على خَلْعه ، فلا تخلَعْه لظالم» ..

ولقد كساه الله "سِربالَ الخلافة" ..

وها هم أولاء المتمردون الظالمون ، يريدون بقوة السلاح الأثيم في أيديهم ، أن يُكرِهُوه على خَلْعِه ..

أفيَرْضَخُ لهم ..؟؟

أَفيُسلِّم مصائر الإسلام ، وكرامة الدولة ، لعصابةٍ مفتونة ..؟؟ لا ..

ولكي يستوثق من سلامة موقفه وسداده ، أرسل إلى رجل من خيار أصحاب الرسول يستشيره ، ذلكم هو .. "عبد الله بن عمر" رضي الله عنه .. .

ولْنُصغِ لـ "نافع" مَوْلى "ابن عمر" ، ينقل إلينا الحوار الذي دار بين الخليفة وعبد الله:

الخليفة : إن هؤلاء القوم يريدون خلعي ، فإن أَجَبْتُهم تركوني ، وأن أبيتُ قتلوني ، فماذا ترى ..؟

ابن عمر : أرأيت إن خلعت نفسك ، تبقى في الدنيا مُخلَّداً ..؟

الخليفة : لا ..

ابن عمر: أرأيت إن لم تخلَع نفسك ، هل يزيدون على قتلك شيئاً ..؟؟ هل يملكون الجنة والنار ..؟

الخليفة : لا ..

ابن عمر: إذن ، فلا تَسُنَّ هذه السُنّة في الإسلام ، ولا تخلع قميصاً ألبَسَكهُ الله .

وإنا لنكاد نرى الفرحة تترقرق في مُحَيَّا الخليفة ، وهو يستمع لهذه الكلمات ، يشدُّ أَزْرَه بها صحابي جليل مثل "عبد الله بن عمر" ..!!

ولكنه إذا كان قد وطَّد عزمه على التضحية بحياته في سبيل كرامة الدولة وكيانها ، فإنه لم يتقاعس عن بذل كل جهد مستطاع لإقناع المتمردين بإلقاء سلاحهم ، والتخلي عن إباقِهم .

وفي ذلك ، كان يلجأ إلى الإمام عليٍّ كرم الله وجهه كثيراً ، بل دائماً ..

والحقّ أن "الإمام" تَحمَّل في تلك الفتن فوق طاقته .. وكانت الرياح الهُوج التي يثيرها المتمردون من جانب ، ومروان من جانب آخر ، تتحدّى زورقه المستبسل الوديع ، وتعصِفُ بمحاولاته النبيلة .. بيد أنه لم ييأس ، وظلّ يُغالب العاصفة ، ويُغطّي بحواره المقنع زئيرها ، لكنّ الفتنة كانت قد جاوزت كل حدود التعقل ، واحتلّت أعصاباً متوترة إلى أقصى درجات التوتُّر ، فلم يعد للحكمة ولا للإقناع مكان .

وحين يبلغ القلق العصبيُّ ذروته القُصْوى ، فإن أصحابه يتخففون من أعبائه المرهقة بمواجهة الأخطار التي أثارته وكانت سبباً له .

وهذا هو الذي حدث في نهاية المطاف ..

لقد أحكم المتمردون حصارهم القاسي حول دار الخليفة ، فمنعوه زُوَّارَهُ .. ومنعوه الماء .. الماء الذي تتفجَّر به "بئر رومة" التي اشتراها من خالص ماله في أوائل أيام الهجرة إلى المدينة وجعلها هدية منه للمسلمين !!!.

ولم يَكْفِ بعض زُعماء الفِتنة ما أنزلوه بالخليفة من أحزان ، حين توقّحوا عليه بشتائم بذيئة على مَلأ من الناس .. .!! .

ولم يكفِهم تهجُّم أحدهم عليه، وهو فوق منبر رسول الله ﷺ يتهيأ لإلقاء خطبة الجمعة ..!!

لقد غرَّهم حلمُه ، وأغرتْهم مُصَابرته .

ظنُّوا ـ وكان ظنَّ السَّوْءِ ـ أن وراء هذا الحلم وهذه المصابرة ، حرص الخليفة على الخلافة ، وعلى الحياة ..

ولم يعلموا ـ أو لَعلَّهم علموا وتجاهلوا ـ أن وراء حلمه ومصابرته ، إدراكه الثاقب للمصير الفاجع الذي سيحيق بالأمّة وبالدولة ، إذا هُم تَسوَّرُوا حُرمات السُّلْطة ، واغتالوا حياة الخليفة ..!!

ولقد قال لهم ذلك من قبل:

" .. إن الناس قد أسرعوا إلى الفتنة وطال عليهم عمري ..

أما والله لَئِن فارقْـتُهم لَيَتمَنَّوْنَ لو أن عمري طال فيهم كل يوم بسَنَة .. وذلك ممَّا يَرَوْن من الدماء المسفوكة " .!

كان إدراكه الثاقب لهذا المصير الذي تحققت عنه نُبوءته ، هو الذي يحمله على المصابرة .. بل على التوسُّل ، كي يتخلى الثوار عن فِتْنَتِهِمْ ، لكنَ زعماء الفتنة الذين عملوا لها طويلاً ، لم يكن يرضيهم إلا تفجير الأحقاد الناسِفة ، لتسقط الدولة كلها كِسَفاً .

والآن وقد أحكموا قبضتهم على زمام الموقف ، فإنهم راحوا يَتَهَيَّئُونَ للضربة الأخيرة ، فحاصروا دار الخليفة استعداداً لإنزالها .

وطال الحصار ، ثم طَالَ .. حتى صار أهل المدينة من طول إيلافهم له يروحون ويغدون ويحيون حياتهم العادية في رتابَتِها المألوفة .

كانوا جميعاً أقرب إلى اليقين بأن شيئاً مّا سوف يحدث ، فتنجلي الأزمة ويرحل الثوار .

لم يكن أحد يتوقع ـ برغم ضراوة التمرد ـ أن يداً ستمتد إلى حياة الخليفة فتغتالها .

*إنه شيخ في الثمانين من عمره ، بل جاوز الثمانين .

*وإنه من المؤمنين الأوائل المبكِّرين .

*وإنه صِهرُ رسول الله ﷺ..

*وخليفته .

*والمبشَّر بالجنة ..

*ومُجهِّز جيش العسرة .

*والباذل ماله بغير حساب في سبيل الله ، ورسوله ، ودينه ..

فمن ذا الذي لا يرعى كل هذه الحُرُمَات ، ومهما يختلف مع الخليفة في أمر أو في أمور ..؟؟

من ذا الذي يحمل في قلبه مثقال ذَرَّة من إيمان ، ثم يجد التهوُّر الذي يدفعه لمواجهة "عثمان" بسلاح قاتل رجيم ..؟

الحقّ أن اغتيال الخليفة رضوان الله عليه ، كشف تماماً عن حقيقة المؤامرة ، وحقيقة بعض زعمائها الواغلين .. كما كشف عن تلك الكثرة المخدوعة من الناس الذين لم تكن النوايا الحسنة تنقصهم ، بَيْد أنهم خُدعوا ، وغُرِّر بهم ، فساروا وراء حفنة من المتربصين بالإسلام سوءاً ، وأيَّ سوء .. .!!

قلنا : إن القلق العصبي حين بلغ ذروته القصوى لا يجد أصحابه سبيلاً للتخلُّص منه ، سوى مواجهة المخاوف التي سبَّبته ..

ولقد سارت المجابهة القاسية حتى بلغت هذا المدى ، ولم يعد بُدّ من أن يتهيأ المسرح لمشهد الخِتام .

* * *

*في دار الخليفة كان يَقْبَعُ "مروان" مع نفر من أتباعه المسلَّحين .

*وعلى أبوابها ، ثُلَّة كريمة من الصحابة ، خَفُّوا بسلاحهم لافتداء الخليفة .. فيهم

الحسن والحسين ابنا "عليّ" ، أرسلهما أبوهما العظيم ليحرسا منافذ الدار .. وفيهم عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وآخرون ..

* وخارج الدار ، وحَوالَيْها من كل جانب ، صفوف عريضة من الثوار الْمُدَجَّجِينَ ، تَؤُزُّهم أزًّا عنيفاً تلك الأنباء التي جاءتهم بأن معاوية أرسل قوة من جيش الشام .. وهي على مقربة من المدينة في الطريق إليها ..!!

* أما الخليفة ، فقد طلع عليه صباح ذلك اليوم وهو في عالم آخر ، لا يكاد يعنيه شيء من كل هذه الدنيا القائمة حوله والقاعدة ..

لقد تلَقَّى دعوة إلى الجنة .. وهو اليوم في شُغُل بها عن كل شيء عَداها ..!

ففي الأمسية السالفة ، وبعد أن صلَّى من الليل ما صلَّى .. وقرأ من القرآن ما قرأ .. وألقى نفسه بين يَدَيْ ربه ضارعاً مبتهلاً ، أوى إلى فراشه ونام .. وفي منامه رأى الرسول ﷺ يقول له:

" أَفْطِرْ عندنا غداً ، يا عثمان "!!

ما أبهجها من كلمات ، بَعَثَتْه في خَلْقٍ جديد!!

وإنها لَرُؤْيا حقّ .

و "عثمان" أكثر الناس يقيناً بصدقها ..

وإذن ، فليس أمامه سوى وقت قصير لكي يتهيأ لموعد المصطفى ورحلة الخلود .

سيترك للناس دنياهم ..

وسيدَع للثوار تلك الجدران الأربعة التي يحاصرونها ، مُنطلقاً في عُرسِه العظيم إلى رحاب الله ، وجوار محمد ..!!

أصبح ذلك اليوم صائماً . فقد كان منذ أسلم يقضي أكثر أيامه في صيام ، وكل لياليه في قيام .

ودعا جميع الذين في داره ، وأمامها ، ممن يحملون السلاح دفاعاً عنه ، أن يُلقوا سلامهم ، ويغادروا الدار مشكورين ، وفي رعاية الله .

لكنهم أَبَوْا جميعاً أن يتركوا مواقعهم حوله ومعه ، ولا سِيَّما الحسن ، والحسين ، وابن الزبير ، وابن عمر .

بيد أن أمر الخليفة وإلحاحَه ، ظلاّ يهيبان بكل حامل سلاح أن يلقي سلاحه :

« إن أعظَمكُم عني غَنَاءً ، رجل كَفَّ نفسه ، وسلاحه » .

" أناشدكم الله ، ألا تهْرقوا بسببي دماً " .

وترامى إلى سمعه هرج شديد خارج الدار ، فقد أقبل من أهل المدينة ناس كثيرون اشتبكوا مع المتمردين ، وراحوا يحاولون إبعادهم عن دار الخليفة .. وأطل الخليفة على الجمع الحاشد من شرفة داره ، ونادى المتمردين بكلمات أخيرة ، أراد أن يُبْرِئَ بها ذِمَّته :

« أيها الناس ، لا تقتلوني ..

فوالله ، لئن قتلتموني ، لا تتحابُّون بعدي أبداً .. ولا تُصَلُّونَ جميعاً بعدي أبداً .. »

وعاد إلى حجرته ، فصلّى ركعتين .. ثم حمل مصحفه بيديه ، وراح يقرأ .. ويقرأ ، مُتأنّقاً بين آياته المحكمات ، وروضاته اليانعات ..!!

* * *

وضاقت الصدور المكبوتة تحت ضلوع زعماء الفتنة ، وخَشَوا أن تدور عليهم الدائرة ، فأمروا بمهاجمة الدار ..

لكنَ الثلّة الطاهرة بإمرة الحسن ، والحسين ، وابن الزبير ، وابن عمر .. أبْلَت في صَدّهم بلاءً مُعجزاً ، حتى ردتهم عن الأبواب صاغرين ..

هنالك ازداد حقدهم ضراماً .. وركبتهم كل شياطين الجريمة ، فنظروا ، فإذا دار مجاورة لدار الخليفة قريبة المنال ، فقرروا أن يتسوروها ، ويَتَسَلَّلوا إلى مكان الخليفة منها ..

واختاروا من بينهم نفراً يقوم بالمهمة على عَجل ، ونادوا "محمد بن أبي بكر" لِيَصحَبَهم ..

وما هي إلا دقائق معدودة ، حتى كانت الخطة قد أُنجزت ، وفجأة رأى الخليفة أمامه أولئك المتسوِّرين ، ورأى "محمد بن أبي بكر" يتقدمهم ، ويُمسك لحية الخليفة بيده ويهزّها متوعداً ..

وفي هدوء القديسين ناداه الخليفة:

«يَابْنَ أخي ..!!

دَعْ لِحيَتي ، فوالله لقد كان أبوك يُكرمها .. ولو رآك في مكانك هذا لاستحيا مما تصنع .. » !!

ودارت الأرض بمحمد .. وارتدت يده في خشوع وندم ..!!

وانطلق مسرعاً خارج الدار يسوق أمامه اولئك الذين كانوا قد تسوَّروها معه . وعلى بابها الفسيح ، وقف يزود المهاجمين ..!!

وجُنَّ جنون ذلك النفر من زعماء الفتنة ، وهزّهم موقف "محمد" هذا ، كما لم يهزّهم موقف آخر .. وتراءى لهم مصيرهم الأسود ، فَشَدُّوا على الدار المجاورة شدَّة واحدة ، ومن فوق سورها القريب قفزوا كالذئاب الجائعة المسعورة ، واقتحموا على الخليفة خَلْوَتَه:

وكان آنئذ قد بلغ في تلاوته ، هذه الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

لم يُبالِ بهم ، ولعله لم يُحس بتقحُّمِهم ، فقد كانت غبطةُ روحه ، وأُنْسُه بآيات ربه ، وفرحته بمأدبة الجنة التي دُعي إليها .

كان كل ذلك يحجب عنه أشباح الشياطين ..

واستمر في قراءته .. على حين اندفع الجناة نحوه ليقترفوا جريمتهم البشعة النكراء .. لم يُقاوم ، ولم يتحرك من مجلسه ، ولم يتخلَّ عن مصحفه ..

ولم يزد على أن قال حين أصابت إحدى ضرباتهم الآثمة كفَّه فأصابتها في صميمها :

" والله إنها لأوَّلُ يَد خَّطت المُفَصَّل .. وكتبت آي القرآن " ..!

وحين رأى دماءه تتفجر ، فتُضمِّخ أوراق المصحف ، طواه حتى لا تطمس الدماء بعض آياته ، ثم ضمَّه – وهو يُسْلِمُ الروح – إلى صدره .

وحين تمدَّد جثمانه الطهور ساكناً سُكون الموت ، كان كتابُ الله لَصِيقَه .. وصَديقَه ..!

ومن أوْلى بذلك منه ..؟؟

أليس هو الذي وَحَّدَهُ ، وحفظه ، وافْتداه ..؟!

* * *

كان الاغتيال الخاطف لحياته قد تمَّ بين العصر والأصيل .

وإذن ، فأمامَ روحه وقتٌ كافٍ لبلوغ موعدها على مائدة الإفطار ، في الجنة ، عند الغروب ..!!

فلْتعرُجْ إلى بارئها .. ولْتذهَب إلى ضيافته في حُبور عظيم ..

إن رسول الله ﷺ هناك ينتظر على شوق .. وينتظر معه صاحباه ، الصِّدِّيقُ ، والفاروق ..

لقد تعِبَ "عثمان" طويلاً ، خِلاَلَ اثنتي عشرة سنة قضاها في الخلافة حاملاً أعباءها ولواءَها ..

ولقد كان همه ألاَّ تسقط الراية من يمينه .. وألاَّ يلْقى الله حين يلقاه ، وعلى يديه قطرة واحدة من دماءٍ مُسْلمة .

أوَ قد ظفِر بمُبْتغاه ..؟؟

أجَل .. كان الظَّفَر حظَّه ، والفوزُ نصيبه ..

فلْيَبقَ للأرض جسده ، مُثْخَناً دامياً .. أو سليماً مُعافًى ..

ذلك أمر لا يعنيه .. ما دامت روحه الطاهرة قد فازت بمستقبلها عند الله ..

■ ■ ■

فيِ رحابِ عليّ

﴿قُل لَا أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنها لمحاولةٌ صعبة .. مُحاولَةُ تلخيص حياة "الإمام" وسيرته بين "دَفَّتي كتاب" .. !!

والحقَّ أقول لكم : لقد حاذرتُ هذه المحاولة من قبل ، وهربتُ منها .

فبعد أن قدَّمت كتابَيَّ : "وجاء أبو بكر" .. و "بين يَدَيْ عمر" .. استقبلت سيرة "الإمام عَلي" لأحظى بشرف تصويرها وتقديمها ، بَيد أني لم أكد أفعل حتى غَشيني تهيُّب شديد لم يَخفَ عليَّ سببه .

فحياة "الإمام" ـ لا سيما في مرحلتها الأخيرة ، التي بدأت باستخلافه وانتهت باستشهاده ـ لم تكن حياة عادية .

إنها حياة أخرى ، تتطلب مواجهةُ تاريخها المكتوب مُستوى غير عادي من يقظة الذهن ، وجَلَد الأعصاب .

لقد كانت حياة تتفجر عظمة ، وجلالاً ، وإعجازاً .. ولكنها ـ أيضاً ـ تُموج بالأسى والهول موجاً .. !!

حياةٌ الْتقى فيها النصر والهزيمة .. المقدرة والورع .. البأساء والضراء .. البطولة والألم .. العظمة والمأساة .. لقاء بلغ في جيشانه واحتدامه ذروة خطر فريد يجعل مواجهته ـ ولو في صورة كلام مسطور ـ أمراً صعباً ومهيباً ..

من أجل ذلك تهيَّبت الموضوعَ كله .

كما تهيَّبت رؤية "البطل" في أيامه العصيبة حيث المؤامرات والفتن والحروب تقعد له بكل مرْصَد .. !!

كما تهيَّبت الصراع الرهيب يَنْشِب بين المسلمين ، ويُقدِّم بعضهم بعضاً حِنطةً لرحاه .. !!

* * *

هنالك غَيَّر "زورقي" اتجاهه ، واستقبلت نفراً كبيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ، حيث قدَّمتهم في كتابي : "رجال حول الرسول" .

وخلال لقائي المتساوق مع أولئك الأصحاب الكبار ، أخذت أعتاد شيئاً فشيئاً مواجهة القضية التي أجفلتُ بالأمس من مواجهتها ، وانْثال على روعي كثير من الطمأنينة والفهم ، حيث واتتني القدرة على تلبية أشواقي إلى رحاب الإمام .

* * *

بيد أني لم أكد أفعل حتى فاجأني إشكال جديد ، ذلك أني بما أكتب من سِيَر وتراجم ، لا أُريد أن أقدِّم كتب تاريخ ذات نهج مدرسي ، إنما يعنيني رُوح التاريخ ..

أجل .. إني لا أُؤرِّخ للوقائع .. وإنما أُؤرِّخ للعظمة الإنسانية المستكنة في الوقائع والأحداث ..

وطريقتي أن أصحب التاريخ في كل تفاصيله ، بل ومتاهاته ، ثم أعود من رحلتي هذه ، لأصوغ رؤيتي التاريخية في شيء أَشْبَهَ باللَّوْحة يتألق عليها جوهر الشخصية ، وحظها المتفرد من التفوق والعظمة .

وفي سيرة "الإمام عليّ" تزدحم التفاصيل والوقائع ازدحاماً لا يؤذن بانتهاء .. حتى لقد خشيتُ أن أزيغ عن نهجي في زحمة تلك الأحداث الرهيبة ، والوقائع التي تملأ الزمان والمكان .

لكنني لم أكد أمضي على الطريق حتى صادفني يُسر عجيب ، جعلني أهتف من أعماق روح شاكرة :

ـ ألا حيَّا الله بركات الإمام .. !!

وهكذا ، لا تجيء هذه العبارة : « في رحاب الإمام » مُجرَّد عنوان لكتاب ..

إنما هي تعبير متواضع عن ذلك الذُخر المفيض الذي يجده المُيَمِّمُون وجوههم صَوْبَ "عَليّ" ـ الحواريّ العظيم للرسول ﷺ .. والابن البارّ للإسلام !

فَمِن عظمة نفسه ، ونُبل شمائله ، وإعجاز بيانه وبَلائه ، تَنداحُ رحاب ليس لها أبعاد ، تتلألأ عليها بطولات وتضحيات ، عظائم وأمجاد ، تكاد تحسبها ـ لولا صِدقُ التاريخ ـ أحلاماً وأساطير . !!

* * *

ولَكَمْ وَددت لو يطول في هذه المقدمة حديثي .. فما أجمل القول عندما يكون موضوعه رجلاً من طراز "عَليّ" ، بيد أنه ليس من حقّي ، وقد دعتنا مقاديرنا السعيدة للقاء الإمام على هذه الصفحات ، أن أُطِيل وَقْفَتكُم على الباب ..

فلأفْسح لكم الطريق لتُفضُوا إلى رحابٍ ما أثْرَاهَا ، وما أبرَّها من رحاب .. !

* * *

ويا أبا السِّبْطَيْن ..

يا أبا الحَسَنَيْن ..

إذا كنا نُجاوز قَدرنا بهذا اللقَاء ، فإن عظمة نفسك الراضية الزاكية تعطينا حقّ الرجاء ، في أن تتقبلنا ضيوفاً على سيرتك الوضيئة الجليلة .

وضيوفاً على رحابك المفيئة الجزيلة .

صلى الله عليك ..

خالد

الابن والحفيد

وَوُرِّثَ فَرْعَ المجد من آل هاشم وجاء كريماً مِن كِرام أماثِل !!

جلس الفتى مبهور الأنفاس ، مشدود المشاعر ، وسط القوم الذين أحاطوا بوالده ، وهو يُحتضَر ...

كان احتضار أبيه يَشغَلُهُ ويحزنُه .

لكنه مع ذلك ، وربما فوق ذلك ، كان يشغله ويستغرق وعيه وفطنته ، ولعُه الشديد بأن يرى : كيف يلتقي الاثنان وجهاً لوجه ، البطولة والموت .. !!

ألا إنها لفرصة فريدة للفتى المشغوف بالمعرفة ، فإن مُمثل البطولة في زمانه يتهيأ الآن للرحيل ، ويقترب الموت منه في حفاوة صديق !

فلينتظر الفتى ـ ما شاء ـ كيف يواجه الأبطال الموت .

* * *

وتململ الشيخ المحتضر في فراشه ، وأشار إلى الذين حوله لينهضوه قليلاً ، حتى إذا أقاموا ظهره ورفعوا رأسه ، عانَقَتْهم من عينيه نظرات حانية ، امتدت واتسعت حتى وجدوا بَرْدَها في صدورهم !!

ثم راح يوجِّه إليهم كلمات ، أراد أن تكون آخر عهده بهم ، وبالدنيا !!

يا معشر قريش ...

أوصيكم بتعظيم هذا البيت ـ الكعبة ـ فإن فيه مرضاة الرب ، وقوام العيش ...

صِلوا أرحامكم ، ولا تقطعوا ، فإن صِلة الرَّحِم مَنْسأةٌ في الأجل ..

اتركوا البغي ، فقد أهلك القرون من قبلكم ...

يا معشر قريش ..

أجيبوا الداعي ، وأعطوا السائل ، فإن فيهما شرف الحياة وشرف الممات ..

وعليكم بصدق الحديث .. وأداء الأمانة ..

ألا وإني أوصيكم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين في قريش ، والصادق في العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ...

ولقد جاءنا بأمر قَبِلَه الجنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن ...

وأيْمُ الله لكأني أنظر إلى صعاليك العرب ، وأهل الأطراف ، والمستضعفين من الناس ، قد أجابوا دعوته ، وصدَّقوا كلمته ، وعظَّموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ...

ولكأني به وقد مَحَضَتْهُ العَرَبُ ودادَها ، وأعطته قِيادَها ...

والله ، لا يسلُك أحد سبيله إلا رَشَد ، ولا يهتدي بِهَدْيِه إلا سَعد .

[ولو كان في العمر بقيَّة ، لكففتُ عنه الهزَاهز ، ولدفعت عنه الدواهي] .

ثم وضع عينيه على أهله الأقربين من بني هاشم ، واختصَّهم بوصية أخرى .

... وأنتم يا معشر بني هاشم .

[أجيبوا محمداً وصدِّقوه ، تفلحوا وترشدوا] !! .

وأومأ إليهم ، ليعيدوه إلى ضجعته الأولى ، واستوى تحت غطائه ..

وعَبرت لحظات ، تغشَّتْه بعدها سكِينَة الموت !!

لقد أدَّى الراحل المُسَجَّى ، آخر الأمانات لديه .. أمانة كان يُحاذِر أن تُعجزه رهبة الموت عن أدائها !!

ومال رأسه المثقلُ بالخوف ، على صدره المثقل بالإشفاق ..

ولكن .. الخوف مِمَّن .. ؟

والإشفاقُ عَلَى مَنْ .. ؟

الخوف من قريش .. والإشفاق على ابن أخيه الذي حشدت قريشٌ له كلَّ كيدها وبأسها ، لأنه يهتف فيهم :

ـ أن « لا إله إلا الله » .. !!

أعرفتُم الآن عمَّن نتحدث .. ؟

أجلْ ـ إنه هو .. أبو طالب ، شيخ قريش ، وسيد جيله ..

وأما الفتى الذي كان يجلس مبهور الأنفاس ، مشدود المشاعر ، فهو ابنُه وفتاه : عليَ بن أبي طالب !!

انظروا ..

هاهو ذا ، يُقبِّل جبين أبيه ، ثم يسجِّيه ، ثم ينهض في ثبات ليدبِّر أمره ...

إن غبطةً ظاهرة تُزاحِم في نفسه كل مشاعر الحزن والفجيعة إذ رأى أباه يموت ـ حين يموت ـ لا صامتاً ، ولا مخذولاً .. بل خطيباً ، يلخص في كلمات سواطع كل فضائل حياته التي عاشها فوق الأرض وبين الناس ، ويواصل في إلحاح نبيل وقفته إلى جانب تلك الفضائل ، وإلى جانب المُمَثل الجديد والمجيد لها .. الداعي إلى الله بإذنه .. " محمد بن عبد الله ﷺ " ! .

أجلْ .. فبقدر ما أحزن الابن فَقْدُ والده ، كانت غبطتُه إذ تلقَّى في لحظة الختام هذه أصدق عظات الحياة وأروعها :

عَظِّموا الكعبة ..

صِلُوا الرَّحِم ..

اتركوا البغْي ..

أجيبوا الداعي ..

كونوا صادقين ..

عيشوا أمناء ..

وأولاً وأخيراً :
انصروا محمداً ..
فإنه الهادي إلى سواء السبيل .. !! .

* * *

مِن صُلْب هذا الوالد جاء "عليّ" .
لقد كانت قريش كلها تنظر إلى "أبي طالب" نظرتها إلى زعيم .
الكل يحبه ، ويهابه ، ويحترمه ، لا لمكانته في قريش فحسب ، بل قبل هذا وذاك ، لِما يحمله من نفس كريمة ، وخصال عظيمة ، وشخصية عادلة فاضلة ، تَبهر الناس بقوّتها واستقامتها ، وشموخها .. !! .
وإنه ليكفينا في التعرُّف إلى شخصية هذا البطل لمساتٌ من مواقفِه تجاه الإسلام ، وقريش ..
لقد وقع على كاهله دون أعمام النبي جميعاً ، ودون أهله وعشيرته كلهم ، عِبء مناصرة الرسول ﷺ ، ومقاومة قريش ..
وثبت الرجل ثباتاً باهراً أمام مناورات ومؤامرات تهد الجبال !!
ذلك أنه كان أوسع رجال قريش أُفقاً وأذكاهم قلباً ، وأوفرهم جسارة وعزماً .

* * *

في الأيام الأولى لدعوة النبي ﷺ ، رأى أبو طالب ولده ـ عليًّا يصلّي خفية وراء الرسول ، وكانت هذه أول مرة يعلم أن ابنه الصغير السن ، قد اتبع محمداً .
وما اضطرب الطفل حين رأى أباه يبصره مُصلياً .
ولمّا أتمَّ صلاته ذهب للقاء والده ، وقال له في صراحة وثبات ليسا بطارئين عليه :
[يا أبت ..
لقد آمنت بالله ، وبرسوله ، وصدَّقْتُ ما جاء به ، واتَّبعتُه] ..
فأجابه أبو طالب :
[أما إنّه لا يدعوك إلا إلى الخير ، فالزَمْه] ..
ليس ذلك فحسب ..
بل إنه رأى النبي ﷺ يوماً يصلي ، وقد وقف "عليّ" إلى يمينه .
ولمح من بعيد ولده "جعفراً" فناداه ، حتى إذا اقترب منه قال له :
[صِلْ جناحَ ابن عمِّك ..
وَصِلْ عن يساره] !!!
سَعَةُ أفق ، وذكاء قلب يحملان صاحبهما على إفساح الطريق للحقيقة الجديدة حتى تأخذ فرصتها وتُثْبِت صدقها وأحقيّتها .
ولو أن إنساناً آخر غير "محمد" عليه السلام هو الذي جاء بهذه الدعوة ، ما تخلَّف أبو طالب عن نُصْرَتِه .
فهو ـ كما نراه في أخباره وسيرته ـ من أولئك الأذكياء المنصفين الذين لا يتورطون

في حماقة تجميد الزمن والحَجْر على المستقبل ..

وهو - كما رأينا في وصيته عند موته - من المؤمنين بقوة الفضيلة والخير ولقد عاش حياته يناصر كل دعوة وكل داعية في هذا السبيل .

* * *

وأبو طالب بعد هذا ، أعلم الناس برسول الله ﷺ ...

فهو عمّهُ ، وكافلهُ ، ومُربيه ..

إنه يعرفه إنساناً كاملاً ..

صادقاً ، لم يُعهد عليه كذب قطّ ...

أميناً ، لم تشب أمانته شائبة ..

طاهراً ، لم تَعْلَق به شُبهة ..

ولطالما رآه يتفجّر شوقاً إلى رؤية الحقيقة ..

ولطالما رآه يضطرم همّاً وأسى على أهله وقومه الذين ألغوا عقولهم ووجودهم أمام حجارة مركومة زعموها آلهة وأرباباً .. !!

فهل يتخلى عنه .. ؟ هو الذي لم يكن سيتخلى عن أيّ غريب آخر جاء يحمل رايته ويعلن دعوته ؟!

لقد كان "أبو طالب" عظيماً بشخصيته ، وبمواهبه ، وبسجاياه ..

ولقد وقف إلى جانب الرسول ﷺ ، والإسلام الناشئ الموقف الذي تمليه عليه رُجولته وعظمة نفسه .

* * *

لقد صمد لقريش ، وأحبط كل مكائدها ، حتى لم تجد آخر الأمر بدًّا من أن تلجأ إلى عمل تأباه تقاليد العرب وأخلاقهم .

وذلك حين يئست من ثَنْي الرسول عن دعوته ، ومن ثني أبي طالب عن مناصرته ، فقرر زعماؤها مقاطعة بني هاشم وبني المطّلب .

وفعلاً ، انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، وأقاموا معه في شِعْبِهم .. ولبثوا داخل هذا الحصار الرهيب قرابة أعوام ثلاثة ، حتى أكلوا ورق الشجر اليابس لِيَدْرَءُوا به غوائل الجوع .

وأبو طالب كالطَّوْدِ شموخاً ورُسوخاً ، يرفض كل مساومة تحاولها قريش ، ويُسلِّط عليهم موهبته الشعرية فيَنْفَحُهم بالقصيد تِلْوَ القصيد ..

أفيقوا أفيقوا قبل أن يُحفرَ الثّرى ... ويصبح مَن لم يجْنِ ذنباً كذي الذنبِ
ولا تتبعوا أمر الوُشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودّة والقربِ
فلسنا وربِّ البيت نُسلم أحمدا ... لضراءِ مِن عَضّ الزمان ولا كربِ
ولمّا تَبِنْ منا ومنكم سَوالف ... وَأيدٍ أُتِرّت بالقاسِيّة الشُّهبِ

إن أبا طالب إذا آمن بشيء ، كان إيمانه قويًا صُلباً ..

نفس الصلابة والقوة اللتين ورثهما عنه ولده "عليّ" ، بل بنوه أجمعون ...

ولقد آمن "أبو طالب" بحقّ الرسول ﷺ في أن يقول كلمته ، ويبلّغ دعوته ، فإن كانت حقًا ، فمن حقّ الحق أن ينتصر ويسود .

وإن كانت باطلاً ، فإن الباطل سيذهب جُفاء ...

من أجل هذا قاوم قريشاً عندما رآها تفرض الصمت على الرسول ﷺ ...

أجل . إنه لا يقف مع "محمد" ابن أخيه ...

وإنما يقف مع "محمد" الداعي إلى الحقّ ، وإلى الخير ..

"محمد" الصادق والأمين ...

ولو شك "أبو طالب" في صدق ابن أخيه ما ناصره ولا ظاهره .

فهو إنما يُناصر فيه الحقّ ، لا القرابة .. !!

وليس أدل على ذلك من موقفه يوم أنبأه الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الله قد سلّط الأرَضة على الصحيفة التي كانت قريش قد سطرت فيها عهدها بمقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، وعلّقتها في جوف الكعبة .

أنبأه الرسول أن الله قد سلّط عليها الأرضةَ فأكلتها ، ولم تُبْقِ منها إلا اسم الله .

هنالك ذهب أبو طالب إلى قريش في ناديهم وقال لهم :

[يا معشر قريش ..

إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا ، فهلمّ صحيفتكم ، فإن تكُ كما قال محمد فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عمّا فيها .. وإن يكُ كاذباً .. دفعته إليكم] ...

ورضي زعماء قريش بهذا ..

وقاموا على الكعبة ، وجاءُوا بالصحيفة من مكانها ، فإذا الأمر كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وسُقط في أيديهم ، وخرج الناس من عهد المقاطعة ، وباءت المؤامرة بالهزيمة والفشل ..

إن أبا طالب هنا يحتكم إلى حقّ الصدق في أن يُحمَى .. لا إلى حقّ القرابة في أن تُشايَع .. !!

فهو يقول لقريش :

ـ إذا تبيَّن صِدْق محمد ﷺ في هذه الواقعة التي يمكن التثبت منها في يُسر ، فله عليكم الحُجة ..

وإذا تبيَّن كذبه ، فأنا لا أحمي الكاذبين ..

وحاشا رسولَ الله ﷺ ألا يكون صادقاً .. !!

ومن قبل هذا ، عندما ذهب وفد قريش إلى أبي طالب قائلين له :

إن لك فينا سِنًا ، وشرفاً ، ومنزلة ..

وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهَهُ عنا ..
وإنّا لا نصبر على هذا ، من شَتْم آبائنا ، وعيب آلهتنا ، وتسفيه أحلامنا ..
[فإما أن تكفّه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك منا أحد الفريقين] ..
حين قالوا له ذلك ، وحين جاءه ردُّ الرسول :
[لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، ما تركتُ هذا الأمرَ حتى يقضيَه الله ، أو أهلك دونه] .
ازداد الطود شموخاً ، والعزم مَضاء ، وراح البطل أبو طالب يلفح قريشاً بصلابته وإصراره ويقول :

ولقد علمتُ بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
والله ، لن يصلوا إليك بجَمْعهم ... حتى أوسَّدَ في التراب دفينا

مرَّة أخرى : هذا هو الرجل الذي من صُلبه جاء "عليٌ" ...

* * *

كان يجلس ذات يوم في سقيفة له ، عندما أقبل عليه الرسول ﷺ حزيناً آسفاً ...
وتحرَّاه الأمر .. فعلم أن قريشاً أغرَت به سفيهاً من سفهائها فألقى عليه روثاً ودماً وهو ساجد في الكعبة يناجي ربه ، وخالِقَه .. !!
فنهض من فوره ، حاملاً سيفه بيمينه ، متأبطاً ذراع النبي بيساره حتى إذا وقف على المتآمرين ، ورآهم يتململون حين بصروا به مقبلاً ، وصاح فيهم :
[والذي يُؤمن به محمد ، لئن قام منكم أحد ، لأُعَاجِلَنَّهُ بسيفي] .
وراح يمسح الروث والدم بيده عن رسول الله ﷺ ثم يقذف به على وجوهم جميعاً .. وجوه أشراف قريش الذين تحولوا أمام البطل إلى جُرذان .. !!
ولقد أدركت قريش آخر الأمر ، أنها لن تنال من الرسول منالاً وأبو طالب إلى جواره ، يذود عنه ويحميه .

* * *

لقد أحب أبو طالب في ابن أخيه كل الفضائل التي كان يعشقها ويقدسها ، والتي رأى الرسول يرفع لواءها في ولاء منقطع النظير ...
ولقد عبّر عن حُبه ذاك بإرادته الصُلبة في تلك المواقف التي رأينا طرفاً منها .. كما عَبَّر عنها بموهبته الفنية في شعره البليغ :

لقد علموا أنَّ ابننا لا مُكذَّبٌ ... لَدينا ، ولا يُعنى بقول الأباطل
حليمٌ ، رشيد ، عادل غير طائش ... يُوالي إلهاً ، ليس عنه بغافل
وأبيضُ ، يُستَسقى الغمام بوجهه ... ثِمال اليتامى ، عصمةٌ للأرامل

* * *

ومات أبو طالب ..
مات ، وملء فؤاده ميلٌ عارم إلى الدين الجديد ، وحنانٌ مُفيض ، على رسوله المجيد .
واشتد أذى قريش للرسول ﷺ ...
وذات يوم وقد اشتدت عليه وطأة المشركين وأذاهم ، وجّه لعمّه تحية يستحقها حين قال :
[ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه ، حتى مات أبو طالب] !!
ثم هز رأسه العظيم في أسى وقال :
[يا عمّ ..
ما أسرَعَ ما وجدتُ فقدَك] !! .

* * *

هل كان "عليٌّ" ابن هذا البطل فحسب .. ؟
لا .. بل كان حفيد بطل آخر ، عظيم أيْ عظيم !!
ذلكم هو : عبد المطلب ...
وبوقفة سريعة نقفها مع فضائل عبد المطلب ، وسجاياه العظيمة ، يتبين لنا أن "عليا" لم يرث عن أبيه فضائل طارئة .. بل ورث فضائل أصيلة وعريقة ، سارت مَسير النور عبر أصلاب نقيَّة شامخة ...
فمن يكون ذلك السيد الماجد ـ عبد المطلب .. ؟
إنه الرجل الذي بلغ في قريش وفي العرب جميعاً منزلة لم يكد يبلغها أحد .
وعندما يزدحم الحجيج حول زمزم في مواسم الحج كل عام ، فإن عليهم أن يذكروا بالخير والإجلال ، الرجل الذي حفرها وتفجّرت على يديه البرّتين مياهها .
ومن عساهُ يكون غير عبد المطّلب .. ؟
لقد استقبلت روحه الصافية ذات ليلة وهو نائم هاتفاً هتف به في رؤيا حقّ ، يقول له :
ـ احفر طَيْبَة .
واستيقظ من نومه ، لا يدري ما تعبير رؤياه .
بيد أن الهاتف زاره في الليلة التالية ، وقال له :
ـ احفر بَرَّة .
واستيقظ كذلك دون أن يدري ماذا يُراد منه ، وماذا يراد له .
وفي الليلة الثالثة نودِيَ مرة أخرى في منامه :
ـ احفر زَمْزَم ..
ـ قال : وما زمزم .. ؟؟
أجابه الهاتف :
ـ لا تنزفُ أبداً ، ولا تُذَمُّ .
تسقي الحجيج الأعظم !!

ودَلَّ على مكانها ...

ولم يكد يطلع النهار حتى اصطحب ابنه "الحارث" وذهبا حيث راحا يغوصان في الأرض بمعاولهما ، فتفجرت مياه النبع المبارك الخالد الذي كانت الأقدار الرحيمة قد منحته إسماعيل وأمه وسط الصحراء اللاهبة في الدهر البعيد ، ثم طمرته الصخور والرمال ! .

إن عبد المطلب ، أو "شيبة" كما كان اسمه الحقيقي ، لرجل فذّ ، من طراز باهر ، بقدر ما هو نادر ...

وهل يكون الجدُّ الأول لرسول الله ﷺ .. ثم الجدُّ الأول لعليّ بن أبي طالب إلا رجلاً تصنعه الأقدار على عينها .. ؟

لقد كان ذِكرهُ يملأ صحراء العرب من شمالها إلى جنوبها شذًى وعبيراً ..

ومن كثرة محامده دعاه الناس .. "شيبة الحمد" ..

وكانوا يصفونه بأنه : "الرجل الذي يطعم الناس في السهل ، والوحوش في الجبال" !! .

وكان غزير الحكمة ، عميق الإيمان ..

عندما غزا "أبرهة" مكة ليهدم الكعبة . وجاء في جيش لَجِبٍ لا طاقة لقريش بمقاومته ، فزعت قريش إلى شيخها وزعيمها ـ عبد المطلب ـ تسأله الرأي ..

فأمرهم عبد المطلب ـ وقد أدرك عجز قومه عن مجابهة الجيش الزاحف ـ أن يحملوا نساءهم وأطفالهم ، ومتاعهم ، ويغادروا مكة إلى شِعاف الجبال ، تاركين البلد الحرام "مدينة مفتوحة" يتولى رب البيت حراستها ...

أما إذا حاول الجيش المقتحم أن يتسوَّر الجبال وراءهم ليعتدي على أعراضهم ، فليسقطوا جميعاً صرعى قبل أن تمسَّ أعراضهم بسوء ..

ونفس الموقف وقفه من أبرهة عندما طلب أن يتحدث إلى زعيم قريش ، فذهب إليه "عبد المطلب" .

وهنا ألقى على مسامعه كلمته المأثورة :

[أمَّا الإبل ، فهي لي .. وأما البيت ، فله ربٌّ يحميه] .

* * *

لم يأخذ "شيبة الحمد" هذا الموقف إلا بدافع إيمانه الوثيق القوي بالله وبقدرته .

من أجل ذلك ، لا يكاد يرجع من لقائه لـ "أبرَهة" حتى يتجه من فوره إلى البيت الحرام .

وهناك يأخذ بحلقتَيْ باب الكعبة ، ويمضي يناجي الله في إيمان الواثق بنصره ...

[لا هُمَّ إن المرء يمنع رَحله ، فامنعْ رِحالك] .

ولكن ، ماذا لو تركت الأقدار "أبرهة" يهدم البيت ، وأين يذهب عندئذٍ إيمان عبد المطلب بالله .. ؟

هنا يبزغ عمق إيمانه ، وأصالة حكمته ، وهو يستكمل مناجاة الله قائلاً :

[إن كنتَ تاركهم وكعبتنا ، فأمر ما بدا لك] !؟

أجل .. فحتى إذا وقع ما يخشاه عبد المطلب ، وما يُحاذره من أبرهة وجيشه ،

وهدمهم بيت الله الحرام ...

حتى إن حدث ذلك ، فإن إيمان "عبد المطلب" بالله لن يَزِلَّ ولن يخبو ..

وسيحدث ما يحدث إنفاذاً لحكمة يعلمها الله ... !!

هذا إيمان رجل إلهي ، تموج الأرض من حوله بالوثنية - لا في جزيرة العرب وحدها .. بل في بلاد الحضارة نفسها - في "فارس" و "الروم" - في حين يسيطر على وجدانه شعورٌ خفيٌّ بأن هناك إلهاً أسمى ، وأجلّ ، وأعظم ...

إن إيمان "عبد المطلب" يبدو نقيًا ، تَقِيًا في مناجاته تلك التي مرّت بنا الآن .

لقد كان يقبع حول الكعبة أكثر من ثلاثمائة صنم ، لم يدعها "عبد المطلب" لتحمي الكعبة ...

لم يُنادِ "هُبلٍ" ولا "اللاّت" ولا "العزّى" !

ولم ينادِ شيئاً من تلك الأوثان والأصنام التي لا يفصلها عن الكعبة بُعْدٌ أو مسافة ...

إنما نادى الله ... وضرع إلى الله العليّ الأعلى ، الذي كان شعوره الكامن في أعماقه يدل عليه .. ويشير به إليه .. فقال مناجياً له وضارعاً :

[لا هُمّ ، إن المرء يمنع رَحْله ، فامنع رِحالك] !! .

* * *

ولقد وجد إيمان عبد المطلب مثوبته العاجلة ، في الضربة الماحقة التي وجّهها القدر العظيم لأبرهة وجيشه .. إذ سُلّطَ عليهم الله أضعف جنده .. طيراً أبابيل ، حملت إليهم المنايا ، وخلّفتهم صرعى وأحاديث !

كان عبد المطلب يُمْنَ قومه وبركتهم .

وكأيٍّ من مرة حجبت السماء عنهم غيثها ، وكاد القحط يقتلهم ، فيذهبون إلى شيخهم "عبد المطلب" الذي يخرج بهم صفوفاً ضارعة خاشعة إلى قنن الجبال ، حيث يضرع إلى الله كي ينزل المطر ، مبتهلاً بهذه الكلمات :

[اللهم هؤلاء عبيدك وأبناءُ عبيدك ، وقد نزل بنا ما ترى ، فَأَذْهِبْ عنا الجدب ، وآتنا بالمطر والخصب] .. !!

فلا يلبثون إلا قليلاً .. ثم تجيء الأمطار الكريمة رحيمة ، تُنبت ، وتُحيي ، وتُنعش ..

* * *

الحقَ أنه إيمان عجيب .. إيمان هذا الرجل الفريد في عصر كانت الوثنية دينه وصلاته .. !!

إن عبد المطلب ، ليَرَى الله في كل نعمة يُؤتاها ، وفي كل خطوة يخطوها ..

عندما بُشر بمولد حفيده "محمد بن عبد الله" - صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - حمل الوليد فوق ذراعيه وصدره ، وذهب به مُسرعاً إلى الكعبة حيث صلّى صلاة شكر وحمد .. وراح يقول :

الحمـد للـه الـذي أعطـاني ... هـذا الغـلامَ الطيّـب الأردان
قـد سـاد فـي المهـد علـى الغلمـان ... أُعيـذه باللـه ذي الأركـان

حتى أراه بالغ البُنيان

ولقد دلته شفافية رُوحه على ما سيكون لهذا الوليد من شأن عظيم .. فأحبَّه حبًّا ما أحبَّ مثله أحداً .. وراح يعامله في طفولته معاملة صديق !!

وفي كل مناسبة ، كان يأخذ يد ابنه "أبي طالب" ويضعها في يد حفيده "محمد" عليه الصلاة والسلام ، ويقول لأبي طالب في إحساسِ مَن يكاد يرى الغيب المقبل رَأْي العين :

[يا أبا طالب ..

سيكون لابني هذا شأن فاحفظه ، ولا تدَعْ مكروهاً يصل إليه] !!

ولقد حفظ أبو طالب العهد ، ورعى ابنَ أخيه ، ووصية أبيه ، رعاية تليق برجولته ، وبأرومته ، وبعظمة سجاياه ...

* * *

وحينما خلت الديار من الجدّ ، ومن الأب ، كان "عليٌّ" الابن والحفيد .. ابن أبي طالب ، وحفيد عبد المطلب يحمل منهما ميراث السجايا الفاضلة ، والعظمة المفردة ...

كان يحمل منهما نبالة الخُلق .. ونبالة الدم معاً ..

فبنو هاشم في ميزان المجتمع ، سادَتُهُ ، وقادتهُ ، وأشرافه ..

وبنو هاشم في ميزان القِيَم ، أجود الناس كفًّا .. وأوفاهم ذمة .. وأنداهم عطاء .. وأكثرهم في سبيل الخير بلاءً .. وأحماهم للذِّمار .. وأحفظهم للجار .

وبكلمة واحدة : هم في قومهم وزمانهم ، ضمير أولئك القوم ، وذلك الزمان .. !!

* * *

ولعلنا الآن قادرون على أن نعرف ماذا أخذ الابن عن أبيه ، والحفيد عن جدّه ؟

ماذا تَلَقَّى "عليّ" من أبي طالب ، ومن عبد المطلب .. ؟

ماذا أخذ عنهما ، وماذا ورث ؟

لقد أخذ الفضائل كلها ، وورث المكرمات جميعها ..

ورث عنهما "مضاء البذل" و "مضاء العزم" و "مضاء العقيدة" !!

أجل .. هذه هي السِّمة المميِّزة لهذا الميراث الجليل .. المضاء الذي يجعل فضائل هؤلاء القوم مُهيأة دائماً للنجدة والعمل !!

كل قوى الخير فيهم مشحوذة ماضية ، لا تعرف الوهن ، ولا التردد ، ولا الاسترخاء .

وسوف نرى ذلك واضحاً أكثر ما يكون الوضوح في "عليّ" الابن والحفيد .. ولا سيما بعد أن تدخل هذه الفضائل الموروثة في مختبرات الدين القيِّم ، والإسلام الحنيف ، فتُخرج خَبْئها النفيس ، ويزداد أَلقُها الفريد .

وثمة أمر آخر ، سنراه واضحاً في حياة "عليّ" ، كما هو واضح في خصال جدّه عبد المطلب .. ذلكم هو التفويض الذي يكاد يكون مطلقاً ...

لقد رأينا عبد المطلب حينما نزل به وبقومه ما لا طاقة لهم به يُفوِّض الأمر إلى الله في

بساطة عجيبة ، بل قولوا في مثل براءة الأطفال !!

ذلك لأنه لم يكن تفويض العاجزين الواهنين ، بل تفويض مؤمن بأن الله هناك .. وراء كل حركة وكل عمل .. وأن ما تعجز قوى الخير من البشر عن إنجازه ، يتولى هو أمره وحسابه ... تفويضٌ حلو ، ورائع .. ورثه فتانا فيما وَرِث .

ولسوف نرى "عليًا" في مُقبل حياته وأيامه حين تنزل به الشدائد الثقال ، يفوّض الأمر إلى ربه في فنٍ عظيم .

وسنرى وراء هذا التفويض حين نلقاه إيمان الأبرار ، لا استسلام العجزة .

وسنراه وهو يفوض الأمر إلى عالم الغيب والشهادة لا تشغله نتائج الموقف وعواقبه .

ذلك أن ابن أبي طالب ، في حياته ، وفي صراعه ، لم يكن يعنيه إحراز أيّ انتصار لشخصه ، أو غلبة لذاته .. إنما كان يعنيه ، ويأسُر لُبّه ، ويستغرق وعيه وجُهده ـ فوز المبادئ التي آمن بها ، وحمل أمام الله مسئولياتها ...

وعلى رأس هذه المبادئ كلها الإيمان بالله ، وحسن الاعتماد عليه ...

* * *

لقد رأى ولاء أبيه لِما كان يراه حقاً ..

وورث ولاء جَدّه عبد المطلب ، ومن قبل جدّه "هاشم" لِما كانا يريانه حقاً ...

لقد جاء من أصلاب قوم عُرفوا بأنهم حُماة العقيدة وحماة الفضائل ، وسَدَنة الخير ..

على الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون حقيقـضة الإله الذي إليه يَلْجَئُون ، وعليه يتوكلون ، فإن ولاءهم لقوّته القاهرة وفضله الرحيم كان على الدوام مشحوذاً .. فكيف بولاء "عليّ" وقد عرف حقيقة الله واهتدى إليه .. ؟!

ولكن : كيف عرف .. وكيف اهتدى .. ؟! تعالَوْا لنرى ...

* * *

أتبصرون هذه الدار البسيطة ، والجليلة .

إن الفتى الذي نقفو أثره ، هناك ...

إنه مع ابن عمه .. محمد بن عبد الله رسول رب العالمين .

ذلك أن الرسول ﷺ كان قد استأذن عمّه أبا طالب منذ عهد بعيد ، وقبل موته ببضع سنين كي يترك له علياً ، يعيش معه في داره ودار خديجة زوجه ، فأذن له .

وإنه الآن في تلك الدار التي يرسم الوحي داخل جدرانها خارطة عالم جديد مقبل ، وبشرية جديدة وافدة .. !

يالَهُ مِنْ فَتىً مُبَارك ، محظوظ !!

إن وراثاته المجيدة تزدهر الآن بين يَدَيْ أستاذ قدير .. هو ابن عمه ، وواصِلُهُ بربه ، وهاديه إلى صراط مستقيم ...

فإلى هذه الدار المباركة ، لنصحبَ "علياً" في رحلة حياته المجيدة ..

إليها ، تعالَوْا نمضِ خاشعين ..

الرَّبيبُ والسّابِق

من كُنتُ مولاه .. فعليٌ مولاه
"الرسول ﷺ"

هانحن أولاء ، نقترب ..
هانحن أولاء ، على الأبواب .
ماذا .. ؟
ألا تسمعون .. ؟
إن رنيناً عذباً يجيء من داخل ..
إن قرآناً عجباً يُتلى ..
إن أهل الدار يُصلون .
تُرى مَن هناك ؟

لا أحد - طبعاً - سوى الرسول ﷺ يَؤُمُ وراءه في الصلاة ابن عمه "عليًا" وزوجه "خديجة" وخادمه "زيد بن حارثة" .

يا لجلال المشهد .

ويا لَرَوْعَة الآيات التي ينبعث من داخل الدار عبيرها الشهيُّ ، ورنينها القويَ .. فلنصغِ في خشوع وتقوى .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ • تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ • إِنَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ • وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ • وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ • تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ • وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ • يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ • ﴾

* * *

لقد سكن الصوت ..
لعلهم الآن يركعون ، ويسجدون .. !
لعلهم يسبّحون ، ويستغفرون !!
لعلهم يتدبّرون ، ويتأملون !!
فلنبقَ مكاننا مُواصلين خشوعنا وإصغاءنا ..

إن الرنين العذب يعود ..

وهاهو ذا يعلو في جماله وجلاله ، فاستمعوا يا صِحاب .

* * *

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ • إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ • هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ • أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ • وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ • أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ • وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ • وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ • قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ • ﴾ .

* * *

هنا يعيش "عليّ" ويحيا ..

أجل ، هنا مُذْ كان "محمد عليه السلام" عابداً يبحث عن الحقّ ، ويتعبّد في غار حراء ، ويُقلّب وجهه في السماء ، وكأنه على موعد يترقّبه ويتعجله .

وهو هنا يعيش بعد أن أُوحِيَ إلى الرسول ودعته السماء ليقول كلمتها ، ويبلّغ رسالتها ..

وعندما بدأت أيام الرسالة الأولى .. بل عندما بدأت أولى ساعاتها ولحظاتها ـ كان هناك ثلاثة يلحظون التغيرُ الهائل الذي أخذ يرسم سيماه على حياة الرسول ﷺ .

هم : خديجة ـ زوجته .

وعليٌ ـ ابن عمه .

وزيد ـ خادمه .

ولقد أسلموا بهذا الترتيب أيضاً .

سأله "عليّ" وهو ابن عشر سنين لا غير :

ـ ماذا أراك تصنع .. ؟

وأجابه الرسول ﷺ :

ـ إني أصلي لله ربِّ العالمين .

وسأل عليّ :

ـ ومن يكون ربُّ العالمين .. ؟

وعلّمه الرسول وهداه :

ـ إنه إلهٌ واحد .. لا شريك له .. له الخَلْق .. وبيده الأمر .. يُحيي ويُميت .. وهو على كل شيء قدير ...

ولم يتردد الغلام المبارك ، فأسلم .. وكان أول المسلمين .. في حين كانت خديجة رضي الله عنها أولى المسلمات .

ومن ذلك اليوم ، وهو مع النبي لا يفارقه ، يصلّي معه ، ويُصغي إليه ، ويراه وهو يتهيأ لِتلقّي الوحي ...

وكم من آية ، وآيات ، كان هو أول من يسمعها وهي لا تزال حديثة العهد بِمُنزِّلها ومُوحيها .

وأخذ الذين اصطفتهم السماء لصحبة الرسول ﷺ يُقبلون عليه مؤمنين :

أبو بكر الصديق .. فعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ..

فأبو عبيدة ، وأبو سلمة ، والأرقم ، وأبناء مظعون ، وخبَّاب ، وسعيد بن زيد ، وعمَّار ، وعمير ، وابن مسعود الذين كُتِبَ لهم حظ السبق إلى الإسلام .

وصارت "دار الأرقم" على الصَّفا مكانَ لِقائهم ، يلتقون فيه خُفية وسِراً ، فيتلو عليهم الرسول ما يتنزَّل به الوحي على قلبه ، ويصلّي بهم ، ويبارك إيمانهم .

* * *

لم يغِبْ "عليٌ" عن دار الأرقم قطّ ، ولم يَفُته من مشاهدها الخالدة مشهد واحد ...

وتحت سقفها ... وكذلك تحت سقف الدار التي يسكنها النبي ، ويقيم عليٌ معه فيها .. طالما سمع آيات الله تُتلى . وطالما غمرته أنوار النبوّة تغسل حَوْبه وذنبه .. ماذا ... ؟!

أأقول تغسل حَوْبه وذنبه ... ؟!

ولكن متى كان له حوب أو ذنب ..؟

متى ، وهو الذي وُلد في الإيمان ، والعبادة ، والهدى ... ؟

إنه وهو في السادسة من عمره بدأ يعيش مع "محمد" الصادق الأمين ، يتأدب على يديه ، ويتأثر بطهره ، وعظمة نفسه ، وتُقَى ضميره وسلوكه .. وحين بلغ العاشرة ، كان الوحي قد أمر الرسول ﷺ بالدعوة . وكان هو سابق المسلمين !!

وسارت حياته من ذلك اليوم إلى أن يجيء اليوم الذي سيلقى فيه ربه .. تطبيقاً كاملاً وأميناً لمنهج الرسول وتعاليم القرآن .

ألا بوركت هذه الحياة !!

حياة لم تكن لها قطّ ، صَبْوَة ، ولا شهوة ، ولا هفوة !!

حياة ، وُلد صاحبها ، وتبعاتُ الرجال فوق كاهله !!

حتى لَهْوُ الأطفال ، لم يكن لحياة ابن أبي طالب فيه حظ ولا نصيب ..

فلا مزامير البادية ، ولا أغاني السُّمار ، شبع منها سَمْع الطفل ، ووُجْدان الشاب ..

لكأن المقادير كانت تدّخر سمعه ووجدانه ، لكلمات أخرى ستغيّر وجه الأرض ، ووجه الحياة !!

أجلْ .. لقد ادُّخِرَ سمع الفتى وقلبه ، ليتلقى بهما كما لم يتلقَّ أحدٌ مِثْله آياتِ الله العلي الكبير .

أرأيتم الآيات التي سمعناها من قبل .. ؟

فلنتصوَّر "عليًّا" وهو يسمعها طازجة ، مشرقة ، متألقة ، حديثة العهد بربها ، يُرَتِّلُهَا رسول رب العالمين .. !!

ولكن : لا .. فلن نستطيع أن نتصور ، أو حتى نتخيَّل !

وحسْبنا ونحن نطالع هذه الحياة أن نقدر على مُتابعة الكلمات التي تروي أنباءها وعجائبها .. !

* * *

في نور هذه الآيات المنزَّلة ، والتي كان الوحي يجيء بها تِباعاً ، قضى "عليّ بن أبي طالب" بواكير حياته النضرة ، يبهره نورها .. ويهزُّه هديرها .

يسمع آية الجنَّة يتلوها الرسول ﷺ ، فكأنما الغلام الرشيد يراها رَأْيَ العين ، حتى ليكاد يبسط يمينه ليقطف من مباهجها وأعنابها !

ويسمع آية النار ، فيرتعد كالعصفور دهمه إعصار .. ولولا جلال الصلاة وحرمتها لولّى هارباً من لفح النار الذي يكاد يُحسُّه ويراه !!

أما إذا سمع آية تصفُ الله في عظمته ، وجلاله ، أو آية تعاتب الناس على إشراكهم بالله ما ليس لهم به علم ، وجحودهم فضلَه ونعمتَه .. فعندئذٍ يتحوَّل الغلام الراشد إلى ذَوْبِ تُقى وحياء !

لقد أُشْرِبَ قلبُه جمال القرآن ، وجلاله ، وأسراره ... هذا الذي كان يشهد نزوله آية ، آية حتى صار جديراً بأن يقول وهو صادق :

[سَلُوني ، وسَلُوني ، وسَلُوني عن كتاب الله ما شئتم ...

فو الله ما من آية من آياته إلا وأنا أعلم أنزلَتْ في ليل ، أم في نهار] !

وحتى كان كما وصفه "الحسن البصري" رضي الله عنه :

[أعطى القرآن عزائِمه ، وعِلْمه ، وعمَلَه .. فكان منه في رياض مونقة ، وأعلام بيِّنة] !!

* * *

هذا ، هو : عليّ بن أبي طالب .

هذا ، هو الذي نرجو ألاَّ يكون مغالين إذا وَصفْناه بأنه : "رَبيب الوحي" !!

فطوال السنوات الأولى لنزول الوحي ، كان فتانا هناك ، يشهد نُزوله ، ويسبق غيرَه في تَلقِّيه من رسول رب العالمين ، ويُلْقِي سمعه ، وقلبه لأسراره وأنواره .

ولَطَالَما شهدته شعابُ مكة وهو "ثاني اثنين" ـ الرسول عليه السلام ، وعليٌّ كرَّمَ الله وجهه ـ يُصليان معاً ، بعيداً عن أعين القُرشيين وأذاهم ..

وهناك في رحاب الصحراء الواسعة ، حيث لا يرتدُّ البصر أمام حدود أو سدود ، وحيث تتنزَّل على النفس أسرار الكون العظيم ، عاكسةً على الشعور جلاله ومَجْده ، كان "عليٌّ" يتلقى من فم الرسول ﷺ كلمات القرآن وآياته ـ نفسُه مُرْهَفَةٌ ، وعزمه متهلّل .. قلبه جميعٌ ، ورُوحُه حُرٌّ .. وشخصيته بكل خصائصها الموروثة والمكتسبة ، تتلقى تأثيراً لا يقاوم .. وتستسلم في غبطة مُطْلقة لهذه الآيات التي آمن بها وَحْياً ، وديناً . وآمَنَ بقارئها وَتَالِيهَا نبيًا ورسولاً .. !!

من أجل هذا ، لا نعجب ، إذا رأينا "عليًا" طوال حياته يعطي القرآن ولاءً مطلقاً .. ولا يقبل أدنى مَيْل عنه ، ولا يغفر أقلَّ تفريط فيه .

إنه "ربيب الوحي" والتلميذ الأول للقرآن ..

وإنه "سابق المسلمين" ..

ألم يسمع القرآن يتساءلُ في هَدير ورَهبة :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ..

بأيِّ حديث .. ؟!

إن الفتى الأوَّاب ليرتجف من هول التساؤل ، وجلالِ الخطاب ، ويجيب في صيحة مكظومة :

ـ لا بحديث غير حديثك نؤمن ، يا ربُّ كل شيء !! .

ومن هذه الآية ، ومثلها معها من آيات القرآن العظيم ، أُشرب قلبُ "عليٍّ" ولاءً للقرآن ليس له نظير .. !

ألم يسمع القرآن يحدد للرسول طريقه المستقيم فيقول:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ..

إنه ـ أيضاً ـ من هذه الآية ، ومثلها من آيات القرآن وتعاليم السماء ، ليستمدُّ عزماً خارقاً على أن يسير فوق صراط الحقِّ بخطًى ثابتة راسخة أكيدة ، مُتخطّياً أهواء الذين لا يعلمون في استقامَةِ قدِّيس ، وشُموخ مقتدر ... ! لك الله ، أبا الحسَن !!

أكنتَ تدري ، أيَّ معارك ضارية ستخوضها غداً ضد أهواء الذين لا يعلمون ؟

* * *

من ولائه الوثيق للقرآن ، وشهودِه فجْرَ الوحي وضُحاه ـ كان "عليٌّ" ربيب الوحي .

ومن ولائه الوثيق للإسلام ، وسبقِه إليه قبل غيره من رجال المسلمين ـ كان "عليٌّ" سابق المسلمين ..

و "سابق المسلمين" ـ لقبٌ لا يستحقه "عليٌّ" لمجرَّد سبقه إلى الإسلام .

فعليٌّ ، هو الذي علَّم الناس فيما بعد ، أنه : ليس الطريق لمن سَبَق .. بل لِمن صَدَقَ ..

إنما يستحقه لأنه حاز كلتا الحسْنيين : السَّبق .. والصِّدْق ..

وحين نتتبَّع مظاهر إسلامه نرى عجباً ..

وحين نستقبل شمائل إيمانه ، نستقبل رَوْضات يانعات نتأنق فيهن ، ويُثْمِلُنا عبيرها ، وطُهرها ، وتقاها !

* * *

والآن ، ما بالُكُم برجل اختاره الرسول ﷺ من بين أصحابه جميعاً : ليكون في يوم المؤاخاة أخاه .. ؟

كيف كانت أبعاد إيمانه وأعماقه ، حتى آثره الرسول بهذه المكرمة والمزيَّة .. ؟

عندما تمَّت هجرة النبي والمسلمين إلى المدينة ، آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار .. وجعل لكلّ أنصاريّ أخاً من المهاجرين .. حتى إذا فرغ ـ عليه السلام ـ من دَمْجهم في هذا الإخاء العظيم رنا بصرُه تلقاء شاب عالي الجبهة ، رَيان النفس ، مشرق الضمير .. وأشار الرسول إليه ، فأقبل عليه ..

وبين الأبصار المشدودة إلى هذا المشهد الجليل ، أجلَسَ النبي "عليًا" إلى جواره ، وربت على كتفه ، وضمَّه إليه ، وهو يقول :

[.. وهذا أخي] !!

لقد كان الصدِّيق "أبو بكر" ، وكان الفاروق "عمر" آنئذٍ هناك .. فهل من حقّنا أن نتساءل : لماذا لم يختص الرسول أحدهما بهذا الذي اختصَّ به عليًا .. ؟

إن تساؤلاً كهذا ، يفسد جلال المشهد ، ويُفَوِّتُ علينا رُواءه ..

والمسلم الذي ينشد الأدب مع رسول الله ﷺ ، وأصحابه ـ يحني هامته إجلالاً لهذا الرعيل الأوَّل والأسبق من أصحابه على حد سواء .

* * *

اختار "الرسول" إذن "عليًا" ليكون في هذه المؤاخاة أخاه ..

وكل شرف كان الإسلام يُضفيه على "ابن أبي طالب" ـ كان يزيد إحساسه بمسئولياته الدينية شحذاً ، وقوة ..

ولم يكن في طول الدنيا وعرضها ما يراه ابن أبي طالب كُفؤاً لأن يكون مثوبةً على إسلامه وأجراً .

إن "الإمام" كرم الله وجهه كان يعرف تماماً قيمة الذي هداه ربه إليه .. وكان من الذين يؤمنون بأن الخير مثوبةُ نفسه . فالذي يُوَفق للخير وللحقّ يكون جاهلاً بقيمة الحقّ والخير ، إذا هو طلب من الدنيا مثوبةً وأجراً نظير فعلِهِ الخير وحَمْلِهِ راية الحقِّ .

وهكذا حمل "عليّ" إسلامه بين جنبيه ، وتحت ضلوعه ، وفي أعماق روحه ، ومضى يستصغر شأن الدنيا بكل فنونها وزينتها ..

وكلما تراءت له مباهجها صدَّها بعبارته المأثورة :

[يا دنيا ، إليكِ عَنّي .. يا دنيا ، غُرِّي غيري] .

* * *

و "عليٌ" في إسلامه ، نموذج عظيم مكتمل الشكل والجوهر .

فإذا كان الإسلام عبادة ونُسكاً .. جهاداً وبذلاً .. ترفعاً وزهداً .. فطنة وورعاً .. سيادة وتواضعاً .. قوة ورحمة .. عدالة وفضلاً .. استقامة وعلماً .. بساطة وتمكناً .. ولاء وفهماً ..

إذا كان الإسلام ذلك كله ، فإن "سابق المسلمين عليًا كرم الله وجهه" كان أحد النماذج الباهرة والنادرة لهذا الإسلام .. !!

ومَنْ شاء أن يتعرَّف إلى حياة الإمام وسلوكه ، فليقرأ كلماته .. ذلك أنه لم يكن بين مقاله وفعاله ، تفاوت أو تناقض .

أجل .. لم يكن بين ما يقول وما يفعل بُعْدٌ ولا مسافة ، ولا فراغ .. !

فإذا حثَّ الناس على الزهد ، فلأنه أسبقهم إليه ..

وإذا حثَّهم على البذل ، فلأنه أقدرهم عليه ..

وإذا حثَّهم على الطاعة ـ أيِّ طاعة ـ فلأنه يُمارسها في أعلى مستوياتها ..

صلَّى الفجر يوماً بأصحابه في الكوفة ، وهو أمير للمؤمنين ، فلمَّا فرغ من صلاته جلس ساهماً حزيناً .. ولبث في مكانه ومجلسه ، والناس من حوله يحترمون صَمته فلا يتحركون حتى طلعت الشمس ، واستقر شعاعها العريض على حائط المسجد من داخل ، فنهض "الإمام عليّ" وصلَّى ركعتين .. ثم هز رأسه في أسىً ، وقلب يده وقال :

[والله ، لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ ، فما أرى اليوم شيئاً يُشبههم .

لقد كانوا يصبحون وبين أعينهم آثار ليل باتوا فيه سُجَّداً لله ، يتلون كتابه ، ويتراوحون بين جباهم وأقدامهم .. وإذا ذكروا الله مادُوا كما يَميدُ الشجر في يوم الريح .. وهَمَلتْ أعينهم حتى تَبتلَّ ثيابهم] .

هذه صورة الماضي العظيم ..

صورة الأيام الجليلة الرائعة ـ أيام الوحي والرسالة ـ يعيش فيها "عليُّ العابد" دوماً وأبداً .. ولا يستطيع الزمن مهما توغل في البعد أيامه وأعوامه أن ينتزع "الإمام العابد" منها ، فهي مَنْسكُه ومِحرابُه .. !!

* * *

وإنه ليُحدِّث المسلمين عن الإسلام الذي آمن به ، وجعله كتاب حياته ، فيقول:

[تعلَّموا العلم ، تعرفوا به .. واعملوا ، تكونوا من أهله ..

ألاَ وإن الدنيا قد ارتحلت مُدْبِرة . وإن الآخرة قد أتت مُقبلة ..

ولكل واحدة منهما بنون .

فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا .

ألا وإن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الأرض بساطاً ، والتراب فراشاً ، والماء طيباً .

ألا وإن مَن اشتاق إلى الآخرة ، سلا عن الشهوات .

ومن أشفق من النار ، رجع عن المحرمات ..

ومن طَلب الجنة ، سارع إلى الطاعات ..

ومن زهد في الدنيا ، هانت عليه مصائبها ..

ألا ، وإن لله عباداً ـ شُرورُهُم مأمونة .. وقلوبهم محزونة ..

أنفسهم عفيفة .. وحوائجهم خفيفة ..

صبروا أياماً قليلة لِعُقْبَى راحة طويلة ..

إذا رأيتهم في الليل ، رأيتهم صافّين أقدامهم .. تجري دموعهم على خدودهم .. يجأرون إلى الله في فِكاك رقابِهم .

وأما نهارهم فَظماء ، حُلَمَاء ، بَرَرَةٌ أتقياء ، كأنهم القدَاح ..

ينظر إليهم الناظر فيقول : مَرْضَى .

وما بهم من مَرَض ، ولكنه الأمرُ العظيم . !!]

الأمر العظيم .. !!

ذلك هو شغله الشاغل .. ينام على هديره .. ويصحو على زئيره .. !!

دين الله الذي حمل أمانته ، وقرأ كتابه .. ويوم الله ، الذي سيقف فيه بين يديه غداً ، لينظر جزاءه وحسابه . !!

أوَ مِن أجل هذا ، لا ينام "عليّ" ولا يستريح .. ؟

أجل ...

من أجل هذا ، يقضي ليله ونهاره في عبادة تُضْنِي جسمه الأيْد الوثيق .

ومن أجل هذا ، يدعُ الدنيا وراءه ظِهريًّا ، فيأبى وهو خليفة للمسلمين ، أن ينزل قصر الإمارة بالكوفة ، ويؤثر عليه الأرض الخلاء ، والدار المهجورة .. !!

ويُلحّون عليه كي ينزل قصر الإمارة هذا ، فيجيبهم :

[لا ..

قصر الخَبال لا أنزله أبداً] !!

ومن أجل هذا ، يلبس الثوب الخشن ، فيسأله أصحابه أن يعطي نفسه ومنصبه بعض حقّهما ، فيقول :

[هذا الثوب .. يصرف عني الزَّهْو .

ويساعدني على الخشوع في صلاتي ..

وهو قدوة صالحة للناس ، كي لا يُسرفوا ويتبذّخوا] .. !!

ثم يتلو آية القرآن العظيم : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ !!

إنه لا يركَنُ إلى الدنيا لحظة من نهار .

إنها بالنسبة له ، قد أدْبَرَتْ وآذنتْ بوداع .. فلماذا إذن يعطيها ولاءه وبلاءه ؟

إن الآخرة عند الإمام .. هي الدار .. هي الأبد .. وما أهل الدنيا في مختلف العصور والدهور إلا سائرون فوق جسر .. كلما انتهى من عبوره قوم وجدوا أنفسهم أمام الأبدية ، حيث الجنة ، أو النار .. ألا فلنُصغِ لحديثه :

[إن المضمار اليوم ، وغداً السِّباق .

ألا وإنكم في أيام أمل ، من ورائه أجل .

فمن قَصَّر في أمله قبل حضور أجله فقد خاب عَمَلُه ..

إلا فاعملوا لله في الرَّغْبَة ، كما تعملون له في الرَّهْبَة ..

ألا وإني لم أرَ كالجنة نام طالبها !

ولم أرَ كالنار نام هاربُها !

ألا وإن مَن لم ينفعه الحقّ ، ضَرَّهُ الباطل ..

ومن لم يَستَقِمْ به الهُدى ، حادَ به الضلال .

ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منها البرُّ والفاجر ..

وإن الآخرة وعدٌ صادق ، يحكمُ فيها مَلكٌ قادر ..

وإن أخوفَ ما أخاف عليكم اتِّباع الهوى وطول الأمل ...

فإن اتِّباعَ الهوى ، يَصُدُّ عن الحقّ ..

وإن طولَ الأمل ، يُنْسي الآخرة] !!

* * *

فلتأتِ الأحداث والأهوال عاصفة ، تقتلع الجبال من حول الإمام ، فإنه لن يتبع الهوى أبداً .

[فإن اتباع الهوى يصدُّ عن الحقّ] !!

ولتبذلُ الدنيا له كل نفسها وزينتها ، وبهجتها ، وإغرائها ، فإنه لن يربطها به أمل ولا رجاء .

[فإن طول الأمل ، يُنسي الآخرة] !

وهو ـ رضي الله عنه ـ لا يريد أن يتوه عن الحقّ ، ولا يريد أن ينسى الآخرة .

فالحقّ حياته .. والآخرة داره ..

على أن زهد ابن أبي طالب في الدنيا ، وعزوفه عنها ليس زهد الهاربين من تبعات الوجود ومسئوليات الحياة .

إنما هو زهد يُشكِّله إسلامه ، الذي يجعل المسئولية العادلة ديناً ، ويجعل العمل الصالح الدائب عبادةً وقُربى .

هنا نَلْقَي "عليًا" يصحح المعايير والموازين ، إذْ لا يكاد يسمع رجلاً يذم الدنيا مَذمَّة العاجز المتواكل حتى يقول :

[الدنيا دارُ صِدْقٍ لمن صَدَقَها ، ودارُ نجاةٍ لمن فَهِمَ عنها ، ودار غِنيً وزادٍ لمن تزوَّد منها ..

مَهبط وُحي الله ..

ومسجد أنبيائه ..

ومَتْجَرُ أوليائه ..

رَبحوا فيها الرحمة ، واكْتَسبوا فيها الجنة] .

أجل .. هذه هي دنيا المسلم ، كما يفهمها ربيب الوحي ، وسابق المسلمين ..

دار عمل ، لا لهو .. يكدح فيها الإنسان لينشئ لنفسه مصيراً سعيداً يومَ يقوم الناس لربِّ العالمين .

وهي دار صدق ، لمن عاش فيها صادقاً مع مسئولياته وتبعاته ..

ودار نجاة ، لمن سار فيها على دَرب النجاة ..

* * *

وبهذا الفهم السديد للدنيا ربحهَا "عليّ" وربحَ بها مصيره وأخراه .

فهي بالنسبة له ، لم تكن دار لعب ولهو قطّ .

مُنذ طفولته الباكرة ، حمل الإسلام في قلبه ، وحمل معه كل أعباء الرجال .

ولقد قطع حياته وقضى أيامه على الأرض في كفاح موصول ، ونضال لم يعرف الراحة يوماً .. !!

وعاش كما وصفه الرسول عليه السلام :

[مُخشَوْشِنٌ في سبيل الله] ..

مَقَتَ الترف من كل نفسه ، ونأى عنه بكل قوَّته وعزمه .

ذلك أنه فهم الإسلام وعاشَه ، وتعلَّم منه أن الترف مَشْغَلَةُ الفارغين العاطلين .

والإنسان الذي يعيش مع مسئولياتٍ كبار كتلك التي يفرضها الإسلام الحقَ على أبنائه الحقيقيين وأهله ، إنما يكون حظه من الصدق والتوفيق مضاهياً حظه من البساطة والتخشن .

وهكذا كان الإمام .

وهكذا أراد للناس أن يكونوا ..

عندما قَدِم مكةَ من اليمن ، ورسول الله يومئذٍ يحج بها حِجّة الوداع ، تعجّل هو إلى لقاء النبي ﷺ ، تاركاً جنوده الذين عادوا معه علي مشارف مكة بعد أن أمَّرَ عليهم أحدهم ، وبدا لهذا الأمير المستخلف أن يلبس الجند حُللاً زاهية من تلك التي عادوا بها من اليمن ، حتي يدخلوا مكة وهم في زينتهم يسرُّ منظرهم الأعين . وأمرَهم ، فأخرجوا من أوعيتهم حُللاً جديدة ارتدوها ، واستأنفوا سيرهم إلى مكة .

وعاد "عليّ" بعد لقاء الرسول ﷺ ، ليصحب جنده القادمين .

وعلى أبواب مكة رآهم مقبلين في حُلَلِهم الزاهية .

وأسرع نحوهم ، وسأل أميرهم : ويْلكَ .. ما هذا ؟

قال : لقد كسوتُ الجند ليتجمّلوا إذا قدِموا على إخوانهم في مكة ..

وصاح به "عليّ" :

ـ ويلك .. انزع قبل أن تنتهي بهم إلى رسول الله ﷺ .

فخلعوا حُللهم جميعاً ، وكظموا في أنفسهم مرارة ما صنع بهم "عليّ" الوَرِع ، الزاهد ، الأوّاب ..

ولمّا دخلوا مكة ، ولقوا الرسول ﷺ ، شكا إليه بعضهم عليًّا ، وقصّوا عليه نبأه معهم.

فاستقبل الرسول القوم وقال :

[أيها الناس ..

لا تشكُوا عليًّا ..

فَوَالله ، إنه لأخْشَنُ في سبيل الله من أن يُشْكَى] !!

* * *

وهو بإسلامه وفي إسلامه لا يتغير ـ طفلاً ، وشابًّا ، وشيخاً .. جنديًّا ، وقائداً ، وخليفة للمسلمين ..

إن تقوى الله تأخذ عليه لُبّه .. وهو لا يعامل الناس بذكائه ، ولا بحسبه ونسبه ، بل بإخلاصه وتقواه ..

ثم هو لا يريد منهم ، بل لا يقبل منهم أن يعاملوه بغير الصدق والتقوى .

من أجل هذا سنراه حين يقع الصدام بينه وبين معاوية يؤثر الهزيمة مع الإخلاص والتقوى ، على انتصار يتحقّق بالمكر والمراوغة .

ويقول له ابن عمه "عبد الله بن عباس" ـ وهو الصالح الورع : خادِعْهُم ، فإن الحرب خُدعة ..

فيجيبه الإمام الطاهر :

[لا والله ..

لا أبيع ديني بدنياهم أبداً] !!
مُسلم عظيم .. يُفجِّر الدنيا من حَواليه ذِمَّة ، واستقامة ، وطهراً ..

* * *

وكذلك نراه وهو يخطب أصحابه في أول جمعة له بالكوفة ، وهو أمير المؤمنين ، لا يخطب خطبة خليفة ولا أمير ولا حاكم ..

لا يصدر قرارات ، ولا يرسم سياسة .. على كثرة ما كانت الظروف تتطلب من قرارات ، وسياسة .. بل لا يجعل خطابه الأول هذا استجابةً لحماس أصحابه ، وشدَّ زنادِ الحميَّة في أنفسهم استعداداً للمعركة التي سيخوضونها مع جيش الشام المقاتل ، المدرَّب ، الصعب المراس .

لا شيء من ذلك كله يُضمِّنه الخليفة والإمام خطابه .

إنما هي الدعوة الخالصة لتقوى الله وحسن عبادته وطاعته :

اسمعوا ..

[.. أُوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ، فإن تقوى الله خير ما تواصَى به عباده ، وأقرب الأعمال لرضوانه ، وأفضلُها في عواقب الأمور عنده ..

وبتقوى الله أُمِرْتم ، وللإحسان خُلقْتم ..

فاحذروا من الله ما حَذَّركُمْ من نفسه ، فإنه حذَّر بأساً شديداً ..

واخْشَوُا الله خشيةً ليست بتعذير .

واعملوا من غير رياء ولا سُمعة ، فإن مَنْ عمل لغير الله وكَّله الله إلى ما عمل ؛ ومَن عَمِل مخلصاً له تولاه الله ، وأعطاه فضل نِيَّته .. وَأَشْفِقُوا من عذاب الله ، فإنه لم يخلقكم عبثاً ولم يترك شيئاً من أمركم سُدًى .. قد سَمَّى آثاركم ، وعلم أسراركم ، وأحصى أعمالكم ، وكتب آجالكم ، فلا تغرُنَّكم الدنيا ، فإنها غرَّارةٌ لأهلها ، والمغرور من اغترَّ بها .

وإن الآخرة لهي دار القرار .]

أهذا خطاب رئيس دولة .. ؟

كلا .. إنما هو خطابُ ناسك .. !!

خطاب مسلم ومؤمن وجَّه وجهه وقلبه وحياته للذي فطَر السماوات والأرض ، لا يعنيه إلا أن يحيا في مرضاته تقيًّا ، وأن يحيا الذين من حوله أتقياء ، أنقياء .

* * *

كذلك نراه ونرى إسلامه الوثيق حين لم يعد له بدٌ من لقاء معاوية في معركة "صفِّين" ، يستقبل جيشه ليلة المعركة خطيباً ، فلا يَعِدُهم ولا يُمَنِّيهم ، ولا يرفع أمامهم مباهج الدنيا ونعيمها ثمناً للنصر إذا هم ظفروا به ..

إنما يحدثهم حديثاً يختلف عن كل الأحاديث التي تتطلبها أمثال هذه المناسبة . انظروا ..

[.. إلا إنكم مُلاقو القوم غداً .. فأطيلوا الليلة قيامكم وصلاتكم ، وأكثروا تلاوَة القرآن ، وسَلو الله الصبر والعفو والعافية] .

في أوقات السلم ، وفي أوقات الحرب ..

فوق ثبَج النصر ، وتحت وقع الهزيمة .. في سَرَّائِه ، وفي ضَرَّائه لا يستولي على تفكيره وعلى ضميره وعلى شعوره سوى تقوى الله سبحانه . !

حتى وهو يكتب إلى عمرو بن العاص الذي انحاز إلى صف معاوية ، وبات يشكِّلُ خطراً حقيقياً على جبهة الإمام ، لا نَلْقَي الإمام يُمَنِّي عَمراً بِدُنْيَا ، ولا يستميله إلى هوى ـ نفس السلاح الذي كان "معاوية" يكسب به الأنصار .. بل نبصره يصدع عَمراً بالحقّ في غير مساومة ، ولا مُجامَلة .

إنه يناشده تقوى الله لا غير .. هذه التقوى التي تجري من ابن أبي طالب مَجْرَى الدم ، فيقول له في كتاب إليه :

[مِن عبد الله "عليّ" أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص .. أما بعد ، فإن الدنيا مَشْغَلَةٌ عن غيرها .. وصاحبها مقبورٌ فيها ومنهومٌ عليها .. لم يُصِب منها شيئاً قطّ إلاّ فَتَحَتْ له حرصاً ، وإلا أدْخَلَتْ عليه مَئونَة تزيده رغبة فيها .. ولن يستغني صاحبها بما ناله عمّا لم يَبْلُغْه ، ومن وراء ذلك فِراقُ ما جَمع ، والسعيد من وُعِظ بغيره ، فلا تُحْبِطْ أجركَ أبا عبد الله ، ولا تجارِيَنَّ معاوية في باطله ، فإن معاوية غمط الناس ، وسَفِه الحق] !

* * *

إنه يرفض أن تحدد علاقات الناس به ، أو علاقاته بهم منفعة أو غرض .

حتى في أحرج ساعات حياته ، يُمْعن في الرفض وفي الاستغناء .

إنه يؤمن بأن "الحقّ مقدّس" وأنه أجَلُّ من كل ثمن .

ولا شيء على وجه الأرض يمثِّل الحقّ في يقينه مثلما يمثِّله الإسلام .

من أجل ذلك نَذر حياته لقضية الإسلام منذ عمره الباكر .

وعاش عمره المسلم يتنفّس النقاء ، والصدق ، والاستقامة .

ليس في حياته كلها وقفة واحدة مع المساومة ، أو المُداجاة ، أو الالتواء ..

ولعله لو شاء لكان داهيةً لا يشقّ له غبار .. فَحِدَّةُ ذكائه ، واتقاد بصيرته يعطيانه من الدهاء ما يريد .

لكنه تخلَّى عن كل مواهب الرجل "الداهية" وأحَلَّ مكانها كل مواهب الرجل "الوَرِع" .. !!

إن فهمه لحقيقة الإسلام ، وإن ولاءه الوثيق له .. قد حمَّلا حياته من الأعباء فوق ما تُطيق .

ولقد كان بعض جهاده وبلائه كفيلاً بأن يبوِّئه مكانه العالي بين الأخيار الصادقين .

ولكنّ الرجل الذي وصفه الرسول بأنه "مُخْشَوْشِنٌ في سبيل الله" قد أخذ نفسه بعزائم الأمور ، وناط قدرته وطاقته بالمستحيل ، ونذر للإسلام حياة استقلها ، فراح يُحمّلها أعباء مائة حياة .. !!

* * *

ومع أيامه المجيدة التي عاشها في دنيا الناس هذه حقق الإسلام فيه معجزة الصياغة .. تلك المعجزة المتمثلة في قدرة هذا الدين على صياغة العظمة الإنسانية في أحسن تقويم !!

إن ابن أبي طالب في كل مجالات حياته ، لواحد من أولئك الذين تجلّى فيهم إعجاز الإسلام ، فَلْنُوَاصِلْ سَيرنا معه ، لنرى كيف تكون العظمة الإنسانية .. وكيف يكون العظماء !

■ ■ ■

البَطلُ والرّجُل

[لأعطِينَّ الراية غداً ...] .
" الرسولﷺ "

ذات يوم ، والرسول بالمدينة ، نزل عليه الوحي بآية جديدة من القرآن ، وراح الرسول يتلوها على أصحابه ، وهم منصتون .

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

وأحدثت الآية في أفئدة الصحابة ردَّ فعل قويًّا ، وظن بعضهم أنها تنعي إليهم نَبِيَّهُمْ عليه الصلاة والسلام .

وصاح "عليّ بن أبي طالب" :

" والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله .. ولئن مات أو قُتِل ، لأُقَاتِلَنَّ على ما قاتل عليه حتى أموت " !!

وطوال عمر "عليٍّ" في حياة الرسول وبعد وفاته ، وهذه الآية لا تبارح ذاكرته ، وإنها لتلحُّ على وُجدانه إلحاحاً دائباً وعجيباً .. !!

فهو دائماً يذكرها فيتلوها ، ويُتْبِع تلاوته لها بكلماته التي سمعناها الآن :

"والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله .. ولئن مات أو قُتِل ، لأُقَاتِلَنَّ على ما قاتل عليه حتى أموت" .

* * *

ولكنْ لماذا اختار القتال سبيلاً للتعبير عن ولائه للدين ، وإصراره على متابعة طريق الرسول ؟ .

لماذا لم يقلْ : "ولئن مات أو قتل لأواصلنَّ السير على نهجه ، والاهتداء بسنَّتِه وهَدْيه" ؟

إن طبيعة "المقاتل" تحتلُّ كل ذرَّة في كيانه ، فإذا أعطى العهد على مواصلة السير تحت الراية التي يرفعها بيمينه ، فإنه يصوغ عهده من الكلمات التي تتسق مع طبيعته ، وتُعَبِّرُ عنها في أمانة وصدق .

وأيُّ كلمة تُعَبِّرُ عن طبيعة "المقاتل" سوى كلمة "سأقاتل" ؟

صحيح أن الآية نزلت في معركة دائرة ، وقتال مشبوب ـ في غزوة أحد أو بعدها ، والمشركون يومئذٍ يُرجفون بأن الرسول ﷺ قتل .. فنزلت الآية تسفّه أحلامهم ، وتشدُّ عزم المسلمين ، وتخبرهم بأنه حتى لو مات الرسول ﷺ أو استشهد ، فإن رايته لن تسقط ، ودينه لن يتقهقر ، وجنده لن يضعوا السلاح !!

فلئن كانت طبيعة المناسبة ، تجعل الرَّد على تساؤل الآية : سنقاتل .. فإن "طبيعة المقاتل" هي التي جعلت كلمة "سأقاتل" شعار حياة بأسرها ، وليست شعار مناسبة بذاتها .

وهكذا رأينا "الإمام" طوال حياته المديدة والمجيدة ، لا يفتأ يذكر الآية الكريمة فيتلوها ، ثم يُعقب عليها بنشيده ذاك :

".. ولئنْ مَاتَ أو قُتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت" !!!

* * *

قلنا : إن "علياً" يحمل بين جنبيه "طبيعة المقاتل" وسجاياه .

فهل هذه منقبة توضع في ميزان فضائله ، ومزاياه .. ؟

وبتعبير آخر : هل وجود طبيعة المقاتل في إنسان أمرٌ يشرّف ذلك الإنسان .. ؟؟

أما بالنسبة لابن أبي طالب ، فنَعم ..

إن كون طبيعة المقاتل في أعماقه ، لمِمَّا يزيده شرفاً ، ورفعة ، وكمالاً .

ذلك أن "طبيعة المقاتل" فيه قد بلغت من الاستقامة ، ومن العدالة ، ومن المروءة المدى الذي أفاءَهُ عليها القرآن ، والرسول ، والإسلام .

فهي ـ عند الإمام ـ لا تمثّل عدواناً .. ولا تشكّل بهتاناً .. ولا تنطلق وقوداً لأغراضِ دنيا ، وأطماع نفس ..

وهي بهذا ، ولهذا ، تجاوز نفسها إلى أعلى مستويات البطولة . كما أن "البطولة" عنده وظيفة تحمل أسمى تبعات الرجولة .

و"الرجولة" عنده ليست اندفاعاً عَرمرماً تزجيه طاقاته الجبارة ، إنما هي "التزام" يكاد يكون مُطلقاً لمنهج الرسول ﷺ الذي آمن به ، والدين الذي حمل رايته .

وهكذا نرى "البطل" و "الرجل" و "المسلم" يلتقون في شخصية "الإمام عليّ" أصدق لقاء .

أجَلْ .. لم ينفصم البطلِ عن الرجل ، عن المسلم ، في حياة "عليّ" قَطّ ..

فإن رأيناه يبارز خصماً مثلاً ، فليس البطل المتمكّن هو وحده الذي يبارز . بل إن رجولة الرجل ، وورع المسلم هما اللذان يرسمان للبطل أسلوب المبارزة وآدابها .. !!

انظروا ..

في غزوة أُحد .. يخرجِ من صفوف المشركين أحد مبارزيهم الأشداء ، هو : أبو سعد بن أبي طلحة ، وينادي "علياً" ليبارزه ..

ويخرج "عليّ" إليه ويتلاقيان في مبارزة ضارية حامية ..

ويتمكنِ منه سيف "عليّ" بضربة تطرحه أرضاً . وهو يتلوّى من الألم .

وبينما "عليّ" يتهيأ ليجهز عليه بضربة قاضية ينحسر جلباب الرجل فتنكشف عورته ، فيغمض "عليّ" عينيه ، ويغضُ بَصره ويثني إليه سيفه ، ويعود إلى مكانه في الصف ..

ويسأله المسلمون : لماذا لم تجهز عليه .. ؟

ويجيبهم :

« لقد استقبلني بعورته ، فعطفَتْني عنه الرَّحِم » !!!

إن شرف المقاتل خُلقٌ لا ينساه "عليّ" أمام النصر ، وأمجاد الظفر .

ولقد عُرف عنه ذلك دائماً ، فراح أعداؤه يلمسون منه هذا الْوَتَرَ كلما رأوا المنايا تهوي عليهم من سيفه الوثيق !!

* * *

إن الأبطال الأصلاء العظماء ، لا ينشدون النصر ـ مجرَّد النصر .

إنما هم ينشدون النصر عفًا ، شريفاً ، عادلاً .. فإذا لم يأتِهم النصر مُوَشّى بهذه الفضائل ، فلا خفقت راياته ، ولا دقت طبوله !!

وسنرى ونحن نتتبع مشاهد البطولة في حياة الإمام ، كيف كان حرصه الشديد على "شرف المقاتل" آثر وأبقى من كل غلبة ومن كل انتصار .

ومن المفارقات العجيبة لشخصيته ، أن "براعة المقاتل" فيه ، كانت تزلزل خصومه خوفاً وهَلعاً .. في حين "شرف المقاتل" فيه ، كان يملأ نفوسهم طمأنينة وأمناً .. !!

أجَل ؛ لطالما تحولت نقمته على أعدائه إلى رحمة بهم بسبب إيمانه الحقّ بأن القتال الشريف ، النبيل ، العادل ، هو وحده سبيل الرجال ، إذا اضطرُوا لقتال .

* * *

بعد أن تحقق له النصر في موقعه الجمل ، وقبل أن تبدأ موقعة "صِفِّين" وكان لايزال يرجو أن يفئ معاوية إلى الحقّ ، على الرغم من كل الشواهد التي كانت تنبئ بإصراره على موقفه ، وإعداده العريض للحرب والقتال ؛ يومئذٍ علم "الإمام" أن اثنين من كبار أنصاره يجهران بشتم معاوية ولعن أهل الشام ، هما : حُجر بن عديّ ، وعمر بن الحمق ، فأرسل إليهما آمِرًا أن يكفا عن هذا الشتم وهذا اللّعن .. فقدما عليه ، وسألاه:

ـ يا أمير المؤمنين ، ألسنا على الحقّ ، وهم على الباطل .. ؟

أجابهما الإمام :

ـ بلى ، وربِّ الكعبة .

قالا :

فَلِمَ تمنعنا من شتمهم ولَعنهم .. ؟

قال الإمام :

"كَرهتُ لكما أن تكونا شتَّامَيْن لعَّانَيْن ...

ولكنْ قُولاَ : اللهم احقِنْ دماءنا ودماءهم ، وأصْلحْ ذَاتَ بَيْننا وبَينهم ، واهدِهِم من ضلالتهم حتى يَعْرِفَ الحقَّ مَنْ جَهِلَهُ ، ويَرْعَوِي عن الغَيِّ من لجَّ به.."!!

إنه "شرف المقاتل" أيضاً ..
وإنها "البطولة" التي تُزجيها "الرجولة" .
و"الرجولة" التي صاغها الإسلام في أحسن تقويم .

* * *

ولكنْ ، لماذا عَجِلْنا ، وتخطَّينا الزمن ، ورُحنا ننشد الأمثلة على بطولة الإمام من أُخريات أيامه ..؟

ألا يَحسن بنا أن نستشرف هذه البطولة في بداياتها الرائعة ..؟

بلى .. فلنرجع مع الزمن إلى وراء ، حيث الرسول ﷺ في "مكة" يتهيأ للهجرة إلى المدينة التي سبقه إليها أصحابه .

إن خُطّة الهجرة كما رسمها الرسول ﷺ ، كانت تتطلب أن يأخذ مكانه في البيت رجل تشغلُ حركتهُ داخل الدار أنظار المحاصرين لها من مشركي قريش ، وتخدعهم بعض الوقت عن مَخرَج الرسول عليه السلام ، حتى يكون وصاحبه أبو بكر قد جاوزا منطقة الخطر ، وخلّفا وراءَهُمَا من متاهات الصحراء مسافةً تتشتَّتُ فيها مطاردة قريش إذا هي خرجت في طلبهما .

ولكنْ : ما مصير هذا الذي سيخلفُ الرسولَ في داره ، ويخدع قريشاً كلها عن مَخرجه ..؟

ما مصيره حين تكتشف قريش الحيلة ، وترى كَيدَها الذي عَبّأَتْ فيه كل قواها يرتد ، لا هزيمةً ماحقةً فحسب .. بل سُخْرِيَةً .

تُضحكُ منها ولْدانها ، وخِزْياً يجثم فوق جبينها ..؟

إن مصيره مفروغ منه ..

إنه القتل ، إذا لم تجد قريش ما هو أشد من القتل تشفيًا وفتكاً !!

والحقَ أنها ستكون نهايةً مُوحشة . فالرجل الذي سَيُكْتَبُ عليه أن يحمل هذه التضحية ، لن يُقتل فحسب .. بل هو سيُقتل في بلد مُوحش ، قد خَلا من كل أصحابه الذين كانوا بالأمس يَمْلَئُونَ فجاجه دَويًّا بالقرآن كدَويِّ النحل .

في هذا البلد الموحش سيُقتل وحيداً .. دون أن يجد من إخوانه من يُشجعه ولو من بعيد بنظرة تثبيت .. أو يودِّعه ـ ولو من بعيد أيضاً ـ بنظرة عطف ومحبة .. أو يتسلَّل في جنح الظلام إلى قبره فيقف عليه مسلِّماً ..!!

لاشيء من ذلك سيكون ..

ولا شيءَ مِنْ ذلك سيُخَفِّفُ مِنْ وَقْع النهاية التي ستختارها قريش لِمَنْ يُمثل دورَ الرسول ﷺ عليها حتى يخدعها عنه ، وحتى يَرُدَّ كيدُها العَاتِي تراباً في تراب !!

فمِن أيِّ طراز ، سيكون هذا الفدائي العظيم ؟!

ومن أيِّ ناحية سيجيء البطل ..؟!
إنه من بيت النبوّة يجيء .
إنه سليل بني هاشم .. وتلميذ محمد ﷺ .
إنه ربيب الوحي .. وسابق المسلمين .
إنه "عليّ" يفاجئ قريشاً .. فَلْيَسُؤْ على يديه صباحُها .. كما ساء بخروج النبيِّ مَمْساها !!

* * *

على أن مهمة "عليّ" رضي الله عنه ، لم تكن مقصورة على المبيت مكان الرسول ﷺ والمكر بقريش حتى يغادر الرسول مكة .. بل كان لها جانب آخر يتطلب نفس القدر من الفدائية والبذل والتضحية .. ذلك هو قيامه بِرَدِّ الأمانات والودائع التي كان الرسول ﷺ يحتفظ بها لذويها من أهل مكة .

لقد تلقَّى "عليّ" من الرسول كل هذه الودائع وتلقّى منه أسماء أصحابها.. وكان عليه أن يذهب إليهم داراً دارا .. وفرداً فرداً .. ويعطي كل إنسان أمانته ، دون أن ينيلَ ، قريشاً منه فرصةً تحولُ بينه وبين إنجاز مهمته كلها .

ولقد قام البطل والرجل بالمهمة على خير وجه ، وحفظه الله ورعاه ، وصدق وعد الرسول له حين قال وهو يودِّعه :

"لن يَخْلُصَ إليك شيء تكرهه منهم " .

وبعد أيام ثلاثة ، قضاها الفتى الوثيق بمكة ، يردّ الأمانات إلى ذويها ، ركب الصحراء مهاجراً إلى الله ورسوله ..

وحدَه ، خرج مجتازاً نفس الطريق الذي خرجت عليه قوات قريش تطارد الرسول والصدِّيق ، وتطلبهما بكل جهد وثمن ..

وحدَه ، خرج "عليّ" في رباطة جأش تجلُّ عن النظير.. وفي إيمان مُطلق جعل عزمه يتألق مضاءً وتهلُّلاً !!

وبعد أيام وليالٍ ، كان هناك في "قُباء" ينزل مع "الرسول" في نفس الدار التي أُعدت له عليه السلام ، دار كلثوم بن هِدم ، أخي بني عمرو بن عوف.

وبعد أيام ينتقل مع الرسول ﷺ إلى المدينة .. دار الهجرة .. وعاصمة العالم الجديد الذي جاء "محمد" يُنشئه ويبنيه على دعائم الإيمان ، والحقّ ، والعدل ، والرحمة والسلام.

* * *

وتجيء "غزوة بدر" .

ويواجه الإسلام الوثنية في أول لقاء يَنْشِب بينهما.

ويُظهر عليّ بن أبي طالب ، وعمّه حمزة رضي الله عنهما من المقدرة والجلَد والبطولة ما يبهر الألباب .

ثم تجيء "غزوة أُحد" ، حيث حشدت قريش كل بأسها وقوّتها وخرجت لتثأر لقتلاها في يوم بدر ، وتنضو عن نفسها عار الهزيمة الماحقة التي أصابتها في ذلك اليوم المشهود .. ويملأ "عليّ" أرض المعركة ببطولته وبضحاياه ، ويسقط اللواء من يد "مصعب بن عمير" .

يسقط بعد أن يبدي بطولة خارقة (١) .

ويدعو الرسول ﷺ ـ عليًّا ـ ليحمل اللواء .

ويحمل اللواء بيد ، ويده الأخرى قابضة على سيفه "ذي الفقار" ، هذا السيف الوثيق الذي قال الرسول ﷺ عنه وعن صاحبه :

" لا سَيْفَ إلا ذو الفقار ، ولا فتًى إلا عَلِيّ " !!!

ولا يكاد "ابن أبي طالب" يحمل اللواء ويَشْرَئبُّ في يده عالياً ، عزيزاً ، خفاقاً حتى يبصـره حامل لواء المشركين ، فيصيح ، "ألا هل مِن مُبارز" ؟

ولا يجيبه من المسلمين أحد ، فقد كانوا في شُغل عنه بالمعركة التي بلغت أقصى عنفوانها ، وشِدَّتها ، وضراوتها.

وتتكسَّر السيوف على السيوف ، والنِّصال على النصال .

ويُرسل حامل لواء المشركين نَعيقه مرة أخرى فينادي: "ألستم تزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار..؟ ألا فليخرج إليَّ أحدُكم" .

ولم يطِقْ "عليّ" صبراً ، فصاحَ به: "أنا قادم إليك يا أبا سعد بن أبي طلحة.. فابرز يا عدو الله إليّ" .

والتقيا بين الصفوف الملتحمة تحت وقع السيوف وتبارزا .. فاختلفا ضربتين .. ضربه "عليّ" ضربة واحدة .. فسقط على الأرض يعالج مصرعه ومنيته .. وهَمَّ "عليّ" أن يضربه الثانية ليجهز عليه ، فتكشَّفَت عورته أمام "علي" فاستحيا ، وغَضَّ بصره وانصرف عنه ، على النحو الذي أشرنا إليه من قبل .

وبعد انتهاء القتال تقدَّمت النساء المسلمات يُداوين الجرحى .

ورأى الرسول ﷺ ـ عليًّا ـ وسط مجموعة منهن تكاد تعييهنّ جراحه الكثيرة ، حتى قُلنَ لرسول الله حين رأيْنَه :

ـ يا رسول الله: لا نعالج منه جُرحاً ، إلا انْفتَق جرح !!

فاقترب الرسول ﷺ من جسده المثخن ، والشجاع ، وراح يُسْهم في تضميده ويقول: " إن رجلاً لقِيَ هذا كُلَّه في سبيل الله ، لقد أبلى وأعْذَر" .

* * *

وانتهت معركة "أُحُد" بهزيمة المسلمين بعد أن حققوا على أرضها نصراً عظيماً في بدايتها .

---

(١) راجع "مصعب بن عمير في كتاب "رجال حول الرسول" للمؤلف

وكُتبُ السِّيَرِ والتاريخ تجمع على أن الهزيمة لم تكن نتيجةً لتفوُّق المشركين في قتالهم أو في بلائهم ، إنما كانت نتيجة خطأ ارتكبه فريق من المؤمنين ـ أولئك هُم الرُّماة الذين وَكل إليهم الرسول ﷺ مهمة حماية المؤخرة من فوق قمَّة الجبل ، وأمرهم ألاَّ يغادروا مواقعهم مهما يكن الأمر حتى يأمرهم ـ هو ـ بمغادرتها .. بيْدَ أنهم ما كادوا يبصرون قريشاً تنهزم .. وتنسحب قواتها من المعركة مخلفة أسلابها وغنائمها ، حتى غادروا مواقعهم .. ونزلوا إلى أرض القتال يجمعون الغنائم والأسلاب ..

هنالك ، جمع الجيش المنسحب فلوله ، وعاد حثيثاً إلى المسلمين وقد انكشفت مؤخرتهم ، وفاجأهم بهجوم مُباغتٍ وعنيد .

* * *

وهكذا تحوُّل النصر إلى هزيمة..

ووعَى الدرس كله ، والعبرة جميعها حاملُ لواء المسلمين آنئذٍ "عليّ بن أبي طالب" كرم الله وجهه .

لقد ازداد ساعتئذ علماً بما كان علمه من قبل: وهو أن دين الله لا ينبغي أن يكون طريقاً إلى دنيا.. وأن الذين يتقدمون ليحملوا كلمة الله ورايته ، يجب ألاَّ يشغَلَهم عنهما أسلاب ، ولا غنائم ، ولا أطماع ولا مناصب .. فإن هم فعَلُوا وكَلَهُمُ الله إلى أنفسهم ، وما أعجز الأنفس حين تفقد رعاية الله وتوفيقه ..!!

حَذِق "عليّ" هذا الدرس جيداً ، كما حَذِقَه يومئذٍ أكثر الأصحاب .

وعاش "عليّ" عمره كله لا ينساه ، فغداً عندما تأتيه الخلافة في فِتن كقِطع الليل المظلم ، ثم عندما تُفرض عليه تلك الصدمات المُرَوِّعَة مع معاوية ، ومع الخوارج ، لن ينسى دَرْسَ "أُحُدٍ" أبداً .

لن يضَع دينَ الله موضع مُساومَة ، ولا مُزايدة ..

كل مغريات السلطان ومباهج الدنيا ، لن تظفر منه بنظرة واحدة ..

ستظل كلتا عينيه على دين الله ، لا تتحولان عنه ، ولا تغمضان دونه ..

لن يشتري سُخط الله برضاء الدنيا بمن فيها ..

ولكنه يتقبل سخط الدنيا كلها والناس أجمعين بلحظة واحدة من رضاء الله رب العالمين ..!!

* * *

والآن نُتابع "البطل" في خَيْبَر .

فأمام حصنها المنيع ارتدَّت ـ أول يوم ـ كتيبة قويَّة يقودها أبو بكر الصديق ..

ثم ارتدَّت ـ في اليوم الثاني ـ كتيبة أخرى ، يقودها عمر بن الخطاب ..

لم يجزع الرسول ﷺ ، فما كان هو بالجازع قطّ ، وإنما ألقى على الصفوف الحافلة بأصحابه وبجيشه نظرة متفائلة وقال :

" لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه " .

يقول "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه: "ما تمنيت الإمارة قطّ إلا ذلك اليوم ، رجاء أن أكون مَن يحبُّه الله ورسوله" .

* * *

أصبح الصباح ، وأقبل المسلمون إلى حيث يلتقون برسولهم ﷺ .. وكلهم شوق إلى معرفة الرجل الذي سيعطيه الرسول الراية ، والذي سيتم على يديه فتح ذلك الحصن الرهيب.

واكتملت أعدادهم ، واستوت صفوفهم ، واشرأبت الأعناق مُتمنيَّةً راجية ..

وشقَّ السكونَ صوتُ رسول الله ﷺ يقول :

"أين عليّ بن أبي طالب" ؟

كان "علي" هناك وسط الزحام ..

لم يخطر بباله يومئذٍ أن يكونَ هو الرجل الذي وعد الرسولُ أصحابه ، وجعله بُشرَى الفتح القريب .

لم يخطر هذا الاختيار بباله لسبب يسير ، هو أنه في ذلك اليوم كان يشكو رمداً في عينيه ، لا يمكّنه من العمل الصعب الذي تتطلبه مهمة ذلك اليوم المشهود .

ولكنه لبَّى نداء الرسول ﷺ من فوره :

ـ هأنذا يا رسول الله ..

وأشار الرسول إليه بيمينه ليتقدم منه ، فتقدَّم البطل ... ورأى الرسول ما بعينه من وجع واهتياج ، فبلَّل أنامله المضيئة بريقه الطهور ، ومَسَّ بها عين البطل .. ثم دعا بالراية فأمسكها ورفعها إلى أعلى ، وهَزَّها ثلاثاً ، ثم غرسها في يمين عليّ ، وقال :

"خُذ هذه الراية ، فامضِ بها حتى يفتح الله عليك" ..!!!

دقائق ، لعلها لا تجاوز خمساً .. ولكنها تمثِّل حياة كاملة لا مُنتهى لأبعادها ، ولا غاية لأمجادها !!

* * *

حمل البطل الراية ، وتَقَدَّمَ كتيبته يُهرول هَرْوَلَةً .. وأمام باب الحصن نادى :

"أنا عليّ بن أبي طالب" .

أجل .. فإنه ليعرف تماماً ما لهذا الاسم في أفئدة أعداء دينه من رهبة ، وما يثيره فيهم من فزع وخذلان !.

وتلقَّى "عليّ" ضربة قوية لم تُصبه بسوء ، لكنها أطارت تُرْسه من يده.. ورأى نفسه يواجه فرقة مسلحة من حرس الحصن ، فصاح:

"والذي نفسي بيده ، لأذوقَنَّ ما ذاق "حمزة" أو ليفتحن الله لي" .!

رأى سليل بني هاشم نفسه ، ولا دِرْعَ معه.. فاندفع نحو باب من أبواب الحصن .. ولا يدري الناس عندها ماذا حدث ؟ .

كل ما يذكرون: أن علياً صاح "الله أكبر" ثم التفت نحوهم وباب الحصن بين يديه ..!!

يقول أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، وقد كان ضِمْنَ كتيبة عليّ:

"لقد هممت أنا وسبعة معي أن نحرك هذا الباب من مكانه على الأرض فما استطعنا"..!!

وهجمت كتيبة الإسلام بقيادة بطلها "عليّ" ... وفي وقت وجيز، كانت القوة المنتصرة تردِّد من شرفات الحصن الذي سقط بكل ما فيه، هُتاف النصر..

"الله أكبر، خَرِبَتْ خَيْبَرُ".

وصدقت نبوءة الرسول التي قالها لابن عمه:

"خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك"..!!

أجلْ.. لقد فتح الله عليه، ومَنحه النصر المرتَجَى.

* * *

والآن، مع البطل في يوم الخندق، حيث هوجمت المدينة بأربعة وعشرين ألف مقاتل بقيادة أبي سفيان، وعُيَيْنَة بن حصن..

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام حين علم بخروجهم وتحرُكهم صَوْب المدينة، قد استجاب لرأي "**سلمان الفارسي**" بحفر خندق حولها.

وحُفر الخندق، وفوجئ به جيش الشرك.

وانطلق من معسكر قريش – التي أضناها اقتحام الخندق ـ نفر من مقاتليها، على رأسهم عمرو بن عبدُ ودّ، وتيممُوا لأنفسهم ثغرة في الخندق ينفذون منها، وفعلاً وجدوا مكاناً ضيقاً تَقَحَّمَتْهُ خيولهم.

ووقف هو ومن معه من فُرسان قريش، أمام المسلمين، وصاح: مَن يُبَارز ..؟

وفي مثل وَمْض البرق وجد أمامه البطل.

إذْ وقف "عليّ" أمامه وجهاً لوجه.

وقال:

ـ يا عمرو، إنك كنت عاهدت الله ألاّ يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خُلَّتين إلا أخذتها منه.

فأجابه عمرو: أجَلْ..

قال عليّ:

ـ فإني أدعوك إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام.

قال عمرو: لا حاجة لي إلى ذلك.

قال عليّ:

ـ إذن، فأنا أدعوك إلى النزال.

قال عمرو: لِمَ يَابْنَ أخي، فواللاَتِ ما أُحبُ أن أقتلك.

قال عليّ :

ـ لكني والله أُحبُّ أن أقتلك..!!

فغضب عمرو ، وأخذته حمية الجاهلية ، واقتحم عن فرسه وعقره ، ثم هجم على "عليّ" الذي تلقَّاه بعنفوان أشدّ ، وخاضا معاً نِزالاً رهيباً ، لم تطل لحظاته حتى رفع "عليّ" سيفه المنتصر ، في حين كان خصمه عمرو بن عبد وُدّ مُجَنْدلاً على الأرض صريعاً.

وعاد "علي" إلى صفوف المسلمين ، تستقبله تحيات شاعرهم :

نَصَرَ الحجارةَ من سفاهَةِ رأيه	ونَصَرْتُ ربَّ محمد بصواب
لا تحسَبَنَّ الله خاذِلَ دينِه	ورسولِهِ ، يا معشرَ الأحزابِ

* * *

وقبل أن نستطرد مع مشاهد بطولته الخارقة ، يحسن بنا أن نتذكر ما قلناه من قبل ـ ألا وهو أن بطولة "عليّ" كانت تزدان بكل شرف الرجولة ، ولم تكن قطّ في خدمة هَوًى أو زهو ، إنما كانت في خدمة تلك المبادئ العُلا التي هداه الله إليها ، والتي آمن بها "عليّ" أوثق إيمان .

من أجل هذا لا نعثر على مشهد واحد من مشاهد بطولته ، يمثل ، عدواناً ، أو بهتاناً .

وبطولته على الرغم من شموخها واقتدارها ، كانت بطولةً مسالمة عاقلة ، وعادلة .

ففي هذه البطولة التقت شدة البأس ولين الجانب لقاء موفقاً !!

من أجل هذا نجد الرسول عليه السلام يندُبه في مهام الحرب والقتال لتلك التي تتطلب حظاً وافراً من ضبط النفس ولين الجانب . وفي هذا تزكية لبطولته وإطراء .

* * *

في ذلك اليوم المشهود ـ يوم فتح مكة ـ كان الزعيم الأنصاري "سعد بن عبادة" يحمل الراية على كتيبة كبيرة من المسلمين.

ولم تكد تتراءى له مشاهد مكة ، حتى استجاشته ذكريات عداء قريش للرسول ولصحبه..

فصاح قائلاً وسط نشوة الظفر التي تستخفُّ الأحلام : "اليومَ يومُ الملحمة ، اليوم تُستحلُّ الكعبة" .

قالوا : وسمعه بعض الصحابة فروَّعهم هذا النداء .

وسارع "عمر بن الخطاب" إلى النبي عليه السلام ونقل إليه كلمات سعد ، وقال مُعَقِّبًا عليها:

ـ يا رسول الله ، ما نأمَنُ أن يكون لسعد في قريش صَوْلَة .

وعلى الفور نَادَى الرسولُ "عَليًا" ، وقال له :

"أَدْرِكْ سعداً ، وخُذ الرايةَ منه ، فكن أنت الذي تدخل بها" .

"عليّ" الذي شهد كل الأذى الذى صبته قريش على ابن عمه ورسولهﷺ ..

"عليّ" الذي يحمل طاقة زاخرة فوَّارة تحرّك الجبال ..

"علي" ، وهذا يومه ، حيث يتوقّع منه بأس المقاتل ، وزهو المنتصر .. يختاره أَعْرَفُ الناسِ به لمهمة قهرِ الزَّهْوِ ، ونسيان الثأر . مُهمة دخول مكة المفتوحة ، في تواضُع وإخبات ، وسلام .

ومشهدُ آخر ، يُعرفنا بجمال هذه البطولة ، وإنسانيتها ، وما كانت تتمتع به من أناة ، ومَعدَلة .

فبعد فتح مكة ، أرسل الرسول ﷺ إلى مَنْ حولها مِن القبائل سرايا تدعوها إلى الله في غير قَتْلٍ لها ، أو حرب معها .

وكان "خالد بن الوليد" على رأس إحدى هذه السَّرايا ، أمره الرسول ﷺ أن يسير بأسفل "تِهامة" داعياً ، لا مقاتلاً ..

وعند قبيلة بني خذيمة بن عامر ، تصرُّفَ أحد رجالها تصرُّفاً تسرَّع تجاهه "خالد" فأعمل فيهم السيف ..

ونمى الخبر إلى رسول الله ﷺ، فغضب وحزن ، وبرئ إلى الله مما صنع خالد بن الوليد ، ثم رأى ـ عليه السلام ـ أن يبادر بإرسال "رسول سلام" ، وكان "ابن أبي طالب" هو الرسول المختار .

دعاه رسول الله إليه ، وقال له:

« يا عليّ ..

اخرج إلى هؤلاء القوم ، فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك» ..

وأعطاه الرسول مِن المال ما يكفي لدية القتلى ، وتعويض أهلهم عن كل خسارة حَاقت بهم ، وقام "علي" بالمهمة خير قيام.

وهكذا ، حيث تَضْرى البطولات ، وتستعلي الأناة والحكمة يكون "علي" هو الرجل وهو البطل الذي يختاره الرسول ﷺ ليقيم الميزان بالقسط ، ويمزج القصاص بالعدل ، والقوة بالرحمة ، ويضع الشجاعة تحت إمْرَة السَّداد والأناة والحكمة!!

* * *

وإذا كان الفضل ما يشهد به الأعداء ، فلنستمع في هذا المقام لشهادة "أبي سفيان" أيّام شركه ووثنيته ..

فعندما نقضت قريش عهدها مع رسول الله ﷺ ، واستخار النبي ربه في الخروج إلى مكة لفتحها ، نمى الخبر إلى قريش فسُقِط في يدها ، وأرسلت "أبا سفيان" إلى المدينة ليعتذر إلي الرسول ، وليسأله الموافقة على المعاهدة التي كانت بينهما ، والتي أُبرمت يوم "الحُدَيْبية" .

ونزل "أبو سفيان" المدينة .. وقابل زعماء المسلمين راجياً أن يُزكُّوا مهمته عند الرسول ﷺ .. فكلهم رفض .

بل إن ابنته "أم حبيبة" ـ وكانت إحدى زوجات النبي ـ أبت أن تُجلسه على فراش رسول الله ﷺ ، وكان مبسوطاً في فناء حجرتها ساعة دخوله عليها ، فطَوَتْه عنه .. ولمّا عاتبها في صنيعها هذا أجابته قائلة :

[إنك مشرك ..

وفراش رسول الله لا يطؤه مشركون] .

ولما عاد إلى "مكة" خائب المسعى ، جلس يُحدّث قريشاً عن محاولته ، فقال فيما قال:

ـ ".. وجئتُ ابن أبي قحافة ـ يعني أبا بكر ـ فلم أجد منه عوناً .."

"وجئتُ ابن الخطاب ، فوجدته أعدى العَدُوّ .. لقد قال لي: أأنا أشفع لكم عند رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذَّرّ لجاهدتُكم به ..

وجئت "عليًا" فوجدته ألْيَنَ القوم" ..!!

أجل .. في هذه المناسبة بالذات ، حيث لا يتوقّع من "عليّ" كرّم الله وجهه سوى بأس المقاتل ، وتَشفّي صاحب الثّأر ، نجد لين الجانب ورحمة الغالي يَسمان موقفه وتصرُّفه ..!!

وبشهادة مَن ..؟ بشهادة خصمه "أبي سفيان" زعيم قريش يومئذٍ وقائد جيوشها ، وحامل لواء وثنيتها !!

ذلكم هو نوع البطولة التي أفاءتها مقادير "عليّ" عليه .

بطولة يقودها العقل لا العاطفة .

بطولة ، تحكمها أخلاقياتها النبيلة السّامية ، فلا تستعلي على الرحمة .. ولا تزيغ عن الحقّ .. ولا تتنكّب طريق الأناة والحكمة .

وبهذه البطولة الشّهمة العادلة ، قاتل المشركين ، فما تخلّف عن غَزاةٍ ولا عن مشهد قطّ ، إلا غزاة واحدة أمره الرسول بعدم الخروج إليها ليكون خليفته في المدينة على أهله .

ولمّا تململت روح البطل إزاء هذا التخلّف ، أرضاه الرسول بقوله على ملأ من أصحابه :

[أما يُرضيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنه لا نَبِيّ بعدي]..؟!

وبهذه البطولة الشهمة العادلة ، سيخوض قتاله مع "معاوية" ومع "الخوارج" .

وسيواجه الفتن الحالكة التي تَدَعُ الحليم حيران ، بأخلاقه الطاهرة ، قبل أن يواجهها بمقدرته القاهرة .

لن يجد بأساً ـ أيَّ بأس ـ في أن يخسر ألف معركة ، ولكنه لن يسمح للظروف مهما تبلغ ضراوتها وشدتها أن تسلبه فضيلة واحدة من فضائل نفسه وفضائل دينه .

والحقّ أن معارك ـ الحروب الأهلية ـ التي اضطرَّ الإمام لخوضها كانت أعظم مجالي عظمته ، ورجولته ، ونُبله !!

فإلى هناك لنرى بعض مشاهدها .

إن "مِنصّة الأستاذية" قد رُفعت فوق المشقّة والهول ، وقد علاها "البطل والمُعلّم" لِيُريَ الدنيا ـ على الطبيعة ـ كيف تعمل البطولات العظيمة في نُبلٍ ، واستقامة ، وشرف .

■ ■ ■

الخليفةُ والقُدوة

[إنما أُعطيكم ما تُرْزَءُون لا ما تَرْزَءُون ..]
" الرسول ﷺ "

كلما تعاظمت مسئولياته ، تألقت فضائله ومزاياه .

وتلك أصدق دلائل العظمة الإنسانية ، وأوثق براهينها ...

فحيث تثقل المسئوليات كالجبال .. وحيث تفرض خلال احتدامها وجيشانها توتُّراً قاسياً على الإرادة والفكر ، تجد الفضائل الطارئة فرصتها للانكماش والتقهقر . أما الفضائل الأصلية الجليلة فلا شيء يشحذُ تفوُّقها واقتدارها مثل هذا المجال !! .

* * *

ولقد كُتب على "ابن أبي طالب" أن تكون حياته موكباً موصولاً من المسئوليات الجسام .

أكانت أقداره تحابيه بهذا ، لتجعل حياته عرضاً مستمراً لفضائله المتألقة، وعظمته السامقة ..؟

إن إحساسه ، وإن إيمانه بالمسئولية لعجيبان !

لكنَّ العجب يفقد مكانه ما دامت الأقدار قد جعلت منه ابن عم الرسول ﷺ وصهره وتلميذه الأول ..

فمن يَكُ مكانه من الرسول هذا المكان ، فإن عليه أن يُعطي ، ولا يأخذ .. وأن يَغْرَم ، ولا يَغْنَم ...

عليه أن يهيِّئ نفسه لشظف العيش ، ولَأْوَاء الحياة ..

أما مناعمها ، ومباهِجُها ، بل مُجرَّد الراحة فيها ، فأشياء لا تنبغي لمحمد ، ولا لآل محمد ﷺ ..!!

تلك قضية وعاها "عليٌّ" جيداً ، فيما وعى ..

وابنُ عم الرسول وتلميذه ، خير مَنْ يضع إرادته وسلوكه في خدمة الحقّ الذي يَعيه .

إنه بغير تكلُّف ، وبغير إعمال أو محاولة ، يجد طاقاته جميعاً تبلغ أَوْج احتشادها واكتمالها ، كلما بلغت الأخطار والتبعات ذروة تجمُّعها وتحدِّياتها .

وإنه بغير تكلف ، وبغير إعمال أو محاولة كذلك ، يجد فضائله جميعاً تحلّق في ذُرا جلالها وسموِّها عند الخطر ، لترسم لمقدرته ولبطولته أسلوب العمل !!

هكذا تعلَّم من "محمد" ابن عمه وكافله ...

وهكذا تعلَّم من "الرسول" مُعلمه وهاديه ...

فلقد رآه عندما بلغ الخطر به وبعمِّه أبي طالب غايته الماحقة ، تتقدم فضيلة الصمود

في جلالها المهيب فتقهر الخطر ، وتعبّر عن نفسها في هذه الكلمات :

[والله ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، ما تركتُ هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلِك دونه] ..!!

ثم رآه يوم الفتح ، وقد تعلّقت مصائر قريش كلها بكلمة واحدة تنفرج عنها ثناياه ، فإذا فضيلة الصَفح تتقدم في أنسها الرَّحيب وحنانها الرَّطيب ، لتقول للقتلة الذين جوَّعوا أهله ، وقتلوا أصحابه ، ومضغوا كَبِد عمه بعد أن مثّلوا بجثمانه الطهور أبشع تمثيل .

[اذهبوا ،

فأنتُمُ الطُّلَقَاء] .. !!

ليس هناك خطر مهما عَظُم ، يستطيع أن يُقاعِس الفضائل الرفيعة عن دورها في توجيه الكفاية والبطولة .

وليس هناك في كل مفاتن الدنيا ما يستطيع أن يفتن الرجل العظيم العادل عن مسئولياته العظيمة العادلة .

هذا هو الدرس الذي حَذِقَه "عليٌّ" عن الرسول ووعاه ...

يُضاف إليه ، بوصفه من آل بيت الرسول ﷺ ، ما ذكرنا من قبلُ ، وهو: أن يُباشر مسؤولياته ، ويحيا جميع حياته وسط دائرة صارمة من الزهادة ، والشظف ...

ليس له في طيباتها المشروعة، ولا في مناعمها الحلال حظٌ أو نصيب!!

عرف ذلك من قول الرسول ﷺ ومن علمه وسلوكه معرفة لا تحتاج إلى مَزيد.

عرفه حين كان يراه يضنُّ على نفسه بشربة لبن.. ثم يرسلها لفقير من المسلمين..!!

وعرفه ، يوم أرسلت إليه زوجته "فاطمة" بنت الرسول ﷺ تسأله حقًّا يسيراً ناله جميع المسلمين ، فإذا هو يجيبها ودموع الوالد الحنون تملأ عينيه :

[لا ، يا فاطمة ..

لا أُعطيكِ وأدعُ فقراء المسلمين] !

وعرفه ، حين رأى عمَّه "العباس" يسأل الرسول ولاية ، هو لها أهل وبها جدير ، فإذا الرسول ﷺ يجيبه في أسف :

[إنّا والله يا عَمّ، لا نُولّي هذا الأمر أحداً يسأله، أو أحداً يحرص عليه]!!

وعرفه أكثر وأكثر ، يوم فتح مكّة ، حين حمل "عليٌّ" مفتاح الكعبة ، وتوجه تلقاء الرسول وهو جالس وسط أصحابه في المسجد الحرام وقال له :

[يا رسول الله ..

اجعل لنا الحجابة مع السقاية صلّى الله عليك].

فإذا الرسول يبسط إليه يَمينه، ويأخذ منه مفتاح الكعبة ثم ينادي: "أين عثمان بن طلحة" ؟ وكانت وظيفة حجابة البيت الحرام معه ومع أسرته من قبل ..

حتى إذا نهض عثمان بن طلحة قائماً ، أدناه الرسول ﷺ منه ، ووضع مفتاح الكعبة في

يده وقال له :

[هاكَ مفتاحَك يا عثمان ، اليوم يوم برٌ ووفاء..!!] .

ثم يلتفت صوب ابن عمه "عليّ" ويقول له :

[إنما أُعطيكم ما ترْزُءُونَ لا ما تَرْزَءُونَ]..!!

عليه ـ إذن ـ أن يحمل مسئولياته كلها فوق كاهله الشجاع ، ويمضي ...

وعليه ـ إذن ـ ألا ينتظر من الدنيا جزاء ولا ينتظر منها شكوراً .. فليس لآل محمد ﷺ سوى أن يُعطوا .. أما أن يأخذوا فلا ..

إن الدنيا لأهْوَنُ على الله من أن تكون لهم مثوبةً وجزاء ..

وليس هناك من آل بيت النبي مَنْ أدرك هذه الحقيقة وآمن بها مثل الإمام عليّ ..

بل لقد أدرك أيضاً ، أن طيبات الحياة التي يجد فيها الآخرون أفراحاً ومسرات .. تتحول حين تلَقيها المقادير على آل البيت إلى رُزْءٍ ومشقة !!

ذلك لأنهم لا يبحثون خلال هذه الطيبات عن المنفعة والمُتعة ، بل عن الواجب والتَّبعة .

ومن آل البيت كذلك ، لا نجد أحداً يفوق "عليًا" رضي الله عنه في السير بحياته وَفْقَ هذا الإدراك ..

فحين جاءته الخلافة .. خلافَةُ أعظم دول الأرض يومئذٍ نفوذاً وسيادة .. كانت هذه الخلافة التي يسيل لِتَبوُّئِها لُعاب الملوك، رُزْءاً أصاب الإمام ..

ولو شاء لجعلها مصدر نعيم لا ينتهي ، ومسرات لا تسكت طبولها ..

ولكن ، لأنها تحوَّلتْ بين يديه إلى مسئولية يُمارسها ضمير بَلَغَ الكمال في وَرَعِهَ ، واستقامته ، وفي تقواه وصرامته .. آنئذٍ لم تعد الخلافة مع "الإمام العظيم" أكثر من رُزءٍ ، يحمله في جَلَد الصابرين الغارمين ، لا في نشوة الفرحين الغانمين..!!.

* * *

إن المسئولية وحدها هي التي تعنيه ..

وموضوع المسئولية ـ أية مسئولية – هو الحق ، ولا شيءَ سواه .. فإذا رَأى الحقَّ ، حَمَلَ مسئوليته عنه من فوره ، وإذا حمل مسؤولية ما ، فإن العواقب لا تدخل في حسابه أبداً ..

* * *

وهذا يفسر لنا موقفه من الخلافة، منذ انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ـ إلى أن لَحِقَ هو بهذا الرفيق .

فعندما بويع "الصديق أبو بكر" رضي الله عنه بالخلافة استأخَرت يمين "الإمام عليّ" كرّم الله وجهه عن البيعة ..

لماذا .. ؟

لقد أعطى هو السبب في وضوح خلال حواره مع الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر فقال :

[إنكم تدفعون آل محمد عن مقامه ومقامهم في الناس ، وتُنكرون عليهم حقَّهم .

أما والله لنحنُ أحقُّ منكم بالأمر ما دام فينا القارئ لكتاب الله ..

الفقيه في دين الله .. العالم بسنن رسول الله ... المضطلع بأمر الرعية .. القاسم بينهم بالسويّة] ..

فهو ـ إذن ـ يرى ، بل يعتقد أنه ما دام الرسول عليه السلام لم يعهد بالخلافة لأحد بذاته ، فإن البيت الذي اختارته السماء ليكون منه النبي المصطفى ﷺ ، هو البيت الذي يختار منه المسلمون خليفتهم ، ما دام في رجال هذا البيت مَنْ يتمتع بالكفاية الكاملة لشغل منصب الخلافة .

أجل ، فليس الانتماء لبيت النُّبوَّة هو وحده مبرر هذا الترشيح ، بل لا بدَّ قبل ذلك من الكفاءة الكاملة التي تتمثل في الطاعة المطلقة لله ولكتابه ، ولرسوله ، وفي الاضطلاع القويم بأمر المسلمين ..

هكذا قال الإمام :

[.. ما دام فينا القارئ لكتاب الله ..

الفقيه في دين الله ..

العالم بسنن رسول الله ..

المضطلع بأمر الرعية ..

القاسم بينهم بالسَّويَّة ...] .

* * *

ولسنا هنا بصدد مناقشة رأي "الإمام" في خلافة "الصدِّيق" رضي الله عنهما .

ولكننا نقرر عن يقين، أن الإمام في موقفه ذاك لم يكن مدفوعاً برغبته الشخصية في منصب الخلافة، ولم يكن ينفس على "أبي بكر" هذا المنصب.

إنما كان يدافع عن حق رآه واعتقده .. ولم يكن بالنسبة له موضع ريب أو شك.

فعندما اجتمع المسلمون في "سقيفة بني ساعدة" ، ورأى الأنصار أن يكون الخليفة منهم .. في حين رأى المهاجرون أنهم أحقَ وأولى ، كان بعض منطق المهاجرين الذين رجَّح كفتهم ، قولهم للأنصار : إن رسول الله ﷺ كان منا نحن المهاجرين ، فلتَبْقَ الخلافة في أهل الهجرة !

فهذه الحجة نفسها كانت بعض منطق الإمام ..

فإذا استحق المهاجرون منصب الخلافة، لأن الرسول ﷺ منهم .. فآل بيت النبي أحقُّ بها ، لأن النبي منهم . هكذا فكَّر الإمام ..

ولكنْ من الخير لنا ألا يفتننا الشكل الخارجي لهذا الخلاف عن جوهره وحقيقته .

فأصحاب النبي الكبار بإيمانهم وبتقواهم من أمثال أبي بكر ، وعمر ، وعليّ ، وعثمان ، لا يتنافسون مغنماً من مغانم الدنيا مهما عظم ، ولا سيما في ذلك الوقت حيث كانت فجيعتهم بموت نبيِّهم ﷺ لا تترك في أنفسهم المفعمة بالأسى مكاناً لأيٍ من رغبات الحياة ..

وإنما يرجع استمساك كل منهم بموقفه إلى أن كلاً منهم وقف إلى جانب اقتناعه، وما اعتقد أنه الحقَ ..

ثم إن الخلافة ، وإن تكن في شكلها الخارجي تشكل سلطة سياسية ، ومنصباً دنيوياً ، إلا أنها في أفئدتهم وفي إدراكهم الحقيقي لها ، لم تكن سوى وظيفة من أسمى وظائف الهداية ، والقُدوة .. وفي مثل هذا لا جَرَمَ أن يتنافس المتنافسون .

إن كل وقائع التاريخ وحقائقه تؤكد في غير لَبْس أن أبا بكر ، وعمر ، وعلياً ، هؤلاء الثلاثة بالذات ، لم يكونوا يَرَوْن في منصب الخلافة سوى عبء فادح مُبْهِظ ، ولولا أن الهروب منه خيانة لله ولرسوله وللمسلمين ، لجعلوا بينهم وبينه بُعد المشرقَيْن ...

فلا الطموح الشخصي ولا الرغبة في النفوذ والسلطة ، كان لهما أو لأحدهما مكان بين دوافع ذلك الخلاف .

* * *

كان الفريق الذي آثر اختيار أبي بكر ، ينظر إلى سابقته في الإسلام ، وإلى سنّه وحكمته وخبرته ، وإلى ذلك الإيمان المعجز الذي حمله قلبُ رجل جعل شعار حياته كلها مع رسول الله ﷺ :

[إنْ كان قال ، فقد صَدق] !!

كانت المزايا التي تدعوها لاختيار "أبي بكر" تملأ الأفق ألقاً ، ومجداً ، وعبيراً ..

وهي مزايا لم ينكرها "الإمام العظيم عليّ" لحظةً من نهار .

لقد جهَرَ بها ، وهو يُبايع "الصِّدِّيق" فيما بعد فقال :

[يا أبا بكر ..

إنه لم يمنعنا من أن نبايعك إنكار لفضلك ، ولا نفاسةٌ عليك لخير ساقه الله إليك ..

ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقًّا أخذتموه] .

كما عبَّر عن هذه المزايا تعبيراً أجمل وأروع حين وقف يرثي "أبا بكر" بعد وفاته ، فيقول :

[رَحمكَ الله أبا بكر ..

كُنتَ والله أوَّل القوم إسلاماً ..

وأخلَصَهم إيماناً ..

وأشدَّهم يقيناً ..

صدَّقتَ رسول الله ﷺ حين كذَّبه الناس ..

وواسَيْتَه حين بخلوا ..

وقمت معه حين قعدوا ..

كنت والله للإسلام حِصْناً ..

وللكافرين ناكِباً ..

لم تَهِنْ حجَّتُك ..

ولم تَضعُف بصيرتُك ..
ولم تَجْبن نفسك ..
كنت والله كما قال الرسول ﷺ فيك :
ضعيفاً في بَدنك ..
قوياً في دينك ..
متواضعاً في نفسك ..
فلا حَرمنا الله أجْرَك ..
ولا أضلَّنا بعدك] .. !!

أجل ، كان الرجلان اللذان تحرَّك بينهما "بندول" الاختيار بُعَيْد وفاة الرسول ﷺ من طراز رفيع ، رفيع ، رفيع ..

وكان الرجل الثالث الذي لعب الدور الأول في اختيار أبي بكر في نفس المقام من الرفعة والعظمة ...

ويكفي أن يُذكر اسمُ أي مِنهم "أبو بكرٍ" أو "عمر" .. أو "عليّ" .. حتى تتفتح الأبواب عن عالم من الفضائل والرفعة والتقي ، ليس له نظير !!

ولقد سعى "أبو سفيان" إلى "الإمام عليّ" أكثر من مرة يحضه على الاستمساك بحقّه في الخلافة ويقول :

ـ إن شئت لأملأنها عليهم خيلاً ورجلاً ، ولأسدنَّـها عليهم من أقطارها .
لكن الإمام الزاهد ، الورع ، الفاهم ، يردّه في كل مرة ويَدْحضُه :
[يا أبا حَنْظَلة .
إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا ولا من شِيَمنا ..
ولقد سَدَدْتُ دونها باباً ، وطويت عنها كشْحًا] .

* * *

أجل .. فاختلاف وجهات نظر الأبرار حول الحقّ ، لا يُخرج الأبرار من دائرة الحقّ ، والفضل ، والأمانة ..

إن خلافهم ليس على دنيا يتنافسونها ، ومن ثمّ تبقى آفات الدنيا بعيدة عن إيمانهم وعن أخلاقهم ، وتبقى بعيدة عما يختلفون فيه ، بُعدها عما يتفقون عليه . !!

وهكذا طوى ـ الإمام ـ عنها كَشحاً ، وأغلق دونها باباً ، وتفرّغ لعبادة الله وتفقيه المسلمين ، وإسداء المشورة والنصح لوليّ الأمر ..

فالمشكلات كلها ، والمعضلات جميعها لم يكن لها إلاّ "عليّ" ..
ولطالما كان الخليفة "أبو بكر" يسعى إليه ويقول له :
[أفْتِنا يا أبا الحسن] .. !!
ولطالما كان الخليفة "عمر" يستنجد بفقهه وبذكائه وببصيرته ، ثم يقول :

[لولا عليّ ، لَهَلك عُمر] .. !!

ولطالما كان الخليفة "عثمان" يَأْرِزُ إليه ، ويستعين به ويستنصحه ، لكنْ عندما أوْغَلت الحاشية المحيطة به في الأمر ، استطاعت للأسف أن تفسد ذات بينهما ، فلم يُقدَّر لنصح الإمام ولمشوراته الأمينة العادلة أن تبلغ من اهتمام الخليفة ما تستحقه .

وباستشهاد الخليفة "عثمان" دُعي "الإمام عليّ" ليتسلم الرُّزْءَ الكبير ـ منصب الخلافة .. !!

وهكذا جاءته أخيراً .. مُثخنة بالجراح ، مُثقلة بالمتاعب ، معبَّأة بالعواصف .. !!

حقا ، إن "آل محمد" ليس لهم من حظوظ الدنيا إلا ما يُرْزَءُون !! ..

* * *

في أواخر عهد "عثمان" رضي الله عنه ، لعبت أهواء نفر من بني أمية بمصائر الدولة وبمقاديرها لَعباً أفضى آخر الأمر إلى فتنة مسلحة تنادى لها أصحابها من مختلف أقطار الإسلام ، واستغلها على نطاق واسع أعداء الدين الجديد الذين هدم عالمهم القديم كله ، وقضى على مصالحهم وضلالهم ..

وبلغت الفتنة في جولتها الأولى غاية احتدامها وظلامها بمقتل الخليفة "عثمان" ..

ولسنا الآن بصدد الحديث عن وقائع تلك الأحداث الرهيبة ، فقد تناولنا ذلك بالتفصيل في كتابنا عن "عثمان" رضي الله عنه وعن أصحاب رسول الله أجمعين .

أما هنا ، فسنكتفي برؤية الظروف الحالكة التي حمل فيها "أمير المؤمنين عليّ" كرّم الله وجهه تبعة الحكم ، ومسئولية الخلافة .

لقد قَصَدَهُ الثوار إثر فراغهم من اقتراف جريمتهم النكراء .

قصدوه وأيديهم لم يجفَّ منها دم الخليفة الشهيد الذي اغتالوه في بشاعة مفزعة .

ورفض "الإمام" بعد أن ألقى عليهم من تقريعه ووعيده ما جعلهم وهم في بأسهم المتقد يَتَقَامَئونَ ، ويتخاذلون ، وينصرفون عنه في خزْيٍ وهوان . !

ذهبوا إلى "طلحة" فرفض ، وإلى "الزُبير" فرفض .. وإلى "عبد الله بن عمر" فرفض ، وإلى "سعد بن أبي وقاص" فرفض ..

ومن ذا الذي يقبلها ، وقد رفضها الإمام عليّ ؟

والحقَ أن رفض "عليّ" لها هو الذي حتَّم عليه آخر الأمر قبولها ..

ذلك أنه برفضه هذا ، ذاد عنها كل الرجال ، حتى الطامعين فيها ، ولم يجرؤ أحد ـ وقد رأوا "ابن أبي طالب" يرفضها احتجاجاً على اغتيال الخليفة الشرعي "عثمان" ـ نقول : لم يجرؤ أحد أن يتقدم منها أو يتلقَّى مسئولياتها .

ولكنْ لابدَّ للدولة من حاكم وخليفة ، وكل دقيقة تمر والمكان شاغر ، تشكل خطراً قد يودي بمصير الأمة كلها والإسلام كله .

ولقد أدرك ذلك سريعاً جميع الناس بالمدينة ـ أهلها .. والثوار الطارئون عليها .. الساخطون على مقتل "عثمان" والمشتركون فيه .

كلهم أدركوا الخطر الماحق المزلزل الذي سيحل الأُمَّة في أقطارها القريبة والنائية إذا لم يمسك بالزمام على الفور ، رجل مقتدر يستطيع أن يوقف جموح الفتنة ، ويرأب ذلك الصَّدْعَ العريض ..

وهكذا عاد "الثوار" إلى الإمام يُلحّون ويرجون ..

وقَبْل الثوار ، تقدَّم الراشدون من أهل المدينة يبايعون "عليًا" على الخلافة .

وبهذه البيعة التي كانت ـ يومئذٍ ـ الطريقة التي يُختار بها الخليفة ، صار "الإمام عليّ" خليفة للمسلمين .

* * *

لم يكن بين أصحابِ رسول الله ﷺ الأحياء يومئذٍ ، من يفوق "الإمام" في كفاياته الهائلة التي تجعله جديراً بمكانه في الخلافة ..

ولم تكن الخلافة عندما عُرضت على "الإمام" وعندما قبلها ، تشكل أيَّ مغنم من مغانم الحياة .. بل كانت تشكِّل عِبئاً ، لحامله الوَيل كل الويل ، إن لم يُعِنْـهُ الله ..

وكان الواجب الكبير الذي ينتظر كل مؤمن وكل مسلم يومئذٍ ، بَذْل العون المستطاع لوقف امتداد الفتنة ، وذلك بالوقوف في ولاء وصدق وإيثار وراء "المنقذ" الذي تقدَّم ليحمل مسئولية الموقف كله وليدْرأ عن الإسلام ودولته وأمَّته أخطاراً لو قُدِّرَ لها أن تبلغ مداها ، لأتتْ على البناء كله من قواعده ..

لكن ذلك لم يَكُن .. بل كان نقيضه تماماً ..

* * *

إن رجولة الإمام ، وبطولته ، وعظمة مبادئه وسلوكه ، تتجلى الآن في أبهى صورها ، وقد صار خليفة وسط الأهوال ...

تتجلَّى في الدرس الذي تركته حياتـه للدنيا بأسرها . ألا وهو أن الولاء السَّديد للحـقّ ، يتمثل في الوقوف الصامد إلى جانبه ، وليس في الدوران حوله ، لأن الوقوف إلى جانبه مهما يصاحب ذلك من هزائم ومصاعب ، هو وحده الذي يزيد في نفوذ الحقّ ، ويجعل انتصاره النهائي أمراً محققاً .

بروح هذا الإدراك لقيمة الحقّ ، وبوثاقة هذا الولاء له ، بدأ "ابن أبي طالب" مَهامَّ منصبه كخليفة .

لقد بدأ يردُّ طريقة العطاء من بيت المال إلى النهج الذي يكاد يسير عليه الخليفة الأول "أبو بكر الصديق" ...

وكان "الصِّدِّيق" رضي الله عنه ، يعطي جميع الصحابة والمسلمين بالسويَّة دون تفريق بين مَن سَبق إلى الإسلام ، ومن جاء متأخرا .

فلمَّا وَلِّيَ الخلافة "عمر" رضي الله عنه نهج نهجاً آخر ، فجعل للسابقين الأوَّلين ، أكثر مما يأخذ الذين تأخَّر إسلامهم .. وقال في ذلك قولته المأثورة .

[لا أجعل مَن قاتَل رسول الله ﷺ، كمن قاتَل معه] ...

يشير بهذا إلى أنه لا يُسوّي في العطاء بين الذين التفّوا حول الرسول مبكرين ، وقاتلوا معه من أول يوم ، والذين طالما قاتلوه وهم كفار ، ثم صاروا فيما بعد من المسلمين ...

وكان "الإمام عليّ" أمْيَل إلى نهج أبي بكر ، مُفسراً رأيه ، بأن الدولة لا تعطي المسلمين مَثُوبَة دينهم ، وثمن إيمانهم ، فمثوبة الدين والإيمان عند الله ... إنما تعطيهم حاجتهم ليعيشوا ، ومن ثمَّ فلا داعي للتمييز بينهم أو التفضيل .

كما أن التفاوُت في العطاء من شأنه أن يخلق فرص تراكم الثروات لدى بعض الأفراد .. مما يشكّل مع الزمن فتنةً في الدين وفساداً في الدنيا ...

* * *

وفي خلافة أمير المؤمنين عمر ، لم تَدَعْ صرامته ويقظته أيَّ مجال لتراكم الثورة ، فقد كان حسْبه أن يعلم أن "فلاناً" من وُلاته قد فاضت نعماؤه وكثر ثراؤه ، حتى يرسل إليه فيقاسمه كل ما يملك ويردُّه جميعاً إلى بيت مال المسلمين .

* * *

ولكن في خلافة "عثمان" ، وكان المسلمون قد بلغوا من الجُهد أقصاه ، بسبب ذلك الشَّظف وذلك الزهد اللذين فرضهما عليهما في جلال باهر أميرهم العظيم "عمر بن الخطاب" .

كما وجدوا في الخليفة الجديد "عثمان" من الطيبة التسامُح ، ما أغراهم بأن ينالوا من طيبات الحياة كل ما يستطيعون .

هنالك انفتحت أبواب الدنيا بغير حساب ، ولئن وجدت من أصحاب الرسول من يعتصم دونها بورعه وبزهده وتقاه ، فقد وجدت من بعض المسلمين ـ ولا سيما الذين أسلموا بعد الفتح ، والذين أسلموا بعد وفاة الرسول ـ ناساً كثيرين ، استسلموا لِعَرَض الحياة الدنيا ، وفتنتها ، وعجزوا عن النهوض إلى مستوى الحياة التي يرسمها الإسلام للمسلم ، وخصوصاً في أيامه الأولى .

ولقد صار لكثير منهم ضِياع ، وتجارة عريضة ، ثروات وقصور وبذخ ، ولا سيما ذلك النفر من الأمويين ، الذين استغلّوا ظروفاً مُعيَّنة ، ليجعلوا من أنفسهم طبقة متميزة بثرائها وبنفوذها .

* * *

جاء "الإمام عليّ" فقرَّر أن يردَّ العطاء إلى نهج أبي بكر .. وهو يعلم علم اليقين أن ذلك سيغضب منه بعض الصحابة الكِبار الذين أيَّدُوه ، ولا يزال في حاجة أكيدة لاستمرار تأييدهم .

لكنَّ ابنَ عَمِّ الرسول ﷺ لا يعرف المساومة في الحقّ ، فليقف إلى جانب الحقّ ، وليكن ما يكون .. !

هذه واحدة ..

والثانية التي نادت إليه المتاعب ، وفعلها في ولاء للحقّ وثيق ، هي أن نفراً من وُلاة الخليفة الراحل "عثمان" لم يكونوا في رأي "عليّ" أهلاً لهذه الولاية .. ولقد كانوا السبَبَ المُباشر في الفتنة الرهيبة التي أودَت بحياة الخليفة "عثمان" . لذلك بدأ "الإمام" في الساعات الأولى لخلافته يصدر أوامره بعزل هؤلاء ، واضعاً مكانهم فريقاً من الأصحاب الذين معهم من الدين ، ومن الاستقامة ، ومن المقدرة ما يجعلهم موضع ثقة الخليفة ، وملاذ المسلمين ..

عزلَ أولئك ، وولّى هؤلاء .. وكان ضمن المعزولين "معاوية" الذي كان يومئذٍ والياً على الشام بأسرها .

وكان "مُعاوية" قد طال بالشام مُكْثُه ، وكان يُعِدُّ لطموحه البعيد كل احتياجات الغَد المرتقب ، ومن ثمّ أتمّ هناك بناء جيش قوي .

وتألّف الناس بالأموال وبالدهاء حتى صارت الشام حصنه المغلَق ، المنيع ..

كان أمير المؤمنين "عليّ" يعرف هذا جيداً .. كما كان يعرفه بعض أصحابه الذين ذهبوا إليه يرجونه متوسلين أن يُرجئ عزل ولاة "عثمان" ، وخصوصاً معاوية ، حتى يعطوه البيعة ، وحتى تستقر الأوضاع المضطربة ، وحتى يُمكّن "الخليفة" لسلطانه ، ثم بعدها يعزلهم كيف شاء ..

لكنّ "ابن عمّ الرسولﷺ وتلميذه الصّدوق" لا يعرف المساومة في الحقّ ، فهو يرفض أن يبقى واحد من هؤلاء في مكانه يوماً واحداً .

ويذهب إليه ابن عمه "عبد الله بن عباس" يرجوه أن يرجئ أمر "معاوية" بعض الوقت ، وستأتي قريباً فرصة عَزله ..

لكنّ الإمام الراشد يرفض ـ برغم كل العواقب ـ أن يتحملٍ أمام الله مسئولية إبقاء معاوية في مكانه والياً للمسلمين ، ولو ساعةً واحدة من نهار ، قائلاً عبارته المأثورة :

«لا والله ، لن يراني الله مُتّخِذَ المُضلّينَ عَضُداً » .. !!

وأمام ولائه الباهر لمسئولياته ، لم يضيّع وقته هدراً ..

فقد نهض على الفور فأرسل عُماله الجدد إلى الأمصار :

عثمان بن حنيف ، إلى البصرة ..

وعمارة بن حسان ، إلى الكوفة ..

وعبد الله بن عباس ، إلى اليمن ..

وقيس بن سعد بن عُبادة ، إلى مصر ..

وسُهَيْل بن حُنيف ، إلى الشام .

ولقد تسلّم الوُلاة عملهم في سلام ، إلا سُهيل بن حُنيف ، والي الشام الذي عُيّن مكان معاوية ، فإنه لم يكد يصل أرض "تُبوك" المتاخمة للشام حتى استقبلته كتيبة من جيش

معاوية حالت دون دخوله البلاد .

ولمّا رجع إلى المدينة ، حاملاً هذا النبأ إلى الإمام ، لم يفاجأ بما سمع فقد كان يتوقّع من معاوية مثل هذا التمرد غير المشروع .

* * *

طوال حياته العظيمة ، لم يتعود "عليٌّ" قطّ أن يكون هناك خِيار بين مبادئه ، ومصالحه ..

وذلك لسبب يسير ، هو أنه لم تكن له مصالح قطّ ..

كانت حياته رسالة .. وكان عمله وسلوكه تعبيراً وافياً عن هذه الرسالة .

وإنه الآن لقَادِرٌ بقليل من الدهاء والمسايرة أن يطوي "معاوية" حتى يقتلعه من مكانه في هدوء .

ولكنه يتساءل دوماً : ما حاجة الحقّ إلى أن يُساوم .. وإذا ساوَم الحقّ فما مزيّته على الباطل .. ؟؟

وهاهو ذا يتصرف الآن وَفْقَ هذا الإدراك لقيمة الحقّ ولقداسته .

لقد عزل "والياً" لا يراه أهلاً لمكانه ، ورفض هذا الوالي تنفيذ أمر خليفته ، ورئيس دولته .

إذن ، فليتحمل مسئولية موقفه وتمرده ..

هناك كتب إليه الإمام :

« ... أمّا بعد ، فقد بلغَك الذي كان من مُصاب عثمان ، واجتماع المسلمين عليَّ ومبايعتهم لي ، فادخل في السِّلْم أو ائْذَنْ بحرب » .

كان يرجو أن تردع هذه الكلمات "معاوية" ، لكنّ ردَّ "معاوية" كان عجيباً .. فقد قال لرسول الخليفة : « عُد أنت إلى حيث جئت ، وسأرسل بجوابي مع رسول من عندي » .

وفعلاً ، أرسل جوابه مع رجل من بني عَبْس قطع الطريق إلى المدينة حاملاً رسالة حاكم الشام ..

وما كاد "الإمام عليّ" يفضُّ الرسالة ليقرأها ، حتى ملأت الدهشة مُحياه .

لقد كانت الرسالة ورقة طويلة وعريضة ، ليس فيها من كلام مسطور سوى هذا السطر الواحد :

ـ من معاوية بن أبي سفيان ، إلي عليّ بن أبي طالب .. !!

وارتسمت على شفتي "الخليفة" ابتسامة مريرة ، والْتَفَتَ صوب مبعوث معاوية الذي كان قد نهض وراح يتكلم قائلاً :

ـ أيها الناس ، اسمعوا مني وافهموا عني ..

« إني قد خلَّفتُ بالشام خمسين ألفاً ، خاضِبي لحاهُم بدموعِ أعينهم تحت قميص عثمان ، رافِعيه على أطراف الرِّماح ، قد عاهدوا الله ألا يَشيمُوا سيوفهم حتى يقتلوا قتلته

أو تلْحقَ أرواحهم بالله » .. !!

هذه إذن : رسالة "معاوية" .

وهذه خُطته المرسومة لمناهضة الخليفة الجديد .

قميص عثمان .. !!

نحن هنا ، وفي كتبنا المماثلة [1] لا نؤرخ للوقائع ، إنما نؤرخ للعظَمَة ..

أجل .. العظمة الإنسانية التي بلغت في الذين نؤرخ لهم ذُراها السامقة ، وغاياتها البعيدة ..

من أجل هذا ، لا ندع ـ الآن ـ ضجيج الحوادث وأفواج الوقائع ، تصرفنا عن تتبع العظمة التي يرسمها لنا "الإمام" ... وبمواقفه تجاه الوقائع والأحداث .

لقد سارت الأحداث على النحو الذي ساعد معاوية ، في حين زاد الأمور صعوبة وتعقيداً أمام "الإمام" ..

فالسيدة "عائشة" رضي الله عنها ، وكانت قد خرجت إلى "مكة" معتمرة قبل مقتل "عثمان" قد جزعت لمقتله أشد الجَزع .

و"الزبير" و "طلحة" من كبار أصحاب رسول الله ، وقد تركهما "الإمام" يغادران المدينة إلى مكة عندما طلبا ذلك . على الرغم من نصيحة بعض أصحاب "الإمام" له كي يحتفظ بهما إلى جانبه حتى يأمن أمرهما .

عائشة أم المؤمنين ، والزبير ، وطلحة ، صاحبا رسول الله ﷺ .. ساروا على رأس حشد كبير من المسلمين إلى البَصْرَة ، ليحرضوا المسلمين بالعراق على الثأر من قتلة عثمان .

وكان "الإمام عليّ" قد غادر المدينة إلى العراق عندما جاءته رسالة معاوية التي مَر بنا ذِكرها ، وقال الإمام :

« إنّ لأهل الشام وثْبَةً أُحِبُ أن أكون قريباً منها » ..

ولكنه ، وهو في طريقة إلى العراق ، جاءته الأنباء بمسيرة عائشة ، وطلحة ، والزبير إلى البصرة .

أيُ رُزْءٍ هذا ، وأيُّ ابتلاء ؟!

ألا يُترك ثأر "عثمان" للدولة تقوم به ، وتقتصُّ له في الوقت المناسب والفرصة الملائمة .. ؟

لم يكن لدى "الإمام ريب في اقتناع "السيدة عائشة" . "طلحة" و "الزبير" ببراءته الكاملة من دم عثمان .. ففيم إذن خروجهم .. ؟

إن النبأ السَّاري يقول : إنهم خرجوا ليتعقبوا قتلة عثمان في البصرة ، وليستعينوا بصالحي البصرة وبقية أهل العراق ممن آسَفَهم قتل الخليفة ، على أولئك الذين ائتمروا على حياته وخاضوا في دَمِه ..

---

(١) كتاب "محمد والمسيح" ، و "وجاء أبو بكر" ، و "بين يدي عمر" ، و "رجال حول الرسول" .

ولكنْ هناك "دولة" على رأسها رجل مسئول لم تكن ذِمَّته ، ولا أمانته ، ولا ورعه ، ولا شدَّته في الحقَ حتى على نفسه . لم يكن ذلك كله موضع تساؤل أو اتهام منذ رأى نور الحياة وليداً إلى يومه هذا ..

أفلا تُترك الدولة وعلى رأسها حاكم هذا طرازه الرفيع الأمثل ، تُسوِّي هي ، ويسوِّي حاكمها مسألة عثمان .. ؟

وإذا وقف فريق في الأمَة يطالب بدم عثمان ، وفريق آخر يَدْحض ويقاوم هؤلاء المطالبين ، واشتبك الفريقان في معارك مسلحة فأين الدولة آنئذٍ .. أتجلس في شرفة الملعب لتتفرج على المذبحة .. ؟ وما مصير الإسلام كدين .. ؟ وما مصير المسلمين كأمَّة .. ؟

دارت على ذلك كله خواطر "الخليفة" واتخذ قراره سريعاً ، فأمر موكبه الهادر من المدينة أن يلوي زمامه شطر البصرة .. وعندما شارفوا تخُومها نزلوا هناك بمكان يسمَّى "ذا قار" ..

* * *

وسرعان ما تحققت ظنونه وصدَق حَدْسه ، فإن موكب السيدة عائشة لم يكد يستقر في البصرة حتى وقع صدام مُروِّع بينه وبين حشود كبيرة من أهل البصرة أبوا أن يسلِّموا أقرباءهم وذويهم ممن اشتركوا في مقتل عثمان .

إنها إذن الحرب الأهلية التي حاذرها الإمام ..

وإنه وحده المسئول الأول والأخير عنها ..

أليس هو رئيس الدولة ؟ فإما أن يكون كفئاً لِفرض احترام القانون والدولة ، وإما أن يَدَعَ مكانه لآخر من الأكفاء ..

وليس هناك يومئذٍ أكفأ من أبي الحسن ، وإن العظائم كُفْؤُها العظماء !!

* * *

لقد اعتاد "الإمام" دائماً أن يتصرف تصرُّف "القدوة" .. فهو في كل حركاته ، وقراراته ، وأعماله يلتزم واجبات القدوة ..

إن كلماته ، وخطواته ، لتشكل طريقاً عامًّا للأجيال المقبلة على طول الزمن وعَرضه ، ومن ثمَّ فإن الشعور بتبعات القدوة أكثر الأشياء إملاء عليه وإيحاء إليه !!

في طفولته ، كان يسلك مسلك "القدوة" فلا يلعب لعب الأتراب ، ولا يلهو مع الصِّبية !!

وفي شبابه ، كان يسلك مسلك "القدوة" ، فقضاه شباباً طاهراً ، وحمَّله مسئوليات الرجال مُبكراً ..

وفي رجولته ، وخلافته ، أعطى كل عزمه وكل نفسه لما تتطلبه "القدوة" من تَبتُّل وصمود !!

وهو الآن وقد واجهته الفتن في مَوجٍ كالجبال ، لن يلقاها بمسئوليات "الخليفة" فحسب .. بل سيلقاها قبل ذلك بمسئوليات "القدوة" !!

أجل .. بمسئوليات "القدوة" الذي ستصبح اتجاهاته وقراراته طريقاً عامًّا ، وقانوناً عامًّا

لعصور مقبلة ، وأجيال وافدة ..

ولن نجد في حياة "عليّ" بكل عظمتها وعطائها ، أروع ولا أجزل من مواقفه في تلك الفتن المظلمة الرهيبة التي واكبتْ خلافته من أول ساعة إلى أن لقي ربّه ..

هنا نلتقي بِمُعَلِّمٍ كبير ، ليس من طرازه سواه .. "مُعَلِّمٍ" لم يكن يعنيه النصر على خصومه ، ولا تأمين خلافته وحكمه وسلطانه .

إنما كان يعنيه ـ لا غير ـ أن يعطي من حياته ومسلكه صورة مُشرِّفة من الرَّعيل الأول ، سمع دَوِيّ الوحي ، وصلّى وراء محمد ﷺ .. !!

أجل .. صورة مشرِّفة لمسلم ربّاه القرآن ، وقدوة صالحة لمواكب المسلمين القادمة مع الغيب القريب والبعيد .. !!

هذا هو الذي كان يعنيه .. وبعد ذلك ، ليكن ما يكون .. نصر ، أم هزيمة .. خلافة ، أم عَزل .. حياة ، أم موت ..

لا شيء بعد القدوة الصالحة ، ترنو له النفس ، أو تحوِّم حوله الرغبة !!!

وهكذا نَلْقَى "الخليفة" يتصرَّف تصرف "القدوة" .. الآن ، وكل آن .. اليوم ، وهو يواجه جيشاً تقوده "أم المؤمنين" و "الزبير" و "طلحة" ، وغداً وهو يواجه جيوش معاوية .. وبعد غد .. وهو يواجه الخوارج .. !!

* * *

عندما جاءته أنباء الصدام في البصرة ، بعث إلى أهل الكوفة يدعوهم لنصرته ، فلمّا وفدوا عليه ، زلزلوا الأفق بصياحهم ، وَمَلَئوه بسيوفهم المشرعة ، وراحوا يتعجلون "الإمام" ليواجه بهم جيش البصرة بقيادة طلحة والزبير .

وهنا تجلّت فطنة الإمام ونور بصيرته ، فلقد استبان من الحماس المشبوب لأهل الكوفة ، أنهم كانوا على وَشك أن يخرجوا بأنفسهم مسلحين إلى البصرة ، لينضموا إلى المقاومة المسلحة التي هَبّتْ هناك في وجه طلحة والزبير .

ذلك أنه إذا كان من أهل البصرة من اشترك في الثورة على الخليفة الراحل "عثمان" فإن في أهل الكوفة من اشترك أيضاً ، والآن وقد رأوا أنفسهم في مَهبِّ العواصف ، فقد تنادَوْا بالنصرة ، وتلاقَوْا على الحميَّة ..

فوضْعُ هذه القوات الثائرة تحت سلطة القانون والدولة كان عملاً حكيماً وحصيفاً ..

* * *

رأى "أمير المؤمنين" حماس أهل الكوفة ، فأراد أن يهديهم سواء السبيل ، وراح يعلّمهم أنَّ الحقّ يُدرك بأسباب كثيرة ، آخرها امتشاق الحسام .. وأنهم إذا فرض عليهم أن يخوضوا قتالاً ، فلابدّ من أن يكون مشروعاً وعادلاً .. وهو لا يكون كذلك حتى يستفرغ الجهد في إحقاق الحق عن طريق الإقناع والسلام ..

هناك دعا ـ القعقاع بن عمرو ـ وأرسله بغصن الزيتون إلى أم المؤمنين ، وطلحة ، والزُّبير ..

وفي البصرة بدأ "القعقاع" بمحادثة "أم المؤمنين" ، ثم جاء "طلحة" و "الزبير" فعقدوا اجتماعا طال فيه الحوار .

وندعُ "ابن كثير" المؤرخ الكبير ، ينقل إلينا بعض فقرات هذا الحوار .

القعقاع : يا أم المؤمنين ، ما جاء بكِ إلى هذا البلد ؟

أم المؤمنين : الإصلاح بين الناس ..

القعقاع : وأنتما - طلحة والزبير - ما جاء بكما ؟

طلحة والزبير : الإصلاح بين الناس ؟

القعقاع : فأخبروني كيف يكون هذا الإصلاح ؟

طلحة والزبير : يكون بالثأر لعثمان ، وقتل قاتليه ..

القعقاع : لقد قتلتما قتلَته من أهل البصرة ، وأنتما قبل قتْلِهم أصوب نهجاً منكم بعد قتلِهِم ، لأنكم قتلتم ستمائة ، فغضب لهم ستة آلاف .

وها أنتم أولاء تطلبون أحد القتلة وهو - حرقوص بن زهير - فلا تقدرون على إدراكه ، لأن ستة آلاف يشايعونه ويحمونه .. أفلا تعذرون - أمير المؤمنين عليًا - إذا هو أخَّر قتل قتلة - عثمان - إلى أن يتمكَّن منهم ؟

إن الكلمة في جميع أقطار الإسلام مختلفة ، وإن خَلقاً كثيرين من ربيعة ومُضَر . قد تجمَّعوا ليشعلوها حرباً ضروساً .. !!

أم المؤمنين : وما ترى يا قعقاع ؟

القعقاع : أرى أن تؤثِروا العافية ، وتعُطوا البيعة ، وأن تكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً ، ولا تعرضونا للبلاء فنتعرضوا له !!

وانتهى الحوار - كما يحدثنا ابن كثير - باقتناعهم بمنطق القعقاع ، واتفاقهم على أن يجيء الإمام عليّ إلى البصرة ليتم لقاء السَّلام .

* * *

عندما رجع "القعقاع" إلى "الخليفة" وأنبأه بما كان ، طار فؤاده فرحاً ، ولم يكن على وجه الأرض ساعتئذ أسعد منه ولا أهنأ ..

لقد حُفظت دماء المسلمين فلن تُراق .. وليس مثل ذلك شيء يفيء على روح "الإمام" السعادة والغبطة .

وخطبته التي ألقاها على جنده ساعتئذٍ ، تنقل إلينا أفراح نفسه ، وحبور ضميره ..

لقد راح يستعرض لهم الجاهلية بخصوماتها العاتية وحروبها الضارة ، حتى جاء الإسلام فألَّف بين القلوب ، وآخى بين البَشر ، وجعل الناس سواسيةً كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

وذكَّرهم بتلك الوحدة الباهرة التي جمعت المسلمين من كل مكان بإمرة رسول الله ﷺ ..

ثم بإمرة خليفته من بعده "أبي بكر الصديق" ، ثم بإمرة أمير المؤمنين "عمر" ، ثم بإمرة خليفة المسلمين "عثمان" ، وختم حديثه قائلاً ، وكأنما كانت عيناه إذ ذاك على معاوية ..

« ... ثم حدث هذا الذي جرى على الأمة .. أقوام طلبوا الدنيا وأرادوا للإسلام أن يرجع القهقرى .. ولكن الله بالغٌ أمره .. ألا إني مُرتحِلٌ غداً ، فارتحلوا معي ..

ولا يَرتحلْ معي أحد أعان على قتل عثمان ولو بشَطر كَلِمَة » !!

إنه "الرجلِ القدوة" هو الذي يتحدث ، وإنه لَيَتَّخِذ ، من الكلمات ومن المواقف ما يزيد الحقّ نفوذاً ، والعدل رسوخاً ، والفضيلة ازدهاراً .

* * *

ورحل أمير المؤمنين إلى البصرة بمن معه من صحبه وجُنده .. وحطّوا رحالهم هناك حيث أخذ كل فريق يتهيأ لإجراء الصلح ..

ولكنْ كانت هناك عيون لا تنام ، ومؤامرات لا تغفو .. والله وحده يعلم حقيقة القُوى المخبوءة التي حرّضت تلك العيون ونسجت تلك المؤامرات ، وغيّرت اتجاه الرياح !

التاريخ يحدثنا ـ فيما يُحدث ـ أن قتلة "عثمان" حزموا أمرهم على إفساد هذا الصلح ، معتقدين أنه سيتم على حساب رءوسهم ودمائهم ، فهل كان ذلك كذلك فحسب .. ؟ أو كانت هناك قوى غير منظورة لها في اشتعال النار هَوًى ومصلحة .. ؟

على أيّة حال ، فإن فجر اليوم الذي ضُرب موعداً لبدء المصالحة لم يكد يبزغ حتى كان ألفا رجل مِنْ قتلة عثمان يقتحمون خيام جيش البصرة الذي يقوده طلحة والزبير ، ويعملون سيوفهم فيهم وهم نائمون ..

ونهض الجميع إلى سيوفهم .. ولم يكن هناك مجال لإزالة اللَّبْس وتفنيد المؤامرة ، ووقف الفتنة ، فقد ظن أهل البصرة أن حديث الصلح كان خُدعة .

وهكذا الْتقى الجيشان في موقعة "الجمل" ، على الرغم من كل ما حاول الإمام أن يُنقذ به الإسلام !!

* * *

مضى القتال حامياً عنيداً ..

ومع كل رأس يميل ، أو معصم تُبتر ، أو ساق تقطع ، بل مع كل قطرة دم تسيل ، كان قلب "الإمام" ينخلع ويذوب ..

لقد كان يُسْكِرُه الكرُّ والفرُّ في صراعه مع المشركين .

أما اليوم ، والقاتل والمقتول أبناء دين واحد ، وهو الخليفة المسئول عن هذه الأمّة بكل دمائها وأرواحها ، فمن يُجيره من هذا الموقف ؟ من يجيره ؟

لكنه حتى وهذه الأهوال كلها تحيط به ، لا يفقد شرف البطولة وعظمة النفس .. !

ففيم تقتتل هذه الألوف من المسلمين ؟

أليس بعضهم يقاتل من أجل "عليّ" ، وبعضهم الآخر مع "طلحة والزبير" .. ؟

إذن ليبرز طلحة والزبير وعليّ معاً .. حيث يسوُّون مع أنفسهم وحدها الحساب على أيّ صورة ، فيقف جريان تلك الدماء الغالية .

هناك دفع جواده وسط صفوف الجيش المقاتل له ، ونادى :

ـ إليَّ يا طلحة .. إليَّ يا زبير !!

وخرجا إليه ..

وتوسط الثلاثة الصفوف المتلاحمة كالطوفان .

وصاح في "طلحة" صيحة احتشد فيها كل ما ورَّثه آباؤه من شرف ونخوة : « يا طلحة .. أخبَأْتَ عِرسَك في البيت وجئت بعِرس رسول الله تقاتل بها » .. ؟!!

وزأر الأسد زئيراً هزَّ أرجاء الأفق ، وسقط المطر فجأة .. وكأنما هي دموع السماء هَزَّتها روعة الكلمات وأساها .. !!

ثم التفت صَوْب الزبير :

« .. وأنت يا زُبير ..

أتذكر يوم ـ كذا ـ عندما رأيتني مُقبلاً على رسول الله ﷺ فضحكت لي ..

فسألك الرسول : أتحبه يا زبير ؟

فقلت : نعم ..

فقال لك : أما إنك لَتقاتِلنَّه وأنت له ظالم » ..

كانت الكلمات تحتشد في فمه ثم تنفرج عنها ثناياه في مثل ألق الشمس وعنفوان القَدَر .

وصاح "الزبير" :

«أجلْ .. ولقد ذكَّرتني بما كنت قد نسيت » .

وألقى سيفه إلى الأرض ، وراح يختلج بين الصفوف ودموعه تبلِّل الأرض أمامه .. وعاد "عليّ" إلى صفوف جنده ..

وغادر "طلحة" أرض القتال .. وغادرها "الزبير" ..

غادراها بعد أن سمعا من "الإمام" ما سمعا ..

وبعد أن علما أن "عمَّار بن ياسر" يقاتل في جبهة الإمام "عليّ" ، وتذكَّراً ما كان الرسول قد قاله ذات يوم لعمار :

«تقتُلك الفِئَةُ الباغية » !!

بيد أن الأضغان المريبة لم تدعْهُما ليذهبا في سلام ، فأمَّا الزبير فقد تربصت به في الطريق عصابة آثِمَةٌ قتلته .. !!

وأمَّا طلحة ، فلمَّا يكد مروان بن الحكم ـ الأموي ـ يعلم بعزمه على الانسحاب من القتال حتى تربَّص به ورماه بسهم أنهى حياته !

* * *

لم يبقَ لجيش البصرة من قائديه أحد ..

لقد ذهب عنه طلحة ، والزبير .. بل لقد ذهبا عن الدنيا كلها إلى ربهم الغفور الرحيم .

هنالك لم يجد الراغبون في استمرار القتال سوى "أم المؤمنين" في هودجها ، فوق ظهر الجمل الذي كانت تمتطيه مشرفة على القتال ..

ورأى الإمام أن خصومه قد اتخذوا من الجمل كعبة أحاطوا بها .

وبدا له أن نهاية المعركة ووقف الدماء المهراقة ، منوطان بنهاية هذا الجمل .

وأشير عليه ، أو أشار هو على نفسه أن يُرمى الجمل بسهم يجهز عليه .. وأوصى بعض أصحابه وجنده ، أن يكونوا على أقرب قُرْبٍ مُستطاع من الجمل ، حتى إذا عُقر وسقط ، سارعوا هم إلى هودج السيدة عائشة فأحاطوه بأرواحهم ، وتلقَّوه قبل أن يسقط على الأرض فيصيبها سوء .

رجل .. وبطل .. وقدوة .. فماذا يُنتظر منه غير هذا الصنيع .. ؟!

ونُفذت الخطة بنجاح ..

وانتهت المعركة ، ووقف القتال .

ودعا إليه "محمد بن أبي بكر" ، فأمره أن يصحب أخته أم المؤمنين عائشة إلى دار أُعِدَّت لاستقبالها ريثما تتهيأ لها وسائل العودة إلى مكة فالمدينة في أمن ، وإكرام ، وسلام .

ثم وقف "الإمام" بنفسه وسط جنده وأصحابه ليتلو عليهم قراره الجديد :

« .. لا تتَّبعوا موليا ..

و تُجْهِزوا على جريح ..

ولا تنتهبُوا مالاً ..

ومَن ألقى سلاحه فهو آمن ..

ومن أغلق بابه فهو آمن » ..

يقول المؤرخون : (١)

« فكان أتباع الإمام يمرّون بالذهب والفضة ، فلا يعرض لهما أحد » ..

لقد نفذوا أمر الإمام في مرارة وضيق . أو هكذا كان شأن بعضهم على الأقل .. مما جعلهم يسألون الإمام :

ـ كيف حلَّ لنا قتالهم ، ولم يَحلَّ لنا سَبْيُهُمْ وأموالهم ؟

فأجابهم الإمام :

« ليس على الموحِّدين المؤمنين سَبْيٌ .. ولا يُغْنَمُ من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه» ..

كان "الخليفة" يعلم أن نهيَهُ هذا سيؤلب ضدَّه بعض مؤيديه من ضعاف الوازع .. ولكن لينفضَّ عنه الناس أجمعون إذا كان إيثارُه الحقَّ سيظلُّ قصده وسبيله !!

* * *

وانتهت هذه الجولة بانتصار أمير المؤمنين .

ولم يكن الانتصار العسكري يمثِّل سوى الحظ الأدنى في هذا الانتصار الكبير .. أما

---

(١) الأخبار ، الطوال ، لأبي حنيفة الدينوري .

الحظ الأوفى فيه ، فكان انتصار حقّه ، ومبادئه .

فانسحاب طلحة والزبير من القتال في أَوْج احتدامه ، جاء اعترافاً منهما بأن "عليًا" مع الحق ..

وندمُ "أم المؤمنين" فيما بعد على الزجّ بنفسها في هذا الموقف يشكلُ اعترافاً بأن "عليًا" على الحقّ .

وهذا هو النصر الأهمّ الذي ينشرح له صدر الإمام .

إن كل ما يرجوه ويطمح إليه ، أن يقف بجانب الحقّ ، وأن يفهم الناس عنه ذلك ، ليكونوا له عوناً على تقديس الحقّ . وإن كل ما يرجوه ويطمح إليه ، أن يظلّ أميناً على واجبات "القدوة" والتزاماتها ، وأن يفهم الناس عنه ذلك أيضاً ، لينفعوا بهذه القدوة في تشكيل حياتهم . ولقد واجه الموجة الأولى من موجات الفتنة الضارية بجأش البطل ، وأناة الحكيم ، وورَع القدوَة .

لننظر هذا المشهد الأخير من مشاهد موقعة الجمل .

لقد كان يجلس في داره بعد انفضاض المعركة ومعه أصحابه ، حين دخل عليه أحد أتباعه يقول :

عمرو بن جرموز قاتل "الزبير" بالباب يستأذن في الدخول .. وأذن "الإمام" بدخوله ..

ودخل "القاتل" مَزْهُواً فخوراً ، يظن أن الخليفة سَيَهشّ له ، ويستقبله استقبال الأبطال .

لكنه لم يكد يواجه الإمام حتى صرخ في وجهه :

ـ أهذا الذي تحمله سيف الزبير .. ؟

قال وقد هزمت غروره صرخة الإمام :

ـ نعم هو .. سلَبتهُ منه بعد أن قتلتهُ !!

فأخذه منه "الإمام" بيمينه .. ثم أمسكه بكلتا يديه ورفعه في خشوع إلى فمه .. ثم قبّله في حنان وحُزن ، وقال ودموعه تسيل على وجنتيه :

« سيف طالما ـ والله ـ فَرَّجَ به صاحبهُ الكرَب عن رسول الله » !!

ثم صوّب إلى القاتل نظرات ملتهبة وقال له :

« أما أنت ، فأبْشر يا قاتل ابن صَفِيَّةَ بالنار » ..

وخرج "عمرو بن جرموز" يتعثر في خِزيه ، وخيبة أمله ، ويقول :

« عجباً لكم .. نقتل أعداءكم ، وتبشروننا بالنار !! » .

تلك عظمة ربيب الوحي ، وسابق المسلمين .. تلك عظمة الرجل ، والبطل .. تلك عظمة الخليفة ، والقدوة ، وإنها لعظمة لن تكفّ عن توكيد ذاتها ، ما دام صاحبها حيًا يُمارس العظائم ، ويصوغ المكرُمات ..

فإلى مشاهدَ أُخرى لنرى مِنْ أمرها عجباً .

تذكرون تلك الرسالة وذلك الرسول اللذين أرسلهما معاوية إلى أمير المؤمنين .

الرسالة ورقة بيضاء فيها سطر واحد مكتوب ، وهو :

« من معاوية بن أبي سفيان ، إلى عليّ بن أبي طالب » هكذا « عليّ بن أبي طالب » لا غير ... دون أيِّ ذكر لِلَقبِهِ ... فلا خليفة المسلمين ، ولا أمير المؤمنين !!

بل إن وَضْعَ اسمه واسم أمير المؤمنين في مقابلة كهذه تومئ إلى التنابُز القبلي والجاهلي في هذا الخطاب ..

فكأنه يقول له :

أنا ابن أبي سفيان .. وأنتَ ابن أبي طالب وسننظر أيّ الابنين أعلى مقاماً ، وأشد ساعداً .. !!

غفر الله لمعاوية : فما كان أغناه عن هذا الذي لجَّ فيه ، وتهالكَ عليه ..

لقد رفع في الشام ـ كما قال رسوله لعليّ ـ قميص عثمان ، حيث حشد تحته خمسين ألف مقاتل خاضبي لِحاهُم بدموع أعينهم ، رافِعيه على أطراف الرماح ، قد عاهدوا الله ألا يَشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قَتَلة عثمان ، أو تلحق أرواحهم بالله .. !!

فِيمَ كل هذا .. ؟ ولِمَهْ .. ؟

حَقاً إن قتل الخليفة الشهيد "عثمان" كان أبشع جريمة ارتكبت في تاريخ المسلمين حتى ذلك اليوم .

ولا تتمثل الجريمة في اغتيال الخليفة الشرعي فحسب ، وإن يكُ ذلك كافياً لدمغها بالجريمة وبالبشاعة .. إنما تتمثل أكثر وأكثر في الطريقة التي تمَّ بها الاغتيال .

تلك جريمة لا مكان للحديث عنها الآن .. وقد وَجَدَتْ مكانها في كتابنا عن "عثمان" ، أما هنا ، فحسْبنا أن نسأل : فيمَ هذا الصُّراخ كله في وجه "عليّ" ـ أين دمُ عثمان . ؟

إننا لا نلوم ، بل نحَيِّي كل صوت صادق نزيه ارتفع مطالباً بدم عثمان !

وإن الطريقة التي اعتُدي بها على حياة الخليفة ، وعلى كرامة الدولة في شخصه ، لتجعل الحجر الأصمَّ ينطق ويضيح : اقتلوا قتلة عثمان ..

ولكن : هل كان نهج "معاوية" هو النهج الصحيح الأمثل لإنزال القصاص بأولئك القتَلة . ؟

أكان طريق القصاص أن يمتنع أولاً عن البيعة للخليفة الجديد ، الذي اختاره المهاجرون والأنصار في المدينة ، ثم دخل المسلمون في بيعته أفواجاً من كل الأمصار والأقطار .. ؟

أكان طريق الثأر لعثمان أن يمتنع معاوية عن البيعة ويتمرد على الدولة في تلك الظروف المزلزلة التي لا تتطلب شيئاً كما تتطلب رَأْبَ الصَّدع وجمع الكلمة .. ؟

أكان طريق الثأر لعثمان ، أن يطوف بقميصه بلاد الشام كلها ، غارساً في قلوب الناس أن "علياً" هو الذي أعان على قتل "عثمان" بالأمس .. وهو الذي يؤْوي قاتليه اليوم ..

أكانت آية ولائه وحبه لعثمان ، أن يجعل من قميصه المضمَّخ بدمه ـ راية ـ يبعث تحتها كل

غرائز الجاهلية ، ويدير تحتها أتعس حرب أهلية تزلزل الإسلام وتُفني المسلمين .. ؟

مرة أخرى ، يغفر الله لمعاوية .. فما كان أغناه عن هذا المنزلَق الوَعر ، والهُوَّة الفاغِرة !!

* * *

إن جميع المسلمين الراشدين وقفوا بعد مقتل الخليفة يطالبون باحترام دمه ، والقصاص له ..

إن ذلك كان يمثِّل أيضاً احترام الدولة والقصاص لحرمتها وهيبتها . "الإمام عليٌّ" نفسه كان يطالب بدم "عثمان" ولكنه ـ وقد صار على رأس الدولة ـ فإنه لم يعد مجرد مطالبٍ بالدم .. بل صار السُلطة التي عليها أن تنزل القصاص .

ولمّا كان المشتركون في قتل عثمان والمحرضون عليه ، ألوفاً ، وليسوا عشرات ، أو آحاداً .. ولمّا كانت فتنتهم المسلحة لا تزال قائمة ونامية ـ فضلاً عن المضاعفات الجديدة الخطيرة التي طرأت على الدولة ممثلة في معركة الجمل ، وفي تمرُّد معاوية وأهل الشام ـ فإنه لم يكن ثمة فرصة لإنزال هذا القصاص إلا بإجادة التوقيت المحكم لفرض كلمة القانون وسط هذا الجو المضطرب وتلك الفوضى .

و "عبد الله بن عباس" ابن عم الإمام عليّ ، وأحد قواده في حروبه كلها ، طالب أيضاً بدم عثمان ، بل قال في ذلك كلمة تغني عن كل مقال في ذلك المجال .

قال رضي الله عنه :

« لو لم يطالب الناس بدم عثمان لأمطرت السماء عليهم حجارة » !!

ففيم إذن كل هذا الاتهام لأمير المؤمنين عليّ ؟ وفيم كل هذا التحريض على عصيانه وقتاله . ؟

هاهو ذا ـ معاوية ـ بالشام لا يضيع لحظة من وقته في التجهيز لمعركة كبرى . هاهو ذا يُثير الجموع ضد الإمام ، فأين الإمام الآن ؟

انظروا .. هاهو ذا قد رحل عن البصرة ، وسار بأصحابه حتى نزل "الكوفة" .

لم تشغله المفاجآت الجديدة ولا الأخطار الماثلة عن فضائله ، فراح يمارسها بطريقته الفردية ..

بدأ ببيت المال فأخرج كل ما كان تحت سقفه من أموال ، وقسَّمها على مستحقيها ..

ويقترح عليه بعض مُرافقيه أن يستأني في الأمر ، وأن يستبقي من المال ما سيحتاج إليه ليتألف به رؤساء العشائر والجماعات ، فيرفض .

ثم يمعن في غايته حتى إذا فرغ بيت المال ، يأمر الإمام أن تُنضح أرضه وتغسل بالماء ، حتى إذا تم ذلك ، قام فصلّى فوق أرضه المغسولة ركعتين !!

كانت هذه الصلاة في بيت المال بعد نضح أرضه بالماء رمزاً لمعنى جليل .

كان إيذاناً بعهد جديد تسيطر فيه الآخرة على الدنيا ، ويسترد الورع والتقى نفوذهما على الدولة ، وعلى المجتمع ، وعلى الأنفس والأفئدة جميعاً !!

ثم دُعِيَ لينزل قصر الإمارة .. قصر كبير ترتفع هامته في شموخ وفتنة ـ فلا يكاد يبصره

حتى يُوَلّي مدبراً وهو يقول :

« قصر الخَبَالِ هذا ، لا أسكنه أبداً » !!

ويُلح عليه أهل الكوفة أن ينزل به ، فهو أرحب ، وأنسب ، فَيُصِرُ على رفضه ويقول: « لا حاجة لي فيه : إن عمر بن الخطاب كان يكرهه » ..

ويمشي في أسواق الكوفة ، وهو خليفة المسلمين ، فيرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقي بالشيخ المسنّ الكهل ، فيحمل عنه حاجته ، ويتحرّجُ أصحابه مما يَرَوْن ، فيقتربون منه : يا أمير المؤمنين . ولكنه لا يدعهم يُتمُّون حديثهم ، بل يتلو عليهم قول الله تعالى :

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ ولاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

ويشتري حاجات أهله وبيته ، ويحملها بيديه ، فإذا اقترب منه بعض مُرافقيه ليحملوها عنه أبى وقال وهو يبتسم لهم :

« أبو العِيال أحقُّ بحمله » !!

* * *

ويرتدي "الخليفة" جلباباً اشتراه من السوق بثلاثة دراهم .. ويركب حماراً ، وقد تدلَّت على جانبيه ساقاه ، وكأنه واحد من فقراء البادية .. ويعزم عليه أصحابه أن يجعل وسيلته للتنقل جواداً يليق بأمير المؤمنين .. فيجيبهم قائلاً :

«دعُوني أُهِنْ هذه الدنيا » !!

* * *

أجل .. ذلك كان طريقه . أن يقهر كل إغراء الدنيا ومباذخ السلطان . وأن يعيش كما كان رسوله ومُعلمه يعيش . في تواضع النبوّة ، لا في بهرجة الملك .. وفي انتظار الآخرة ، لا في الرُّكون إلى الدنيا .

ولقد أحسن وصفه "عمر بن عبد العزيز" رضي الله عنه حين قال :

«أزهَدُ الناس في الدنيا عليّ بن أبي طالب » ..

كما وصفه "الحسن البصري" رضي الله عنه حين قال :

«رَحِمَ الله عليًا كان رهباني هذه الأمّة » .

* * *

رهباني هذه الأمة ، مقيم هناك بالكوفة ، يعيش عيشة البسطاء الوُدعاء ، ويعبد ربه عبادة القديسين الأولياء ،ويحمل مسئوليات دولته وأمّته في مثل عزم الأنبياء .

ولقد دخلت جميع الأقطار المسلمة في بيعته ، عدا الشام ، فقد كانت بها دنيا هائلة من المؤامرات تتحرَّك ضده ، وتتهيأ لفرض القتال عليه .. !!

معاوية بالشام ، يحض الناس على سَبِّ الإمام وشَتْمه ..

والإمام بالكوفة ، ينهى في حسم وقوة عن شَتْم معاوية ، ويقول لأصحابه :

« ... قولوا : اللهم احقِنْ دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم » .. !!

معاوية بالشام ، بين القصور الباذخة ، والمطاعم الرافهة ، والأموال التي تأتي بغير حساب ، وتُنفق في خدمة طموحه بغير حساب .

و "عليّ" بالكوفة ، يلبس قميصاً بثلاثة دراهم ، ويأكل الطعام الجَشِبَ اليابس ، ويوزع أموال المسلمين على المسلمين في عدالة لا تعرف الميل ، وفي ورع لا يعرف الهوى !!

* * *

وأخذت وفود المسلمين تغدو وتروح بين الإمام في العراق ، ومعاوية في الشام .

منهم مَنْ يبحث عن الحقّ ليهتدي إليه ويقف إلى جانبه ..

ومنهم مَنْ يبحث عن المغنَم الأكثر ، والفرصة الأحسن .

كانت الشام تسخو بالأماني والوعود ، كما كانت تسخو بالأموال والعطايا ..

وكان العراق يهتف بكلمة واحدة :

﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ .

ويعد هذا ، لا أمانيّ ولا وعود .. لا رشوة .. ولا مغامرة بأموال الأمة ـ كما يفعل خُصومه ـ مهما تكن المخاطر والعواقب .

وحين يقترب من الإمام بعض أصحابه ، يرجونه أن يتألَّف ببعض المال هؤلاء الذين يستهويهم معاوية بأعطياته الغامرة ، يصيح بهم الإمام :

« أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور » ؟

إيه يا تلميذ محمد !!

إيه يا بن عم الرسول !!

مَن سواك في هذا المقام يستطيع أن يأخذ موقفك هذا ، ويقول كلماتك هذه ؟!

ويقف ـ معاوية ـ وسط الوفود الزائرة ـ يخطبهم تحت قميص عثمان ، فيتَّهم الإمام بالتحريض على قتله وإيواء قتلته .

ويقف الإمام في العراق يخطب الوفود الزائرة فيلخص الفتنة كلها في كلمات تناهت في الصدق والوضوح وعفة المقال :

« أما بعد ، فإن الله بَعث نبيه ﷺ ، فأنقذ به من الضلالة ، وحفظ به من الهلكة ، وجمع به بعد الفُرقة ، ثم قبضه الله إليه وقد أدَّى ما عليه ..

ثم استخلف الناس أبا بكر ..

ثم استخلف أبو بكر عمر ..

ولقد أحْسَنَا السِّيرة ، وعدَلاَ في الأمَة ..

وقد وجَدْنا عليهما أن توليا الأمر دوننا ونحن آل الرسول وأحقّ بالأمر ، ولكنا غفرنا ذلك لهما ..

ثم وَلِي أمر الناس عثمان ، فعمل بأشياء عابها الناس عليه ، فسار إليه ناس فقتلوه ، ثم

جاءني الناس وأنا معتزل أمرهم ، فقالوا لي : بايع ، فأبيتُ عليهم ..

ثم عادوا فقالوا لي : بايع ، فإن الأمّة لا تَرْضَى إلا بك ، وإنّا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس ، فبايَعْتُهم .

فَلَمْ يَرُعْني إلا شِقاق رجلين قد بايعاني ـ يقصد طلحة والزبير .

وخلافُ معاوية إيّاي .. هذا الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ، ولا سَلفَ صِدْقٍ في الإسلام ..

طليق ابن طليق .. دخلا في الإسلام كارِهَيْن مُكْرَهَيْن .

ـ يعني معاوية وأبا سفيان ـ

إني أدعوكم إلى كتاب الله ، وسُنّة نبيِّكم ..

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم » .. !!

* * *

هذه هي القضية ، يعرضها الإمام في وضوح ..

فلقد أفْلتَ الزمام فعلاً من يد الخليفة الراحل عثمان ، بسبب ثقته المفرطة في بعض أقربائه من بني أُمَيّة الذين لم يُحسنوا قطّ الارتفاع إلى مستوى مسئولياتهم كبطانة للخليفة ورُعاة للأمّة .

ولطالما نصحه الإمام وحذّره العواقب ..

ولمّا وقعت الواقعة كان أكثر الناس همًّا وكرباً ..

وراح يهتف ويصيح :

« اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان .

اللهم إني لم أقتُل ، ولم أُمالِئْ .

اللهم العَنْ قتلة عثمان » .

* * *

لكنّ أهل الشام ـ ومعظمهم يومئذٍ من المسلمين الجُدد الذين لم يَرَوا عليًّا ولا يعرفونه ـ رانتْ على أفئدتهم دعوى معاوية .. ولم يجدوا هناك من ينبئهم بحقائق الأمور .

لم يجدوا من يقول لهم : إن قتل عثمان جريمة لا تصدر عن دين "عليّ" ولا عن خُلُقه .

لم يجدوا من يقول لهم : إن "عليًّا" كان "مُحدَّد الإقامة" في المدينة ، وإن الثوار جاءوا من بلاد شتّى ونائية .. فمتى اجتمع بهم في بلادهم ؟ ومتى أخرجهم منها للثورة .. ؟ ومتى حرّضهم على القتل .. ؟

لم يجدوا من يقول لهم : إن "عليًّا" لم يكن يملك أيّ قوة يستطيع بها مواجهة عشرة آلاف ثائر ، رابطوا في المدينة وحاصروها .

وبرغم ذلك ، فقد استعان عليهم بمنطقه الأخّاذ ، وحجته المقنعة ، حتى استجابوا

لنُصحه بمغادرة المدينة والرجوع إلى بلادهم . ولقد غادروا المدينة فعلاً عائدين إلى أمصارهم ، لولا أن صادفوا في الطريق رسولاً يحمل كتاباً زوّره "مروان بن الحكم" على الخليفة ، ومَهره بخاتمه من غير أن يعلم .. وكان الكتاب أمراً بقتل زعماء الثوار جميعاً .. وكان ـ مروان ـ آنئذٍ بمثابة رئيس ديوان الخلافة ، فعاد الثوار إلى المدينة أشد غيظاً وعُدواناً !

أجل .. لم يجد أهل الشام مَن يقول لهم ذلك ، ولا مَن يقول لهم : إنه عندما أحكم الثوار الحصار حول دار "عثمان" ومنعوا عنه الماء ذهب "عليّ" بنفسه يحمل قربة ماء على كاهله ، ولما حاولوا منعه صرخ فيهم قائلاً :

« والله إن الكفار من فارس والروم لا يفعلون فعلكم ..

إنهم لَيَأسِرون أعداءهم ، فيطعمونهم ، ويسقونهم » .. !!

وناوَشهم وناوشوه ، حتى سقطت عمامته على الأرض ، وهو لا يبالي إلا بأن يبلغ بالماء "عثمان" ولقد فعل وأوْصَلَ قربة الماء إليه ..

لم يجد أهل الشام من يقول لهم : إن "الإمام" دعا ولدَيْه وقُرَّة عينيه ـ الحسن والحسين ـ وأعطى كلاً منهما سيفه ـ وأمرهما أن يقفا حول سرير "الخليفة عثمان" وهو يرى الحصار الرهيب حول الدار ، ويدرك أنه يقدّم ولديه للموت لا محالة .. !!

لم يجدوا مَنْ يقول لهم : إنه عندما عاد "الحسن والحسين" يخبرانه بمقتل الخليفة فعل بهما ما لم يفعل بهما طوال حياته ، إذ عنفهما تعنيفاً شديداً ، وعجب لهما : كيف قُتل "عثمان" وهما لا يزالان يحملان رأسيهما على أكتافهما :

« إذا لم تستطيعا أن تمنعا عنه ، فكان عليكما أن تموتا دونه » .. !!

لم يجد أهل الشام مَنْ يقول لهم : إن "عليًا" كان يرى الأخطاء الجسيمة .. وكان يؤلمه ويفزعه تسامح الخليفة تجاهها .. ولكنه لم يكن ليرى اغتيال الخليفة علاجاً ـ أيًا كان هذا الخليفة ـ فما بالكم والخليفة المقتول أخوه في الله ، وزميله في الغزوات والمشاهد ، مُجهِّزُ جيش العُسْرة بخالص ماله ، وصهره ـ عديله ـ إذ كان كل منهما ـ عليّ وعثمان ـ زوجاً لبعض بنات رسول الله ﷺ .. !!

لم يجد أهل الشام من يقول لهم ذلك ، ولا شيئاً من ذلك .

لم يجدوا إلا "قميص عثمان" ، وكان بعض المسلمين قد حصل عليه ، وحمله إلى معاوية بالشام ، حيث رفعه عالياً ، وحشد تحته خمسين ألفاً يلوِّحون بسيوفهم ورماحهم ، ويصيحون : يا لثَارَاتِ عثمان !!

* * *

تُرى لو لم يتبوأْ "عليّ" منصب الخلافة ، أكان معاوية سيحمِّله دَمَ عثمان .. ؟

كلا .. وإنما كان سيتجه باتهامه إلى الخليفة الآخر ، إلا إذا كان ممن يرضى عنهم

معاوية ويطمع في طَيِّهم تحت جناحيه .

لقد كان معاوية من الذكاء بحيث أدرك مصيره مع "عليّ" وقد أصبح خليفة للمسلمين .

من أجل هذا قرر أن يخوض معركة المصير .. مصيره هو .. لا مصير حقٍ ضائع ، ولا مصير عدالة مغموطة ، ولا مصير دم مطلول .. !

ومرة ثالثة ، يغفر الله لمعاوية ، فما كان ينبغي له أن يستخفَّ بمصائر الإسلام وبمقاديره إلى هذا المدى ، وإلى تلك الغاية .

* * *

قلت لكم : إننا نؤرخ للعظمة الإنسانية في نماذجها الباهرة .

وهأنتم أولاء تشاهدون عظمة "عليّ" في غمرة ذلك الصراع .

رأيتموها من غير أن أقول لكم : انظروها .. !!

ورأيتم نضاله النبيل والمستميت ليدرأ الخطر عن حياة ، كان يراها حياته .. وعن مصير ، كان يراه مصيره ..

فلنتابع رؤية بعض مشاهد عظمته ، إن لم نستطع متابعتها جميعاً .

* * *

لقد كان يعرف حقيقة دوافع معاوية وحوافزه .. ولقد وصف هُتافه بدم عثمان وصفاً بليغاً وجامعاً فقال :

« كلمةُ حَقٍّ ، أُريدَ بها باطل » .

ومع علمه بتلك الدوافع المريبة ، لم يألُ جُهداً في تجنيب المسلمين ويلات الحرب الأهلية ، فرضي ، وهو يعلم حقيقة دوافع معاوية ، أن يناقشه ويجري معه حواراً طويلاً لعلَّه يتوب ويرجع .

أرسل إليه ينبئه أن دم عثمان لن يذهب هدراً ، وسيتم القصاص الذي تفرضه الشريعة في وقته المعلوم ..

ذلك لأن مقتل الخليفة ، لم يتمثل في تسلُل اثنين ، أو ثلاثة ، أو عشرة ، حيث اغتالوه خفية وهربوا .. بل وقع الاعتداء على حياته وسط ثورة مُسلحة اشترك فيها عشرة آلاف ظلوا محتلين المدينة ومحاصريها أربعة أشهر ، لم يستطع معاوية خلالها أن يُرسل من جيشه الكبير المنظم فرقة أو فرقتين لتزجر الثوار ، وتنقذ الخليفة .

وهؤلاء الآلاف العشرة من الثوار لا يزالون يحملون السلاح .

فكيف يقدر "الإمام" أن يمسك بهؤلاء جميعاً ليحاكمهم .. ومتى ؟ في تلك الظروف التي مكّنت للفوضى وللدماء شرَّ تمكين .

فهلا أعطاه معاوية الفرصة ، فبايعه ووقف إلى جانبه بجيشه اللَّجب ليتمكن من انتزاع القتلة الحقيقيين من بين هذه الآلاف العشرة الذين كانوا يحمونهم ويمنعونهم ؟!

لو فعل "معاوية" ذلك .. ثم قصَّر الإمام وأغمض عن القتلة عينيه ، لأدان ساعتئذٍ نفسه

ولأدانه المسلمون .

لكنَّ معاوية ، لأمرٍ في نفسه ، راح يرفض كل محاولة للتفاهم والصلح ، معلقاً ذلك على تسليم قتلة "عثمان" .. وهو يعلم نبأ تلك الواقعة المشهورة .. عندما توسط بعض أهل الخير عند عليّ ، لتسليم قتلة عثمان ، وبينما هم يتفاوضون معه إذا عشرة آلاف مقاتل يحاصرون المكان الذي كان الحديث يجري فيه بين الإمام والوُسطاء .

وإذا هذه الآلاف العشرة تزلزل الأفق بصياحها (كلنا قتلة عثمان) !!

عشرة آلاف ـ سيوفهم بأيديهم ، وحناجرهم تدمدم (كلنا قتلة عثمان) .

ثم يقول معاوية للإمام : لا صلح إلا بعد أن تسلِّمني قتلة عثمان !!

ولماذا يتسلَّم هو قتلة عثمان ؟

أهو وَليُّ الدم .. ؟ كلا ، فأبناء عثمان أحقُّ منه بهذه الولاية ؟

وحتى لو كان وليَّ الدم ، أيظن نفسه لا يزال يعيش في النظام القَبلي ، يُقتل القتيل ، فتأخذ قبيلته الثأر أو الدية .. ؟

أوَ لا يعلم ـ أمير الشام ـ أنه يعيش في دولة عظمى ، وهي وحدها المسئولة عن فرض كلمة القانون .. ؟

الواضح أن "معاوية" بصياحه ذاك لم يكن يريد سِوَى إحراج الإمام وتأليب الثوار عليه ..

لم يَكفِه منهم أنهم قتلة عثمان .. فحاول أن يجعل منهم قتلة "عليّ" أيضاً .. !!

* * *

لكنَّ الرجل العظيم "عليًّا" سيظل يتصرف وَفْقَ فضائله .. وهاهو ذا ينشد السلام مرة أخرى ، بل مرات ومرات ..

أرسل إلى معاوية "جرير بن عبد الله" بكتاب منه .

وسافر "جرير" إلى الشام ، واجتمع بمعاوية ، وبعض أصحابه حوله ، سأله معاوية : ما وراءك ؟

فقال جرير :

« لقد اجتمع لعليّ أهل الحرمين ـ مكة والمدينة ـ وأهل المِصْرَيْن ـ البصرة والكوفة ـ وأهل الحجاز ، وأهل اليمن ، وأهل مصر ، وأهل عمان ، وأهل البحرين واليمامة ..

ولم يبقَ إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها ـ الشام ـ لو سال عليها سيل من أوديته لأغرقها ..

وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك » .

ودفع إليه كتاب الإمام ، فانظروا ماذا قال في كتابه الرجل الذي ينشد السلام بكل طاقته وعزمه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعد ، فإن بيعتي بالمدينة ، لَزمتْك وأنت بالشام ، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يَرُدَّ .. وإنما الشورَى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل فسمَّوْه إماماً ، كان ذلك لله رضاً .

فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطعن ، أو رغبة ، ردُّوه إلى ما خرج منه ، فإن أَبَى قاتلوه على اتِّباعه غيرَ سبيل المؤمنين ...

وإن طلحة والزبير بايَعاني ، ثم نقضا بَيْعتي ، وكان نَقْضُهما كَرَدِّهِمَا ، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله ..

فادخلْ فيما دخل فيه المسلمون ، فإنَّ أَحَبَّ الأمور إليَّ فيك العافية !!

إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله عليك .

وقد أكثرتَ في قتلة عثمان فَادْخُلْ فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكِم القوم إليَّ أحْمِلْك وإياهم على كتاب الله .

أما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن .. !!

ولعمري ، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنِّي أبرأ الناس من دم عثمان ..

وأعلم أنك من الطُّلقاء[1] الذين لا يَتَبَوَّءُونَ الخلافة ، ولا تُعرض فيهم الشورَى .

وقد أرسلتُ إليك وإلى مَن قِبلك جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايعْ .. ولا قوة إلا بالله » !!

* * *

هذا هو كتاب الإمام ، كما ينقله لنا نصر بن مُزاحم في كتابه "وقعة صِفِّين" ..

فهل ثمةَ منطق أعدل ، وأمثل من هذا المنطق ؟..

لننظر قوله لمعاوية : « إنَّ أحبَّ الأمور إليَّ فيك العافية » .

ولننظر قوله له : « وأما قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ـ أي البيعة للإمام ـ ثم حاكم القوم إليَّ ، أحملك وإياهم على كتاب الله » .. !

إن معاوية برغم تمرُّده ، ونكوصه عن البيعة ، وتأليبه الناس على الخليفة ، ودعوتهم لحربه .

معاوية ، برغم هذا كله ، يعرض عليه الإمام أن يكون "المدعى العام" في قضية عثمان .. !!

أفوراء ذلك نَصَفَةٌ ومَعْدَلة .. ؟

أوَ بعد ذلك تنازُل وتسامح .. ؟

لكنَّ "معاوية" كان قد بيَّت الأمر مع معاونيه ، فكان ردُّه على هذه الرسالة إمعاناً في

---

(١) الطلقاء هم كفّار قريش الذي خلّى رسول الله سبيلهم يوم فتح مكة قائلاً لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . ثم أسلموا يومها ، وبعدها .

اتهام الخليفة بقتل عثمان ، وإيغالاً في جمع الحشود المسلحة من أهل الشام تحت قميص عثمان .. !

كان بالمدينة جماعة من المهاجرين والأنصار آثروا الحياد .. وكان على رأسهم نفر من أئمة الصحابة ، أمثال عبد الله بن عمر .. وأسامة بن زيد .. وسعد بن أبي وقاص .. ومحمد بن مسلمة ..

وعندما هَمَّ الإمام بالخروج إلى البصرة قبل موقعة الجمل التي إليها دعاهم للخروج معه ، فاعتذروا .. وكانت حجتهم أن الله أمرهم بقتال المشركين ، أما والقتال اليوم سيدور بين مُسلم ومسلم ، فإنهم فيه لا يشتركون .

وآلم هذا الموقف بعض أصحاب "عليّ" ، فطلبوا منه أن يحملهم على الخروج معه بالقوة ، لكنه أبىَ ، واحترمَ حيادهم وقال:

"دَعُوهم وما اختاروا لأنفسهم" .

لم يكن امتناع هؤلاء الصفوة عن غَمْطٍ لحقّ "علي" أو لفضله .. وإنما كان للسبب الذي قدمنا .

قال سعد بن أبي وقاص :

« أعطِني سيفاً إن ضربتُ به المشرك قَطَع ، وإن ضربتُ به المسلم رجعَ ، وأنا أُقاتل معك » .

وقال عبد الله بن عمر :

« إني عاهدت ربي ألا أُقاتل من يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » .

وقال أسامة بن زيد :

« والله يا أمير المؤمنين ، لو كُنتَ في شِدْق الأسد ، لأحببتُ أن أكون معك فيه ، ولكني لا أحب أن ألقى بسيفي مسلماً أبداً » .

احترم الخليفة حياد إخوانه هؤلاء ، ولم يُحلْ بينهم وبين ما اختاروه لأنفسهم من مَسْلك ومُقام .

لكنّ "معاوية" في الشام ، لم يكفِهِ ما أعدَّ هناك من قوة ، فطمع في أن يكسب هؤلاء إلى صَفِّه ، وحسب أنهم قعدوا عن نصرة "الإمام" استرابةً منهم في حقه أو في سلامة قصده .

فأرسل إليهم رسله يغريهم بالوقوف بجانبه ، ويقوله لهم : أنتم أحقّ بالخلافة من عليّ .. !!

أرسل إلى سعد ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى محمد بن مسلمة .

وسرعان ما تلقى "معاوية" منهم لطمات جعلته يندم على ما فعل .

أما "عبد الله بن عمر" فقد أرسل إليه يقول :

"أما بعد ، فإن الرأي الذي أطمعكَ فِيَّ ، هو الذي صَيَّرك إلى ما صيَّرك إليه ..

إني ما تخلّفت عن ـ عليّ ـ لطعن مني عليه . فَلَعَمري ما أنا كَعَليٍّ في الإيمان والهجرة ، ومكانه من رسول الله ﷺ ونِكَايَته بالمشركين ..

ولكنْ حدث أمر لم يكن لي فيه من رسول الله عهد . ففزعتُ فيه إلى الحيدة ، فاكففْ

عنا نفسك » !

وأما "سعد بن أبي وقاص" فقدَ ردَّ عليه قائلاً :

« .. وإن هذا أمرٌ قد كَرِهْنا أوّله .. وكَرِهْنا آخره .. وأما طلحة والزبير ، فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما ـ والله يغفر لأم المؤمنين ما أتَتْ .. وما كنت لأقاتل عليًّا ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول له : أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبيَّ بعدي » .

وأما "محمد بن مسلمة" فقد كتب إلى معاوية يقول :

« .. وأما أنت ، فلعمْري ما طلبتَ إلا الدنيا ، ولا اتّبعْتَ إلا الهوى .. فإن تَنْصُرْ عثمان مَيتاً فقد خَذَلْتَه حيًّا ..

ولئن كنتُ أبصرتُ في الأمر خلاف ما تريد ، فما خرجت بذلك من نعمة ، ولا صرْتُ إلى شك ..

وإني لأدْرَى بالصواب منك » !!

* * *

كان من الخير لمعاوية أن يفيق على أصوات هؤلاء الثلاثة الكبار من أصحاب رسول الله ﷺ .. ولكنه أخفى رسائلهم هذه ومضى في الطريق الذي اختار ، والذي رفع فوق ناصيته قميص عثمان !!

* * *

أدرك "الإمام عليّ" أن معاوية مَزْهُو بجيشه ، وبقوة أهل الشام الملتفين حوله ، كما أنه لا يقدِّرُ قوة الإمام قدْرَها .

ورأى الإمام أنه إذا أنزل بمعاوية بعض بأسه ، وأراه بعض قوّته ، فقد يحمله ذلك على الطاعة ..

ومن ثمَّ رأى أن يزحف إلى الشام ، ويُصبّح معاوية بصيحة عابرة ، لكنها زاجرة .. ثم يستأنف الإمام بعدها دعوته إلى الصلح وإلى السلام .

* * *

غادر الإمام معسكر النُّخَيْلة بالكوفة .. وغادر معاوية الشام ، والتقى الجمعان في "صِفّين" .

وتُفاجئنا الساعات الأولى لهذا اللقاء بمشهد باهر من مشاهد "ابن أبي طالب" .. مشاهد عظمة نفسه وبطولة أخلاقه .

فعندما بلغ معاوية وجيشه "صِفّين" شرقيَّ الفرات ، بادروا إلى الطريق الوحيد الذي يفضي إلى نهر الفرات فاحتلوه ، وأقاموا عليه عشرة آلاف حارس ، ليمنعوا جيش "الإمام" من الوصول إلى الماء !!!!

وأرسل الإمام لمعاوية ، يذكّره بشرف القتال .. ويدعُوه أن يترك طريق الماء مفتوحاً أمام الظامئين .. لكنَّ معاوية ومَنْ أشاروا عليه رفضوا .

وقضى أصحاب "الإمام" يوماً وليلة بلا ماء ، وجفّت حلوقهم ، وأشرف الضعاف منهم على الموت .

وفي الصباح تحركت قوة من جيش أمير المؤمنين ، يقودها الأشعث بن قيس ، والأشتر ، فكنَست قوات معاوية كَنْساً من طريق الماء ، واحتلته كله .. وأصبح مفتوحاً أمام جيش الإمام ، ومغلقاً تماماً أمام جيش معاوية .. !!

ولْنُصْغِ لهذا الحوار الذي دار بين معاوية وعمرو بن العاص بعد طرد قواتهما عن طريق الماء :

عمرو : ما ظنك بالقوم اليوم ـ يا معاوية ـ إن منعوك الماء كما منعتهم بالأمس .. ؟!

معاوية : دع عنك ما كان ـ يا عمرو ـ ولكن أتظن عليًّا يصنعها .. ؟

عمرو : ما أظن "عليًّا" يَسْتَحِلُّ منك ما استحللْتَ منه ، فإنه لم يأتِ لِيُظْمِئك ، بل جاء لغير ذلك .

* * *

حَسْبُ أمير المؤمنين ذلك الحوار يجري بين خصومه .

حسْبُه ذلك الرأي في رجولته ، وعظمته ورفْعَة مَسْلَكِهِ من الذين يتهمونه بدم عثمان !!

ولقد كان أول أمر أصدره "الخليفة عليّ" فور احتلال قواته طريق الماء ألا يُذاد عنه ذاهب ، ولا يمنع عنه شارب .. وهكذا لم يذق جيش معاوية حرقة الظمأ لحظة واحدة ، لأن "عليًّا" بعظمته وبرجولته كان هناك .. !!

* * *

بعد هذه الزجرة الرادعة ، حاول الإمام أن يلوي زمام "معاوية" عن الحرب ، ويهيّئ له فرصة كريمة للمصالحة ، فندب للقائه أربعة من رجاله توجهوا إلى معسكر معاوية ، وتحدثوا إليه قائلين له :

« إن صاحبنا لمَنْ قد عرفْتَ وعرف المسلمون فضله ، ولا نظنه يخفى عليك .

إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعليّ عليه السلام ، ولن يُفاضلوا بينك وبينه ، فاتّق الله يا معاوية ، ولا تخالف ـ عليًّا ـ فإننا والله ما رأينا رجلاً قطُّ أعملَ بالتقوى .. ولا أزهدَ في الدنيا .. ولا أجمعَ لخصال الخير كلها منه » ..

أفلا يلين قلب معاوية بعد هذا كله .. ؟

انظروا ماذا كان جوابه :

« إن صاحبكم قتَل خليفتنا ، وفرَّق جماعتنا ، وآوَى ثأرنا وقتلَتنا ..

وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله .. ونحن لا نردُّ عليه . فليدفع إلينا قتلة عثمان فنقتلهم به . ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة » .

عاد الوفد إلى الإمام يحملون إليه كلمات معاوية ، فتلقاها الإمام في أسًى . ثم تلا قول الله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ • وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ..

وإذا كانوا يومئذٍ في شهر المحرم ـ وهو من الأشهر الحرمُ التي لا يحلُّ فيها القتال ـ فقد انتظر أمير المؤمنين حتى أهلَّ شهر صفر ، فاتخذ قراره بخوض القتال ..

وكان بعض المقاتلين معه يريد أن يدهَم جيش معاوية بقوات كبيرة تأخذهم على حين غفلة ، فأبى البطل ، والرجل .

وعند غروب شمس ذلك اليوم أمر جماعة من أصحابه أن يقفوا على معسكر معاوية ، وينادوا بأن القتال غداً .

ودعا "مرثد بن الحارث" وأمره أن يعلُو أقرب ربوة من معسكر معاوية ، ويسمعهم هذه الكلمات :

« يا أهل الشام ..

إنَّ أمير المؤمنين يقول لكم :

إني قد أستدَمْتُكم وأستأنَيْتُ بكم لتراجعوا الحقّ وتُثيبوا إليه ، واحتجَجْتُ عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه ، فلم تتناهَوْا عن طغيان ، ولم تُجيبوا إلى حقّ .

وإنّي قَدْ نَبذْتُ إليكم على سواء ، إن الله لا يحُب الخائنين » . !!

أبى أن يأخذهم على غرّة ، وأن يوجه إليهم ضربة خاطفة ، كانت ستوفر كثيراً من الوقت والجهد في كسب المعركة .

أبى ذلك ، لأنه كان يرجو ويطمع في السلام إلى آخر لحظة ، فهو لهذا يرجو ويطمع إذا آذنهم بقتال أن يثوبوا إلى الرشد ، ويرجعوا عن العصيان .

وأباه أيضاً ، لأن أخلاقه ترفض هذا النوع من الغلب والنصر مهما يكن سريعاً وحاسماً .

ولسوف نراه يمارس الصراع كله مع معاوية على هذا النسق من الخُلق الرفيع .

لا يتخلّى عن مثلُه ولا عن دينه مهما تكن العواقب ..

ولم تكن جبهة خصومه مجتمعة ، بأقدر منه ذكاء وفطنة لكنه ـ رضي الله عنه ـ رَفضَ دائماً أنْ يضع الذكاء مكان الإخلاص والوَرَع .. ولقد أَخْبَرَ ـ وكان صادقاً ـ بأنه إذا انتصر عليه معاوية فإنه لن ينتصر بمقدرته ، ولا بشجاعته ولا بذكائه .. إنما سينتصر بورَع الإمام نفسه ..

أَجَلْ .. فإن ترفُّعه عن الوسائل التي يرفضها دينهُ وخلُقه ، هيأ لمعاوية الكثير من أسباب انتصاره .

* * *

آذنهم "الإمام" بالقتال إذن ، على النحو الذي أسلفنا ، وعاد يُعَبِّئ قواته ، وأصدر إليها توجيهاته في القتال :

« لا تقاتلوا القوم حتى يَبْدَءُوكُمْ ، فإنكم بحمد الله على حُجَّة ..

وتركُكُم إياهم حتى يَبْدَءُوكُم حُجَّةُ أخرى لكم عليهم ..

فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم ، فلا تقتلوا مُدْبِراً ،ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تُمثّلوا بقتيل ..

فإذا وصلتم إلى رحالهم ، فلا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ..

ولا تقربوا النساء بأذى ، وإن شَتَمْنَكُمْ وشتمن أمراءكم وصُلحاءكم .

﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .." .

* * *

والتقى الجيشان في وقعة صِفِّين . ودارت المعارك مُثيرة وطالت واستطالت حتى عجّت الأرض بالدماء ، وغطتها جثث الضحايا .

وجزع الإمام لكثرة الضحايا . وفي سبيل أن يحسم الأمر ، ويصون الدم ، تقدّم فوق جواده من صفوف معاوية وناداه ، ليخرج إليه فما خرج .. فلمّا فرغ من قتال ذلك اليوم كتب إليه كتاباً بعث به إليه :

« يا معاوية .

لِمَ تقتل الناس بيني وبينك ؟ .

ابْرُزْ إليّ ، فأيُّنا قتل صاحبه تَوَلَّى الأمر من بعده » .

واستشار معاوية صديقه "عمرو" فقال له :

ـ لقد أنصفك الرجل فابرز إليه .

فأغضَبَتْهُ مشورة "عمرو" ووجد فيها إحدى مكائده للتخلص منه ، لأنه يعلم أن "عليًّا" ما بارز أحداً إلا صرعه !!

ولكي يبعد "عمرو" هذا الخاطر المزعج عن معاوية ، قال له :

ـ إني خارج إلى "عليّ" غداً ، فمُبارزه .

وفي اليوم التالي ، وقد تأهب كِلا الجيشين لاستئناف القتال ، وقف "عمرو" ونادى "الإمام عليًّا" لمبارزته .. وخرج الإمام إليه ، وتبارزا وهما فوق فرسيهما ، وبينما الإمام يهوي بسيفه على "عمرو" ليجلله به ، قذف "عمرو" بنفسه على الأرض ، وتمدد عليها في استسلام ، وفزع ، وضراعة .. فألقى عليه "الإمام" نظرة الظافر الكريم ، ورجع عنه لم يصنع به شيئاً ..

* * *

ولو حفظ "عمرو" للإمام هذا الصنيع الجليل ، وتخلّى عن شغفه البالغ بالإمارة ، لأخذت مسيرة الصراع وجهة أخرى ، لكنه لم يفعل .. وحين أنهك القتال جيش الشام ، وبات النصر مؤكداً لجيش الإمام .. وصار واضحاً أنه لم يبقَ سوى ساعة أو بعض ساعة ، ثم ينتهي إلى الأبد تمرُّد معاوية ومن معه .. عندئذ ، ومعاوية يقرع سِنّ نادم ، ويُحدِّق في وجه "عمرو" يستجديه الرأي والحيلة ، فتح "ابن العاص" جعبته ليخرج منها جديداً .

قال لمعاوية :

« لقد أعددتُ بحيلتي أمراً ادَّخرتُه لهذا اليوم .

ترفع المصاحف . وتدعو إلى تحكيم القرآن .

فإن قبلوا التحكيم اختلفوا .. وإن ردوه اختلفوا أيضاً » !

أجل . فإن التحكيم بهذه الطريقة وفي تلك الظروف ، لا يثير خلافاً في صفوف المنهزمين ، لأنه ـ على الأقل ـ يعطيهم فرصة لجمع صفوفهم وبناء قوّتهم من جديد .. أما بين المنتصرين الذين لا يفصل بينهم وبين النصر سوى ساعة زمان ، فإن يثير اختلافاً كبيراً .

وهذا هو الذي حدث تماماً ..

فما كادت طلائع معاوية ترفع المصاحف ، وتسير بها صَوْب معسكر العراق ، حتى نَشب الخلاف .

لقد أدرك الإمام من فوره أنها خُدعة ، فحذَّر قومه منها .. لكنَّ ـ الأشعث بن قيس ـ ونفراً من القرّاء راحوا يقنعون الناس بضرورة الاحتكام إلى كتاب الله .

قال الإمام :

« أنا أحقُّ من يجيب إلى كتاب الله ، ولكني أعرَفُ بهم منكم ..

إنها كلمة حق يُراد بها باطل .. وإني ما قاتلتُهم إلا ليدينوا بحكم القرآن ، فكيف أرفُض اليوم حكمه .. ؟

إن القوم لم يرفعوا المصاحف لأنهم يريدون حكم القرآن .

إنما هي الخديعة ، والوهن والمكيدة .

فأعيروني سواعدكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحقُّ مقْطعَه » !!

لكنَّ المعارضة بلغت أوجها في سرعة مُريبة ، وتولّى "الأشعث" كِبْرَها .

كان "الأشتر" بكتيبته وبقواته هناك على مقربة من معسكر الشام المتداعي .. وكان يستعد للصيحة الأخيرة عليه ، ولم يكن يفصل بينه وبينهم سوى "عَدْوَة فرس" ـ على حد تعبيره ـ فطلب الأشعث ومَن معه من الإمام أن يُرسل لاستدعائه . وأرسل الإمام يستدعيه ، فجنَّ جنون "الأشتر" وقال للرسول :

« ارجع وأنبئهم أنها لحظات ، وينتهي كل شيء ، فكيف أعود » ؟

ولم يكد يسمع أنصار التحكيم ردَّ "الأشتر" هذا حتى هدّدوا بعمل مُسلَّح ضد الإمام نفسه إذا لم يعد "الأشتر" على الفور !!

ماذا دعى هؤلاء فجأة .. ؟

وماذا دهى "الأشعث" بخاصة ؟

هل أنهكته الحرب .. ؟

هل كان يعمل لحساب نفسه ، أم لحساب غيره ، وَفْقَ أغراض بعيدة عن القضية التي يقاتل دُونها الإمام .. ؟

هل كان ينفس على "الأشتر" ويُضمر له في نفسه الحسد ، فعزَّ عليه أن يكون بطل الضربة الأخيرة ، وطليعة الفتح ، وبشير النصر ؟

أو تُراه كان يرى أن الحرب لن تنتهي بهذه السرعة المظنونة ، وأن الصلح المعروض فرصة لا ينبغي أن تُفلت . ؟

بعض ذلك جائز .. وكل ذلك جائز .. وعلى أية حال فقد فرضوا رأيهم بقبول التحكيم ، وعاد الأشتر تاركاً أبواب معسكر الشام التي كان يقف عليها متهيأً لإنزال الضربة الأخيرة بمن وراءها .. عاد يتضرّم غيظاً وثورة !!

* * *

كُتبت وثيقة التحكيم ، وأعلن معاوية أن ممثله في التحكيم هو "عمرو بن العاص" .. !!

فمن يُمثل جبهة الإمام . ؟

هنا برز "الأشعث" وجماعة أخرى يقترحون "أبا موسى الأشعري" وعارض الإمام ، مقترحاً "عبد الله بن عباس" .

لم يكن دين أبي موسى موضع شكّ لدَى "أمير المؤمنين عليّ" ، برغم مآخذ يأخذها على موقفه من ذلك النزاع بينه وبين معاوية .. إنما كان الموقف في تقدير الإمام يتطلب مندوباً يكون في دهائه وسَعَة حيلته ، ويقظته ، كفئاً للداهية عمرو بن العاص .

و "ابنُ عباس" كما يعرفه الناس جميعاً ، هو ذلك الكفء المطلوب .

إنه مع ورَعه وتُقاه أبعد مَنالاً ، وأبعدُ غُوراً من كل ما لدى "ابن العاص" من حيلة ودهاء .

لكنَّ الأشعث وجماعته أصرُّوا على "أبي موسى الأشعري" (١) .

وحتى يتجنب "الإمام" وقوع الفتنة في صفوفه ـ قَبِلَ رأيهم اليوم في أمر المندوب ، كما قبله أمس في أمر التحكيم .. !!

* * *

وسارت الأمور سيرها المعروف .. فقد اتفق أبو موسى وعمرو بعد حوار طويل بينهما على أن يخلعا معاً ، الإمام ، ومعاوية ، ويعود الأمر شورى بين المسلمين يختارون هم إمامهم وخليفتهم .

ودعا "عمرو" أبا موسى لكي يبدأ الحديث ..

وبدأ "أبو موسى" وخلع عليًّا ، ومعاوية ..

ثم تلاه "عمرو" فقال : « إن أبا موسى خلع صاحبه كما رأيتم ، وإني أخلعه كما خلعه ـ وأُثبتُ معاوية ، فهو أمير المؤمنين والمطالب بدم عثمان فبايعوه » .. !!

وثار "أبو موسى" لهذه الخدعة المكشوفة ، وانتهى التحكيم بهذه المهزلة ، ليعود القتال ، من جديد !!

ولكنْ ضدَّ من سيعود .. ؟

* * *

---

(١) راجع للمؤلف : أبو موسى الأشعري في كتاب "رجال حول الرسول" .

إن عظمة هذا الرجل ـ عليّ بن أبي طالب ـ لعظمة فريدة . لكأنما كان يُحركه من أعماقه ولعُ شديد بأن يذهب عن الحياة ـ يوم يذهب ـ شهيد مُثله ، ومبادئه ، وإيمانه .. شهيد استقامة المسلك ، واستقامة القصد ، واستقامة الضمير .

لقد واتته الفرصة لِدَحض خدعة التحكيم قبل اجتماع الحكمين .

وذلك حين راح الأشعث بن قيس .. يمرّ على جماعات الجيش المبثوثة هناك تالياً عليها وثيقة التحكيم ، فإذا جماعة منها تلقاه بصياح النكير .. قائلة : « لقد أخطأنا بقبولنا التحكيم . وها نحن نرجع عن الخطأ ، لا حكم إلا لله » .

ولو تقدَّم الإمام فتبنَّى ـ مجرَّد التبنِّي هذه المعارضة الجديدة للتحكيم ، لأمكن تغيير الاتجاه ، ولكنه قال عندما بلغه النبأ ..

[.. أوَ بَعْدَ أن أعطينا العهد والميثاق .. ؟!]

لك الله أبا الحسن !!

أتُراك قد كتب عليك أن تقاتل بشرف ، في معركة كان الشرف عنها غائباً ، وفيها غريباً .. ؟!

رفض أن ينقض ميثاقاً أعطاه .. والغدر يحيط به من كل جانب .. وجاءت خاتمة التحكيم كما أراد لها وكما تنبأ بها عمرو بن العاص .

فقد مزَّق الخلاف أصحاب الإمام . وفي سرعة غريبة أيضاً تحولوا إلى شِيع يقاتل بعضها بعضاً .. بل تقاتل الإمام نفسه وتواجهه بألأم عصيان !!

* * *

وقف الإمام وسط البقية من أصحابه الذين لم يفتنوا عن الولاء للحقّ .

لم يكن لديه وقت للعتاب ، ولا لاجترار الندم ، إنما كان الوقت كله ـ إن كان هناك وقت ـ والفرصة كلها ـ إن كان ثمة فرصة ـ لتعبئة أصحابه والسير إلى الشام .

مع مَنْ تمضي إلى الشام يا أمير المؤمنين .. ؟

ولماذا .. ؟

مع المؤمنين بالحقّ وإن قلّوا .. لإتمام الجهاد الذي بدأه في سبيل الحقّ ذاته !

إنه صارم في تحمل مسئولياته .. وإنه حين خاض القتال الذي فرضه عليه الجانب الآخر لم يَخضْهُ لينتصر في حرب ، أو لِيَدْعَمَ مكانه في الخلافة ، إنما خاضه لأن مسئولياته فرضت عليه أن يخوضه .. ولمَا فرض أصحابه عليه قبول التحكيم ، كفَّ عن القتال .. ولمَا فشل التحكيم وتحوَّل إلى خدعة وضلالة ، فإن مسئولياته تفرض عليه القتال من جديد .

صحيح أن الموقف تغيَّر تغيُّراً شاملاً ، ففريق كبير من أصحابه انقلب عليه وحمل السيف ضده بحجة أنه قبل التحكيم .. ؟ التحكيم الذي فرضوه هم عليه فرضاً .. !!

وفريق آخر ، اعتزل وتقاعس عن القتال ..

لكنّ ذلك كله وأضعافه معه لا يهن من عزم الإمام .. ذلك لأنه يعتقد أنه يقاتل في

معركة حقّ .

وما كانت معارك الحقّ قطّ معارك كثرة وأعداد ..

إنّ عليه أن يمضي مع مسئولياته ، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ..

وهكذا عبأ قواته ، وبدأ مسيرته إلى الشام ، بيد أنه لم يكد يتحرك مسافراً حتى جاءته الأنباء مثيرة مُزعجة .

أنباء الخوارج الذين انطلقوا هائمين في البلاد والقرى يقتلون كل مَنْ يُخالفهم الرأي .

إنهم يلقون الواحد من المسلمين فيسألونه :

ـ ألم يكن قبول التحكيم كفراً .. ؟

ـ ألم يأثم "عليّ" بقبول التحكيم .. ؟

ـ ألسنا في حلٍّ من طاعته وبيعته حتى يقر بإثمه ويتوب منه .. ؟

فإذا أجاب المسئول بـ "نعم" تركوه ينجو .. وإن أجاب بـ "لا" سفكوا دمه وأزهقوا حياته .. !!

جاءت أخبارهم إلى الإمام . وأرسل الناس من كل مكان يستغيثون به .. ويتوسلون إليه ألا يذهب إلى الشام قبل أن يؤمنهم من هذا الوباء الماحق الذي استشرى فجأة وبغير حساب .. !!

أيعرف الناس في التاريخ محنة مرّت ببطل ، مثل هذه المحنة ..

لكنّ أبا حَسنٍ لها .. ولن يتخلّى عن واجبه وإن بُدلت الأرض غير الأرض ، وإن تحوّلت رمال الصحراء إلى جيوش تقاتله ، وإن تحوّلت بحار الأرض إلى لهب ، ونار .. !!

لتذهب عنه كل الألقاب والأوصاف ـ الخليفة .. والإمام .. الداهية .. والمنتصر . وليُبْقَ له ومعه لقب واحد ووصف واحد هو : المؤمن .. !!

إنّ الحياة في يقينه قضية إيمان . فمن خسر إيمانه خسر حياته ، وإن عاش فيها ألف عام .. ومَنْ ربح إيمانه ربح حياته ، وإن عاش فيها بضعة أعوام .. !!

وهو اليوم ـ وليس حوله سوى المهالك والأخطار ـ غير نادم على خطوة خطاها . لقد اقترب منه ابنه "الحسن" رضي الله عنه ، يقول له في نبرة عتاب :

[يا أبي ..

* أشرْتُ عليك حين حُوصر عثمان أن تخرج من المدينة :

فإن قُتِل قُتِل وأنت غائب عنها .

* وأشرْتُ عليك حين قُتل عثمان وراح الناس إليك وغَدَوْا ، وسألوك أن تقوم بالأمر ألا تقبله حتى تأتيك البيعة من جميع الآفاق ..

* وأشرْتُ عليك حين بلغك خروج الزبير وطلحة بأم المؤمنين عائشة إلى البصرة أن ترجع إلى المدينة وتقيم في بيتك ..

فلم تقبل رَأْيي في شيء من ذلك] .

* * *

كان الحسن قلقاً من أجل أبيه .. فراح يراجع مع الماضي الحساب .

لكنّ "أباه" كان مطمئن النفس ، قرير العين بما كان وبما سيكون ، لأنه لم يكن في رحلة حياته كلها عبد هَوًى ، ولا طالب مجد ، بل كان جنديًا في معركة الولاء للحقّ ..

هنالك أجاب ابنه "الحسن" قائلاً :

* "أمّا خروجي حينَ حُوصر عثمان ، فما كان ذلك ممكناً ، فقد كان الناس أحاطوا بي ، كما أحاطوا بعثمان ..

* وأما انتظاري طاعةَ جميع الناس من جميع الآفاق ، فإن البيعة لا تكون إلا لمن حَضر الحرَمين من المهاجرين والأنصار ، فإذا رضَوْا وبايعوا حقَّ على جميع المسلمين الرضا والبيعة ..

* وأما رجوعي إلى بيتي والقعود فيه ، فإنني لو قبلت لكان ذلك غدراً بالأمّة وخيانة لها .. » .

هذه هي مواقفه ـ واضحة مسفرة ..

وهذه هي بواعثه ـ نظيفة طاهرة ..

لا يأسَى على وقفته مع حقّ ، قصّرت عن إدراكه الأسباب ..

ولا يَجزع من قَدَرٍ ، سبقَ به الكتاب .. !!

* * *

وخِلالَ حياته بصفة عامة ..

ثم خلال هذا الصراع وهذه الفِتن ، بصفة خاصة ، حرص البطل دوماً على تحرّي الصواب ، والسير تحت راية الحقّ .

أجل .. الصّواب كان هِوايته ، وكان طريقه .

الصّواب جميعُه ـ صواب الفكر ، وصواب الشعور ، وصواب الإرادة ، وصواب العمل .

وحتى إذا أخطأ اجتهاده في أمر ما ، فإن خطأه هذا لا يجيء انعكاساً لرغبة في الاستعلاء على الحقّ أو تحدّيه .. ولا لتقصير منه في نُشدان الصواب وتحرّيه ..

إنما يكون بسبب مبالغته في الولاء للصواب ، وللحقّ .. وبسبب مغالبته الظروف العسيرة المظلمة التي كتب عليه أن يستردّ من خِلالها حقيقة الإسلام ، ووحدة المسلمين .

■ ■ ■

الرّاحِلُ والمُقِيمُ

[أتركُهم لدنياهم وأختار الله ، ورسوله]
"عليّ"

ضاعت الفُرص من نفسها ، وما ضاعت من عَليّ .

ضاعت من الدولة المسلمة الراشدة التي كانت الإمام يريد أن يعيدها إلى جادَّتها ، ويمضي بها على صراطها الأول القويم .

ضاعت من مقادير الإسلام التي كادت تصبح على موعد مع خليفة آخر من طراز "عمر" في صرامته ، وعدله ، في استقامته وورعه .. في ترفعه ، وتواضعه وزهده ..

والخليفة المتقشف الذي تُجْبَى إليه الأموالُ حلالاً طيبة من أقطار الأرض ، ثم هو يلبس قميصاً بثلاثة دراهم !

الخطيبُ الذي تهتز الدنيا لكلماته ، وهي تخرج من وراء شفتيه ناضرة قاهرة !!

الفقيهُ العالم الذي تتفجر الحكمة من نفسه ، وعقله. ويجري الحقُّ على لسانه وقلبه !!

العابدُ ، الوَرِعُ ، التقيُّ ، الذي تفوّق على إغراء الدنيا ، وأطماع البشر !!

تلميذُ "الرسول" الأوّلُ ، والأمثل !!

ربيب الوحي ، وسابق المسلمين !!

كل هذا في طريقه الآن إلى الرحيل .. ليحتلَّ مكانه مُلك عَضُوض ؟ يقوم إيوانه وعرشه في الشام ، حيث ترتفع رايات الزّهو والأنانية ..

وحيث تدق طبول المجد الفارغ والطموح المتألِّي !.

* * *

الآن تقترب الأمور من نهاياتها .

ويقف "البطل" بين فتنتَيْن عارمتَيْن ..

أولاهما : في الشام تصيح : (يا لثارَات عثمان) !!

وثانيتهما : في العراق تصيح : (لا حُكْمَ إلا لله) !!

ولئن كانت الأولى أعتى وأوسع ، فإن الثانية أمَضُّ وأوجع. ذلك أن ذويها ومشعِليها الذين كانوا بالأمس لا غير ، أتباعه وجنده.. وهم الذين أصرُّوا أو أصرَّ أكثرهم على قبول التحكيم حين كان يحذرهم منه ويدعوهم إلى رفضه .

وهم الذين أصرُّوا ، أو أصرَّ أكثرهم على اختيار "أبي موسى الأشعري" حين كان هو يدعوهم في إلحاح إلى اختيار "عبد الله بن عباس" لأنه القادر على فلّ دهاء "عمرو" ودَحَض مناوراته .

هم أولئك بالأمس .. هؤلاء الذين يحملون السلاح اليوم ليحكموا به وَفْقَ هواهم ، وهم الذين ينشرون الذعر والرعب والفزع في أفئدة الآمنين ، وهم - أخيراً - الذين يضطرونه ليحمل السلاح في وجوههم ..!

لقد حاول أن يصابرهم ، ويحملهم بمنطقه على الرُجعَى ولكنّ الفتنة والضلال كانا قد أحكما الخناق على عقولهم وألبابهم..

ولقد فقد الإمام كل أمل في هدايتهم حين بلغه نبأ مقتل عبد الله بن خبّاب وزوجه ، والطريقة التي قتلوهما بها .

إن "عبد الله" ابن صحابيٌ جليل .. كان إسلامه ، وكانت حياته روعة وبهاء .. هو - خبّاب بن الأرتّ (١) .

ولقد لقيه "الخوارج" هو وزوجته في طريق سفرهما ، فاعتقلوهما ، وسألوا "عبد الله" أن يحدِّثهم ببعض ما سمعه من أبيه من أحاديث رسول الله ، فقال لهم:

[سمعت أبي يقول ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من السَّاعي].

وسألوه عن "الإمام عليّ" فقال فيه خيراً ، فاقتادوه وزوجته.

والآن ، لننظر هذه المفارقة المضحكة المفجعة..

فبينما هم ماضون بهما ، سقطت ثمرة من نخلة ، فتلقاها أحد الخوارج بفمه ، وقبل أن يمضغها صاح به زميل له: كيف تستَحِلها بغير إذن من صاحب النخلة ، وقبل أن تدفع ثمنها ؟ فألقاها من فمه وراح يندم ويستغفر..!

وبعد خطوات في سيرهما - تقدَّموا من "عبد الله بن خبّاب" فذبحوه.!

ثم التفتوا بوحشيتهم صوب زوجته ، فصاحت من الفزع: إني حُبْلَى ، فاتقوا الله فيَّ".

ولكنهم ذبحوها هي الأخرى ، وبقروا بطنها عن جنينها..؟

أولئك من الذين كانوا يقاتلون مع الإمام بالأمس.. قد علم الله ما في قلوبهم ، فطهَّره من صُحبتهم تطهيراً..!

لم يكد مقتل "عبد الله بن خَبّاب" يبلغ مسامع الإمام حتى تراءى أمامه مصير الأبرياء لو تُرك هؤلاء الهائمون المتوحشون يعيثون في أرض الناس فساداً ، فلوَى زمام جيشه عن الشام إلى النهروان ، حيث لِقيَ الخوارج في معركة فاصلة أباد فيها جمعهم ، وشتّت شملهم ، وطوَّح رءوس قادتهم وزعمائهم .

* * *

أفما آن له أن يستريح ..؟

ألا ينفض يديه من ذلك الظلام ، ويخرج من تلك المتاهات إلى حيث يعبد الله بقلبه السليم ، وينفع المسلمين بعلمه العميم؟ .

---

(١) راجع "خبّاب بن الأرت" في "رجال حول الرسول".

رُبما كان ذلك بعض أمانيه .. ولكنها مسئولياته وتبعاته ..؟ مَنْ يحملها سواه .! إنها فوق كاهله . لن يضعها عنه سوى الموت . فأين هو! ومتى يجيء ؟

إنه ليَحُس أن قد آن أوانه ..

فإن أهل الكوفة الذين دعاهم إلى السير معه صَوْبَ الشام للقاء معاوية قد تقاعسوا وراحوا يتسلّلون الواحد بعد الآخر من معسكرهم بالنُّخَيْلة . حتى تلفّت الإمام ذات صباح فلم يجد حوله منهم سوى ألف لا يزيدون !!

انتهى دوره إذن .. ففيم البقاء ؟

لقد كانت حياته في دورها الأخير هذا وقفاً على قضية كبرى .. أن يُعيد للإسلام حقيقته ، وللمسلمين وَحدتهم ، وللدولة الإسلامية تماسكها ، وشِرْعتها ، واستقامتها ..

أجَلْ .. كانت القضية التي نذرَ لها حياته هي: أن يَرُدَّ الإسلام إلى حقيقته .. وأن يردَّ المسلمين إلى الإسلام ..!

ولم يترك سِلمًا ، ولا حَرباً ، يبلُغان به غايته النبيلة إلا توسَّل بهما في عدالة ، وشرف .

ولقد كانت قضيته واضحة المحيًا ، مُشرقة الجبين .. ناصعة الحجَّة ، طاهرة الضمير .

وإن عظمتها لتتجلَّى عندما جاء ذلك اليوم الذي وقف فيه "معاوية" يأخذ البيعة بحَدْ السيف لابنه "يزيد" .

يَزيد..؟؟

نعوذ بكلمات الله التَّامَّات من شرِّ ما خَلق..؟؟

إنه لو كان يأخذها لواحد من صُلحاء بني أُمية وفضلائهم ، ما جاز له حمل المسلمين عليها بالرهبة والقوة. فكيف وهي لـ "يزيد" .. يَزيد .. وكفىَ؟!!

لقد كشف هذا العمل من معاوية عن أحد وجوه القضية الجليلة التي كان الإمام يقاتل دونها.

هذا الوجه المتمثّل في ألا تصير خلافة المسلمين إلى طُلقاء بني أمية أبداً. وأن تظلَّ في الصالحين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار.

أجَلْ .. يومئذٍ تكشَّف هذا الوجه من القضية الكبرى التي نذر البطل لها حياته ، فألقى ضوءه على وجوه القضية كلها ..

ولم يبقَ من المسلمين أحد ، إلا بحَّ صوته ترحُماً على الإمام "عليّ" .

ووقف واحد من كبار الصحابة يومها يقول:

" ما أجدني آسَي على شيء فاتني في حياتي ، إلا على أني لم أقاتل مع "عَليّ" الفئة الباغية " ..

أجل .. قال ذلك والدموع تبلل لحيته ، الصحابيّ الجليل ، الطيب ابنُ الطيب "عبد الله بن عمر" !!

* * *

وأحسَّ المسلمون في كل مكان .. وفي العراق بخاصة أنهم ضالعون في الإثم ، شركاء في الوزر ، يوم تخلَّوا عن "البطل" وتركوه وحده في الفضاء المُوحِش بين الوحوش والذئاب !!

وراحوا يبكون ، ويُولْوِلون ..

لقد أحسُّوا فجأة بالفراغ القاتل الذي خلَّفه لهم غياب أبيهم الحنون والطيب ، العادل ، الرحيم .

وراحوا يترحَّمون عليه من كل أفئدتهم الصادعة الضارعة .

أقول: يترحمون .

أجَلْ ، فقد نسيتُ أن أقول لكم : إنه مات . قُتل غيلة . استشهد البطل والخليفة والإمام .. وهو يقترب من باب مسجد الكوفة ، وقيل: بل وهو يصلّي ، أو يتهيأ للصلاة ـ بعد أن عبر شوارعها يوقظ أهلها لصلاة الفجر.. ويناديهم بصوته الجليل:

[الصلاة ، أيها الناس ، الصلاة ، يرحمكُم الله] .

اقترب منه في لُجة الظلام واحد من الخوارج اسمه ـ عبد الرحمن بن ملْجم ـ كان قد ائتمر مع اثنين آخرين ليتخلصوا من الإمام بالعراق ، ومن "معاوية" بالشام ، ومن "عمرو بن العاص" بمصر .

كان "الإمام" بلا حَرس .

فكان اغتياله عملاً من أيسر الأعمال .

لم تكن الجريمة تتطلب أيَّ جلد ، أو قوة ، أو بطولة .

كانت تتطلب ـ لا غير ـ ضميراً ميْتاً ، وتفكيراً ضالا ، وقلباً أعمى ، وإرادة ممسوخة ..!!

فلمَّا وجدت هذه جميعاً ، في صورة آدمي ، وسُلِّحت بسيف مسموم ، وقيل لها : أطعني هذا الهُدى وهذا الجلال .. تمَّ كل شيء في لحظات !!

وحققت الأقدار للبطل أمنيته الأخيرة .

فقبل استشهاده بأيام ، نادى أهل الكوفة من كتاب كتبه ، ووقف أحد أصحابه يتلوه عليهم بعد صلاة الجمعة :

[.. أما والله لَوَددْتُ أن الله أخرجني من بين أظهُركم ، وقبضني إلى رحمته من بينكم ..

ولوددْتُ أني لم أرَكم ولم أعرفكم ..

فقد ، والله ملأتُم صدري غيظاً ، وجرَّعْتُموني الأمرَّين أنفاساً ، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان ..

حتى قالت قريش : إنَّ ابن أبي طالب رجلُ شجاع ولكنْ لا علمَ له بالحرب .. لله أبوهم !! هل كان فيهم رجل أشدُّ لها مِراساً ، وأطول مقاساة مِنّي ؟؟

لقد نهضْتُ فيها وما بلغت العشرين .

وَهَأَنَذَا اليوم قد عَدوْتُ الستين ..
ولكن ، لا رَأْيَ لمن لا يُطاع !!]..
أَجَلْ: يا أمير المؤمنين ، لا رأي لمن لا يطاع ..
ولقد سارع القدر إلى رجائك ، فأخرجك الله من بين أظهرهم ، وقبضك إلى رحمته تقيًا .. نقيًا .. بارًا ..
ولقد حملك إلى الرفيق الأعلى ، زورقُك الآمِن الوديع الذي طالما قهرت به أمواج الفتن حتى اجتزتها جميعاً في سلام ..
زوْرَقُك الذي لُذْتَ به طوال حياتك ، وكنت أشدَّ به التياذاً وأوثق رحماً ، كلما ذكرت الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وبينك ذات يوم بعيد .
يوم سألك ـ يا أمير المؤمنين ـ قائلاً :
[يا علي ..
كيف أنت إذا زهد الناس في الآخرة ، ورغبوا في الدنيا ، وأكلوا التراثَ أكلاً لمًا .. وأحَبُّوا المال حُبًا جَمًا. واتخذوا دينَ الله دَغلاً ومالوا دُوَلاً ..]؟
فأجبته ـ يا أمير المؤمنين ـ قائلا :
[إذن . أتركهم لدنياهم ، وأذرهم وما اختاروا .. وأختارُ الله ، ورسوله ، والدار الآخرة .. وأصبر على ذلك حتى ألحق بكم] ..!
لقد اخترتَ ـ يا أبا الحسن ـ فأحسنت الاختيار ..
واصْطَبَرْت ـ يا أبا الحُسَيْن ـ فأحسنت الاصطبار .
ولحقتَ بمن تُحب من المرسلين .. والشهداء ، والأبرار !!

* * *

لَقِيَ الإمام ربه ـ أخيراً ـ مصاباً" بضربة سيف مسموم .. كما لَقِيَهُ من قبل عمر الفاروق ، مصاباً بضربة خنجر محموم!!
وتأبى عظمة البطل إلا أن يكون آخر مشهد في حياته جديراً بها أكثر ما تكون الجدارة ، ودالاً على حقيقته أصدق ما تكون الدلالة ..!
فإنه لم يكد يتلقى ضربة القدر في رأسه ، حتى حُمل إلى داره ..
وإذ هو في لحظات الكارثة هذه ، يأمر حامِليه والحافِين حوله أن يذهبوا إلى المسجد ، ليدركوا صلاة الفجر قبل أن تُؤْذِن بفوات .. هذه الصلاة التي كان يتهيأ لها حين حال الاغتيال الأثيم بينه وبين بلوغها أو إتمامها.. وحين يفرغون من صلاتهم .. ويعودون إليه .. كما يعود في نفس الوقت ، بعض الرجال ممسكين بالقاتل عبد الرحمن ابن ملجم ـ يفتح الإمام عينيه ، فتقعان عليه ، فيهز رأسه في أسى حين يعرفه ويقول :
أهو أنت ..؟ لطالما أحسنْتُ إليك !!

ويُلقي البطل العظيم على وجوه بنيه وأصحابه نظرة ، فيراها تتفجَّر غيظاً ، وتضطرم نِقمة ، ويُحسُّ بَرد الموت يَسري في أوصاله ، ويكاد يرى المصير الذي سيحيق بـ "ابن ملجم". يكاد يرى الانتقام المروِّع الذي سيثأر له به أولاده ، فيتقدم هو في إصرار ليحمي قاتله من أيِّ مجاوزة أو تخطٍ لحدود القصاص المشروع .

وهكذا ناداهم إليه ، وخرجت الكلمات من فمه مبحوحة متقطِّعة لترسم في "العظمة الإنسانية" التي أفاءها القرآن على "علي" لوحة باهرة .

قال لبنيه ولأهله :

[أحْسِنُوا نُزلَه .

وأكرموا مَثواه .

فإن أعِشْ ، فأنا أولى بدمه قِصاصاً أو عَفواً .

وإن أمُتْ ، فألحقوه بي ، أُخاصمه عند ربِّ العالمين ..

ولا تقتلوا بي سواه ..

إن الله لا يُحبُّ المعتدين] ..

لِنَدَعْ هذا المشهد بغير تعليق ، فلن نجد كلمات ترتفع إلى مستواه!!

ولننتقل إلى مشهد آخر ، أو إلى وجه آخر من مشهد الختام في حياة الإمام..!!

* * *

ففي لحظات نهايته ، زاره وفد من أصحابه ، وسألوه ان يستخلف عليهم ابنه "الحسن" من بعده ، فأبى ذلك وقال:

[لا آمركم ، ولا أنهاكم..

"أنتم بأموركم أبْصَر]..

وأرادوا أن يحملوه على ما يريدون ، فوضعوا أناملهم على الوتر الذي يعرفون أنه يهزّ "ابن أبي طالب" من أعماقه ، وقالوا له:

ـ وماذا تقوم لربك ـ إن لقيته دون أن تستخلف علينا ..؟

فأجابهم:

[أقول له : تركتهم دون أن استخلف عليهم ، كما ترك رسولُك المسلمين دون أن يستخلف عليهم] . !

ثم دعا بنيه ، وعلى رأسهم "الحَسَن" رضي الله عنهم أجمعين ، وراح يُملي عليه وصيته:

[.. أوصيكُم بتقوى الله ربكم ، ولا تَموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون .

* "واعتصمُوا بحَبْل الله جميعاً ولا تفرَّقوا ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

إن صلاحَ ذاتِ البَيْن أفضل من الصلاة والصيام" .

* الله ، الله في القرآن ، لا يسبقنكم إلى العمل سابق .

* الله ، الله في الفقراء والمساكين أشركوهم في مَعاشكُم .

* لاَ تَخَافُنَّ في الله لَوْمَةَ لائم ٍ، يَكْفكُمْ مَنْ أرَادكم وبَغَى عليكم .

* لا تدَعوا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وقولوا للناس حُسناً كما أمركم الله تعالى .

* عليكم بالتواصُل وإياكم والتدابر ، وتعاوَنوا على البِّر والتقوى ، ولا تعاوَنوا على الإثم والعدوان ..] .

* * *

وقع الاعتداء على حياة الإمام فجر يوم الجمعة الثامن عشر من رمضان عام أربعين من الهجرة ، وفاضَتْ روحه الطاهرة المُطهَّرة مع غروب يوم السبت التاسع عشر من رمضان .

وهكذا ، آب المسافر إلى وطنه ، وعاد إلى منزله .!

ورحل "ابن أبي طالب" عن الدنيا . لكنّ حياته والأيام التي عاشها على الأرض تحولت إلى شمس أخذت مكانها العالي في حياة البشرية وتاريخها ، وراحت تجذب إلى مدارها قِيَم الحقّ ، والبطولة ، والإيمان ، والخير والشرف .

وهكذا رحل الإمام ، وما رَحَل ..

وَظَعَنَ ، وَمَا ظَعَن ..

فهو الظَّاعنُ الحاضر ..

وهو الراحل المُقيم ..

لقد فتح لذكره ، ولذكراه أبواب الخلود حينما ترك لذوي الدنيا دنياهم ، واختار الله ورسوله ، والدار الآخرة ..

ولقد احتوَشتْه العواصف ، والأعاصير ، لكي تُزيغه في ظلامها عن الطريق .. أو تفقده بعض رشده .. أو تشغله عن غاياته ومبادئه فما زاغ عن الطريق .. ولا فقد الرُّشد ، ولا سَئم صحبة مبادئه .. وحين أدركه الموت وجده عملاقاً يحمل رايتَه ..!!

وهذا الطراز النادر ، من البشرية ، تمنحه المقادير الخلود ، فلا تسلِّمه للنسيان ولا للعدم ، لأنه يُشكِّل للإنسانية ضميرَها ، ونهاها .

وإن سيرة "ابن أبي طالب" لناهضةُ في مجال خلودها العظيم ، تلقي على الجنس البشري في كل أزمانه وبُلدانه ، نبأ الولاء العجيب للحقَ .

ولاء الطفل ، وولاء الشاب ، وولاء الشيخ ..

ولاء المقاتل ، وولاء الناسك .

ولاء المواطن ، وولاء الحاكم ..

ولاء ما تجد بينه في مراحل العمر كافة ، وتباين الأوضاع مِنْ تفاوُت .

ذلك أنه ولاءُ مطبوع ، لا ولاء مصنوع .

ولاءُ الفطرة ، لا ولاء الاحتراف .

ولاء اليقين ، لا ولاء المنفعة .

* * *

وإذا كان الولاء للحقّ يتمثل أوّل ما يتمثل في قهر الدنيا ، والتفوق على إغرائها وفُتونها ، فإن "ابن عم الرسول" وتلميذه العظيم ، قد بلغ في ذلك المدى ، وجاوز المستطاع!!

ها هو ذا ، يخرج إلى سوق الكوفة ، وهو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، حاملاً أحد أسيافه الأثيرة لديه ، الحبيبة إليه ، عارضاً إياه للبيع ، وقائلا :

[مَن يشتري سيفي هذا؟ فوالله لو كان معي ثمن إزار ما بعتُه]!!

لماذا هذه الفاقة وبيت المال يستقبل كل يوم من أقطار الإسلام مالاً غدَقاً .. ومن حقّه كأمير للمؤمنين أن يأخذ منه كفايته..؟

لماذا يُصر على أن يطحن بنفسه دقيقه؟ ويُرقِّع مدرعته حتى لا يبقى فيها مكان لرقاع جديدة..؟!

لماذا لا يأكل الخبز إلا قديداً مخلوطاً بنخالته؟ ويهرب من قصر الإمارة بالكوفة إلى كوخ من طين..!!

نقول لماذا ..؟

لأن الولاء للحقّ ، والزَهْوَ بالدنيا لا يجتمعان .

ولقد تعلَّم ذلك من قدوة سلفَت ، طالما كان يلهج بها ذاكراً ، ومُذكّراً..

تلك القدوة التي لم تَغِب عن خاطره لحظة من نهار ، والتي عبّر عنها فقال:

[في رسول الله ﷺ إذْ قُبِضَت عنه أطرافها ، ووطّئت لغيره أكنافها..

وفي موسى كليم الله ، إذ يقول: ربِّ إني لِما أنزلت إليّ من خيرٍ فقيرٌ ، ووالله ما سأله إلا خبزاً يأكله .

وفي المسيح عيسى ابن مريم ، الذي كان يلبس الخَشن. ويأكل الجَشب ، دابّته رجلاه ، وخادمه يداه]..!!

تلك هي المنازل العُلَى التي يُحلِّق عندها البطل الزاهد الأوّاب ، وهو لهذا لا يعدل شيئاً بِجَشِب الطعام وخَشِنِ الثياب!!

لقد كانت هوايته الكبرى ، إهانة الدنيا ، وإذلال مغرياتها الهائلة بأن يرفع في وجهها يداً لا تهتز ولا تختلج ، تقول لتلك المغريات: لا .. !!

فلمّا وَلي أمر المسلمين ، وصار لهم خليفة وأميراً ، تحوّلت الهواية إلى واجب..!

أجل ـ آنئذٍ لم يَعُدْ نبذ الدنيا وإذلال سلطانها وإغرائها مجرّد هواية لبطولته ، أو رياضة لروحه . بل صارت واجباً تفرضه مسئوليات الحكم ، وتبعات القُدوة ..

وآنئذٍ سمعناه يقول:

[أأقنع من نفسي بأن يُقال أمير المؤمنين، ثم لا أشارك المؤمنين في مكاره الزمان..؟!

والله لو شئت لكان لي من صفو هذا العسل ، ولُباب هذا البُر ، ومناعم هذه الثياب ، ولكن هيهات أن يغلبني الهوى ، فأبيت مِبطاناً وحولي بطون غَرْثَى وأكبادٌ حَرَّى] ..!!

* * *

هو إذن مُقيم لم يرحل ..

يُعلِّم الناس في كل جيل وعصر ، أن الولاء للحقّ أثمن تكاليف الإنسان ..

ويعلم الحكّام في كل جيل وعصر ، أن الولاء للحقّ يعني رفض إغراء الدنيا .. ورفضَ غرور السلطان .

وهو مقيم لم يرحل ..

يجد عصرنا هذا في نهجه وحكمه أستاذاً ومعلماً وهادياً .

فاليوم ، حيث تعبىء الحضارة كل قواها لمحاربة الفقر ، وإرباء الكفاية ، وتوزيع العدل ، نجد أمير المؤمنين عليًا .. يدرك من قرابة ألف وأربعمائة عام "بُؤس الفقر" و "وظيفة المال" إدراكَ الحاكم المسئول ، لا إدراك الواعظ المتَمنّي.

انظروا ..

هاهو ذا "ناسِكٌ" لم يمنعه نُسُكُه وزهده عن أن يعرف ضراوة الفقر وبؤسه وعداءه لتقدم الروح والضمير ، فيقول قولته الباهرة :

"لو كان الفقر رجلاً لقتلتُه"!!!

وها هو ذا يبدأ الساعات الأولى من حكمه وخلافته بوقف تضخم الثروات التي سببها التمييز في الأنصبة والعطاء بين الذين أسلموا قبل الفتح ، والذين أسلموا بعده .. فيلتزم منهج التسوية في العطاء.

وفي حدود قدرة "بيت المال" يأخذ كلٌّ حاجته ولا يزيد ..

وإنه ليفحم المعارضين لمنهجه بكلمات قِصار ، لكنها كِبار ، إذ يقول :

[لو كان المال مالي ، لسوَّيت بينهم ، فكيف والمال مال الله ، وهؤلاء عباده ..؟] .

إن "وظيفة المال" عنده ، تتمثل في سدِّ حاجات الشعب فرداً فرداً ..

وهو ـ أي المال ـ ليس "مثوبَة" على دين ، ولا تكريماً لمركز ، بل ولا ثمناً لجُهد ..

إنه قيام بضرورات العيش ، وسَدٌّ لحاجات الناس ، لا أكثر من هذا ، ولا أقلّ .

وهو بهذه المثابة ، لا يصلح قطّ أن يكون "حِكراً" ولا أن يكون "دُولة" بين أيدي قِلَّةٍ مُثرية .

إن "تحديد إقامة المال" في بضع أيْدٍ ، أو بضعة بيوت ، هدْر لوظيفته ، وإلغاء لدوره الصحيح في فِقْهِ الإمام ، الذي هو فِقه الإسلام ..

من أجل هذا قال كلمات راشدة صاغ بها مبدأ من أعظم مبادئ حكمه وحكومته :

[إن الله فرضَ في أموال الأغنياء أقوات الفقراء .

فما جاع فقير ، إلا بتخمة غَنِي] .

من العسير أن نجد عبارة تحدثنا عن وظيفة المال ويجتمع فيها المنطق العلمي ، وَالأَلَقُ الإنساني ، على أن هذا النسق الفريد والرشيد !

[إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بتخمة غني] .

ألا وإن "الإمام" بهذا المبدأ ، لا ينفي عن المال نزوة الاحتكار فحسب ، بل ينفي عنه كذلك نزوة السَّرف في إنفاقه ، والجموح في طلب المناعم به .

فجوع الفقير ناشئ عن تخمة الغني ..

والجوع والتخمة ـ كلاهما مظهر لخَللٍ في وظيفة المال وعدالة التوزيع .

فحين تأخذ وظيفة المال دورها الصحيح في تغطية المعايش وسدّ الحاجات بغير سرف أو ترف ... فآنئذٍ لا توجد "التخمة" التي تخلق الجوع ، ولا يوجد "الجوع" الذي يحقد على التخمة .

وعبارته الرشيدة هذه :

[إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء] .

تعطينا دلالتها الرائعة حكماً فقهيًا باهراً ، هو أن أموال الأغنياء ليست حقًّا خالصاً لهم ما دام في مجتمعهم فقراء .. بل هي حقٌّ لهم وللفقراء معاً .. هي حقٌّ للفقراء الذين خلَت منه أيديهم ، بقدر ما هي حقٌّ للأغنياء الذين تمتلئ به أيديهم !!

ولقد كان "الإمام" رضي الله عنه يضع مبدأه هذا كما يضع كل مبادئه موضع التنفيذ السَّديد ، لا يصرفه عن ذلك تلك الفتن المجنونة حوله ، ولا الحرب المتسعِّرة ضدَّه .

تُرى هل كان لسياسته هذه دور في تألُّب الأحقاد عليه وانفضاض الذين كانوا أنصاره بالأمس من حوله ؟!

هل كان لمخاوف المسلمين الذين أثروا ثراء كبيراً ، والذين كانوا في طريقهم إلى الثراء دور غير منظور في محاربة الخليفة الذي رفع هذا الشعار ، وهذا المبدأ :

[إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء] ؟.

* * *

على أيِّ حال ، فقد رحل عن الدنيا ـ الشكل الخارجي ـ للبطل : أما موضوعه الحيّ ومضمونه النقيّ ، فقد بقيا غذاءً للحقيقة وريًّا .

وسيظل "الإمام" حيًّا في جميع القيم ، وفي كل الحقائق التي عاش يُناضل دونها ، ومات حاملاً رايتها .

سيظل حيًّا وماثلاً في فضائله وعظائمه التي صاغ منها حياة امتدت إلى الثالثة والستين ، والتي أجاد وصفها ضِرار بن ضمرة الكناني .

فقال واصفاً الإمام :

[كان بعيد المدَى ، شديد القُوى ..

يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ..

يتفجَّر العلم من جوانبه ، وتنطلق الحكمة من لسانه ..

يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ..
كان غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفيه ويخاطب نفسه .
يعجبه من اللباس ما خشُن ـ ومن الطعام ما جَشُب ..
وكان فينا كأحدنا ـ يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه .
وكنا والله مع قُربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته .
وكان إذا تبسم فعَن مثل اللؤلؤ المنظوم .. يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين .
لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .
وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله .
وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه ، قابضاً على لحيته يتململ تَمَلْمُلَ السليم ، ويبكي بكاء الحزين .
فكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا ، يا دنيا ، إليَّ تعرّضت ، أم إليَّ تشوّقت ؟ هيهات هيهات ، غرِّي غيري .
قد أبَنْتُك ثلاثاً ، لا رَجعة فيها !!
فعمرك قصير .. وعيشك حقير .. وخطرك كبير ..
آه من قِلَّة الزاد ..
وبُعد السفر ..
ووحشة الطريق ..] !! .

* * *

لقد كان حظ الإمام مع الناس عاثراً ..
لكن حظوظه مع نفسه ـ في طهرها وتُقاها ـ كانت رابيَة ووافية .. فبغير عَون من تأييد يبذله مؤيدون وأصدقاء ..
وبغير جزع أمام المؤامرات الضارية ، يثيرها في وجهه أعداء تِلْوَ أعداء .. وقف "الإمام عليّ" يبني وحده ـ بإيمانه الفرد ، وبساعده الأشدّ ، حياة سامقة ، تبقى على مَرِّ الزمان "مناراً" لذوي الرُّشد والنُّهى .

* * *

ولئن كان لم ينصفه الذين غَلَوْا في حربه ..
ولم ينصفه الذين غَلَوْا في حُبِّه ..
فقد أنصفته عظمته الفريدة ، إذْ فرضَت على الأعداء جلالها .. وعلى الأصدقاء استغناءها ..
وسارت على وجه الزمان طاهرة ، ناضرة ، ظافرة ..
وتلكُم هي العظمة حقاً .. !!

■ ■ ■

معجزة الإسلام :

عمر بن عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة

معذرة إلى أمير المؤمنين .. من كاتب يُجاوز قدره بالحديث عنه ، والتأريخ له ـ كما جاوز قدره من قبل في محاولات مماثلة ...

ومعذرة إلى "أمير المؤمنين" .. من كاتب لم يستطع أن يكبح جماح رغبته هذه ، وهو يعلم علم اليقين قدْر مقْتِ أمير المؤمنين للحديث عنه وإطراء شمائله ومزاياه .. !

وليكن شفيعي أن ـ أمير المؤمنين ـ لم يكن مِلك نفسه .. إنما هو ابن الإسلام البار ، ومِلْكيته الثمينة .. !!

ومن ثمَّ ، فالكتابة عنه ليست حقًّا له ، بل هي للإسلام الذي كان ـ ابن عبد العزيز ـ ثمرته ومعجزته ...

أفيأذن إذن أن أؤدي للإسلام حقًّا أُطيقه ، وإن قصَّرتُ من قبل ، ومن بعد ، في حُقوق كِثار .. ؟؟

* * *

ألا إن نبأه لعجيب .. وإن تصوُّره ـ مجرّد تصوُّره ـ لأمر مُمعن في الصعوبة يا رجال .. !!

ومع ذلك فحتم علينا ، لا أن نتصور فحسب ، بل نجاوز التصور إلى التصديق ، ما دمنا نحترم التاريخ ونثق به ...

فبأوثق أسباب النقل والرواية والتأريخ ، نُقلت إلينا هذه الآيات المعجزات التي سنراها ، والحقائق المتحرِّاة التي سنشهدها ونطالعها .

أجل ـ في صدق تاريخي عظيم ، يرفض كل تساؤل وشكّ ، جاءتنا أنباء هذا الإنسان الباهر .. والحاكم القديس .. !!

وإن الصعوبة التي تواجهني الآن ، لتتمثل في : ماذا آخذ وماذا أَدَعُ من ذلك الحشد الهائل من الحقائق التي تحكي لنا جلال قداسته ... وروعة بساطته ... وسُمُوَّ عدله .. ونبل روحه ... وإعجاز مسلكه .. !!

وإذا كانت الحكمة العربية تقول : من أَخْصب تَخيَّر .. فإني أجدها الآن : من أخصب تَحيَّر .. !!

* * *

ولقد كنت أحسب أن كتاباتي في "السِّير الإسلامية" ستقف عندما أخرجت فيها من مؤلفات : عن خلفاء الرسول الأربعة .. ثم عن تلك الثُّلة المباركة من الرجال حول الرسول ﷺ .. ثم عن الإمام الشهيد "الحسين" وأبناء الرسول في كربلاء ...

كنت أحسب أنني سأقف عند هذه النماذج العالية لعصر الوحي الذي يبهرني دائماً جماله وجلاله ...

بيد أنّي ما لبثت ، حتى أبصرت هناك في الذُّرى الشاهقة مكاناً شاغراً لرجل ، هو وإن لم يَنْتَمِ لعصر الوحي تاريخيا - إذ تُفصله عنه عشرات الأعوام - فإنه بقداسة روحه وجلال نُسُكِهِ ، ينتمي إليه أروع ، وأجمع ، وأوثق ما يكون الانتماء ...

ذلكم هو معجز الإسلام - عمر بن عبد العزيز .. !!

* * *

إنه لا ينتمي لعصر الوحي فحسب .. بل إنه الرجل الذي حاول نقل عصر الوحي بمُثله وفضائله إلى دنيا مائجة هائجة ، مفتونة مضطربة ، متلفعة بالظلم والقهر ، متعفنة بالتحلل والترف . ثم نجح في محاولته نجاحاً يبهر الألباب .. !!

فهل ندهش ونذهل لأنه بمفرده حَاوَلَ تحقيق هذا المستحيل ..؟؟!!

أم ندهش ونذهل لأنه بمفرده قد حقق المستحيل فعلاً .. وجعل من المُلك العَضوض الذي شاده الأمويون عبر ستين عاماً ، خلافة أوَّابة ، عادلة ، بارَّة ، تمثل كل فضائل وشمائل عصر النبوّة والوحْي .. ؟!

ومتى .. ؟!

ليس في عشرين عاماً .. ولا في عشرة أعوام .. بل في عامين ، وخمسة أشهر ، وبضعة أيام .. !!

* * *

على أنه ليس في هذا التوفيق العظيم ، والقدرة الخارقة ، ما يجذب وحده انبهارنا .. فهناك تلك الميزة الفريدة التي جعلت من "ابن عبد العزيز" ومن سيرته أكثر الحقائق الإنسانية إثارة للعجب ، والبهْر ، والإجلال ، والتي جعلت منه أسطورة أصدق من الحقيقة .. وحقيقة أعجب من الأساطير .. !!

فهو لم يشغل الناس والتاريخ بكثرة عبادته ، ووفرة عدله ورحمته ، وسموّ حكمه وخلافته فحسب .. !!

بل إنه - قبل ذلك كلّه - شغل الناس والتاريخ وبهرهما بذلك الانقلاب الروحي المذهل ، وبالظروف التي أحدثته وواكبته ..

فقد يكشف منصب الحكم والخلافة في شاغله عن عبقرية في التنظيم ، والإدارة ، والسياسة ..

أما أن يكون هذا المنصب بكل إغرائه وفتونه وزهوه وسلطانه سبباً مباشراً لتفجير عبقرية الروح والقداسة ، فذلك ما يصعب تصورُه ، فضلاً عن تفسيره .. !!

وهذا هو الذي حدث بالنسبة لـ "عمر بن عبد العزيز" .

فعلى الرغم من أنه كان قبل استخلافه ، وطوال سِني عمره طاهراً ، صالحاً ، فاضلاً ، فإن ذلك كله لا يبدو شيئاً مذكوراً أمام حياته ومسلكه بعد القفزة المجيدة والمباغتة التي حدث خلالها أعظم وأندر انقلاب روحي شهدناه في كل بني الإنسان .. !!

ويزيد الأمر عجباً ، أن هذا الانقلاب الباهر ، تمَّ بتكامُله المطلق في بضع دقائق من الزمان .. وأن هذا الانقلاب الروحي المعجز ، لم يجئ ثمرة طارئ يُغري بالزهد ، ويدفع للعزلة والإخبات .. بل هو على النقيض من ذلك ، ثمرة مفاجأة تُفجِّر في النفس ـ مهما يكن ورعها وتقاها ـ كلَّ رغبات الحياة المتأنقة .. ومباهجها المتألقة .. !!

أجل .. ففي الدقائق ، وإن شئتم ففي اللحظات التي هُتف فيها باسمه خليفة وحاكماً لأعظم إمبراطوريات عصره وعالمِه ، تمَّ هذا الانقلاب الذي يتحدَّي كل وصف وكل تصوير ... !!

والرجل الذي كان قبل دقائق استخلافه يُضمِّخ ثيابه بأغلى العطور ، ويسكن أعلى القصور ، ويلبس أبهى الحلل ، ويأكل أطيب الطعام ، ويركب الصافناتِ الجياد ، ويبلغ دخله السنوي أربعين ألف دينار ...

هذا الرجل ذاتُه ، يصير بعد دقائق ـ لا أيام ولا ساعات ـ إنساناً آخر ، عِطره عَرَقه .. وجياده قدماه .. وملبسه من أخشن الثياب .. ومطعمه من أجشب الطعام .. ودخله لا شيء ...

فقد حمل كل ثروته إلى بيت المال .. وقصوره الفارهة لا قصور .. فقد تحوَّل عنها إلى دار متواضعة من الطين ...

وعرشه ـ يا لَجلال عرشه ـ حصير قديم يجلس عليه فوق التراب .. !!

ويزيد الأمر تعقيداً ، كما يزيده روعة وجلالاً ، أن بطل هذا الانقلاب الروحي المثير لم يكن من أوساط الناس .. بل هو ربيب الملك ، والقصور ، والأمجاد ، والنعيم ...

كذلك لم يكن ساعة هذه الوثبة الروحية الهائلة شيخاً هرماً ، في سن الستين أو السبعين ، بل كان في رائعة شبابه ورجولته ، في سن الخامسة والثلاثين ... !!

* * *

تحت أيِّ تأثير لا يُقاوم سحره ، ولا يُردُّ قدره ، وقع هذا الانقلاب داخل هذه الظروف .. ؟؟

لا شيء أمامنا سوى "مسئولية الحكم" .. نقلته في لحظات إلى قديس لا نظير له بين جميع القديسين .. !!

ذلك أنه لم يَصِر "قديس صومعة" ، بل قديس صولجان وسلطان ، ودولة من أعظم دول الأرض والزمان ..

وذلك ـ لَعَمْرُ الحقِّ ـ ما يكاد يذهب بالألباب .. !!

لقد صار منذ استُخلف يَتلوَّى تحت وقع مسئولياته ، ويصرخ من أعماقه :
[من ينقذني يوم القيامة من حقِّ الفقير الجائع .. والمريض الضائع .. والمظلوم المقهور .. واليتيم .. والأرملة .. والأسير ..] .. ؟؟!!

* * *

إيه ، يا بن عبد العزيز !! تقدَّم ، ولا تَخَفْ ..
تقدَّم .. لترى الدنيا كيف أنجب الإسلام .. وكيف ربى "محمد" وعلَّم .. !!
تقدَّم يا حفيد الخلافة والملك ، ورضيع المباهج والنعيم .. !!
تقدَّمْ يا ريَّان الشباب ، ويا ناعم الإهاب ، ويا فوَّاح العطور والعبير .. !!
تقدَّم "يا أمير المؤمنين" وأرنا اليوم مُرَقَّعاتِك ، وأسمالك .. !!
أرنا القميص الذي كنت تغسله ، ثم تنتظره في ركن دارك حتى يجفَّ ، لأنك لا تملك سواه .. !!
أرنا وجهك الشاحب ، وجسدك الناحل من فرط ما تبذل من جهد ، ومن أثر الخبز المتبَّل بالملح ، والمبلَّل بالزيت .. !!
أرنا "الحصير" الذي اتخذت منه عرشاً يا خليفة المسلمين ، ويا أمير المؤمنين .. !!
أرنا دارك التي شَدَّت إليها الرحالَ من بلاد بعيدة ، سيدةٌ جاءت تطلب المزيد من عطائها ، فلم تلبث حين رأتها أن قالت في مرارة :
أتُراني جئت أعمر بيتي من هذا البيت الخرب .. ؟!
ألا حيَّا الله "فاطمة" زوجتك ، فكم كانت صادقة حين أجابتها :
[إنما خرب هذا البيت ، عمارةُ بيوت أمثالك] .. !!
تقدَّم .. يا أمير المؤمنين !!
فما نعرف يقيناً أشبه بالأسطورة .. ولا أسطورة أصدق من اليقين ، منك أنت ، ومن نبئِك العظيم .. !!

* * *

ومعذرة ـ مرة أخرى ـ فقد نسيتُ أنك تكره الإطراء والثناء ، ولَكم كنت أودُّ أن أعِدَك ألا أعودَ ..
ولكني غير قادر .. والدنيا المبهورة بعظمتك تقف هي الأخرى عاجزة وغير قادرة ..
فمن ذا الذي يستطيع الصمت أمام الذي أتيته من مُعجزات ... ؟؟
مَنْ ... يا أمير المؤمنين ؟؟!!

« خالـــد »

الطفولة المُرهِصة

[... إنك إذن لَسعيد] !!

كان ذلك في طفولته الغضَّة الناضرة .

وكان أبوه "عبد العزيز بن مروان" يحكم مصر والياً عليها لأخيه الخليفة الأموي "عبد الملك بن مروان" ، حيث لبث "عبد العزيز" في ولايته هذه عشرين عاماً .

وغادرت "أم عاصم" المدينة المنورة حيث كانت تقيم ، لاحقةً بزوجها "عبد العزيز" في مصر ، مصطحبة معها ولدهما الحبيب "عمر" ...

وفي "حلوان" التي اكتشف عبد العزيز جمال مُناخها فاتخذها مُنتجعاً ومُستراحاً ، راح الطفل المتفتح يجري في مرابعها ، ويعبّ من هوائها .

وذات يوم ، دخل حظيرة الخيل ، فركضه جواد ، فشَجَّه وأدماه ، وحمل الطفل الجريح إلى داره ، وما كادت أمه تبصره حتى أخذها الروْع ، وفجعها المشهد .

واستُدعي أبوه ، فجاء على عجل ، ورأى الدم يغطي وجه ولده ، والشجَّة الفاغرة تنزّ ...

وقبل أن يغشاه الأسى ، طوَّفت بخاطره ذكرى ألقت على محياه تهلُّلاً ، وعلى ثغره ابتساماً ...

ولمّا فرغ من تضميد جرح طفله الحبيب ، ربّتَ كَتِفَ زوجته والبسمة تزداد على شفتيه اتساعاً وتألقاً ، وقال :

« أبشري ، يا أم عاصم » !

ثم بسط يمناه يداعب بها رأس ولده ، وعيناه تُحدقان في وجهه الشاحب الوديع ، وراح يقول له :

« إن تكن أشجَّ بني أمية ، إنك إذن لسعيد » .. !!

فماذا كانت الذكرى التي أثارها هذا الحديث ؟

وما شأن النبوءة التي أومأت إليها كلمات عبد العزيز .. ؟؟

* * *

لنعد إلى الوراء كي نشهد النبأ من أوله .. فهناك في تلك الليلة الشاتية ، حيث المدينة ساكنة ساجية ، قد أوَى الناس فيها إلى دورهم ومضاجعهم يلتمسون الدفء من ذلك الصقيع الراعد ، إلا رجلاً واحداً أفزعته ـ مسئولياته ـ وقد كانت دائماً تفزعه ـ فنَضا عنه غطاءه ، وخرج إلى طرقات المدينة التي خلت من كل حيّ ، ولم يبقَ بها سوى كتل الظلام ، وعُواء الريح ..

خرج الرجل وحده يتعسَّس ، فلعلَّ هناك جائعاً ، أو مريضاً ، أو مقهوراً ، أو ابن سبيل ...

لعل هناك شأناً من شئون الناس قد غاب عنه ، والله سائله عنه ومحاسبه عليه .. فالرجل خليفة للمسلمين وأمير للمؤمنين .

أجل .. إنه ـ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه وأرضاه .

وطال تعسُّسه وتطوافه حتى أدركه التعب ووخزه الصقيع . فلاذ بجدار دار صغيرة فقيرة ، وجلس يستريح قليلاً ليستأنف خَطْوَهُ فيما بعد إلى المسجد ، فقد أوشك الفجر أن يجيء ..

وإذ هو في مُتَّكَئِه ، سمع حواراً داخل الدار .

كان الحوار يجري بين أم وابنتها حول ذلك القَدْر الضَّحْل من اللبن الذي جاد به ضرع شاتهما في ذلك الهَزِيع ، وكانت الأم تدعو ابنتها كي تخلط اللبن بالماء ، حتى يزداد ويفي ثمنه بحاجات يومهما الوافد ..

سمع أمير المؤمنين حوارهما :

الأم تقول لابنتها :

« يا بنية ، امذُقي اللبن بالماء » (١) . والبنت تجيب أمها :

« كيف أمذُق ، وقد نهى أمير المؤمنين عن المذقْ ؟؟ » .. وتعود الأم قائلة :

« إن الناس يمذُقون ، فامذُقي ، فما يدري أمير المؤمنين بنا إن مذَقْنا ، ولا يرانا .. »

وتجيبها الفتاة :

« يا أماه ، إن كان أمير المؤمنين لا يرانا ، فرَبُّ أمير المؤمنين يرانا !! » .

واغرورقت عينا أمير المؤمنين بدموع الغبطة والفرح ، وسارع إلى المسجد ، فصلّى الفجر بأصحابه ، ثم عاد مسرعاً إلى داره ، ودعا ابنه "عاصماً" وأمره أن يأتيه بحقيقة أهل تلك الدار .

وعاد "عاصم" إلى أبيه بمعلومات وافية عن الأم وابنتها ، وقصَّ أمير المؤمنين على ولده ما سمعه من حوار ، ثم قال له وقد كان مزمعاً على زواج :

«اذهب يا بني فتزوجها ، فما أراها إلا مباركة ، ولعلها تلد رجلاً يسود العرب » !!

وتزوج ـ عاصم ـ تلك الفتاة الفقيرة الشريفة الورعة ، وأنجبت له فتاة أسموها "ليلى" ، وكَنَّوها "أم عاصم" .

ودرجت "أم عاصم" هذه في شبابها التقي النقي ، حتى تزوجها "عبد العزيز بن مروان" ، فولدت له "عمر بن عبد العزيز" .

تلك إذن ذرية بعضها من بعض .. ولقد صدقت نبوءة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الفتاة المباركة .

بيد أن هذا الجزء من النبوءة ، لم يكن هو الذي دار بخلد "عبد العزيز بن مروان" حين قال لطفله الجريح :

« إن تكن أشَجَّ بني أمية ، إنك إذن لسعيد » .

---

(١) مَذَقَ اللبنَ والشرابَ بالماء : مَزَجَهُ وخَلَطَهُ .

فللنبوءة بقية أخرى ، هي التي استجاشت الذكرى في وَعْي عبد العزيز .

ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .. رأى ذات ليلة رؤيا نهض من نومه على أثرها يعجب ويقول :

« مَن هذا الأشجُّ من بني أمية ، ومِن وَلد عمر يسمَّى عمر ، يسير بسيرة عمر ... ويملأ الأرض عدلاً » .. ؟؟

رأى "عمر" هذه الرؤيا ، واستشرف ذلك الغيب قبل أن يولد حفيده "عمر بن عبد العزيز" بقُرابة أربعين عاماً !!

وانتقل ابن الخطاب رضي الله عنه إلى الرفيق الأعلى ، وظلت نبوءته هذه تُدَوِّي بين أهله وذويه الذين راحوا يتلمسون تلك العلامة في وجوه أبنائهم .

وحين وُلد لعبد الله بن عمر ابنه "بلال" وأصيب في طفولته بشَجَّة في وجهه ، حسبوه المبَشَّر الموعود ، لكن الأقدار تخطته حتى جاء اليوم الذي شُجَّ فيه وجه ابن عبد العزيز ، فتذكر أبوه النبوءة القديمة ، وقال قولته المفعمة بالرجاء والأمل ..

« إن تكن أشجَّ بني أمية ، إنك إذن لسعيد » !!

* * *

هذه إحدى ظواهر الإرهاص في طفولة ـ بطلنا ـ وليست كل الظواهر .

فلسوف نرى إرهاصات طفولته تُغطي ببشائرها كل مجال ، وتتكامل بالقدر الذي سيكون عليه تكامُل الدور العظيم لحياة الرجل في ـ عمر بن عبد العزيز ـ وحياة الخليفة فيه ...

وهذا الإرهاص لا يتمثل في تلك العلامة الجسمانية التي أحدثتها شجَّة الوجه فحسب ...

بل يتمثل في ذلك الانتماء المزدوج للنقيضين الكبيرين :

عمر بن الخطاب وسلالته التقية الورعة .

والأمويين ، وسلالتهم المتقحمة المستهترة .

وهنا يجاوز الإرهاص شخص "عمر بن عبد العزيز" إلى دائرة أوسع ، ومغزًى أبعد .

فكأنَّ القدر ، وقد أمهل بني أمية حين اغتصبوا الخلافة ، وأحالوها إلى مُلْك عضوض ، وإلى مزرعة أموية ، قد قرر أن يجيئهم برجل منهم ، يُذيع على الملأ وثائق إدانتهم ، ويرُد إلى دين الله حقيقته المضيئة ، وإلى دنيا الناس عافيتها الغائبة ، وإلى منصب الخلافة كرامته وتُقاه .. !!

ثم يكون للدنيا بأسرها آية على ما يستطيع الإسلام العظيم أن يصنعه حين تتقمَّص رُوحه الغلابة المشرقة رجلاً من الناس ، فتحيله إلى نور إلهي مُعجز ، حتى حين يجيء هذا الرجل من أصلاب أولئك الذين ملأ أكثرهم الأرض فساداً وبغياً !!

* * *

على أن هذا النوع من الإرهاص كان يدور خارج شخصية الطفل الموعود ..

هو إرهاص يديره القدر بنفسه ولحسابه ، دون أن يكون للطفل دخل فيه ، أو عِلم به ...

فلننتظر الآن نوعاً آخر من ذلك الإرهاص ، كانت شخصية الطفل مادّته وأداته .. وكان مظهراً لجهده الذاتي في اكتشاف نفسه ، وبناء شخصيته ، حيث نبصر رغبات الطفل تشير إلى مستقبل الرجل ...

وحيث نلمح في اتجاهه النفسي والعقلي ـ إبان طفولته ـ من النضج والاستواء والرشد ما يُرهص بِغَده ، ويبشره بمستقبله .

ولقد تحدّث هو فيما بعد عن طفولته تلك فقال :

« لقد رأيتني بالمدينة غلاماً مع الغلمان ، ثم تاقت نفسي للعلم ، فأصبت منه حاجتي » !!

ومن هنا تبدأ إطْلالَتُنَا الواسعة على الإرهاص الذاتي لهذه الطفولة المباركة . فلقد رغب الطفل إلى أبيه أن يغادر مصر إلى المدينة ليدرس بها ويتفقّه .

والمدينة يومئذٍ منارة للعلم والصلاح ، تمتلئ بالعلماء والفقهاء ، والعبّاد والصالحين .

كما أنها مجتمع يموج بالنبوغ الإنساني في فنون الشعر ، والعزف والغناء .

ويستجيب ـ عبد العزيز بن مروان ـ الذي كان من خيار بني أمية وبني مروان ، وأكثرهم قرباً من الهدى والتقى والصلاح .. يستجيب لرغبة ولده ، ويرسله إلى المدينة المنورة ، ويعهد به إلى واحد من كبار معلّمي المدينة وفقهائها وصالحيها .. وهو "صالح بن كيسان" .

* * *

إن طفلاً كصاحبنا ، نشأ في قصور المُلك والنعيم .. يحمل لقب "سمو الأمير" .. وبين يديه ، بل ملء يديه من مناعم الحياة ومباهج الأيام أكثر مما يشاء ، ما كان يُتوقع منه ـ وفي طفولته على الأقل ـ إلا أن تحمله أشواق الطفولة ورغباتها إلى دنيا اللهو والمرح والانطلاق .

فما بالُه ينأى عن ذلك كله ، وينزع بكل فؤاده وهواه إلى آفاق الرجال ، بل حكماء الرجال .. ؟!

ثم ما بال طفولته لا تُرهِص ببعض خصائص اكتماله المقبل فحسب ، بل تُرهص بكل هذه الخصائص على نحو عجيب .. ؟!

أجل ... إن كلّ تألُّقات سلوكه الذي سنراه عندما يصير خليفة للمسلمين ، تبدو بشائرها في حياة الطفل والغلام مجتمعة متكاملة .

فخوفه الشديد من الله ...

وإقباله النهم على العبادة والعلم ...

وتقديسه المطلق للحقّ، ودحْضُه القوي للباطل ..

وولَعُه بمعالي الأمور ..

كل تلك الخصائص والسجايا التي ستشكل سلوكه وحياته في أثناء خلافته، نرى بشائرها كلها في نشأته الباكرة تزأول تدريبها الذكي في توفيق عظيم.

فهو كما رأينا من قبل يرغب إلى أبيه كي يرسله إلى المدينة ليتزود من فِقْهِها وعِلْمِها قائلاً له:

« دعني أذهب إلى المدينة، فأجلس إلى فقهائها، وأتأدب بآدابهم».

ثم لا يكاد ينزل بها حتى يلوذ بالشيوخ والعلماء والفقهاء، متجنباً أترابه ولِدَاته.

ويعكف على حفظ القرآن حتى يُتم حفظه في زمن جدّ قصير ووجيز ..

ويقبل على العربية، وآدابها، وشعرها، فيستوعب من ذلك كله محصولاً وفيراً.

وقد يبدو هذا النوع المبكر أمراً مألوفاً إذا هو قيس بالمستويات المتفوقة للطفولة الناجبة الذكية.

ولكنْ هل يبلغ مثل ذلك النبوغ من ضمير طفل ما يملؤه خشيةً لله، وما يجعله يبكي وينتحب من مخافة الله .. ؟!

لقد كان ـ عمر بن عبد العزيز ـ ذلك الطفل الوَرِع البكّاء.

فاجأته أمه ذات يوم، وهو في حجرته وحده يبكي وينتحب، فألقت نفسها عليه تسأله ما دهاه؟ فكان جوابه:

« لا شيء يا أماه، إنما ذكرت الموت» .. !!

وقد تراودنا الرغبة في تفسير واقعة كهذه، بأنها حالة عارضة، ربما أثارها مِزاج نفسي طارئ .. أو لعلّه كطفل مُرهف الحسّ جزع من صورة الموت الذي سيسلبه مسرّات هذه الحياة ..

بيد أن للصورة أبعاداً أخرى.

فمعلّمه "صالح بن كيسان" فقيه المدينة العظيم، يعطينا الصورة كاملة وهو يتحدث عن طفولة ابن عبد العزيز فيقول:

« ما خَبَرْتُ أحداً، الله أعظم في صدره من هذا الغلام» !!

وحين يتحدث عالِم في منزلة "ابن كيسان" أنه لم يَرَ أحداً "الله أعظم في صدره، من هذا الغلام"، فإننا نجد أنفسنا أمام نموذج إنساني نادر المثال .. !!

ذلك أن هذا القدر من الورع وخشية الله وإجلاله، إنما يُواتي الأفذاذ من الصالحين بعد أن يكبروا ويتقدم بهم العمر .. أمّا وهم غلمان صغار فهيهات، إلا أن يكون واحداً من أولئك الذين يَصْطَنِعهم الله لنفسه، ويَصْنَعُهُم على عينه .. !!

* * *

وتَبهرنا طفولة "ابن عبد العزيز" بطريقتها في اختيار القدوة والمثَل الأعلى ..

فقد رأينا الغلام يجنح بكل ثقله الوجداني والعقلي إلى جانب الشيوخ ، بما معهم من دين ، وحكمة ، وفِقْه ، وخُلق .

ثم يذهب في تمييز مثله الأعلى واختياره مذهباً يبهر الألباب .

فالغلام الصغير ، لا يستمد مَثَله الأعلى من بيئته التي تعجّ بالأمراء والملوك ، ولا من دنياه الحافلة بالمباهج والزخرف .. ولا مِنَ الرُّؤى والأحلام المناسبة لسنّه وطفولته .

إنما يرسل بصيرته الذكية إلى الآفاق البعيدة والمجيدة لتعود إليه بِمَثَله الأعلى ، متمثلاً في شخص أعظم ، وأعلم ، وأوْرَع ، وأتقى أهل زمانه ـ ذلكم هو "عبد الله بن عمر بن الخطاب" !! .

و "عبد الله بن عمر" هو عَمّ والدة عمر بن عبد العزيز .. فهو منه بمثابة الجَدّ ، وإن رأينا الغلام يحلو له أن يدعوه بخاله .

لقد راح منذ نزل المدينة يلوذ به ويلازمه ، ويتلقّى عنه ، ويتأسّى به ..

وكان إعجابه به شديداً ، فهو دائم الإشادة بعِلْمه ، وورعه ، وسخائه ، ونُبل روحه .

ولطالما كان يداعب والدته بهذه الكلمات المصمّمة .

« **تعرفين يا أماه !! ؟؟ لأكُوننَّ مثل خالي ، عبد الله بن عمرٍ** » !! إنها روح كبيرة ..

أكبر عشرات المرّات من جسم صاحبها الغضّ ومن سنه الناشئة .

إنها روح غلام يتعجل رجولته ، ليس لِما فيها من فتوّة ، وزَهو .. بل لِما فيها من اكتمالٍ لفضائله وازدهار لخصائصه وشمائله ..

* * *

وفي طفولة ـ ابن عبد العزيز ـ نرى احتراماً للنفس ، نادر المثال .

فهو لا يتجنب اللهو المباح لأمثاله وأنداده فحسب .. بل يأخذ نفسه أخذاً وطيداً بما لا يقدر عليه سوى أولي العزم من الرجال .. !!

وهو لا يتجنب من الأخطاء ما يُحاسَب عليه الكبار ، ويُغتفر للصغار .. بل يتجنب منها كل خطأ كبير أو صغير .

فرذيلة ـ كالكذب ـ مثلاً ـ يواجهها الغلام بمقت شديد ، ورفض أكيد ..

ولسوف نسمعه يتحدث فيما بعد عن نفسه فيقول :

« **ما كذَبْت مُذ شددتُ عليَّ إزاري وعلمتُ أن الكذب يشين أهله** » !!

* * *

وفي طفولته الراشدة ، تبهرنا الاستجابة الفريدة التي كان الغلام يتوسل بها لتصحيح ما يتكشف له من خطأ ، وتنمية ما يُتاح له من سَداد .

حدَث يوماً أن تأخر بعض الوقت عن صلاة إحدى الفرائض مع جماعة المصلين بمسجد الرسول في المدينة .

وسأله معلمه ومؤدبه "صالح بن كيسان" عن سبب تأخره ، فأجاب الغلام في صدق: « كانت مُرَجِّلَتي تمشط شعري » . وقال له أستاذه في عتاب : « أوَ تُقدم تصفيف شعرك على الصلاة » .. ؟

وكان ـ عبد العزيز بن مروان ـ قد أوصى "صالح بن كيسان" أن يكتب إليه دوماً بكل أخبار ولده ، فكتب إليه عن هذه الواقعة ، فجاء أمر عبد العزيز إلى ولده أن يحلق شعر رأسه جميعه .. !!

وهنا نبصر الغلام وهو يزيل أنصع مظاهر وَسامته وأناقته .. يفعل ذلك وهو ممتلئ النفس غِبْطة ورضا ، ليس فقط لأنه عرف كيف يمتثل ويطيع حيث يجب الامتثال وتلزم الطاعة .. بل لأنه وجد في ذلك تكفيراً عن خطئه الذي اجترحه حين ترك رغبته في استكمال أناقته ووجاهته التي أخَّرته بعض الوقت ـ لا كلّ الوقت ـ عن موعد الصلاة ... !!!

* * *

إن التطلع إلى السَّداد يحدو روح الغلام بشكل فَذّ إلى ـ سدادِ الشعور ، وسداد التفكير ، وسداد السلوك ، وسداد الإرادة .

وهو ، على الرغم من كونه مجرَّد غلام صغير لا ينظر إلى نفسه كأمير ، له الحقّ في كثير ، أو حتى في قليل من التدلُّل والامتياز .

بل هو ينظر إلى نفسه كإنسان عادي . لروحه وحدها الحقّ في الامتياز بما تكتسبه من معرفة ، وفضيلة ، وصواب .

ونعود فنقول : إن المعجز في هذا كله ، أن بطله ليس إلا مجرَّد غلام .. غلام في سِنّ اليَفاع .. !!

وغُلام وُلد في أحضان النعيم ، ونشأ في دنيا حافلة بالترف والإغراء .. !!

ومن أبهى مظاهر استجابته الرشيدة لتصحيح الخطأ ، واستكمال الرشد ، هذه الواقعة التي يرويها مؤرخو سيرته .. !!

فلقد كان ـ في طفولته ـ متأثراً بموقف الأمويين من الإمام عليّ كرم الله وجهه ، وبالأباطيل التي روَّجوها ضده . ولم يكن الغلام قد تبيَّن بعدُ وجه الحقّ في الصراع الذي نشب بين الإمام الراشد الشهيد ، وبين العائلة الأموية .

وحدث يوماً أن ذُكِر الإمامَ بسوء ، وانتقلت كلماته إلى شيخه الصالح "عبيد الله بن عبد الله بن عتبة" الذي كان ـ عمر ـ يكنُّ له أعظم الحب والتوقير .

وذات يوم ذهب الغلام لزيارة الشيخ ، فأعرض عنه ولم يغمره بما عوَّده من وُدّ ..

وأدرك الغلام أن في نفس شيخه شيئاً منه ، فحاول بسؤال جانبي أن يتبين الأمر ، فانفجر فيه شيخه قائلاً :

«متى علمتَ أن الله سَخِط على أهل بدر ، بعد أن رَضِيَ عَنهم » .. ؟!

وفهمها الفتى الذكي الرشيد من فوره .. !

فَهِمَ أن أدنى مزايا "الإمام عليّ" ... وأقلَّ فضائله ، وخصائصه ، أنه من أهل بدر الذين أخبر الرسول ﷺ أن الله نظر إليهم فقال لهم :

« اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » .

وصحا على هذه اللفتة من شيخه صحوة ذكية رضيَة ، وأقبل عليه يقول له في خضوع وندم :

« معذرة إلى الله .. ثم إليك » .

« ووالله لا أعود لمثلها أبداً » .. !!!

ثم عكف على دراسة القضية من جديد بعيداً عن لغو الأمويين وأباطيلهم ، حتى اهتدى إلى الصواب في يُسر ، وتحوَّل إلى مُنافح عن الإمام العظيم .. حتى لقد جلس يوماً ـ كما يروي لنا بعض المؤرخين ـ بين نفر من العُبّاد والصالحين راحوا يستعرضون فيما بينهم أقطاب الزهد والورع في الإسلام ، فإذا ابن عبد العزيز يصدع فيهم بهذه الكلمات :

«أزهد الناس في الدنيا ، عليّ بن أبي طالب عليه السلام » !!!

* * *

إن الحديث عن الطفولة المرهصة للأغرّ ابن عبد العزيز لا يكاد يُؤْذن بانتهاء إذا نحن استطردنا وراء وقائع الحياة المتسامية للطفل وللغلام .

ولقد تجلّت في تلك السنوات الباكرة الناضرة عزيمة ماضية مقتدرة ، راحت تحرك دوافع الغلام وتقودها على طريق الخير والفضيلة والكمال ، حتى استطاعت طفولته أن تكون نموذجاً متكامل الخصائص والسِّمات لسنوات خلافته التي ستجيء بعد ذلك بقرابة ثلاثين عاماً ، والتي ستكون آية من آيات الله الكبرى ، ومعجزة فريدة من معجزات الإسلام ..

وعلينا الآن أن نتابع هذه الطفولة الفذّة .. أو بتعبير أصح ، علينا أن نجاوزها ونتخطاها ، لنواجه مرحلة أخرى من مراحل تلك الحياة العجيبة المثيرة الجليلة ، ريثما نبلغ فيما بعد عصر الخلافة والإعجاز .

■ ■ ■

النّفسُ التوّاقة

« ... إن لي نفساً توّاقة ، لا تنال شيئاً
إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه» !!

حين جاءه الشباب ، ومن بعد الشباب الرجولة ، كانت فضائله العالية قد وُضع أساسها في رسوخ وثبات .

وكانت كفاياته ومواهبه ، قد انطلقت تعبّر عن نفسها ، وتعطي من طاقاتها .

وفي فترة الشباب ، بكل ما للشباب من جموح وطموح ، نرى الكفايات كثيراً ما تُؤْثِرُ أن تنفرد بالعمل بعيدة عن تأثير الفضائل التي تحاول كبح جماحها ، وبخاصة إذا كانت تلك الكفايات والمواهب انعكاساً لطاقة جيّاشة تمورُ مَوْراً بالحيوية والاتّقاد .

ولقد كانت مواهب ابن عبد العزيز ، التي فجّرها شبابه ، من ذلك الطراز المتّقد الجيّاش ، بيد أنها لم تكن من ذلك الطراز الذي يؤثر العمل بعيداً عن فضائل صاحبه .

ذلك أن شخصية ـ عمر ـ كانت مُتكاملة على نَسق فَذّ ، تكامُلاً أتاح أعظم قدر من التعاون والتعاضُد بين المواهب والفضائل في ذاتِ نفسه ، وبالتالي في منهجه وسلوكه .

كل الذي سنراه يحدث في شبابه ورجولته ، أن فضائله التي كانت إبان الطفولة تعبّر عن نفسها وتعلن عن وجودها تعبيراً محدوداً .. ستوسّع الآن ـ من آفاق تعبيرها ، وانعكاسات وجودها ..

ذلك أن الشباب يجيء دائماً ـ حين يجيء ـ بمسافات واسعة للأحلام والرؤى ، والحركة ..

والفضائل التي كانت إبان الطفولة ترسل عبيرها من براعمها الحلوة ، تغادر تلك البراعم الآن ، وتذهب في نموّها الجديد لتملأ المساحة الواسعة العريضة التي جاء بها الشباب .. وهكذا تتعدّد تعبيرات تلك الفضائل ، وتتكاثر مظاهرها .

ولنضرب لهذا مثلاً من حياة "عمر" ..

إن "أناقة النفس" فضيلة بزغت في طفولته ، ورأيناها تعبّر عن نفسها آنَ ذاكَ بالترفُّع عن اللعب مع الأتراب والأنداد ، والإقبال على مجالس الحكمة مع العلماء والفقهاء .

كما رأيناها تعبّر عن نفسها بالترفع عن الدنايا ، كالكذب مثلاً ، الذي أدرك الطفل ـ وهو طفل ـ أنه يُزري بصاحبه ويوقع به الأذى والضُّر ..

كما رأيناها تعبّر عن نفسها بتجنُّبها لغو القول ، ولَغو العمل ، والاستعاضة عن الأول بالصمت المتأمِّل المفكر .. وعن الثاني بالجدّ المثابر المتزن ..

هذه الفضيلة نفسها التي أسميناها "أناقة النفس" نلتقي بها في شباب "عمر" تنمو وتتمدّد مستصحبة معها تعبيراتها في أثناء الطفولة في نماء جديد لها . ثم مستحدثة تعبيرات أخرى فجّرها وَعْيُ الشباب ومشاعره .

وهكذا ترى "أناقة النفس" تتسع لتشمل أناقة المظهر ، لا باعتبار هذه الأناقة ترفاً ، أو تَأَنُّـقـًا ، بل بوصفها امتداداً لفضيلة أناقة النفس واتساعاً لدائرتها ..

ومن ثمَ نبصر الشاب والرجل في "عمر بن عبد العزيز" يلبس أبهى الثياب وأغلاها .. ويُضَمِّخ نفسه بأبهج عطور دنياه ، حتى إنه ليعبر طريقاً مَّا ، فيعلم الناس أنه عَبَره من ذلك الأريج الفوَّاح الذي يعبق به جو ذلك الطريق زمناً طويلاً .. !!

ثم هو يتأنق في كل شيء .. حديثه .. لفتاته .. مشيته التي انفرد بها ، وشغف الشباب بمحاكاتها ، وعُرفت لفرط أناقتها واختيالها بـ "المشية العُمَرية" .. !!

ولكن ، لماذا نقول : إن هذا الإفراط في أناقة المظهر كان امتداداً لفضيلة "أناقة النفس" ، ولا نقول: إنه كان ردَّ فعل لها ؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل ، هي الإجابة نفسها عن تساؤلات كثيرة ستطرح نفسها علينا كلما رأينا ابن عبد العزيز ـ وما أكثر ما سنراه ـ يعبُّ من مناعم الحياة عبًّا ، ويأخذ من أطايبها ومباهجها بغير حساب .

والجواب عن كل هذه التساؤلات ، أننا لم نرَ في كل مظاهر النعيم هذه ، ردود فعل تعكس ظمأً أو جوعاً ، أو كَبْتاً ، لأن صاحبها لم يكن يقف من النعيم منذ وُلد موقف الظمآن المحروم ، ولا الكابِت المكظوم ..

هذا ، أولَ ..

وحقيقة أخرى ، هي أن "عمر" ـ في أروع تألقات وتأنقات شبابه ورجولته ، وفي الأيام التي كان يخوض خلالها في النعيم خوضاً ـ لم يُعرف عنه قطَّ أنه ارتكب إثماً أو اجترح خطيئة من تلك التي تشكل رَدَّ فعل لِهَوًى مكبوت ، أو رغبة مكظومة .

وعلى أيِّ حال ، فإن تفتحاً هائلاً غمر شخصية الشاب والرجل ..

وإن نفسه التوَّاقة ـ كما وصفها هو ـ لتتقدم خلال هذا التفتح العظيم لشخصيته ، نحو كل المطالع الجديدة لخصائصها وإمكاناتها .

والطبيعة العربية في جوهرها النقي ، من أشد الطبائع الإنسانية رفضاً للكبت ، حتى حين يكون كبتاً لأهواء آثمة ، فكيف إذن حين يكون ـ كما في موضوعنا هذا ـ كبتاً لرغبات مشروعة ، وطموح فاضل وقويم .. ؟!

وهكذا ندرك أن تلك المباهج التي ستغمر وتميِّز حياة "عمر" في هذه الفترة الطويلة من حياته ، لم تكن ردَّ فعلٍ لفعل مُساوٍ له في القدر ، مُضاد له في الاتجاه .. بل كانت امتداداً للفعل الأول ذاته ، ولكن في مطالع جديدة .. وأزياء جديدة .. !!

وفي هذه الفترة من حياته تتعاون وراثاته مع مواهبه تعاوناً وثيقاً ، فالنفس التوَّاقة التي سنراها ، تُحرك مشاعره وتقود خطاه ، نجدها لدى أبيه "عبد العزيز بن مروان" تدفعه هو الآخر إلى معالي الأمور على نحو عجيب !!

حدث أن لَحن يوماً في حديثه مع رجل جاء يشكو إليه خَتَنه ، أي زوج ابنته ، فسأله عبد العزيز : ومَن خَتَنَك ؟

فأجاب الرجل : خَتَنني الخاتن الذي يختن الناس .

فقال عبد العزيز : إنما أسألك عن اسم خَتَنِك ..

فأجابه الرجل مُعقباً : إذن كان ينبغي أن تقول : من خَتَنُك ، بضم النون لا بفتحها .

فأسرَّها "عبد العزيز" لنفسه في نفسه .

وفي اليوم التالي أغلق عليه داره ، وراح يتدارس نحو اللغة وقواعدها مع نفر من العلماء النُّحاة ، حتى أجادها وأتقنها ، وصار مضرب المثل في الفصاحة .. !!

ليس ذلك فحسب ، بل أذاع بين الناس في مصر وإفريقيا ـ حيث انتظمها حكمه وسلطانه ـ أن الذين يتعلمون العربية ويجيدونها سيكون عطاؤهم من بيت المال أَوْفَى من الآخرين .

وتاقت نفسه إلى الجود ، فصار أجود أمراء بني أمية جميعاً وأسخاهُم ، ولم يكن يُعطي عطاءه للشعراء كي يمتدحوه ويتملقوه كما يصنع الآخرون ، بل كان يعطي الذين هم بحاجة إلى العطاء .

وكان شعاره في هذا السلوك كلماته المأثورة :

« عجبت لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويُخلِف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم الأجر وحُسن الثواب » ؟!

ولقد وصفه مؤرخو سيرته ، فقالوا :

« كان من أعطى الناس للجزيل » !!

كذلك كانت نفسه تواقة للتقوى ، ومخافة الله ، وإن لم يبلغ فيهما ما بلغه ابنه من بعده ، ولقد عبَّر عن هذه الخشية لربه حين أدركه مرض الموت ، فكان يقول :

«وَدِدْتُ أني لم أكن شيئاً مذكوراً .

ولوددت أني دَفْقة في هذا الماء الجاري .

أو نَبتة بأرض الحجاز » .. !!

هذه النفس التواقة عند الوالد تنتقل إلى الابن على نحو أعظم ، وأشمل ، وأغزر .

ولسوف نلتقي بشخصيته المتطورة تحيا حياتها في مهرجان حافل بالنشاط والإبداع والاستمتاع ـ لا يمنعها تحرُّج ، ولا يصدها تأثُّم ، لأنها في نشاطها وإبداعها واستمتاعها ، لا تعمل بمعزل عن فضائلها ، بل تعمل في صحبة هذه الفضائل جميعاً .

* * *

قلنا : إن المدينة يومئذٍ كانت مجتمعاً كبيراً حافلاً بكل صنوف النشاط الإنساني .

فالجانب الروحي ينهض في ممثليه من الزُّهَّادِ ، والعبَّاد ، والصالحين ..

والجانب العلمي في مُمثِّليه من العلماء ، والفقهاء ، والمحدِّثين ..

ودنيا الفنون ، ممثلة في الشعراء ، والعازفين ، والمغنِّين ..

ولقد أشبع ـ عمر ـ نزعته الروحية منذ طفولته بصحبة العابدين والزاهدين والتلقي عنهم ..

كما أشبع طموحه العلمي بجلوسه الطويل بين أيدي العلماء والفقهاء ، وبتعلمه منهم ، وتأسِّيه بهم ..

ولسوف تواصل دوافعه الروحية والعقلية نمُوها ورحلتها .

لكنَّ الجديد الذي نلتقى به الآن في شبابه ، هو نزوعه الفنِّي العجيب الذي يكشف عن موهبة فنية أصيلة لديه .. !

إن الرجل الذي أذن لكل مواهبه أن تنشَط وتتألق ، يفاجئنا الآن بصوت شَجِيٍّ عذب ، لو احترف الغِناء لَبذَّ بصوته أساطِينَه . كما يفاجئنا بموهبة في التلحين ، لو احترفها لبذَّ بها أقطابَه .. يسبق هذا وذاك وَلَعُهُ بالشعر العربى وحفظه الكثير منه ، وقدرته على نقده ، وتمييز أجودِه ، من جَيِّده ، من رديئه ..

لقد وضع الفنَّان الموهوب لحناً آسراً لهذه الأبيات :

سُلَيْمَــى أزْمَــعَتْ بَيْنًــا ... فأين تَـظُـنُّــهــا أيْـنـــا
وقـــد قــــالت لأتـــرابٍ ... لــهــا زُهْــرٍ تَــلاقَـيْـنـا
تـعــالَـيْــنَ فـقــد طــابَ ... لنــا الـعـيْــش تَـعَـالَـيْـنَـا

وراح يتطرب بها ويتغنى لنفسه وبين أصدقائه ، بَيْدَ أنَّ اللحن لم يلبث حتى ذاع ، فراح المغنون يَشْدُون به في كل مكان .. !

ولقد كان ابن سريج ، وهو عميد المغنين بالحجاز يومئذٍ ، يغني من لحن "عمر" :

عَـلِــقَ الـقــلـبُ سعــادا ... عـــادت الـقــلــبَ ، فـعـــادا
كـلـمـــا عـــوتب فيـهـــا ... أو نُـهِـي عنـهـــا تـمـــادى
وهـــو مـشـغـوف بِـسُـعْـدَى ... قـــد عَـصَــى فـيـهـــا وزادا

غير أنه برغم استمتاعه بكل صوت جميل .. وانتشائه بكل غِناء عَذْب ، بل على الرغم من صوته الندي الشجِيِّ ، لم يكن يُرخي العنان لموهبته واستمتاعه ، فقد كان صوتُ تُقاة يعلو دوماً داخل نفسه ، حتى إننا لنراه يقول ـ أكثر من مرة ـ وهو يستمع لابن سريح يُغني : «لله دَرُّ هذا الصوت ، لو كان بالقرآن» !!

ونجد الشعر يظفر منه باهتمام كبير ، ولا غَرْوَ . فالشِّعر يومئذٍ كان ثقافة العصر ولُغته ..

ولئن كان ـ عمر ـ لم يقرِض الشِّعر ولم ينشئ قصائده ، فإن نفسه التوّاقة التي جعلته يُزاحم في العزف والغناء أقطابهما حتى يتفوّق عليهم دون أن يشاركهم الاحتراف .. هذه النفس التواقة تدفعه لكي يُدلي في ثقافة العصرِ بدَلْوِهِ العظيم ، فإلى جانب ما حصَّل من علوم الدين والفقه ، راحِ يُقبل على الشعر حافظاً وناقداً .

ولقد كان الولع بالشِّعر من أوضح سِمات المجتمع العربي والإسلامي في تلك العهود .

وفي العصر الأموى ، كان له دَوِيّ كدويِّ النحل ، وكان فحُوله الثلاثة ـ جرير ، والفرزدق ،

والأخطل ـ الذين نُعِتُوا بـ "المثلث الأموي" .. يملئونَ الدنيا ويشغلون الناس ..

* * *

ولسوف تطرأ على حياة الشاب ظروف جديدة تشدُّ زناد نفسه "التوأقة" إلى أقصاه في مضمار التفوق في مجال العلم ودنيا الشعر .

ذلك أن أباه ـ عبد العزيز بن مروان ـ يموت بمصر حيث كان والياً ، ويدفن تحت ثراها الطيب ، فيضم الخليفة "عبد الملك بن مروان" ابن أخيه إليه ، ويزوجه ابنته "فاطمة" .

وعبد الملك هذا ، كان طويل الباع في الفقه ، والعلم ، والشّعر ، بل كان في الفقه يُضاهَى بعروة بن الزبير ، وسعيد بن المُسَيَّب .

قال عنه الشعبي :

« ما ذاكرت عبد الملك حديثاً إلا زادني فيه ، ولا شعراً إلا زادني فيه » .

وقال هو عن نفسه :

« شَيَّبني ارتقاء المنابر ، وخوف اللَّحن » .

ولعلَّ حواره هذا مع جرير يعطينا صورة لخبرته الواسعة بالشعر والشعراء . فقد سأل جريراً يوماً :

مَن أشعر الناس ؟

قال جرير : ابن العشرين . يعني طَرَفة بن العبد ، لأنه قُتل في سن العشرين .

قال عبد الملك : فما رأيك في ابني سُلمى .. ؟ يعني زهيراً ، وابنه كعباً .

قال جرير : كان شعرهما نَيِّراً ، يا أمير المؤمنين .

قال عبد الملك : فما تقول في امرئ القيس ؟

قال : اتخذ الخبيثُ الشعر نعلَيْن .

قال الخليفة : فما تقول في ذي الرُّمَّة ؟

قال جرير : قدَر على طريف الشِّعر وغريبه ، كما لم يقدر على ذلك أحد ..

قال عبد الملك : فما تقول في الأخطل .. ؟

... ثم ما تقول في الفرزدق .. ؟

... ثم ما رأيك في نفسك وشِعرك .. ؟

ويمضي الحوار بينهما طويلاً ـ كما يرويه صاحب الأغاني ـ لتتجلى من خلاله الخبرة العميقة بهذا الفن لعبد الملك بن مروان . والآن ، وعمر بن عبد العزيز يعيش مع هذا العلامة تحت سقف واحد . فإن نفسه التواقة تدفعه دفعاً قويًّا ليضارع هذا العَمَّ المتفوق في الفقه ، وفي العلم ، وفي الشّعر .. !

بيد أن الزمام باقٍ دائماً في قبضة فضائله .. وأيَّانَ تذهب مواهبه وتُحلِّق ، فإن لفضائله ولدينه الكلمة الأخيرة ، مهما تتواثب نفسه التواقة ، ومهما يأخذها الطموح ، فمع ولعه

بالشِّعر وإقباله عليه ، نلقاه يعزف عزوفاً نبيلاً عن كل ما فيه من إسفاف الهجو والتشبيب . حتى لسوف نراه حين يصبح والياً للمدينة ، يخرج منها "عمر بن أبي ربيعة" لِما كان يزخر به شعره من مجَانة ، واستخفاف بالحُرمات .. !!

* * *

خلاصة القول ، أن عمر بن عبد العزيز أسلم مواهبه لغاياتها البعيدة .. كما أسلم شبابه لطيبات الحياة ونعيمها في نطاق ما أحلّ الله لعباده .. ولقد ساعد طبيعتَه الجياشة في الظفر بكل ما تريد ، أنها وجدت في الحلال أقصى ما تريد .. وأن الشاب الذي لم يكن ينقصه الفقه وسَعة الأُفق . لم يُحاول كبح جماحها قطّ .. !!!

لكأنما سرَّه منها شرفُها واستقامتها وترفُّعها ، فكافأها على ذلك وأثابَها بتركها تنال من المناعم ، وتظفر من الطيبات بأقصى ما تشتهي وتريد ..

ولكأنما أراد القدَرُ الحكيم أن يجيء شباب ابن عبد العزيز على هذه الصورة المستغدِقة ، حتى إذا تسنَّم الخلافة فيما بعد ، ووقع في حياته ذلك الانقلاب الروحي الذي سَيحوِّله إلى واحد من أعظم القدّيسين ، يتبين للدنيا يومئذٍ أن زهده وورعه لم يكونا مظهراً لطبيعة منطوية ، هادئة هامدة .. بل كانا ثمرة تفوُّق روحي خارق ، على طبيعة هادرة بالطاعة .. جيّاشة بالطموح .. !!

أجل .. لسوف يُرينا القدَرُ من أمر هذا الرجل عجباً .. !!

فبينما هو اليوم يُجاءُ له بثوب من أغلى وأثمن وأنعم حرير العراق فيتحسَّسُه بأنامله ثم يقول متأفِّفًا :

« ما أخشَنه من ثوب .. !! »

إذا به غدا عندما سنلتقى به خليفة للمسلمين ، يُجاء له بثوب خَشِن يعافُه أكثر الناس فقراً ، فيتحسَّسه بنفس الأنامل ، ثم يقول والدموع تنهمر من عينيه :

« ما أليَنَه ، وأنعمَه ..

إيتوني بثوب أخشنَ مِنه .. !!! »

* * *

فَلْيَتُقِ الأمير الأموي ما شاءت له نفسه التواقة الذواقة ، فإن فترة تَوَقُّهِ هذه ستكون المرآة التي تعكس لنا الإعجاز الخارق الذي ستفاجئنا به سنوات خلافته .. !!

ليَتُقِ الآن ما شاء ..

ليلبس من الثياب أرفهها وأنعمَها .. ولْيَنَلْ من المطاعم أشهاها وأطيبها .. وليركب من الجياد أعلاها وأطهمها .. ومن الفُرش أسخاها وأوثرها .. !

ولْيَنهل من العلم بغير حساب ..

وليذهب من الفضائل بكل مكرُمة وثواب ..

ولْيَحتَوِ الدنيا بطولها وعَرضها ، كما يحتوي الغلاف الكتاب .. !!

* * *

ها هو ذا ، يتقلب في نعيم يتعاظَم كل وصف ، ويتحدّى كل إحاطة .. إن دخله السنوي من راتبه ومخصصاته ، ونتاج الأرض التي ورثها من أبيه يجاوز أربعين ألف دينار .. !

وإنه ليتحرك مسافراً من الشام إلى المدينة ، فينتظم موكبه خمسين جَملاً ، تحمل متاعه .. !!

وإنه ليشتري الثوب من أغلى الأثواب وأبهاها ، فيرتديه مرة واحدة .. وإن تَواضَعَ فمرتين .. ثم يبدو في عينيه قديماً بالياً .. !!!

وإنه لَيُسْبِلُ إزاره ، حتى يكاد يتعثر بذيله الهفهاف .. !!

ويمشي مشية متأنقة ، يكاد يحسده عليها الطاووس .. !!

ويَعصِف ريحه ، ويتضوَّع عبيره حيثما سار .. !!

إنه لَيبدو ، وكأنه في سباق ضارٍ ـ لا مع أصحاب النعيم ـ بل مع النعيم ذاته .. !! فواعجباً .. !!

كيف يستطيع هذا الرجل أن ينسلخ من هذا كله ، وفي لحظة من الزمان ، حين تواتيه الخلافة ، حتى يذهب إلى أقصى أبعاد النقيض وآماده .. ؟!!

ألا إن شوقنا لرؤية ذلك التحول المذهل ، ليكاد يُعْجِل بنا ويقفز ..

لكنْ علينا أن نُصابر ونَستأني ، حتى لا يفوتنا من مشاهد حياة ذلك الإنسان المعجز ما نحن في حاجة إليه ، لكي نرى كل ملامح الصورة .. وزوايا الإطار .. !!

■ ■ ■

التَجْرِبــة

« أرَى دنيا يأكل بعضها بعضاً !! »

في سنّه الخامسة والعشرين اختاره الخليفة الأموي ـ الوليد بن عبد الملك ـ ليكون والي المدينة وحاكمها .

وتهللت المدينة لهذا الاختيار ، فسيرة ابن عبد العزيز كانت تسبقه إلى كل مكان كالعبير ..

ثم إنه بما عُرف عنه من فضل ، يَلي إمارة المدينة مكان أميرها المخلوع ـ هشام بن إسماعيل ـ الذي كان لظلمه ولشراسته موضع النقمة والاستهجان .

وإن الأمير الجديد لَيبدأ حكمه بداية تُؤلِّق من فورها الفارق العظيم بين طرازه ، وطراز الولاة الآخرين ..

فبينما كن سلفه يحيط نفسه بطائفة من القُساة الغِلاظ الفاسدين ، فيلقي في رُوع الناس ـ بمسلكه هذا ـ أن العملة الزائفة هي الرائجة .. جاء هذا الأمير المبارك فأعلن بمنهجه الجديد والمجيد أنه لا يصُح إلا الصحيح !! وأن الخير ، لا الشر .. والصدق ، لا الملَق .. والاستقامة ، لا الزيغ .. هي دستور إمارته ومنهج عصره .. !!

ومن ثمَّ بدأ ـ أول ما بدأ ـ باختيار عشرة من أئمة العلم والورع والفضل في المدينة ، فجعلهم مجلس شُوراه .

وهؤلاء العشرة هم : « عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وعرْوة ، وأبو بكر بن خيثمة ، والقاسم بن محمد بن حزم ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وسالم بن عبد الله ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة » .

وفي أول اجتماع له بهم قال لهم :

« إني دعوتكم لأمر تُؤجَرون عليه ، وتكونون فيه أعواناً لي على الحقّ ..

أناشدكم الله إن رأيتم عدواناً أو باطلاً إلا أبلغتموني أمره ، وأرشدتموني إلى الحقّ » .

ولقد كان في استهلاله هذا بتقدير أهل الصلاح والتُقى والعلم ، إنما يرفع للناس جميعاً لواء الحياة الجديدة التي سَيحيونها في إمارته ، ويملأ أنفسهم بالسكينة والأمْن ..

* * *

وراح يجعل من ولايته مثلاً عالياً . واتسعت رقعة سلطانه ، فصار والياً على الحجاز كله ـ مكة ، والمدينة ، والطائف ، وما حولْها .

وكأنما أراد القدر أن يجعل من إمارته هذه تجربة للمهمة الجليلة والعظيمة التي يدَّخرها له في غد ، يوم تنتهي إليه خلافة المسلمين ، وحكم الدولة المسلمة من أقصاها إلى أقصاها ..

وسنرى كيف تبلغ التجربة مداها البعيد من النجاح والتوفيق .. فابن عبد العزيز يضع كلتا عينيه على أخلاقيات الحكم ، ليجعل من إمارته واحَة رَيَّانة خضراء وسط الجحيم الذي كان يُؤرِّث ناره أكثر الولاة الأمويين .. !

وإنه لَيَلتمس مجده ، لا في صَلَف المنصب وجَبَروتِه ، بل في تواضعه الشديد للناس ، وفي العدل يتحرّاه ويقيم موازينه بالقسط ، وبالرحمة ينشر ظِلَّها على كل مُصْطَلٍ وحَرُور ، ويمنع دفئها كل مُفزَّع مقرور .. !!

وهكذا صار ـ وفي سرعة فائقة ـ مَهْوَى أفئدة الناس وموضع حبهم الوثيق .. !!

والعلماء الذين كانوا لصلاحهم وتَرفُّعهم يتجنبون الولاة والأمراء ، ولا يحملون لأكثرهم مودة ولا احتراماً ـ راحوا يهبون إجلالهم الصادق لابن عبد العزيز ، حتى إن "سعيد بن المسيِّب" وهو يومئذٍ من أعظم علماء المسلمين كافة ، والذي كان يرفُض طوال عمره أن يسعى لزيارة أمير أو خليفة ، بل كان يرفض استقبال الأمراء ومجالستهم .. هذا العالِم الورع الكبير نراه اليوم يخفّ في جلال مَشيبه إلى دار الإمارة مرات ومرات ليلقى عمر بن عبد العزيز ، ويجالسه ، ويُحادثه .. !!

* * *

راح الأمير الشاب ينشر بين الناس العدل والأمن ، وراح يُذيقهم حلاوة الرحمة وسكينة النفس ، مخترقاً ذلك الستار الرهيب الذي أحاط الأمويون به أنفُسَهم ومُلكهم صارخاً بكلمة الحقّ والمعدَلة ، نائياً بنفسه عن مظالم العهد وآثامه ، متحدياً جبّاريه وَطُغاتِه .. وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي ..

حدث يوماً أن أناب الخليفة عنه في موسم الحج ، طاغية العراق الحجّاج .

وكان "عمر بن عبد العزيز" يمقته أشد المقت بسبب طغيانه وعَسْفه ، فأرسل إلى الوليد بن عبد الملك ـ الخليفة يومئذٍ ـ يسأله أن يأمر الحجاج ألا يذهب إلى المدينة ، ولا يمر بها ، برغم أنه يعرف ما للحجاج من مكانة في نفوس الخلفاء الأمويين ، وفي نفس "الوليد" بصفة خاصة . بل برغم إدراكه لِما سَيُسَبِّبُه موقفه هذا من إثارة مغايظ الحجاج ، الذي كان ذا مقدرة رهيبة على الانتقام لنفسه .

ولقد أجاب الخليفة طلب ـ عمر بن عبد العزيز ـ وكتب إلى الحجاج يقول :

« إن "عمر بن عبد العزيز" كتب إليَّ يستعفيني من مَمَرِّك عليه بالمدينة ، فلا عليك ألا تمرَّ بمن يكرهك ، فَنحِّ نفسك عن المدينة » .

* * *

إن مقت "عمر" لرجل كالحجاج ، وهو لم يتبوأْ منصب الخلافة بعد ، ولم يقع له ذلك الانقلاب الروحي الهائل الذي سنشهده حين يُستخلَف ، ليَكشف عن نقاء جوهره ، وأصالة تقواه .

فالأمويون مدينون للحجاج إلى مدى بعيد ببقاء مُلكهم واستمراره ، واتساع رقعته .. وهو لهذا كان موضع إعجابهم ، ورعايتهم .

ولكن ، ماذا يعني رجلاً كعمر بن عبد العزيز من هذا المُلك العريض ، إذا كان قد قام واتسع على أكتاف طغاة كالحجاج ؟؟

إن موقفه هذا من الحجاج ومن نُظرائه ، يُزكّي إحساسنا بأن القدر أراد لفترة الإمارة هذه أن تكون تجربةً لغده العظيم . فعمر يعلم ـ كما أسلفنا ـ أن تحدّي الحجاج ليس أمراً سهلاً ، إذ كان الحجاج يومئذٍ قويَّ القبضة على الكثير جداً من مقادير الدولة ومصائرها .

وهو يعلم أن خلفاء بني مروان مستعدون أن يضحوا بكل عزيز وغالٍ في سبيل الحجاج ، وما داموا لا يزالون بحاجة إلى بطشه ودهائه ..

لكنَّ ذلك لا يعني الرجل الأمين على مسئولياته .. إن الذي يعنيه ويتحتم عليه ، هو أن يأخذ جانب الحقّ مهما تكن العقبات والعواقب ..

إنه الآن يرى الأمور رؤية ذكية ، وإنَّ تجربة الولاية والحكم لَتُفيءُ عليه بصراً سديداً بما يجري حوله في الدولة الواسعة العريضة التي يسُوسها الأمويون .

وهو ، وإن يكن أميراً أمويًا ، لا يُخدع بالمظاهر الفارغة عن الواقع والحقيقة ، ولا يبيع دينه بدنيا عائلته وقومه .. !!

* * *

إن الدنيا تموج من حوله بالأطماع والضلالات .

إنها كما أرَتْه تجربته ، وكما وصفها هو : "دنيا يأكل بعضها بعضاً" .. !!

ولو كان أمر هذه الدنيا بيده لَقَوَّم اعوجاجها .. ولكنْ ليس بيده الآن سوى إمارته ..

أجل .. إن سلطانه ـ بل بعض سلطانه ـ إنما ينحصر في بلاد الحجاز وحدها ، حيث هو أميرها وواليها .. وإذن فلْيُؤدِّ واجبه تجاهها ، ولْيطبعها بطابع شخصيته المستقيمة الصادقة العادلة ، فما ينبغي أن يظل وجه الحياة بعد مجيئه كما كان قبل مجيئه .. !!

لابدَّ من أنْ يتغير كل شيء .. الناس بنفوسهم وسلوكهم .. والأرض بما فوقها من عمارة ، وبما يشقُّها من طرقات وقنوات ..

وهكذا راح يُعمِّر ويُعمِّر ، بادئاً بالمسجد النبوي ، فأعاد بناءه .. وأرسل بعثات التعمير في كل أرض الحجاز ، يحفرون الآبار ، ويشقّون الطرق ..

وفي حدود ولايته وسلطانه ، ردَّ للأموال العامة كرامتها وحرمَتها ، فلم تعد سهلة المنال لكل ناهب وخالِس ، كما لم تعد ألعوبة في يد كل مُسْرِفٍ ومُتْرَف ، بل وجد كلُّ درهم مكانه الحقَّ والصحيح ، لا يجاوزه ولا يتعدّاه .. !!

وفتح أبواب المدينة للهاربين من ظلم الولاة في كل أقطار الدولة .. وحماهم من المطاردة ، ووفَّر لهم الطمأنينة والأمن .

* * *

وفي العام الثاني من إمارته حدثت ظاهرة يكتفي المؤرخون بمجرَّد تسجيلها ، على حين نرى فيها سبباً وثيقاً من أسباب التطور ، بل الانقلاب الروحي الذي سيغمر شخصيته بعد حين . ففي ذلك العام ، ولاّه الخليفة إمارة الحج ، ولم يكد موكبه يبلغ مكة حتى ألْفَى أهلها في قَحط وعُسْر ومَشقَة ، فما كان منه إلا أن دعا صفوة العلماء والصالحين ، ومَنْ شاء من عامة الناس أن يتبعهم ، ثم خرج بهم إلى فضاء مكة ، ثم وقف "ابن عبد العزيز" يدعو الله ويَضْرع إليه بعد أن صلَى بهم صلاة الاستسقاء .. فإذا شيء يشبه المعجزات ، إذ لم يغادر مكانه حتى هطل المطرُ على غير موعد ، وفي غير ميقاته ، ولم يصدق الناس أبصارهم التي راحت تُحدِّق في سماء زرقاء ناصعة صافية ، ليس فيها مُزعة سحاب .. !!

وشهدت مكة في عامها ذاك خُصوبة نادرة !!

في تقديرنا ، أن هذه الظاهرة لابدّ من أن تكون قد استقرت واستكنَت في أعماق نفس "عمر" ، متحولة مع الأيام إلى خبرة روحية سيكون لها أثرها المباشر في انقلابه الروحي المقبل ..

إذ لابدّ من أن يكون "شُعوره" ، أو "لا شعوره" ، أو هما معاً ـ قد أدركا أمام هذه الكرامة الواضحة ما أودعه الله في روحه من سِر ، وقَدَاسة .. !

* * *

على أيَة حال ، فقد استغرقت الأمير مسئولياتُه ، فابتعد عن الكثير من هواياته ـ عن الشّعر والشعراء .. والمغنين والغناء .. وإن بقي له شَغفه بالتأنق وطيبات الحياة .

رآه يوماً أحد الزهاد يشتري ثوباً رافهاً بثمن غالٍ ومرتفع ، فقال له :

ـ أوَ مَا كان الخير لك أن تضع ثمنه في جيوب الفقراء ؟ فلم يغضب ولم يستنكف ، بل أجابه قائلاً :

« وهل رأيتَني أهملتُ الفقراء .. ؟ » !

وهو جواب حقّ لا مراء فيه ، فقد كانت أيام إمارته على المدينة والحجاز أيام رخاء وبركة ، قلّمَا شهد الناس مثلها .

ولم تَشغله الإمارة عن تجويد فضائله وتنمية تُقاه ، فعكف على العبادة عُكوفاً مُثابِراً ، وكثيراً ما كان يحلو له أن يقضي الليل فوق سطح مسجد الرسول ﷺ يعبد الله ويدعوه ..

صلّى وراءه "أنس بن مالك" صاحب رسول الله ﷺ ، ثم قال :

« ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الرجل » !!

كذلك لم تشغَلْهُ الإمارة عن مُواصلة التزوُّد من العلم والفقه ، فراح يُثْري عقله ، ويملأ بالعلم فكره ، حتى صار في هذا المضمار حُجَّة وإماماً ..

ووقف أبو النضر المديني يخاطب علماء المدينة يوماً ، فقال وهو يشير صَوْب "عمر بن عبد العزيز" :

« إنه والله أعلمُكم » .. !!

بل إن العالِم الجليل "مجاهد بن جبر" الذي عَرض القرآن على "ابن عباس" ثلاثين مرة .. والذي كان من الأئمة المعدودين ، يقول عن "عمر بن عبد العزيز" :

« أتينا عمر نُعلمه ، فما رجعنا حتى تعلّمنا منه » !!

والإمام "اللَّيث" يقول أيضاً :

« ما التمسنا علم شيء ، إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه ، وما كان العلماء عنده إلا تلامذة » .. !!

إن هذه الشهادة من أولئك الأقطاب الكبار ، لترسم صورة باهرة للطريقة التي كان عمر يُنمِّي بها فضائله العقلية والروحية . تُرى إلى أيْ مدًى يستطيع النظام العام للدولة الأموية أن يتحمل رجلاً من طراز عمر .. تكشف استقامته ونزاهته كلَّ عَوْراتِ ذلك النظام وتَفضح سوآتِه .. ؟!

إنه لن يصبر عليه إلا قليلاً .. وعلى الرغم من أنه أمير بارز في أسرة بني مروان الحاكمة ، وعلى الرغم من أنهم جميعاً ، بلا استثناء ، يهابونه ويحترمونه ، فإنهم لن يطيقوا على منهجه الجديد المجيد صبراً .

* * *

لقد كان دائم التنديد بسوء الحكم وطغيان الولاة . ولقد قلنا من قبل : إن الحجاج طاغية بني مروان ، لن ينسى مقته له ، ولا تشهيره به .

وها نحن أولاء ، نراه ينتهز فرصة إيوائـه بعضَ المعارضين لمظالم العهد والمنددين بها ، فينسج مؤامراته ووشاياته مُوغِراً صدر الخليفة على ابن عمه وزوج أخته ، وواليه على الحجاز "عمر بن عبد العزيز" ...

لقد أرسل الحجاج إلى الخليفة ـ الوليد بن عبد الملك ـ يشكو إليه استقبال "عمر" وإيواءه كل الذين يطلبهم الحجاج ليحاكمهم على مؤامراتهم ضد الأمويين ..

ولقد كان السبيل ممهداً لوشاية الحجاج ، وربما لأيِّ وشاية تريد النَّيْل من ـ عمر ـ ذلك أن منهجه العام كان من السموَّ بحيث لا يطيق الآخرون من بني مروان محاكاته ، بل لا يطيقون مُعايشتَه ..

علم الخليفة يوماً أن بعض الناس في إمارته يُمعنون في تجريح الخلفاء الأمويين وسبِّهم ، فاستدعاه إليه وسأله :

ما تقول فيمن يَسُبُّ الخلفاء ؟ . أيُقتل .. ؟

فصمت "عمر" ، ولم يُعَقِّب ..

وازداد الخليفة تجهُّماً وعُبوساً ، وأعاد سؤاله :

ما تقول فيمن يَسُبُّ الخلفاء ؟ . أيُقتل .. ؟

وفي استمساك وثيق بدينه وبفضائله ، أجابَ وهو غير مُلْقٍ للعواقب بالاً :

« هل قَتَل نفساً بغير حقَ ، يا أمير المؤمنين » . ؟؟

قال الوليد : لا ، ولكنه سَبَّ الخلفاء ، وانتهك حُرماتِهم .

وفي هدوء راسخ ، أجاب "عمر" :

« إذن يُعاقَب بما انتهك للخلفاء من حُرمة ، ولكن لا يُقتل ... » .

وأنهى الخليفة المقابلة بإشارة غاضبة رَعْناء ، وانصرف "ابن عبد العزيز" عنه وهو يتوقع منه نقمة عاجلة ، صوّرتها كلماته هذه :

« .. فخرجتُ من عنده ، وما تَهُبُّ ريح إلا وأظنها رسولاً منه يدعوني إليه » !!

* * *

في هذا الجو المتوتر ، قرر الحجاج أن يصطاد غريمه ، فألقى وشايته السالفة ..

والحقَ ، أن "عمر" : كان يفتح صدره ، كما يفتح أبواب المدينة ، للهاربين من طغيان الحجاج ، وغير الحجاج .

والحقَ أيضاً ، أنه كان يحترم حقّهم في نقد أخطاء الحكم وكشف زيفه وفساده .

بيد أنه لم يكن بين هؤلاء الذين يُؤويهم ويَحميهم من يُدبّر انقلابــاً مسلحاً ضد الدولة ، كما حاول الحجاج أن يُوهِم الخليفة الوليد ..

ولعل وشاية الحجاج كانت ستبوء بالخِذلان لو أن "عمر" اصطنع قليلاً من المسايرة واللين في دحضها ..

لكنَّ فطرته الطاهرة النقية الجياشة ، لم تكن تعرف في مثل هذا المجال مُسايرة ، أو لِيناً ..

وهكذا ، لم يكد الخليفة يرسل إليه متسائلاً عن دعوى الحجاج ، حتى كتب له رَدّاً يفيض بأساً وصرامة .

فقد راح يحدثه عن العدل الغائب والظلم المخيِّم .. ويُدمْدِم عليه بالمظالم البشعة التي يقترفها الحَجّاج وأشباهه تحت ستار استبقاء السلطان لبني مروان .. وراح يصارحه ، بأنه ليس ثمة دولة تحترم نفسها ، تقبل أن يكون طاغية كالحجاج بين وُلاتها ..

ثم قال قولته الصادعة الرائعة :

« لو جاءت كلُّ أمّة بخطاياها يوم القيامة .. وجئنا نحن بالحجاج وحده لرَجَحْناها جميعاً » .. !

ورأى "الوليد" نفسه أمام كفاية خُلقية قادرةٍ على تَحَدّيه بل إهانته ، فأصدر أمره بعزل "عمر" عن ولاية المدينة والحجاز ..

وغادر البطل المدينة التي لم يُحِبَ في الدنيا بلداً ، قدر حبه لها ..

غادرها إلى الشام ، بعد أن لبث في ولايتها ستة أعوام ، ملأ البلاد خلالها عُمراناً وأمْناً ، وملأ الناس رخاءً وبهجة .. !!

* * *

وفي الشام لم يسأل نفسه ، ماذا يصنع .. ؟ ولا كيف يقضي أوقات فراغه ، فلم يكن في حياته فراغ .. إن كل دقيقة فيها مشغول بالعمل ، مملوءة بالطاقة .. وإن الجهد المبذول لِبلوغ الكمال المرموق ليدفع كل ساعات حياته ودقائقها في طريق هذه الرحلة المقدسة ، والسفر المبارك الميمون .. !!

وفَورَ رجوعه إلى الشام ، وَجَدَ جيش الدولة يتحرك للقاء جيش الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، التي كانت دائبة التحرش بالدولة المسلمة والشغب على حدودها ، فانتضَى "عمر" سلاحه وحمل نيَّته الصالحـة ، وأخذ مكانه بين المقاتلين ـ جنديًّا عاديًّا ، يرجو ظفر المؤمنين ، أو عُقْبَى الشهداء الصالحين .. !!

ويعود من الحرب ، فيعكف على نفسه في محراب الفضيلة والتُقَى ..

وكما وجدناه في المدينة يُؤْثِر صحبة الأبرار من أمثال "عبد الله بن عُتبة" نجده في الشام يؤثر صحبة الأخيار ، أمثال "رجاء بن حَيْوة" . كما راح يراسل إمام عصره "الحسن البصري" ويتعلم منه ، ويحاول السَّيْر على دَرْبِه ...

وراح يدير خواطره على أخطاء الدولة ومشكلات الجماعة .

وكثيراً ما كان يأخذه الأسَى والجزع ـ ولكنْ ماذا يصنع وليس له من الأمر شيء .. ؟!

إن كل ما يستطيعه ، أن يرفع صوته عالياً ضد الفساد والظلم ، ولقد فعل ..

وكان الناس يتناقلون عنه في الأقطار قاطبة بعض عباراته اللافحة التي يقذف بها في وجه البيت الأموي الحاكم .

من تلك العبارات قوله :

« الوليد بالشام ، والحجاج بالعراق ، ومحمد بن يوسف باليمن ، وعثمان بن حيان بالحجاز ، وقُرّة بن شريك بمصر ، ويزيد بن أبي مسلم بالمغرب ..

امتلأت الأرض والله جُوراً » !!!

* * *

ويموت "الوليد بن عبد الملك" ...

ويخلفه أخوه "سليمان بن عبد الملك" .

وعلى الرغم مما يُكنّه "سليمان" لعمر بن عبد العزيز من إجلال ومحبَّة ، فقد خافه "والياً" .. ومن ثم آثر استبقاءه أخاً وصديقاً .. وإن زاد ، فناصحاً .. !!

كانت روح "عمر" تسمو صاعدة نحو مطالعها .

وكانت العبادة تصقِلُ روحه ، كما يصقل العلم فكره ، وراح يُثابر على أداء دوره مُبَشّراً بالفضيلة ، والحقّ ، والخير .. نذيراً ضد السوء ، والضلال ، والشر .

وأنه ليقيس بمقياس الدين القويم كل اتجاهات الدولة في حروبها وسياستها .. في مجتمعها واقتصادياتها ، وأخلاقياتها .. فيجدها في كل ذلك جانحة لهوى الخلفاء والأمراء والولاة ، بقدر ما هي بعيدة عن روح الدين ومنهجه ..

هنالك أخذ على عاتقه الجهر دوماً بهذه الحقيقة وإعلانها .

* اصطحبه الخليفة "سليمان" يوماً لزيارة بعض معسكرات الجيش .

وأمام معسكر يعجُّ بالعتاد وبالرجال ، سأله "سليمان" في زَهْوٍ :

ما تقول في هذا الذي ترى يا عمر .. ؟!

وسرعان ما جاء جواب عمر ، كقاصمة الظهر ، فقد قال :

« أرى دنيا ، يأكل بعضها بعضاً ، وأنت المسئول عنها ، والمأخوذ بها » !!

وبُهت الخليفة لهذه الإجابة التي لم يكن يتوقعها ، فعقب عليها قائلاً له : ما أعجبك .. ؟!

وإذا "عمر" يجيب قائلاً :

« بل ما أعجبَ من عرف الله فعصاه ... وعرف الشيطان فاتَّبعه .. وعرف الدنيا فركَن إليها » ؟!!

* كذلك اصطحبه الخليفة في رحلة للحج .. وفي الطريق فتحت السماء أبوابها بماء مُنْهَمِر ، ففزع سليمان وأرعبه السيل الكاسح ، ونظر فإذا ابن عبد العزيز يضحك ، فسأله سليمان :

ألمِثْل هذا يضحك الناس .. !

فأجابه عمر :

« يا أمير المؤمنين ، هذا في حين رَحْمَتِـهِ ، فكيف به في حين غَضَبِـهِ » ؟!!

أجل .. إذا كان المطر الذي هو من آثار رحمة الله وَغَوْثِه ، يمكن أن يبتعث الخوف ويوقع الضُّرَ ، فكيف بغضب الله وعقابه ؟!.. كيف بنقمة الله التي أعدَّها لتكون نِقماً ووبالاً ؟!

* * *

على هذه الوتيرة ، راح "عمر" يُلقي نُذُرَه ، محاولاً أن يفتح الأعين العُمْي ، والآذان الصُّمّ .

وعمَّا قليل ستمد الأقدار يمينها نحوه ، هاتفة به كي يتقدم ليحمل المسئوليـة الكبرى : خليفة للمسلمين ، وأميراً للمؤمنين .

فإلى أن نلتقي ـ إن شاء الله تعالى ـ في أروع أيام حياته تلك ، بل أروع أيام البشرية المتسامية كلها ، علينا الآن أن نلقي نظرة سريعة على نوع ذلك الميراث المبهظ الفادح ، الذي سيُكتب على ابن عبد العزيز أن يحمله ويُقَوِّم اعوجاجه .

هذا الميراث الذي ينتظم العهد الأموى ، الذي بدأ باستخلاف معاوية ، ويقف الآن عند سليمان بن عبد الملك بن مروان .

■ ■ ■

التَّـرِكة القاتِلـة

« انْجُ سَعْد .. فقد هَلَكَ سَعيد » !!

استقر الأمر لمعاوية بالشام حاكماً للمسلمين ، بعد خدعة التحكيم في "صِفِّين" ، وبعد استشهاد الإمام عليّ ، على يد أحد الخوارج الذين أضاعت الفتنة صوابهم .. ثم بعد الصلح الذي عقده معه "الحسن بن عليّ" ليحفظ به دماء المسلمين .

استقر له الأمر ، فراح يضع في دهاء وصبر ، أساس دولة أموية طويلة العمر ، ممتدة على الزمان .

ولسنا هنا بصدد تصويب أو إدانةِ موقف "معاوية" في نزاعه مع "الإمام" ، فقد فصَّلنا ذلك في مؤلفاتنا ـ "في رحاب عَلي" ، و "وداعاً عثمان" ، و "أبناء الرسول في كربلاء" .

لكننا نكتفي هنا ، كمدخل للموضوع ، بِرَفْضِ ودَحْض الموقف الذي وقفه "معاوية" باستخلاف ولده يزيد وأخذه البيعة له .

هذا "اليزيد" الذي هدم بالانحلال والقسوة ما بناه أبوه بالدهاء والحلم ، والذي سَنَّ للدولة الأموية على طول عهدها شريعة الغاب التي سارت عليها وقامت بها .

ومن عجبٍ أن هذا الذي توسَّل به "معاوية" لاستبقاء الملك في بيت أبي سفيان توسَّل به القدَر في الوقت نفسه لحرمان هذا البيت من الخلافة والملك إلى الأبد ، بعد أربع سنوات لا غير من استخلاف يزيد .. !!

فقد مات "يزيد" بعد أعوام أربعة قضاها في المُلك عابثاً جباراً .

وفي مرض موته خَلَع المُلك على ولده "معاوية الثاني" حرصاً منه على أن تظل راية الخلافة خَفَّاقَة فوق بيت أبي سفيان !!

لكنَّ القدر العظيم كان يُعِدّ مفاجأة أذهلت الدنيا ولا تزال ..

ذاك أن "معاوية الثاني" ـ ذلك الشاب التقي الورع ـ جمع الناس في يوم مشهور ، ونهض فيهم خطيباً ، فقال :

« إن جَدّي معاوية نازَع الأمرَ أهلَه ومَن هو أحقّ منه لقرابته من رسول الله ، وسابِقَتِه في الإسلام ، وهو عليّ بن أبي طالب .. !!

ثم تقلَّد أبي ـ يزيد ـ الأمر من بعده ، فكان غيرَ أهلٍ له ..

ركب هواه وأَخْلَفَهُ الأمل .. !!

وإن من أعظم الأمور علينا ، عِلمنا بسوء مُنْقَلَبِه وقد قتل عِتْرَةَ رسول الله ﷺ ، وأباح الحرم ، وخَرَّب الكعبة .. !!

وما أنا بالمتقلد أمركُم ، ولا المتحمِّل تبعاتِكم . فاختاروا لأنفسكم » .. !!

وعكَف الشاب الصالح في داره رافضاً الخلافة حتى لقي ربه راضياً مرضياً ..

وهكذا ، لم يُحرَم بيت أبي سفيان آماله في استبقاء الملك فحسب ..

بل تلقَّى وثيقة إدانة رهيبة من أحد بَنيه الأبرار !!

ولقد أفضى موقف "معاوية الثاني" إلى زلزال وبيل أصاب حكم الأمويين بدوار خلع أفئدة جبّاريه ، من أمثال عبيد الله بن زياد ، قاتل الشهيد المجيد "الحسين بن عليّ" رضي الله عنه .. فرأينا ذلك الطاغية يهرب متنكراً في ثياب امرأة حتى يُصرع فيما بعد قتيلاً .. !!

وتمزقت الدولة تمزقاً وضعها على شفا الهاوية ، وكاد الأمر ينتهي لـ "عبد الله بن الزبير" ليستقيم به على الجادَّة ، لولا ظروف كثيرة لا مجال لتتبُّعها هنا ، هيأت لمروان بن الحكم أن يقفز إلى مِنصَّة الحكم وسط فتن مظلمة ، ومؤامرات ماكرة ..

وهكذا ، انتقل الحُكم من بيت أبي سفيان ، إلى بيتٍ أمويٍّ آخر ، هو بيت مروان ..

ومروان هذا ، صاحب تاريخ مُريب ، مُنذ كان رئيساً لديوان الخلافة في عهد "عثمان" رضي الله عنه ..

وإن له لَمواقف كثيرة تدمغه وتدينه ..

ولقد بدأ تجربته الشّريرة هنا ـ في مصر ـ إذ كان واليها يومئذٍ "عبد الرحمن بن جحدم" مناصراً لعبد الله بن الزبير ..

وكانت مصر حصناً يرهبه مروان ، فجاء إليها على رأس جيش هزم به عبد الرحمن ابْن جحدم ، ثم دعا الناس إلى بيعته طوْعاً وكَرْهاً .

وحين احتفظ الكثير منهم ببيعتهم السابقة لابن الزُّبَيْر ، ضرب أعناق ثمانين منهم ليرهب بهم الباقين .. !!

وفي الوقت نفسه ، أرسل عبيد الله بن زياد إلى العراق ، وأمره أن يستبيح الكوفة بعد فتحها .. !!

وغدر بخالد بن يزيد الذي كان قد أقامه وليًا لعهده .. كما غدر بعمرو بن سعيد ابن الأشدق ، الذي لولا بلاؤه العسكري لَمَا استقر الأمر لمروان ..

وهكذا بدأت الدولة الأموية المروانية منهجها في الحكم بالقهر ... وبالغدر .. !!

وقبل أن يموت مروان الذي لبث في الحكم عشرة شهور ، أخذ البيعة لولده "عبد الملك" ، ومن بعده "عبد العزيز" .. أي أنه سار على نهج معاوية ، فجعلها هِرَقْلية ؛ كلما مات هرَقْل ، قام هرقل !!

وينهض عبد الملك بن مروان "بالأمر" ، ومن بعده ولده "الوليد" . ومن بعد الوليد "سليمان" .

خلال هذا العهد تقوم ـ ولا سيَّمَا في عصر عبد الملك ـ إنجازات هائلة ، لا يُغمط لها قَدْرٌ .

ولكنْ إلى جانب تلك الإنجازات يصيب الدولة من الفساد ، ويصيب الناس من الرعب ، ويصيب الحياة من التزييف ، ما يُشكّل "التركة القاتلة" التي سَيَرْزَأ بها "عمر

ابن عبد العزيز" حين تضع المقادير على كاهله مسئولية الخلافة .

فماذا كانت هذه التركة الرهيبة .. ؟؟

لقد تمثلت في القسوة الواغلَة التي توسَّل بها بنو مروان لتمكين سلطانهم ..

وتمثلت في الفساد الذي غطَّى حياة الدولة وحياة الأمَّة معاً .

وتمثلت في تزييف القيم والحقائق ، مما جعل الناس يومئذٍ يعانون ـ لا فراغاً ـ بل خراباً فِكريًا رُوحيًا مُدمِّراً .

* * *

* فأمَّا منهج المروانيين في القسوة والبطش ، فيبدو واضحاً في اصطناعهم الحجَّاج ونُظَراء الحجاج .

لقد اختاره "عبد الملك" لقتال "عبد الله بن الزبير" لمجرَّد أنه ندَب نفسه لهذه المهمة التعسة قائلاً لعبد الملك : لقد رأيتني في المنام أمسك بعبد الله بن الزبير ، ثم أقوم بسلخه ، فابعثني إليه وولِّني أمر قتاله .. !!

وعلى الفور يبعثه عبد الملك ، ليحقق رؤياه ، وليقوم بسلخ ابن حَوَاريِّ رسول الله .. وابن "أسماء" ذاتِ النِّطاقين .. والعابد القانت الأوَّاب .. !!

ومضى الحجاج التعس إلى غايته ، فما أبقى على حُرمة ..

نصب المنجنيق فوق جبل قُبَيسٍ ورمى به المسجد الحرام في الشهر الحرام ، والمسلمون يؤدون شعائر الحج ومَناسِكه .. !!

وتلقَّى مكافأته من عبد الملك الذي ولاَّه على مكة والمدينة واليمن واليمامة . ثم نقله إلى العراق ليصبَّ عليه بطشه .

ولا يكاد يضع قدمه فوق أرضه حتى يخطب في أهله خطبته المشهورة :

« إني لأرى رءوسًا قد أينعت وحان قِطافُها ، وإني لَصاحِبُها ..

ولكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحى ، قد شمَّرت عن ساقها تشميراً ...

وقسماً بالله ، لآخذن الوليَّ بذنب مولاه ، والمقيم بذنب الظَّاعِن ، والمطيع بذنب العاصي ، حتى يلَقى الرجل أخاه ، فيقول له : انْجُ سَعْد .. فقد هلك سَعيد » !!

انج سعد ، فقد هلك سعيد ... !!

هذا هو الوصف الصحيح للتركة القاتلة التي سيخلفها بنو مروان للرجل الصالح "عمر بن عبد العزيز" ..

القتل ، والقتل ، والقتل ، حتى تمتلئ الأرض أشلاء ودماء .. !!

ولقد يُقال : إن هذه القسوة ، بل هذا السعار الدموي ، إنما فرضته ظروف التمرد والمقاومة المسلحة التي جُوبِهَتْ بها الدولة الأموية طوال عهدها ذاك ..

بيد أنه أصح من هذا وأصدق ، القول بأن هذا السُّعار المتوحش هو الذي أجَّجَ نار ذلك التمرد ونشَر لهبَه في كل مكان .

ولقد شهد شاهد من أهلها بوحشية الطغيان الذي مَيَّز ذلك الميراث الرهيب ..

ذلكم هو "عبد الملك بن مروان" نفسه ، الذي راح يردِّد في مرض موته كلمات الندم هذه :

« ماذا سأقول يوم المسألة عن أمر الحجاج » ؟؟

بل لقد هَمَّ ذات يوم أن يعزله ، وكتب إليه كتاباً مملوءاً بقوارع القول ، ومختوماً بهذه العبارة :

« .. فاعتزلْ عملَ أمير المؤمنين ، واظعَنْ عنه باللعنة المستحقَّة ، والعقوبة الناهِكة » .. !!

لكنه عاد فاستبقاه خوفاً على مُلكه وسلطانه .. !!

ولم يكن سفك الدماء المظهر الوحيد لتلك القسوة .. بل كان هناك إذلال الناس بغير حقّ .. فالموالي ـ وهم المسلمون من غير العرب ، والذين يعطيهم الإسلام كل ما أعطى للمسلم من حقّ ـ راح بنو مروان يحرمونهم حقّهم في بيت المال . ويحرِّمون عليهم وظائف الدولة ، ويفرضون عليهم الجزية بحجة أنهم دخلوا الإسلام تهرباً من دفعها .. !!

مع أنهم قد نبغ من صفوفهم الكثرة الكاثرة من علماء الإسلام وأئمته وعُبَّاده ونُسَّاكه .

كما كان هناك إغراء الناس بعضهم ببعض ، وذلك أيضاً بتقسيمهم الأمَّة إلى عرب ، وموالٍ .. وإحيائهم العصبية القَبَلية التي بدأها معاوية مع المُضَرِيِّين ، والقَيسِيين ، واليمانيين .. !

* * *

هذا عن القسوة ...

* فأما الفساد فقد طمَر كل شيء في الدولة ، وفي الأمَّة .. خربت الذمم ، فراح كل قادر على النهب ينتهب ما تصل إليه يداه .

وغابت الأخلاق ، فشاع الترف والانحلال .

ووراء الفساد سار الخراب ، فأخذت الأزمات المالية بخناق الدولة ، ومُحِق إنتاجها ، حتى إن العراق ـ وهو أغنى أقاليمها يومئذٍ ـ لم يكن يُغِلّ في عهد الحجاج أكثر من خمسة وعشرين ألف درهم ، وهو الذي كانت غلّته من قبل ، وحتى عهد معاوية ، تبلغ مائة وعشرين مليوناً من الدراهم .. هذا ، مع أن "الحجاج" لم تُعرَف عنه خيانة ولا إثراء غير مشروع ، لكنها حروبه التي كانت تُوَلِّدها قسوته ، وكذلك إسرافه في اصطناع العملاء والإغداق عليهم بغير حساب ، والقتل الذي أجهز على الجموع العاملة ، في الزراعة ، والتجارة ، والحِرَفِ الأخرى ... !!

* ولقد وَاكبَ هذه القسوة وهذا الفساد تزييف كامل لِقيَم الدين وقِيَم الحياة ..

وحسْبنا لهذا التزييف المَهين مثلاً ، أن نرى منابر المساجد في كل الأقطار الإسلامية الرازحة تحت حكم الأمويين ، يُلْعَنُ من فوقها بطل الإسلام العظيم وابنه البار ، وإمامه

الأوَّاب "عليّ بن أبي طالب" !!

أجل .. يُفرض على الخطباء أن يلعنوه .. ومتى .. ؟ في خطبة الجمعة التي يَستهلُّونها قائلين : "اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد" .. آل محمد الذين يأخذ "عليّ" فيهم مكان الدُرَّة الفريدة في العِقد المنظوم ... !!!

أهناك تزييف للقِيَم ، بل إلغاء للمنطق وكرامة العقل أكثر من هذا .. ؟؟!!

على أن هذا التزييف للحقّ وللحقيقة ، قام على أكتاف الشّعر ، والشعراء الذين تولّوا كِبْره ، واحتملوا وِزره .. ولعل هذا يُفسِّر لنا الموقف الذي سيتخذه منهم "عمر ابن عبد العزيز" حين يحمل مسئولية الخلافة ، فلسوف نراه يطردهم عن بابه ، ويحرمهم العطاء الغَدَق الذي كانوا يتقاضَوْنه من أموال المسلمين ثمناً لكذبهم ونفاقهم ..

لقد كان لكل بلاط شعراؤه .. ولكل والٍ وأمير مَادِحُوه ..

ولقد أوضحنا على صفحات سابقة ، كيف كان الشعر ثقافة العصر ولُغتَه ، وإلى أيّ حد كان شغف الناس وإقبالهم عليه عظيماً .

ومن ثمَّ ، فإن الخليفة الذي كان يريد أن يُجرِّع الأمَة أكذوبة أو يُنْسيها حقًّا ، لم يكن يجد وسيلة لذلك أفضل من الشّعر .

وإن رجلاً كمعاوية في دهائه العظيم ، لا يجد في ذلك الدهاء غناء عن الشّعر حين همَّ بأخذ البيعة ليزيد ، فأوحى لشاعره الخاص أن يُعدّ قصيدة لهذا الغرض ، ينشدها في جموع الناس الذين سيحشدهم معاوية في ميقات معلوم .

وفي ذلك الميقات يجتمع وجهاء الشام في قصر الخليفة ، وهم لا يعرفون لماذا دُعوا .. ؟ ولا لماذا اجتمعوا .. ؟ ويقف شاعر معاوية ؛ ليقول :

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروانُ ، أم ماذا يقول سعيد
بَنِي خُلفاء الله مهلا ، فإنما ... يَبُوِّئُها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربُّه ... فإن أمير المؤمنين "يزيد"

ولا يكاد يفرغ من إلقاء قصيدته ، حتى يتظاهر معاوية الداهية بأنه فوجئ بما سمع ، فيفرك كَفَّيْهِ ، ويقول في مكر شديد وهو يوجه الحديث إلى شاعره :

« سننظر فيما قلت ، ونستخير الله !! » .

* * *

وحين يحاول "عبد الملك بن مروان" تبرير مذابح وُلاته وقواده ضد الشِّيعَة ، والخوارج ، وأنصار عبد الله بن الزبير ، يستنجد بشاعره "جرير" :

لولا الخليفة ، والقرآن يقرؤه ... ما قام للناس أحكام ولا جُمَعُ
أنت الأمين ، أمين الله لا سَرَفٌ ... فيما وليت ولا هيّابة خَرِعُ
يا آل مروانَ إن الله فضلكم ... فضلا عظيما على مَن دِينُهُ البِدعُ

وهكذا تنقلب الأوضاع ـ كما يريد شيطان جرير ـ فعبد الملك بن مروان إمام الهدى ، وعبد الله بن الزبير "دينه بِدَع !!!" .

* * *

وحين يرث الوليد أباه في المُلك يهتف بالشِّعر ليشد أزره ، وليُجرِّع الناسَ سلطانه ، فيتقدم جرير أيضا :

إن الوليد هو الإمام المصطفى ... بالنصر هُزَّ لواؤه والمغْنم
ذو العرش قدَّرَ أن تكون خليفة ... مُلِّكتَ فاعْلُ على المنابر واسْلَم

وهكذا صار الوليد إماماً مصطفى ، وصارت خلافته قدَراً من الله ونعمة ورحمة !!

* * *

وكما اعتمد الخلفاء على الشِّعر في ترويج باطلهم والتمكين لأنفسهم ، راح وُلاتُهم وقادتهم يُحاكونهم ويقلدونهم .

فزياد ابن أبيه يتوجه شاعره بالقصائد الكثيرة ، حيث يقول في بعضها :

تقاسَمتِ الرجال به هواها ... فما تُخفي ضَغائنَها الصدورُ
فلمَّا قام سيف الله فيهم ... زياد ، قام أبلج مستنير

والحجاج ، هل ينسى نصيبه الأوفى في هذه الولائم الباذخة الكاذبة ؟؟

إنه يدرك أن جرائمه تتعاظم كل دِثار يُغطيها ويُخفيها .. هنالك يلجأ إلى بَطلي الثالوث الأموي : جرير ، والفرزدق ..

فهذا جرير يُجرِّع الناس قوله :

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقَّنوا ... ماضي البصيرة واضح المنهاج

وينافسه الفرزدق الذي يكتشف للحجاج من المناقب ما لا يعرفه الحجاج عن نفسه ، ولا يُصدقه .. !!

ولم أرَ كالحجاج عوناً على التُقَى ... ولا طالباً يوماً طريدة تابل
بسيف به لله يضرب مَن عصى ... على قِصر الأعناق فوق الكواهل

وتتفتح شهية الحجاج ، فلا يشبعه زيف الفرزدق وجرير ، فيهتف بأعشى همدان الذي يتقدَّم بدوره ليجعل منه قديساً ومُنقذاً .. !!

أبى الله إلا أن يتمم نوره ... ويطفئ نار الفاسقين فتخمدا
وينزل ذلا بالعراق وأهله ... لِمَا نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
فقتلاهُمُو قتلى ضلال وفتنة ... وَحَيُّهُمُو أمسى ذليلا مُطرَّدا

هكذا استُخدم الشِّعر أسوأ استخدام لتزييف الصدق والخير ، ولطمس الحقيقة في وجدان الناس ووعيهم ، ولإثارة البلبلة في خواطرهم ، وتوهِين علاقاتهم بالقِيَم والأخلاق .

فماذا يربط الناس بالقِيَم بعد .. حين يَرَوْن قُوَّاد الوليد بن عبد الملك . يَمْلئُونَ الأرض دماً وعذاباً ، ثم تتردد في المحافل قصيدة شاعره "عدي بن الرقاع" :

صلَّى الذي الصلوات الطيباتُ له ... والمؤمنون إذا ما جمَّعوا الجُمَعَا
إن الوليد أمير المؤمنين له ... مُلْكٌ عليه أعان الله فارتفعا

وماذا يربط الناسَ بالقِيم حين يَرَوْن خليفتهم ـ عبد الملك بن مروان ـ يصطفي لنفسه الأخطل ، وهو يذكُر هجاءه المُقذع السافل للأنصار الذين بَوَّأهم القرآن والرسول مكاناً عليّا .. ؟؟

لقد فقد الناس إيمانهم بأشياء كثيرة ، ووقعوا في تيهٍ مظلم بين ما يبصرون وما يسمعون ، وتحطمت أعصابهم تحت وطأة الكذب ، والزيف ، والبهتان .

لقد رأوا الأبرار يُذبَّحون ويُقتَّلون ، والسِّفلة يرتفعون !!

وتاهَتْ في الزحام أصوات القِلَّة المؤمنة الورعة ـ أمثال "الحسن البصري" وإخوانه ـ ففقدت العقيدة سلطانها ، وعاد الإسلام غريباً ؛ أو كالغريب .. !!

وكما كان "الحُنَفاء" في الجاهلية يُقلِّبون وجوهم في السماء ، ويهيمون بين الجبال باحثين عن النبي المنتظر ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ـ راح الحُنَفاء ، والمظلومون ؛ والمقهورون في ذلك العهد الأموي يتطلعون إلى السماء في انتظار النجم الذي يُجدد الله به دينه .. والذي يردُّ للخلافة كرامتها وقدرَها ، ويضع عن الناس إصْرَهُم ، والأغلال التي كانت عليهم ..

صحيح أن التركة قاتلة ؛ والميراث رهيب ؛ لكنّ عونَ الله واصطفاءه كافيان لجعل العُسْر يُسراً ...

* * *

لقد كان الأمر بحاجة إلى معجزة ..

ويَمينُ الله ملأى بالمعجزات ..

أفما آن لِلْمُتْعَبِينَ أن يظفروا منها بواحدة ؟؟

بلى ، آن ..

وإن رحمة الله لواسعة ..

وإن عطاءه لجَزيل ..

■ ■ ■

البُشرَى

«والله لأعقدنّ عقداً ، لا يكون للشيطان فيه نصيب » .. !

ونعود من جديد لصحبة الرجل الصالح ـ عمر بن عبد العزيز ـ .. لنصاحب الجهد الخارق الذي سيكون على البطل أن يبذله حتى يجعل من الظلمات نوراً ..

ها هي ذي الخلافة تقترب منه ..

أتراه يطمع فيها ، أو يريدها .. ؟

كلا ، إنه ليس له فيها مطمع ، فسليمان بن عبد الملك كان له أولاده .. ومن عادة خلفاء بني أمية إيثار أولادهم بالاستخلاف .

فعَل ذلك "معاوية" حين جعل الحكم ليزيد .. وفعله "يزيد" حين استخلف معاوية الثاني .. ثم فعله مروان حين استخلف ولده "عبد الملك" ، وفعله عبد الملك حين نَحّى أخاه "عبد العزيز" ، وأخذ البيعة لولده الوليد .

كذلك لم يكن يريد الخلافة ، إذ كانت بما تورطت فيه ، قد صارت عبئًا مُبهظاً على كل ذي تُقًى وضمير .. وكانت قداسة روحه التوّاقة إلى مرضاة ربها قد أخذت تنأى به شيئاً فشيئاً عن كل مغانم الحياة وزخرفها .

وكان ثَمَّة حادث وقع في أثناء ولايته على الحجاز ، ترك في نفسه فزعاً شديداً من السلطة والسلطان ، وعاش عمره كله يغصّ بمرارته ، ويعجب كيف غُلِب فيه على أمره وتُقاه !!

أما الحادث ، فخلاصته أنه تلقّى كتاباً من الخليفة الوليد يتهم فيه "خُبيب بن عبد الله بن الزبير" بالتحريض على الأمويين والتشهير بهم ، ويأمره بضربه ..

وقام "عمر" بضرب خُبيب ضرباً أفضى به إلى موته ، وحين أبلغوا "عمر" نبأ موته ، نزل الخبر عليه كالصاعقة ، بل كأن السماء انفطرت ، والكواكب انتثرت ، والقيامة قامت .. !!

وغشّاه الحادث بحزن قاتل ، فأغلق على نفسه باب داره سبعين يوماً ـ لابساً مُسوحاً سُودًا ، ضارعاً إلى الله أن يغفر له ويعفو عنه ..

وكشف له هذا الحادث ـ كما قلنا ـ عن خطر السُلطة والإمارة ، وتذكَّرَ قول الرسول ﷺ عنها :

« إنها نِعْمَتِ المرضعة » .

« وبِئست الفاطمة » !!!

وقوله عليه السلام :

«إنها في الدنيا إمارة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا مَنْ أخذها بحقّها ، وأدّى الذي عليه فيها » .. !!

رأى كيف وهو يتحرّى العدل والرحمة أعظم التحرّي ، قد ورطته السلطة في بعض آثامها .

ولسوف يقضي العمر كله يرزح تحت وقع الندم ، لا تُزايل خيالَه صورة ضحيته ، حتى حين يصير خليفة للمسلمين ، ويأتي من معجزات العدل والورع والتُّقَى ما يبدو أبعد من الأساطير .. حتى حين ذاك ، لا ينسى ذلك الحادث الوحيد الذي وقع ضد إرادته وضد طبيعته ..

أجل .. سنراه وهو خليفة يطيل البكاء ، فيقول له حوارِيُوه المقربون : فيم بكاؤك ، وقد وفّقك الله لعمل أهل الجنة .. ؟

فتزداد دموعه انهماراً ويقول :

« وكيف بِخُبَيْبٍ ؟؟ وكيف بِخُبيب ؟؟ »

ثم يصيح كالثُّكْلَى :

« إن نجوتُ من خُبيب ، فأنا بخير » .. !!

لم يكن إذن يطمع في الخلافة ولا يريدها .

ولقد آثر أن يحيا مع نفسه يزوِّدها بزاد التقوى ، ويهيئْها للقاء الله يوم تلقاه على خير حال ، وأهدى سبيل ..

وفي هذه الفترة من حياته ، نجد نفسه التوّاقة تغيِّر مَسارها ، فتأخذ في العزوف شيئاً فشيئاً عن الإغراق في التأنق ، وتتخفَّف من المناعم والطيبات ، وتَشْغَفُ بالعزلة والتأمل العميق .. ثم نراه يحصر علاقاته المحدودة في نفرٍ كريم من العُبّاد والعلماء والزهاد .

وخلال ذلك تتوثق صلته بـ "رجاء بن حَيْوَة" ، وكان من علماء التابعين وفُضلائهم ، وكان موضع ثقة الخلفاء الأمويين ، عاش معهم دون أن يفقد فضائل نفسه ..

و "رجاء بن حيوة" شخصية جليلة ، لا نملك ونحن نتحدث عن أمير المؤمنين "عمر بن عبد العزيز" إلا أن ننحني له تحية وتقديراً ؛ فلقد اختارته المقادير ـ كما سنرى فيما بعد ـ ليكون السبب الأول والأوثق في إفضاء الخلافة لابن عبد العزيز ، حيث سترى الدنيا منه معجزة الحاكم الورع العادل الطُّهور .. !!

فسلام الله ورحمته عليك يا رَجاء ..

* * *

إن العزلة التي أخذت نفس "عمر" تجنح لها ، لم تَسْلَخه عن عالَمه ، ولم تُنْسِه إحساسه بمشاكل دولته وأمّته ، ولم تحمله على نفض يديه من مسئولية التحذير .

ففي هذه الفترة نراه ومعه شيخه وصديقه "رجاء بن حيوة" لا يَكُفَّان عن قرع أجراس الخطر ، وإسداء النصح للخليفة سليمان .

لقد كان غياب العدل والرحمة عن دولة الأمويين ، أكثر ما ينغّص نفس "عمر" ..

من أجل ذلك صارت كلمتا "العدل والرحمة" تسبيحة عَذْبة على لسانه ، يلهج بها دوماً ، ويَصُبُّها في أسماع الخليفة صبًّا .

* * *

وذات يوم ، طاف بالخليفة "سليمان" طائف المرض .. وكان قبل مرضه قد عقد ولاية عهده لولده "أيوب" ، لكنَّ "أيوب" كما يحدثنا ابن عبد الحكم مات ، فصارت ولاية العهد شاغرة .

فلمّا مرض "سليمان" وشعر أنه مرض الموت ، شَغَلَه أمر الخلافة .

وتفرَّس وجوه بنيه ، فألفاهم صغاراً .. فأمر أن يُلبسوهم أقمِصة الخلافة وأردِيتها ، ويقلدوهم السُّيوف ليرى ـ على الطبيعة ـ كيف يكونون .. ؟؟

وجيء بهم إليه مُزركشين بثياب الخلافة ، مُتوشّحين سيوفها ، فوجدهم لا يَمْلَئُونَ جانب العين .. فقال آسفاً :

« إن بَنِيَّ صِبية صِغار ، أفلح مَنْ كان له كِبار » .

وخلا بمشيره الأمين "رجاء بن حَيْوة" ، وراح يقلب معه وجوه النظر ، فقال له رجاء :

« إن مما يحفظك في قبرك ، ويشفع لك في أخراك ، أن تستخلف على المسلمين رجلاً صالحاً » ..

قال سليمان : ومن عساه يكون .. ؟

وأجاب رجاء : "عمر بن عبد العزيز" .. !!

وتلقَّى "سليمان" مَشورة رجاء كالبُشرى ، فقد صادَفَتْ هوًى في نفسه ، بل صادفت عزماً كان يضمره ويُخفيه ..

وهتف سليمان بعبارته المأثورة الباهرة :

« والله ، لأَعْقدَنَّ لهم عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب » !!!

ولكنْ كيف السبيل إلى ذلك وإخوة سليمان قابعون كالنمور ، واقفون للمنصب بالمرصاد .. ؟

هنالك اهتدى "سليمان" إلى الحل ، وهو أن يوصي لإخوته بولاية العهد بعد "عمر بن عبد العزيز" .. وسارع "رجاء" لإنجاز الخُطَّة .. وكتب مع الخليفة وصيته .

« بسم الله الرحمنُ الرحيم ..

« هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ، لعمر بن عبد العزيز ..

« إني قد ولَّيته الخلافة من بعدي .. ومن بعده .. يزيد بن عبد الملك ..

فاسمعوا له وأطيعوا ، واتَّقوا الله ..

« ولا تختلفوا فَيُطمَع فيكم .. »

هكذا تمَّت الخطوة الأولى نحو استخلاف "عمر" ، وسُطِّر العقد الذي لن يكون للشيطان فيه نصيب !

* * *

وسارع "رجاء" إلى الخطوة التالية ، فدعا الأمراء الأمويين لمقابلة الخليفة ، وكان كتاب الخليفة قد طُوي وخُتِم ، وتَوَاصى الخليفة ورجاء ألا يعلم بمضمونه أحد ما دام الخليفة حيًّا ..

واحتشد الأمراء حوله ، وأمرهم "سليمان" أن يبايعوا من استخلفَه واستودَع الوثيقة اسمه .. وحاول بعضهم أن يعرف قبل أن يُبايع ، لمن أوصى الخليفة ، فزجره سليمان ، فبايعوا جميعاً ، ثم انصرفوا يتبادلون الحدْس والظنون .

* * *

أين كان "ابن عبد العزيز" والأمر يُقضَى ويُبْرَم .. ؟؟

لقد كان يعود "سليمان" يوماً ، فاستقبله قائلا :

ـ يا "عمر" ..

« ما أهمَّني أمر قطّ ، إلا خَطَرْتَ فيه ببالي » ..

ومن ذلك اليوم ، وهو يُحِسّ شعوراً مبهماً في نفسه ، شعور التوجس من أن يصنعها سليمان من وراء ظهره ، ويَرزأه بمسئوليات الخلافة ..

هنالك ، يسارع إلى حيث يلتقي برجاء بن حيْوة ، ويقول له متوسلاً :

« يا رجاء ..

إني أرى أمير المؤمنين في الموت ، ولا أحسبه إلا سَيَعْهَدُ ..

وإني أناشدك الله إذا ذكَرني بشيء من ذلك أن تصرفه عني ..

وإن لم يذكرني ألا تذكُرني له في هذا الأمر أبداً » ..

وكان على "رجاء" أن يستخدم ذكاءه في انتزاع هذا الإحساس من نفس "عمر" ، فهو يعلم أنه إذا تحوَّل شعوره هذا إلى مجرَّد ظَنٍ قويّ بأن الخليفة عهد إليه ، فسيسعى إلى الخليفة معتذراً ومُتنصِّلاً ، بل ربما غادر البلاد كلها إلى حيث لا يُعرف له مقر أو مقام ..

من أجل ذلك أدّى "رجاء" دوره بدهاء عظيم حين أجاب "عمر" قائلاً :

« لقد ذهب ظنك مذهباً بعيداً ، ما كنتُ أحسبُك تذهب إليه ..

أتظن بني عبد الملك يُدخلونك في أُمورهم » ؟!

وتهلَّلَ وجه عمر .. وانصرف عن رجاء .. الذي تهلَّل وجهه هو الآخر ، وراح يفرك كفَّيْهِ مغتبطاً مسروراً ، فقد ربح الجولة الأولى مع الهارب من المُلك والمجد والخلافة ... !!!

* * *

وذهب إليه "هشام بن عبد الملك" أخو الخليفة سليمان ؛ وكان يتطلع إلى المنصب في رغبة ضارية ..

قال لرجاء : « يا رجاء . إن لي معك حُرمة ومَودّة ، فأنبئني بهذا الأمر : إن كان صائراً إليّ علمت .. وإن كان لغيري تكلمت .. ولك عليّ العهد ألا أذكر من ذلك شيئاً أبداً » ..

وكان جواب الشيخ الجليل له : إن الخليفة قد ائتمنه وأخذ عليه العهد ألا يتكلم ..

وانصرف عنه "هشام" حيران أسِفاً ، يسائل نفسه :

« إذا كنت قد نُحّيتُ عنها . فإلى من يا ترى ؟ وهل ستخرج الخلافة من بني عبد الملك .. ؟؟ » .

ويذهب "رجاء" ذات يوم ليعود الخليفة ، فيجده في اللحظات الأخيرة من حياته ، فيجلس إلى جواره حتى تفيض روحه فيُسَجّيه ..

ويتكتم النبأ في ثبات وطيد ، مُهَيّئاً الظروف لإعلان الخليفة الجديد ، زافا مع إعلانه هذا أعظم البشريات لدين الله ، ولدنيا الناس .. !!!

ولنُصْغِ إليه يكمل النبأ ويصف المشهد :

« ... وخرجتُ ؛ فأرسلتُ إلى كعب بن حامد العبسي ـ رئيس الشرطة ـ ليجمع أهل بيت أمير المؤمنين ... »

فاجتمعوا في مسجد "دابق" ، فقلت لهم : بايِعوا ..

قالوا : قد بايَعْنا مرة ؛ أنبايع أخرى .. ؟؟

قلت لهم : هذه رغبة أمير المؤمنين ؛ فبايِعوا على مَن عَهِدَ إليه في هذا الكتاب المختوم .

فبايَعوا رجُلاً ؛ رجلاً .

فلمّا بايعوا رأيت أني قد أحكمتُ الأمر ؛ فقلت لهم : إن الخليفة قد مات ...

ومضيت أقرأ عليهم الكتاب » ... !

* * *

إنه ما دام النظام المعمول به في منهج الأمويين هو الاستخلاف ؛

فإن العمل الذي أنجزه "رجاء بن حَيْوَة" لَعَظِيمٌ ، جدُّ عظيم ..

فالرجل الذي اختِير للخلافة هذه المرة ؛ ليس ثمة مِن طرازه سِواه ..

إنه رجل ، لو أنّ أروع ما عرف التاريخ الإنساني كلّه من ديمقراطية وشُورَى أراد أن يختار له نظيراً لأعياه وجود النظير .. !!

ومع ذلك ، فسوف نراه عما قريب ؛ ينتهز أول فرصة مُواتية ليحاول خَلْع الخلافة من عُنُقِه ، وليردَّ الأمر إلى المسلمين يختارونَ مَن يشاءون .. !!

* * *

رأينا كيف بايعه الأمراء الأمويون بعد أن فاجأهم كتاب الخليفة الذي قرأه عليهم رجاء ..

وكان هشام .. فيمن بايع على مضض .. إذ تقدم من "عمر" وهو يقول :

إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، إذْ نُحيتُ عني ..!! » .

فأجابه "عمر" :

« بل ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، إذ صارتْ إليَّ ، وأنا لها كارهِ » !!

ولم يكد يُفيق من غمرة المفاجأة ، حتى راح يَرتجف كعصفور غطّته الثلوج ، واستقبل "رجاء بن حيوة" يقول له في عتاب :

« ألم أُناشِدْك الله ، يا رجاء » .. ؟!

ثم سار إلى الخليفة المسجّى ؛ فصلّى عليه ، وشيّعوه إلى مثواه .. وعاد يُعزّي أهل بيته فيه ، ويتلقى فيه العزاء .

وفي الغداة ـ وكان النبأ قد طار إلى كثير من بلاد الشام ، حيث سارع خلق كثيرون إلى "دابق" ـ دخل أمير المؤمنين المسجد فإذا هو غاصٌ بحشود هائلة من الوافدين ، فرأى الخليفة أنها فرصته للخلاص من المنصب الكبير قبل أن يتشبث بكاهله .

وفجأة صعد المنبر ، وخطب الناس :

« .. أما بعد ، فقد ابتُليت بهذا الأمر على غير رَأْيٍ مني فيه ، وعلى غير مشورة من المسلمين ..

وإني أخلع بيعةَ من بايعني ، فاختاروا لأنفسكم » .. !!

ولعله قدّر أن المفاجأة ستُذهِل الناس ، فتعقِد ألسنتهم على الكلام ولو لحظات . يستطيع هو خلالها أن ينجو بنفسه ، مبرراً صمتهم بقبول تنازله .. !

بيد أنه لم يكد يفرغ من نُطق هذه العبارة : « فاختاروا لأنفسكم » حتى كان المسجد يهتز بدَمْدَمة رهيبة ، أطلقتها الحناجر الصائحة الصادحة :

« .. بل إيّاك نختار ، يا أمير المؤمنين » .. !!

واندفعت الجموع التي بداخل المسجد ، والجموع التي كانت خارجه ، صوب المنبر الذي كادت تصهره أنفاسهم الحارَّة ..

وهبط دَرَجَ المنبر ، مُحاولاً أن يجد له وسط الجموع طريقاً .

كانت أصواتهم الصادعة المُبايعة ، قد حولت المناسبة إلى مِهرجان ..

وراحت أذرعتهم المشرعة تُلوِّح وتَخفُق ، كأنها الرايات الظافرة ، وعيونهم المغتبطة تبرق بفرحة العمر وبهجة الحياة ..

وراح ـ هو ـ يُجهش بالبكاء .. !!

■ ■ ■

المعجِـزة

« بل جَزَى الله الإسلام عني خيراً» !!

نحن الآن أمام رجل جديد ، مُغايِرٍ تماماً لهذا الذي كنا معه عَبْرَ الصفحات السالفة من الكتاب ..

فكيف ظهر هذا الرجل فجأة .. ؟!

كيف بَزغ على نحوٍ مُباغتٍ ، ومن أين جاء .. ؟؟

* أكان القدَر يصنعه على عينيه ، ليقدم به مُحيًا باهراً للفضيلة والخير ، في دنيا كادت تُجدب من الفضيلة والخير .. ؟

* أكان روح الإسلام يعمل في مُثابرة غير منظورة ؛ ليثبت أنه لا يزال يُنجب من أبنائه البررة ورجاله الشاهقين المعجِزين ، ما حَسِب الناس أن زمانهم ولَّى ودرس .. ؟

* أكان الضمير الإنساني قد أقلقه غياب القدوة الصالحة ، وإجداب الوجدان البشري منها ، فراح يبحث عن أقوى الناس ليحقق به وفيه ظهورَها وتجلِّيها ، وليُذكِّر الطموح البشري بطريق القداسة .. ؟

* أكانت الحقيقة قد سَئِمت عبقرية التنظيم والمعرفة والإدارة ، تعمل وحدها ، فراحت تهيب بعبقرية الروح كي تملأ الفراغ الموحِش ، وتروي برهبانيتها الناشطة وبتبتُّلِها النبيل عقلَ الحياة .. ؟

* أكانت فضائله الكامنة تنمو داخل نفسه نمواً غير منظور ، وتحتشد في تركيز هائل ، لِتفجِّر في ميقات معلوم طاقتها الجبارة .. ؟؟

ألا إن ذلك كلَّه قد كان ..

وبهذا كله ، ومن أجل هذا كله ، جاء إلى الحياة هذا الرجل الجديد ، والزائر الجليل - عمر الخليفة - في رحلة سريعة لن تلبث إلا عامين ، وخمسة أشهر ، وبضعة أيام .. !!!

* * *

ولو أن هذا الخليفة كان قبل الخلافة واحداً من عامة الناس ..

ولو أن البيئة التي قضى فيها طفولته وشبابه ورجولته كانت مألوفة بين البيئات ..

ولو أن الزمن الذي استغرقه انقلابه الروحي المذهل ، امتدَّ على طريق تطورٍ طويل أو حتى قصير ..

ولو أن السبب المباشرة لهذا الانقلاب كان شيئاً آخر غير المنصب الذي يُشعِل الطموح ويفتح الشهيَّات .

لو أن ذلك كان كذلك ، لَتيسَّر لنا تصوُّر الإعجاز الذي حدث ..

أما والأمر مختلف عن هذا كله ، فإن ذلك الإعجاز يبقى ـ وإلى الأبد ـ سراً جليلاً يتحدَّى كل إدراك .. !

* فبطل الانقلاب الروحي الذي سنطالع الآن صورته الخارقة ؛ لم يكن من أوساط الناس في معيشته ورزقه ؛ فيُقال : إن زهده وورعه كانا امتداداً لمعاناةِ تجاربه .. بل هو منذ مولده إلى استخلافه ربيب الملك ؛ وحفيد المجد ، وابن القصور الناعمة ، والمباهج الهاطلة .. !!

* وهو لم يكن حين تَسنَّم الخلافة شيخاً تقدمت به السن ، فيُقال : إن استغناءه عن نفوذها وجاهها ونعيمها إنما هو مظهر لحياة شبعت من النعيم والجاه حتى بَشِمَتْ ، وأعراض شيخوخة ولَّى عنها ولَعُ الشباب وطموحه .. بل إن البطل والقِدِّيس كان يوم استخلافه في رائعة الرجولة والاقتدار والطموح .. لقد كان في الخامسة والثلاثين من عمره .. !!

* وهو لم يستغرق في انقلابه الروحي الهائل المفاجئ سنين ولا شهوراً ، بل جاء كما سنرى ابن اللحظة التي اختير فيها أميراً للمؤمنين .. !!

* ولم يكن وراء هذا الانقلاب الروحي يأس من غاية أرهقَتْ طموحه ، ولا هزيمة في الحياة راح يلتمس عوضاً عنها ، وبديلاً لها ، ولا ردُّ فعل لإفراط قديم في شهوات النفس ، ولذاذات الجسد ، ولا نوبة صلاح وتُقى دفعَتْ به إلى صوامع العابدين ، ولا نزعة تشاؤم تَرَى العدَمَ وراء الأشياء ، فتلوذ باللامُبالاة ، صائحة : الكلُّ باطل ..

بل كان وراء انقلابه الروحي شيء هو أبعد ما يكون عن النتائج التي أفضى إليها .. أجل ، كان هناك منصب الخلافة "وصَوْلجان الملك" لأعظم ، وأقوى ، وأوسع إمبراطوريات عصرها وزمانها .. !!!

وفي هذا ـ قبل أيِّ اعتبار آخر ـ تتراءى قَداسَة هذا الانقلاب المفاجئ الجليل ، وتتمثل المعجزة كلها .. !!

* * *

ونحن نصف هذا الانقلاب بالمفاجئ ، لأنه كان كذلك فعلاً ؛ فمع أن حياة "عمر" كانت منذ طفولته طاهرة فاضلة ، نَزَّاعة إلى المزيد من الصلاح والتقى ..

ومع أنه بعد عزله عن ولاية الشام أيام الوليد بن عبد الملك عكف على تنمية فضائله وتزكية نفسه ، وشرع يُخفف من غُلواء تأنُّقه وتنعُّمه .. فإنه لا هذا ولا ذاك ولا أضعافهما معهما ، لا شيء من هذا كله بقادر على إقناعنا بأنه كان مقدمة لذلك الانقلاب الفَذِّ الذي تفوَّق حتى على ذاته ، والذي تقمَّص شخصية الخليفة في اللحظة التي جرى فيها ريقه بالمَذاق الرهيب لا الرَّطيب ـ لمسئولية الحكم والخلافة .. !!

* * *

لا ريب في أن اصطفاء الله وتوفيقه ، يقفان قبل كل سبب ودافع وراء المعجزة ..

فالله سبحانه على كل شيء قدير .. وهو ـ سبحانه ـ أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم حيث يضع سِرَّه وبَركَته .

لكنْ إذا ذهبنا نلتمس للمعجزة سبباً ودافعاً مما يدخل في حَوْزَتنا ويُشكّل حياتنا ، كبَشر مختارين ، ومسئولين . نُفكّر ، ونُقدِّر ، ونسعى ، ونختار ، ونريد ، فأين نجد هذا الدافع يا تُرى .. ؟ إنه ـ في رأينا ـ مستقر فيه معنى واحد ، ذلكم هو طريقة ابن عبد العزيز في فهم "مسئولية الحكم" ، وإحساسه بها ، وتقديسه لها .

فكل شيء داخل شخصيته ، وخارج شخصيته ، يتغير في إنجاز خاطف تحت ضغط هذه المسئولية وحدها !!

و "هو" الآن .. ليس "هو" الذي كان .. !!

والدولة ، والأمّة ، والحياة كلها ، تجاوز أوضاعها السابقة في مثل لمح البصر ، إلى أوضاع أخرى تعكسها عظمة الخليفة وقداسته .

ثم إن ارتباط هذه المسئولية في ضميره بالله ارتباطاً وثيقاً ومبَاشِراً يدعوه أن يقهر الزمن لمشيئة التغيير ..

فهو لا يصبر يوماً ، ولا ساعة على خطأ قديم ، لأن الله سائله لماذا ترك هذا الخطأ ساعةً من نهار ؟ ولأنه لا يضمن لنفسه الحياة إلى الساعة التالية .. ومن ثمّ فلا وقت للإرجاء .. !

والآن ، فلننظر !! ..

* * *

ها هو ذا يعود من دَفن سلَفِه "سليمان بن عبد الملك" فلا يكاد يستقر به المقام في مجلس العزاء حتى يطلب إلى مولاه "مُزاحم" أن يسارع إليه بقرطاس ، وقلم ، ودواة ..

ويقترب منه "رجاء بن حَيْوة" وقد رأى جسده ينتفض ، كأنّ به رعدة مرض ثقيل ، وينصحه بإرجاء ما يريد إنجازه الآن إلى غد ، حتى يستريح ..

لكنه يجيبه ، ودموعه تَنْثالُ من مآقِيه :

« لقد فَعلْتُها يا رجاء ..

فدعني أستَنْقِذُ نفسي من عذاب يوم عظيم » !!

إنها المسئولية الموصولة بالله ، وبما لله في نفس عمر من عظمة ، ورهبة ، وجلال ..

أجل .. إنها هي ، لن تَدعه ينعم ، ولن تتركه ينام .. !!

ويجيء "مُزاحم" بالقرطاس ، وبالقلم ، وبالدواة .. ويختطفها الخليفة منه في لهفة من يختطف حياته ومصيره من فُوْهة إعصار .. ويروح يكتب على عجل :

* إلى مسلمة بن عبد الملك ، ليعود بجيشه من القسطنطينية ..

* وإلى يزيد بن أبي مسلم ، يخبره بعزله عن إفريقيا ، ويدعوه ليقدّم حسابه ..

* وإلى أسامة التنوخي ، يخبره بعزله عن خراج مصر ويدعوه ليقدّم حسابه .

وأمر أن تُحمل الكتب فوراً إلى أصحابها ..

وبُهت الأمراء الأمويون لِما رأوا .. وتهامس بعضهم معلّقاً على هذا المشهد الذي أثار عجبهم وحنَقهم معاً ؛ فقال :

« إنه الولَع بالسلطان ، لا يَدعُه يصبر حتى الصباح » !!

مساكين .. !! فقد كانوا أعجز من أن يبصروا رُوح القداسة التي بدأت تعمل داخل ضمير الرجل الذي لم يجد في منصب الخلافة الذي يتكالبون عليه سوى رُزْءٍ رهيب .. !!

وإن عجلته الحازمة في البدء بهذا الثالوث ، لتكشف لنا طرَفاً من ولائه الوثيق لمسئولية الحكم ، ومنهجه في تحمُل هذه المسئولية .

* فأما "مسلمة بن عبد الملك" فقد كان على رأس جيش كبير يحاصر القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية .. وكاد الحصار يؤتي أكله ويفتح أبواب العاصمة ، لولا خدعة ورَّطه فيها القائد الروماني "اليون" فردَت القوَة عجزاً ، والنصر هزيمة .. وعلى الرغم من ضياع الفرصة ، وانقطاع خطوط التموين وتفشِّي المرض والمجاعة في الجيش ، فإن الخليفة السابق "سليمان بن عبد الملك" رفض أن يصدر أمره للجيش بالعودة ، ربما تحت وطأة كبريائه الشخصي والقومي ، وربما أملاً في تحسُّن ظروفه وإمداده بقوات جديدة ـ وهكذا تُرك الجيش المتداعي فريسة للضياع ..

ولقد كان ـ عمر بن عبد العزيز ـ قبل استخلافه يَتميَّز غيظاً من هذا الموقف ، ويُلح على الخليفة باستدعائه . ولكن لا رأى لمن لا يُطاع .

والآن ، وقد صار الأمر إليه ، فإنه لا يطيق صبراً ، ولا يُرجئ أمر الانسحاب إلى الصباح ، بل يبدأ بإصداره وبإرسال الرُسُل به في أولى ساعات خلافته ومسئوليته ـ هذه الأولى ..

* فأما الثانية ، وهي عزل أسامة التنوخي عن خراج مصر ؛ فقد كان أسامة هذا ـ كما يصفه ابن عبد الحكم ـ "غاشماً ، ظلوماً ، مسرفاً في العقوبات بغير ما أنزل الله ؛ يقطع الأيدي ، ويملأ أجواف الدواب بأشلاء ضحاياه ، ثم يطرحها للتماسيح » !!!

أفهذا طراز يسكت عنه ابن عبد العزيز طَرْفة عين .. ؟؟

لطالما نصح الخليفة السابق بوجوب عَزْله ..

والآن وقد صار الأمر إليه ، فإنه لا يَدَعُه في مقامه لحظة ، فقد يَبتُر في هذه اللحظة يداً تجيء يوم القيامة مُعلَقةً في عُنق "عمر" ـ تقول : يا رب ـ لقد قُطِعتْ بغياً وعُدواناً في عهد هذا الخليفة .. !!

* وأما الثالثة ، وهي عَزْلُ "يزيد بن أبي مسلم" عن إفريقية ، فقد كان هو الآخر طاغية متجبراً ، يعامل الناس بوحشية مسعورة ، ويتسلَّى برؤيتهم وهم يُعذَّبون ويذوقون نكاله ..

* * *

هكذا بدأ الخليفة عهده .. بالتغيير السريع الحاسم العميم الذي يجب أن يتم على مستوى الدولة والأمَة بنفس السرعة والشمول اللذين تم بهما الانقلاب الروحي داخل وجدانه وضميره .

لا مجال للتلكؤ ولا للإرجاء أمام عزيمة الرجل الذي صارت عيناه لا تَكُفَّان عن البكاء ، والذي لم يعد لسانه يَلهج بغير هذه الآية المُنذِرَة :

﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ !!

وعصيان ربه ـ في تقديره ـ يتمثل في إرجاء التغيير ، بالقدر نفسه الذي يتمثل به في إهمال التغيير .

وكأنه كان يدرك بحاسّته السادسة ، وببصيرته المضيئة ، أن حياته على جناح طائر ، وأنه لن يلبث بين الناس إلا قليلاً ثم يلبي نداء ربه ، فراح يملأ اللحظة العابرة بجهاد أعوامٍ ثقال .. !!

* * *

والآن ، لننظر مرة أخرى !!

ها هو ذا في اليوم التالي ، يتهيأ آخذاً طريقه إلى السُرادق الذي جرت العادة بإقامته حيث يجري فيه أول لقاء بين الخليفة الجديد وصفوة قومه ..

ولا يكاد يضع قدميه على الطريق ، حتى يرى موكباً فخماً من الجياد المطهَّمة ، تتوسطها فرس زُيِّنت كالعروس ، ليمتطي الخليفة ظهرها الباذخ ..

وفجأة تأخذه الرَّجْفة ، ويسأل مستنكراً :

ـ ما هذه ؟؟

فيجيبونه :

ـ هذه جياد لم تُركب قطَ ، تُعَدُّ لموكب خليفة جديد .. فينادي عمر :

ـ يا مُزاحِم .. ضُمَّ هذه إلى بيت المال !!

ويمضي على قدميه حتى يبلغ السُرادق ، فإذا هو فِتنة ولا كإيوان كسرى .. فتعاوده الرَّجفة ، ويسأل :

ـ ما هذا .. ؟؟

فيجيبونه :

ـ إنه السُرادق الذي يُعَدُّ لاستقبال الخليفة الجديد .. فينادي :

ـ يا مُزاحِم .. ضُمَّ هذا إلى بيت المال !!

ويدعو بحصير فيفرشه على الأرض ، ثم يجلس فوقه في غبطةِ قِدِّيس !!

ثم يُجاء بالأردية المزركشة ، والطَّيْلسانات الفاخرة ، فيسأل :

ـ ما هذه ؟؟

فيقولون :

إنها ثياب الخلافة ، يتحلَّى بها كل خليفة جديد .. فينادي :

ـ يا مُزاحم .. وهذه أيضاً ضُمها إلى بيت المال !!

ثم تُعرض عليه الجواري ، ليختار منهن وَصيفاتِ قصره .. وهُنا ينهض فَزِعاً ، ويُقبِل عليهن واحدة واحدة :

ـ من أنتِ .. ؟ ولمن كُنتِ .. وما بلدك .. ؟

حتى إذا فرغ من سؤالهن جميعاً ، نادى :

* يا مُزاحم .. تولَّ أمرهُنَّ جميعاً ، وَأَرْجِعْ كل واحدة منهن إلى أرضها وذويها .. !!

ألا فلندَّخر الكثير من عجبنا ودَهَشِنا ، وانبهارنا ، فإننا مقبلون على عالَمٍ آهلٍ وحافل بمثل تلك المعجزات .. !!

* * *

بعد قليل ينتقل أمير المؤمنين إلى "دمشق" ، عاصمة الخلافة الأموية .

ومن "دمشق" حيناً .. ومن "خُناصِرة" أحياناً سيباشر مسئوليات الدولة الطويلة العريضة التي أصبح مسئولاً عنها ـ والمعجزات التي ستشهدها أيامه المباركات ؛ سنراها ثمرة لأمرين التزم بهما في إخباتٍ شديد :

أولهما : الولاء المطلق للدين ..

ثانيهما : الولاء المطلق للأمّة ..

يُدَثِّر هذا الولاء وذاك ، خوفٌ بالغ من الله ، يكاد تتصدّعٍ من مثله الجبال !!

* فأما ولاؤه للدين ، فقد كان إيمانه بالإسلام عظيما . كان يرى فيه مَفاءَ نعمته وفردوس حياته .

يقول له بعض إخوانه ، وقد بهرهم عهده العظيم :

ـ جزاك الله عن الإسلام خيراً ..

فإذا هو يجيب :

«بل جَزى الله الإسلام عني خيراً » .. !!

ولقد زاده إيماناً بعظمة دينه ، تلك التطبيقات الباهرة التي كشفت مقدرته في بناء الدولة العادلة ، والأمّة الفاضلة ، يوم كان يحمل رايته ذلك الرعيل الأول من أصحاب رسول الله ﷺ ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق .. والفاروق عمر ..

ولقد قضى عمره منذ طفولته ملتزماً أوامر الدين وحدوده ، لكنه اليوم وقد صار خليفة للمسلمين ، فإن علاقته بالدين لم تعد علاقة المؤمن المطيع فحسْب ، بل جاوزت ذلك إلى موقف الحارس والمنفّذ ، والمسئول عن ترجمة حقيقة الإسلام ومبادئه إلى طريق عام ، تسير فيه الدولة والمجتمع ..

* وأما ولاؤه للأمّة ، فهو في الحقيقة امتداد لولائه للدين . فالدين بوصفه كلمة الله ، استوصى أول ما استوصى بالإنسان .

والإسلام خاصة يعطى أكثر اهتماماته لقضية الإنسان .. !!

على أن الظروف التي وَلِيَ فيها "ابن عبد العزيز" الخلافة ، كانت تعطي ولاءه لحقوق الناس وقوداً هائلاً من المظالم والمشكلات والأزمات التي خلفتها العهود الأموية السالفة .

لقد حدد ولاؤه هذا طبيعة مسئولياته وفلسفتها ، وراح يحملها في مزيج عجيب من الإرهاق والإشفاق .

الإرهاق لنفسه ، حتى لا يكاد يعطيها فرصة للتنفُّس ..

والإشفاق عليها أن يأتيها الموت قبل أن تفرغ من واجبها .. !!

وإذا كانت الشهور التسعة والعشرون التي عاشها خليفة تُعتبر بالنسبة للتاريخ الإنساني كله بمثابة لحظة ، فإن هذه اللحظة قد صارت من أعظم أزمان التاريخ تزكيةً للإنسان وتأثيراً في الحقيقة ، إذ أعطت البشرية في مختلف عصورها وأديانها وأجناسها ، المثل على ما تستطيع الإرادة الإنسانية أن تحقق من قداسة ، وتصنع من إعجاز ، إذا جعلت الله رقيبها ، والحقَّ كِتابَها .. !!

* * *

لقد حرص "أمير المؤمنين" على أن يُدرك الناسُ أنه لا يأتيهم بجديد من المبادئ والنظم ، فكل ذلك في قرآنهم ودينهم ، وتراث الرَّعيل الأول الصالح من خلفاء رسولهم وأصحابه ، والتابعين لهم بإحسان .

إنما هو يأتيهم بروح جديدة ، هي روح المسئولية الورعة الصادقة ، يُزكِّيها فَهْمٌ سديد لجوهر الإسلام وأهداف شريعته .

وإذن . فإن علينا أن نَرصُد مسار علاقته بمسئولياته في ثلاثة مطالع :

المطلع الأول ـ وضوح المسئولية في وَعْيِه ..

المطلع الثاني ـ استغراقه فيها ..

المطلع الثالث ـ إخلاصه لها ..

* فأما عن الأول ، فنحن نعلم أنه لكي تستغرق قضية مَا إنساناً مَا ؛ استغراق إيمان لا استغراق بحث ، فإنها لابدَّ من أن تكون قد بلغت من الوضوح والإسفار في تفكير صاحبها وشعوره المدى الذي يقهر كل غموض ، ويتخطى كل تساؤل .

والقضية التي استغرقت ـ عمر بن عبد العزيز ـ كانت من هذا الطراز ـ فهي لا تستغرقه استغراق باحث يحاول التأكد من صحتها وصدقها ، بل استغراق مؤمن مفعم باليقين .. !!

فلننظر الآن مظاهر وضوحها لديه .. وإذا كانت كلماته وخطبه إنما تعبرُ تعبيراً مطلقاً عن حقيقة اتجاهاته ومقاصده ، فإنها إذن كفيلة بإعطائنا صورة هذا الوضوح ..

ولنبدأ معه بهذه الخطبة :

« .. لقد سَنَّ رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده سُنَناً ، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله ، وقوة لدين الله . ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا الركون لأمرٍ خالفَها ..

من اهتدى بها ؛ فهو المهتدي ..

ومن استنصر بها ، فهو المنصور .

ومن تركها واتَّبع غير سبيل المؤمنين ولاَّه الله ما تولَّى ، وأصلاهُ جهنم وساءت مصيراً .. »

« أيها الناس .
إنه ليس بعد نبيكم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أُنزل عليه كتاب .
فما أحلَّ الله على لسان نبيِّه ، فهو حلال إلى يوم القيامة .
وما حرَّم الله على لسان نبيِّه ، فهو حرام إلى يوم القيامة .
ألا وإني لَسْتُ بقاضٍ ، وإنما أنا مُنفِّذ ..
ولست بمبتدع إنما أنا مُتَّبع .
ولست بخيركم ، إنما أنا رجل منكم ، غير أني أثقلكم حملاً » .. !!

* * *

هكذا تتضح المسئولية في رُوعه غاية الوضوح ..
فموضوعها ـ هذا الدين الذي أتمّ الله به النعمة وارتضاه للناس ديناً .
وحاملِها ـ ليس مُشرِّعاً ، ولا قاضياً .. إنما هو مُنفِّذ لمشيئة هذا الدين ومبادئه .
وهذا الوضعُ لا يمنحه أيَّ امتياز "لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم" .
والفارق الوحيد بينه وبين أفراد أمّته هو أنه "أثقلهم حِملاً" ـ وهو كما نرى ، محسوبٌ عليه .. وليس محسوباً له .

بل إنه حين يدعو الناس إلى العبادة ومكارم الأخلاق لا يقف منهم موقف المعلم ولا الواعظ ، بل نراه يتهم نفسه بالتقصير ويَضرعُ إلينا كي نُصدِّقه .. هو الذي بلغ أرفع مستويات التقى والعظمة والهدى والكمال ..

ها هو ذا يستقبل الناس خطيباً ، فيقول بكلمات يخنقها النحيب والبكاء :

« وأيْمُ الله ، إني لأقول لكم هذه المقالة . وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلمه عندي . فأستغفر الله وأتوب إليه .. » !!

ووضوح مسئولياته كأمين على دين الله ، هو نفس وضوحها كأمين على عباد الله ..
تروي زوجته "فاطمة بنت عبد الملك" هذه الواقعة :
دخلت عليه يوماً ، وهو جالس في مُصَلاه ، واضعاً خدَّه على يده ، ودموعه تسيل .. فقلت له : ما بالُك ، وفيمَ بكاؤك .. ؟؟

« فقال : وَيْحك يا فاطمة .. إني قد وُلِّيتُ من أمر هذه الأمّة ما ولِّيت ، ففكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والمظلوم المقهور ، والغريب ، والأسير ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وذي العيال الكثير والرزق القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمتُ أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم يومئذٍ محمد ﷺ ، فخشيت ألا تثبت لي حجة ؛ فلذلك أبكي » .. !!

هذا وضوح مسئوليته عن الأمّة كلها والناس جميعاً ، وكما قال :
« في أقطار الأرض وأطراف البلاد » .
إن قلبه الورع الذكي الكبير ، مع كل فرد من أمته .

مع كل يتيم ، وكل شيخ ، وكل أرملة ..
مع كل فقير ، وكل مريض ، وكل مجهود ..
مع كل مظلوم ، وكل أسير ، وكل مقهور ..

كل هؤلاء وأولئك قابعون في ضميره ، يُجلجلون بحاجاتهم ، ويجأرون بشكاواهم ، وينتظرونه ـ كما يتصوَّر ـ ليخاصموه يوم القيامة أمام الله رب العالمين ، حيث لا ينجيه منهم غداً ، إلا ما يبذله لهم اليوم من حقّ ، وعدل ، وخير ، وبِرّ !!

من هذه الصورة السريعة لوضوح مسئوليته في عقله وقلبه ، ننتقل إلى صورة سريعة أخرى ترينا استغراقه في هذه المسئولية وفناءه فيها ..

لقد احتوته المسئولية في خِضَمّها ، فنسِيَ نفسه ، وأهله ، ودنياه ، وعالَمه .. نَسِيَ كل شيء سواها !!

بل نَسِيَ حقّه في استشعار الرضا والأمن جزاء ما يُقدم لدين الله ودنيا الناس من ولاءٍ وبِر .. حتى حقّه هذا ، نَسِيَهُ في غمرة خوفه المشبوب من الله !!

لم يعد يذكر سوى مسئوليته الفادحة ، وبدت له أعماله الشامخات كأنها ليست شيئاً مذكورا .. وسيطرت على شعوره وفكره صورة واحدة ـ تلك هي صورة موقفه بين يَدَيِ الله سبحانه ، يسأله عن كل شعيرة من دينه ، وعن كل فرد من عباده .. !!

تقول "فاطمة" زوجته :

« لقد كان يذكُر الله في فراشه ، فينتفض انتفاضة العصفور من شدة الخوف ، حتى أقول : ليُصْبِحنَّ الناس ولا خليفة لهم » !!

ويقول "عليّ بن زيد" :

« كان يبدو ، وكأنّ النار لم تُخلق إلا له » !!

ويقول "ميمون بن مهران" :

« رأيتُه مرة يبكي ؛ فإذا هو يبكي دماً » !!

إن "المضمون الإلهي" للمسئولية دفع استغراقه إلى أقصى قِيعان المسئولية وأبعادها ..

ولقد أصبح يستحي من ربه أن يرى في فمه لقمة شَهِيَّة .. أو أن يرى على جسده ثوباً ناعماً .. بل أن تُرى على شفتيه ضحكة ـ مجرّد ضحكة .. !

فمنذ وَلِيَ الخلافة إلى أن يلقى ربه ، لن يُرَى ضاحكاً .

والرجل الذي كان قبل الخلافة بدقائق متأنقاً ، فوّاح العبير ، قد جعلته المسئولية في لمح البصر إنساناً آخر ، أشعث ، أغبر ...

تماماً مثل جَدّه العظيم "عمر بن الخطاب" ، لو لَقِيَه من لا يعرفه من الناس . لسأله : أين أجد أمير المؤمنين .. ؟؟!!

لقد رفض رفضاً مطلقاً كل أطايب الحياة ومناعمها ، ولاذ بتقشُّف بعيد ، وشظف شديد ..

إن الرجفة الكبرى التي نَجمَتْ عن وضوح مسئوليته بكل رهبتها وجلالها ، قد

أخرجت حياته كلها عن مدارها الأول ، إلى مَدار جديد ، محوره سؤال الله له عن كل حق للدين ، وللدولة ، وللأمّة ..

إنه يعبد الله كثيراً ، ولكنّ "المعبود" لا "العبادة" هو مناط مخاوفه واهتماماته ..

والآن وقد صار خليفة للمسلمين ، فإن علاقته بالله لم يعد يكفي فيها أن تكون علاقة "عابد" بـ "معبوده" .. بل قبل ذلك يجب أن تكون علاقة "مسئول" بـ "مُستَخْلِفه" .. !!

تقول زوجته "فاطمة" وقد سُئلت عن عبادته :

« والله ما كان بأكثر الناس صلاةً ولا أكثرهم صياماً .

ولكني والله ، ما رأيت أحداً أخوف لله منه » .. !!

أجل .. لو كانت مخاوفُه هذه مخاوف "عابد" يخشى التقصير في عبادته ، لوجدَتْ تلك المخاوف مرفأها سريعاً ، لكنها مخاوف "مسئول" يرى الله قد ائتمنه على الدين والدنيا .. على الناس ، والزرع ، والأنعام ..

وهكذا كان استغراقه في مسئوليته ، واستغراقها إياه ، حقيقة تتحدى كل وصف ، وتفوق كل مُبالَغة ..

* * *

وإنا لنشهد صورَ هذا الاستغراق تتوالى على جميع مستويات حياته ـ خليفة ، وزوجاً ، وأباً ، وأخاً ، وقريباً ، وصديقاً .. !!

فجميع علاقاته بنفسه ، وبعشيرته ، وبالناس أجمعين ، غائصة معه في أعماق استغراقه البعيدة .. بل إن الناس أنفسهم غائصون معه بدرجة قربهم منه ، مما جعل قرابته وصداقته تتحوّل إلى غرم فادح للأقرباء والأصدقاء ..

ولقد عبّر عن هذه الحقيقة أجمل تعبير ، خادم له رآه أمير المؤمنين يسحب بِرْذَوْنَه ، فسأله :

« كيف حال الناس .. ؟؟ » .

فأجابه :

« كل الناس في راحة ، إلا أنت ، وأنا ، وهذا البِرْذَوْن .. !! » !!

ولقد انعكس استغراقه في مسئولياته على نفسه ، وعلى أهله ، وعلى كل الذين حوله انعكاساً مجيداً .

فأمّا هو ، فكما رأينا ، حَلَّ في إهابِه إنسان آخر عجيب ..

هذا "محمد بن كعب القُرَظِي" يتحدث ، فَلْنُصْغِ إليه :

« دخلتُ على "عمر بن عبد العزيز" بعد استخلافه ، وقد نحل جسمه ، وعفا شَعره ، وتغيّر لونه ـ وكان عهدنا به في المدينة وهو أمير عليها ، حسن الجسم ممتلئ البَضْعَة ..

فجعلت أنظر إليه ، لا أصرف بصري عنه ..

فقال لي : يا بن كعب ، ما بالك تنظر إليّ نظراً ما كنت تنظره إليّ من قبل .. ؟

قلت : لِعجَبي ، يا أمير المؤمنين .. !!

قال : ومِمَ عجَبُك .. ؟

قلت : مماً نَحِل من جسمك . ونَفا من شعرك وتغيَّر من لونك ..

أين ذاك اللون النضير .. والشعر الحسن .. والبدن الريّان .. ؟!!

فقال لي : إنك إذن لأشدُّ عجباً من أمري ، وإنكاراً لي ، لو رأيتني بعد ثلاثٍ في قبري ، وقد وقعت عيناي على وَجْنَتيَّ ، وسكن الدود مِنخَري وفمي » .. !!!

ثم راح يبكي .. ويبكي !!

لقد تغيرت الصورة والإطار .. وَذَوَي الجسد الفارهُ الذي غَذّاه النعيم تحت مطارق الإحساس الرهيب بالمسئولية .. !!

وإنه ليدعو إليه في الأيام الأولى لخلافته زوجته "فاطمة" ، ويواجهها بحقيقته الجديدة .. ويخبرها في رفق أنه كزوج لم يعد له وجود ؛ فقد ثقلت أحماله حتى لم تعد هناك لحظة في وقته يهبها لغير تلك الأعباء الثقال . ثم يعطيها حقّها الكامل في اختيار مستقبلها ومصيرها !!

و "فاطمة" هذه ستظل مُتألقة في وعينا طوال هذه الصفحات التي نسطرها عن زوجها الخليفة ، وسنظل نُزْجِى لها من التحية والإجلال ما هي له أهل ـ أيُّ أهل .. !!

فلقد ظلت بجوار زوجها "القِدِّيس" تشاركه التقشّف القاسي الذي فرضه على نفسه .. ولم تكن تزيد حين تُقرقِر أمعاؤها من الجوع ، وترتعد أوصالها من الصقيع ، على أن تقول :

«يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بُعْدَ المشرِقَين ..

فوالله ، ما رأينا سُروراً مُذ دخلَتْ علينا » .. !!

لقد أخذها معه إلى قِيعان مسئوليته واستغراقه .. وأضحت السيدةُ التي كانت زوجةَ خليفة .. وبنتَ خليفة .. وأخت خليفة .. والمتقلّبة في أبهى ما كانت الدنيا تعرف يومئذ من حرير ولؤلؤ وذهب ونعيم .. أضْحَتْ لا تملك إلا ثوبين خشنين .. فقد حمل الخليفة كل حُلَله وحُليها وحلىَ أبنائه وبناته وأمر ببيعها ، ووضع أثمانها في بيت مال المسلمين .. وأضحت لا تأكل ـ أكثر ما تأكل ـ إلا الخبز الجاف مُبلّلاً بالزيت ، أو مَثْروداً بالعدس .. وأضحت صاحبةَ الوجه الشاحب ، والجسد الضامر الوَهْنان .. !!!

دخل عليها ـ أمير المؤمنين ـ يوماً ، وهي تخيط ثوبها بيديها فرَبَتَ كَتِفَهَا مداعباً وقال :

« يا فاطمة ..

لَنَحْنُ ليالي دَابِق أنعمُ منا اليوم » !!

مشيراً بهذا إلى حياتهم المنعّمة قبل الخلافة في "مَرْج دابق" .

فأجابته قائلة :

« والله ما كنتَ على ذلك ـ يومئذ ـ أقدرَ منك اليوم » !!

تعني أنه الآن وهو خليفة وحاكم لدولة عظمى ، أقدرُ على التزوّد من النعيم ، منه قبل ذلك ..

وفجأة ، يمتقع لونه ، وتنثال دموعه ، ويُدرك أنه جاوز بهذه الدُّعابة حدَّه ، فيقول :

« يا فاطمة ..

إني أخاف إنْ عصيتُ ربي عذابَ يوم عظيم » !!

ولم تلبث "فاطمة" إلا قليلاً حتى أَلِفَتْ شظف الحياة التي اختارها "عمر" لنفسه ولذويه .. وحتى راحت تحياها بروح مُحِبَّة متفانية ..

لقد مَسَّتْها بركات زوجها القديس ، فراحت تكتشف النعيم الكامِن ، في الشظف الماثِل .. وتستشرف من وراء دنيانا الفانية فِردوس الله الأعلى ، ورضوانه العظيم .. !!

* * *

وبهذا الوضوح الكامل لمسئوليته .. وبهذا الاستغراق العظيم فيها ، يستكمل الولاء زواياه بالإخلاص المطلق الذي يربطه بهذه المسئولية أوثق رِباط ..

والإخلاص للمسئولية - أيِّ مسئولية - يُشكِّل السياج المنيع الذي يحفظها داخل موضوعيتها ، ويصونها من تَقحُّم الأنانية والهوى عليها ..

وهذا هو جوهر الإخلاص لدى أمير المؤمنين "عمر بن عبد العزيز" ..

فهو لا يستغرق فيها استغراق من يريد أن يبلغ بها مجداً شخصيًّا ، أو مغنماً ذاتيًّا .. بل استغراق فانٍ فيها ، مُتَبَتِّل لها . ليس بين يديه ، ولا من خلفه ، ولا عن يمينه ، ولا عن شماله شيء يلهيه عنها أو يغريه بها ..

إنه إخلاص يعكسه إخلاصه لله رب العالمين .

ورجل كعمر حين يخلص لله ، فلا تستطيع ألف دنيا كدنيانا أن تدخل في هذه الصفقة نِدًّا ، أو شريكاً .. !!

لقد كان - رضي الله عنه وأرضاه - دائم الترديد لهذه الآية الكريمة :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ .

واتخذ منها نذيرا يلهب به نفسه لتبلغ بإخلاصها لربه ولدينه ولمسئوليته أقصى ما يستطيع أولو العزم الراشدون . وكان يدرك بنور بصيرته أن أدنى مجاملة على حساب إخلاصه لمسئوليته إنما هو شِرْكٌ متنكر وخفي ، من نوع الشرك الذي حذَّر الرسول ﷺ أصحابه منه ، مُخبراً أن له دبيباً كدبيب النَّمل ..

لقد نجح "القديس" نجاحاً باهراً في صَوْن إخلاصه من دبيب النمل هذا .. وأضحى الناس يقول بعضهم لبعض :

« هذا أول خليفة أموي لا نجد حاجة في قَرْع أبوابه .

فإن ما يكون لنا من حقّ يأتينا ونحن في دُورِنا ..

وما ليس لنا بحقّ ، فَدُونَ بُلوغِه قَطْعُ الرقاب .. !! » .

أجلْ .. لم يكن لإخلاص ابن عبد العزيز مُزاحم ولا منافس ، لا من قرابة ، ولا مِن صداقة .

يقع خلاف بينه وبين بعض أمراء بني أمية حول حقوق يرونْها لأنفسهم .

ويقول أحدهم للخليفة : سآتيك بَصكِّ الوليد ..

وفي كلمات حازمة ، يقول عمر :

« أبا لمصحف ستجيء » .. ؟؟!!

لقد صار الحقّ وحده هو الفيصل والحكَم .. فلا صُكوك ولا مواثيق إلا صكوك الحقّ ومواثيقه .. ولا رَحِمَ ولا قرابة إلا رَحِم الحقّ وقرابته ..

ولا يحول بينه وبين الحقّ شفاعة ، ولا رغبة ، ولا رهبة ..

* * *

كانت عمته "أم عمرو" بنت مروان ، صاحبة دَالَّةٍ على خلفاء بني مروان وأمرائهم .. وكانت أثيرة لدى ـ عمر بن عبد العزيز ـ وموضع حبه العميق ، واحترامه الوثيق .

وحين ألْغى كل مخصصات بني مروان ، ألغى مخصصاتها أيضاً ، فسارعَت إليه ، وفوجئت به جالساً يتناول طعام عشائه .

وسلَّمت "العمَّة" ثم جلست ، وراحت تُحَمْلِق بعينيها لا تكاد تصدق ما تراه ..

لقد كان كل ما بين يديه من طعام ، خبزاً جافا ، وطبقَ عدسٍ ، وملحاً !!

ودارت بها الأرض .. !!

أهذا هو "عمر" الذي كان يخوض في النعيم خوضاً ؟؟

آلآن ـ وهو الخليفة المطاع ـ يصير هذا طعامه .. ؟!

ولم تتمالك نفسها ، فأجهشت بالبكاء ؛ ثم قالت :

«لقد جئتك في حاجة لي .. ولكني لم أكد أراك حتى رأيت أن أبدأ بك قبل نفسي» .. !!

قال الخليفة :

« وما ذاك ، يا عَمَّة » .. ؟؟

قالت : "لو اتخذت لك طعاماً ألْيَنَ من هذا » .. ؟؟

قال : "لا أملك غيره يا عمَّة ، ولو كان عندي لفعلت" ...

قالت : "إن عمك "عبد الملك" كان يُجري عليَّ ما تعلم .. ثم كان أخوك "الوليد" فزادني .. ثم كان "سليمان" فزادني .. ثم وليت أنت فقطعته عني" ..

فأجابها : « يا عمَّة : إن عمي ـ عبد الملك ـ وأخي ـ الوليد ـ وأخي ـ سليمان ـ كانوا يعطونك من مال المسلمين ، وليس ذلك المال لي فأعطيكه ، ولكني أعطيكِ مالي إن شئت » .

قالت : "وما مالُك ، يا أمير المؤمنين" .. ؟

قال : "عطائي .. مائتا دينار في العام" ..

قالت: "وما يبلغ مني عطاؤك" .. ؟؟!!

ثم انصرفت عنه يائسة بائسة ، وهي التي كان الخلفاء ينحنون لرغبتها ، ويُسارعون إلى هواها .. !!

أبقِيَتْ هناك شفاعة لشافع .. أو مَطْمَعٌ لطامع .. ؟!

لا .. ففي وَقْدة إخلاصه احترقَتْ كل الأطماع .. وإن هذا الإخلاص لَيحيطه بسياج ترتدّ عنه كل المحاولات عاجزة مُفلسة .

كما يحيطه بغلاف من الأمن النفسي لا يخترقه وعيد ، أو تهديد ، أو خوف ..

قال له بعض أصفيائه ، حين جرَد الأمراء الأمويين من كل ثرواتهم وممتلكاتهم ودفع بها إلى بيت المال :

« يا أمير المؤمنين ، ألا تخاف غَوائل قومك » .. ؟؟

فإذا الحليم الأوَّاب ، الهادئ السَّمْت ، الباكي العين ، ينتفض كالأسد ، وتخرج الكلمات من فمه كالزئير :

« أبيومٍ سوى يوم القيامة تُخوِّفونني .. ؟؟

فكل خوف أتّقيه دون يوم القيامة لا وُقِيتُه » !!

حقاً . إن الفضيلة مثوبة نفسها .. وحين يُخلص امرؤ للحقّ مثل هذا الإخلاص الذي نراه ، فإن إخلاصَهُ يفيء عليه ما لا يفيء مِعشارَه ذكاء ، أو جهد ، أو حُظوظ !!

إن العقبات التي كانت تتشامَخ أمام "عمر" لِتصده عن السبيل كانت تتحدى كل طاقة واقتدار ..

فأمراء البيت المالك .. والطبقة العريضة التي أنجبها الحكم الأموي ، وأصبحت أسيرة مصالحها ونفوذها .. والفساد الذي كان ناشراً سلطانه .. والاقتصاد المتردِّي .. والأزمات الطاحنة ، ثم علاقاته بأهله وبأصدقائه ..

كل ذلك ومِثْلُهُ معه ذاب تحت أنفاس إخلاصه الحارِّ المتألق .. !!

* * *

وإذا كان إخلاصه هذا يبهرنا بمقدرته الفائقة على اكتساح السدود ، فإنه ليبهرنا قبل ذلك بمفهومه الذي كان له في وعي "عمر" وضميره ..

فهو بكل مواهبه وكفاياته لا يرى لنفسه الحقَ في أن يحمل مسئولياته بذكائه .. بل عليه أن يحملها ويُنجزها بالإخلاص وحده .

إنه يبرأ إلى الله من حوله ومن قوَّته .. وإنه في ضياء إخلاصه العامر لَيهرب من قدرته إلى قدرة الله ، ومن اختياره إلى اختيار الله ، ومن رأيه إلى توفيق الله .. !!

لهذا كان دعاؤه الدائم :

« اللهم رَضِّني بقضائك . وبارك لي في قَدرِك ؛ حتى لا أحبَّ تعجيلَ ما أخرت ، ولا تأخير ما عجَّلت » !!

إنه يعلم أن الإخلاص حين يحتوي قُوى الذكاء الإنساني ويَصهرها في بَوْتقته ، فإنه يضاعف من فاعلية هذا الذكاء أضعافاً كثيرة . وبَدلاً من أن يُشتته الهوى والغرض ، تُوَلِّفه وحدة العمل والاتجاه .. هذه الوحدة ، التي يُفيئها الإخلاص ويُزْجيها ..

* * *

وكما تُولِّد الكهرباء الحركة وتُفجِّرها ؛ فإن الإخلاص لمسئولية الحكم قد فجَّر وولَّد حركة حياة ابن عبد العزيز .. هذه الحركة التي لم تكن سوى : القَداسَة ..

والقَداسَة ، هي الحاصل النهائي لفضائل الروح مُجتمعة ومتألقة في ذِروة تجلِّيها وظهورها ..

هنالك تكون القَداسة ، ويكون القدِّيس ..

ولقد أفاءت المسئوليـة على ـ عمر ـ التوفيق الذي سما بفضائل روحه ـ من ورع وزهد ، وطهر ونُسُك ـ إلى أعلى مستوياتها ، ومن ثَمَّ كانت المسئولية سبباً مباشراً لظفره بالقداسة ، وهذا جوهر إعجازه الفريد .

فلو أنه كان قديساً من قبل ، ثم جاءته الخلافة وهو متمكن من فضائله وقداسته ، لبقِي وَفيًا لها ، مُثابراً عليها .. ؟؟

لكنَّ الذي حدث أن منصب الخلافة الذي يُغري بكل شيء إلا بالقداسة ، هو الذي كان ، وكانت مسئولياته الجسام ، مِرقاة رُوحه الطاهرة العظيمة توقَّلَتْه (١) في لمح البصر إلى فردوس القداسة ، ومكانة القدِّيس .. !!

* * *

وهناك عبارة يكتبها مؤرخو سيرته تستوقفنا طويلاً ، وتبهرنا كثيراً .. أما العبارة فها هي ذي :

« .. ثم بويع "عمر بن عبد العزيز" .

فقعد للناس على الأرض » .. !!

إن هذه العبارة الموجزة تفتح بصائرنا على قوة "القداسة" التي أنعم الله بها على عبده الصالح "عمر بن عبد العزيز" .

إنها قوة تكتسح كل الأوضاع الرتيبة والعلاقات المألوفة ؛ لتنشئ أوضاعها الخاصة ، وعلاقاتها المخلصة ..

فما من بأس فى أن يجلس الخليفة مجلساً فيه من روعة المظهر أو بَهائه ما يحفظ وقار المنصب .

أجَلْ ، ليس هناك بأس ..

و "عمر" يعلم هذا بفقهه وسَعَة أُفقه ..

بيد أنه من اللحظة التي طوَّقته فيها المسئولية ، لم يكن تحركه روح الخليفة .. بل روح القدِّيس .. !!

والقداسة ـ دائماً ـ تضع الوسيلة في مستوى الغاية ، فلا يعنيها بلوغ الغاية إلا بالقدر الذي يَعنيها فيه نوع الوسيلة ..

ثم إن لها وسائلها ومنطقها ..

إنها تتعامل مع جوهر الأشياء ، لا مع الأشياء نفسها .. ولمَا كان جوهر السلطة في نظر القداسة ، الخضوع المطلق لحقوق الناس الذين يلي الخليفة أمرهم ، ويحمل مسئولية مصائرهم ، فإن مكانه إذن أن يكون بين أيديهم ، وليسوا هم الذين بين يديه ..

والشكل الذي رآه "عمر" ملائماً للتعبير عن هذه الحقيقة ، هو جلوسه للناس على الأرض .. !!

أجل .. ليس مجرَّد الجلوس على الأرض الأمر الذي كان يعنيه ، إنما هي الحقيقة المجيدة التي يمثلها هذا الجلوس .. حقيقة أن السلطة خضوع كامل لحقوق الناس تجاهها .. !!

وإذن فلتأخذ من ناحية الشكل أقصَى مظاهر الخضوع ، كما ستأخذ من ناحية

---

(١) تَوَقَّلَتْهُ : صَعِدَتْ به .

المضمون أقصى مظاهر الالتزام .. !!

ومن أجل هذا قعد الخليفة على الأرض ، لا يفصله عن ترابها سوى حصير متواضع ..

قعد على الأرض ؛ ليهدم كل ما للسلطة من بَذخ واستعلاء ، ولينزلها عن عرشها الصلِف وكبريائها الزائفة إلى أرض البساطة ، والتواضع ، والمرحمة .. !!

* * *

والقداسة التي تمتع بها ابن عبد العزيز ، قداسةُ رجل أراه الله مَناسِكَه .. فهو يرى بنور من ربه ، ويُطل من جميع النوافذ دون أن تحتبسه صومعة ، أو يعطل رؤيته تزمُّت وانطواء ..

إنها قداسَة تبهرنا بما تنطوي عليه من فطنة وحِذق ومضاء . فهل يتصور أحد أن قديساً كهذا القديس لا يكفّ عن العبادة والنُسُك ، يُطلب إليه ذات يوم الموافقة على صرف مبلغ كبير من المال لكسوة الكعبة ، فيكون جوابه :

«إني أرى أن أجعل هذا المال في أكباد جائعة ؛ فإنها أولى به من الكعبة » .. !!

هل يُتصور حدوث ذلك من عابد ، ناسك ، قدّيس ؟؟

لكنها القَداسَة الذكيّة التي تُحَدّق دائمًا في الجوهر ، وتضع على همسِه العميق سمعَها ، وتتتبّع مواقع الحقّ ، كما يتتبع الطير مواقع النّدَى .. !

إنّ هذا الناسك الأوّاب ، ليُذكر له يوماً نبأ واعظ يدعو الناس إلى طاعات لا يأتيها ، فإذا القديس يُعلّق على هذا بقوله :

« لو أن كل امرئ لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يُلْزِم بذلك نفسه ، لَما كان هناك أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر .. ولَقلّ الواعظون والسّاعون لله بالنصيحة .. !!

إنها قداسة ذكية نفاذة ..

قَداسَةُ رجل كان يدعو ربه دائماً فيقول :

« اللهم انفعني بعقلي » .. !!!

* * *

وهي قَداسَة أتيح لها أن تُحدِث تغييراً من أعدل وأنبل ما شهدت دنيا الناس من تغيير .. !!

قداسة جاءت الحياة ، ومعها من الزهد ، والورع ، والطهر ، والتُقى ، والعدل ، والرحمة ، ما كان الناس يحسبون أن الدنيا فَرغَتْ منه إلى الأبد .

قداسة لم تكد تجلس للناس على الأرض حتى أنبتت الأرض عدلاً ورحمة .. وأمطرت السماء عدلاً ورحمة .. ورعى الذئب مع الشاة ، في تآخٍ وسلام .. !!!

ولقد أنجز القديس كل هذا التغيير الهائل الذي بدا وكأنه تغيير في كيمياء الزمن ، وكيمياء الحياة .. أنجزه بمنهج لا ندري أنقول : إنه بالغ اليُسر .. أم نقول : إنه بالغ الصعوبة . أم أن اليسر والصعوبة يتراجعان بعيداً ليفسحا المكان لوصف آخر أحقّ منهما وأولى .. ؟؟

أجَل .. إن ذلك لكذلك ..

فلنقل إذن : إنه منهج بالغ الإعجاز .. !!

■ ■ ■

المَنهج

« .. بل يُصلحهم العدل والحقّ فابْسُط ذلك فيهم ..» !!

كتب إليه وإليه على خُراسان يستأذنه في أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها ، قائلاً في رسالته للخليفة : "إنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط" ..

فكان رده التَّقِيُّ الحازم :

« كذَبتَ ..

بل يُصلحهم العدل والحقّ ، فابْسُطْ ذلك فيهم ، واعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين » .. !!!

* * *

العدل ، والحقّ .. !!

بهما وعليهما سيقوم منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقهما اللاحِب المستقيم ستمضي خُطاه .. آخذاً معه على ذاك الطريق جميع الناس ـ أمراءهم ، وعامَّتهم .. أغنياءهم ، وفقراءهم .. أقوياءهم ، وضعفاءهم ..

والخليفة ، الذي نراه دائم البكاء ، بل النحيب ، كلما ذُكر الله واليوم الآخر .. والذي ينتفض تحت تُقاه انتفاضة العصفور ، حتى لنحسَبُه لا يصلح لغير الصومعة يتحنَّثُ فيها ويتعبد .. !!

هذا الخليفة ، سيبهرنا الآن ونحن نطالع منهجه وأسلوبه في الحكم ، حيث تُطِلّ علينا من وراء دموعه المُنثالة روح عالية تناضل في جهاد مستبسل لبلوغ أسمى آفاق العدالة والحقّ .. وحيث تُطِلُّ علينا كذلك بصيرة نافذة لا يُفلت من ضيائها شيء ، وإرادة حازمة لا يَهُولُها صعب ، ولا يُجْفِلُها خطَر ...

وفجأة سنرى العينين السابحتين في دموعهما دوماً ، تُحَدِّقان كعينَي الصقر .. وتُرسِلان بريقاً أخّاذاً يُقنع كل من يتلقاه أنه أمام عينين ثاقبتين ليس إلى خداعهما سبيل .. !!

* * *

إن المصاعب المتطاولة ، والأخطار المحدقة ، والمؤامرات المتساوقة ، لن تزيد الإرادة الرافعة لواء العدل والحقّ إلا تقدُّماً ومضاء .

فَلْتَغْنَ العواقب لنفسها ، أما هو فلن يبالي بما كان ولا بما سيكون منها .. بل سيضع يمينه في يمين الحقّ ، ويمضي معه إلى حيث يُدمدمان معاً على مظالمِ وظلمات الأعوام الستين التي سبقته في الحكم الأموي .. وإلى حيث يجعلان ظُلُماتِها نوراً ..

وهجيرها فردوساً .. وترفها قناعة .. وانحلالها ورَعاً . واستعلاءها تواضعاً .. وقهرها رحمة . ورُعْبَها أمْناً ..

وبين يَدَيْ عَزمِه الرّباني القدير ، راحت كلماته تقرع أسماع الغطرسة ، والتحدي :
« والله ، لو لم ينهض الحقَ ويُدْحَض الباطل إلا بتقطيع أوصالي وأعضائي ، لأمْضَيْتُ ذلك وأنا سعيد » !!

« ووالله ، لو لَبِثْتُ فيكم خمسين عاماً ، ما أقمتُ إلا ما أريد من العدل » .. !!

فلنتابع منهجه لنرى .

ولكن علينا ألا نَدَعَ التفاصيل الكثيرة تَشغلنا ببهرها عن الأسس والقواعد .

وعلينا أن نقتصد في ذكر الوقائع والمشاهد التي تحكي خصائص المنهج وسماتِه ، حتى يفيء علينا هذا التركيز في الرؤية تركيزاً مُماثلاً في نشوة العقل وغبطة الروح .

أي إننا سنكتفي من المنهج بنقاط ارتكازه ومحاوره التي تدور حولها بقية التطبيقات والتفاصيل .

وتتلخص هذه المحاور في :

* نظرته إلى دور الدولة ووظيفتها ..
* نظرته إلى دور الشورى ووظيفتها .
* نظرته إلى دور المال ووظيفته .
* موقفه من وحدة الأمّة وسلامتها .
* أسلوبه في العمل .

* * *

"فأولاً" : الدولة قدوة ..

إن الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بسلطان الدولة لا يأتون أمراً مذكوراً ، فتلك سُنّة مألوفة معتادة : أن تحمي القوة القانون .

أما الحكام الذين يحمون القانون وينفذونه بالقدوة ، فأولئك الذين يجاوزون المألوف المعتاد إلى الخوارق والمعجزات .

ولقد كان "ابن عبد العزيز" واحداً من هؤلاء .

لقد كانت الدولة قبل عهده تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها ، إذ تركت مواقع عملها واستسلمت للغواية والهوى .

والدولة عنده تتمثل في كل الأجهزة العاملة ، لكن يأتي في المقدمة دائماً :

[١] الخليفة بوصفه رئيس الدولة .

[٢] الولاة بوصفهم حكام الأقاليم .

[٣] القضاة .

[٤] أمناء بيوت المال .

والخليفة ـ أيُّ خليفة ـ وإن وضعته وظيفته ومسئولياته على رأس الدولة ، فإنه يظل عاجزاً عن أداء دوره ما لم يقف معه في مستواه ـ أو قريباً من مستواه ـ وُلاته وقضاتُه

وأمناؤه على الأموال العامة .
ها هو ذا "عمر" يقول :
إن للسلطان أركاناً لا يُثبت إلا بها .
فالوالي ، ركن .
والقاضي ، ركن .
وصاحب بيت المال ، ركن .
"والركن الرابع ، أنا" .. !!

وإذن ، فلكي تكون الدولة قدوة في حمل دين الله وحقوق الناس ، لابدّ من أن تتشكل هذه القدوة من سلوك هؤلاء الأربعة مجتمعين :

الخليفة ، وولاته ، وقُضاته ، وخزنته ..

ولكي تكون الدولة قدوة ، لابدّ من أن تكون بمسئوليها جميعاً ، وعلى رأسهم أمير المؤمنين ، طليعة العمل ورائده ..

وهكذا راح "عمر" يضع الدولة كلها - وهو على رأسها - في مكان القدوة ، حاملةً وحاملاً معها كل ما تلقيه القدوة من مسئوليات ، وباذلاً كل ما تتطلبه من تضحيات .

وقبل أن يأمر ولاته وقضاته ، وخَزنتَه ، بدأ بنفسه .

* * *

لقد تَلوْنا من قبل ، كلمته العظيمة :

« لست إلا كأحدكم ، غير أني أثقلكم حِملاً » !!

وهنا ، نرى طريقته في وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الحاسم ، الحازم ، الفريد ..

لقد كان دخله السنوي حتى اليوم الذي وَلي فيه الخلافة أربعين ألف دينار .. هي حصيلته من مُخصَّصاته كأمير أموي .. ومن الأرض التي كان يملكها . ومن نصيبه الوفير من ميراث أبيه عبد العزيز بن مروان .

والآن ، تتفتح بصيرته على الحقيقة العميقة ، فيرى أن هذا الثراء الفاحش الذي يمتلكه أمراء بني مروان - وهو معهم - لم يبلغوه بعرق الجبين .. وما هذه الثروة المتمركزة في أيدي حفنات من الأمراء والسادة ، إلا حقوق الملايين وأقواتها سُلبت منها بغير حقّ ، وبغير سلطان .. !!

ومن فَوره ، اتخذ قراره الحاسم بإلغاء مخصصات الأمراء كافة ، ومُخصصات حرسِهم وخدمهم ، وقراره بنزع الإقطاعيات الزراعية منهم جميعاً ، وردّها إلى بيت المال ..

وبدأ بنفسه ، فتخلّى عن جميع أملاكه وأمواله !! حتى أرض "فَدَك" في "خَيْبَر" وكانت خير ممتلكاته وأثمنَها ، ولم يكن أحد أقطعه إياها ، بل ورثها عن أبيه .

ولكنه سأل نفسه : ومن أين جاء بها أبوه .. ؟!

لقد أفاءها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم "خيبر" ، فخصَّصها لأبناء السبيل

وظلت كذلك حتى ملك الأمر معاوية ، فوهبها لمروان .. ومن مروان ، وصلت إلى ابنه "عبد العزيز" والد "عمر" .

تقول: حتى هذه الأرض ، تخلّى عنها وكتب لواليه على المدينة يأمره أن يضمّها لملكية الدولة ، وأن يصرف ريعها ونتاجها ، حيث كان يُصرف على عهد الرسول ﷺ وخلفائه .

ليس ذلك فحسب .. بل لقد تنازل عن كل درهم في راتبه المخصص له كأمير للمؤمنين . !

لقد اكتفى من دنياه كلها ، ولدنياه كلها ، بقطعة أرض صغيرة كان قد اشتراها بحُرّ ماله ، ولم تكن تُغِلّ أكثر من مائتي دينار في العام ، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة .

مائتا دينار في العام ، لرجل كان دخله منذ أيام لا غير ـ أربعين ألف دينار .. !!

مائتا دينار ، لحاكِم أعظم ، وأكبر ، وأغنى إمبراطوريات عصره وعالمه ، يعيش بها طول العام وعَرضه ، وتعيش معه أسرته التي كانت هي الأخرى ـ منذ أيام ـ لا غير ، تخُبُّ في النعيم خَبًّا .. وتَعُبُّ المباهجَ عَبًّا .. !!!

ولكنْ ، أيُّ بأس ؟!

أليس قد رفع الحقَّ شريعة والعَدل منهاجاً ؟!

فليكن حَسْبُه ألاّ تسقط الراية من يمينه . وليكن حسْبه أن يُحلّق بها في مستوى تتقطع دون بلوغه الأنفاس .. !!

كل أرضه تركها للدولة .

كل ثروته النقدية ، دفعها إلى خزانة الدولة ..

بل لقد جمع ثيابه وحلله الرافهة ، وحُلل زوجته وأولاده ...

ثم جمع مراكبه وعُطوره ومتاعه ، ثم دفع ثمنها الذي بلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار إلى بيت المال .. !!

ثم حرم نفسه حتى حقّها المشروع في راتب الخلافة الذي كان يستطيع أن يتنازل عن نصفه أو عن ثلثيه ، لكنه رفضه جميعاً إلى آخر درهم منه .. وراح يعيش بعائد أرضه الصغيرة ـ مائتي دينار في العام ـ بواقع ثلاثة أرباع دينار في اليوم ، لأمير المؤمنين وزوجة أمير المؤمنين ، وأولاد أمير المؤمنين . !

أفما كان يكفيه أن ينفرد هو بأعباء القدوة ، تاركاً أهله وأولاده يحيون ولو في مستوى حياة أوساط الناس .. ؟؟

إنه يعتبر هذا ـ لو حدث ـ احتيالاً على المسئولية ، وهروباً من تبعات القدوة ، ويرى النار تمدُّ إليه ألسنتها اللاهبة ، لتطوّقه حساباً له وعقاباً .. !!

ومن ظن أننا نبالغ في التصوير ، ونُسرف في صبغ الألوان فليطالع هذه الواقعة :

لقد عاد يوماً إلى داره بعد صلاة العشاء ، ولمح بناته الصغار ، فسلّم عليهن كعادته ، وبدلاً من أن يُسَارِعْنَ نحوه بالتحية كعادتهن ، رُحْنَ يُغطّين أفواههن بأكُفّهن ويتبادَرْنَ الباب ..

فسأل : ما شأنهن .. ؟؟

فأجيب : بأنه لم يكن لديهن ما يتعشَّيْن به سوى عدس وبصل .. فكرِهْنَ أن يَشمَّ من أفواههن ريح البصل ، فتحاشَيْنَه لهذا ..

فبكى أمير المؤمنين ، وقال يخاطبهن :

« يا بناتي ..

ما ينفعكُن أن تعَشّين الألوان والأطايب ، ثم يُذهَب بأبيكُنَّ إلى النار .. ؟؟ » !!

وترى إحدى بناته الصغار صديقة لها تزين أذنيها بلؤلؤتين جميلتين ، فترسل إحداهما إلى أبيها ضارعة أن يشتري لها مثلها .

ويدعو أمير المؤمنين خادمه ، ويأمره أن يجيء بجمرتين ملتهبتين .. ثم يطلب ابنته فيقول لها :

« إن استَطَعْتِ أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك ، جئتك بلؤلؤتين كهاتين » .. !!

إن مسئولية القدوة - إذن - لا تنحصر فيه ، هو الخليفة والحاكم .. بل - وبحسَب منهجه وتقديره - تنال أهله جميعاً ، حتى بُنَيّاته الصغار .. !

وهكذا راح يحملهم على التضحية في سبيل المسئولية والقدوة ..

اقترب يوماً من زوجته فاطمة ، وقال لها :

« إنك لتعلمين من أين أتاك أبوك - عبد الملك بن مروان - بهذه الجواهر ، فهل لك أن أجعلها في تابوت ، أضعه في أقصى بيت المال ، وأنفق ما دونه ، فإن خَلَصْتُ إليه أنفقته في حاجات المسلمين » .. ؟؟

ولم يكن قد بقي لفاطمة سوى هذه الحُلِيّ وهذه الجواهر ، وهي عزيزة عليها ؛ لأنها هدية أبيها لها في عُرسها وزَفافها .

ولكنها لا تُجادل زوجها "القديس" حتى في هذه . وتجرِّد منه نحرها ، ومعصميها ، في غبطة ورضاً .. !!

* * *

ويغادر - أمير المؤمنين - قصور الخلافة ، ويأوي إلى دار متواضعة .. ثم لا تشهد هذه الدار إيقاد النار إلا لِماماً ..

ويأخذ على نفسه العهد ألا يستحدث لنفسه شيئاً من أشياء الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه ..

يُحدِّث ابن عياش ، فيقول :

كان لعمر مِرقاتان يرقى عليهما من صحن داره إلى حجرته ..

فتهدَّمت إحدى المرقاتين ، فأعاد بناءها رجل من أهله ..

فلمّا جاء "عمر" ووجدها ، سأل : مَن صنع هذا .. ؟

قالوا : فلان . قال : إليَّ به ..

فلمّا جاء قال له عمر : « ويحك أنفِسْتَ على "عمر" أن يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة .. ؟!

والله ، لولا أن يكون هدمي لها إفساداً بعد إصلاح لهدمتها ورددتها إلى ما كانت عليه .. » !!!

* * *

ويدخل عليه في داره أحد خاصّته المقربين ، فيجده بركن منها تغطيه الشمس ،وقد دَثّر جسمه كله في إزار .. وحَسِبه الزائر مريضاً ، فسأله ، ما باله .. ؟

فأجاب أمير المؤمنين :

« لا شيء ، غير أني أنتظر ثيابي حتى تجفّ » ..

قال الزائر : وما ثيابك يا أمير المؤمنين .. ؟

قال عمر : قميص ، ورداء ، وإزار ..

قال صاحبه : ألا تتخذ قميصاً آخر ورداء ، وإزاراً ؟

قال الخليفة : كان لي ، ثم بَلِيَتْ .. !!

قال الزائر : ألا تتخذ سواها .. ؟؟

وهنا شَرِقَتْ كلماته بدموعه ، وراح يُجهش بالبكاء مسنداً جبهته على راحتيه ، مُردداً آية القرآن الكريم :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾..!!

ولمّا كان يريد للدولة في عهده أن تكون رحمة وحناناً ؛ فقد راح يمزق عنها كل أقنعة الصَّلَف والكبر والتمايُز ..

وأيضاً ، بدأ بنفسه ، فمنع الحراس أن يسيروا بين يديه . بل منعهم كما منع الناس جميعاً أن يقوموا له حين يَطلُع عليهم ، وقال لهم :

« إنما يقوم الناس لرب العالمين » !!

وناداه يوماً رجل من المسلمين قائلاً : "يا خليفة الله في الأرض" .. فأخذته الرَعدة الصالحة ، وصاح في الرجل :

« مَهْ ..

إني لمّا وُلدتُ أسماني أهلي "عمر" ، فلو ناديتني يا "عمر"

ـ أجبتك ..

ولمّا كبرت اخترت لنفسي كُنية ، فكُنيت "أبا حفص" ، فلو ناديتني ـ "يا أبا حفص"

ـ أجبتك .

ولمّا وليتموني أموركم سميتموني "أمير المؤمنين" ، فلو ناديتني ـ "يا أمير المؤمنين"

ـ أجبتك ..

وأما خليفة الله في الأرض ، فلستُ كذلك ..

إنما خلفاء الله في الأرض رسله وأنبياؤه » .. !!

ومنع الدعاء له فوق المنابر في خطبة الجمعة . وأرسل بذلك كتاباً حازماً إلى ولاته في جميع الأقاليم ، قائلا فيه :

« مروهم فليصلّوا على النبي عليه السلام ، وليكن فيه إطناب دعائهم وصلاتهم ..

ثم ليُصَلّوا على المؤمنين والمؤمنات ..

وليَستنصِروا الله ..

وليكن دعاؤهم لعامّة المسلمين ..

وليدَعوا ما سوى ذلك » !!

* * *

وإذا كان قد حمل وأهلُ بيته معه مسئولية القدوة على هذا النحو المجيد والفريد .. إذا كانوا قد حملوها طائعين راغبين ؛ فإن هذا لا يكفيه ، بل لابدُ من أن يحملها أيضاً أمراء بني مروان جميعاً طائعين إن شاءوا .. وإن أبوا فكارهين .. !!

لن يَدَعهم يتبذّخون باسمه ، ويتخذون من قرابته ملجأ ومغنماً .

إذا كان ولابد ، فلتكن هذه القرابة ملجأ لهم من أطماعهم وشهواتهم .. ومَغْنَماً بالتزامهم منهج أمير المؤمنين .. !!

أما دون ذلك ، فلن تكون دنياهم في عهده كدنياهم قبل عهده .

لن يَظَلّوا طبقة فوق الأمّة .. ولن يَدْلِف إلى قصورهم وجيوبهم ثلث الدخل العام للدولة ، كما كان أمرهم من قبلِ أن تُهلّ على الدنيا أيام الأغرّ ابن عبد العزيز .. !!

ولقد راحوا بكل ضراعاتهم يحاولون الإبقاء على بعض امتيازاتهم ، فلمّا أخفقوا راحوا يُناورون ، ولمّا أخفقوا ، راحوا يهددون .

لكنّ رجلِ القداسة وقف لهم كالقَدر ، وأحكم وضع الشكائم على غرورهم وأهوائهم ، ثم دفع بهم جميعاً أمامه على طريق العدل والحقّ ، مُصَفّيا ترفَهم المنهوم .. !!

حدث يوماً أن أرسل إلى كل أمير وأميرة بقدر من المال يدبرون به أمورهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشِنة ، فتنادَوْا واجتمعوا ، وقرروا أن يوفدوا إليه صديقاً له يرجوه باسمهم أن يرفع لهم العطاء ..

فكان جوابه لهذا الصديق :

« والله لقد ندمت على هذا الذي أعطيته إياهم ، وإني لأعلم أن في المسلمين من هو أحقُّ به ، وأحوج إليه منهم » .. !

وعاد مبعوثهم إليهم يَقرع أسماعهم بكلماته المنذرة ، ويقول لهم :

« يا بني أُمَيّة ..

لا تلوموا إلا أنفسكم ، فقد عَمَدْتُم إلى صاحبكم "عبد العزيز بن مروان" فزوجتموه حفيدة "عمر بن الخطاب" ، فجاءتكم بعمر بن الخطاب ، ملفوفاً في ثياب "عمر بن عبد العزيز" ، فلا تلوموا إلا أنفسكم » !!!

* * *

ويعود الخليفة ليضع كلتا عينيه على الولاة والقضاة ، والأمناء على الأموال العامة ـ أولئك الذين سمعناه من قبل ينعتهم بأنهم والخليفة معهم يشكلون أركان الدولة والسلطان .

لقد كان يرى أن الولاة ؛ بحكم كونهم نوابه في حكم الأقاليم .

والقضاة ؛ بوصفهم أهل الفصل في مصائر الناس بما يملكون من كلمة الشريعة والقانون .

وأمناء بيوت المال ؛ بما لهم من سيطرة مباشرة على الأموال العامة وأرزاق الناس .

نقول : كان يرى في هذه المناصب أخطر مناصب الدولة وأكثرها ثقلاً وحساسية .. كما كان يرى في استقامة أمرها العاملَ الأول والأهم لتمكين الخليفة من حمل مسئولياته في قسطاس وسداد ..

وهكذا راح القديس يستكمل سِماتِ القدوة للدولة ، باختيار وُلاته ، وقُضاته ، وأمنائه في حرص مَنْ يختار عاقِبَته ومصيره !!

ولقد كان من المفروغ منه ، أنه لن يجد مِنْ هؤلاء مَنْ هو في مستوى ورعه ، وشموخ نُسكه وفضائله ، فراح يجتهد في العثور على من يكونون في مستوى رجائه وثقته ..

وسارَع ، فعزل جميع الولاة السابقين الذين عملوا في خدمة المظالم السابقة ، ثم ولَّى مكانهم من اصطفاهم للمهمة الجليلة ، أمثال : "أبي بكر بن حزم" ، و "عبد الرحمن القشيري" ، و "عديّ بن أرطأة الفِزاري" ، وآخرين من طرازهم وإخوانهم :

وكان أول ما أوصاهم به ، هذه الوصاة الجامعة الرائعة :

« كونوا في العدل والإصلاح والإحسان بقدر مَنْ كانوا قبلكم في الظلم والفجور والعدوان » .. !!

كذلك ، كان أول ما قدم به ولاته للناس هذه الكلمات الأمينة :

« إني قد ولَّيْتُ عليكم رجالاً ..

لا أقول : إنهم خياركم ، ولكني أقول : إنهم خير مِمَّن هم شرٌّ منهم » !!

إنه رجل يضع ذاته كلها فوق الميزان .. وإن كل حركاته وكلماته وقراراته ، ومشاعره لتتحرك بقدَرٍ معلوم . !!

ويمضي ولاته إلى أقطارهم ، ويسهرون على مسئولياتهم في ولاء صادق .. تقودهم على الطريق وتثبت أقدامهم وخطاهم سيرة خليفتهم العادل القديس .. هذه السيرة التي كان أريجُها ينتشر انتشار الضياء ، وعبيرُها يفوح ويهُبّ هبوب الرياح والبُشْرَيات .. !!

لقد راحوا يخجلون من كل تقصير يَبدُر من أحدهم .. وإذا سولّت لأحدهم نفسُه ، شَفَاها من وساوسها بمجرَّد تذكُّر خليفته القديس في حياته الشظِفَة ، ورقاعه البالية !!!

وراح الخليفة يُواليهم برسائله ووصاياه .. وصية من بعد وصية ، وكتاباً وراء كتاب ..

لنقرأ واحداً من هذه الكتب :

« .. أما بعد

فإن من ابْتُلي من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتلي ببليَّة عظيمة !!

فنسأل الله عافيته وعونه ..

وإني أدعوك أن تقف نفسك في سرك وعلانيتك ، عند الذي ترجو به النجاة من ربك ..

تذكَّر ما سلف منك من خطأ فأصْلِحه ، قبل أن يتولَّى صلاحه غيرُك .

ولا يمنعك من ذلك قول الناس ..

وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحاً في دينهم وأعراضهم ..

واسْتُر كل عَوْراتِهِم ..

واملك زمام نفسك تجاههم إذا هَوِيت ، وإذا غضبت » !!!

* * *

وكما أحسن اختيار وُلاته أحسن اختيار قضاته ، وأمناء بيوت المال ..

وأمَر هؤلاء وأولئك أن يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الأمناء على دين الله ، ودنيا الناس .

وراحت أضواء قداسته وقدوته تتعالى وتتعاظم حتى كانت منارات هادية ، وَسِعت الدولة كلها والأمّة جميعها بأنوارها الغامرة وهُداها الوثيق .

* * *

و"ثانياً" الشُّورَى ضرورة ..

وننتقل الآن إلى المحور الثاني من محاور منهج الحاكم القديس وأسلوبه ، لنشهد له تجاه الشورى موقفاً فذا يمْتاز بالعمق وبالشمول .

لقد أدرك أن كل ما يَشيده من دنيا صالحة ، وعالَم قويم ، لن يكون ثمة ضمان لاستمراره وإنمائه سوى سياج منيع يصونه ويحميه .. وتمثَّل له هذا السياج في توسيع قاعدة المسئولية حتى تنتظم أصحاب الحقّ فيها ، حاكمين ومحكومين ..

والسبيل لذلك ، الشورى الخالصة الصادقة .. وبَعْثُ رأي عام ناصح ، وصادق ، وشجاع ، ينقد الأخطاء ويُسهِم في إصلاحها .

لم يكن عصره قد عرف النظم البرلمانية بعد .. لكنّ ديمقراطية الحاكم مع ذلك كانت تَبِينُ وتُسفِر كالشمس من خلال أسلوبه في الحكم ، وطريقته في اختيار ولاته وبطانته ، واستعداده لتقبُّل النقد ، وسماع كلمة الحقّ ، ونظرته إلى الأمَة التي يحكمها ، ومدَى ولائه لحقوقها وحرياتها .

وبهذا المعيار والمِسْبار ، يقف "عمر بن عبد العزيز" في هذا المجال وكأنه نسيج وحدِه !!!

لقد أحاط نفسه بالأبرار الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، والذين لا يُزيفون اقتناعهم ، ولا يلبسون الحقّ بالباطل ، وإن قطعت منهم الرقاب ..

جمعهم حوله ، يفكرون معه .. بل لقد كان يوصي بعضهم أن يجلس تِلْقاءه وهو في مجلس الحكم ، ويضع عينيه المفتوحتين على حديثه ، وحركاته ، فإن نَسِيَ وقال كلمة ، أو أتى حركة فيها شبهة من خطأ ، نبهوه على الفور بإشارة ، تعارَف وإياهم عليها ..

* * *

لقد آمن بأن الشورى ضرورة ، وليست تَرفاً .. وآمن بأنها كلما اتسعت قاعدتها ، استقام الحكم ، وشاع الحقّ ، واستَوْثَق العدل ، وعاش الناس كما يريد لهم دينهم ، وكما ولدتهم أمهاتهم أحراراً ...

من أجل ذلك ، راح في سرعة الضوء يخلُق رأياً عاما صادقاً أميناً ، في طول الدولة وعرضها ..

وراح يضع الحاكمين والمحكومين وجهاً لوجه أمام مسئولياتهما المشتركة ، بل الواحدة في دَحْض الخطأ والتزام الصواب ..

فيكتب للولاة قائلاً :

« إنكم تَعدُّون الهارب من ظلم إمامه عاصياً .

ألا إن أوْلاهما بالمعصية الإمام الظالم» !!!

ثم يكتب للناس في مختلف الأقاليم قائلاً :

« أيّ عامل من عمالي رغب عن الحقّ ولم يعمل بالكتاب والسنّة فلا طاعة له عليكم . وقد صيّرتُ أمره إليكم ، حتى يُراجع الحقّ وهو ذميم ... !!! »

ويُرسل إلى أحد وُلاته قائلاً :

« قد كثُرَ شاكوك .. وقَلَّ شاكروك .. فإمّا اعتدلْتَ .. وإمّا اعْتَزَلْتَ» !!

هكذا رفع سلطة الشعب في وجه سلطة الحكم ، وأسلم نَواصِي ولاته وعماله للرأي العام يقودهم على طريق الحقّ طائعين أو كارهين .

ولكي يَدْعَمَ هذه السلطة ، فتح أبوابه على مصاريعها لكلّ شاكٍ أو متظلم من حاكمه وواليه .. وأرسل منشوراً موجزاً إلى جميع الأقطار :

« مَن ظلمه إمامه مَظلمة ، فلا إذن له عليَّ» .

أي ليقتحم عليّ داري ، غير منتظر إذناً ، وغير واقِف بباب !!

* * *

وإنه ليبهرنا أسلوبه الفريد في بعث الرأي العام الشجاع ، وتزكية حرية النقد ، وشدّ زنادها إلى أقصاه .

ففي سبيل ذلك ، نراه يرسل من بيت المال جوائز مغرية لكل من يكشف عن خطأ ، ويهدي إلى صواب .. !!!

ولنطالع في إجلال ، المنشور الذي كتبه ، ثم أمر أن يُقرأ على الناس في المواسم والمحافل والمجامع :

"أما بعد ..

فأيما رجل قدم علينا في مظلمة نردّها ، أو أمر يُحيي الله به حقا ، أو يميت باطلاً ، أو يجيء بخير .. فله منا ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار . بقدر ما يتكاءدُه [١] في ذلك من طول السفر وبُعد الشُّقَّة » .. !!

أليس عجباً هذا الذي نقرأ ونرى .. ؟؟

ألا ، وإن أعجب من ذلك ، أن بطل هذا كله رجل لم تكن بيئته ولا عصره بقادِرَيْن على تشكيل بَنانِه .

لكنها صِبْغَةُ الله .. ومعجزة الإسلام .. !!!

ولكَم كانَ صادقاً حينَ قال :

« لو وكَلني الله إلى نفسي لكنتُ كغيري » .

لقد راح يضرب المثل الأسمى والقدوة الباهرة في تَقَبُّل النقد - هو الذي لم يعرف الناس له خلال خلافته كلها خطأ واحداً يستأهل النقد والتفنيد ..

ولقد كانت الغبطة تملأ روحه حين يجد من عامة الناس من يقول له :

إلى أين ؟ ولماذا ؟!

هنالك يُرَبِّتُ كَتِفَهُ ، ويُدنيه منه ، ويقول له :

« زِدْني يا أخي ، جزاك الله خيراً » !!

إنه يلتمس الحكمة والصواب وراء أَلْسنة الصادقين حتى حين يكون أحدهم طفلاً ..

قَدِمَ عليه وفد من المدينة يوماً ، وتقدّم من بينهم غلام صغير ليتحدث باسمهم ويعرض قضيتهم ، فتملاه أمير الْمؤمنين ، وقال له :

« يا بنيّ .. دع القول لمن هو أسَنُّ منك » .

ويبدو أن الغلام العربي الأصيل كان يحمل نُبوغاً مبكراً ، فقد أجاب الخليفة من فوره :

« يا أمير المؤمنين :

المرء بأصْغَريه : قلبه ولسانه ..

ولو كان الأمر بالسِّن ، لكان في المسلمين من هو أحقّ بهذا الأمر منك » .. !!

وفجأة ، تنثال دموع الغبطة والفرح من عَينِي القديس ، ويتهلّل وجهه ، ويهتف بالغلام :

« صدقت .. صدقت ..

عِظْني يا بُني .. !!»

وإنَ أحد الناس ليقتحم مسجد المدينة يوماً شاهراً سيفه ، يَسُبُّ ويشتم أمير المؤمنين على ملأ من الناس ، وعلى مسمع من المدينة وحاكمها ، فيعتقله الوالي .. ويرسل لأمير المؤمنين بأمره ، ويقول في كتابه : "لقد هممتُ أن أقتله" ..

ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يجيب عليها فوراً :

« أمَا والله ، لو أنك قتلته لقتلتُك به » .. !!

---

(١) أي : يصعب عليه .

ويقتحم مجالس الحكم ذات يوم رجلٌ من عامّة الناس ، رافعاً عقيرته في وجه الخليفة بكلمات تُثير غيظ الحليم ..

فما يزيد أمير المؤمنين على أن يقول للرجل :

« لعَلّك أردتَ أن يستفزُني الشيطان بعزَّة السلطان ؛ فأنالَ منك اليوم في الدنيا ما تتقاضاهُ مني غداً عند الله .

ولكن ، لا ..

قم ، عفا الله عنك » .. !!!

* * *

ومن أذكى وأبلغ ما أدّاه "ابن عبد العزيز" في سبيل إنهاض رأي عام أمين على مسئولياته وقادر عليها ـ حَسْرُ ذلك المدُّ الطاغي لدولة الشّعر والشعراء التي كانت قائمة يوم ذلك .

لقد رأينا فيما سلفَ من حديث ، كيف اصطنع الأمويون الشعراء لتزييف الحقّ ، ولتمكين سلطانهم على حساب كل القِيَم والأخلاقيات ، حتى لقد كانوا عقَبة كئوداً في سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها .. والآن ، يتقدم البطل والقديس ، مُطْلِقاً رياح الحقيقة وراء هذا الضباب فتكنسه وتُبدّده ، وتترك آفاق المعرفة نظيفة نقية مُشرقة بنور الحقّ وحده ! ..

لقد وقف يخطب الناس فقال :

« من أراد أن يصحبنا ، فليصحَبنا بخمس ، أو فليفارقْنا :

* يرفع إلينا حاجة مَنْ لا يستطيع رفعَها .
* ويُعيننا على الخير بجُهده ..
* ويدلنا على ما لا نهتدي إليه من الخير .
* ولا يغتابنَّ عندنا أحداً ..
* ولا يَعرضَنَّ لما لا يعنيه .. »

ومن الدلالة الطريفة والبالغة ، أن جميع كتب التاريخ التي تنقل هذا الخطاب ، تُتبعه بقولها :

« فانفضَّ عنه الشعراء والخطباء

وثبَت معه الزّهاد والفقهاء .. ! »

أجل .. فمعظم شعراء عصره ـ وعلى رأسهم الأخطل ، والفرزدق ، وجرير ـ لم يكن لهم مع هذه الخمس ، ولا مع واحدة منها رَحِمٌ ولا قرابة .. !!

فهم إمّا مادحون بغير حقّ .. وإما هَاجُون بغير حقّ أيضاً ..

وهم في كلتا الحالتين يحرمون الرأي العام رؤية الصدق بما ينشرون من أضاليل وبهتان .

والآن ، يجيئهم رجل عظيم ، لا حاجة به إليهم .

فليست له عداوات ، يحتاج للشِّعر في تأجيجها ..

وليس له طموح ، يحتاج للشِّعر في قرع الطبول له ..

وليست له شهوات يحتاج للشِّعر في تزيينها ، ولا أخطاء بحاجة لتبريرها .

وليس له بالسلطة ولَع ، فيحتاج للشّعر في حمايتها واستبقائها .

ثم إنه لا وقت لديه ، ولا وقت لدى أُمّته لهذا الهذَر العريض الذي ملأ به الشعراء ساحة العصر الأموي كله .. !!

وهكذا جمع عزمه ، وطرد الشعراء عن بابه ، ولم يعد أحد منهم يظفر بدرهم واحد من أموال الأمّة ، مكافأة على مدح أو اتقاء لهجاء .. !!!

وراح ـ أمير المؤمنين ـ يشرف بنفسه على إمداد الرأي العام بكل الصدق ، ويكل الحقيقة عن طريق منشوراته التي كان يرسلها للولاة ، ويبعث بها إلى مختلف الأقطار كافة ..

ولقد بدأ بدحْر تلك الخطيئة الفاحشة التي كان الحكم الأموي يمارسها في سفالة ، وهي لعن "الإمام عليّ" كرم الله وجهه على المنابر .. !!

وأمر أن يقرأ الخطباء مكان الكلمات الآثمة ـ تلك الآيات الطاهرة : ﴿ ربَّنا اغْفرْ لنَا وَلإخْوانِنا الَّذينَ سَبَقُونَا بِالإيمَانِ ، وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلا لِلَّذينَ آمَنُوا ، ربَّنا إنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ..

﴿ إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإحْسَانِ وَإيتاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ..

لقد وضع الكذب ، ورفع الصدق ..

ودحَر الباطل ، وآزر الحقّ ..

وكان ذلك إسهاماً فعّالاً في إنهاض رأي عام حَصيفٍ وأمين ..

وأمير المؤمنين ـ عمر ـ لا يدرك عظمة الشورى وقيمتها إدراك حاكم عادل صالح فحسب .. بل إنه ليدرك كذلك جوهرها إدراك فيلسوف .. !!

فهو لا يرى فيها مجرّد تنظيم عادل لعلاقة السلطة بالأمّة ، وتبادُل المسئولية تجاه الدولة والمجتمع .. بل يمضي في اتجاه التحليل النهائي لجوهرها ووظيفتها ، ليرى ذلك متمثلاً في ظَفر كل فرد من الناس بحقّه في اختيار اقتناعه .. وحقِّ هذا الاقتناع في التعبير عن نفسه ، في غير زيف أو غُموض ..

ذلك أن الناس حين يُزيفون اقتناعهم بسبب رغبة ، أو رهبة ، فإنه يستحيل في الوقت نفسه ، وللسبب نفسه معرفة آرائهم .

وما دامت الآراء الصادقة هي مادّة الشورى وأداتها ، فإن اختفاء هذه الآراء إذن ، يُعتبر وأداً للشورى وإلغاءً لمهمتها ..

وهنا تُطِل علينا عظمة القديس "عمر" وهو يضع اقتناع الناس ـ حتى حين يخالفهم ويخالفونه ـ موضع القبول والتقدير ..

والوقائع التي تحكي وَلاءه الوثيق لحرمة الاقتناع تزدحم بها الشهور التسعة والعشرون التي قضاها خليفة وإماما .. لكننا نختار منها هذه الواقعة التي تكاد تعطينا التعبير النهائي لهذا الولاء ..

لعلنا نعرف الكثير عن الخوارج الذين انشقّوا على "الإمام عليّ" كرم الله وجهه ، حتى اغتاله واحد منهم .. هؤلاء الذين تحوّلوا بعد ذلك ، وخلال العصر الأموي إلى فرق كثيرة ، حملت سيوفها وخاضت ضد الدولة معارك كُثُراً ذهب منهم خلالها ألوف الضحايا ..

وبالإضافة إلى نشاطها المسلّح هذا ، فقد كان لبعضها آراء وعقائد لا يزكيها قرآن ولا سُنة . ومع ذلك كله ، نرى الخليفة العابدَ الأوَّاب لا ينسى حتى في فِتنهم هذه ، حقّهم في أن يكون لهم اقتناعهم ، ثم لا ينسى واجبه في احترام هذا الحقّ لهم ، وواجبه في إعطائهم فرصة التعبير عن رأيهم بصوت مرتفع ، ما دام نشاطهم لا يتحول إلى عمل إرهابي يستهدف سفك دماء الآخرين الذين يُخالفونهم في اعتقادهم واقتناعهم ..

بل إننا سنراه يرى بحصافته الباهرة ، أن السبيل الأمثل لصرفهم عن التآمر والإرهاب ، هو رفع الغطاء عن البخار المحبوس ، وتمكين الرأي الحبيس المكبوت من الانطلاق ، قبل أن يتحول داخل نفس صاحبه المقهورة إلى حِقد موتور ، وقذيفة رَعْناء .. !!!

وهكذا ، لا تكاد تلك الفرق تتحرك في الأيام الأولى من خلافته ، مستأنفة تمردها المسلح ، حتى يُرسل إلى زعيمها هذا الكتاب :

« أما بعد ...

فقد بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله .. ولستَ أولى بذلك مني ..

فَهَلُمَّ أُناظِرْك ...

فإن يكن الحقّ معنا ، تدخل فيه ، وإن يكن الحقّ معك ، نراجع أنفسنا وننظر في أمرنا .. !! »

ويقرأ الزعيم الثائر كلمات "القديس" فيخجل من نفسه ، ويلقي سلاحه ، ويرسل مبعوثَين إلى عاصمة الخلافة ، يُجريان مع الخليفة حواراً حول ما بينهما من قضايا وخلاف .. ويجري الحوار بينهما رائعاً ، صادِعاً ، تتجلّى خِلالَه موهبة ـ ابن عبد العزيز ـ في رؤية الحقيقة ، وتوجيه المنطق ، وامتلاك الأفئدة والعقول .. !!

ثم تكون عاقبة هذا الموقف العظيم ، أن تُلقي تلك الفرقة المتمردة سلاحها ـ بعد ما تبينت أنها في عصر رجل جديد ينتمي لعصر النبوّة والوحي .. رجل يخجل الشيطان نفسه أن يَشْغَبَ عليه ، أو يتحدّاه .. !!

على أن لهذه الواقعة ـ برغم دلالتها المفيضة ـ مثيلاً آخر يكمل الصورة التي ترسم ولاء هذا الخليفة العظيم لحرية الرأي وحُرمة الاقتناع .

فهو على الرغم من معرفته بفساد الكثير من منطق الخوارج وحججهم ، لم يرَ القوة قطّ سبيلاً لدحْض هذا المنطق وإسكاته ـ بل رأى أن قيام منطق أهدَى ، وحجة أوضحَ وأصدقَ ، هو السبيل لإظهار الحقّ وإخماد الباطل .

وهكذا نلتقى به ، وقد قامت فرقة أخرى من الخوارج ـ هم "حَرُورِيَّة المُوصِل" يسيحون في البلاد ناشرين آراءهم وأفكارهم .. ويكتب إليه حاكم الموصل ، يستأذنه في قمعهم وإسكاتهم ..

أقول : نلتقي بأمير المؤمنين يجيب واليَه فيقول :

« إذا رأوا أن يسيحوا في البلاد في غير أذًى لأهل الذمَّة .. وفي غير أذًى للأمة . فليذهبوا حيث شاءوا ..

وإن نالوا أحداً من المسلمين ، أو من أهل الذمَّة بسوء ، فحاكمهم إلى الله .. »

بالله ، ما أعدلَه .. وما أروعه .. !!

إنه لا يرى لنفسه حقا ـ أيَّ حقَ ـ في الحجْر على آراء الآخرين ، ولا في الوصاية عليها ..

وهو ـ كحاكم ـ لا يرى لنفسه أيَّ حقَ في التدّخل إلا حين يواجهه خطر مسلَّح يتهدد سلامة الدولة والأمَّة ..

أما دون ذلك ، فلكل رأي حرمته ، ولكل اقتناع حقّه وحريته ..

وهذا النهج الراشد السديد ، هو الذي مكّن للشورى في عهده تمكيناً تكاد تتقطَّع دون بلوغه أنفاس كل الديمقراطيات .. !!

ولطالما قالوا له يومئذٍ : إن هؤلاء الخوارج ينشرون بين الناس أفكاراً زائفة ، ويَلبِسون الحقَّ بالباطل ، وإنَّ تركهم يجوبون البلاد بعقائدهم هذه ، عملٍ يُنذِر بسوء مآب ..

فلا يزيد القديس العادل على أن يُذكِّر مُحدثيه ومُحرِّضيه بآيات القرآن العظيم التي نهى الله فيها رسوله عن أن يَسُوسَ ضمائر الناس بالقهر والبطش :

﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .. ؟

﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ .. !!

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ !!

ولقد وقفت العواقبُ بجانبه ، وأثبتت صدق رأيه وذكاء تقديره . فالخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم يوماً واحداً منذ حكم معاوية ، حتى سليمان بن عبد الملك ، والذين لم تزدهم كثرة ضحاياهم إلا إمعاناً في التحدّي وضراوة في القتال .. نراهم في عصر هذا القديس الجليل يَغمِدُون سيوفهم ، وينسَوْن طوال عهد خلافته كل ما لهم عند الأمويين من تِرات ، وثارات ... !!

* * *

و" ثالثاً " : المال وَديعَة ..

وأمام المشكلات الاقتصادية ، ومُشكلات الدخل والتوزيع التي تُحَيِّرُ الدول في كل العصور والأزمان ، لم تأخذ " عمر " حيرة ، ولم تُعْضِله أزمة ..

ذلك أنه مؤمن بأن الحقَّ والعدل قادران على تدبير أمرهما أعظمَ وأهدى مما تدبر ألمع عبقريات التنظيم والاقتصاد .

والدولة المسلمة ـ يومئذٍ ـ لم يكن ينقصها المال .. إنما كان ينقصها اتّباع الحقّ في تقاضيه .. واتّباع العدل في توزيعه .

وقبل هذين ، بَعْثُ حرمة الأموال العامة وقداستها في ضمير الدولة ، بكل مسئوليها .. وفي ضمير الأمَّة ، بكل أفرادها .. إن موقفه من الثروة القوميـة ، يبدأ من إيمانه بقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ .

فمصادر الإنتاج ، والإنتاج ، والثروة .. كل ذلك إذن وديعة الله عند الناس .. دُوَلاً ، وأُمماً ، وجماعات ، وأفراداً ..

ولودائع الله هذه حُرمتها التي تنأى بها عن التلَف ، والسرَف ، والبغي ، والاحتكار ..

فإذا اكتسَبت هذه الودائع صفة أخرى ووصفاً آخر ، فصارت أموالاً عامة ، فإنَّ حُرمتها وقداستها تربو وتزداد ..

ذلك أن معنى كونها [أموالاً عامة] أنها حقوق شائعة وثابتة لكل أفراد الأمّة .. لكل أرملة فيها ، وكل يتيم . لكل مُسنّ ، وطفل ، ورضيع .. لكل فقير ، وعاجز ، ومريض ..

وهي بهذه المثابة ، مثابة أنها ـ أولاً : ودائع الله . وثانياً : حقّ الناس ، جميع الناس .. تتمتع بحرمة بالغة ، وقداسة وتُقَى ..

و "ابن عبد العزيز" يرى نفسه مسئولاً عن إعلان هذه الحرمة وصيانة هذا الحقّ ..

وإنه ليَعبّر عن ذلك في كلماته الفاصلة :

" إنما أنا حَجيجُ المسلمين في مالهم " !!

كما يُعبّر بسلوكه تجاهها تعبيراً يبهر الألباب ..

إنه يرسل خادمه يوماً ليسخّن له الماء كي يتوضأ به في يوم شاتٍ زمهرير ..

ويعود الخادم مسرعاً بالماء الدافئ ، فيسأله الخليفة : أين أدْفَأه بهذه السرعة .. ؟

فيجيب الخادم : في مطابخ المسلمين ..

وكان ـ عمر ـ قد توسع في إنشاء مطابخ عامة للناس يُنفق عليها من بيت المال .

فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض أن يَمسَّ الماء جسده حتى يذهب الخادم إلى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القدر الضحل جداً من الماء .. !!!

وإنّا لَنعرف تلك الواقعة المتواترة ، حين كان يباشر أمور الدولة ليلاً على مصباح يُؤخذ زيته من بيت المال ، فإذا عرض له في أثناء ذلك طارئ شخصي ـ ولو كان لا يستغرق سوى لحظات ـ فإنه يطفئ مصباح بيت المال ، ويُوقد شمعته أو مصباحه ، حتى ينتهي من ذلك الطارئ .. !!

ولقد يرى بعضهم في هذا المسلك نوعاً من التزَمُّت المغرِق ..

ولقد يَروْن في إعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام الورع من رئيس دولة عظمى ، كالدولة التي كان يحكمها ـ ابن عبد العزيز ـ أمراً غير مألوف .. وربما غير مستساغ .

غير أنهم حين يفكرون على هذا النحو يفوتُهم أن الذي كان يحرك اهتمام الخليفة وورعه ، لم تكن تلك الشكليات ذاتها ، إنما هو المعنى الكبير الذي يملأ ضميره ، ويُشكل سُلوكَه تجاه الأموال العامة وحُرْمتها وقَدَاسَتها ..

وبعد ذلك يستوي أن يكون هذا المال : عَدْلَ درهمٍ من زيتِ مصباح .. أو ملءَ حجرة فضةً وذهباً .. !

إنه يذكُر ، ويذكّر الناس دائماً بالآية الكريمة : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ !!

والغُلول عنده في أحقر الأشياء ، مِثله في أكثرها وأخطرها .. وفيما يستأثر به لنفسه ، مِثله فيما يجود به على غيره !!

بل حتى الهدايا ، رآها غُلولاً ، أو شيئاً يشبه الغلول ..

جاءته يوماً هدية ، فاعتذر عنها ـ فقيل له : إن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية ..

فأجاب قائلاً :

"لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رشوة" !!

* * *

إن موقفه من أموال الأمَة لَعجيب . ثم عجيب .. !!

وإن لها في فؤاده الذكي التقي لَحرمة تضاهي حرمة الإيمان ذاته ، وحرمة التوحيد .. !!

يطلب منه أحد ولاته الإذن بمزيد من الشموع التي كانت دار الإمارة تُضاء بها ، ويُضاء بها للأمير وهو في طريقه إلى المسجد لصلاة العشاء والفجر ..

فيجيبه الخليفة بكتابه هذا :

« لقد عَهِدتُك يا بن أم حَزم ، قبل أن تكون والياً ، تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح ..

ولَعمري ، لأنتَ يومئذٍ خير منك اليوم ، ولقد كان في فَتائِل أهلك ما يُغنيك » !!!

ويكتب إليه والٍ آخر ، يطلب المزيد من الأقلام وورق الكتابة ، فيجيبه الخليفة أيضاً :

« إذا جاءك كتابي هذا ، فأرِقَّ القلم ، واجمع الخط ، واجعل الحوائج الكثيرة في الصفحة الواحدة ..

فإنه لا حاجة للمسلمين في فَضل قولٍ أضرَّ ببيت مالهم ... » !!

هنا بيت القصيد .. [أضَرَّ ببيت مالهم] !!

فالمشكلة ليست مشكلة قليل أو كثير من الشموع والأقلام والأوراق .. فما من دولة يعجزها أن تملأ أرضها شموعاً وأقلاماً وورقاً ..

إنما المسألة في وَعْي "الحاكم القديس" هي حرمة هذه الأموال وقداستها .. هي تجنُّب التفريط فيها .. هي درجة الولاء لمسئولية رعايتها وحفظها .. وبهذا المعيار يصبح كل عبث بها مرفوضاً مهما تكن ضآلة مقداره ..

ذلك أن الإسراف الذي يتمثل اليومِ في شمعة أو قلم .. سيتمثل غداً ـ إذا استهين بأمره ـ فيما هو أوخم عاقبة وأسوأ مصيراً .. !

* * *

هكذا أرسى لحرمة الأموال العامة قواعد راسخة من الإجلال والتقديس .

ونعود إلى موقفه من "مشكلة الدخل والتوزيع" .

قلنا : إن الدولة يومها لم يكن ينقصها الثراء .. إنما كان ينقصها تقصي الحقّ في جمعه .. والعدل في توزيعه ..

ففيما يتعلق بالدخل .. نرى الخلفاء قبله ، وقد أرهق الترف والسرف ميزانية الدولة ، راحوا يُعوّضون ذلك بجمع المال بوسائل غير مشروعة ، وضرائب غير عادلة ..

فأهل الكتاب الذين يعتنقون الإسلام ، يضع عنهم الدين ضريبة الجزية فوراً . لكنّ الدولة الأموية تأبى في ذلك حكم الإسلام ، وتُبقي الضريبة فوق كواهل الذين أسلموا ، مسوغة ذلك بأنهم إنما يسلمون فِراراً من الضريبة .. !!

ويجيء الخليفة العادل فيرفض هذا التسويغ الزائف ، ويُعلن أن فرح الإسلام بفرد واحد يدخل في دائرة نوره وهداه ، خير من ملء الأرض مالاً وذهباً .

ويُطلق أمير المؤمنين كلماته المضيئة هذه :

« إن الله بعث ـ محمداً ـ هادياً ولم يبعثه جابياً » !!

ولقد أرسل إليه واليه على العراق "عديّ بن أرطأة" يقول: "إن الناس قد دخلوا في الإسلام أفواجاً ، حتى خشيت أن يقلّ الخراج" .

فيجيبه الخليفة المُقسِط العظيم :

" والله ، لودِدْتُ أن الناس كلهم يُسلمون ، حتى نكون أنا وأنت حرّاثين ، نأكل من كَسْبِ أيدينا . !!!" .

كذلك راح يتتبع كل الضرائب التي كان الخلفاء السابقون قد فرضوها على الناس فألغاها جميعها .

بل حتى الضرائب المشروعة ، مثل زكاة الزروع والثمار ، كان يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح ، أو تتعرض لبوار .

ها هو ذا يكتب لواليه على اليمن "عروة بن محمد" :

"أما بعد ..

فقد كتبتَ إليّ تذكرُ أنك قَدِمْتَ اليمن ، فوجدتَ على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة في أعناقهم ، كالجزية يؤدونها على كل حال .. إن أخْصَبوا ، أو أجْدَبوا .. إن حيوا ، أو ماتوا .

فسبحان الله رب العالمين !! ثم سبحان الله رب العالمين !!

إذا أتاك كتابي هذا ، فدعْ ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحقّ ..

واعلم أنك إن لم ترفع إليّ من جميع اليمن إلا حفنة من كَتم [1] ، فقد علم الله أني سأكون بها مسروراً ، ما دام في ذلك إبقاء على الحقّ والعدل» .. !!!

ولعل بعضنا يأخذه العجب .. فبينما كان المتوقع منا ونحن نتحدث عن "الدَّخْل" أن نشير إلى اكتشاف مصادر جديدة تزيده ، وموارد ثرّة تضاعفه وتُنمّيه ، إذا بنا نُطري سياسة الخليفة تجاه الدَّخل العام ، لأنه ألْغَى الكثير من تلك المصادر والموارد .. ؟!

---

(١) الكتم : نبات يخضب به الشعر ، ويصنع منه مداد للكتابة .

ولكن ، ما حيلتنا ، وهذه فلسفة القديس المبارك الميمون ـ ابن عبد العزيز ..؟!

إن المسألة عنده ليست مسألة كثرة .. بل مسألة وفرة ..

والوفرة ، تكون في بَركة الحلال المشروع ، لا في كثرة الحرام المغتصَب ..

ولعل من واجبنا قبل أن نغادر هذه النقطة من الحديث ، أن نقول لبعض المؤرخين الذين يردّون اضطراب مالية الدولة بعد موت أمير المؤمنين ـ عمر ـ إلى سياسته الضرائبية هذه .

ومن واجبنا أن نقول لهم : أغلب الظن أنكم مخطئون .

فلقد سارت الأمور في عهده كله على أتم نَسق . ولم تكن تُنذِر بأيّ عجز أو اضطراب . بل كانت على العكس من ذلك ، تُرهِص وتبشر بمزيد من النماء والرخاء والاستقرار .

إنما اضطربت فيما بعد ، حين غاب ـ البطل ـ عن مسرح العدالة والحقّ .. وعاد الترف والسَّرَف والفساد ، وسياسة السطو مرة أخرى تعبث وتمرح ، بعد أن رحل الحارس اليقظ ، والحاكم القدّيس .. !!

* * *

على أن ـ الخليفة ـ حين ألغى الضرائب الظالمة ، أتاح في نفس الوقت مورداً ثرًّا للدولة ، حين ردَّ إليها جميع الأرض والثروة التي كانت تحت أيدي الأمراء .

ومورد آخر ، اعتبره أمير المؤمنين من أعظم مصادر الدخل وأثراها .. ذلكم هو وضع كل درهم في مكانه وضرورته .. وتحريم كل تبذير ، وتحريم كل سَرَفٍ ..

أجل .. لقد كان ـ ولا يزال ـ وضع المال في مكانه الصحيح وداخل ضرورته الملِحّة وحدها ، خير مورد وأبقى مصدر ..

ولقد ـ التزم ـ عمر ـ هذا النهج التزاماً يكاد يكون مطلقاً مع نفسه ، ومع أهله ، ومع ولاته ، ومع ذوي قرباه ، وأصدقائه ، والناس أجمعين .

ها هو ذا أحد المقربين إليه ، الأثيرين لديه ـ عنبسة بن سعيد ـ يذهب إليه يوماً ، يسأله حاجة لنفسه .

فلنطالع جواب الخليفة له :

« يا عنبسة .

إن يكن مالك الذي عندك حلالاً ، فهو كافيك .

وإن يكن حراماً ، فلا تُضيفَنَّ إليه حراماً جديداً ..

أخبرني يا عنبسة ..

أمحتاج أنت .. ؟ لا ..

أفعليك دَين .. ؟ لا ..

إذن ، فكيف تطمع في أن أعمد إلى مال الله فأعطيكَهُ في غير حاجة .. وأدَع فقراء المسلمين ؟!

لو كنتَ غارماً ، لأديتُ عنك غُرمَك .. أو محتاجاً لأمرتُ لك بما يصلح شأنك .. فليكن لك في مالك غَناء ..

واتَّقِ الله ، وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك أسرع الحاسبين » . !!

إن هذا الذي قاله لصديقه الحميم "عنبسة" كان يقوله لكل من يسأله ما ليس له بحقّ .. على أن هذا الذي هو حقّ في تقديره ، لم يكن يتمثل عنده إلا في ضرورات العيش والحياة .

وهكذا أتيح له أن يحول شَهقات البائسين إلى بسمات متهللة ، وفرح غامر ، دون أن يحوِّل السَّراة إلى طبقة بديلة للبائسين .

إن كل ما صنعه بهم أنه أخذ منهم تَرَفهم وتُخمتهم ، ثم تركهم يحيون كراماً متواضعين .. !!

* * *

وهنا ينقلنا الحديث من الدخل ، إلى التوزيع . فكيف راح الحاكم القديس يوزع أموال الأمّة ، وأين كان يضعها .. ؟؟

لقد ردّ المال إلى وظيفته الحقيقية ، وإلى دَوْره الأصيل ومسئوليته الأولى في خدمة الأمّة وتغطية احتياجاتها .

لقد بدأ فرسم حدود الكفالة الشاملة التي ستنهض بها الدولة تجاه مواطنيها جميعاً ، فرداً فرداً .. وحدد بالتالي مسئولية بيت المال تجاه تغطية هذه الكفالة كلها .

نرى ذلك في كتابه إلى وُلاته :

« لابدّ لكل مسلم من :

* مسكن يأوي إليه ..

* وخادم يكفيه مهنته .

* وفرس يُجاهد عليه عدوه .

* وأثاث في بيته .

* فوفروا ذلك كله ..

ومن كان غارمًا ، فاقضوا عنه دينه » .. !!!

والتعبير بكلمة "مسلم" هنا .. لا تعني قَصْرَ هذه المزايا ـ بل الحقوق ـ على المسلمين وحدهم ، إنما استعمل هذا الوصف لِغَلبته لا أكثر .. ثم كانت هذه المزايا والحقوق من حقّ المواطنين جميعاً ـ مسلمين وأهل كتاب ...

وأمر الخليفة ولاته أن يبدءوا بتغطية حاجات أقطارهم ، وما فاض وبقي يُرسَل إلى الخزانة العامة .. ومن قصر دخل إقليمه عن تغطية حاجات أهله ، أمدّه الخليفة بما يغطي عجزه :

« استوعِب الخراجَ وأحرِزْه في غير ظلم ..

فإن يك كافياً للناس ، فحسناً .. وإلا فاكْتبْ إليَّ حتى أبعث إليك من المال ما توفر به للناس أُعطياتهم » .. !!

* * *

وراح "المبارك الميمون" ينشئ في طول البلاد وعرضها دُور الضيافة ، يأوي إليها المسافرون وأبناء السبيل ..

ومضى ، يرفع مستوى الأجور الضعيفة ..

وكفَل كل حاجات العلماء والفقهاء ليتفرغوا لعلمهم ورسالتهم دون أن ينتظروا من أيدي الناس أجراً ..

وسخا على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يفرغوا لمهامِّهم ، وحتى لا تضعف نفوسهم أمام إغراء الحرام .. !!

وعلى طول الدولة وعرضها كذلك ، أمر لكل أعمى بقائد يقوده ويقضي له أموره على حساب الدولة ..

ولكل مريض أو مريضين بخادم ، على حساب الدول ..

وأمر ولاته بإحصاء جميع الغارمين ، فقضى عنهم ديونهم ..

وافتدى أسرى المسلمين جميعاً ، وأغدق عليهم العطاء ..

وكفَل اليتامى الذين لا عائل لهم في جميع أقطار دولته العريضة المترامية ..

وكما فعل جدّه العظيم ـ عمر بن الخطاب ـ من قبل ، فعل هو أيضاً ، فأمر أن يُفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرَّد ولادته ، وليس بعد فطامه ، حتى لا تتعجل الأمهات فِطام الرضّعاء فيتعثر نموُّهم ، وتضمحل قُواهم .. !!

ومن أجل ألا يتحول عطاء الدولة إلى فرصة للطامعين ، منع أن يجمع أحد بين عطاءين ..

وحرم على جميع العاملين والموظفين الجمع بين راتبين مهما تكن الأسباب . !!

* * *

وهكذا تقسَّط الناس جميعاً في عهده العظيم ما أفاءَه الله عليهم من خير ورزق .

وإنَا لَنكاد نذهل أمام ذلك الإجماع التاريخي الذي يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء في عهد القديس الورع ، "عمر بن عبد العزيز" ، حتى لقد كان الأغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيراً يأخذها ـ ويبسط يده إليها .. !!

ذلك أن عدل ـ ابن عبد العزيز ـ لم يكفِ الناس حاجتهم فحسب .. بل ملأهم شعوراً بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم الصدقات مهما تكن كبيرة وكثيرة ، بعد أن أغناهم الله من فضله بالحقّ ، وبالعدل ، وبعبده الصالح "عمر بن عبد العزيز" !!!

* * *

و"رابعاً" : وحدة الأمة وسلامها ..

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعاً ممزقاً ، يتربص بعضُه ببعضٍ الدوائر .. ويتربص كله بالدولة الدوائر .. !!

فخلفاء بني أمية ، كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحذ العصبية والقبلية والإقليمية ، فيختص أحدهم بعطفه القيسية ، ويختص آخر اليمانية .. ويميز أحدهم أهل الشام .. ويميز آخر أهل العراق ..

وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة إلى القبائل وزعمائها ؛ فظهر من ينادي بسيادة أهل الحضَر ـ وفي مواجهتهم ، ظهر من ينادي بسيادة أهل البادية ..

كذلك كان الخلفاء الأمويون قد جَنحوا للهبوط بمكانة المسلمين من غير العرب ـ أولئك الذين عُرفوا باسم "الموالي" ، ففرضوا عليهم الجزية ظلماً ، وحرموهم الحقوق التي يكفلها لهم الإسلام ، على الرغم من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء الإسلام عالياً في كل مجال .. !

كذلك كان هناك الفِرَق الكثيرة ، من شِيعة وخوارج ومُعتزلة ، منهم مَنْ يحمل السلاح في وجه الدولة ، وفي وجه خصومه في الرأي ، ومنهم من لا يحمل السلاح ، ولكنه يحمل الكلمة المسمومة .. ومنهم مَنْ يلتزم حدود المنطق والحِجاج ..

* * *

ورث "القديس" المجتمع على هذا التمزق والتشتُّت ، فنفخ فيه من روحه الطاهرة الظافرة نفخة مباركة نفَتْ عنه في لحظة كل هذه الخبائث . وطهرت ـ لا شكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب ـ بل ضميره وروحه أيضاً ، فشهد مجتمع الإسلام في أيامه إخاءً وثيق التراحُم .. وأخذ كلٌ حقَه .. وقنع كل بحقّه .. !!

فأما عن الخوارج ، فقد رأينا كيف أسكتهم بالحجة والبرهان .

وأما الموالي ، فقد وضع عنهم إصْرَهُم ، وصحّح وضعهم .

وأما النزعة القبلية والإقليمية ، فقد طواها بيمينه .

ولم يعد هناك قيسيون ويمنيون .. ولا عراقيون وشاميون .. ولا عرب ومَوالٍ ..

لقد عادت رَحِمُ الإسلام تنتظم جميع أبنائه كالعقد المنظوم ، وسيطرت من جديد روحه العظيمة المتمثلة في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

* * *

ولم يقف تصور "ابن عبد العزيز" لوحدة الأمَة عند هذه الحدود وحدها .. بل امتد إيمانه بالوحدة وفهمه لها إلى وضع الأقليات ، فأكد دمجها في جسم المجتمع المسلم ، وصان لها كل حقوقها .

ولقد رأينا في رسالة مرت بنا من قبل ، أرسلها لأحد ولاته بشأن بعض الخوارج ، فقال له :

« إن ساروا في الأرض دون إساءة لأهل الذمة ، وللأمّة ، فدَعْهم » ..

وفي كتب كثيرة لولاته ، نراه يؤكد على الوصاة بأهل الذمة ، أولئك الذين أسماهم الإسلام ـ أهل الذمة ـ توكيداً لما في ذمة المسلمين لهم من عهد وميثاق .. !!

لقد كانوا إلى يوم استخلافه ، يلاقون الكثير من العنت .. ويقبعون تحت وطأة

ضرائب ظالمة .. فما كاد يتولى أمر الأمّة حتى أصدر أوامره الحازمة بألا يؤخذ منهم سوى الضريبة التي شرعها الإسلام لقاء حمايتهم وتوفير الأمن لهم .

وإن موقفه من قضية "كنيسة يوحنا" بدمشق لمثَل رائع وباهر على عمله العظيم والنبيل لدعم وحدة الأمّة كافّة ، بصرف النظر عن اختلاف الدين والجنس واللون فيها .. !!

كان "الوليد بن عبد الملك" قد هدم جزءاً كبيراً من كنيسة "يوحنا" ، ليقيم عليه امتداد المسجد الأموي المشيد .

وحين ولِيَ ـ عمر بن عبد العزيز ـ الخلافة ، شكا إليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم ..

تُرى ، ماذا يصنع أمير المؤمنين ؟

إن الجزء الذي تهدّم من الكنيسة قد صار مسجداً ..

وإن أقصى ما يستطيعه حاكم عادل في مثل هذا الموقف أن يعطي تعويضاً سخيًّا ، أو أرضاً بديلة ..

لكنَّ "ابن عبد العزيز" يتعامل مع العدل والحقّ بأسلوب مختلف عن أساليبنا .. إنه أسلوب قديس جليل !!

وهكذا أصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ، وإعادة الأرض التي أقيم عليها إلى الكنيسة .. !!

ودارت الأرض بعلماء دمشق وفقهائها ، فأرسلوا وفدهم لإقناع أمير المؤمنين بالعدول عن قراره .

لكنّ أمير المؤمنين ، أصدر أمراً جديداً حدَّد فيه اليوم ، بل الساعة التي يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم . !!

ولم يجد العلماء سبيلاً لإنقاذ المسجد سوى أن يُفاوضوا زعماء الكنيسة في دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقاً يرضَوْنه . ويتنازلون بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم . ثم يذهب وفدٌ من الفريقين لإبلاغ الخليفة نبأ الاتفاق . فيحمد الله عليه ، ثم يقرّه ويرضاه .. !!

* * *

بمَ إذن نُفسّر ذلك الموقف الذي اتخذه من بعض أهل الكتاب من النصارى ، حين أمر أن يُعاملوا معاملة خاصة فيها تضييق عليهم ، وإحراج لهم .. ؟؟

إننا في ضوء موقفه العام الذي رأيناه ، لا نرى لموقفه الطارئ هذا تفسيراً إلا أن يكون قد دعاه إليه سلوك بعض أولئك الذين عملوا كطابور خامس للإمبراطورية الرومانية التي كانت تشن باسم الصليب ـ حروباً عدوانية على دولة الإسلام ..

يُزكّي ذلك ـ في رأينا ـ تلك الرسالة التي حملت أوامره بشأن أولئك النصارى . فقد ركزت اهتمامها على مصادرة ما يوجد في دورهم من سلاح .. مما يومئ إلى وجود مؤامرة كانوا يهمُّون بها .. على أنه في موقفه من هؤلاء ، لم يأمر باتخاذ أيّ إجراء عنيف .

كل الذي أمر به أن يُميِّزوا بلباسهم الخاص .. وحتى هذا الإجراء يشير إلى الريبة

التي داخلت نفسه تجاههم ، فأراد أن يميزهم حتى يكون هذا التمييز سبيلاً لكشفهم ..

فإذا جاوزنا هذه الفئة التي فقدت ولاءها للدولة وللمجتمع ، وجدنا موقفه من المسيحيين عامةً موقف الحارس الأمين لحقوقهم ولعهودهم ولكراماتهم .

لقد أثار موقفه من الأديان ومن حقوق الأقليات في دولته الراشدة انبهار وإعجاب العالم الخارجي من حوله ؛ حتى إن إمبراطور الروم "ليو الثالث" ـ وقد كان خصماً عنيداً لدولة الإسلام ـ لا يكاد يبلغه فيما بعد نبأ وفاة أمير المؤمنين حتى يبكي بكاء مُرًّا ، أذهل حاشيته وأساقفته ، فسألوه في ذلك ، فأجابهم بكلمات تُعَدُّ من أصدق وأجمع ما قيل في تأبين أمير المؤمنين :

«مات والله ملك عادل ، ليس لعدله مثيل .. !!

وليس ينبغي أن يعجَب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد الله في صومعته .

إنما العجب لهذا الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها .. !

ولقد كان حَرِيًّا أن يُعجَّل به ؛ فأهل الخير لا يلبثون مع أهل الشر إلا قليلاً » .. !!

أفكان هذا الإمبراطور ليشهد فيه هذه الشهادة لو عرف عنه أدنى اضطهاد أو انتقاص لحقوق أهل الكتاب في عهده .. ؟؟

بل هل كان كبير أساقفة الرومان سَيَخِفُّ مسرعاً حين علم بمرض الخليفة ، ليقيم إلى جواره يُطببه ويعالجه .. ؟؟

* * *

ونعود للعملِ الذي عمله أمير المؤمنين من أجل وحدة الأمَة ؛ لنرى كيف كان في الوقت نفسه عملاً في سبيل سلامها الداخلي :

فالسلام الداخلي ، إنما يتوفر بالقدر الذي يتجمع فيه شمل الأمَة وتتآخى أرواح بنيها ..

ولقد أنعم الله عليه وعلى أمَته بما تمنَى من وحدة الإسلام ..

فماذا عن السلام الخارجي ووضع أوزار الحروب التي كانت مشبوبة الأوار خارج الحدود .. ؟

لقد رأيناه يبدأ في الساعات الأولى من خلافته بإصدار أمره للجيش الذي أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة .

ثم رأيناه يفتدي جميع الأسرى على كثرتهم ويردّهم إلى ديارهم ووطنهم .

ثم نراه يضع حداً لكل الأعمال العسكرية التي كانت تقوم بها الدولة .. ويعلن أن الإسلام قد صار عزيزاً منيعاً بما تمَّ له من فتوح ، وأن على جيش الدولة ألا يتحرك بعد اليوم لقتال إلا دفاعاً عن حدود الدولة إذا هوجمت ، وعن سلامة الأمَة إذا تعرضت للأخطار ..

واستعاض عن زحف الجيوش ، بكتبه التي أرسلها إلى ملوك الهند وحكام مقاطعاتها ، يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم أكثرهم متأثرين بما كان قد ترامى إليهم من أنباء ورعه وزهده ، وعظمته وتُقاه ..

كذلك كتب إلى البربر ، في إفريقية .. يدعوهم إلى الإسلام ، فدخلوا فيه أفواجاً ..

وكتب إلى ملوك ما وراء النهر ، فأسلم أكثرهم ورفعوا راية الإسلام ..

أليس رجلاً مباركاً ذلك القديس .. ؟؟

* * *

و"خامساً" : أسلوبه في التنفيذ ..

ماذا كانت الأمّة ستفيد من ورعه وزهده وتقاه وعدله ، لو لم تكن كفاءته في التنفيذ موازية لكفاءته في حمل المسئولية والإخلاص لها .. ؟؟

هنا نلتقي بجانبٍ من أبهى وأغنى وأقوى جوانب شخصية ذلك القديس الفطِن الحازم الأريب .. نلتقى به صاحياً يقظان .. !

إن كل ساعات اليوم الأربع والعشرين منذورة لمسئولياته ..

ليس منها سوى الوقت الذي تستغرقه صلاته وعبادته ، والساعتين أو الثلاث التي يمنحها لنومه وراحته ..

أما بعد ذلك ، فلا وقت لديه إلا لمسئوليته المقدسة .

وله أسلوب فريد في إنجاز هذه المسئولية وتنفيذ منهجها .

فاللّين ، والحزم .. والأناة ، والحسم .. والإشراف العميم ، واللامركزية .. والمطاولةِ ، واليقظة .. كل هذه تعمل "مجتمعة" لا "مختلطة" ـ في اتساق فذّ وتكامُل عجيب .. !!

يبلغ به التعب يوماً أشده ، فيسأله بعض خاصته أن يريح نفسه ، فيقول :

« ومن يجزي عني عمل اليوم » .. ؟

فيقولون له : تنجزه في الغد ..

فيجيب : « لقد فَدَحني عمل يوم واحد حتى سألتموني أن أريح نفسي ، فكيف إذا اجتمع عليّ عمل يومين » .. ؟؟

إنه لا يُجري حسابه الختامي كل شهر ولا كل أسبوع .. بل لكل يوم مسئوليته وحسابه الختامي ، ولا يحيل يوماً على آخر ، لأن لكل يوم مُزدَحمه وأحماله .. !!

وهو بالنسبة لعشرات الملايين التي تنتظمها دولته الواسعة ، نداء النَّجْدَة .. لا تهتف به حاجة فرد ولا مظلمة مظلوم في أدني الأرض وأقصاها إلا ألْفَتْه وكأنه في انتظارها وحدها !!

وصِغار الأمور عنده مثل كبارها .. لها الاهتمام نفسه والمسارعة نفسها .. حمل إليه بريده يوماً رسالة من الجيزة بمصر ..

أما صاحبة الرسالة فاسمها "فرتونة السوداء" ، تشكو لأمير المؤمنين أن لها حائطاً متهدماً لدارها يَتَسَوَّرُهُ اللصوص ويسرقون دَجاجها ، وليس معها مال تنفقه في هذا السبيل .

ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو في عاصمة خلافته بالشام حتى يكتب إلى والِيه على مصر "أيوب بن شرحبيل" هذا الخطاب :

"مِن عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى أيوب بن شرحبيل .

سلام الله عليكم ..

أما بعد ، فإن فرتونة السوداء كتبت إليَّ تشكو قصر حائطها ، وأن دجاجها يُسرق منها ، وتسأل تحصينه لها .

فإذا جاءك كتابي هذا ، فاركب بنفسك وحصِّنْه لها » .. !!

والبريد نفسه الذي حمل هذا الكتاب لوالي مصر . حمل كتاباً آخر من الخليفة لفرتونة السوداء :

« من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء .

سلام الله عليك .

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وما ذكرتِ فيه من قصر حائطك حيث يُقتحَم عليك ويُسرق دجاجك ..

وقد كتبت إلى "أيوب بن شرحبيل" آمُره أن يبني لك الحائط حتى يحصِّنه مِمَّا تخافين إن شاء الله » .. !!

يقول ابن عبد الحكم الذي روى لنا هذه الواقعة الباهرة :

« فلمَّا جاء الكتاب إلى أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة ، وظل يسأل عن "فرتونة" حتى وجدها ، فإذا هي سوداء مسكينة ؛ فأعلَى لها حائطها » .. !!

هذا خليفة قديس لن تُفلت من رحمته وعدله وأُبوَّته شاردة ولا واردة .. !!

ولسوف يتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شيء ..

انظروا .. !

إنه يكتب لواليه على مصر أيضاً :

« أما بعد ..

فقد بلغني أن الحمَّالين في مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ما تُطيق ..

فإذا جاءك كتابي هذا ، فامنع أن يُحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل .. !! » .

بل إنه ليبصر في جولاته أناساً يحملون مقارِع ، في أسلفها حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم ، فلا يكاد يستقر في مجلسه حتى يوقع قراراً يحرِّم استخدام هذه المقارع .. ؟!

وتأتيه يوماً سَلَّتان كبيرتان مملوءتان من رُطب الأردن ، فيسأل : ما هذا ؟

فيقال : رطب بعث به أمير الأردن إلى أمير المؤمنين .

ويعود يسأل : وعلامَ جيء به .. ؟

فيقال له : على دواب البريد ..

فيهز رأسه ، ويقول :

« لقد حملتموها فوق طاقاتها .. بيعوا الرطب ، واشتروا بثمنه علفاً لدواب البريد التي حملته .. !!

* * *

ويبهرنا لِينُه ، وأناتُه ، وسَعَة صدره التي لم تعرف حدوداً .

وفي تتبعنا لهذه الفضيلة لديه ، نجدها تنبع من رحمته العميقة الأصلية ـ هذه الرحمة الذكية التي لم تكن تعني مجرَّد الشفقة بالناس ، بل تعني القيام بحقِّهم في بذل العون لهم حتى يتغلبوا على نوازع الشر فيهم ، وعلى هواجس النفس ، ونقاط الضعف .

وإنـا لنتسمَّع هذا النبض الحنون النبيل من خلال دعائه الذي كان يَضرع به إلى الله كثيراً :

« اللهمَّ زِد مُحسِنَ أُمَّة محمد إحساناً ، وأرجع مُسيئهم إلى التوبة .. اللهم وحُطَّ من أوزارهم برحمتك » !!

إنه لا يتحسس الأخطاء ، ليعاقب عليها ، بل ليعالجها في رحمة وحنان .

وإن أخطاء الناس لتشغله إلى المدى الذي رأيناه حيث لا ينظر إليها كحاكم ؛ بل كعابد ، يصلِّي من أجل مغفرتها وإنهاض ذويها .. !!

وهو لا يستبقي أناته وحلمه وسَعَة صدره وتسامحه ، داخل إطار ذاته كخُلق شخصي له فحسب ، بل يحوِّلها إلى فلسفة للحكم ومنهاج .

ولطالما كان يوصي كل والٍ من ولاته بهذه الوصية :

« إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكيِّ فلا تكوِيَنَّه أبداً .. !! » .

ولقد كان من حقّ حكام الأقاليم قبل عهده أن يُنفذوا حكم القتل فيمن يشاءُونَ عدلاً ، أو ظلماً ..

فلمَا وَلِيَ ، حرمَهم هذا الحقَ ، وأصدر أمره ألا ينفُذ حكم القتل في أحد ، حتى يطَّلع بنفسه على قضيته ، ويرى فيها رأيه ..

وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلاً :

« والله لا أصلح الناس بهلاك ديني » !!

* * *

على أن رِفقه وأناته اللذين وسعا أمَّته جميعاً ، لم يكونا مطمعاً يُغري باستضعافه أو مخادعته ، فقد كان هناك الحزم اليقظ لكل من تُسوِّل له نفسه عبثاً ، أو فتنة .. !!

ولقد كانت فضائله كلها مُهَيَّأَةً على الدوام لحماية مواقعها ، وأداء دورها ..

فلا يجيء موقف يتطلب الرحمة ؛ فيجدها غافية .. ولا موقف يتطلب الحزم ؛ فيجده كَلِيلاً .. !!

ولقد نراه مع عامَّة الناس ينتفض كالعصفور تواضعاً وحناناً ورحمة ..

ثم نراه مع الجبارين أسداً يزأر .. وجَلالاً يُهاب .. !!

بعد أن يئس الأمراء الأمويون من استرداد إقطاعاتهم وثرواتهم بالضراعة والحيلة ، أغرَوْا واحداً منهم وهو ـ عمر بن الوليد بن عبد الملك ـ بالكتابة إليه مهدداً متوعداً .. فكتب يقول :

« أما بعد ، لقد أزْريتَ بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرتَ بغير سيرتهم ، فقطعت ما أمر الله به أن يُوصل ، وعملتَ بغير الحقّ في قرابتك ، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلماً وجَوْراً وعدواناً .

فاتَّقِ الله يا بن عبد العزيز ، فإنك تُوشِك ألا تطمئن على مِنبرك » .. !!

وفي اللحظة التي يفرغ الخليفة فيها من قراءة هذا الخطاب المتسم بالسفه والطيش ، يتقدم خُلق الحزم الصارم ليؤدي دوره تجاه الباطل الذي يتوعد الحقّ باسترداد سلطانه وبُهتانه .. !!

ويكتب أمير المؤمنين رَدَّهُ :

« من عمر أمير المؤمنين ، إلى ابن الوليد ..

سلام على من اتَّبع الهدى ..

أما بعد ، فعهدي بك أنك كنت جباراً شقيًا ، والآن تكتب إليّ تتهمني بالظلم ، لأنني حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين ما هو حقّ للضعيف والمسكين وابن السبيل .. !!

ألا إن شئت أخبرتك بمن هو أظلم مني وأتْرَكُ لعهد الله .. !!

إنه أبوك الوليد ، الذي حين كان خليفة للمسلمين استعملك عليهم صبيًا سفيهاً تحكم في دمائهم وأموالهم .. !!

فويل لك ، وويلٍ لأبيك ـ ما أكثر طُلابكّما وخُصَماءَ كما يوم القيامة .. !

وأظلم مني وأترك لعهد الله ، من استعمل الحجاج بن يوسف ، يسفك الدم الحرام .

وأظلم مني وأترك لعهد الله ، من استعمل يزيد بن أبي مسلم على جميع المغرب . يَجْبي المال الحرام .. ويسفك الدم الحرام ..

ألا رُوَيْدكَ يا بن الوليد . فلو طالت بي حياةٌ لأتفرغَنّ لك ولأهل بيتك حتى أقيمكم على المحجَّة البيضاء .. !!! » .

لنضع خطابه السابق إلى "فرتونة السوداء" تجاه خطابه هذا إلى ذلك الأمير الأموي المتجبر ؛ لنرى في غير تعليق كيف كانت تعمل فضائل هذا الإنسان الباهر الجليل .. !!

إن الرجل الذي يجلس للناس على الأرض وهو خليفة ..

الإنسان ، الوديع ، العذب ، يتحول إلى إعصار مُدمدم أمام جبروت الباطل أنى يكون .. !!

ومثل هذا الموقف من الأمراء المتمردين . موقفه من إمبراطور الروم ..

لقد أُخبر أن أحد جنود الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية ، وكان مقاتلاً شديد البأس ، قد وقع أسيراً في أيدي الرومان ، وحُمل إلى الإمبراطور الذي حاول إكراهه على الخروج من دينه الإسلام ورفض الأسير .. فأمر الإمبراطور أن تُسْمَل عيناه ..

بلغ النبأ ـ أمير المؤمنين ـ فهبَّ حزمه الشديد ليعالج الموقف .

وحمل قلمه وكتب إلى ملك الروم :

« أما بعد ..

فقد بلغني ما صنعتَ بأسيرك فلان ..

وإني أقسم بالله ، لئن لم تُرسله إليّ من فورك لأبعثن إليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندي » . !!

ويعود الأسير إلى وطنه وأهله .. !!

* * *

وهو ذو يقظة شاملة ، لا تتجلّى في الإنجاز وحده ـ بل في رؤية القضايا ، وإدراك الكليات والتفاصيل ..

ولو تتبعنا كتبه إلى ولاته لوجدنا من آيات يقظته وشمول نظرته وفطنته ما يبهر الألباب .

فلنقتنع ببعض فقرات من تلك الكتب .

* اتَّبعوا ما أحلَّ الله وحرِّموا ما حرَّم ، واعترفوا بحقّه تعالى ، واحكموا بما أنزل .

* افتحوا للمسلمين باب الهجرة ..

* دعوا الناس يتجّروا بأموالهم في البر والبحر ، لا تحولوا بين عباد الله ومعايشهم .

* أبيحوا أرض الحِمَى للمسلمين عامة ، وليكن حقَ الأمير فيها كحقَ واحد منهم ..

* الخمر باب الخطايا ، فحرِّموا كل مسكر ..

* كافحوا التطفيف في المكيال والبَخْس في الميزان ..

* لا تتجِروا وأنتم وُلاة ، فإن الأمير إذا اشتغل بالتجارة استأثر ، وأصاب ظلماً ، وإن حرص ألا يفعل ..

* لا تأخذوا من أموال الناس إلا الحقَ الذي شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله ـ لا فرق بين مسلم وأهل كتاب .

* ضعوا السُّخرة عن الناس ، وليكن لكل عمل أجرُهُ ..

* رُدُّوا المزارع لِما خُلِقَتْ له ، فإنما جُعلت لأرزاق المسلمين كافّة ..

* لا تتخذوا على أبوابكم حُجَّاباً يمنعون ذوي الحاجات والمظلومين ..

* اقمعوا صوت العصبية والقبلية ولا تدَعوا الناس يقول أحدهم ، أنا مُضَريّ ، ويقول الآخر : أنا يمني ؛ فالمؤمنون إخوة ..

* الخيل عُدة الجهاد ، فلا تدعوها تركض في غير حقّ ..

* امنعوا النساء أن ينشرن شعورهن ويخرجن نائحات وراء الموتى ..

* قاتلوا هواكم كما تقاتلون أعداءكم ..

* سدِّدوا المخالفين ، وبصِّروهم ، وارفُقوا بهم ، وعلِّموهم ، فإن اهتدوا كانت نعمة من الله وفضلاً .. وإن أبَوْا فَتَحَرَّوا الحقَ فيما تُنزلون بهم من عقاب ..

* أكثروا من دعاء الله بالعافية لأنفسكم ولمن ولاكم الله أمره ؛ فإن لكم في إصلاحهم أكثر مما لهم ، وعليكم من فسادهم أكثر مما عليهم ..

* تعاهدوا حُجَّابكم ورؤساء حرسكم وشُرَطِكم والعاملين معكم ، وأكثروا المسألة عنهم حتى تستيقنوا أنهم لا يرتكبون غشماً ولا ظلماً ..

* لا يأخذنَّكُم الزهو بنظر الناس إليكم ؛ ولا بحديثهم عنكم . وضعوا أعينكم على الذي هو أبرُّ وأتقى ، وأخلصوا لله رب العالمين ..

* اتركوا أعمالكم عند حضور الصلاة ؛ فإن من أضاع الصلاة كان لِما سواها أضيع ..

* تحرَّوُا الحقَّ ؛ ثم اعملوا به بالغاً ما بَلَغ بي وبكم .. حتى وإن ذهب بحياتنا وبمُهج أنفسنا ..!!

هذا نموذج من أوامره وتوجيهاته يكشف عن يقظة شاملة لتفكيره ومشاعره وإرادته . يقظة تعطي الجزئيات الاهتمام نفسه الذي تعطيه الكليات !!

وبهذا المنهج الذي يستمد من قداسته ، وفطنته ، وعزمه ، قطع ابن عبد العزيز طريقه وَثْباً ؛ متخذاً من الإنجاز وسرعة الحركة طابعاً لمسيرته المباركة ..

لقد كانت مسئوليته عن كل شيء واضحة وضوح الشمس ، ومشكلات الدولة والأمَّة لا تنتظر من يكشف عنها أو يفلسفها ، بل تنتظر من يواجهها بذمَّة وصدق وحسم ، ففيمَ إذن يكون تلفُّت أو انتظار .. ؟!

ومن هنا انطلق يُنجز ، وينجز ، وينجز ، مُعطياً كل مسئولٍ مسئوليته ، آمراً إياه إن يمضي بها في شجاعة وحكمة وأمانة .

أجل ، لقد كان ينهى ولاته عن أن يكونوا إمَّعات ، أو متواكلين هيَّابين ..

وإنه لَيرضَى أعظم الرضا عن ولاته حين يراهم مُقْبلين على مسئولياتهم في شجاعة ، مُنجزين إياها في حزم ؛ مُيَمِّمين وجوههم وأفئدتهم صوب الحقَّ وحده ؛ لا يعدلون به أحداً ، حتى الخليفة نفسه :

« إذا أرسلتُ إليكم أمراً يخالف الحقّ .

فاضربوا به الأرض ..

واستمسكوا بالحقّ وحده» !!!

وكان يعينهم على قهر التخوف من المسئولية بمنحهم قدراً كبيراً من اللامركزية ، والاستقلال ..

أرسل يوماً إلى أحد ولاته أمراً ، فأرسل الوالي يستوضحه ببعض التفصيلات ، فتجهَّم الخليفة وكتب إليه من فوره :

« أما بعد ..

فأراكَ لو أرسلتُ إليك : أن أذبح شاة وَوَزِّعْ لحمها على الفقراء .

لأرسلتَ تسألني : ضأناً أم ماعزاً . ؟

فإن أجبتُك .. أرسلت إليَّ تسألني :

كبيرة ، أم صغيرة ؟

فإن أجبتك ، أرسلت تسأل : بيضاء أم سوداء ؟!!

إذا أرسلتُ إليك بأمر ، فتبيَّن وجه الحقّ فيه ، ثم أمْضِه» .. !!

إنه لا يريد أن تتلكأ حقوق الناس وتتعثر في شكليات عقيمة .

إنه يجد نفسه مسئولاً عن كل خطأ ، أو مظلمة تبقى دقيقة من الزمان .. ومن ثم فهو يقطع الأيام وثباً وراء كل خطأ حتى يصلحه ، ووراء كل حقّ حتى يؤديه لصاحبه .. !!

وبمثل هذا الحسم والإنجاز ، كان يغير كل والٍ ، أو قاضٍ ، أو أمين ، أو رئيس شُرطة ، أو مسئول ، لا تثبت التجربة السريعة الصادقة أنه في مكانه .. وإذا خُدع في أحد فظنه للمنصب أهلاً .. ثم تبيَّن له أنه غير أهل ، لم يُنظِره لحظة تحت تأثير حرج أو مجاملة .

ولقد ملأت يقظته وإنجازه بلاد الدولة إعماراً وحياة ، وفجَّرت طاقات الناس تفجيراً .

وعلى الرغم من أنه كان يرى القدوة التي يقدِّمها للناس جميعاً تفعل فيهم فعل السحر ، وتجري من ضمائرهم وسلوكهم مجرى الدم في العروق ، فإنه مع ذلك لم يغفل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه .. فنراه يتنقل في مواطن كثيرة متخفياً ومتنكراً يسأل ، ويفحص .

ولم تكن في الحياة بأسرها متعة تشبع في روحه البهجة والغبطة مثلما يرى أو يسمع أن ظلماً قد دُحض .. وأن عدلاً قد نهض .. وأن حقا قد رُدَّ لصاحبه في غير جهد منه ، أو إلحاف !!

ركب يوماً في إحدى جولاته هذه ، مصطحباً معه مولاه "مُزاحِم" ، حيث خرجا إلى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين ..

وهناك راح ـ وهو متنكر في ثيابه ـ يسأل الغادين منهم والرائحين .

ومن بين هؤلاء رجل في إحدى القوافل ، اقترب منه ـ عمر ـ وسأله : كيف تركتَ الناس في بلدك .. ؟

فقال الرجل : إن شئت جمعتُ لك خبري ، وإن شئت بَعَّضته تبعيضاً . !!

فابتسم الخليفة ، وقال : بل اجمعه .. أي : أوْجِزه ..

قال الرجل :

« تركت البلاد ، الظالم بها مقهور .. والمظلوم منصور .. والغنيُّ موفور .. والفقير مجبور » .

وسارع ـ عمر ـ بالانصراف بعيداً عن مُحدِّثه قبل أن تشي به انفعالاته ودموع الشكر التي راحت تتحدَّر من مآقيه .

وولَّى مسرعاً ، مسرعاً ، وقلبه الشكور ولسانه الذُّكُور يضرعان إلى الله بآيات الحمد والثناء . والتفت إلى "مُزاحم" وقال له :

« والله ، لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل ، لأحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس » .. !!

■ ■ ■

الرّحيــل

« وإن أمُتْ ، فما أنا على صُحبتكم بحريص ..»

ثَقُلَت الدنيا على البطل .. كما ثقُل هو عليها ، فناءت تحت ضغط ورعه الصارم ، وعدله الحازم ..

لقد عقد عزمه على أن يحمل مسئولية الحكم بضمير "عمر بن الخطاب" في زمن مختلف جداً ، بل مُناقضٍ جداً لزمن "عمر بن الخطاب" .. !!

كان "ابن الخطاب" يحيا في امتداد عصر الوحي والنبوّة ، ومعه أعوان كثيرون على الحقّ والعدل ..

أما "ابن عبد العزيز" ، فيحيا في ميراث مُلْك عضوض ، وسنوات ترف وانحلال وضياع ، وليس معه على الحقّ أعوان إلا قلة نادرة تاهت في الزحام .. !!

* * *

ولقد نجح فيما عقد عليه عزمه نجاحاً لا يُعرف له نظير .. بيد أن هذا النجاح الخارق تمَّ على حساب كل ذَرَّة ؛ بل كان جُزَيْء من ذرة في عافيته وحياته ..

وحين نستعرض "برنامج" يوم من أيام حياته ، لا يأخذنا العجب لقصر مدة خلافته وعمره ، بل يأخذنا العجب لأنه بكل هذا الجهد المميت ، استطاع جسمه أن يتحمل ويقاوم ويستمر في الحياة ـ على هذه الصورة ـ عامين وخمسة أشهر .. !!

إن الجسد الذي كان ـ قبل الخلافة ـ يحيا ، وتترعرع خلاياه على أهنأ ما في الدنيا من غذاء ونعيم ، حُرِم فجأة ـ لحظة استخلاف صاحبه ـ لا من ذلك النعيم فحسْب ، بل من المقومات الأساسية واللازمة لحفظ الحياة ، مجرَّد الحياة ..

ثم هو مع هذا ، لا يبذل جهداً متكافئاً مع فاقة صحته ، وضمور جسده ، بل يبذل جهد رجل يرى نفسه مسئولاً مسئولية مباشرة وكاملة عن كل فرد من مواطني دولته العريضة المترامية .

ثم هو لا يعيش المشكلات الطاحنة للأمّة والدولة فحسْب ، بل يعيش في استغراق رهيب مشكلته مع نفسه ، ومع الموت ، ومع المصير غداً بين يَدَيِ العليِّ الكبير .. !!

فهو ـ كما قال واصفوه ـ يرتجف دوماً ويبكي ، وكأنَّ النار لم تُخلق إلا له .. !!

يرحمك الله أبا حفص .. !!

من أيِّ شيء تخاف .. ؟

ولمن جنات الله ، وخُلْدُه ..؟

ولمن رضوانه ومجده .. إذا لم تذهب أنت منه بالنصيب الأوفى .. ؟

لكنها ـ يا بن عبد العزيز ـ شيمَة الذين يقدُرون الله حقّ قدْره ..

أجل .. فما كان للقديس ذنب يخافه ، ولا تفريط يُحاذره .

إنما هو جلال الله ، تجلّى منه في روحه ومْضة ، فجعلته دكًا . وخرَّ منها صَعِقًا .. !!

* * *

لقد عاش فترة خلافته ـ تسعة وعشرين شهراً .. وكأنها تسعة وعشرون قرناً .. !!

وفي كل دقيقة ، كانت روحه وأعصابه وعافيته تُعطي جُهْدَ عام ..

إن التغيير الهائل الذي أراده للدولة وللأمّة ، كان يتطلب لو سارت ريحه رُخاءً جيلاً أو جيلين ، فأبى إلا إتمامه في الأيام الباقية له على الأرض ، وبين الناس ..

وأيُّ تغيير كان ؟ ..

إنه تغيير لا يتطلب خليفة واحداً ، بل عشرات من الخلفاء ، يحمل كل منهم روح رسول . !

إنه يريد أن ينقل إلى دنيا الترف والفساد والردَة ، عصر الوحي والنبوّة .. ثم هو لا يريد أن ينقله إلى نظام الدولة والمجتمع فحسْب .. بل إلى أفئدة الناس ، وضمائرهم ، وسلوكهم .. !!

* * *

من هذه الصورة السريعة ، نلمح الأعباء الخارقة المهلكة التي حملتها روحه وجسده في تَفانٍ رهبانِي ، واستبسال عظيم ..

إن بعضاً منها يكفي لتصديع الجبال ..

فكيف بها مجتمعة ؟

ثم كيف بها إذا اخترقت طريقها الأرْزاء .. ؟

أجل ، فبينما الفدائي العظيم ماضٍ في طريقه ، إذا به يفقد أحب الناس إليه ، وأحْناهم عليه ، وأوفاهم له ، وأبرّهم به ..

* أخوه "سهل" .

* وابنه "عبد الملك" .

* ومولاه "مُزاحم" .

رحلوا عنه تِباعاً .. وتركوا مكانهم حوله شاغراً ، إلا من الذكرى التي تثير الألم والشجَن .. !!

إنه لم يفقد فيهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ الأخ ، والابن ، والرفيق .. بل فقد فيهم أعوانه على الحقّ ، والنماذج الصحيحة لفضائل عصر الوحي الذي شَغَفَه حبًا وإجلالاً .

ولقد راح يُحس أن ذهابهم إرهاصٌ بقرب ذهابه .. وأن رحيلهم أذانٌ بقرب رحيله ..

أفلا يهدأ إذن ويستريح ؟؟

لا ، بل راح يضاعف الجهد ، لينجز العمل قبل أن يرفع مَراسِيَه ويُبْحِر .. !!

راح يتفوق على ما عهد البشر من طاقة ومقدرة ، وقد تملكته الرغبة في استشهاد نبيل .. !!

لم يعد يُؤرّقه ولا يعنيه سوى أن يجيء حينه ، ويده القوية الأمينة ممسكة براية الله عزيزة ظافرة ، يقول لربه حين يلقاه :

«رَبِّ ، هذه رايَتُك لَم أُسلمها ..
ووديعتُك ، لم أَخُنها !! .. » .

* * *

وبينما هو في عنائه ، وعظمة جهاده وبلائه ، كانت هناك مؤامرة تُحاك ، وجريمة تُدَبَّر ..

فبينما مرت الشهور التسعة والعشرون على الجموع كأنها حلم سعيد ..

كانت كل دقيقة منها كابوساً خانقاً مرهقاً للأمراء والسادة ، وذوي الامتيازات الظالمة التي داستها أقدام موكب الحقّ الذي قاده أبو الشعب ، وأمير المؤمنين .. !!

هنالك ائتمروا به .

وكما تُحدِّث بعض كتب التاريخ ، دَسُّوا له السم في الطعام .. !!

على أن قوة روحه لم تخذله قطُّ . فراح يسابق المنية في إنجاز ما يستطيع إنجازه ، ويقول :

إن لله شرائعَ وسننا ، إن أعِشْ أعلمكموها وأحملكم عليها ..

وإن أمت ، فما أنا على صحبتكم بحريص » .. !

أجل .. إنه لا يربطه بالحياة الدنيا إلا الرسالة التي حملها في عنفوانٍ وتُقى .. وأعطاها حياته في إخلاص وتَبتُّل .. !!

لكنّ الآخرة سرعان ما تُرسل إرهاصها وبشائرها في صورة شوق عارم يأخذ إلى الله قلبه وروحه ..

لقد تأججت أشواقه إلى لقاء الله ، وتركزت في قرب هذا اللقاء كل أمنياته وضراعاته ، وصار دعاؤه المفضل :

« اللهم اقبضني إليك غيرَ مُضَيّع ولا مُفَرِّط » .

بل إنه ليرسل في طلب "عبد الله بن أبي زكريا" ، وكان شيخاً عابداً صالحاً ، معروفاً بأنه مستجاب الدعاء .

وحين يأتيه يسأله في إلحاح أن يدعو الله له كي يُعجِّل بلقائه .. !!

إلى هذا المدى راحت أشواقه تدفع زورق حياته إلى المرفأ السعيد ..

وأمر أن تُشترى له قطعة أرض بدير سمعان ، تكون لجسده مَثْوًى وقبراً ..

وإذ كان يأمر بشرائها ، قال له بعض أصفيائه :

« لو ذهبت إلى المدينة ، فإن أدركَكَ الموت بها دفنت مع رسول الله وصاحبيه .. » .

فإذا هو ينتفض كالطلقة المقذوفة ، ويقول :

« والله لأنْ يُعذبني الله بكلِ عذاب دون النار ؛ فإني لا صَبر لي عليها ، لأحبّ إليَّ من أن أرى نفسي لهذا المقام أهلاً » .. !!

* * *

واشتد به المرض ..

وتحولت الملايين من أبناء أمَّته إلى أطفال ، يوشك اليُتْم أن يحيق بهم حين يفقدون أباهم :

الجياع الذين شبعوا ..

والعُرَاة الذين اكتَسَوْا ..

والخائفون الذين أمِنُوا ..

والمستضعفون الذين سادوا ..

واليتامى الذين وجدوا فيه أباهم ..

والأيامى اللائي وجدن فيه عائلهن وأخاهن ..

والضائعون الذين وجدوا فيه ملاذهم ..

والتائهون الذين وجدوا فيه دليلهم ..

كل هؤلاء وأولئك .. كل الناس في شعبه وأمَّته سحقتهم أنباء مرضه الداهم ..

بل خارجَ أمَّته ، في الدنيا التي حوله ، والتي كانت سيرته تفوح فيها كالعبير ، تولاها الجزع والذهول ..

حتى إمبراطور الروم ، العدو اللَّدود لدولة العرب والإسلام ، يرسل كبيرا أساقفته ، وكان بالطبِّ خبيراً ، ويرجوه أن يصنع المستحيل لإنقاذ حياة الجار الطيِّب ، والخليفة العادل ، والقديس الجليل ..

لكن القديس الجليل رفض كل علاج وكل طب وكل دواء ، وراح مع أشواقه ، ينتظران لحظة النداء .. !!

* * *

ها هو ذا ، راقد في داره المتواضعة ، فوق حصيره المعهود .. ويدخل عليه ابن عمه "مسلمة بن عبد الملك" فيقول له :

« يا أمير المؤمنين ألا تُوصِي لأولادك ، فإنهم كثيرون وقد أفقرتهم ، ولم تترك لهم شيئاً » ؟!

ويجيبه عمر: "وهل أملك شيئاً أُوصِي لهم به ؟ أم تأمرني أن أعطيهم من مال المسلمين ؟ والله لا أعطيهم حقَّ أحد ..

وهم بين حالين : إما أن يكونوا صالحين ، فالله يتولاهم ..

وإما غير صالحين ، فلا أَدَعُ لهم ما يستعينون به على معصية الله .. ؟! » .

وأمره أن يدعو أولاده ، فجاءوا مسرعين .. اثني عشر ولداً وبنتاً ، شُعْثاً غُبراً ، قد زَايَلَتْ جسومَهم الشاحبة نضرةُ النعيم !!

وجلسوا يحيطون به ، وراح يعانقهم بنظراته الحانية الآسية . ويتحسس بيمينه ثيابهم البالية .. ويغالب دموعه ، فتغلبه ، فيواريها وراء كلماته التي راح يودّع بها أبناءه وأحباءه :

يا بنيّ ..

« إن أباكم خُيِّرَ بين أمرين ..

* أن تستغنوا ، ويدخل النار ..

* أو تفتقروا ، ويدخل الجنة ..

* فاختار الجنة ..

* وآثر أن يترككم لله الذي نزَّل الكتاب ؛ وهو يتولى الصالحين » .. !!

* * *

ثم بَرقَ بَصره والتمع مُحيّاه ، وصوَّب حَدقَتيه تِجاه الباب في اهتمام حفِيّ ، كأنما أبصر ضيوفاً أعزّاء ..

ثم ابتسم لأبنائه ، ولأمهم العظيمة وزوجته الوفية ، وأذِن لهم بالانصراف .

وبينما هم منصرفون عنه ؛ كان يحرك كفَّيْه ويشير بهما إشارة من يُحَيِّي ضيوفاً قادمين !!

أجل .. لقد كانت بَعثَةُ شَرَف من الملائكة المقربين ، جاءت تصحب القدّيس إلى حفل تتويجه المعدِّ له هناك .. في جنات الخلد وفردوس الله .. !!

وسمعه الذين وقفوا خارج حجرته يردِّد الآية الكريمة : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وجاء مستشاره العظيم وصديقه الحميم "رجاء بن حَيْوة" يسعى .. وألقى بنفسه إلى جواره ، وهمس في سمعه :

- كيف تجدك ، يا أمير المؤمنين .. ؟؟

لكنَّ أمير المؤمنين يسترسل في تلاوة الآية الجليلة الكريمة .

* * *

﴿ ... لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

* * *

وفجأة .. مال رأسه الذي طالما أثقلته هموم أمّته إلى وراء ..

مال ، ليستقر فوق وسادة ، حَشوها ليف .. !!

وأغمضت عيناه اللتان لم تغمضا قطّ عن حقٍّ لله .. ولا عن حقٍّ للناس . !!

وعاد المسافر إلى وطنه .. وآبَ إلى داره ..

مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصدّيقين ، والشهداء ، والصالحين .. وحَسُنَ أولئك رفيقاً !!

■ ■ ■

كتب المؤلف

١- من هنا .. نبدأ .
٢- مواطنون .. لا رعايا .
٣- الديمقراطية ، أبداً ..
٤- الدين للشعب .
٥- هذا .. أو الطوفان .
٦- لكي لا تحرثوا في البحر .
٧- لله ، والحرية (ثلاثة أجزاء) .
٨- معاً على الطريق محمد والمسيح .
٩- إنه الإنسان .
١٠- أفكار في القمة .
١١- نحن البشر .
١٢- إنسانيات محمد .
١٣- الوصايا العشر .
١٤- بين يَدَيْ عمر .
١٥- في البدء كان الكلمة .
١٦- كما تحدث القرآن .
١٧- وجاء أبو بكر .
١٨- مع الضمير الإنساني في مسيره ومصيره .
١٩- كما تحدث الرسول .
٢٠- أزمة الحرية في عالمنا .
٢١- رجال حول الرسول .
٢٢- في رحاب علي .
٢٣- وداعاً .. عثمان .
٢٤- أبناء الرسول في كربلاء .
٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز .
٢٦- عشرة أيام في حياة الرسول .
٢٧- .. والموعد الله .
٢٨- كما تحدث الرسول .

مراجع الكتاب

وجاء أبو بكر

الكامل : للعلاّمة ابن الأثير .
الطبقات الكبرى : للعلامة ابن سعد .
البداية والنهاية : ابن كثير .
الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر .
السيرة النبوية : ابن هشام .
تاريخ الخلفاء : السيوطي .
الأخبار الطوال : لأبي حنيفة الدينوري .
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : محمود شكري الألوسي .

بين يَدَيْ عمر

الكامل : للعلامة ابن الأثير .
الطبقات الكبرى : للعلامة ابن سعد .
أخبار عمر : للأستاذين علي الطنطاوي ، ناجي الطنطاوي .

وداعاً عثمان

البداية والنهاية : ابن كثير .
الإصابة ، في تمييز الصحابة : ابن حجر .
السيرة النبوية : ابن هشام .
أسد الغابة : ابن الأثير .
الطبقات الكبرى : ابن سعد .
الرياض النضرة : المحب الطبري .
حلية الأولياء : أبو نعيم الأصبهاني .
تاريخ الخلفاء : السيوطي .
الأخبار الطوال : الديَنوري .

في رحاب علي

البداية والنهاية : ابن كثير .
الإصابة ، في تمييز الصحابة : ابن حجر .
السيرة النبوية : ابن هشام .
أسد الغابة [الجزء الرابع] : ابن الأثير .
الطبقات الكبرى : ابن سعد .
الرياض النضرة : لأبي جعفر الطبري .
الأخبار الطوال : لأبي حنيفة الدينوري .
شرح الزرقاني على المواهب اللدنية
للقسطلاني [الجزء الأول] : الزرقاني والقسطلاني .
وقعة صِفِّين : نصر بن مزاحم .
فضائل الإمام علي : محمد جواد مغنية .

معجزة الإسلام
عمر بن عبد العزيز

سيرة "عمر بن عبد العزيز" : ابن عبد الحكم .
حلية الأولياء : أبو نعيم الأصبهاني .
تاريخ الطبري [الجزء السادس] : ابن جرير الطبري .
البداية والنهاية [الجزء التاسع] : ابن كثير .
الأخبار الطوال : أبو حنيفة الدينوري .
الأيام الأخيرة للدولة الأموية : عمر أبو النصر .
الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني .
عيون الأخبار : ابن قتيبة .
ديوان جرير .

فهرس المحتويات

الفهرس

تقديم ٦

وجاء أبو بكر

المقدمة ١١
لَيَبْلُغَنْ الكِتَابُ أَجَلَه ١٦
إن كان قال فقد صدق ٢٦
ولو خطفتني الذئاب ٤٨
ولَسْتُ بخيْركم ٥٩
حالبُ الشَّاة .. يا أمَّاه !! ٧٠

بينَ يَدَيْ عُمَر

مقدمة ٧٧
لَيُوسِعَنَّهم خيراً ٧٩
ما تقوم لربك غداً ؟ ٨٩
ألأنَّك ابن أمير المؤمنين ؟ ٩٨
ولا خير فينا إذا لم نَسْمعهَا ١٢٢
لَسْتُ بالخِبِّ ، ولا الخبُّ يخدعني ١٣٢
بَشِّر صَاحبكَ بغلام ١٤١

وَدَاعاً .. عثمان !

مقدمة ١٥١
أوَّلُ المُهاجِرين ١٥٤
الأَوَّابُ الرَّحيمُ ١٦٥
ثالثُ الخلفَاء ١٧٤
السَّنوات الصَّعبة ١٨٧
ضيف الجَنَّة الشهيد ٢١٥

في رحاب عليّ

مقدمة ٢٢٧
الابن والحفيد ٢٢٩
الرَّبيبُ والسَّابق ٢٤٠
البَطلُ والرَّجل ٢٥٤
الخليفةُ والقُدوة ٢٦٦
الرَّاحِلُ والمُقِيمُ ٣٠٤

معجزة الإسلام

عمر بن عبد العزيز

مقدمة ٣١٧
الطفولة المُرهِصَة ٣٢١
النَفسُ التوَّاقة ٣٢٩
التَجْربة ٣٣٦
التَركة القاتِلة ٣٤٤
البُشْرَى ٣٥١
المعجِزة ٣٥٧
المَنهج ٣٧٣
الرَّحيل ٤٠٤
كتب المؤلف ٤٠٩
مراجع الكتاب ٤١٠

رقم الإيداع ٩٤/٨٣٧٩